

جامعة محمد بوضياف المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

دور الاتجاهات القومية في تقويض الدولة العثمانية 1923/1876م (القوميتان العربية والتركية والجماعات اليهودية)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

- إشراف الأستاذ الدكتور :
مقلاقي عبد الله

- إعداد الطالب :
مراح هادي

الصفحة	الجامعة الأصلية	أعضاء لجنة المناقشة

السنة الجامعية: 2019 – 2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله.

إلى زوجتي وأولادي وإخوتي وأولادهم رعاهم الله.

إلى كلّ من ساهم في هذا البحث، ولو بكلمة تشجيع أو توجيه.

وإلى كلّ من هم في ذاكرتي وليسوا في مذكّرتي، من الذين عرفت وصادقت وأحببت.

إلى كل حاملي مشعل العلم والمعرفة.

إلى كلّ هؤلاء أهدي ثمرة هذا البحث .

مراح هادي

شكر وعرفان.

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾. التمل، الآية 19.

الشكر لله كله، فله الحمد والمِنَّة على توفيقه لنا، وتسديد خطانا لإتمام هذا العمل المتواضع.

أتقدّم بخالص الشكر والعرفان للأستاذ المشرف الدكتور مقلاتي عبد الله، الذي منحني شرف إشرافه على هذا البحث، والذي لم يبخل عليّ بما توفّر لديه من مادة علمية، وتوجيهاته القيّمة، التي كانت سنداً لي في إنجاز هذا العمل، أتمنى له المزيد من العطاء والتّجّاح في مسيرته العلمية الشريفة.

كما أشكر أساتذتي الذين درّسوني طوال مشواري الجامعي، وأخصّ بالذكر الأساتذة الذين ساهموا بتشجيعهم وتوجيهاتهم لي في مواصلة مسيرتي التّراسية.

وأشكر جزيل الشكر أصدقاء الدرب كل واحد باسمه والى كل من قدم لي يد العون والمساعدة.

وعلى الله قصد السبيل.

مراح هادي

– قائمة المختصرات

– باللغة العربية:

ط : طبعة

ع : عدد

م : ميلادي

ص : صفحة

ج : جزء

مج : مجلد

د . م : دون مكان

د . ت : دون تاريخ

د . د . ن : دون دار النشر

– باللغة الأجنبية:

F.O : Foreign Office

مَقْلِبٌ مَثَ

المقدمة:

التعريف بالموضوع:

لقد شكل سقوط الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، حالة عصبية عن الاستيعاب للعقل والوجدان العربي والاسلامي، وطيلة العقود التالية حاول البعض تحميل التيارات القومية العربية والتركية واليهودية المسؤولية التاريخية لما آلت إليه الدولة العثمانية في أخريات سنواتها قبيل السقوط والتلاشي.

وقد أدركت الدول الأوروبية منذ وقت مبكر محاولات القوميات المختلفة المنضوية تحت الحكم العثماني في التحرر والانفصال عنها، واللاحق بالدول الأوروبية التي قطعت شوطا كبيرا في التقدم والرفي، فقد كان هنالك عدد من الشخصيات العثمانية التي تنتمي الى قوميات عديدة، ممن تلقوا تعليما أوروبيا في المدارس والمعاهد والكلليات التابعة للدول الأوروبية وأخذ هؤلاء يحملون الفكر الغربي، ويسعون جاهدين لنشر أفكارهم بين شعوبهم لمطالبة الحكومة العثمانية بالسير نحو الحرية والديمقراطية. كما كانت الدول الأوروبية تقيم العلاقات الثقافية والسياسية مع هؤلاء لاستغلالهم في تنفيذ المخطط الاستعماري، ففي الوقت الذي نشطت فيه الحركات القومية من تركيا وعربية... الخ لتحقيق آمال شعوبها كان لهذه الدول الغربية أهداف أخرى ألا وهي استغلال هذه الحركات من أجل تفتيت الدولة العثمانية من الداخل وتوزيع ممتلكاتها بينها.

إن تركيبة الدولة العثمانية كانت خليطا من الشعوب والقوميات يحكمها العثمانيون الأتراك بمشاركة عدد من الموظفين والمستشارين الذين ينتمون الى عدة قوميات، وفي القرن التاسع عشر بدأت الشعوب المنضوية تحت الحكم العثماني تتطلع الى الغرب وتطوره ولاسيما الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا، والذين بدؤوا مختلفين عن أقرانهم المتعلمين في المدارس العثمانية، ومن الطبيعي أن ينقل هؤلاء أفكارهم التي تلقوها الى أبناء جلدتهم ونشرها في ربوع الدولة العثمانية، وبذلك بدأت جذور الحركات القومية تنمو في الأقاليم العثمانية، ونتيجة لدعم أوروبا نشطت الحركات القومية في الأجزاء الأوروبية من الدولة العثمانية.

وعرفت الدولة العثمانية تدهورا سياسيا واقتصاديا خلال القرن التاسع عشر، حيث تعرضت للعديد من الهزائم العسكرية في مواجهة روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية متتالية، وتكالبت هذه الأخيرة عليها الى جانب المخططات التآمرية بهدف النيل من سيادتها وانتزاع المزيد من ولاياتها.

ان هذه التبادلات والتغيرات كلها حدثت وفق مقتضيات مبدأ القوميات على أساس استقلال الأمم عن الدول الأجنبية التي تحكمها، واتحاد الأمم المجزأة والموزعة بين دول عديدة وتعبير أدق على أساس تكوين الدولة القومية.

ولذلك سعت الدول الأوربية الى مساعدة الحركات القومية وتقديم الدعم المادي والمعنوي للأحزاب والجمعيات القومية الداعية الى الانفصال عن الدولة العثمانية، وتحت ستار القومية نشأت العديد من الأحزاب والجمعيات لتحقيق أهداف وطموحات خاصة ليس لأبناء القومية دور فيها، ومن تلك الجمعيات على سبيل المثال: جمعية الاتحاد والترقي، والجمعية العربية الفتاة، وجمعية المنتدى الأدبي، ولكن يجب التمييز بين الاتحاديين الذين مارسوا سياسة عنصرية والأتراك الذين وقفوا في مواجهة تلك السياسة.

وسنحاول في هذا البحث التركيز على القوميات التركية والعربية واليهودية، وبيان دورهم في تقويض الدولة العثمانية، لأنهم أبرز القوميات فيها، فضلا عن أن غالبية سكان الدولة العثمانية من الأتراك والعرب.

دوافع اختيار الموضوع وأهدافه:

يرجع سبب اختياري للموضوع كونه يكشف دور الاتجاهات القومية في تقويض الدولة العثمانية (القومية العربية، القومية التركية، الجماعات اليهود)، وتهدف الأخيرة لتمرير مشروع إقامة وطن لهم في فلسطين، والسعي الى تفكيك وإفشال العلاقات بين العرب - الأتراك بسبب تطبيق الاتحاديين للسياسة العنصرية بفرض اللغة التركية على العرب، وهو ما أدى الى نمو الوعي القومي العربي في مواجهة سياسة الاتحاديين، على الرغم مما كان عندهم - أي العرب - من حرص شديد على تحسين العلاقة مع الأتراك، ومطالبتهم باتباع سياسة الحكم اللامركزية، كما يهدف البحث الى توضيح حقيقة مواقف السلطان عبد الحميد أمام أطماع الصهيونية في فلسطين، إذ شوهت الصهيونية صورته عبر وسائل الإعلام، ووصفته بعدة أوصاف (الظالم، المستبد، السلطان الأحمر...)

إشكالية البحث:

على ضوء ما تقدم ذكره يتضح بأن هذا الموضوع يطرح تساؤلات عدة تتعلق بدور القوميات في اسقاط الخلافة العثمانية، وسنحاول إيجازها في الاشكالية التالية: هل كان الصراع بين التيارات القومية العربية والتركية واليهودية سببا في ضعف الدولة العثمانية؟، ومن ثم انهيارها؟، أم كان نتيجة لطبيعة الدولة العثمانية؟ كدولة عالمية مترامية الأطراف، ومن ثم عجزت في الدفاع عن ولاياتها في آسيا وأوروبا وإفريقيا، ومما جعلها دائما عرضة للأطماع الأجنبية والثورات المحلية والحركات الانفصالية.

منهج البحث:

لقد فرضت طبيعة البحث اعتماد العديد من مناهج البحث في معالجة هذه الأطروحة وإعدادها، فنظرا للمسار التاريخي للاتجاهات القومية في تقويض الدولة العثمانية، فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي في سرد الأحداث وترتيبها ومناقشتها، وفقا لتسلسلها الزمني ثم تحليلها من اجل استنتاج الحقائق التاريخية، كما وظفنا المنهج

التاريخي المقارن قصد تبيان الفرق بين الاتجاهات القومية العربية والتركية واليهودية في معالجة بعض المسائل المرتبطة ببعض جوانب موضوعنا، كالنشاط السياسي والعسكري للعرب والتürk واليهود ضد الحكم العثماني.

مصادر البحث ومراجعته:

لقد حرصت على استقاء مادة هذا البحث من مظانها الأصلية فتمكنت من الحصول على بعض الوثائق من أرشيف السجلات البريطانية العام "Foreign Office Papers PuplicRecird Office London"، وهي تتضمن التقارير والمراسلات المتبادلة بين القناصل والسفراء البريطانيين من جهة، وبين السفراء ووزارة الخارجية البريطانية من جهة ثانية، وكان لهذه الوثائق أهمية بالغة في موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.

كما حرصت على الرجوع الى العديد من المصادر التي كتبها الفاعلون، شاركوا بدرجات متفاوتة في صنع الأحداث التاريخية التي تمثل موضوع هذا البحث أو عاصروها، مع الأخذ بعين الاعتبار بأنها ليست مما لا يرقى إليه الشك، فهي ربما تمثل وجهة نظر معينة، إلا أنها على أي حال أقرب الى الحدث، وتحمل في طياتها معلومات على جانب كبير من الأهمية، لذا فقد كان من الأجدر تحليلها واستنتاج الأفكار المتزنة منها، وأهمها المذكرات الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني، فقد أمدتني هذه المذكرة بمعلومات قيمة عن فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ويوميات هرتزل، حيث تعتبر هذه اليوميات بمثابة وثائق صهيونية أساسية على قدر كبير من الأهمية، لأنها تسجل آراء وأفكار وممارسات رائد الحركة الصهيونية، ومذكرات جمال باشا، وأحمد قصري عن الثورة العربية الكبرى، ومذكرات سليمان فيضي في غمرة النضال، ومذكرات علي حسان سلام، وكذا ما ورد في الصحف المعاصرة من حقائق وآراء وتصورات للفاعلين باعتبارها مرآة ذلك الزمان، وكذا بعض الوثائق والمنشورات والكتب المصدرية.

كما اعتمدت الدراسة على العديد من المراجع الحديثة ذات الصلة المباشرة بموضوع البحث. مثل ما كتبه محمد عزة دروزة "نشأة الحركة العربية الحديثة"، وأمين سعيد المعنون بـ "الثورة العربية الكبرى"، وباسيل دفاق "تركيا الفتاة"، وعبد العزيز الشناوي "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها"، وحسان حلاق في كتابيه "دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد عن العرش" و "موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية"، وجورج انطونيوس "يقظة العرب"، ومصطفى الشهابي "القومية العربية"، أرست رامزور "تركيا الفتاة وثورة 1908" ويشرح الأخير في كتابه كيفية تكوين حركة تركيا الفتاة عام 1889 وجهودها السرية والعلنية داخل الامبراطورية العثمانية وخارجها واتصال زعمائها بالسياسيين الاوروبيين وزعماء المحافل الماسونية والحركة الصهيونية، ولويس شيخو "السر المصون في شيعة الفرسمون" بدراسة الماسونية وعلاقتها بالصهيونية ودورها في ثورة الاتحاد والترقي عام 1908م وخلع السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، كذلك تم الاعتماد على بعض الصحف والمجلات والدوريات

الصادرة في الفترة من 1897 الى 1909م وقبلها وبعدها بقليل، ومن أهمها: الأهرام، تركيا الفتاة، الكرمل، لسان الاتحاد، المنار، المقتطف، نهضة العرب، الهلال.

صعوبات البحث:

خلال إنجازنا لهذا البحث، واجهتنا العديد من الصعوبات لعلّ من أهمها صعوبة الحصول على جميع الوثائق الأرشيفية الخاصة بالموضوع، نظراً لتوزيعها على العديد من دور الأرشيف (أرشيف السجلات البريطانية العام، الأرشيف الفدرالي السويسري وهي مصورة على ميكرو فيلم، وأرشيف مصر)، كما أن بعض الوثائق التي تحصلنا عليها من الأرشيف في الغالب مكتوبة بخط اليد يصعب على الباحث قراءتها، كما وجدنا بعض العلب الأرشيفية محفوظة على شكل ميكروفيلم غير واضحة تماماً، وكان موضوع بحثنا هذا متشعب القضايا والمخاور، وعليه وجدنا صعوبة كبيرة في الإلمام بجميع حيثيات الاتجاهات القومية في تقويض الدولة العثمانية، وإلى ذلك عمدنا الى الأخذ بالمعلومات التي تخدم السياق العام للموضوع، كما يمكن القول أن الإحاطة بجميع جوانب هذا الموضوع، كانت من الصعوبة بمكان، لأن الدراسة تتعلق برقعة جغرافية شاسعة شهدت العديد من التطورات التاريخية خلال المرحلة المدروسة، غير أن الاعتماد على المصادر الفاعلة في موضوع الدراسة وبعض الوثائق الأرشيفية، والمراجع التي اعتمدت على الأرشيف مكّنتني من التغلّب على تلك الصعوبات.

خطة الموضوع:

وقد اقتضت طبيعة البحث أن تقسم المادة العلمية الى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة

الباب الأول: فهو " القومية العربية " ويتناول عوامل نشأة القومية العربية من خلال مؤثرات داخلية وخارجية، وهي عبارة عن الاصلاحات العثمانية وأثرها على البلاد العربية، والمؤسسات الثقافية الغربية، ووسائل التوعية الثقافية والفكرية، كما تطرق البحث الى مظاهر القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، في الميدان الاجتماعي و السياسي.

كما أشرنا في هذا الباب الى الاتجاه القومي في التنظيم العربي السياسي في اتجاهين، الاتجاه الأول، المتمثل في الاتجاه الانفصالي عن كيان الجامعة العثمانية، ويمثله كل من جمعية بيروت السرية، والحركة الاستقلالية لعامي 1877 و1878، أما الاتجاه الثاني، والمتمثل في: اتجاه ضمن نطاق الجامعة العثمانية، ويمثله كل من حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وجمعية النهضة العربية، أما في عهد الاتحاديين فقد بينت محاولات العرب في التنظيم القومي العربي العلني والسري، حيث تم تأسيس جمعية الإخاء العربي العثماني، والمندى الأدبي، والجمعية القحطانية، والجمعية العربية الفتاة، وحزب اللامركزية، والجمعية الإصلاحية البيروتية، والجمعية الإصلاحية الدمشقية، وجمعية البصرة الإصلاحية،

وجمعية العهد، ومحاولة العرب في أن يلجى الاتحاديون مطالبهم في اتباع سياسة الحكم اللامركزي بهدف تحسين العلاقات العربية - التركية، وعقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913م واستمرارية رفض الأتراك للمطالب العربية، وقيام جمال باشا بحملة إعدامات على كل من اشترك في المؤتمر، وإصاق الاتهامات بحق هؤلاء الزعماء ووصفهم بالمتآمرين ضد الدولة العثمانية، ورغبة العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية.

أما الباب الثاني فهو بعنوان " القومية التركية "، ويتناول ظهور ونشأة النزعة التركية، كما تناول دور اليهود الدعوة الى الحركة القومية التركية، ومراحل تأسيسها، والقائمين عليها من أجل طمس الدور التاريخي للأتراك في حماية الإسلام، وكتابات الغرب الأوروبي عن القومية التركية ومدى تأثيرها في أفكار الترك، ثم الحديث عن الجمعيات والمؤسسات الداعية الى التتريك، ويتناول أيضا البحث نشأة جمعية الاتحاد والترقي وعلاقة أعضائها المؤسسين باليهود، ونشاطاتهم المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، وموقف الدولة العثمانية في مواجهة سياسة جمعية الاتحاد والترقي، والعمل السياسي داخل الدولة العثمانية، في العواصم الأوروبية وتحالفهم مع القوى الاستعمارية المعادية واليهود الذين تغلغلوا بين صفوف أعضائها لتحقيق غاياتهم وهو وضع الخطط للقضاء على الدولة العثمانية، من خلال استيلاء الاتحاديين على السلطة في الدولة العثمانية، وموقفها من مؤتمر باريس.

كما يتطرق الباب الثاني الى تبلور الجمعيات الوطنية التركية وأثرها على اختيار الخلافة العثمانية، حركة مصطفى كمال، ذلك اليهودي الذي تمكن من خلال تقمصه لدور البطل المناضل من خداع الشعوب الإسلامية العثمانية واستغلال ثقتها به للإجهاز على الرمح المتبقي من الدولة العثمانية حيث قام بإلغاء الخلافة الإسلامية وأعلن عن قيام الجمهورية التركية العلمانية وطرد الخليفة العثماني وجميع آل عثمان خارج البلاد، وتداعيات سقوط الخلافة على تركيا والأقطار العربية، وملامح الدولة التركية الحديثة..

أما الباب الثالث فهو بعنوان: " الجماعات اليهودية "، ويتحدث عن يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي ونشاطهم، وانتشار المحافل، ونشاطهم في الدولة العثمانية، وتمركزهم في سالونيك التي كانت تحت الحماية الدولية، وعلاقتهم بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي، ثم تأليب اليهود المعارضة التركية ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ونجاح المعارضة فيما يسمى بانقلاب 1908م، وتحقيق مطالب الاتحاديين من حيث إعادة العمل بالدستور ثم إبراز موقف السلطان عبد الحميد وردود فعل القوى الأوروبية.

ويتضمن الباب أيضا الحديث عن موقف الدولة العثمانية من اليهود والنشاط الصهيوني، وكيف أن اليهود تمتعوا في ظل الدولة العثمانية بسماحة، سيما حين استضافت اليهود اللاجئين الذين طردتهم محاكم التفتيش الاسبانية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ووفرت لهم الحرية الدينية وسبل الحياة الكريمة، ثم يتطرق الفصل الى ظهور طائفة الدونمة اليهودية في الدولة العثمانية، موضحا كيف ربطت وحدة الهدف نحو القضاء على الدولة

العثمانية بين هذه الطائفة اليهودية التي تظاهرت بالإسلام، وبين الصهيونية العالمية، سيما بعد أن فشلت جميع الجهود التي بذلها الزعيم الصهيوني هرتزل في سبيل إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

وأيضا عالج الباب الثالث أساليب التآمر التي هجتها الصهيونية ضد الدولة العثمانية حيث تضمن هذا الفصل دراسة لثلاثة من أهم الأساليب التي استخدمتها الصهيونية لإضعاف الدولة العثمانية، وصولا إلى إسقاطها لكي تتمكن من تنفيذ مشروعها في فلسطين، كان أولها ضغط الدول الاستعمارية التي ربطتها المصالح المشتركة بالصهيونية العالمية، ثم أوضح كيف كان أسلوب تشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني، وكذا أهم الأساليب التي استخدمتها الصهيونية وحلفاؤها للتأثير على الرأي العام في الدولة العثمانية بهدف إزاحته عن السلطة ليخلو الطريق أمامهم من أي عقبة تمنع تحقيق أطماعهم، وأخيرا تضمن الفصل الطرق التي استخدمها اليهود لإرباك اقتصاد الدولة العثمانية وإيقاعها تحت طائلة الديون لبيوت المال التي يسيطرون عليها اعتقادا منهم بأن ذلك سيخضع الحكام العثمانيين لرغباتهم، والوسائل التي كان لها دور كبير في تنفيذ أهداف الصهيونية في القضاء على الدولة العثمانية، ومن هذه الوسائل الماسونية، حيث وضحت الدراسة دور محافل هذه المؤسسة اليهودية في احتضان أخطر المنظمات السرية المناوئة للحكومة العثمانية ونجاحها، في اجتذاب كبار موظفي الدولة وأصحاب النفوذ في المجتمع العثماني واستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية، كما تعرضت الدراسة للنجاح الذي حققته سياسة إثارة العصبية العرقية داخل الدولة العثمانية في إحداث الفرقة والخصومة بين عناصر الشعب العثماني، ولا سيما بين العرب والترك اللذين يمثلان أكبر عناصر الشعب العثماني آنذاك، وأكثره فاعلية مما كان له أبلغ الأثر في تمزيق وحدة الدولة وإضعافها، ثم تحدث عن جمعية الاتحاد والترقي موضحا مدى سيطرة اليهود عليها ودورها في تنفيذ المخططات الصهيونية.

أما في آخر الباب، فتطرقنا الى تأثير الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد الثاني، وخصّص للحديث عن أثر الانقلاب على الولايات العربية، وإجراء الانتخابات داخل الولايات العربية وانتخاب الممثلين العرب في مجلس المبعوثان، ودور البرلمانيين العرب في مناقشة سياسة الاتحاديين العنصرية لفرض التتريك على الولايات العربية، ثم قضية اليهود وتأسيس المستعمرات وإدراك النواب العرب خطورة النوايا الصهيونية على مستقبل فلسطين

وفي الخاتمة رصدنا أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج وحقائق تاريخية تثبت دور الاتجاهات القومية في إسقاط الدولة العثمانية.

وختاما أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى جميع الذين ساعدوني على إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور مقلاتي عبد الله، الذي شرفني بتأطيره لهذا العمل، وتابع مسيرة البحث خطوة خطوة وصوب كثيرا من نقائصه. وأشكر كل الزملاء الذين تفضلوا بتزويدي بما توفر لديهم من مادة توثيقية. وكذلك

القائمين على دور الأرشيف، والمكتبات الذين يسروا لي عملية البحث، والاستفادة من الوثائق والدراسات المتعلقة بموضوعي، وأتمنى أن تكون الدراسة المنجزة خطوة لسدّ حلقة من حلقات التاريخ الدولة العثمانية في جانبه المتعلق بالبحوث التاريخية، فتحت نافذة وآفاقا للباحثين لإثرائها وأن تكون إضافة علمية نوعية تثري للمكتبة التاريخية الجزائرية ترقى إلى مصاف الدراسات التاريخية الأكاديمية الجادة.

المبابة الأول:

القومية العربية ودورها في تقويض الدولة العثمانية

- الفصل الأول: عوامل نشأة القومية العربية

1- الإصلاح العثماني وأثره

2- المؤسسات الثقافية الغربية وأثرها

3- وسائل التوعية الثقافية والفكرية

- الفصل الثاني: مظاهر القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

1- دوافع ظهور القومية العربية

2- مظاهر القومية العربية في المهجر

3- الاتجاه القومي في التنظيم العربي السياسي

4- التنظيم القومي العربي في عهد الاتحاديين

- الفصل الثالث: التنظيم القومي العربي وأبعاده الانفصالية

1- التنظيم العربي العلني

2- التنظيم العربي السري

3- مؤتمر باريس العربي

4- رغبة العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية

كانت التنظيمات السياسية التي واكبت ظهور وتنامي التيارات القومية بالدولة العثمانية، جديدة على المشهد السياسي العثماني، كأداة من أدوات التعبير وتنفيذ البرامج والمشروعات السياسية للتيارات القومية، رغم أن هذه التيارات لم تكن تعد أدوات التعبير عن نفسها ولكن بتنظيمات اجتماعية، عبر الجمعيات الأهلية والخيرية والعلمية، ويظهر هذا في التيار القومي العربي الذي عبر عن نفسه وطموحاته ومشروعاته خلال سنوات طويلة من خلال الجمعيات الأدبية والعلمية، وظل قادة ورموز هذا التيار رغم تنوعه حريصين على الدولة العثمانية رغم استثناءات منهم تبنت دعوات للانفصال عن الأتراك العثمانيين، أو إقامة دولة عربية.

- الفصل الأول: عوامل نشأة القومية العربية:

شمل التأثير الأوروبي على الدولة العثمانية جميع النواحي، خاصة بعد أن تجاوزت أوروبا المعوقات الظلامية، ودخلت العصر الحديث بنهضة علمية وصناعية ورأسمالية لتعيش طورا اجتماعيا سياسيا قوميا تمخض عن تبلور الدولة القومية الأوروبية، في الوقت التي كانت الدولة العثمانية عاجزة عن التعايش مع النظام العالمي السائد في القرن التاسع عشر المعروف بعصر القوميات، فأضحت بهذه الطبيعة والعالم من حولها يتغير عرضة للأطماع الأجنبية والحركات الانفصالية والهزائم العسكرية المتتالية، مما دفع النخبة العثمانية الحاكمة تسعى الى إصلاح وتحديث مؤسسات الدولة، فتبنت النموذج الأوروبي للتحديث على كافة المستويات.

1- الإصلاح العثماني وأثره:

أ- الإصلاح العثماني:

يطلق على القرن التاسع عشر في تاريخ الدولة العثمانية عهد الإصلاح العثماني، حيث أنّ الدولة قد سارت في طريق إصلاح مؤسساتها العسكرية والمدنية على النمط الأوروبي الحديث، وذلك كرد فعل لوقع الثقافة الغربية من ناحية، والحفاظ على تماسك الإمبراطورية خوفا من التفتت والانهيار من ناحية ثانية، وبعدها أصاب كيان الإمبراطورية الانهيار والجمود والتخلف من ركب الحضارة الغربية الحديثة، وضياح هيبته بعد ان كانت هي القوة المهيمنة على مسرح الأحداث العالمية.

وسوف أتناول في هذا الموضوع عهد التنظيمات العثمانية وما رافقه من إصلاح، وخاصة دوافع هذا الإصلاح وأثره على الولايات العربية العثمانية.

وقد امتدت يد الإصلاح إلى الجيش في أول الأمر، وخاصة فرق الانكشارية⁽¹⁾، والتي كانت عنصر قوة للإمبراطورية في بداية تكوينها ثم أصبحت في القرن الثامن عشر، عنصرا من عناصر ضعفها، وقد استطاع السلطان محمود الثاني (1808-1839م) أن ينجح في القضاء على الانكشارية في العاصمة والأقاليم، والتي كانت عقبة في طريق إصلاح الجيش على النمط الأوروبي الحديث، كما تم القضاء على حماة الانكشارية من رؤساء الطريقة البكتاشية الذين كانوا يتمتعون بنفوذ على السكان البسطاء أيضا⁽²⁾.

وقد أخذ السلطان بعد ذلك السير في طريق الإصلاح العسكري بمساعدة ضباط بروسين، كما قام السلطان بخطوة ثورية، حيث أرسل في عام 1827م أول بعثات طلابية إلى جميع أنحاء أوروبا لدراسة الفنون العسكرية والمدنية، وتعتبر هذه الخطوة بادرة أولية تبعها بعد ذلك إرسال أعداد كبيرة من الطلاب، حيث لعبوا بعد عودتهم دورا كبيرا في تطور الدولة العثمانية⁽³⁾.

وتبع ذلك اصدار البرامج الإصلاحية في الفترة الممتدة من عام 1826م إلى عام 1876م، وهي الفترة التي يطلق عليها أيضا عهد التنظيمات، والمقصود بالتنظيمات البرامج الإصلاحية التي شملت الشؤون الادارية والعسكرية والقضائية، والمساواة التامة لجميع المواطنين داخل الامبراطورية، وقد صدر في هذه الفترة ثلاثة برامج إصلاحية في عهد السلطانين عبد المجيد (1839-1861م) وعبد العزيز (1861-1876م)، صدر الأول والثاني منها في عهد السلطان عبد المجيد، أما الثالث فقد صدر في عهد السلطان عبد العزيز، كما رافق هذه البرامج مجموعة من الاجراءات الإصلاحية.

- البرنامج الإصلاحي لعام 1839م (خط شريف كلخانة):

في الثالث من نوفمبر من عام 1839م، وفي مستهل حكم السلطان عبد المجيد دعا الوزير الصلح (مصطفى رشيد باشا)، الوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة والسفراء الأجانب إلى قصر كلخانة، وقرأ أمام مجموع المدعوين في الميدان الكائن أمام القصر وعلى مسمع من السلطان (بيان كلخانة)، وقد جاءت هذه الاصلاحات في فترة النزاع بين السلطان العثماني والوالي محمد علي باشا والى مصر حول احتلال الأخير بلاد الشام، ولذلك

1- أول من أنشأ الانكشارية هو السلطان أورخان (1326-1359م) اذ جند ألفا من الأسرى المسيحيين تجنيدا دائما، وفي عهد السلطان محمد الثالث (1595-1603م) سمح للفلاحين والحرفيين الذين جاءوا إلى العاصمة من الأقاليم بالانخراط في سلك الانكشارية بعد أن كان ذلك محظورا عليهم.

2- لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني، ط7، دار الفارابي، 1980، ص 87. أنظر أيضا:

Holt, rinehart and winston, inc: **the middle east to-day u.s.a.** 1963, p 69.

3 - Lewis, B: **the emergence of modern tukey**, oxford, 1962, p 82.

تضمن البيان وعد من السلطان بتنفيذ الاصلاحات التي ينوى اجراءها في الدولة كي يضمن مساندة الدول الأوروبية في نزاعة الحاسم مع محمد علي باشا⁽¹⁾.

وتناول البيان تحديد ثلاث بنود رئيسية⁽²⁾ هي:

- أن يمنح السلطان الرعية أمنية الروح والشرف والمال بغض النظر عن معتقداتهم الدينية.

- ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

- ضمان طريقة صحيحة للجنندية مع تحديد مدتها.

وقد رافق هذه المهام الرئيسية الثلاث إيضاحات تفصيلية فيما يتعلق بها، فبالنسبة للبند الأول فقد نص على إجراء المحاكمات علناً، وتحريم مصادرة ممتلكات الجناة، وتشكيل مجلس استشاري لسن قوانين جديدة، أما بالنسبة للنظام الضرائبي فقد نص على تحديد مقدار الضرائب ووضع ميزانية ثابتة ومنع التزام جباية الإتاوات ونظام بيع الوظائف مع إلغاء أصول الالتزام⁽³⁾. وفي الميدان العسكري، رسمت خطوط عامة لإدخال التجنيد العسكري والدعوة إلى الجنندية بانتظام، وتخفيض مدة الخدمة العسكرية إلى خمس سنوات ثم إلى أربع سنوات، وتحديد عدد من يدعون إلى الجنندية من الأقاليم بنسبة عدد السكان⁽⁴⁾.

- البيان الاصلاحى لعام 1856م (خط شريف همايون):

صدر هذا البيان في عهد السلطان عبد المجيد بتاريخ 18 فيفري 1856م، وفي أعقاب حرب القرم (1853-1856م)، بين الدولة العثمانية وحلفاءها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا من جهة، وبين روسيا من جهة ثانية، وقبل أسبوع واحد من انعقاد مؤتمر باريس⁽⁵⁾. وقد خطت الدولة في هذا البيان خطوات إيجابية على مبدأ المساواة القانونية والمدنية لكلفة رعايا الدولة وحققهم في الخدمة العامة.

1 - عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، (د.د.ن)، القاهرة، 1969، ص 19.

2 - Vucinich Wayne: **the Ottoman Empire its record and legacy**, Canada, 1965, pp 160-161.

3 - Ibid, p 161.

4 - لوتسكي: المرجع السابق، ص 150.

5 - Miller William: **the ottoman empire**, London, 1913, p 298.

وكان وراء اصدار هذا البيان جهود بعض المصلحين الذين كان لهم يد فيه مثل (عالي باشا) الذي كان يشغل الرئيس الأول للمجلس الأعلى للإصلاح، ورئيس للوزراء، وكذلك (فؤاد باشا) وزير الخارجية⁽¹⁾.

وقد جاء في البيان الأمور التالية⁽²⁾:

- وعد السلطان باجراء اصلاحات شاملة في مجالات المالية والمواصلات والمعارف والزراعة والتجارة.
- اعلان المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف ومنع استعمال الألفاظ التي تحط من قيمة أهل الذمة وتأمين الحرية الدينية لأهل كل مذهب.
- تنظيم ميزانية الدولة عن طريق التقيد بتسجيل ايرادات ومصروفات الدولة بدقة وعناية في دفاتر وقيود مخصوصة.
- اقرار امتيازات الطوائف غير الاسلامية بعد اعادة النظر في تنظيمها من قبل الطوائف، على ان تتقدم كل طائفة إلى الباب العالي بمقترحات الاصلاح التي تتفق مع ما طرأ على الدولة العثمانية من رقى وتقدم.
- فتح المجال لكافة رعايا الدولة للمساهمة في خدمة الدولة عن طريق تعيينهم في الوظائف واستفادتهم من خدماتهم من خدمات الدولة التعليمية.
- وعد السلطان بالسماح للأجانب بالتملك في الدولة العثمانية.

- اقرار جميع التنظيمات التي وردت في خط عام 1839م.

ونلاحظ أن هناك خلاف بين بياني عام 1839م وعام 1856م، رغم أن البيان الأخير قد أقر جميع المبادئ التي جاءت في البيان الأول، إلا أنه اعتبر التزاما دوليا، وهذا ماورد في المادة التاسعة من معاهدة صلح باريس، التي عقدت في 30 مارس 1856م حيث ان السلطان لا يستطيع الغائه أو تغييره دون موافقة الدول الأجنبية، فاذا كان البيان الأول قد حرم الدبلوماسية الأجنبية من أية ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية فإن البيان الثاني كان وسيلة لمثل هذا التدخل وفتح ابواب الدولة العثمانية للغزو الرأسمالي والثقافي الأجنبي⁽³⁾.

1 - Vucinich Wayne: op. cit, p 93.

2 - Hurewitz J.C: **diplomacy in the Middle East vol. 1.** P 149-153.

3- لوتسكي: المرجع السابق، ص 159. أنظر أيضا: Vucinich Wayne, op. cit, p 64

- التنظيمات الجديدة لعام 1874م:

صدر هذا البيان في آخر عهد السلطان عبد العزيز (1861-1876م)، ففي الثالث عشر من ديسمبر من عام 1874م، طلب السلطان من الصدر الأعظم ندم باشا التأكيد على ما جاء في الخطوط السابقة والعمل على تأمين حقوق الأهالي والتزام العدل في معاملة جميع الرعايا دون استثناء، وقد نص البيان على فصل السلطتين: القضائية والتنفيذية، وصيانة الأحكام القانونية، كما أكد على إلغاء السخرة والمضايقات والازعاجات وإساءة استعمال السلطة كذلك أشار إلى استخدام أهل الذمة في أجهزة الدولة⁽¹⁾، وفي عام 1864م صدر قانون الولايات، وكان رئيس الوزراء فؤاد باشا ومدحت باشا مسئولين عن صدور هذا القانون، حيث أعاد تنظيم الإدارة المحلية⁽²⁾.

ومما يلاحظ على الإصلاح العثماني كان له سمات رئيسية تتمثل فيما يلي⁽³⁾:

- الاتجاه نحو المركزية في الحكم.

- الانتقال بالمجتمع من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع متطور حديث.

- الأخذ من الغرب في تنظيم الجيش، وفي نظم الإدارة والحكم.

ويبدو أن محاولة التجديد والإصلاح كانت ترمي إلى إقناع الدول الأوروبية بأن الدولة تسير في طريق الإصلاح وتحسين أحوال الرعايا من المسيحيين حتى تكف هذه الدول عن التدخل لحماية هذه الرعايا.

إن الإصلاح يتمثل بتحالف الطبقة البرجوازية الناشئة المتأثرة بالثقافة الغربية، مع السلطة العليا الممثلة بالسلطان، وكانت السلطة العثمانية ترحب بتأييد الطبقة المتوسطة لأن هدم الأوضاع الإقطاعية سيدعم مركزية الحكم داخل الدولة العثمانية (وليس غريباً أن نشبه ما حدث في الدولة العثمانية في عصر التنظيمات بما حدث في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر من تضامن الطبقة المتوسطة في غرب أوروبا لهدم الاقطاع وإقامة ملكية مطلقة⁽⁴⁾).

1- فليب جلاد: قاموس الإدارة والقضاء، مجلد 2، مطبعة بني لاغوداكي، الاسكندرية، 1891، ص 116-117.

2- عبد العزيز محمد عوض: المرجع السابق، ص 33.

3- السيد رجب حرار: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970، ص 43.

4- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914، دار الأنجو المصرية، القاهرة، 1963، ص 212.

إنَّ الطبقة التركية المثقفة والتي حملت لواء هذه الحركة كانت طبقة مصلحة، لكنها لم تكن ثورية بالدرجة الكافية، فبينما ادخلت نظام التعليم الأوروبي في عدة معاهد، بقيت المدارس القديمة دون أن يمتد إليها الإصلاح وبذلك تميزت الحياة الفكرية في الدولة بالازدواجية، وهي الحياة الفكرية المطعمة بالثقافة الغربية الحديثة، والحياة الفكرية التقليدية⁽¹⁾.

استمر الإصلاح في عهد عبد الحميد الثاني الذي دام مدة 33 عاما (1876-1909م). وقد شهدت هذه الفترة إصلاحات ثقافية واسعة النطاق في العاصمة وبعض الولايات وخاصة بلاد الشام، ومن ناحية أخرى اتسمت هذه الفترة بالنضال السياسي الذي نتج عنه اعلان القانون الأساسي عام 1876م ثم إعادة العمل به عام 1908م.

وكان من الممكن أن يستمر الإصلاح العثماني إلى آخر مدى لولا نشوب الخلاف الفكري بين السلطة الحاكمة بعد الانقلاب الدستوري عام 1908م، واستيلاء حزب الاتحاد والترقي على الحكم من ناحية، وبين القوميات في الدولة العثمانية وخاصة العرب من ناحية ثانية، ثم الخلاف العقائدي بين الأحزاب التركية المتصارعة على السلطة وخلافها حول مبدأ المركزية واللامركزية بالنسبة لحكم القوميات في الدولة العثمانية.

ب- أثر الإصلاح العثماني على الولايات العربية:

كان للإصلاح أثر واسع النطاق على ولايات بلاد الشام أكثر من غيرها من ولايات الدولة العربية في باقي أنحاء الدولة العثمانية، إذا قورنت بها، كولايتي بغداد والبصرة، حيث كان تطبيق التنظيمات فيها أقل سرعة وأقل شمولاً، كما أن تطبيق التنظيمات في الولايات البعيدة، كالحجاز واليمن، كان ضئيلاً جداً⁽²⁾، ففي بلاد الشام كان التأثير عاماً وخاصة في الناحية الإدارية والناحية الثقافية.

- الناحية الثقافية:

إذا عدنا إلى الوراء قبل عهد التنظيمات العثمانية، نجد أنَّ الدولة العثمانية لم تكن دولة علم ومعرفة، بل دولة فتح وحروب، كما أنها لم تكن دولة تنظيم وتجديد، بل دولة محافظة، همها الوحيد إبقاء الشيء على ما هو عليه، فلا سياسة تنمية اجتماعية أو اقتصادية أو تعليمية، كل هذه الأمور متروكة لأهل البر والإحسان وأرباب الخير، وكان من سمات التخلف والجمود أيضاً تحول الطريق التجاري (بين الشرق والغرب)، عن طريق البحر

1- Heyd Urziel: **Foundations of turkish nationalism**, london, 1950, pp 75-77.

أنظر أيضاً: محمد أنيس: المرجع السابق، ص 212.

2- ساطع الحصري: **البلاد العربية والدولة العثماني**، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1957، ص 81.

الأبيض المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح، وانتقال مركز الخلافة إلى الأستانه، وتحول محور الارتكاز في العالم الاسلامي اليها ونشاط حركة التأليف بين المؤلفين باللغة التركية⁽¹⁾، وإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطنة العثمانية في عزل البلاد عن الغرب خوفاً من مطامع الدول الأوروبية، وتأخر الحركة العلمية نفسها في بلاد الشام قبل الاحتلال التركي، كل ذلك يعطينا فكرة عما أصاب العرب من انخراط. فأصبح العلم في بلاد الشام منزوياً في أركان ضيقة محدودة، في الجوامع والكتاتيب والأديرة، لتقوم بتعليم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن والأبجد، وشيء من الحساب، مقابل أجر يدفعه الطالب نقداً⁽²⁾.

وفي عهد الإصلاح العثماني، أخذت الدولة العثمانية تهتم بالنواحي الثقافية في البلاد بالرغم من أن التنظيمات لم تنص على الناحية الثقافية أو التعليمية، غير أن عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، شهد توسيعاً كبيراً في إنشاء المدارس وأصبح للدولة سياسية تعليمية.

وقد تنوعت في هذه الفترة المصادر المهتمة بالنواحي الثقافية، فمنها ما كان سارياً قبل عهد الإصلاح وهي الكتاتيب. وقد بقي هذا النوع سارياً في بلاد الشام إلى ما بعد خروج العثمانيين منها عام 1918م، ويعود ذلك إلى أن الدولة عندما بدأت في إنشاء مدارس حديثة، تركت التعليم القديم على حاله واتجهت إلى إنشاء مدارس حديثة وفق نظام تعليمي جديد قائم بذاته⁽³⁾، بموجب نظام المعارف الصادر عام 1869م.

وقد تعددت مراحل المدارس الحكومية الحديثة إلى ما يلي:

- المدارس الابتدائية: وقد نص القانون أن تكون هذه المرحلة الزامية ومدتها أربعة سنوات يدرس الطالب مبادئ العربية واللغة التركية.

- المدارس الرشدية: والدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات باللغة التركية إلا أن الطالب يدرس اللغة العربية فيها⁽⁴⁾.

- المدارس الاعدادية: ومدتها ثلاث سنوات، ولا تدرس فيها اللغة العربية.

1- توفيق برو: القومية العربية في القرن التاسع عشر، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1965، ص 107.

2- محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة، ج 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1971، ص 123.

3- عبد العزيز محمد عوض: المرجع السابق، ص 253.

4- يوسف الحكيم: سوريا والعهد العثماني، ج 1، بيروت، 1964، ص 98.

- المدارس السلطانية: ولا توجد إلا في مراكز الولايات وتقسم الدراسة فيها إلى قسمين:

- القسم الأول: وهو القسم العالي والدراسة فيه لمدت ست سنوات.

- القسم الثاني: وهو القسم المعتاد، والدراسة فيه لمدة ثلاث سنوات.

ولغة الدراسة في كلا القسمين⁽¹⁾، هي اللغة التركية.

- المرحلة الخامسة: وهي المرحلة العالية ومركزها في العاصمة، وتشمل دار المعلمين والمعلمات، ودور الفنون المختلفة، أما في دمشق فقد أنشأت عام 1903م كلية عسكرية لتخريج الضباط، وكذلك كلية الطب⁽²⁾.

ورغم انتشار المدارس الحكومية بمختلف مراحلها سواء كانت العسكرية منها أم المدنية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلا أن السياسة التعليمية للدولة العثمانية جاءت لخدمة المركزية الإدارية، وربط التعليم في بلاد الشام بالعاصمة، كذلك إهمال اللغة العربية وهي اللغة القومية للعرب.

ويروي (محب الدين الخطيب) واصفا حالة التعليم ومركز اللغة العربية في هذه الفترة من خلال وصفه لمدرسته التي درس فيها فيقول: " وهي الثانوية الوحيدة، في دمشق ... وكانت لغة التدريس فيها هي اللغة التركية، حتى النحو والصرف في اللغة العربية كنا نتعلمه من كتاب باللغة التركية يسمى (المشذب) قرره وزارة المعارف العثمانية لمدارس الأناضول. فكان مفروضا على أبناء العرب، بل كان معلم اللغة العربية شيخا تركيا مسنا، أرسلوه إلينا ليعلمنا العربية في عاصمة العروبة والإسلام"⁽³⁾.

ويضيف قائلاً: " وكانت آمال النشئ العربي في هذه المدرسة وفي كل مدرسة للدولة العثمانية في البلاد العربية أن يخدموا لغة الترك تكلموا وإنشاء ليتولوا بعد ذلك وظائف الدولة في بلادهم والبلاد العثمانية الأخرى، وليعيشوا في ظل القومية التركية مثقفين بالثقافة التركية"⁽⁴⁾.

1- عبد العزيز محمد عوض: المرجع السابق، ص 225-257.

2- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 59.

3- محب الدين الخطيب: صلاح الدين القاسمي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1951. مقدمة.

4- المصدر نفسه، مقدمة.

كذلك شهد عهد عبد الحميد الثاني، تحولا في اللغة الرسمية لولايات بلاد الشام الداخلية، فبعد أن كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في المعاملات الرسمية داخل الولاية، حيث كان هنالك موظف (ترجمان) يساعد الوالي التركي في مخبراته مع الأقسام الإدارية في الولاية، حلت مكانها اللغة التركية⁽¹⁾.

وكان الاهتمام باللغة العربية من جانب الهيئات الشعبية، والأفراد في بلاد الشام كرد فعل من جانبهم تجاه سياسة التنظيمات العثمانية المركزية وانتشار اللغة التركية على حساب اللغة العربية، أول بادرة فكرية في حركة القومية العربية في بلاد الشام، وهي الفكرة التي أخذت تنمو وتزدهر لتصل إلى المفهوم القومي المتكامل الذي يركز على اللغة والتاريخ.

وقد تمثل الفعل العربي عند الأفراد والهيئات بتأسيس المدارس الوطنية الخاصة، كرد فعل لسياسة الدولة التعليمية من ناحية، ومنافسة المدارس الأجنبية الخاصة التي أخذت هي الأخرى بالتغلغل والانتشار من ناحية ثانية، وتعتبر المدارس الخاصة بنوعها: الوطنية والأجنبية، نواة إيقاظ الشعور القومي لكونها تهتم باللغة العربية، وتخرج المثقفين بثقافة حديثة.

وقد سمحت الدولة لمثل هذه المدارس الخاصة، فعرف نظام إدارة المعارف عام 1869م المدارس الخاصة بأنها المكاتب التي تحدث في بعض المحلات وتؤسس من قبل الجمعيات أو الأفراد سواء كان هؤلاء من رعايا الدولة أم الأجانب، واشترط النظام على هذه المدارس الأمور التالية⁽²⁾:

- يجب أن تكون شهادات الهيئة التدريسية في المدرسة الخاصة مصدقة من إدارة المعارف المحلية.
- يجب عرض جداول الدروس وكتب التعليم على إدارة المعارف كي لا تطالع في هذه المكاتب دروس مغايرة للأدب والسياسة.
- يجب الحصول على رخصة رسمية من إدارة معارف الولاية والوالي قبل فتح المدرسة الخاصة.

ومن أشهر المدارس الوطنية الخاصة في بيروت: أربع مدارس، كان يؤمنها الطلاب من مختلف الملل، وكان لخريجها أثر نضال في حركة الوعي القومي، وهي: (المدرسة الوطنية) التي أنشأها بطرس البستاني عام 1863م،

1- عثماني حر: الأهرام، 1913/4/26.

2- عبد العزيز محمد عوض: المرجع السابق، ص 263.

والمدرسة البطريركية التي أنشأها بطريك الروم الكاثوليك عام 1865م، ومدرسة الحكمة التي أنشأها المطران يوسف الدبس عام 1874م، والكلية العثمانية التي أنشأها أحمد عباس الأزهرى عام 1896م⁽¹⁾.

وفي دمشق تأسست جمعية المقاصد الخيرية عام 1878م بجهود الشيخ طاهر الجزائري والوالي مدحت باشا، فقد كان يرى الشيخ طاهر في انتشار الإرساليات الأجنبية الثقافية، تهديد الناشئة العربية بتربية غربية، فأخذ يقنع الوالي بإنشاء جمعية مهمتها إنشاء المدارس الإسلامية على غرار المدارس الأجنبية تدرس باللغة العربية، وقد تأسست الجمعية بشكل رسمي، حيث أخذت الحكومة تمدها بالمال وتخصص لها أبنية تفتح بها المدارس، وقد استبدلت عام 1882م بمجلس معارف الولاية من قبل الحكومة لتصبح هيئة رسمية⁽²⁾.

وقد أسهمت جمعية المقاصد الخيرية في الحركة التعليمية بمجهود كبير، ففي خلال ثلاث سنوات من عام 1878م إلى عام 1882م، زاد عدد مدارس دمشق ومعلميها ومعلماتها بمقدار $\frac{1}{2}$ المدارس و $\frac{1}{4}$ المعلمين والمعلمات و $\frac{1}{4}$ عدد الطلاب⁽³⁾.

- الناحية الإدارية:

اتجهت الإصلاحات الإدارية في بلاد الشام نحو المركزية، حيث كان من دوافع الإصلاح العثماني تطبيق المركزية الإدارية على جميع ولايات الدولة العثمانية المختلفة، وبموجب ذلك أصبح الوالي موظفاً من قبل السلطان قابلاً للتبديل في أي وقت، كما حرم الولاية من الصلاحيات العسكرية والمالية إذ عين موظفون منفصلون للنواحي المالية تابعين لوزير المالية في العاصمة، وهم (الدفتدار) وجباة الضرائب⁽⁴⁾.

أما السلطة العسكرية فقد فصلت عن السلطة المدنية، وذلك بتكوين جيش مرابط في بلاد الشام، مركزه دمشق، وهو جيش نظامي استدعى أفراداً للخدمة العسكرية الإجبارية بعد عودة بلاد الشام إلى الحكم العثماني عام 1840م وخروج محمد علي منها، وكان قوام هذا الجيش من العرب والأتراك، وكان يرأس هذا الجيش النظامي يتبع قائد الجيش الأول في العاصمة، والذي أطلق عليه اسم ناظر الحرية ورئيس أركان الجيش بعد إعلان دستور عام 1908م⁽⁵⁾.

1- المقتطف: المعارف في سورية، مجلد 7، ج 9، 1 أبريل عام 1883، ص 530-532.

2- مصطفى الشهابي: نشوء القومية العربية، القاهرة، 1959، ص 49-52.

3- المقتطف: المعارف في سورية، مجلد 7، ج 7، 1 فيفري عام 1883، ص 390.

4- لوتسكي: المرجع السابق، ص 152.

5- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 27.

وكان التجنيد في بلاد الشام يتم بطريقة القرعة على المكلفين بالخدمة العسكرية إلا أن المكلفين كانوا يثورون على السلطة عندما تحاول إجراء القرعة في بعض المناطق وخاصة بين الدروز والبدو، ففي عام 1910م ثار كل من الدروز في حوران والجبل كما ثارت متصرفية الكرك لنفس الغرض⁽¹⁾، وقد استطاعت السلطة العثمانية أن تجند من بلاد الشام أثناء الحرب العالمية الأولى، ربع مليون شخصاً⁽²⁾.

أما السلطة القضائية فقد امتدت لها يد الإصلاح وانفصلت أيضاً عن السلطة التنفيذية والسلطة العسكرية، وبموجب الإصلاح انتشرت (المحاكم المدنية) بعد صدور قانون (التجارة البرية والبحرية) عام 1879م في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وعلى أساس المركزية وكانت المحاكم العدلية على ثلاث درجات⁽³⁾:

- ابتدائية في جميع المدن.

- استئنائية في مراكز الولايات.

- وعلى رأس القضاء تقوم محكمة التمييز (النقض) في العاصمة.

وقد استمدت التنظيمات العدلية من القوانين الفرنسية، وأقبل العرب على إتقان اللغة التركية لغة الدولة الرسمية، حيث أن المرافعات القضائية في بلاد الشام، ظلت قائمة باللغة العربية، مهما تصدر الأحكام القضائية، أما الأحكام التي ترفع إلى العاصمة كان يجب أن تكون باللغة التركية⁽⁴⁾، ومن ناحية أخرى بقى قانون الأحوال الشخصية خاضعاً لأحكام الشريعة الإسلامية، والتنظيمات الروحانية بالنسبة للطوائف الدينية الأخرى.

وبهذا يكون قد تم ربط السلطات العسكرية والقضائية والتنفيذية بالعاصمة وهو ما كان يهدف إليها الإصلاح من مركزية الإدارة.

وبموجب قانون الولايات الذي صدر عام 1864م تنظم الولايات في الدولة العثمانية وذلك بتقسيم بلاد الشام إلى ولايات، والولايات إلى سنحقيات (متصرفيات) والمتصرفية إلى أقضية والقضاء إلى نواحي، والناحية

1- تعتبر متصرفية الكرك نواة إمارة شرق الأردن التي تأسست عام 1922 بعد الحرب العالمية الأولى.

2- عبد العزيز محمد عوض: المرجع السابق، ص 148.

3- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 29.

4- المرجع نفسه، ص 33-35.

هي الوحدة الادارية الصغرى، ويحكم الولاية والى يساعده مجلس الولاية المحلى، والمتصرفية (متصرف) والقضاء (مدير) والناحية (مختار)⁽¹⁾.

وفي عام 1881م وكنتيحة لازدياد أهمية بيت المقدس، أنشأ الباب العالي سنجقية منفصلة هي سنجقي بيت المقدس تابعة للباب العالي مباشرة، وفي الوقت ذاته أنشئت متصرفية دير الزور لتنظيم العشائر اليدوية حول نهر الفرات، وفي عام 1882م أنشئت متصرفية الكرك لتنظيم ما وراء نهر الأردن، وفي نفس الوقت كانت بيروت تمتد وتزدهر من الناحية التجارية فقرر الباب العالي عام 1888م إنشاء ولاية جديدة في بيروت ضمت إليها سنجقيات (اللاذقية وطرابلس، وعكا، ونابلس، وصور، وصيدا، ومرجعيون)⁽²⁾.

أما جبل لبنان فقد استقل استقلالاً ذاتياً، وعرف بمتصرفية جبل لبنان إثر مذابح عام 1860م، وهي المذابح التي نشبت بين الدروز والموازنة في الجبل، وامتدت إلى دمشق، وقد اتخذت هذه المذابح طابعا طائفيا وطبقيا، وساعد على تنمية الخلاف بين الطائفة الدرزية والطائفة المارونية، الامتيازات الأجنبية والتدخل الأجنبي من قبل بريطانيا حامية الطائفة الدرزية، وفرنسا حامية الموازنة.

ففي عام 1861م وقعت الدول (فرنسا- بريطانيا- النمسا- روسيا- والدولة العثمانية)، على النظام الأساسي للبنان في القسطنطينية، وبذلك أصبح لبنان بدون الساحل منطقة ذات حكم ذاتي يتأهله حاكم مسيحي مستقل عن ولايتي دمشق وبيروت ويخضع للباب العالي مباشرة⁽³⁾. وأسس مجلس إداري تابع للمتصرفية مؤلف من اثني عشر شخصا شكل تشكيلا طائفيا من قبل الطوائف اللبنانية الست وهي: (المارونية، الدرزية، السنة، الشيعة، الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك)، وله مهمة استشارية وفي عام 1864م، وقعت الدول الكبرى وتركيا على النظام الأساسي للبنان بوصفة دستورا دائما بعد أن أجريت عليه تعديلات طفيفة، وبقي هذا النظام الأساسي للبنان بوصفة دستورا دائما بعد أن أجريت عليه تعديلات طفيفة، وبقي هذا النظام مطبقا في لبنان حتى عام 1914م عندما فرضت الدولة العثمانية الأحكام في بلاد الشام اثر نشوب الحرب العالمية الأولى الدولة الحرب.

وهكذا منذ عام 1861م وحتى جلاء الأتراك عن بلاد الشام عام 1918م كانت بلاد الشام مقسمة إلى ثلاث ولايات هي (دمشق- بيروت- حلب) وإلى أربعة سنجقيات مستقلة هي: (القدس- لبنان- دير الزور- الكرك).

1 - Vucinich Wayne: op. cit, p 95.

2- محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث، القاهرة، 1967، ص 132.

3- زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر، بيروت، 1971، ص 31.

ومما هو جدير بالذكر أن الآثار التي ترتبت عن الإدارة العثمانية الجديدة في بلاد الشام كنتيجة للإصلاح قد تحولت إلى عامل من عوامل اليقظة الفكرية والسياسية للأسباب الآتية:

- إن اشتراك العرب في تنظيم الجيش العثماني الجديد أصبح له أثر بالغ الخطورة لأنه أدى إلى ظهور طبقة عسكرية عربية لعبت دورا رئيسيا في العمل الوطني إلى جانب الطبقة العربية المدنية المثقفة ثقافة غربية حديثة (الأتلجنسيا)⁽¹⁾.

- إن موضوع الخدمة العسكرية خارج نطاق الولاية، أصبح نقطة خلاف مع الدولة العثمانية التي أرادت أن تكون الخدمة العسكرية داخل وخارج الولاية من اختصاص ناظر في العاصمة، وبمعنى آخر المركزية الادارية في الشؤون العسكرية، مثلما هي في الشؤون المدنية

- لم تطبق الحكومة العثمانية المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة العثمانية حيث أن الخدمة العسكرية اقتصر على المسلمين فقط، وظل المسيحيون مبعدين عن الخدمة العسكرية ويدفعون (البذل العسكري) وهي ضريبة بدل الخدمة العسكرية- وظلوا على هذا الوضع حتى صدر قانون عام 1909م في عهد الاتحاديين، حيث ألغيت بموجبه هذه الضريبة، ودعي المسيحيون للخدمة العسكرية⁽²⁾.

- ومن ناحية أخرى، كان ابعاد المسيحيين عن الخدمة العسكرية وانحصار الوظائف الادارية بين المسلمين تقريبا، جعل المسيحيين يتجهون إلى ميادين العمل الحر وخاصة التجارة، وقد شكلوا طبقة برجوازية تجارية لعبت هذه الطبقة دور الوسيط بين أوروبا وبلاد الشام، كما أتاحت لهم فرصة العمل من الاحتكاك بالحضارة والثقافة الغربية نتيجة رحلاتهم بين بلاد الشام والغرب الأوروبي، وفي نفس الوقت فإن وضعهم الاجتماعي الجديد جعل باستطاعتهم ان يرسلوا أبنائهم ليتعلموا بالغرب.

- وليس بغريب أن تصبح الطوائف الدينية في بلاد الشام مجالا خصبا للامتيازات الأجنبية، ومن ثم سببا مباشرا للغزو الثقافي الغربي وتأسيس المراكز الثقافية الغربية نتيجة لقصور الإصلاح العثماني في تطبيق المساواة التامة.

ويقول بهذا الشأن ساطع الحصري: "إن التنظيمات لم تغير تغييرا يذكر مواقف كل من المسيحيين والمسلمين في بلاد العربية نحو الدولة العثمانية، فقد ظل المسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها لكونها دولة

1- وهي تسمية غربية لهذه الطبقة الاجتماعية.

2- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 59.

الخلافة الإسلامية، وظل المسيحيون يشعرون بأن غريبة عنهم لأنها تعتبرهم رعايا ويتوجهون نحو الدول الغربية لأنها تحميهم في كثير من المناسب"⁽¹⁾.

ثم يصف الأثر السابق لقصور الإصلاح وأثر هذا القصور على الفكرة القومية العربية بقوله: "فكان على الفكرة القومية العربية أن تغلب على هذين الاتجاهين في وقت واحد، كان عليها أن تحول أنظار المسلمين عن الدولة العثمانية وانظار المسيحيين عن الدولة الأجنبية لكي تجمع كلمتهم حول العربية التي تستمد قوتها من اللغة والتاريخ"⁽²⁾.

ونتيجة لذلك كله أصبح المسيحيون عنصراً قيادياً في بداية الحركة القومية العربية حيث ظهر على صعيد الفكر العربي القومي النظرية القائلة: "أنه كان للعرب حضارة زاهرة قبل الاسلام، ثم تطورت وازدهرت في عصور الاسلام المختلفة دون أن يكون المسيحيون بعيدين عن كلا الحضارتين"⁽³⁾، كما أمنت بمبدأ (الدين لله والوطن للجميع)⁽⁴⁾. أي فصل الدين عن السياسة.

ونستطيع أن نخرج بفكرة عامة عن الإصلاح العثماني في القرن التاسع عشر، بأنه لم يعط الحقوق القومية للعناصر التي تتكون منها الدولة العثمانية من حيث العنصر واللغة، كما أنه فشل في تحقيق المساواة التامة بين المسلمين والمسيحيين، وبالتالي فشل في إيقاف الامتيازات الأجنبية وحماية الطوائف المختلفة، وإذا أضفنا إلى هذه العوامل عامل غزو الثقافي الغربي للدولة وبلاد الشام بشكل خاص، فإن مجموعة هذه العوامل كنتيجة للإصلاح العثماني أدت إلى إيقاظ الشعور القومي العربي تفاعلاً مع هذه النتائج مجتمعة.

2- المؤسسات الثقافية الغربية وأثرها:

العامل الثاني من عوامل نشأة القومية العربية، هو المؤسسات الثقافية الغربية وأثرها في إيقاظ العرب فكراً وقومياً. فإن فشل الإصلاح العثماني في إيقاف الامتيازات الأجنبية، وفرض الحماية على الطوائف المختلفة غير الإسلامية في الدولة العثمانية، قد أدى إلى نواحي عكسية تماماً، إذ أصبح المجال خصباً لهذه الامتيازات ويتمثل هذا المجال في قصور الإصلاح نفسه بتفريقه بين المسلمين وغير المسلمين من سكان الدولة العثمانية، ولجوء الآخرين إلى تنظيماتهم الطائفية الخاصة بهم من ناحية، ثم تطلعهم إلى الحمایات الأجنبية من ناحية ثانية.

1- ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 83.

2- المرجع نفسه، ص 83.

3- توفيق برو: المرجع السابق، ص 153.

4- جلال يحيى: العالم العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 200.

ونتيجة لذلك، أصبح النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى قيام الحرب العالمية الأولى، عهداً من عهود الغزو المالي والثقافي الغربي من تاريخ الدولة العثمانية وقد ترتب على ذلك ان أصبحت فرنسا وإيطاليا من حماة المذهب الكاثوليكي، وروسيا حامية المذهب الأرثوذكسي، أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد اعتبرت نفسها حامية المذهب البروتستنتي، وقد شاركها في ذلك بريطانيا التي اعتبرت نفسها أيضاً حامية للطائفة الدرزية واليهودية، ثم دورها الذي قامت به بالضغط على الحكومة العثمانية للاعتراف بالمذهب البروتستنتي (ملة) في الدولة⁽¹⁾.

ومن هذا المنطق أخذت البعثات الثقافية الغربية المختلفة تغزو بلاد الشام وتؤسس المراكز الثقافية فيها، ويعود تاريخ الإرساليات الثقافية لبلاد الشام إلى بداية القرن السابع عشر، وسبب ذلك هو وجود الأماكن المقدسة وأعداد كبيرة من المسيحيين بطوائفهم المختلفة، غير أن المؤسسات الثقافية الغربية في هذه الفترة تمتاز بأنها قليلة العدد وضعيفة التأثير من الناحية الثقافية، حيث اتخذت لها طابعاً تبشيرية فقط⁽²⁾، كما أن هذا النشاط كان مقصوراً على البعثات التبشيرية الكاثوليكية.

غير أن القرن التاسع عشر، شهد عصر الانطلاق والتنافس بين الإرساليات في تأسيس المراكز الثقافية التي بلغت الذروة بعد منتصف هذا القرن في بلاد الشام عامة وفي بيروت ومتصرفية لبنان خاصة، على أثر مذابح عام 1860م وانتهاء النظام الخاص في لبنان بكفالة الدول الكبرى، وكانت هذه المنافسة قد بلغت أشدها بين البعثات الفرنسية الكاثوليكية وبين البعثات الأمريكية البروتستنتية بوجه خاص.

وتبدأ هذه الانطلاقة في فترة الحكم المصري لبلاد الشام الذي إمتد من عام 1831م إلى عام 1840م. ففي هذه الفترة الزمنية أخذ إبراهيم باشا يتبع سياسة تعليمية علمانية تهدف إلى إنشاء المدارس الحديثة على النمط الغربي ونشر الثقافة الغربية في بلاد الشام⁽³⁾، وتعتبر هذه السياسة خطوة مكملية للمبادرة الإصلاحية التي انطلقت في مصر على يد محمد علي باشا في تكوين الدولة الحديثة في مصر، ومن هذه الفكرة أخذ إبراهيم باشا يشجع البعثات الأجنبية الثقافية في القدوم إلى بلاد الشام⁽⁴⁾، وقد ترتب على هذه السياسة الأمور التالية:

1- عبد اللطيف الطباوي: نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سوريا، مجمع اللغة العربية، م42، ج4، دمشق، 1967، ص 778.

2- شاعر مصطفى: القصة في سوريا، القاهرة، 1958، ص 20-21.

3- وتدل الوثيقة التالية على سياسة إبراهيم باشا العلمانية في بلاد الشام: "الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا، وأمر المذهب ما له دخل بحكم السياسة، فيلزم أن يكون كل في حالة ولا أحد يتسلط على أحد". من وثائق دار الوثائق التاريخية في القاهرة، نشرها عبد اللطيف الطباوي: المرجع السابق، ص 777.

4 - Yale William: the near east, u.s.a, 1968, p 164.

- عودة الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية من اليسوعيين والعازاريين إلى نشاطهم القديم بعد توقف دام ما يقارب من المائة عام، وقد اخذوا يعيدون فتح المدارس القديمة وإنشاء أخرى جديدة في سوريا ولبنان⁽¹⁾.
- دخول البعثات الأمريكية البروتستنتية في هذا المجال من النشاط التبشيري والثقافي منذ أوائل القرن التاسع عشر، وإدخالهم المطبعة الحديثة ذات الحروف العربية في عام 1834م إلى بيروت بعد أن نقلوها من جزيرة مالطة، وقد أخذت هذه المطبعة تطبع الكتب المدرسية لمدارس هذه الإرساليات⁽²⁾.
- وتعتبر حوادث لبنان عام 1860م نقطة تحول في تاريخ البعثات الأجنبية لبلاد الشام، ففي لبنان حدثت تطورات هامة منها:
- ترحل عدد كبير من اللبنانيين إلى بيروت من القرى والجبال المجاورة طلباً للأمان والاستقرار، كما تدفق الأجانب إليها للتجارة والتبشير فزاد عدد المدارس التي أنشئوها.
- وبعد هذه الحوادث زاد تغلغل النفوذ الأجنبي والثقافي بين هذه الدول الأجنبية والاهتمام بالمنطقة وخاصة فرنسا راعية المسيحيين الأولى في بلاد الشام، ونتيجة لذلك ازداد التنافس بين الإرساليات الكاثوليكية من اليسوعيين والعازاريين، وبين الإرساليات البروتستنتية الأمريكية منها والانجليزية.
- وفي خضم هذا التنافس بين الإرساليات فتح الباب للعديد منها: فوصلت بعثة (بوين طومسون) الانجليزية عام 1863م، ثم البعثة الروسية من راهبات (كازوروت) وكذلك بعثة (مسزموط) الأمريكية عام 1870م، وجاء المرسلون الأيرلنديون عام 1880م⁽³⁾.
- وقد أنشأ اليسوعيون الكاثوليك المدارس الابتدائية للجنسين في حوران، كما أنشأ العازاريون عدداً من المدارس في حلب عام 1873م، وفي حمص أيضاً منذ عام 1880م، وفي اللاذقية انتشرت المدارس الأجنبية الفرنسية منها والأمريكية والروسية، وقامت هذه المراكز بتخريج الطلبة من مسيحيين ومسلمين إلا أن الغالبية كانت من المسيحيين⁽⁴⁾.

1- جورج أنطونيوس: يقظة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، مطبعة الترقى، دمشق، 1946، ص 27.

2 - Yale William, op. cit, p 195.

3- توفيق برو: المرجع السابق، ص 115. شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص 3.

4- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 99-101.

وفي لبنان كان اليسوعيون أسبق من غيرهم الارساليات، حيث أنشأوا عام 1835م أولى مدارسهم في عینطوره، ثم أنشأوا عام 1839م مدرسة في بيروت وفي عام 1843م أنشأوا مدسة في غزير، وفي عام 1844م أنشأوا مدرسة أخرى في زحلة⁽¹⁾.

وفي فلسطين بلغت المنافسة أشدها بين البعثات الثقافية الانجليزية والروسية، حتى أن هذا التنافس الثقافي والتبشيري في القدس ورام الله وبيت لحم جعل بريطانيا تقف إلى جانب الدلة العثمانية في حركها مع روسيا خلال حرب القرم (1853-1856م)⁽²⁾.

وقد ظلت أعداد المدارس والمؤسسات الثقافية الأجنبية القائمة في بلاد الشام تنمو حتى وصل عددها إلى 38 مؤسسة في عام 1912م⁽³⁾. كما تطورت الجهود التي بذلها كل من الأمريكيين البروتستنت والفرنسيين الكاثوليك إلى انشاء الجامعات وكليات المعلمين والمعلمات، أما الإرساليات الانجليزية والروسية والايطالية وغيرها فقد اقتصر نشاطها على المدارس الابتدائية الحديثة فقط.

وفي هذا المجال من التعليم العالي، تطورت مدرسة (عييه) التي أنشأها الدكتور (كورنيليوس فان ديك) من المبشرين الأمريكيين عام 1846م إلى الكلية السورية الانجليزية في عام 1866م، وتعتبر هذه الجهود ثمرة الجهود التربوية التي قام بها الأمريكيون، وقد تطورت هذه الكلية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت حالياً، وقد عين (دانيال يلس) الرئيس الأول لهذه الجامعة، وعندما توفي عام 1902م عين ابنه (هوارد يلس) لها⁽⁴⁾.

وقد اتخذت هذه الكلية اللغة العربية لغة التدريس فيها في أول عهدها، لكن في عام 1880م أصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة التدريس فيها للأسباب التالية⁽⁵⁾:

- صعوبة إيجاد الكتب الجامعية باللغة العربية.

- تنوع الجنسيات التي تتمثل على أرض الجامعة.

- وتتخلف اللغة العربية ذاتها عن اللحاق بركب العلوم والآداب.

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 125-126.

2- عبد اللطيف الطباوي: المرجع السابق، ص 778.

3- مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العلمية، بيروت، 1953، ص 78.

4- المرجع نفسه، ص 90-100.

5- فليب حتي: لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة للطباعة، بيروت، 1959م، ص 512.

وأصبح لهذه الجامعة شأن عظيم في تخريج دفعات من المثقفين العرب الذين آمنوا بفكرة القومية العربية وشاركوا في النضال ضد الأتراك لتحقيق هذا الهدف.

ويكتمل جهود الأمريكيين بإنشاء جمعية (الفرنيس) كلية في رام الله، وأخرى في بيرزيت بفلسطين، وهما على غرار الكلية السورية في بيروت من حيث الاعتدال بالتبشير وحرية النزعة العلمية¹.

أما الفرنسيون الكاثوليك فقد أنشأوا عام 1847م في غزير مدرسة نقلوها إلى بيروت عام 1875م وحولوها إلى كلية تعرف باسم (كلية القديس يوسف)⁽²⁾، وهي أيضاً ثمرة الجهود التربوية الفرنسية في لبنان وفي عام 1883م اعترفت بها وزارة التربية الفرنسية، ووافقت على منحها مساعدة مالية سنوية لتفتح كلية للطب، وقد الحق بالجامعة معهد للدراسات الشرقية، ولهذا المعهد الشرقي مكتبة من أغنى مكتبات العالم في هذا الحقل، ويعنى هذا المعهد بالبحث والتنقيب والنشر على أسس علمية رفيعة لم تكن معروفة في الشرق، وفي عام 1853م الحق بالجامعة مطبعة⁽³⁾.

وتختلف هذه الجامعة عن الجامعة الأمريكية في أنها جعلت لغة التدريس فيها باللغة الفرنسية، ووضعت نصب أعينها نشر الثقافة الفرنسية كغيرها من المؤسسات الثقافية الكاثوليكية، في حين أن المؤسسات الثقافية البروتستنتية اهتمت في أحياء اللغة العربية والأدب العربي.

أ- النواحي الايجابية والسلبية من الاحتكاك بالثقافة الغربية:

ترتب على تواجد المؤسسات الثقافية الغربية والأمريكية في الولايات العربية نواحي ايجابية وأخرى سلبية:

وتتمثل النواحي الايجابية في الأمور التالية:

- ساهمت هذه المراكز الثقافية في نشر الثقافة الغربية من ناحية، وإيقاظ الشعور القومي من ناحية ثانية، ولذلك بالاهتمام باللغة العربية وآدابها في الوقت الذي كانت فيه اللغة التركية هي لغة التعليم في المدارس الحكومية في بلاد الشام⁽⁴⁾، ويعود الفضل في الاهتمام باللغة العربية وآدابها إلى البعثات البروتستنتية والأرثوذكسية، منذ عام 1899م انتخب المطران (دوماني) البطريك العربي خلفاً للبطريك اليوناني المتوفي في انطاكية في نفس العام،

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 129.

2- جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص 36.

3- فليب حتي: المرجع السابق، ص 551.

4- محمد بديع شريف: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1959، ص 76.

وبذلك انتهت سيطرت اليونان على الطائفة الأرثوذكسية في بلاد الشام وتم تعريب الكنائس الأرثوذكسية، وقد وجدت هذه الحركة قبولا لدى روسيا القيصرية التي اعتبرت نفسها حامية لهذه الطائفة⁽¹⁾، فأخذت البعثات الروسية تفتح المدارس الابتدائية جاعلة التعليم باللغة العربية.

- تنافس البعثات الأجنبية فيما بينها في انشاء المراكز الثقافية، وخاصة بين البعثات الأمريكية والانجليزية البروتستنتية من ناحية، والفرنسية الكاثوليكية من ناحية أخرى، مما أدى إلى الاكثار من هذه المراكز الثقافية المختلفة الهويات واذا صحت رواية (كورنيليوس فان ديك) المبشر الأمريكي، فإن هذه الرواية تعطينا دليلا على مدى هذا التنافس، يقول فن ديك: "أنه كان راكبا دابته وتوجها إلى إحدى القرى اللبنانية"، ولما سأله قروي عن وجهته أجابه: " بأنه ذاهب إلى ذاهب إلى القرية ليفتح مدرستين" فاستغرب القروي وقال له: " وهل قريتنا الصغيرة بحاجة إلى مدرستين؟ " فأجابه فان ديك قائلا " أينما يذهب فان ديك يتبعه الجزويت"⁽²⁾.

وبالنسبة للبعثات الفرنسية، فقد اهتمت بنشر اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، إلا أنها ساهمت في اليقظة الفكرية بطريقة غير مباشرة، حيث أصبحت المبادئ الديمقراطية للثورة الفرنسية في متناول الدارسين في هذه المؤسسات الثقافية.

أما البعثات البروتستنتية الأمريكية منها والانجليزية، فقد كانت بحاجة إلى قاعدة بروتستنتية محلية، فأخذت تنشر هذا المذهب على يد المبشرين وكان من مبادئ المذهب البروتستنتي أن يتلى الإنجيل باللغة التي يفهمها الناس وان لكل أمة أن تقرأ بلغتها الخاصة، ولذلك قام البروتستنت بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية بمساعدة شخصيات وطنية مثل بطرس البستاني وناصيف البازجي، وبعد أن نقلوا المطبعة العربية الأمريكية من جزيرة مالطة عام 1834م إلى بيروت، ونتيجة لذلك كله، أخذت البعثات البروتستنتية والأمريكية خاصة بالاهتمام باللغة العربية وآدابها⁽³⁾.

- لمس المبشرون إهمال المرأة العربية في الحصول على نصيبها من التعليم، وعلقوا على ذلك أهمية كبرى، لأن تعليم المرأة في تطورهم ذو أثر في التربية لا يقل عن تعليم الرجل. لذلك أخذوا يفتحون المدارس للبنات لتأخذ

1- جورج كيرك: موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الإسكندراني، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1957، ص 158.

2- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1960، ص 16.

3 - Yale William, op. cit, p 195.

المرأة مكانها الطبيعي في المجتمع⁽¹⁾، وقد تم افتتاح أول مدرسة للإناث في لبنان عام 1830م، نتيجة لجهود المبشر الأمريكي (إيلي سميث) وزوجته، وهي أول مدرسة للإناث في تاريخ الدولة العثمانية⁽²⁾، وقد تبع ذلك افتتاح المدارس للبنات في جميع بلاد الشام على يد الهيئات الوطنية، والتبشيرية وكذلك الحكومية في أواخر القرن التاسع عشر.

ونتيجة لهذه الجهود أصبحت بلاد الشام تفوق الدولة العثمانية نفسها في ارتفاع نسبة التعليم، ومع ذلك فإن كل ما أنشئ من مدارس قبل إعلان الدستور العثماني عام 1908م بكل أنواعها ودرجتها، لم تكن تستوعب أكثر من ربع منهم في سن التعليم من بنين وبنات⁽³⁾، إلا أن هذا الحكم رغم حجمه الصغير في هذه الفترة، كان له أثراً كبيراً في إثارة الوعي القومي في بلاد الشام.

أدخلت هذه المراكز الثقافية إلى بلاد الشام، الاختراعات الحديثة التي ساعدت على نشر الثقافة والمعرفة، كفن الطباعة والنشر بالأسلوب العلمي الحديث وباللغة العربية كذلك إدخال فن الصحافة المصرية، والتأليف والترجمة وفتح المكتبات المرتبة ترتيباً حديثاً وإنشاء الجمعيات العلمية والأدبية في خدمة العلم والآداب، وبعث بعض الفنون الأدبية كالمرسح والتمثيل⁽⁴⁾.

لعبت هذه المؤسسات وخاصة المؤسسات الغربية إلى جانب المؤسسات الثقافية الوطنية التي أخذت تنتشر هي الأخرى، دوراً رئيسياً في بعث التراث الفكري العربي القديم من الأدب والتاريخ ويعتبر هذين العاملين من العناصر الأساسية للقومية العربية.

ومن النتائج البعيدة المدى لهذه المراكز انتقال إحياء اللغة العربية على يد المسلمين بعد أن أصبحت هذه المراكز تدرس باللغة الأجنبية منذ مطلع القرن العشرين فظهرت زعامة الحركة العربية إلى الوجود بزعامة إسلامية⁽⁵⁾.

- أما النواحي السلبية فإنها تتمثل فيما يلي:

- 1- ان قضية إنصاف المرأة في المجتمع الشرقي، وحققها في أخذ مكانها في صفوفه وخاصة حقها في تلقي العلم والمساواة مع الرجل، كانت قضايا طالب بها المفكرون العرب (المصريون والشاميون) منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن أهم هؤلاء المفكرون رفاعه رافع الطهطاوي، وقاسم أمين من مصر، وأديب اسحق، وعبد الرحمان الكواكبي من سوريا.
- 2- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 27.
- 3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 129.
- 4- أنيس الصايغ: تطور المفهوم القومي عند العرب، دار الطليعة، بيروت، 1961، ص 57-60.
- 5- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 97.

إن هذه المراكز الثقافية لم تكن في الحقيقة مراكز تبشير ونشر المعرفة الثقافية فقط بل كانت أيضا مراكز لها أهداف سياسية بنت عليها الدول الأجنبية سياستها الاستعمارية للمنطقة، وخاصة المراكز الفرنسية التي اهتمت بنشر الثقافة الفرنسية والتاريخ الفرنسي واللغة الفرنسية، وبالتالي محبة فرنسا في نفوس المواطنين، ومما يؤيد هذا القول ما جاء في كتاب اليسوعيين المثنوي في عهد الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان قولهم: "لقد كنا نعتمد على مساعدة فرنسا"⁽¹⁾، كذلك أفسح تقرير السفير الفرنسي في الأستانة عن تطلعات فرنسا في المنطقة، والتقرير مرفوع من السفير الفرنسي إلى وزير الخارجية (جيزو) عام 1843م، وجاء فيه ذكر النشاط التربوي الذي يقوم به اليسوعيون قائلا: "أن دور القوى الفكرية الحضارية في الشرق يزداد شأنًا وأهمية يوما بعد يوم، وأرى أن من واجبنا أن نهتم بهذه الناحية الحضارية الاهتمام كله، وأن نرعى التيارات الفكرية وهي لا تزال في طور نموها الأول، وأن تعمل على توجيهها، ذلك لأن لنا من القدرة والنفوذ في هذه البلدان ما يبرر رعايتنا هذه الناحية كي يكون نموها وتطورها في المستقبل مرتبطين بنا"⁽²⁾.

ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا كان لها أطماع سياسية أيضا، حيث اعتبرت بلاد الشام القنطرة التي توصل إلى الشرق الأقصى ومصالحها في الهند، أما بخصوص المراكز الأمريكية، فإنها لم تكن لها أطماع سياسية حيث اقتصر جهودها على الناحية الثقافية والتبشير للمذهب البروتستنتي⁽³⁾.

ونتيجة لجهود المراكز الفرنسية في بلاد الشام، صارت الطائفة المارونية المسيحية في لبنان حليفا قويا لفرنسا، كما ظلت هذه الطائفة تعتبر فرنسا الحامية الحقيقية لها، وقد أثرت هذه الظاهرة في بروز الفكرة الانفصالية عند هذه الطائفة تحت الحماية الفرنسية.

عنت هذه المراكز الخلافات الطائفية في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تعاني من هذه الانقسامات التي تشكل عقبة تعترض طريق النهضة القومية.

1- مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص 120.

2- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، ط3، دار النهار، بيروت، 1968، ص 189.

3- لم يظهر الاستعمار الأمريكي في المنطقة إلا في التاريخ المعاصر عندما أخذ يحل محل الاستعمار الأوروبي، كاستعمار غير مباشر.

3- وسائل التوعية الثقافية والفكرية:

يعتبر فن الصحافة والجمعيات العلمية والأدبية وسائل توعية ثقافية وفكرية في بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا، وشارك في هذه التوعية أيضا الطباعة والتأليف والمكتبات العامة، كذلك الفن المسرحي، وقد دخلت هذه الفنون بلاد الشام مع البعثات الثقافية الغربية منها والأمريكية في هذه الفترة.

وقد انتشرت في بلاد الشام بعد ذلك انتشارا واسعا على يد الوطنيين الشاميين، حيث غطت جميع المدن فيها تقريبا، وقامت هذه الفنون بتوعية الجماهير فكريا وثقافيا بقيادة الطبقة البرجوازية الوطنية الحديثة التكوين والتي تأثرت بالثقافة الغربية نتيجة للاحتكاك بها.

أ- الفن المسرحي:

لعب الفن المسرحي في كل من دمشق وبيروت دورا في الوعي القومي العربي، فكثيرا ما كان بهدف المسرحيات والتمثيليات ذات المفهوم القومي والخلقي والاجتماعي، فكانت فرقة أحمد القباني التي أخذت تعمل منذ عام 1870م إلى عام 1900م في دمشق، عاملا من عوامل التوعية الثقافية للجماهير، وكان لهذه الفرقة فروع في كل من حمص، وحماة، وغيرها من المدن الرئيسية.

وفي بيروت أسهم مارون نقاهي (1817-1855م) وفرقة في هذا المجال التثقيفي، وقد مثل النقاهي أول رواية عربية عام 1848م باللغة العربية، وأخذ المسرح ينتشر بعد ذلك على شكل مسارح خاصة، وأخرى عامة في مدن بلاد الشام الرئيسية، وفي المدارس والنوادي والجمعيات، ونبع مسرحيون جدد مثل سعد الله البستاني، وسليم نقاهي، وأديب اسحق، وكانت مسرحياتهم تنطبق أحيانا إلى الاقتباس من التاريخ القومي، أو ابتكار مواضيع جديدة وطنية الهدف، قومية العربي⁽¹⁾.

ب- الجمعيات العلمية والأدبية:

ومن الوسائل التي لعبت دورا في إثارة الوعي الفكري والسياسي العربي، الجمعيات والتكتلات التي اتخذت لها أسماء علمية وأدبية، ومن أشهر هذه الجمعيات ما أنشئ في بيروت مثل جمعية (الآداب والعلوم) و (الجمعية العلمية السورية)، ثم الجمعيات الأخرى ذات الأثر في التوعية الثقافية والاجتماعية والتي أنشئت في كل من بيروت ودمشق وباقي مدن بلاد الشام، ولا سيما جمعية (المقاصد الخيرية) في دمشق.

1- شاعر مصطفى: المرجع السابق، ص 188-195.

- جمعية الآداب والعلوم:

وقد أنشئت في بيروت عام 1847م بجهود بعض المبشرين الأمريكيين منهم القس غالي سميث، والقس وليم طومسون، وكورنيليوس فان ديك، ويوحنا ورتبات، وقد ساعدتهم في هذا العمل ناصيف البازنجي، وبطرس البستاني، ومن أعضاء هذه الجمعية ميخائيل مشاققة، وميخائيل مدور، وميخائيل فرج الله، ونعمت ثابت، وشكر الله خوري⁽¹⁾.

وكانت العضوية فيها مقصورة على المسيحيين، وظلت الجمعية تعمل في عقد الاجتماعات في بيوت أعضائها وتلقى فيها المحاضرات الأدبية والعلمية، كما أنشأت مجلة باسم (المجلة السورية) كانت تنشر هذه المحاضرات، وكان البازنجي والبستاني يتوليان تحريرها، وقد حلت هذه الجمعية في عام 1852م⁽²⁾.

وإذا كانت هذه أول جمعية عربية بمبادرة أمريكية في بيروت، فإنه دليل على اهتمام البعثات الأمريكية بتربية الآداب والفنون العربية بشكل خاص.

- الجمعية العلمية السورية:

وعندما حلت الجمعية السابقة، تكون على أنقاضها الجمعية العلمية السورية في عام 1857م، وقد ضمت هذه الجمعية مسلمين مثل حسين بيهم، ودروز مثل محمد أرسلان ومسيحيين مثل بطرس البستاني، وناصيف البازنجي، وكان حسين بيهم ومحمد أرسلاني تعاقبان على الرئاسة، كما ضمت من الأعضاء أيضا، أديب اسحق، واسكندر عازار، وفارس نمر، ويعقوب صروف، وابراهيم البازنجي، وغيرهم كثيرون من المدن الرئيسية في بلاد الشام والقاهرة والإسكندرية⁽³⁾.

وقد اعترفت الحكومة العثمانية بهذه الجمعية رسميا عام 1868م، وعقدت اجتماعا حضره متصرف لبنان وأذن لها بنشر أعمالها⁽⁴⁾، وانضم إليها بعض رجالات السياسة الأتراك مثل فؤاد باشا، وكامل باشا، وصفوت باشا، وقد وصل عدد أعضائها 150 عضوا⁽⁵⁾، وكان يلقي في هذه الجمعية المحاضرات العلمية والأدبية والتاريخية العربية، وأنشئت مجلة باسم (مجموع العلوم) لنشر محاضراتها وندواتها.

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 91.

2- شاهين مكاربوس: المقتطف، م 7، ج 8، عام 1883، ص 387.

3- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 45-48.

4- محمد بديع شريف: المرجع السابق، ص 80.

5- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 91.

ومما يلفت النظر عن هذه الجمعية النشاط التالية:

- ان هذه الجمعية لم يشترك بها مبشرون أجنب، بل كانت تضم نخبة كبيرة من الطبقة المثقفة في بلاد الشام ومصر، وتعتبر هذه النخبة قادة الحركة التثقيفية في بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر.
- تجلّى في هذه الجمعية الأساس القومي البعيد عن العنصرية والتعصب الطائفي، حيث جمعت لأول مرة أعضاء من جميع الطوائف المختلفة المتواجدة على الساحة العربية، وتعتبر أول بادرة قومية في التاريخ العربي.
- وتعود أهميتها في المحاولة التي كانت تقوم بها في بعث التراث العربي المجيد لغويا وتاريخيا، وذلك عندما أخذت تعالج القضايا العربية والثقافية والأجنبية.
- تطورت هذه الجمعية إلى معالجة القضايا السياسية بعد أن أخذت تعقد الاجتماعات السرية في عام 1878م، حيث استؤنف نشاطها بعد توقف أثر الحوادث الطائفية في لبنان عام 1860م، وفي هذه الفترة ظهر الشاعر ابراهيم البازجي، وهو ابن ناصيف البازجي، وأخذ يدعو إلى الكفاح من أجل الاستقلال عن الأتراك، وقد انتشرت أشعار البازجي في بلاد الشام التي أخذت تغنى في أبحاد العروبة، ونيل الاستقلال بحد السيف⁽¹⁾.
- نادت الخطب التي كانت تلقي فيها إلى ترقية العلوم، لأن العلوم أساس من أسس التمدن والرقى، كما نادت بالعلم على النهضة الصناعية والتقدم الاجتماعي⁽²⁾.
- ومن الجمعيات العربية ذات الأثر القومي، (جمعية المقاصد الخيرية) في دمشق، والتي تأسست عام 1878م، وغايتها نشر وتأسيس المدارس العربية للبنين والبنات على أسس حديثة محاكاة للمدارس الغربية في بلاد الشام، كذلك الاهتمام بجمع الكتب، والتراث العربي في مكتبة عامة وهي (مكتبة الظاهرية) بدمشق⁽³⁾، كذلك (الجمعية التاريخية السورية) بدمشق، والتي تأسست عام 1875م لتشجيع البحث التاريخي العربي على أسس قومية⁽⁴⁾. كما ظهرت في هذه الفترة جمعيات نسوية أنشأها السيدات والفتيات في بيروت لغوية وعلمية، وأدبية منها (جمعية زهرة

1- احسان عسكر: القومية العربية في الصحافة السورية، (رسالة دكتوراه)، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الصحافة، 1970، ص

20-22

2- عبد الكريم غرابية: سوريا في القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1962، ص 224.

3- سليمان البستاني: عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، مطبعة الأخبار، أكتوبر 1908م، ص 57-58.

4- عبد الكريم غرابية: المرجع نفسه، ص 222.

الإحسان) عام 1880، وجمعية (يقظة الفتاة العربية) وهي جمعية مختلطة بين الجنسين وغرضها ترقية وإنشاء المدارس للبنين والبنات وإرسال الطلاب للتعليم في الخارج بمساعدتها المالية⁽¹⁾.

ج- الصحافة:

لقد ترتب على دخول المطبعة الحديثة لبلاد الشام، أ، رافقها نهضة صحفية واسعة النطاق، شملت بلاد الشام بأكملها، لتقوم بالدور الرئيسي في توعية الجماهير العربية فكريا وثقافيا، وجاءت هذه النهضة الصحفية أيضا مع بؤادر تكوين الطبقة المثقفة تثقيفا علمانيا، سواء عن طريق المؤسسات الثقافية الغربية الموجودة محليا، أو خارج بلاد الشام أو المدارس الوطنية التي تأسست في بلاد والتي أخذت تنافس المراكز الأجنبية.

وقامت هذه الطبقة الصحفية بالدور كاملا في هذا النشاط الصحفي فتجاوز بعضها المجالات الثقافية إلى مجال التوعية القومية وإيقاظ الشعور القومي أثر اشتداد الحركة العربية القومية بعد الثورة الدستورية في الدولة العثمانية عام 1908م.

وكانت أولى الصحف العربية قد أنشئت على يد رزق الله حسون الحلبي في الأستانة عام 1855م، وهي صحيفة (مرآة الأحوال)، خلال حرب القرم، حيث كانت تنشر وقائع هذه الحرب، وقد تضمنت أيضا مقالات لا تخلو من تقبيح الأتراك والتنديد بأعمال الحكومة العثمانية، لأن حسون كان من المؤمنين بحرية الفكر، فأغلقتها الحكومة بعد عام من صدورها، ثم صدرت جريدة (السلطنة) عام 1857 وهي ثاني الصحف العربية في الأستانة، إلا أن صاحبها إسكندر شلهوب الدمشقي، لم يستطع أن يستمر في إصدارها، فأوقفها بعد سنة من عمرها أيضا⁽²⁾.

أما دمشق فقد ظهرت أول جريدة فيها وهي جريدة (سوريا الرسمية) عام 1865م على يد الوالي راشد باشا، ثم ظهرت جريدة (دمشق) لأحمد عزت العابد عام 1878م، ثم (مرآة الأخلاق) لسليم حنا منهور عام 1886م، وفي حلب صدرت عدة صحف منها (الفرات) عام 1867م، ثم (الشهفاء) عام 1877م لصاحبها هاشم العطار وعبد الرحمن الكواكبي، ثم (الاعتدال) عام 1879م⁽³⁾.

1- شاهين مكاريوس: المقتطف، م7، ج8، عام 1883، ص 390-391. أنظر أيضا: سليمان البستاني: المصدر السابق، ص 55.

2- فليب حتي: المرجع السابق، ص 565.

3- شاعر مصطفى: المرجع السابق، ص 39.

وفي بيروت ظهرت أول صحيفة عربية (حديقة الأخبار) لخليل خوري، وكانت جريدة أخبار فقط، أما الصحافة السياسية فقد دشنها بطرس البستاني بإصدار (نفير سوريا) عام 1860م وكانت أسبوعية، كما أصدر في عام 1870م مجلة (الجنان) التي استمر بصدرها لمدة ستة عشر عاما، مع أفراد عائلته، وفي هذين العاملين من أعمال البستاني، تظهر أفكاره الوطنية التي تأثر فيها بالحوادث الطائفية في لبنان عام 1860م، لذلك أخذ يدعو إلى اتحاد الطوائف الدينية، ونشر المعرفة التي تؤدي إلى إنارة العقول وقتل التعصب، وتساعد على نشوء المثل العليا المشتركة بين أفراد الأمة الواحدة، وكان يدعو إلى حب الوطن لأن حب الوطن من الإيمان⁽¹⁾، ثم أخذت الصحف في الصدور في بيروت مثل (الجنة) و(لسان الحال) عام 1877م ثم (التقدم) و(ثمرات الفنون) عام 1880م، وهي أول جريدة أنشأتها شركة مساهمة.

وفي فلسطين صدرت جريدة (الخلافة) عام 1884م في نابلس، وجريدة (النفير العثماني) التي أخذت تصدر منذ عام 1904م في القدس⁽²⁾.

وكان من نتيجة الاستبداد الحميدي، وخاصة في ميدان الصحافة بعد تعطيل الدستور العثماني عام 1878م، أن أغلقت جميع الصحف في بلاد الشام، ولم يبق منها سوى الصحف ذات التيار الإسلامي البعيدة عن القومية، والعربية، بل ذهبت هذه الصحافة إلى اعتبار التاريخ العثماني تنمة للتاريخ الإسلامي، وفضلا عن ذلك فقد تحول العمل الصحفي القومي إلى عمل سري داخل الدولة العثمانية، ومثال ذلك ما كان يقوم به عبد الحميد الزهراوي في حمص من إصدار جريدة (المنبر) وتوزيعها سرا في جميع أنحاء البلاد الشامية مهاجما فيها السلطان عبد الحميد الثاني وحكمه الاستبدادي⁽³⁾، ومن ناحية أخرى فقد أخذ العاملون في الصحافة بالفرار إلى خارج الدولة العثمانية واللجوء إلى القاهرة والدول الأوروبية والأمريكية.

وقد نشطت الصحافة الشامية في القاهرة، حيث إلتجأ إليها الكثير من الصحفيين منهم: أديب إسحق، مشاركة سليم، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس، ورزق الله حسون، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم، وقد وجدوا في القاهرة الحرية في إبداء الرأي وذلك للأسباب التالية:

- بعدهم عن متناول السلطان.

1 - Hourani Albert: **Arabic Thought in the Liberal age**, London, 1962, p 263.

2 - محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 136.

3 - إحسان عسكر: المرجع السابق، ص 50.

- كانت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي منذ عام 1882م، وقد رحبت السلطات الإنجليزية بمؤلاء الصحفيين في القاهرة، خاصة أنهم كانوا مناوئين للسلطان العثماني الذي امتاز حكمه بالاستبداد⁽¹⁾.

- ان القاهرة هي البلد العربي الثاني لهم، كما أن القاهرة لا تبعد كثيرا عن بلاد الشام، فإن كتاباتهم كانت تصل إلى بلاد الشام سواء عن طريق البريد الأجنبي في الدولة ضمن نظام الامتيازات الأجنبية من ناحية، أو الصدى الذي كان يحدثه كتاباتهم وأفكارهم في توعية الشاميين من الناحية الفكرية والسياسية، لأن هذه الكتابات كانت باللغة العربية من الناحية الثانية.

أما الصحافة الشامية في أوروبا والأمريكية فقد قامت بدور المدافع عن حقوق العرب، ومن هذه الصحف التي أنشأها الشاميون هناك: (الاتحاد العربي) التي أصدرها دكتور لويس السابونجي في لندن عام 1881م، (والبصير) التي أصدرها خليل غانم في باريس عام 1882م⁽²⁾، ومن أراء هذه الكاتب أن الدولة العثمانية مهددة بخطر: أولا: بالحكم المطلق وتعطيل الدستور، وثانيا: ربط الدين بالسياسة⁽³⁾.

وإذا كانت الاراء السياسية التي خرج بها الصحفيون من أهل الشام في أوروبا تعتبر أفكارا تقدمية، إلا أن أثرها لم يكن بالغا، لبعد أوروبا عن بلاد الشام، كذلك لأنها كانت بلغة أجنبية لم تكن واسعة الانتشار في بلاد الشام، غير أن الصحافة في القاهرة وبيروت ودمشق كان لها تأثير مباشر في هذا المجال، حيث جاءت المقالات والافتتاحيات باللغة العربية من ناحية، وسرعة الانتشار لتلاصق هذه المراكز من ناحية ثانية.

وقد انتشرت الصحافة في بلاد الشام بعد الدستور العثماني عام 1908م، واعطاء الحريات الصحفية من قبل الحكومة العثمانية في بادئ الأمر، ثم سياسة الاتحاديين في الحكم دفعت الصحافة إلى اتخاذ المواقف القومية دفاعا عن الحقوق العربية، وهي الحقوق التي سلبها الاتحاديين.

ومن أشهر هذه الصحف (المفيد) وهي الجريدة اليومية التي أنشأها عبد الغني العريسي، وفؤاد حنتس في بيروت، ثم انتقلت إلى دمشق بعد وفاة الأخير، بواسطة عارف الشهابي، وكانت المقالات الوطنية تكتب على صفحاتها، كذلك جريدة (الحقيقة) لصاحبها كمال عباس الأزهري، وجريدة (القبس) التي أسسها شكري

1- محمود صالح منسي: حركة اليقظة العربية في الشرق الأوسط، دار الفكر العربي، 1978، ص 82.

2 - Saab Hassan: **the Arab federalists of the ottoman Empire**, Amsterdam, 1958, p 208.

3 - Hourani Albert, op. cit, p 265.

العسلي، وجريدة (الحضارة) التي أسسها عبد الحميد الزهراوي⁽¹⁾، وقد سارت هذه الصحف جميعها على نهج المفيد.

وفي أوروبا أخذ شكري غانم يكتب المقالات في الصحف الفرنسية منها (الطلسان) وكذلك (كورسبندس دوربان)، وغيرهما بعد الثورة الدستورية عام 1908م واستيلاء الاتحاديين على الحكم، وكان غانم يحلل الأخبار من تعصب الاتحاديين لقوميتهم، ومحاولتهم تترك العنصر وحكم البلاد حكما مركزيا وحرمان العنصر في الدولة العثمانية من حقوقها القومية⁽²⁾.

ومما يلاحظ على دور الصحافة كوسيلة من وسائل التوعية الثقافية والفكرية، الأمور التالية:

- أنها انتشرت في بلاد الشام بأعداد كبيرة ومتنوعة حتى تكاد لا تخلو منها مدينة، وأن هذا الانتشار دليل على أهمية دور الصحافة في ذلك الوقت، حيث غاب فيه وسائل الإعلام المعاصرة، كالإذاعة والتلفزيون مثلا.

- رافق هذا الانتشار، انتشار المعرفة في شتى الميادين الاجتماعية والثقافية والصحية والسياسية.

- ورغم انتشار الصحافة في هذه الفترة، إلا أنها كانت تعبيرا عن المعتقدات التي أمنت بها الطبقة المثقفة تنقيفا حديثا، والتي شكلت طبقة بورجوازية حديثة التكوين، إلا أنها كانت تمتاز بصغر حجمها.

- ان الصحافة كانت عاملا ومظهرا من مظاهر الوعي القومي في نفس الوقت، وكان أكبر دليل على ما أحدثته الصحافة من وعي قومي، أنه عندما نفذ جمال باشا سياسة الشدة والقمع بالقوميين العرب في كل من دمشق وبيروت، كان الصحفيون أكثر الفئات ضحايا هذه السياسة⁽³⁾.

د- الطباعة والتأليف والمكتبات:

أما بخصوص الطباعة الألية الحديثة فقد دخلت بلاد الشام مع البعثات الثقافية الأجنبية الأمريكية منها أولا في عام 1834، وهي المطبعة ذات الحروف العربية الأمريكية، وقد نقلها الأمريكيون من جزيرة مالطة إلى بيروت، أما المطبعة الثانية من هذا الطراز فقد أدخلها الفرنسيون أيضا في عام 1848م، وقد قامت هاتان المطبعتان بطبع

1- مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 101-102.

2- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 175.

3- أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية في ربع قرن، ج1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1934، ص 319.

الكتب المدرسية باللغة العربية للمدارس الحديثة التي أنشأتها هذه الإرساليات، كما قامت بطبع الكتب العربية القديمة إلى جانب ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية⁽¹⁾، وبذلك تعتبر هذه الجهود البادرة الأولى في بعث الثقافة العربية من جديد بعد أن كانت في زوايا النسيان.

وقبل دخول المطبعة الحديثة بلاد الشام على يد الإرساليات الأجنبية، كانت هذه المطبعة موجودة في بعض المراكز الأوروبية، وقامت بطبع الكتب العربية المشهورة⁽²⁾، ومن المعروف أن تاريخ المطبعة الحديثة يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي حيث استطاع العالم الألماني (جوتنبرغ) أن يطور الطباعة اليدوية إلى الطباعة الآلية التي تسير بالبخار ثم تطورت إلى الآلة الميكانيكية الحديثة، وقد ساهمت هذه المطبعة في النهضة الأوروبية الحديثة حين أخذت تنتشر فيها بعد ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن بلاد الشام قد عرفت المطبعة اليدوية قبل دخول المطبعة الآلية الحديثة، وكانت مدينة حلب اسبق المدن السورية في هذا المجال، حيث استطاع البطريق (أنناسيوس) بطريق أنطاكية أن ينشئ في عام 1706م المطبعة الحلبية، وهي المطبعة التي سبكت حروفها في حلب، إلا أن هذه المطبعة كانت حروفها خشنة وغير متقنة تماما واقتصرت نشاطها على طبع الكتب الدينية والأوراق التجارية، وظلت تعمل حتى عام 1711م ولم تعرف الأسباب التي دعت إلى تعطيلها⁽³⁾.

وقد انتشر مثل هذه المطبعة في باقي مدن الشام على يد الطوائف المسيحية واليهودية في مراكزها الدينية⁽⁴⁾، وخاصة في لبنان الذي عرف المطبعة اليدوية قبل حلب، ففي عام 1610م تأسس في لبنان مطبعة (دير قزحيا) ثم تبع بعد ذلك انتشار مثل هذه المطبعة اليدوية في (دير مار يوحنا) عام 1733م، والقديس (جاور جيوس) في عام 1751م، ومطبعة (دير قزحيا) الثانية عام 1808م⁽⁵⁾، كما عرفت القدس بفلسطين مثل هذه المطابع اليدوية.

على أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، أخذ يشهد انتشار المطابع الآلية الحديثة في بلاد الشام على يد الوطنيين من أهل البلاد بعد أن دخلت بيروت على يد الإرساليات الأجنبية، وقد دخلت مدينة دمشق أول مطبعة حديثة في عام 1855م على يد (حنا الدوماني) الذي أحضرها من أوروبا، ثم أنشأ المطران (يوسف مطر) المطبعة الحلبية في عام 1857م، ثم أخذت المطابع تنتشر بعد ذلك في دمشق وباقي المدن

1 - Lewis, B: **the arabs in history**, london, 1966, p 172.

2 - Ibid, p 172.

3- خليل صابات: تاريخ الطباعة في الشرق العربي، دار المعارف، القاهرة، 1965، ص 101-103.

4 - Lewis, B, op. cit, p 172.

5- خليل صابات: المرجع السابق، ص 36-45.

الشامية، منها مطبعة ولاية سوريا الرسمية في عام 1864م، والمطبعة الخيرية، والمطبعة العسكرية، ونهج الصواب عام 1880م، ثم روضة الشام عام 1893م، ومطبعة الفيحاء العلمية ثم المطبعة الحميدية عام 1898م⁽¹⁾، وقد بلغ عدد المطابع الحديثة في بلاد الشام في نهاية القرن التاسع عشر ما يقارب من 47 مطبعة موزعة في بيروت، ودمشق، وحلب، والقدس⁽²⁾.

وقد رافق انتشار المطابع العربية الحديثة في بلاد الشام اتساع نطاق حركة الطباعة والتأليف والترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية مع انتعاش اللغة العربية، ولا يقل دور هذه الحركة في القرن التاسع عشر في بلاد الشام ومصر والعراق عن دور حركة الطباعة والتأليف في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي من حيث تأثيرها على النهضة الفكرية والثقافية، حيث أن المعرفة في جميع الميادين، أصبحت في متناول أيدي الجماهير المتلهفة لها.

ورغم انتشار المطابع في بلاد الشام، إلا أن حركة الطباعة فيها كانت ضعيفة، ويعود الفضل في انتشار الكتب وطبعها إلى الجهود التي بذلتها كل من المطبعة الأمريكية في بيروت، وكذلك المطبعة التي أنشأها محمد علي باشا في القاهرة عام 1822م، وهي مطبعة بولاق⁽³⁾، فقد تم طبع أمهات الكتب والمخطوطات العربية القديمة، والكتب المدرسية والمراجع الأساسية للمعرفة في معظم الميادين، في حين ظلت الطباعة في العاصمة العثمانية في هذه الفترة وحتى آخر الحكم التركي لبلاد الشام باللغة التركية، سواء الكتب العسكرية منها أم المدنية⁽⁴⁾.

لذلك تعود أهمية الكتب العربية المطبوعة في القاهرة وبيروت من الناحية النوعية كونها باللغة العربية، ومن الناحية الكمية حيث أصبحت الكتب العربية تطبع بكثرة، منها المخطوطات العربية ومنها أيضا الكتب المترجمة، فقد كان من أساتذة الجامعة الأمريكية الدكتور فان ديك، الدكتور جورج يوسف والدكتور يوحنا ورتبات، يتقنون اللغة العربية، فألفوا في جميع فنون المعرفة، بالإضافة إلى الترجمة العربية، محدثين المصطلحات العربية المناسبة، وتعطى إحصائية لمطبعة بيروت الأمريكية فكرة عن سعة حجم مطبوعاتها، ففي عام 1881م طبع في المطبعة 57500 مجلد بيع منها في تلك السنة ما يناهز 15715 مجلد أديا و 23472 مجلدا علميا⁽⁵⁾.

1- شاعر مصطفى: المرجع السابق، ص 25-26. خليل صابات، المرجع السابق، ص 104-111.

2- جميل صليبا: الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1958، ص 75.

3- وقد أنشأها محمد علي باشا في هذه الفترة من تكوين مصر الحديثة، وفي خضم سياسته التعليمية في إنشاء المدارس الحديثة وإيجاد الكتب المدرسية لها. كذلك تشجيعا لحركة التأليف والترجمة وبشكل عام تشجيع الحركة الفكرية في مصر التي ارتبطت بها بلاد الشام إبان الوحدة المصرية الشامية من (1831-1840).

4 - Lewis, B, op. cit, p 172.

5- شاهين مكاربوس: المقتطف، م7، ج8، عام 1883، ص 465.

وقد رافق تطور الطباعة في بلاد الشام وانتشار الكتب باللغة العربية، الاهتمام بإنشاء المكتبات العامة الحديثة، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تعرف بلاد الشام المكتبات العامة، وظلت الكتب والمخطوطات العربية القديمة متناثرة في الأديرة والكنائس والجوامع، وفي كنائز العائلات المعروفة، فكان من الصعب على الباحث الحصول على هذه المصادر المبعثرة.

وعندما أنشأت الإرساليات الفرنسية والأمريكية الجامعات في بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وألحقت بها مكتبات حديثة جمعت فيها أثنى الكتب الأوروبية والعربية، العلمية منها والأدبية، فقد الحق الفرنسيون بالجامعة مكتبة هي (المكتبة الشرقية) التي تعتبر من أغنى المكاتب في العالم في الدراسات الشرقية بما احتوته من مخطوطات وكتب، وقد بلغ عدد الكتب فيها في نهاية القرن التاسع عشر، ما يقارب من 40 ألف مجلداً، كذلك الحق الأمريكيون بجامعتهم في بيروت، مكتبة بلغ عدد الكتب فيها ما يقارب من 17 ألف مجلداً⁽¹⁾.

وفي دمشق استطاعت الجمعية الخيرية بمجهود مؤسسها الشيخ طاهر الجزائري، أن تجمع من المكتبات الخاصة المبعثرة⁽²⁾، المخطوطات العربية وتكون منها مكتبة عامة في عام 1878م، وهي مكتبة الظاهرية بدمشق والتي ما زالت إلى اليوم زاخرة بالمخطوطات والكتب العربية القيمة⁽³⁾، كما انتشرت المكتبات الخاصة العامرة بالكتب الثمينة في كل من بيت المقدس، وحلب، وباقي مدن الشام الرئيسية، وهي على غرار المكتبة العائلية (الخالدية) في القدس⁽⁴⁾.

1- توفيق برو: القومية العربية في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 146.

2- وقد بلغ عددها عشر مكتبات.

3- مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 52.

4- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 131.

الفصل الثاني: مظاهر القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني:

رغم تشابك عدة روافد خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وما أدى كل منها من ناحيته إلى تطور ملموس في الوعي القومي العربي فإن ظهور التنظيمات المحلية ذات الطابع القومي في المدن العربية بقي أكثر تلك الروافد بروزاً وتأثيراً على الوعي ومسائله، ومع أن عدداً من الجمعيات قد أعلن عن أهداف وغايات مختلفة، مثل تشجيع الأدب والخطابة وتهذيب الناشئة وترويج الأخلاق القومية وإحياء الكتب القديمة، فإن الدراسة المدققة لأمثلة مختلفة من هذه الجمعيات تظهر أن جلها كان يخفي وراء أهدافه تلك أهدافاً قومية عربية غير معلنة، ويعتمد على نشر الثقافة العربية، والتمسك باللغة العربية والتربية القومية وسائل للوصول إلى تلك الأهداف، بينما اتسمت أعمال جمعيات قومية محلية بالطابع السياسي الصريح.

1- دوافع ظهور القومية العربية:

لقد طرأت أحداث جوهرية في تاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م)، أثرت تأثيراً مباشراً على الحركة العربية القومية في هذه الفترة من الزمن. أول هذه الأحداث، هو إعلان الدستور الأساسي الصادر في 1876م، وبرز التيار الفكري الداعي إلى تحقيق المساواة في الحقوق والواجبات لجميع عناصر الدولة العثمانية، وهو ما يسمى بالجامعة العثمانية، وثاني هذه الأحداث هو تعطيل عبد الحميد الثاني الدستور في عام 1878م، وهو الدستور الذي وافق عليه في بداية حكمه، ثم حكم البلاد حكماً استبدادياً دام حتى إعادة العمل بالدستور، وفي عهد الدستور ساد تيار فكري آخر وهو تيار الجامعة الإسلامية، وقد حرك هذا التيار، الأفكار لدى العرب، وعبد الحميد الثاني في تحديد مفهوم الجامعة الإسلامية وتفصيل تحقيقها.

أ- التجربة الدستورية عام 1876م:

وكان وراء إعلان الدستور الأساسي في الإمبراطورية العثمانية عام 1876م، مجموعة من الأتراك العثمانيين كانت تشكل الصفوة المثقفة ثقافة غربية، وكانت هذه المجموعة مستاءة من الوضع في الإمبراطورية، ومن نتائج التنظيمات المزرية، المصحوبة بتغلغل الرأس المال الأجنبي وتراكم الديون الأجنبية، حتى أصبح حال الدولة المالي كثير الشبه بالحالة المالية التي كانت عليها مصر في عهد الخديوي إسماعيل مع فاروق وحيد، وهو أن الأموال التي اقترضتها مصر كانت قد أنفقت على حفر قناة السويس بالدرجة الأولى، إلا أن الدولة العثمانية أنفقت القروض

الأجنبية على النواحي العسكرية وحروبها المتلاحقة، ونتيجة لذلك أعلنت الدولة إفلاسها في عام 1875م عندما عجزت عن دفع أساط الديون المستحقة عليها⁽¹⁾.

لذلك أدركت هذه الطليعة المثقفة خطورة الوضع في الإمبراطورية قبل إعلان الإفلاس، وضرورة الإصلاح السياسي لاسيما وأن المركزية التي أتت بها التنظيمات العثمانية، لم تلق التأييد من قبل القوميات المختلفة في الإمبراطورية، حيث أن الأسس الثورية كانت كامنة في مجموعة القوميات المختلفة التي تتكون منها الإمبراطورية، خاصة القوميات البلقانية، والقومية العربية.

وعلى هذا الأساس كونت مجموعة من هذه الفئة الاجتماعية التي أطلقت على نفسها اسم "العثمانيين الجدد"، جمعية سياسية سرية في عام 1866م وهي "جمعية الاتفاق الوطني"⁽²⁾. وقد أخذت هذه الجمعية السياسية على عاتقها قيادة النضال السياسي من أجل تحقيق الأمور التالية:

- وقف التدخل الأجنبي في شؤون الإمبراطورية، حتى يتم الإصلاح عن طريق العثمانيين أنفسهم من ناحية، وأن يأتي الإصلاح ملائماً للمجتمع الإسلامي من ناحية ثانية، وذلك بالأخذ من الحضارة الغربية ما يتماشى مع الشريعة الإسلامية، وبهذا تعتبر هذه الحركة أول حركة إسلامية في الدولة العثمانية مطعمة بمعتقدات غربية⁽³⁾.

- وضع نظام دستوري برلماني.

- تأمين المساواة التامة في الحقوق السياسية والاجتماعية لجميع العناصر المكونة للإمبراطورية ضمن الرابطة العثمانية⁽⁴⁾.

غير أن العثمانيين الجدد أخذوا يتبعون سياسة الانقلابات العسكرية، فكانوا وراء عزل السلطان عبد العزيز في ماي 1876م بعد المظاهرات الشعبية في نفس الشهر، وهي المظاهرات التي قام بها الحرفيون وطلاب المدارس وصغار الموظفين في العاصمة، فوعدهم السلطان بدفع الرواتب المتأخرة وبوضع الدستور.

1- لوتسكي: المرجع السابق، ص 376. السيد رجب حراز، الأزمة المالية في عهد الخدوي اسماعيل، أسبابها-تطوراتها-نتائجها، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد السابع والعشرون، عام 1965، ص 41-42. أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية من 1876 إلى 1882: التدخل الأجنبي، الحركة الوطنية، الثورة العربية، دار المعارف، مصر، 1965، ص 25. ثم أنظر:

Blaisdell. Donald.C: **European Financial Control in the Ottoman Empire**, Columbia University Press, New York, 1929, p 80.

2 - Vucinich Wayne, op. cit, p 96.

3 -Armajani Yahya, **Middle East, past and present new jersey**, 1970, p 237.

4 - Vucinich Wayne, op. cit, p 95.

ومع ذلك اتضح بعد عدة أيام بأن السلطان كان قد دخل سرا في مفاوضات مع الدول الأجنبية، وعندئذ استدعت مجموعة من الضباط القوات العسكرية، وكانت هذه المجموعة من تنظيم العثمانيين الجدد، وألقت القبض على السلطان عبد العزيز في ليلة الثلاثين من ماي وأعلنت عزله، ثم أجلس مكانه أخاه مراد الخامس على العرش⁽¹⁾.

وفي أوت من نفس العام خلع السلطان مراد الخامس مرة ثانية، إذ أن حالة مراد الخامس المعتوه، كانت قد وصلت إلى درجة لا يمكن معها إبقاؤه على العرش، وقد اتفقوا مع أخيه عبد الحميد الثاني الذي نودي به سلطانا. وكان تعيينه مشروطا بقبوله وضع القانون الأساس للدولة. وقام عبد الحميد بتعيين مدحت باشا رئيسا للوزراء وكلفه بوضع هذا الدستور⁽²⁾.

وفي هذه الفترة من بداية حكم عبد الحميد الثاني، كانت الدولة العثمانية تعاني من المشاكل المتعددة التي تهدد باختيار الإمبراطورية. فقد أخذت أولوية العصيان ترتفع في أقاليمها وخاصة البلقان. وأخذت روسيا تهدد بالتدخل العسكري ضد الدولة دفاعا عن شعوب البلقان، كذلك قامت الدول العظمى (فرنسا، بريطانيا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا وروسيا)، بعقد مؤتمر في 23 جانفي من نفس العام يدعو من وزير خارجية تركيا صفوت باشا⁽³⁾. وكانت الغاية من عقد هذا المؤتمر محاولة الضغط على السلطان بوجوب الإسراع إلى إجراء إصلاحات ملحة في الإمبراطورية العثمانية ولا سيما في البلقان، وذلك أولا لتجنب نشوب حرب وشيكة الوقوع، ثانيا لإنقاذ الإمبراطورية من خطر الانحلال والانهيار⁽⁴⁾.

وما كادت المفاوضات أن تبدأ في اليوم الأول من المؤتمر حتى سمع المؤتمرين طلقات مدافع إعلان الدستور، وقال الممثل العثماني للمؤتمرين أن المدافع تقصف كتحية شرف للدستور، وأردف قائلا " أني أعتقد بأنه لا جدوى من عملنا نظرا لوقوع هذا الحدث العظيم"⁽⁵⁾.

ومما يلاحظ على الدستور العثماني الصادر في 23 جانفي 1876م الأمور التالية:

1- لوتسكي: المرجع السابق، ص 378-379.

2- عبد المسيح أنطاكي: نبل الأمان في الدستور العثماني، د.د.ن، القاهرة، 1908، ص 171.

3- زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 40.

4- المرجع نفسه، ص 40.

5- لوتسكي: المرجع السابق، ص 380.

- يعتبر إعلان الدستور ثورة فكرية في أنظمة الحكم في العالم الإسلامي الشرقي، نتيجة لا بد الحكم الشريعة المطلق بالقانون المدني الوضعي.

- أبقى هذا القانون المدني في يد السلطان السلطات المطلقة، حيث بقي في يده السلطة في تعيين وعزل الوزراء، ودعوة المجلس النيابي إلى الانعقاد وتعطيل هذا المجلس، كذلك السلطة العسكرية المطلقة المخولة للسلطان المتمثلة في إعلان الحرب، وعقد الصلح وتوجيه الجيوش، كما لم ينص القانون على المسؤولية الوزارية أمام البرلمان⁽¹⁾. وهذا دليل على اختلاط المفاهيم الغربية مع المفاهيم الإسلامية في قضايا الشورى في الإسلام، كذلك مسؤولية الحاكم أمام الله⁽²⁾.

- لم يكن الدستور العثماني أول تجربة دستورية في العالم الإسلامي، بل سبقه صدور دستور عام 1861م في تونس، الذي يعتبر أول دستور على النمط الأوروبي في بلد إسلامي⁽³⁾.

ب- سياسة العثمانيين الجدد القومية:

اتبع العثمانيون الجدد سياسة قومية ترمي إلى عثمانة جميع القوميات في الإمبراطورية وهي سياسة الرابطة العثمانية أو الجامعة العثمانية. لذلك أكد دستورهم على هذه الرابطة، حيث نص الدستور على وجود أمة عثمانية يتمتع كل مواطن فيها بلقب عثماني، وأن العثمانيين جميعهم يتمتعون بالحقوق والواجبات بالتساوي، وقد حدد الدستور هذه الحقوق في النواحي التالية⁽⁴⁾:

- التمتع والاستفادة من جميع مشاريع الحكومة التعليمية والصحية والخدمات العامة وحماية الأفراد والممتلكات.

- إطلاق الحريات العامة في الدولة فيما يتعلق بالأفراد والمطبوعات وفق قانون المطبوعات.

- حق المشاركة في الندوة البرلمانية لجميع العناصر العثمانية عن طريق الانتخاب العام.

- حق شغل الوظائف الحكومية على أن يكون ذلك على أساس الأهلية والاستحقاق، كما أن معرفة اللغة التركية شرط أساسي لتولية الوظائف الحكومية.

1- سليم فارس الشدياق: كنز الرغائب في منتخبات الجوانب، ج 6، مطبعة الجوانب، استنبول، 1295هـ، ص 1-20.

2-Armajani Yahya, op. cit, p 238.

3- السيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، المرجع السابق، ص 44.

4- سليم فارس الشدياق: المصدر السابق، ص 5-27. أنظر أيضا: ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 257-278.

ومع ذلك فقد أبقى الدستور على اللغة التركية كلغة رسمية وحيدة في الدولة وهي لغة التداول في البرلمان والمعاملات الرسمية ومن ناحية أخرى أبقى على المركزية في الإدارة وتوسيع صلاحية الولاية في ولاياتهم وفصل السلطات في الولاية.

ومما يجدر ذكره أن الجامعة العثمانية قد اتصفت بعدة صفات أهمها:

- إن هذه الرابطة القومية محايدة تربط جميع القوميات برباط واحد لم يكن لها خلفية تاريخية تستند عليها إنما أتى بها العثمانيون الجدد كنظرية سياسية ترمي إلى صهر القوميات المختلفة في بوتقة واحد هو إنكار أصالة القوميات التي تتألف منها الإمبراطورية بما فيها التركية والعربية⁽¹⁾.

- إن العثمانية استعمار ثقافي وعنصر تركي من حيث التسمية مادامت اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة ومادام السلطان كأعلى سلطة في الدولة هو أيضا من العنصر التركي

- من الصعب تطبيق هذه النظرية دون أن يكون لها مبادئ وعقيدة تحدد مفهومها تجاه القوميات المختلفة في الدولة والحفاظ على أصالة هذه القوميات لذلك بقيت هذه النظرية في عالم الفكر بين الترك والعرب حتى أواخر عهد الاتحاديين حيث فتحت هذه النظرية المجال أمام العاملين بالحركة العربية في تحديد هذه الرابطة اللامركزية الإدارية.

ج- الاستبداد الحميدي وتعطيل الدستور:

اجتمع أول برلمان عثماني في التاسع عشر من مارس عام 1877م، بعد انتخابات عامة، وقد حدد الدستور بأن يكون هناك نائبا عن كل 50 ألف مواطنا من الذكور في الدولة موزعين توزيعا جغرافيا، وكان البرلمان يضم مجلسين: الأعيان، والنواب (المبعوثان). وقد حدد الدستور عدد أعضاء الأعيان بثلاث عدد أعضاء النواب، وأن الأعيان يعينهم السلطان مدى الحياة، أما النواب فيتم انتخابهم عن طريق دوائر انتخابية⁽²⁾.

1- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 123.

2 - Lewis Bernard: **the Emergence of Modern Turkey**, Oxford, University Press, 1962, p 165.

وقد شارك العرب في النشاط البرلماني، ومثل بلاد الشام: خالد أفندي عن دمشق، ويوسف ضياء الخالدي عن القدس، ونافع الجابري عن حلب، وخالد الأتاسي عن حمص، وحسين بيهم ونقولا نقاش عن بيروت، ونوفل نوفل عن طرابلس الشام، والأمير أمين أرسلان عن جبل لبنان⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى، شكل النواب العرب معارضة برلمانية إلى جانب النواب الأرمن والأتراك، وكانت معارضتهم دفاعاً عن مصلحة الدولة العثمانية، حيث لم تظهر القضية العربية في هذا الوقت بشكل جدي.

ولقد اشتدت المعارضة في لبنان نتيجة للهزائم التي تكبدتها القوات التركية خلال الحرب الروسية التركية بين (1877-1878م)، حتى وصلت القوات الروسية مشارف العاصمة، وقد طلبت المعارضة استجواب الصدر الأعظم وبعض القواد في الجيش حول تقصيرهم في أداء واجبهم. وتزعم هذه المعارضة النائب العربي ضياء بك الخالدي من القدس⁽²⁾. وفي الرابع عشر من فيفري من عام 1878م، حل عبد الحميد الثاني مجلس النواب اثر هذه المعارضة، أن عبد الحميد لم يكن في الحقيقة يرغب في الدستور بل أجبر على قبوله من قبل العثمانيين الجدد. وقد وجد في هذه الظروف فرصته للتخلص من الدستور والعثمانيين الجدد معاً. غير أن عبد الحميد لم يلغ الدستور نهائياً، لكنه عطل العمل به، وبقي من الناحية الشكلية، كقانون الدولة الأساسي، طيلة حكم عبد الحميد الثاني. أما مجلس الأعيان فقد أبقى على أعضائه في مناصبهم، حيث كان هو الذي اختارهم⁽³⁾.

وبخصوص العثمانيين الجدد، فقد تخلص منهم بالنفي وخاصة مدحت باشا، الذي عينه والياً على الشام بين عام 1878 و1880م، ثم بعد ذلك إلى الحجاز في عام 1883م حيث اغتيل هناك⁽⁴⁾. كما قام عبد الحميد بنفي زعماء المعارضة في البرلمان ومنهم النواب العرب مثل: ضياء الخالدي، وخليل غانم، ونافع الجابري، وكذلك زعماء المعارضة من الأرمن والأتراك⁽⁵⁾.

إن هذه الاهانة التي لحقت بنواب الأمة لم تثر سخطاً أو احتجاجاً سواء أكان في المجتمع التركي أم الصحافة التركية، ويعود ذلك إلى أن العثمانيين الجدد الذين قادوا النضال السياسي في الدولة من أجل تحقيق

1- سليم فارس الشدياق: المصدر السابق، ص 102-105.

2- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 31.

3- Lewis Bernard, op. cit, p 165-166.

4- لقد أتهم السلطان عبد الحميد الثاني، مدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز، فنفاه إلى الطائف بالحجاز، وهناك أمر بقتله، أنظر: السيد رجب حراز: المرجع السابق، ص 53.

5- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 31.

الدستور لم يستطيعوا تكوين رأيا عاما يساند الدستور بحكم كونهم طليعة ثورية مثقفة قليلة العدد من ناحية، ومعزولة عن القاعدة الجماهيرية من ناحية أخرى.

لكن العرب استمروا بعد تعطيل دستور عام 1876م يطالبون بالإصلاح علنا، ومثال ذلك ما كانت تنشره جريدة لسان الحال البيروتية لصاحبها خليل سركيس في عام 1878م، من مقالات تتناول الإصلاح المنشود لبلاد الشام، كذلك حين ولي مدحت باشا واليا على دمشق استبشر أهل البلاد خيرا، وبأن الإصلاح سيتم على هذا الوالي الجديد⁽¹⁾.

كما فشل الدستور أيضا، لأنه جاء كدستور موحد لوحدة سياسية كبرى لم تكن أقاليمها متجانسة قوميا وثقافيا من ناحية، وبسبب مؤامرة الدول الأجنبية والعناصر الرجعية لتقويض دعائم الحكم الدستوري من ناحية ثانية²، يضاف إلى ذلك النزعة الاستبدادية عند عبد الحميد الثاني.

ويعد تعطيل الدستور والبرلمان، طغى في الإمبراطورية العثمانية نظام سلطاني استبدادي، وأصبح عبد الحميد الثاني حاكما مستبدا. ويتمثل الاستبداد في الأمور التالية:

- حكم البلاد حكما بوليسيا بواسطة الجوايسيس والأعوان، الذين انتشروا في جميع أنحاء البلاد لمطاردة المعارضة للاستبداد.

- مطاردة المعارضين في الإمبراطورية، وفرار المعارضين إلى خارج البلاد، حيث مارسوا نشاطهم في أوروبا وأمريكا والقاهرة.

- فرض رقابة صارمة على الصحف والمطبوعات، سواء الصادرة في البلاد، أم الواردة من الخارج. ويقول بهذا الشأن محمد عزة دروزه: "كنا نبليغ كل يوم عن أسماء الصحف والمجلات التي يمنع دخولها الدولة، وذلك عندما كنت موظفا في نابلس بفلسطين قبل إعلان الدستور عام 1908م"⁽³⁾.

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 59.

2 - Saab Hassan, op. cit, p 188.

3- محمد عزة دروزه: نشأة الحركة العربية الحديثة، المصدر السابق، ص 138.

- إنفاق الأموال الطائلة على تقوية الجيش بمساعدة الخبراء العسكريين الألمان، واستعمال هذه القوة في قمع الحركات الوطنية داخل الإمبراطورية مع ربط هذه البلاد بالعاصمة بشبكة من خطوط التلغراف لخدمة هذه الأغراض العسكرية⁽¹⁾.

د- سياسة عبد الحميد الثاني "الجامعة الإسلامية":

وإذا كانت هذه المظاهر الاستبدادية تشكل سياسة عبد الحميد الدنيوية، فإن سياسته الدينية تشكل الشطر الثاني من سياسته العامة. لقد سار عبد الحميد الثاني على سياسة إسلامية في الإمبراطورية في عهد الاستبداد وتعطيل الدستور. وكان الدافع لهذه السياسة الإسلامية يرمي إلى تقوية مركز عبد الحميد في داخل الإمبراطورية وخارجها، وذلك باستخدام الدين لمقاومة معارضيه في الداخل، ومواجهة أعدائه في الخارج، بإبراز السمات الدينية لمنصبه وإحياء الخلافة الإسلامية وتقويتها بشخصه كزعيم لكل المسلمين، وبذلك يستغل الشعور الديني عند ملايين المسلمين في الإمبراطورية حتى يضمن ولائهم في مواجهة التيار الفكري المتأثرين بالثقافة الغربية²، ثم إذابة جميع القضايا القومية العربية والكردية وغيرها، وإغراق هذه القضايا في خضم العالم الإسلامي وسياسة الخلافة والجامعة الإسلامية، في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية تفقد ممتلكاتها في البلقان الواحدة تلو الأخرى⁽³⁾.

أما من الناحية الخارجية، فإن هذه السياسة الإسلامية تعتبر سلاحاً للضغط على الدول الأجنبية، بإثارة المسلمين الخاضعين لفرنسا في شمال إفريقيا ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا، وقد حظيت هذه السياسة بتأييد الإمبراطور فلهم الثاني⁽⁴⁾ إمبراطور ألمانيا الذي أراد استغلال الأتراك في الكفاح ضد دول الوفاق⁽⁵⁾.

والحقيقة أن العالم الإسلامي كان يموج منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بحركات دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب في الشرق، وكرد فعل لاعتداءات الدول الأوروبية على بعض أجزاء من العالم الإسلامي، ومن هذه الحركات، الحركة الوهابية في شبه جزيرة العرب، والحركة السنوسية في شمال إفريقيا والمهدية في السودان⁽⁶⁾.

1 - Hold, Rinehard and Winston: **the Middle East to-day**, Published by New York, u.s.a, 1963, p 74.

2- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 56.

3- استقلت الصرب عام 1813، ثم اليونان عام 1832، ورومانيا عام 1878، ثم الجبل الأسود عام 1878. أنظر محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث، ص 76.

4- وقد عرف عند العرب بإسم غليوم الثاني.

5 - Somervell, D.C: **Modern Europe (1871-1939)**, London, 1945, pp 50-51.

6- محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص 238.

ومن الناحية أخرى فإن هذه الحركات تعتبر مقدمة للوعي القومي العربي وخاصة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية التي وحدتها وخاضت الكفاح من أجل تحرير بلاد الشام والعراق من الحكم التركي في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، ورغم فشل هذه المحاولة، إلا أنها تركت أثارا عميقة في الحركة العربية في بلاد الشام والعراق نحو انفصال عن الروابط التي تربط بين العرب بالأتراك.

غير أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، شهد تيارا فكريا إسلاميا وهو الجامعة الإسلامية على يد المصلح الديني والفيلسوف السياسي جمال الدين الأفغاني (1839-1897م)، وتبعه في نفس الخط الفكري مجموعة من المفكرين منهم: عبد الرحمان الكواكبي (1849-1903م) ومحمد عبده (1849-1905م) ورشيد رضا (1865-1935م) وغيرهم من المفكرين. ورغم أن هذه الحركة هي امتداد للحركات الدينية السابقة، إلا أنها تعتبر أقوى حركة فكرية عالجت المشاكل الدينية والدنيوية في الشرق، فهي حركة إصلاح ديني وإصلاح سياسي في نفس الوقت.

وكانت الدوافع التي دفعت جمال الدين الأفغاني للقيام بهذه الحركة، هي الأخطار التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي من الزحف الاستعماري الغربي في هذه الفترة الزمنية، لذلك فإنه أخذ يدعو إلى تقوية الحكومات الإسلامية وتوحيدها في حكومة واحدة مع إدخال الأفكار والنظم الغربية التي هي سر قوة الغرب إلى الدولة الإسلامية، حتى تواجه هذه الأخطار بنفس السلاح من العلم والتقدم في النواحي الاجتماعية، والرد على دعاة الغرب الذين يرون الدين الإسلامي بأنه غير قابل لاستيعاب روح العصر⁽¹⁾. فالأفغاني يدعو جميع المسلمين إلى للالتفاف حول الخلافة الإسلامية التي تتمثل في آل عثمان⁽²⁾. لذلك فإن حركة الجامعة الإسلامية تختلف عن الحركات الدينية السابقة في دعوتها بالالتفاف حول الدولة العثمانية وتقويتها في مواجهة الاستعمار الغربي، على حين أن الحركات السابقة، كانت تتجه إلى محاربة السيطرة العثمانية⁽³⁾.

وقد كون الأفغاني جمعية سرية دخل فيها مجموعة من الأعضاء المسلمين من الدول الإسلامية والغير إسلامية، سميت "جمعية العروة الوثقى" وقد أصدرت الجمعية في باريس صحيفة بهذا الاسم، ولم يظهر منها سوى ثمانية عشر عددا بين (13 مارس 1884م و 17 أكتوبر 1884م)⁽⁴⁾.

1- محمد عوض حسن: جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث، (رسالة ماجستير)، جامعة الاسكندرية، 1955، ص 54-57.

2- محمد عمارة: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، 1968، ص 52.

3- محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص 239.

4- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 58.

ويبدو أن الأفغاني قد مر بمراحل فكرية: أولى هذه المراحل عندما كان يرفض إعطاء أي وزن للفكر القومي والخصائص القومية، مكتفياً بوحدة العقيدة⁽¹⁾. وفي هذه المرحلة نجد الكثير من عباراته التي ظهرت في مقالات "العروة الوثقى" مثل عبارات "غناء الإسلام عن القومية" "ولا جنسية للمسلمين إلا في دينهم"⁽²⁾ "وأن رابطة المسلمين المالية أقوى من الرابطة العنصرية واللغوية"⁽³⁾.

أما المرحلة الثانية، فهي التي أخذت يقدر فيها الرابطة القومية، فصار يعتبر اللغة المشتركة والرابطة الدينية، عنصرين جوهريين من عناصر الرابطة القومية. وقد اهتم باللغة العربية بصفتهما لغة الدين الإسلامي واللغة التي نزل بها القرآن، ووجه نداء إلى الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني بأن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية، كما طلب من الأتراك أنفسهم أن يستعربوا، فتتكون قومية واحدة من العرب والترك لها خصائص واحدة مشتركة، هي رابطة اللغة ورابطة الدين⁽⁴⁾.

وعندما رأى الأفغاني صعوبة تكوين دولة إسلامية واحدة، لجأ إلى أسلوب جديد وهو "الحلف الإسلامي" ليشتمل مع الحركات التقدمية داخل المجتمع الإسلامي، وكان يدعو إلى هذه الحلف بزعامة أكبر وأقوى دولة إسلامية وهي الدولة العثمانية. فكانت خطته تتضمن تحويل الإمبراطورية إلى مملكة الممالك بتنظيمها على أساس لا مركزي وذلك بتحويل الولايات إلى خديويات، أي على نمط الخديوية المصرية، وبمعنى آخر الاعتراف بالسيادة الاسمية للخلافة العثمانية⁽⁵⁾.

وكان الأفغاني معجبا بالنظام الدستوري، فكان يرغب بأن يكون الاتحاد الإسلامي اتحادا دستوريا، أي توعية الشعوب الإسلامية بمزايا النظام الدستوري حتى ترغم حكامها على وضع الدستور، حتى لا يكون منحة من حكامها، فإن الشرق لا يحيا بدوله وإماراته إلى إذا أتاح الله لكل منها رجلا قويا عادلا، لا مستبدا عادلا لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة⁽⁶⁾.

ولكن هذه المفاهيم التقدمية التي خرج بها جمال الدين الأفغاني، لم تلق الاستجابة لدى عبد الحميد الثاني ونزعته الاستبدادية، فإذا كان هنالك وفاق بين جمال الدين وعبد الحميد حول توحيد المسلمين، إلا إن التفاصيل

1- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 58.

2- جمال الدين الأفغاني: العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1970، ص 85.

3- المصدر نفسه، ص 5.

4- محمد عمارة: المرجع السابق، ص 71.

5- محمد رشيد رضا: الجامعة الإسلامية، المنار، المجلد 2، ج 22، عام 1898، ص 338-339.

6- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 64.

في تكوين هذا الاتحاد يشكل فارقا كبيرا، وخاصة حول قضايا اللامركزية والدستور والحفاظ على الخصائص المرفقة لكل عنصر من عناصر الدولة، وذلك إن عبد الحميد كان يتبع سياسة الحكم الفردي المستبد في كل شيء. إن هذا الاختلاف جعل جمال الدين يعتبر عبد الحميد الثاني عنصر فساد في الدولة العثمانية⁽¹⁾.

لاشك إن الأفكار التقدمية التي خرج بها الأفغاني تدل على أنه كان متأثرا بمبادئ الثورة الفرنسية ومبادئ الإسلام، وربط هذه الأفكار لتتناسب مع روح العصر الذي يسوده معاني الإخاء والحرية بالمساواة. وإن الشعارات الدستورية التي رفعها جمال الدين هي خليط من شعارات الثورة الفرنسية ومبدأ الشورى في الإسلام⁽²⁾.

أما عبد الحميد الثاني فقد اخذ يستغل دعوة الأفغاني في توحيد العالم الإسلامي والالتفاف حول الخلافة العثمانية من ناحية والحج إلى بيت الله الحرام في مكة والمدينة من ناحية ثانية لان دعوة الأفغاني تركز على ثلاث دعائم هي: الرابطة الإسلامية، رابطة الحج و رابطة الخلافة⁽³⁾.

وبخصوص الخلافة فقد اخذ عبد الحميد يعيد هبة الخلافة في شخصه وأخذ ينفي على حياته الخاصة الكثير من مظاهر التقوى والورع والتخلي عن كثير من الأعمال المنافية الدين والتي كان يباشرها إسلافه، كما أحاط نفسه برجال الدين، واستصرخ المسلمين في كافة أنحاء العالم إلى الالتفاف حوله. كما أنها مدرسة للوعظ لتدريب المبعوثين الذين اخذ يوفدهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي للدعاية لفكرته الإسلامية، كما اخذ يذل المساعدات المالية بسخاء للمدارس الدينية في داخل الدولة وخارجها، الى جانب تسخير الصحافة للدعاية لهذه السياسة⁴.

أما الركن الآخر من أركان سياسة عبد الحميد الإسلامية، وهو الحج فقد دفع شريف مكة لنشر الدعوة بين الحجاج، كما اهتم بإنشاء الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة ومكة وذلك لتسهيل طريق الحج. وقد عهد عبد الحميد إلى الخبراء الألمان في تنفيذ هذا المشروع الذي بدا العمل به في عام 1901م. وفي عام 1908م احتفل بوصول هذا الخط إلى المدينة المنورة⁽⁵⁾. إلا أن سياسة عبد الحميد إزاء هذا المشروع كانت ذات شقين:

1 - Saab Hassan, op. cit, pp 191-193.

2- رؤوف خوري: الفكر العربي الحديث، دار المكشوف، بيروت، 1943، ص 103-104. أنظر أيضا:

Marlowe John: **Arab Nationalism and British Impérialism**, London, 1960, p 14.

3- محمد حسن عوض: المرجع السابق، ص 60.

4- محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص 241.

5- محمد رفعت: التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 90.

أولاً: الوقوف أمام الرأي العام الإسلامي بمظهر الخليفة الذي يرمى الشئون الإسلامية، فيجذب إليه القلوب، وقد نجح عبد الحميد في كسب عطف المسلمين بتأييد هذا المشروع والذين أخذوا يتسابقون في التبرع لإنشائه⁽¹⁾.

ثانياً: إن تنفيذ هذا المشروع ذو قيمة إستراتيجية في سياسة عبد الحميد العامة فإن هذا المشروع يزيد قبضة عبد الحميد على بلاد الشام والجزيرة العربية، حيث يسهل عملية انتقال القوات العسكرية بطريقة أسهل مما كانت عليه وخاصة إلى الجزيرة العربية بدلا من الطريق البحري عبر قناة السويس الباهظ التكاليف⁽²⁾. بل أصبح عبد الحميد يتطلع إلى اليوم الذي يصل فيه هذا الخط اليمن الثائر. ويعزز هذا الرأي ما كتبه أحد رؤساء جريدة التايمز اللندنية عندما كتب في شهر يوليو عام 1908 وهو يوم الاحتفال بتدشين الخط بوصوله للمدينة بالحجاز، فقد كتب يقول: " كان عبد الحميد يرى إن إنشاء هذا الخط من شأنه إن يعزز المنصب الذي كان يدعيه لنفسه من أنه الزعيم الروحي للمسلمين، وكان يخامره شعور قوي في نفسه إن لإنشاء هذا الخط الحديدي قيمة إستراتيجية عظيمة، لا سيما إذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية المؤدية إلى بلاد الأناضول. وسوف يكون وسيلة نقل سريعة للجيش نحو الولايات التي لم تخضع للحكم العثماني خضوعاً تاماً"⁽³⁾.

وقد أخذ عبد الحميد الثاني يهتم بالعرب وذلك لأن بلاد العرب، تضم أهم الأماكن المقدسة (مكة، المدينة، القدس) وهم أصحاب الرسالة وبلغتهم القرآن⁽⁴⁾. لذلك قام بتزيين وإصلاح المساجد في مكة والمدينة والقدس، وأخذ يقرب منه بعض الشخصيات العربية، منهم أبو الهدى الصيادي، من الأشراف بحلب، وعزت باشا العابد من دمشق، واللذين جعلهما مستشارين له، وكذلك الأخوين نجيب وسليم ملحمة، وهما مارونيين، ومن أقرب الجواسيس إليه⁽⁵⁾.

وإذا كانت هذه السياسة تجاه العرب تشكل سياسة عبد الحميد الظاهرية، إلا أن السياسة الفعلية التي سار عليها عبد الحميد الثاني، هي تقرب العناصر الغير تركية إلى القصر كحاشية ومستشارين، وخاصة العرب والأكراد والألبان، كذر الرماد في العيون، بصفتها مناصب استرضاء هذه العناصر وإيهامها بأنها مشاركة في الحكم في عهد الظلم والاستبداد وقمع حركة القوميات.

1 - محمد بدیع شریف: المرجع السابق، ص 37.

2 - Graves Philip: **Memories of King Abdallah of Trans Jordan**, London, 1950, p 60.

3 - زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص 57.

4 - سليمان موسى: الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1970، ص 24.

5 - graves, philip, op. cit, p 60.

2- مظاهر القومية العربية في المهجر:

كانت النتيجة لحكم عبد الحميد الثاني الاستبدادي ما يقارب من ثلاثين عاما، أن ساد بلاد الشام تيارات فكرية حديثة انعكست في كتابات المفكرين الشاميين، الذين أخذوا يهاجرون إلى أوروبا وأمريكا بشكل عام والقاهرة بشكل خاص، حيث وجدوا الحرية في التعبير عن آراءهم الفكرية، وقد تبلورت هذه الأفكار في اتجاهين رئيسيين:

أولا: في الميدان الاجتماعي والإصلاح السياسي بشكل عام من حيث أطلق الحريات العامة في الدولة ومقاومة الاستبداد والأخذ بأسباب التقدم والرفي.

ثانيا: اتجاه قومي عربي حيث أخذ هذا الاتجاه واجهة عربية لهذا الفكر، وذلك بإيقاظ العروبة من سباتها وإبراز دور العروبة الرائدة في الإسلام.

وتعتبر هذه الطليعة المفكرة، المرتكز الأساسي للنهضة الفكرية في عهد عبد الحميد الثاني، وهي الطليعة التي تأثرت بالثقافة الغربية من ناحية، والثقافة الشرقية من ناحية ثانية، والتيارات الفكرية المحلية كالجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية من ناحية ثالثة، ثم خروج هذه الطليعة بفكر جديد هو خليط بين الثقافة الغربية المادية والفكرية، وملألت إليه من نظم حديثة، وبين المعتقدات الروحية الإسلامية⁽¹⁾.

والحقيقة أن التطورات الفكرية والأحداث السياسية التي كانت تتفجر في أوروبا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تكن بعيدة عن متناول الشاميين أو غيرهم في البلاد العربية مثل مصر والعراق⁽²⁾. وكانت المعابر التي دخلت منها هذه الأحداث والأفكار متعددة، منها المراكز الثقافية الغربية في بلاد الشام، ثم عن طريق التجارة والرحلات والزيارات التي كان يقوم بها الشاميون إلى الغرب. كذلك ترجمة الفكر الغربي إلى اللغة العربية وإتقان اللغات الأوروبية التي كانت تدرس في المراكز الغربية، والتي كانت منتشرة في بلاد الشام، كما أن الصحافة العربية في أوروبا لعبت دورا رئيسا في هذا المجال. لذلك فإن الأحداث السياسية التي كانت تحدث في أوروبا، كان لها صدى في بلاد الشام⁽³⁾.

ومن أبرز هذه الأحداث الوحدة الإيطالية عام 1870م والاتحاد الألماني عام 1871م، وكانت هذه الوحدة أو الاتحاد سواء في ألمانيا أو إيطاليا قد قاما على أساس قومي ومن هذه الأحداث أيضا الثورات الفرنسية

1 - Gabridi Francesco: **The Arab Revival**, London, 1961, p 43

2 - yale william, op. cit, p 189.

3 - longrigg. S. H: **syria and lebanon under french mandate**, london, 1950, p.p 23-27.

خلال أعوام 1848م و1870م و1789م. وقد تميزت الثورة الأخيرة وهي الثورة الفرنسية الكبرى بسقوط عهد الاستبداد والطغيان وأخذت هذه الثورة تنشر المبادئ الإنسانية وهي الحرية والإخاء والمساواة⁽¹⁾.

ومن أشهر المفكرين الشاميين في عهد عبد الحميد الثاني والذين أحدثوا ثورة فكرية في بلاد الشام في الميادين الاجتماعية والسياسية: "فرنسيس مراش الحلبي 1836 - 1874" و"أديب سحوق 1856 - 1885" و"شبل شيل 1853 - 1917م" و"أمين الريحاني 1876 - 1940م" و"محمد رشيد رضا 1865 - 1935م" و"جبرائيل الدلال الحلبي 1836 - 1892م" و"عبد الرحمن الكواكبي 1849 - 1903م" و"نجيب عازوري 1873 - 1916م".

أ- في الميدان الاجتماعي والإصلاح السياسي :

استعار المفكرون العرب شعارات الثورة الفرنسية والحركات التقدمية في أوروبا وعموما في الصحف والكتابات واخذوا يطالبون بها كحقوق طبيعيه ضد الظلم والاستبداد والجهل⁽²⁾.

واخذ المفكرون يفسرون مفاهيم الوطنية والأمة والمساواة والحرية والحقوق الطبيعية بمفاهيم جديدة⁽³⁾. كما برر الثورة مثلما بررها المفكرون الفرنسيون، فأعلنوا إن السلطة والسيادة هما للأمة والشعب، وإن الهيئة الحاكمة ليست إلا لخدمه الأمة وهي مسئولة أمامها، فإذا هي أساءت التصرف وجب محاسبتها، وإذا هي عاندت وجب إزالتها بقوة السلاح، أي الثورة⁽⁴⁾.

أما أديب إسحاق، فقد بين للناس طريق الثورة الصحيح حيث أبدى حزنه الشديد لأن ثورة الجماهير الشرقية العربية لا تحقق انتصارات مماثلة كما حققت الجماهير الفرنسية في ثورتها، فإن ثارت الثانية فإنها لا تهدأ حتى تستقر الحرية، أما الشرقيون فإنهم لا يقاتلون من أنفسهم ولا تجدهم على بينة مما يقصدون فهم في الثورة دعاة زعيم العصاة. وقد حدد الثورة بقوله "إنها الدواء بالتي كانت هي الداء"⁽⁵⁾.

ويفرق شبل شميل وأمين الريحاني بين الثورة الشاملة والانقلاب العسكري ففي رأيهما أنه كلما تقدمت الأمة في طريق الحضارة ارتقى شكل حكومتها. ويستدل على تركيزها على الجماهير من نقدها لثورة عام 1908

1- رؤوف خوري: المرجع السابق، ص 94-95. أنظر أيضا: جميل صليبا: المرجع السابق، ص 35.

2- أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 61.

3-Armajani, Yahya, op. cit, p 248.

4- رؤوف خوري: المرجع السابق، ص 115.

5- أديب اسحق: الدرر، نشر عوني اسحق، بيروت، 1909، ص 170-172.

الدستورية، حيث أدركا طبيعتها السطحية، كما أكدوا مفكرو القرن الثامن عشر في فرنسا بضرورة تعليم الأمة لتدرك معنى الثورة الصحيحة، فتورة تعني التغيير الشامل، أما الانقلاب العسكري فلا يتعدى تغيير حاكم بأخر⁽¹⁾.

وبحث المفكرون في الحرية والاستبداد وعرفوا كل منهما. الحرية في نظر أديب إسحاق، من ثالوث موحد الذات متلازم الصفات، يكون بمظهر الوجود فيقال له الحرية الطبيعية، وبمظهر الاجتماع فيعرف بالحرية المدنية⁽²⁾.

أما فرنسيس مراش، فقد هاجم الاستبداد بأسلوب قصص في كتابه (غاية الحق)، حيث يدعو إلى انتصار العدالة، ونور الثقافة، وسيادة العقل. وكتابه هذا، هو حوار عن الحرية وخلاصته: إن عراقا وقع بين مملكة العبودية ومملكته الحرية، خسرت فيه الأولى وانتصرت الثانية⁽³⁾. وفي دفاعه عن الحرية يقول الكاتب: "إن الاستبداد مكروه عقلا وطبعاً، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما فيها، فحاربوا من ظلم واعتدى واعدوا له السلاسل والأغلال"⁽⁴⁾. ويرى مراش أن الحكومة عليها أن توفر الرخاء لأفراد شعبها وإن أعمدة الرخاء هي: نشر الثقافة والعلم، وتحسين الزراعة والصناعة والتجارة، وأخيراً حفظ الأمن الذي يتضمن صيانة الأرواح والأموال والمساواة التامة أمام القانون للجميع⁽⁵⁾. وبذلك يكون مراش قد بحث في الصالح العام للدولة وإنارة الطريق لمفهوم الحرية والمساواة لبني قومه من العرب.

ويضيف سامي الكيالي⁽⁶⁾، شخصية عربية أخرى تعتبر من شهداء الفكر الذين قاوموا الاستبداد وسجنوا وشردوا، بل قضوا حبهم في سبيل عقائدهم الحرة، وهو "جبرائيل الدلال"⁽⁷⁾ الحلبي، حيث كان يجتمع الأدباء في صالونه الأدبي فينضمون شعر المناسبات ويعرضون لشؤون الدولة بالهمس والتأمين. وفي باريس أطلق الأديب العنان لنجاته الحرة، ومكانته ظروف العيش من التعبير بجراه وصراحة عن جور السلطان وشعوذة الكهنوت.

وقصيدته "العرش والهيكل" تؤرخ فترة النضال الفكري الحر، وهي مشبعة بمبادئ الحرية والآراء التقدمية التي نادى بها فلاسفة الغرب الأحرار. وقصيده تدور حول نقاط ثلاثة وهي:

- الدعوة إلى الحكم الجمهوري.

1- حازم زكي نسيبة: القومية العربية، ترجمة عبد اللطيف شرارة، المكتبة الأهلية، بيروت، 1909، ص 103-105.

2- أديب إسحاق: المصدر السابق، ص 42.

3- فرنسيس مراش: غاية الحق، د.د.ن، القاهرة، 1922. عن المقدمة بقلم عبد المسيح أنطاكي.

4- المصدر نفسه، ص 27.

5- عبد الكريم غرابية: المرجع السابق، ص 150-153. حازم زكي نسيبة: المصدر السابق، ص 235.

6- سامي الكيالي: الحركة الأدبية في حلب، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1957، ص 55-85.

7- ولد الدلال في حلب عام 1836 وتوفي في عام 1892م.

- مقاومة سلطان الملوك.

- مقاومة سلطان الكهنوت.

على أن عبد الرحمن الكواكبي⁽¹⁾، يعتبر من أشهر المفكرين العرب، الذين كانوا مظهرًا من مظاهر اليقظة الفكرية والسياسية في عهد عبد الحميد الثاني، ومن الذين خاضوا هذا النضال الفكري في قضايا الحرية والاستبداد، والقضية العربية في خضم الجامعة الإسلامية بشكل عام. فقد سار على خط فكري مكملًا للخط الفكري الذي بدأه جمال الدين الأفغاني في قضية الإصلاح الديني والإصلاح السياسي للمجتمع الإسلامي، مستفيدين بذلك من قانون الشريعة الإسلامية التي أعطت الفقهاء في الدين حق ممارسة " الاجتهاد " في الأحكام. فلذلك لابد من الإصلاح الديني حتى يصبح هنالك قانون موحد النظام داخل المجتمعات الإسلامية يتناسب مع روح العصر، ولا بد أيضًا من أن يكون مطعمًا بالنظم الغربية التي تتناسب مع المفهوم الديني⁽²⁾.

ومن هذا المنطلق نادي الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد" بالنظام الدستوري الذي لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية، كذلك نادى بتحقيق الحرية الفردية والجماعية، ومسؤولية أمام الشعب⁽³⁾، وهي مفاهيم تقدمية إلى حد كبير.

وعرف الكواكبي الاستبداد بأنه يتنافى مع العلم، حيث أن المستبد يخشى العلم والعلوم التي توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان؟ وما هي حقوقه الإنسانية، فيبين الاستبداد والعلم حرب دائمة يسعى العلم في الحرية، ويسعى المستبد في إطفائها⁽⁴⁾. وبالجملة فإن الاستبداد يتنافى مع رقي الأمم وتقدمها، ويقضي على حافز حافز ودافع يحاور شعور العلماء ورجال الدين في الإصلاح الديني والإصلاح السياسي⁽⁵⁾.

1- ولد عبد الرحمن الكواكبي في حلب عام 1849 وتوفي في مصر عام 1903. فقد تلقى العلم في أكبر كلية إسلامية وهي " الكواكبية". وقد بدأ حياته العامة صحفياً حيث أصدر جريدة الشهاب والاعتدال بين عامي (1877-1879)، ثم انتقل إلى الوظائف الحكومية حيث أكسبه تهجمه العلني على الاستبداد غضب رؤسائه ثم السجن. ولما أطلق سراحه عام 1898 غادر الشام إلى مصر حيث احرية في التعبير عن آرائه في الصحف المصرية، ثم جمعت مقالاته المنشورة في كتابين هما: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد وأم القرى. أنظر أنطونيوس: المرجع السابق، ص 99-100. سامي الدهان: عبد الرحمن الكواكبي، القاهرة، 1964، ص 41-42.

2 - Hourani, A, op. cit, 272.

3- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد، دار النفائس، حلب، 1957، ص 27.

4- المصدر نفسه، ص 34، ص 50.

5- المصدر نفسه، ص 91-92.

غير أن كتاب طبائع الاستبداد يعتبر كتابا نظريا فحسب، كما أن الكواكبي لم يدعم كتابه بمشاهداته، وهي كثيرة، ولم ييسط فيه حال بلاد الشام، وهي بلاده ولم يضرب الأمثلة الصريحة عن العثمانيين وتسلطهم على العرب، ولم يتطرق إلى الأشخاص بشكل صريح، رغم أن القارئ يفهم ضمنا أن المقصود هو عبد الحميد الثاني. ومع هذا كله ففي رأي بعض الباحثين، أن هذا الكتاب يصلح دستورا ونظاما يسير عليه كل من دخل ميادين الاجتماع والسياسة والفكر⁽¹⁾. وقد هربت منه نسخ إلى بلاد الشام ووزعت على الناس سرا حيث طبع عام 1900م⁽²⁾.

ب- في الميدان القومي العربي:

أما الجانب الآخر من جوانب اليقظة العربية في المهجر، فإنه يتمثل في المجال القومي العربي وإبراز الشخصية العربية على ساحة الفكر العربي في هذه الفترة. من أجل الحفاظ على التوازن في العلاقات بين العرب والترك، وذلك بالخروج بنظريات فكرية وسياسية، حددت شكل نظام الحكم الذي يجب على الدولة العثمانية إتباعه. وقد دلت هذه النظريات السياسية على وعي قومي، رغم اختلاط هذه المفاهيم القومية بالمفاهيم الدينية، كما أنها تعتبر دعما قويا لبزوغ القضية العربية بشكل جدي.

وكان أول من بحث بقضايا الأمة والوطن من المفكرين هو أديب إسحاق، حيث عرف الأمة، إلا أن تعريفه جاء مشوشا رغم تأثره بالثقافة الغربية، فيرى "الذين يكونون أمة هم الذين يكونون جنسا واحدا الخاضعين لقانون واحد... والمراد بوحدة الجنس، اتفاق الجماعة على الانتماء إلى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به"، ومع أنه لا يعتبر من لوازم وحدة الأمة وحدة لغتها، إلا أنه من المستحسن أن يكون للأمة لغة واحدة مشتركة⁽³⁾، وأن الاستحسان شيء، والوجوب شيء آخر.

أما الشخصية الثانية التي نادى بالإصلاح السياسي والإصلاح الديني في الدولة العثمانية مع التركيز على القضية العربية، فهي شخصية محمد رشيد رضا⁽⁴⁾. الذي كان متأثرا بتيار الجامعة الإسلامية. وقد نادى، كما

1- سامي الدهان: المرجع السابق، ص 52-53.

2- محمد جمال الدين المسدي: أم القرى، مقال نشره في مجلة الكتاب المصرية، عدد 159، جوان 1974، ص 27.

3- أديب إسحاق: المصدر السابق، ص 100.

4- ولد في القلمون في طرابلس الشام عام 1865م. وقد كان متأثرا بدعوة الأفغاني ومحمد عبده الإصلاحية، هاجر إلى مصر عام 1897، حيث أسس مجلة المنار، توفي عام 1935. أنظر محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 120-123.

نادى جمال الدين الأفغاني، بأن تكون اللغة العربية هي لغة الدولة الرسمية بدلا من التركية، لان اللغة العربية هي لغة الدين، كما أن اللغة العربية ستجعل الدولة العثمانية أكثر تماسكا عندما تكون موحدة اللغة⁽¹⁾.

وفي مقال آخر، يدعو رشيد رضا إلى السعي لإقامة وحدة عربية ضمن الرابطة العثمانية، وعلى وجه لا يخل بسيادة الدولة العليا ولا يهيج الدول الأوروبية، كما ندي بأن تكون ولايات الدولة كالولايات المتحدة الأمريكية. حيث تستقل كل ولاية في إدارتها الداخلية، وان يتولى حكم الولاية احد أفرادها المحليين⁽²⁾، وهذه دعوة إلى اللامركزية، مع بقاء الوحدة مع الأتراك ضمن الجامعة العثمانية.

كما أراد رشيد رضا أن يكون للعرب قوة عسكرية، كي تستطيع حماية العرب يوم مجيء يكون قادة الترك العسكريين، مشغولين بأنفسهم وحفظ بلادهم⁽³⁾. وحمل على الأتراك ودعواهم بالخلافة حملة عشواء، مبينا أن الترك أيام حروبهم وفتوحاتهم لم يذكروا لفظ الخلافة، ولم تكن حروبهم دينية، وإنما كانت لتوسيع الملك والسيطرة⁽⁴⁾، وطلب أيضا أن تكون مكة هي مركز الخلافة بدلا من الأستانة لأنها مركز من مراكز الحج⁽⁵⁾.

ورغم هذه الأفكار التقدمية عند رشيد رضا، إلا أنه لم يدع صراحة بعروبة الخلافة، رغم أنه حمل على الأتراك على دعواهم بالخلافة. فإن أفكاره هذه تعتبر مقدمات وعي قومي، وذلك بالتركيز على القضية العربية من خلال تيار الجامعة العثمانية، أو شكل العلاقات العربية التركية. وبذلك لم يدع إلى الاستقلال العربي عن الأتراك، لكن هذه الحركة الاستقلالية نجدها أفكار التي خرج بها كل من عبد الرحمن الكواكبي، ونجيب عازوري.

أما عبد الرحمن الكواكبي، فقد خرج بأفكار تعتبر تطورا فكريا في حركه القومية العربية. ففي كتاب " أم القرى " الذي تخيل فيه جمعية إسلامية عقدت أثني عشر جلسة في " مكة " اشترك فيها مندوبون عن الأقطار الإسلامية، لبحث مشاكل المسلمين، والبحث عن الحلول لهذه المشاكل. وقد تعرض لمشكلة الخلافة حتى وصولها إلى العثمانيين، ورأى بعد ذلك أن تكون الجامعة الإسلامية تحت لواء الخلافة، ويجب أن يكون الخليفة عربيا وقرشيا، وأن يكون مركز الخلافة " مكة ". وقد رسم لذلك برنامجا سياسيا أهم ما جاء فيه⁽⁶⁾:

-
- 1- محمد رشيد رضا: صيحة حق، المنار: مجلد1، ج13، عام 1897، ص 221.
 - 2- المصدر نفسه: إعادة مجد الاسلام، المنار: مجلد3، ج4، عام 1900، ص 73.
 - 3- المصدر نفسه: الترك والعرب، المنار: مجلد3، ج9، عام 1900، ص 195.
 - 4- المصدر نفسه: دعوى الخلافة، المنار، مجلد6، ج24، عام 1903، ص 955.
 - 5- المصدر نفسه: الجامعة الإسلامية، المنار، مجلد2، ج22، عام 1899، ص 345.
 - 6- عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، المصدر السابق، ص 168-174.

- يصادق الخليفة على توليه السلاطين والأمراء التي تجري في وحدتهم السياسية حسب أصول الحكم في هذه الوحدات.

- ان يشكل هيئه شورى إسلامية تنتخب الخليفة مكونه من مائة عضو من جميع المسلمين.

- فصل السلطات الدينية التي يتمتع بها الخليفة عن السلطات السياسية التي يتمتع بها حكام الإمارات الإسلامية.

ومن هذا البرنامج، يتضح لنا أن الكواكبي قد بين شكل نظام الحكم اللامركزي الذي يكفل الخصائص المميزة لكل عنصر، أو وحده سياسيه، وكانت الدوافع التي جعلت الكواكبي يخرج بهذا البرنامج السياسي الأمور التالية:

- من الناحية الدينية: فانه رأى الانحراف في الدين عن الطريق السليم، فكان دافع الإصلاح الديني بالنهوض بهذا الدين حتى يواكب التقدم الحضاري والثقافي الغربي، إلى جانب إرجاع مكانه العرب في صدر الإسلام، حيث قاموا بدور الطليعي في نشر الإسلام، كما أنهم يمتازون عن غيرهم بان القرآن قد نزل بلغتهم، ومنهم الرسول. ومن هنا كان يرى ان العرب لابد ان يأخذوا مكانهم الطبيعي من جديد⁽¹⁾، حيث تعود لهم السلطة الدينية من الترك، مع فصل السلطات الدينية عن السلطة السياسية حتى يتلاءم مع روح العصر ذلك الاتحاد المنشود.

- من الناحية القومية: فقد رأى الكواكبي أن الحكومة التركية تميز بين العرب والترك بالمناصب والأرزاق، لذلك يدعو إلى الحقوق العربية المهضومة. فاخذ يستنهض بني قومه من العرب، ويذكرهم بأمجادهم ومآثرهم، ويشرح خصائصهم الكامنة بهم. ويبين لهم أن هذه الصفات كافية بان تعيد للامه قوتها، وتعيد إليها سلطاتها المفقود. وصفوة القول إن عبد الرحمن الكواكبي، كان يهدف إلى إيقاظ الشعور القومي العربي والإحساس بالحرية من التسلط التركي⁽²⁾. وفرق في برنامجه السياسي بين العرب والترك وغيرهم من القوميات الأخرى في الدولة العثمانية، وبين في برنامجه شكل الحكم الذي يربط هذه الأقوام وجعلها على شكل حكم "فيدرالي"، وهو نظام اقرب إلى الاستقلال منه إلى اللامركزية.

1- عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، المصدر السابق، ص 14.

2- المصدر نفسه، ص 133.

ويرى بعض الباحثين بأن عبد الرحمن الكواكبي قد تأثر بالأفكار الغربية إلى جانب ثقافته الإسلامية⁽¹⁾، ومن هنا نستطيع ان ندرك مصدر الأفكار القومية التي جاء بها الكواكبي.

وقد ظهرت شخصية عربية أخرى بعد وفاة الكواكبي مباشرة، وهي شخصيه "نجيب عازوري" الذي يعتبر من الطليعة المفكرة على الصعيد القومي العربي. ونجيب عازوري هو عربي تولى منصب نائب متصرف القدس بين عامي 1899م و1904م، ثم استقال من من منصبه بسبب سوء الإدارة العثمانية. وقد هاجر إلى فرنسا ثم إلى القاهرة حيث بقي فيها إلى ان توفي عام 1916م⁽²⁾. وقد انشأ في باريس عام 1904 جمعية باسم "عصبة الوطن العربي" هدفها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الأتراك. وكانت وسيلة نشاطها، هو إصدار نداءات تدعو فيها العرب إلى الثورة⁽³⁾. على ان أهم عمل قام به عازوري، هو نشره كتابا باللغة الفرنسية أسماه "يقظة الأمة العربية أمام مصالح ومنافسة الدول الأجنبية"، وقد تضمن هذا الكتاب آراء وأفكار عازوري السياسية التي تعتبر إشارة واضحة لعلامات القومية العربية، حيث أشار إلى وجود أمة عربية تضم العرب، مسلمين ومسيحيين⁽⁴⁾.

وتتلخص أفكار عازوري فيما يلي:

- دعا إلى الاستقلال التام للولايات العربية الواقعة تحت الحكم التركي.

- دعا إلى عروبة الخلافة.

وبخصوص عروبة الخلافة، فقد دعا إلى تنصيب خليفة من احد الأسر العربية، وشرح "مكة" مركزا لها، واقترح بان تكون للخليفة سلطه روحيه على جميع المسلمين، أما سلطته السياسية، فهي مقصورة على الحجاز فقط⁽⁵⁾. ومن الملاحظ ان هذه الأفكار تحمل نفس المعاني التي نادى بها الكواكبي من قبل.

أما الولايات العربية الأخرى التي دعا إلى تحريرها عن الترك، فقد اقترح إنشاء دولة عربية دستورية على النمط الغربي الحديث تضم بلاد الشام والعراق، مع احترام الحكم الذاتي للبنان الذي يتمتع به، واقترح أيضا بان

1- ومن هؤلاء الكتاب: ألبرت حوراني: المصدر السابق، ص 271. وتوفيق برو: القومية العربية، المرجع السابق، ص 197-200. وسامي الدهان: المرجع السابق، ص 44-45. وزين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص 103. ورؤوف حوري: المرجع السابق، ص 103.

2 - Hourani, A, op. cit, 278.

3- نجيب عازوري: يقظة الأمة العربية، ترجمة وتحقيق أحمد بو ملحم، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998، ص 30. مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 58.

4 - Hourani, A, op. cit, 278.

5- نور الدين حاطوم: المراحل التاريخية القومية العربية، دار الرائد، القاهرة، 1963، ص 18.

يتولى أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر حكم هذه الوحدة السياسية مع بقاء كل من اليمن، ونجد متمتعين بالحكم الذاتي⁽¹⁾.

على أنه مما يأخذ على عازوري بالنسبة لهذه الأفكار الوحدوية، أنه لم يدمج لبنان بالدولة العربية المقترحة، وهذا تناقض في أفكاره القومية الوحدوية والطائفية المحلية، كما أنه لم يدمج باقي الأقطار العربية وخاصة مصر في هذه الوحدة السياسية.

ومن ناحية أخرى كان عازوري يناشد الدول الأوروبية بان تؤيد مقترحاته، وذلك باحترام المصالح الأوروبية في الدولة العربية المستقلة، والتي حصلت عليها من الدولة العثمانية، بما في ذلك حماية الأماكن المقدسة ومصالحها في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي⁽²⁾.

ومن النشاطات التي قام بها عازوري، إصداره مجلة شهرية في عام 1907م في باريس، وهي "الاستقلال العربي" وكانت باللغة الفرنسية. وقد استمرت في الصدور لمدة سنة من أبريل عام 1907م حتى سبتمبر من عام 1908م. وكانت تهدف إلى تعريف الغرب بالقضية العربية. وقد ساعده في هذا العمل المستشرق الفرنسي يوجين يونغ، وهو مؤلف الثورة العربية عام 1924م⁽³⁾.

وكان عازوري أول من نبه إلى أخطار الصهيونية في فلسطين، ولعل وجوده في متصرفية القدس لمدة خمس سنوات مكنه من الاطلاع على هذه الإخطار. وقدر حمل الحكومة العثمانية مسؤولية هجرة اليهود إلى فلسطين وبنائهم مستعمرات في بعض المناطق بين الجليل والحولة والخليل⁽⁴⁾. وقد نبه إلى ذلك بقوله: "إن ثمة حادثين هامين ومن طبيعة واحدة لكنهما متعارضان، وهما يقظة الأمة العربية والجهد الخفي لإنشاء ملك إسرائيل القديم من جديد، وان مصير الحركتين القتال والصراع إلى أن يتغلب أحدهما على الآخر.

ومما يلفت النظر في حركة عزوري الفكرية، إنها كانت معزولة عن بلاد الشام، لأنها كانت تصدر من عاصمة أوروبا وهي باريس من ناحية، ولأنها كانت تصدر باللغة الفرنسية من ناحية ثانية، لذلك عاشت هذه

1- مصطفى الشهابي: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 59. احسان عسكر، المرجع السابق، ص 60.

2- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 79.

3- أنيس الصايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، 1966، ص 48. أنظر أيضا: احسان عسكر: المرجع السابق، ص 60.

4- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 79. أنظر أيضا: Hourani, A, op. cit, 279.

الأفكار في المنفى، كما أنه لم يربط مفهوم الوحدة العربية مع مفهوم الاستقلال العربي عن الأتراك، حيث جزاء الكيان العربي المستقل إلى وحدات سياسية منفصلة.

ويرى بعض الباحثين، بان عبد الرحمن الكواكبي ونجيب عازوري كان يدعوان لشريف مكة بالخلافة العربية، وخديوي مصر، عباس حلمي الثاني بالسلطنة⁽¹⁾، وأنهما في هذا المجال كانا متأثرين بأفكار بعض المفكرين، خرجت من قبل تدعو إلى الخلافة العربية، ومن هؤلاء (بلنت)⁽²⁾ في كتابه "مستقبل العالم الإسلامي" الذي صدر عام 1880م. وقد فتح بلنت باب الحوار حول الخلافة، حيث اعتبر عبد الحميد الثاني، ليس له حق شرعي بالخلافة، وأن العرب أحق بها، وان جميع المسلمين يوافقون على تولي شريف مكة الخلافة باستثناء الأتراك. وطالب أن تكون مكة أو القاهرة مركزا للخلافة العربية.

وقال بلنت: أنه قد تأثر بحديث السفير الإيراني في لندن، ومقالات لويس الصابونجي، الذي كان يحرر جريدة "النحلة" في لندن عام 1877م. وبالرغم من أن الصابونجي كان مسيحيا كاثوليكيا، إلا أنه كان مهتما بقضية الإصلاح الديني والجامعة الإسلامية ونادي بعروبة الخلافة.

كما تأثر الكواكبي وعازوري بأفكار الرحالة البريطاني "مرمدوك بيكتول" الذي تحول عدة مرات في بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وقد نادي بيكتول بأن يتولى خديوي مصر إمارة الدولة العربية المستقلة عن الأتراك، وشريف مكة الخلافة الإسلامية.

واخذ خديوي مصر، عباس حلمي الثاني يشجع هذا التيار الفكري في صحف بلاد الشام وخاصة جريدة "الخلافة" التي كانت تصدر في مدينه نابلس بفلسطين، وكانت على ولاء للخديوي، فأخذت تنشر المقالات التي تفند أحقية الأتراك بالخلافة. ومن ناحية أخرى، أخذ الخديوي يكرم قادة المهاجرين من بلاد الشام، حتى أنه أصبح أوفر الحكام العرب حظا في عرش بلاد الشام في حالة استقلالها إلى أن عزله الانجليز عام 1914م⁽³⁾. وكان يساعد الخديوي أنه كان من عائلته محمد علي التي أمنت بفكرة الإمبراطورية العربية.

والحقيقة أنه رغم ان الكواكبي وعازوري، قد ناديا بعروبة الخلافة والاستقلال العربي، إلا أنهما لم يذكرنا بصراحة ووضوح أن يتولى شريف مكة الخلافة، وعباس حلمي الثاني الإمارة. لكن يفهم ضمنا بأنهما المقصودين

1- أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 47-48. أنظر أيضا:

Hourani, A, op. cit, 268-270.

2- كان بلنت مدفوعا بسياسة المصلحة البريطانية في الشرق الأوسط. أنظر أنيس الصايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، المرجع السابق، ص 47.

3- المرجع نفسه، ص 48.

لهذين المنصبين، وأن عازوري والكواكي كانا متأثرين بالتيار الفكري السابق، الذي نبه إلى مكانة الأسرة الهاشمية في مكة والأسرة الخديوية في مصر.

3- الاتجاه القومي في التنظيم العربي السياسي:

ويبرز الاتجاه القومي بشكل تجمعات وتكتلات على أساس قومي مع تحديد مستقبل العلاقات العربية التركية. وقد ظهر في هذا المجال اتجاهان متميزان هما:

أولاً: الاتجاه الأول، وهو الاتجاه الانفصالي عن كيان الجامعة العثمانية، بتكوين كيان سياسي عربي في بلاد الشام، فيبرز في جمعية بيروت السرية، والحركة الاستقلالية لعامي 1877 - 1878م، وذلك على النحو التالي:

- جمعية بيروت السرية:

جمعية كان لها الدور الحاسم في التنظيمات العربية السياسية، حيث أنشأها نخبة من المثقفين العرب الذين تخرجوا من الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام 1875م، وقد ضمت أعضاء من المسلمين والمسيحيين والدروز، مشكلين في ذلك جبهة قوية واحدة، متخطين الخلافات الطائفية في سبيل تحقيق الغرض القومي، وهو استقلال سوريا ولبنان عن كيان الدولة العثمانية⁽¹⁾.

وقد بدأت باثني عشر عضواً، ثم ارتفع عدد إلى سبعين عضواً. من بين الأعضاء البارزين: إبراهيم الحوراني، ويعقوب صروف، وإبراهيم البازجي، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس، والياس حبالين. وكانوا يجتمعون سرا في بيروت في مكان يسمى "الروشة" على شاطئ رأس بيروت، حيث يتداولون في الإنجح الوسائل لتحقيق أغراضهم⁽²⁾.

وقد اتبعت الجمعية أسلوب معيناً وهو إثارة الرأي العام في بلاد الشام وحثه على الثورة وإبراز مساوئ الحكم التركي وذلك بالصاق الالفتات بعد منتصف الليل على جدران الجوامع والكنائس، والقنصليات الأجنبية في المدن الرئيسية والتي تحمل مثل هذه المعاني⁽³⁾. وظلت هذه الجمعية تزاوّل نشاطها حتى عام 1883م، عندما

1- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، 79. أنظر أيضاً: مصطفى الشهابي: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 47.

2- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 196.

3- سليم سركيس: سر مملكة، ج1، مطبعة السلام، مصر، 1895، ص 62.

حلّت نفسها بعد أن اشتد الاستبداد الحميدي، وملاحقة جواسيس السلطان لهذا النشاط وفرار معظم أعضائها إلى الخارج⁽¹⁾.

ونستطيع أن نتعرف على برنامج الجمعية السياسي من خلال المنشورات التي كانت تعلقها على الجدران وتنشرها في الأزقة والطرق. ومن هذه المنشورات ثلاثة إعلانات محفوظة بدار الوثائق العامة في كل من فرنسا وبريطانيا. وكانت هذه الوثائق مرسله برفقه الرسائل التي كان القناصل البريطانيون والفرنسيون في كل من دمشق وبيروت يرسلونها إلى السفراء في استانبول⁽²⁾، ويعود تاريخ هذه المنشورات إلى عام 1880 و1881م.

وقد لامت هذه المنشورات أهل الشام سكونهم في الخضوع لحكم الترك وانقسامهم وتعصبهم الذي جعلهم فريسة للأطماع الأوروبية وأكدت الجمعية على أهمية الوحدة، كما هاجمت الأتراك لفشلهم في تنفيذ الإصلاحات التي وعدوا بها قبل عشرين عاما، ولاغتصابهم الخلافة من العرب، وطالبت بتنفيذ هذه المطالب ولو بحد السيف وهي:

- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في بلاد الشام.
- استخدام الوحدات المجنّدة من الأقاليم العربية محليا داخل حدود هذه الإقليم.
- منح الاستقلال للسوريا بالاتحاد مع لبنان.
- إلغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير مع نشر الثقافة.

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ هناك خلافا حول مصدر هذه المنشورات. وقد ظهر هذا الخلاف في الوثائق المذكورة، وكذلك الروايات المتعلقة بالفترة المعاصرة للأحداث. فقد نصب هذا النشاط إلى الوالي التركي في دمشق وهو مدحت باشا، الذي امتدت ولايته من عام 1878 إلى 1880م، حيث اتهم هذا الوالي بأنه كان وراء هذه الحركة للانفصال بسوريا عن الدولة العثمانية، لتكون وراثية من بعده في أسرته، كما هو الحال في مصر. وصاحب هذا الرأي هو سليم سركيس⁽³⁾.

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 61.

2- وقد نشر هذه الوثائق كل من: عبد اللطيف الطباوي، المرجع السابق، ص 787-788. وزين نور الدين زين: نشوء القومية العربية في ملحق الكتاب، كذلك جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 84-85.

3- سليم سركيس: المصدر السابق، ص 62.

وقد روى سركيس بأن مدحت باشا أراد اختبار استعداد السوريين للثورة توطئه لاستقلاله بشؤون سوريا على نحو استقلال مصر. فاستخدم من اخصائه أحمد مهدي الأيوبي وحسن فائز الجابي لاجتذاب بعض الشباب الأذكياء، وتأليف جمعية سرية لنشر إعلانات يختبر مدحت باشا بواسطتها ميول السوريين. ورواية سركيس هذه مبنية على مواقف عليه أثناء إقامته في دمشق في عام 1887م، أي بعد نحو سبع سنوات من بدء ظهور المنشورات والإعلانات. ويضيف الراوي بأن أحد الذين كانوا مسئولين عن تعليق هذه المنشورات قد توفي وخلف وراءه أوراقا اطلع عليها سركيس عند أم الشاب، وهي محفوظة في صندوق. فنصح بإتلافها، لأنه رأى فيها ما يشابه وقائع جلسات الجمعية السرية التي أذاعت المنشورات.

وهذه الأوراق خطر على كل من ذكرت أسماءهم فيها. ثم يقول سركيس: " وهكذا ذهبت تلك الآثار التاريخية ولم يعد منها إلا القليل المدونة في هذا التاريخ"⁽¹⁾.

أما التقارير البريطانية، فإنها تشير إلى أنّ هذه المنشورات تابعة لجمعية بيروت السرية والمنشور الأول مؤرخ في 27 جوان عام 1880م، لكن المنشورين الثاني والثالث فهما بدون تاريخ. والمنشوران الأول والثاني، مرفقان برسالة القنصل البريطاني في بيروت للسفير في استانبول في الثالث من جويلية عام 1880م. أما المنشور الثالث، فانه مرفق برسالة بتاريخ 14 جانفي من عام 1881م⁽²⁾.

ولكن التقارير الفرنسية تشير إلى التطرف في هذا الموضوع بقولها: إنّ هذه المنشورات هي من نشاط جمعيه المقاصد الخيرية في دمشق وأن حمدي باشا الذي خلف مدحت باشا عام 1880م في ولاية سوريا، ومتصرف لبنان رستم باشا قد اتهما الجمعية المذكورة. ويقول تقرير القنصل العام الفرنسي في بيروت بتاريخ 30 جانفي 1880م، أن المنشورات قد حرضت على الثورة، وأن الوالي هدد بإعلان الأحكام العرفية لولا أنّ قدم له وجهاء المسلمين في بيروت تأكيدات خطبه⁽³⁾.

ونخرج من ذلك كله بأن هذه المنشورات هي من صنع جمعية بيروت السرية التي شكلتها النخبة العربية المثقفة والمخرجة من كليه بيروت الأمريكية وذلك لأسباب التالية:

- لقد ثبت أنّ مدحت باشا لم يكن له علاقة بهذه الجمعية، لان المنشور الثالث صدر بعد سحب مدحت باشا من الولاية. وان الوثائق التي ذكرها سليم سركيس هي من وثائق هذه الجمعية.

1- سليم سركيس: المصدر السابق، ص 64.

2- عبد اللطيف الطباوي، المرجع السابق، ص 788.

3- المرجع نفسه، ص 791.

- إن المنشورات كانت من نشاط جمعية بيروت السرية ولم تكن من نشاط جمعية المقاصد الخيرية. وقد روى زين نور الدين زين، أنه في مقابلة أجراها مع أحد أعضاء الجمعية وهو فارس نمر، ذكر أنه قد اشترك في تحرير بعض هذه المنشورات التي نشرتها جمعية بيروت السرية⁽¹⁾.

ومما يلاحظ على جمعية بيروت السرية، أنها لم تكن أول عمل منظم في حركة القومية العربية في بلاد الشام كما يذكر أنطونيوس⁽²⁾، والمؤرخون اللاحقون الذين اعتمدوا عليه، وهم كثيرون، فقد أكدت الوثائق البريطانية اعتمادا على تقارير القناصل المرفوعة من بلاد الشام إلى السفير البريطاني في اسطنبول عن الحركة العربية فيها ان الحركة العربية القومية تعود إلى قبل ظهور جمعية بيروت السرية. ومن هذه التقارير ما جاء في تقرير القنصل البريطاني في حلب "سكين" كتبه عام 1858م وجاء فيه: ان المسلمين في شمال سوريا يكرهون حكامهم الأتراك ويعتبرون إسلامهم ناقص، ويأملون الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية حديثة تحت رئاسة شريف مكة⁽³⁾.

ويعتبر الطباوي أن هذا التيار هو رد الفعل الإسلامي الذي يدل على أن استياء المسلمين في سوريا من التنظيمات العثمانية، وأن أهمية تقرير القنصل البريطاني تكمن في أنه يثبت ان أهل الشام وخاصة المسلمين منهم هم أصل الفكرة التي طبقت في سنة 1916م عندما دعا شريف مكة، حسين بن علي لقيادة حركة الانفصال العربي من قبل الشاميين⁽⁴⁾.

والحقيقة التي يجب ان تذكر في تقييم دور هذه الجمعية في الحركة العربية، هي أنها كانت ذات نشاط واسع. وكان منهاجها السياسي يدعو إلى حد استعمال القوة المسلحة إذا لزم الأمر من اجل الحصول على الاستقلال ووحده بلاد الشام، وكان مشروع الاستقلال هذا علمانيا وقوميا. ورغم أنها أشارت إلى اغتصاب الخلافة الإسلامية من العرب إلا أنها لم تدع إلى خلافة عربية.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الحركة التي كان مركزها الرئيسي في بيروت ولها فروع في مدن الشام، كانت النتيجة العملية للجهود الفكرية والثقافية التي خرجت من لبنان بعد منتصف القرن التاسع عشر، والتي ساهم فيها بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وإبراهيم اليازجي. وكانت هذه الجهود تضرب على وتر الوحدة الوطنية

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 64.

2- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 79.

3- الوثائق البريطانية بتاريخ 31 جويلية عام 1858 تحت رقم F.O 78/1389. أنظر أيضا: عبد اللطيف الطباوي، المرجع السابق، ص 784.

4- عبد اللطيف الطباوي: المرجع السابق، ص 784.

وخاصة بعد مأساة عام 1860م⁽¹⁾. لذلك فإن الاستقلال ووحدة بلاد الشام في مناهج الجمعية السياسي هذه الانطلاقة القومية الحقيقية بعد أن تركت مذابح لبنان الطائفية عام 1860م مظاهرا انفصاليا للبنان بمساعدة الدول الأوروبية الكبرى. وقد لمس الأعضاء في هذه الجمعية حقيقة الوحدة والاستقلال لبلاد الشام في السير بطريق الحركة العربية السليم، وذلك بالتركيز على وحدة اللغة والتاريخ.

غير أن هذه الحركة لم يكن لها اثر حاسم في العلاقات العربية التركية في ذلك الوقت بالانفصال عن كيان الإمبراطورية العثمانية، لأنها كانت سرية من ناحية، ثم اقتضت نشاطها المعادي للأتراك في بعض مدن الشام في الوقت الذي كان فيه الرأي العام الشامي متأثرا بالجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية من ناحية ثانية. لذلك لم تلق التأييد إلا من فئة قليلة العدد، وانعزلت بالتالي عن القاعدة الشعبية الواسعة.

- الحركة الاستقلالية لعامي 1877-1878 م :

ويشير عادل الصلح إلى حركة استقلالية في بلاد الشام بين عامي 1877-1878م قام بها مجموعه من الزعماء الوطنيين في خلال الحرب الروسية التركية التي وقعت في نفس هذا التاريخ، وان هذه الحركة كان مبعثها الخوف على مصير بلاد الشام من ان تقع تحت الاحتلال الأجنبي في حاله انهيار الدولة العثمانية، لأنه كان يعتقد ان هذه الحرب هي جزء من المسألة الشرقية وتقسيم الإمبراطورية بين الدول الكبرى⁽²⁾.

وقد جاءت رواية الصلح عن هذه الحركة في شكل ذكريات عما كان يحدثه والده منح الصلح، وكان الأخير مشتركا في تلك الحركة التي نحن بصدها. ويقول الصلح عن هذه الحركة: "إنها اتخذت لها بيروت منطلقا، وكان السبب في هذا الاختيار إن الرجل الذي كان محركها الرئيسي، وهو أحمد الصلح، كان مقيما في هذه المدينة"⁽³⁾. ويضيف قائلا: "وقد قام أحمد الصلح بجولات في لبنان وسوريا من اجل الاجتماع بزعماء البلاد بعد أن استشار بعض أصدقائه وجميع من يثق به من خلصائه مدة ثلاثة أشهر"⁽⁴⁾، ثم سافروا إلى صيدا، وبعد ذلك إلى دمشق واتصلوا ببعض أصحاب الرأي والمكانة فيها، ثم قصدوا بعد ذلك إلى دمشق وهو مضيف الأمير عبد القادر الجزائري وقضوا في ضيافته ثلاثة أيام تباحثوا معه خلالها عن الأوضاع المرتبكة في البلاد وعواقب هذا الارتباك ووسائل إنقاذ البلاد منه. وكان القصد من هذه الرحلة الشامية هو لتبادل الرأي مع الأمير عبد القادر الجزائري وعدد من الزعماء والتزود بآرائهم تمهيدا للاجتماعات التي ستعقد في بيروت أولا.

1 - Hourani Albert, op. cit, p 277.

2- عادل الصلح: سطور من الرسالة "تاريخ حركة استقلالية في المشرق العربي 1877"، دار الملايين، بيروت، 1966، ص 144.

3- المرجع نفسه، ص 92.

4- المرجع نفسه، ص 93.

وقام أحمد الصلح مع أحمد عباس الأزهري بزيارة إلى شمال البلاد حمص، حماة، اللاذقية، وحلب واجتمعا هناك بزعماء العشائر العلوية كذلك اجتمعا بزعماء الدروز لهذا الغرض.

وفي الاجتماع الذي عقده زعماء البلاد الشامية في دمشق لوضع القواعد والأسس للمواضيع التي تدارسها في اجتماعهم، تقرر العمل على تحقيق استقلال بلاد الشام. وقدم أحمد الصلح اقتراحا بترشيح الأمير عبد القادر الجزائري ملكا على هذه البلاد، فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح. وبتكليف من المؤتمرين، حملة أحمد الصلح القرار للأخير. وقد اصطفاه أهل الشام دون أن يخطر ببالهم أنه ليس من أهل الشام أو المشرق، وأن المشرقي أولى منه بهذا المنصب، لأن النزاعات الإقليمية لم يكن لها أي اعتبار في ذلك الوقت⁽¹⁾.

ويقول الصالح: وقد جرت محادثات مع الأمير عبد القادر ومندوب مؤتمر دمشق وقد رأى الأمير أن يتروى في الأمر لبحث الأمور التالية:

- قضية البيعة.

- ماهية الاستقلال المنشود.

- قضية الخلافة.

بالنسبة للخلافة، كان رأى الأمير أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية القائمة. وبخصوص البيعة، كان من رأيه أن تتم للأمير من أهل البلاد جميعا. وقد وافقه على رأيه في موضوع الخلافة أكثر الجماعة، واتفقوا جميعا على البيعة. أما البند الثالث، فإن المؤتمرين اتفقوا على إقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام وتأجيل البت في مدى هذا الاستقلال إلى انتهاء الحرب الروسية العثمانية وانجلاء الموقف. في الدولة ومصيرها. واعتمدوا في ذلك خطة التريث ريثما يتبين لهم الموقف الدولي المشوش.

وكان على مؤتمر دمشق أن يراقب ما يجري في مؤتمر برلين، ليتخذوا على ضوء ذلك موقفهم الأصوب، إذا تبين أن إحدى الدول الأجنبية تهدف إلى الاستيلاء على بلاد الشام، فلا بد في هذه الحالة من طلب الاستقلال التام. أما إذا تبين أنه ليس ثمة نوايا من الدول الأجنبية احتلال البلاد فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي كما هو الحال في مصر.

1- عادل الصلح: المرجع السابق، ص 96.

أعلن عن اختتام مؤتمر دمشق، وتفرق الأعضاء كل إلى بلده، وعددهم ثلاثون شخصا، بعد ان اعتبروا المواطنين الجزائريين الذين وفدوا البلاد بعد قدوم الأمير عبد القادر، نواة قوة محاربة، لأنها مدربة على القتال واستعان بها عند الضرورة، وكان قوامها ستة آلاف رجل.

ومن ناحية أخرى، فقد ترك الأمير دمشق ليقوم برحلات دعائية في مختلف أنحاء البلاد بصحبة بعض الأعيان، كما أرسلوا وفدا إلى الأقطار الأوروبية يعمل لكسب تأييد دولها لقضية الاستقلال⁽¹⁾.

ثم يضيف الصلح قائلا: ورغم السرية التامة في هذه الحركة إلا أن الأمير عبد القادر الجزائري، تلقى أربع رسائل من يوسف كرم وهو متصرف لبنان الذي يعيش في المنفى بروما. وقد قدم في هذه الرسائل، مشروعا بتأسيس دولة عربية مستقلة عن السلطنة العثمانية. ونص المشروع على ان تشمل الدولة القسم الآسيوي من بلاد العرب، وان يكون نظام الحكم فيها اتحاديا كونفدراليا، وان يتولى رئاستها الأمير عبد القادر الجزائري⁽²⁾.

أما نهاية الحركة فيشير إليها الصلح بقوله: " وقد جعل اتفاق الدول الأجنبية فيما بينها في مؤتمر برلين، ومهادنتها للدولة العثمانية من جهة، والتدابير التي لجأت إليها السلطات، وحملات التشديد على أبناء البلاد من جهة ثانية، كل ذلك جعل تلبية أعمال المؤتمر وتنفيذ قراراته في تلك الظروف أمرا مستحيلا"⁽³⁾. وبذلك بقي المشروع معلقا بالأذهان حيث لم يخرج إلى حيز الوجود.

ويشير محمد جميل بيهم إلى مثل هذه الحركة، حيث روى عن عمه حسين بيهم وهو الذي رأس الجمعية العلمية السورية بعد الأمير ارسلان مايلي: " كان حسن بيهم والأمير ارسلان على اتصال بالشريف عبد المطلب أمير مكة وكان هذا الأمير يعمل حركه ثورية ضد تركيا بالاتفاق مع الأمير عبد القادر الجزائري المقيم بدمشق وربما كان لفرنسا يد في هذه المحاولة"⁽⁴⁾.

كذلك تشير الوثائق البريطانية إلى أن مثل هذه الحركة قد حدثت أيضا، وذلك من تقرير جاء لسفير بريطانيا في اسطنبول، والذي زار سوريا في عهد ولاية مدحت باشا، وقد سأل السفير مدحت باشا عما يعلمه عن مؤامرة إسلامية أو عربية مركزها مكة أو المدينة وغاياتها تأسيس إمبراطورية عربية، وانبث دعايتها في جميع أنحاء السلطنة يمهّدون للثورة فأجابه مدحت باشا: " أنه علم برجل من أهل الحجاز اسمه الشيخ علي وكان يبذل

1- عادل الصلح: المرجع السابق، ص 97-102.

2- أنيس الصايغ: الهاشميون والثورة العربية، المرجع السابق، ص 45. أنظر أيضا: عادل الصلح: المرجع السابق، ص 105-110.

3- عادل الصلح: المرجع السابق، ص 126.

4- محمد جميل بيهم: العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، د.د.ن، بيروت، 1957، ص 114.

جهده لاكتساب أعضاء الجمعية السرية، وأن دعوته صادفت نجاحاً حتى بين الجنود، وأنه أسس لجمعية فروعاً في سوريا، وهي سرية انضوى فيها أعضاء من المسلمين والمسيحيين، وأن غرضها تخليص البلاد من سوء الحكم العثماني وتأسيس نوعاً من الحكم الذاتي". فأجاب السفير: "وعندي ما يؤكد أن هذه اللجان السرية في سوريا مكونة من المسلمين والمسيحيين، وأن غرضها تخليص البلاد من سوء الحكم العثماني وتأسيس الحكم الذاتي العربي"⁽¹⁾.

من هذه الروايات والوثائق التي تحدثت عن الحركة العربية في بلاد الشام منذ عام 1858م، وعن مسألة تكوين دولة عربية في بلاد الشام أو مضافاً إليها الولايات العربية العثمانية، نستطيع أن نستنتج الأمور التالية:

- أنه كان هنالك مثل هذه الحركة، لكنها كانت في أذهان نخبة من الزعماء والوجهاء العربية قليلة العدد⁽²⁾. وكان تيار الانفصال عن الدولة العثمانية يسير ببطء شديد، ويشهد في الأزمات التي تمر بها الدولة العثمانية، كالحروب الخطيرة والتحولت التي كانت تسير فيها الدولة في عهد الإصلاح.

- كان مبعث هذه الحركة هو الخوف على مستقبل البلاد العربية العثمانية من أن تقع تحت نير الاستعمار الغربي من ناحية، والإحساس بشعور القومي من ناحية ثانية.

- رددت المذكرات والروايات العربية المعاصرة، والوثائق الأجنبية، أسماء شخصيات عربية ذات مكانة اجتماعية في الوسط العربي مثل شريف مكة وعبد القادر الجزائري وخديوي مصر، وترشيح هذه الشخصيات للزعامة إنما يدل على وجود الروح القومية العربية، وعلى أن الحركة العربية واحدة لا تتجزأ.

- كان هنالك اهتمام من قبل الدول الأوروبية بهذه الحركة وخاصة بريطانيا وفرنسا. ودليل ذلك متابعه قناصل هذه الدول للحركة العربية في شكل تقارير تقدم باستمرار عنها إلى حكوماتهم. وطبيعي أن يأتي هذا الاهتمام في خضم التسابق الاستعماري للشرق العربي وخاصة بين فرنسا وبريطانيا منذ الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في فترته بين 1798-1801م. وتدل الوثيقة البريطانية المؤرخة بتاريخ 23 ماي من عام 1878م، على أن الحكومة البريطانية قد اتفقت مع السلطان العثماني لاحتلال جزيرة قبرص⁽³⁾، لتكون قاعدة بحرية لبريطانيا في شرق

1- عبد اللطيف الطباوي: المرجع السابق، ص 786.

2- وكانت موفورة الحظ من الناحية الثقافية والاحتكاك بالثقافة الغربية بسبب وضعها الاقتصادي.

3- عبد اللطيف الطباوي: المرجع السابق، ص 781. وعن الوثيقة البريطانية السرية خاصة برئاسة الوزارة البريطانية، وهي تحت رقم F.O

78/2768.

أنظر أيضاً: Marriot Sir J.A.R: *The Eastern Qustion*, Oxford, 1958, p 398.

البحر الأبيض المتوسط حتى تستطيع بريطانيا أن تقف في وجه أي محاوله روسيا في التوسع على حساب أراضي الإمبراطورية العثمانية من ناحية، كذلك فإن الاتفاق بشأن قبرص سيوطد حكم السلطان العثماني في سوريا، ويمنع الدسائس لتحريض أهلها على الثورة، كما ان هذه القاعدة البريطانية سوف تحمي قناة السويس، وخاصة من قبل فرنسا من ناحية ثانية.

- إذا كانت هذه الفئة، وهي في الوجهاء العرب قليلة العدد، قد اتبعت أسلوب التخطيط وإعداد المصير الذي سيؤول إليه مستقبل بلاد الشام السياسي، إلا أن باقي الجماهير العربية في المنطقة قد سارت في طريق مختلف تماماً، وهو طريق الانتفاضات الشعبية المسلحة والثورات العفوية دون تخطيط سابق في مواجهة الاضطهاد والإرهاب الحميدي، ومثال ذلك ثورة الدروز في الجبل خلال عام 1896 و 1899م عندما حاولت السلطات العثمانية تطبيق نظام التجنيد الإجباري بين الدروز. كذلك الثورة تجددت في حوران وجبل عام 1906م. ومن الثورات أيضاً ثوره العربان في الكرك عام 1910م. وكانت أكبر الانتفاضات التي قام بها سكان المدن هي الاضطرابات التي وقعت في حلب عام 1895م، وفي بيروت عام 1903م. ومما يلفت النظر، ان جميع هذه الثورات كانت عفوية ومحلية، ولم تشكل خطراً يهدد السلطات التركية. واستطاع الأتراك أن يقمعوا هذه الانتفاضات الشعبية المفككة الأوصال⁽¹⁾.

أما الاتجاه الثاني: وهو التنظيم القومي العربي الذي يهدف إلى بعث القومية العربية بخصائصها المميزة، ضمن نطاق الجامعة العثمانية، فقد ظهر بتنظيمان:

- جمعية النهضة العربية:

وقد تشكلت هذه الجمعية على أساس من القومية العربية من قبل مجموعة من المفكرين العرب على رأسهم محب الدين الخطيب. وقد اختلفت الروايات في مكان وزمان نشوء هذه الجمعية. فرأى يقول أنها نشأت في دمشق عام 1903م ثم كونت لها فروعاً في استانبول⁽²⁾. ورأى آخر يقول أنها تأسست في دمشق عام 1906م، ثم تأسس لها فروع في استانبول بواسطة محب الدين الخطيب في نفس السنة⁽³⁾. ورأى ثالث يقول أنها تأسست في استانبول عام 1906م ثم انتقلت إلى دمشق لتحل محل حلقة الشيخ طاهر الجزائري عام 1907م⁽⁴⁾.

1- لوتسكي: المرجع السابق، ص 391.

2- مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 54.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق. اعتماداً على مذكرة بعث بها لطفي الحفار للمؤلف وهو أحد أعضاء الجمعية.

4- صالح الخرفي: مذكرات محب الدين الخطيب، نشر مجلة الثقافة الجزائرية، العددان 8-9، 1972م، ص 82.

والأرجح أنها كانت فكرة في عام 1903م في أذهان المؤسسين لها في دمشق ثم أصبحت حقيقة في الأستانة ثم دمشق. ويروى بهذا الشأن محب الدين الخطيب قوله: "ها لي عند وصولي إلى استانبول عام 1906م كطالب حقوق في هذه البيئة الجديدة، ان جميع أبناء العرب من سوريين وفلسطينيين وغيرهم يجهلون قواعد لغتهم وإملائها فضلا عن آدابها وثقافتها، ويتكلمون حتى فيما بينهم باللغة التركية، وليس فيهم احد له رسالة سامية في الحياة، أو مطمع، إلا أن يتقن اللغة التركية ليكون مستعدا للوظيفة"⁽¹⁾.

ويضيف الخطيب بان عارف الشهابي ومحب الدين الخطيب انشأ حلقتين صغيرتين منفصلتين في استانبول، إلا أن هاتين الحلقتين اتحدتا لتكونا نواة جامعة عربية. وكان ذلك في 24 ديسمبر من عام 1906م. وقد اقترح الخطيب تسمى هذه الجمعية "جمعية النهضة العربية"⁽²⁾.

وكانت هذه الجمعية توزع المجلات والصحف العربية على العرب في استانبول، والتي كان يرسلها محمد كرد علي من القاهرة سرا، لأنها كانت تتهاجم الحكم التركي وتمنع الحكومة دخولها. كما أقامت الجمعية أول حفل عام لها في استانبول في 13 جوان من عام 1907م في بيوك أضة بمدينة احد أعيان العراق وهو أحمد باشا الزهير. وقد القي محب الدين الخطيب في هذا الحفل خطبه طويلة بعنوان "واجباتنا" وكذلك تبعه الأمير عارف الشهابي بإلقاء قصيده طويلة بعنوان "نحن والأغيار"⁽³⁾.

وفي عام 1907م انتقلت هذه الجمعية إلى دمشق لتحل محل حلقة طاهر الجزائري. ويروى محب الدين الخطيب عن كيفية تأسيس فرع الجمعية في دمشق فيقول: "بأنه كان له أصدقاء في دمشق مثل صلاح الدين القاسمي ولطفي الحفار، وقد أرسل لهم رسائل من استنبول يخبرهم عن تأسيس الجمعية في استانبول. وقد اقترح عليهم أن يؤسسوا فرعا في دمشق. وقد تم ذلك في بادئ الأمر من خمسة أعضاء، وبعد ثلاثة أشهر اجتمع اغلب أعضاء المركز في العطلة الصيفية بالفرع المؤسس بدمشق، ومن توحد الفرع والمركز العام. وقد قررت الجمعية على جعل دمشق مركزا عام لها بدلا من استانبول"⁽⁴⁾، حيث أطلق عليها أيضا اسم حلقة دمشق الصغيرة⁽⁵⁾.

وفي دمشق انتخبت الجمعية الهيئة التنفيذية لها، حيث تكونت من السادة محب الدين الخطيب رئيسا ورضا مردم نائبا ورشدي الحكيم محاسبا وجمال الحفار أمينا للصندوق وزكي الخطيب كاتباً. وبعد حين دعت الحال إلى

1- صالح الخرفي: المرجع السابق، ص 82.

2- المرجع نفسه، ص 85.

3- المرجع نفسه، ص 86.

4- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 5.

5- مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 53.

ان يغادر محب الدين دمشق إلى الأستانة فحل مكانه رضا مردم للرئاسة وحكمت المردى نائب للرئيس ولطفي الحفار وجمال الحفار عضوين في اللجنة الإدارية وصلاح الدين القاسمي معاوناً للكاتب⁽¹⁾.

أما برنامج الجمعية فيما يلي⁽²⁾:

- نشر التراث العربي في ندوات فكرية وأدبية.

- تعليم اللغة العربية في حلقتين تعقد مرتين في الأسبوع ليلاً من كل يوم الثلاثاء والخميس⁽³⁾.

- جمع الأموال من الأعضاء وعمل مسرحيات تمثيلية والاستفادة من ربحها لفتح المكتبات ومراكز تعليم اللغة العربية⁽⁴⁾.

- القيام بتنوير فكري على أسس من القومية العربية في ندوات ومحاضرات عامة في السر والعلانية.

ويروى محب الدين الخطيب في مذكراته شيئاً عن النشاط الفكري والثقافي الذي كان يقوم به صلاح الدين القاسمي في الجمعية. ومن أشهر محاضرات القاسمي "العلم والاجتماع" و"القومية والأمم"، ونشرت في جريدة المقتبس، وكذلك "التعليم بالعربية"، وبحث عن الثورة الفرنسية، و"الخطر الأصفري الكوليرا والصهيونية". تنبه القاسمي في عام 1911م إلى أخطار الصهيونية، عندما عرف بتأسيس شركة مساهمة عثمانية، لشراء الأراضي في فلسطين، وقد ربط في محاضرته بين هذا الخطر، وخطر انتشار وباء الكوليرا في نفس العام. أشار في محاضرته إلى أن استغلال رؤوس الأموال الصهيونية للمصالح العثمانية، يجعل الشركة مركزاً أجنبياً صهيونياً، فإذا تحققت مطامعهم في فلسطين، استبدوا بالأمة العربية، واستعبدوا العرب، وطاردوا العناصر القومية⁽⁵⁾.

كما عبر بأسلوب علمي واضح عن الفكرة القومية وأهميتها كرابطة للأمة العربية، فیدعو العرب إلى الفكرة القومية، في محاضرته "القومية والأمم"⁽⁶⁾.

1- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 9-10

2- المصدر نفسه، ص 3-13.

3- وقد بدأ التدريس منذ 16 فيفري عام 1909 ونذب لهذه المهمة الأستاذ أحمد النويلاتي.

4- وقامت بتمثيل أول رواية عربية فتاة الدستور في مارس من عام 1909.

5- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 93.

6- مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية: تاريخها وقوامها ومراميها، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959، ص 56.

ومن هنا تبرز أهمية جمعية النهضة العربية في بعث القومية العربية من جديد كذلك تعود أهميتها إلى أنها كانت الأساس الذي انبثق منه معظم القوميين العرب الذين شكلوا الأحزاب السياسية والجمعيات القومية التي تحملت مسؤولية المطالبة بحقوق العرب في الفترة اللاحقة، وهم الذين مهدوا الثورة العربية عام 1916م، وقاموا بالاستعمار أيضا⁽¹⁾.

غير أن هذه الجمعية قد تحولت في عام 1909م إلى "جمعية النهضة السورية" عندما صدر قانون الجمعيات في عهد الاتحاديين، وهو القانون الذي يمنع تسميه الجمعيات والنوادي بأسماء قومية. ثم تحولت إلى "جمعية النهضة" فقط لان حكومة الاتحاديين فرضت عليها بان يكون نشاطها في المجال الثقافي فقط الذي يتمثل في الأمور التالية⁽²⁾:

- التعاون بين الأعضاء في المصالح المادية والأدبية.

- العناية باللغة العربية وآدابها.

- إنشاء الأماكن العلمية.

وعلى ذلك، لم يعد لهذه الجمعية دور كبير في المجال القومي والتوعية السياسية سوى الاهتمام باللغة العربية. وظلت على هذا الحال إلى ان حلت في عام 1914م.

- حلقة الشيخ طاهر الجزائري:

كان الشيخ وراء إنشاء جمعيه المقاصد الخيرية، وعندما أغلقت هذه الجمعية من قبل السلطان العثماني، اتجه إلى عمل حلقات سرية في دمشق، وهي حلقات أدبيه وثقافية وهدفها إبراز أهمية التاريخ العربي ونشر الثقافة العربية وخاصة اللغة العربية أو إبراز الشخصية العربية بمقوماتها التاريخية واللغوية⁽³⁾.

ويروى محب الدين الخطيب عن هذه الجمعية بقوله: " وحتى عام 1907م كانت حلقة الشيخ بدمشق لا تزال تعقد اجتماعاتها بعد ظهر كل يوم جمعه من الأسبوع في منزل رفيق العظم⁽⁴⁾. وكان يشارك في هذا الاجتماع

1- مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية ، المرجع السابق، ص 56.

2- صالح الخريفي: المرجع السابق، ص 99.

3- مصطفى الشهابي: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 51-52.

4- صالح الخريفي: المرجع السابق، ص 94.

الاجتماع صفوة من المفكرين العرب منهم: رفيق العظم ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب، إلا أن الشيخ طاهر الجزائري ورفيق العظم ومحمد كرد علي سافروا إلى القاهرة، وبقي محب الدين الخطيب يجتمع كل أسبوع مع باقي الأعضاء منهم: سليم الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي وفارس الخوري، إلى أن حل مكان هذه الحلقة، جمعيه النهضة العربية عام 1907م⁽¹⁾.

4- التنظيم القومي العربي في عهد الاتحاديين:

لقد تعددت الظروف التي أثرت تأثيرا مباشرا على الحركة العربية في الولايات العربية نحو التكتل والتنظيم الحزبي في عهد حكم حزب الاتحاد والترقي التركي. من هذه الظروف: حركة تركيا الفتاة الدستورية، ودور العرب في تنظيمات هذه الحركة، ثم سياسة الاتحاديين في الإدارة والحكم التي تميزت بالمركزية، والاستعلاء العنصري التركي على حساب القوميات في الدولة العثمانية. وهو التيار الذي انبعثت منه القومية التركية التي تبلورت بشكل نهائي بميلاد الجمهورية التركية على يد مصطفى كمال أتاتورك في أكتوبر من عام 1923م⁽²⁾، ثم إلغاء نصف الخلافة الإسلامية في مارس من العام التالي، لتصبح تركيا دولة علمانية حديثة تقوم على أسس قومية⁽³⁾. وأخيرا موقف العرب في بلاد الشام من إعلان الدستور العثماني عام 1908م، وهو الموقف الذي امتاز بردود فعل عاطفية تجاه الرابطة العثمانية مع الترك، وأخرى قومية نتيجة لسياسة الاتحاديين بعد هذا الدستور.

أ- دور العرب في حركة تركيا الفتاة:

وقد شارك العرب العاملون بالقضية العربية في حركة تركيا الفتاة، إيمانا منهم بتحسين أوضاع الإمبراطورية بشكل عام، مدفوعين بتيار الجامعة العثمانية، والجامعة الإسلامية وهما الرابطة التي تجمع العرب بالترك، ومن هذا المنطق، نادوا بالإصلاح السياسي والاجتماعي للدولة بالمشاركة في حركة تركيا الفتاة، أملا في الوصول إلى اللامركزية في الإدارة العامة ووضع حد للاستبداد الحميدي، وذلك بإعلان الدستور المعطل وإطلاق الحريات العامة.

وتتمثل هذه المشاركة في تشكيل جمعية سرية في القاهرة في عام 1897م من الشاميين المقيمين فيها وهي "جمعية الشورى العثمانية". ويذكر محمد رشيد رضا أن هذه الجمعية كانت أول جمعية سياسية أسست في مصر من قبل الشاميين المهاجرين إليها، كما شارك في عضويتها أشخاص من سائر شعوب الدولة العثمانية، وفي

1- صالح الخريفي: المرجع السابق، ص 94.

2 - Robison Richard: **The First Turkish Republic**, U.S.A, 1963, p 1.

3- نقولا زيادة: **العروبة في ميزان القومية**، دار العلم للملايين، بيروت، 1950، ص 54.

مقدمتهم الترك والشركس والأرمن. ومن هؤلاء: عبد الله جودت، أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي في الأستانة والمقيمين في مصر بعد الفرار من ملاحقه عبد الحميد للحركة، وكان يشغل منصب السكرتير التركي بها. كما شغل رفيق العظم منصب أمين صندوق الجمعية، وحقى العظم سكرتيرها العربي، ورشيد رضا رئيس مجلس إدارتها.

وقد تأسس لهذه الجمعية فروع في داخل الإمبراطورية وخارجها، واتبعت أسلوب طبع المنشورات باللغتين العربية والتركية، وكانت ترسلها إلى فروع الجمعية في الدول الأجنبية، يقومون بدورهم بإرسالها إلى داخل الإمبراطورية، كما كانت بعض هذه المنشورات ترسل مع المسافرين على البواخر الروسية المتجهة إلى ثغور البحر الأسود فيأخذها من يتولى توزيعها في بلاد الأناضول، ثم باقي الولايات⁽¹⁾.

وأصدرت الجمعية في فيفري من عام 1907م صحيفة تحمل اسمها " الشورى العثمانية " بدلا من المنشورات، وكان رفيق العظم يحرر القسم العربي بها، وحقى العظم القسم التركي، كما كانت بعض المقالات تصدر باللغة الفرنسية.

ويضيف رشيد قوله بأن أحمد رضا جاء من باريس إلى القاهرة في مهمة توحيد الجمعية مع جمعيه الاتحاد والترقي، ومع ان التوحيد لم يتم، إلا أنه اتفق على التعاون بالعمل مع بقاء كل جمعية على ما هي عليه من نشاط كجناح من أجنحة حركة المطالبة بالإصلاح والكفاح من اجل الصالح العام للدولة العثمانية⁽²⁾ وقد ظلت الجمعية " جمعية الشورى العثمانية " تقوم بنشاطها حتى حلت بعد إعلان الدستور عام 1908م.

ب- الموقف العربي من إعلان الدستور العثماني:

لقد حركت الثورة الدستورية عام 1908م في العرب في بلاد الشام وفي جميع الولايات العربية العثمانية، المشاعر العاطفية في التمسك بالرابطة العثمانية من ناحية، ثم التمسك بالقومية العربية من ناحية ثانية. ومن ثم فإن هذه الحركة الدستورية أدت إلى رد فعل عاطفي عند العرب كباقي القوميات في الدولة وذلك بترحيبهم بشعارات الحرية والعدالة والمساواة، لاعتقادهم بان جميع الشعوب العثمانية سوف تتمتع بالعهد الجديد بما تطلع إليه من فرصه المساواة التامة في الحقوق والواجبات.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الترحيب جاء كرد فعل لعهد الظلم والاستبداد الحميدي الذي دام ما يقارب من الثلاثين عاما، شارك خلالها العرب والترك معا في العمل على التخلص من هذا العهد البغيض.

1- عثمان العظم: مجموعة آثار رفيق العظم، أخذ عن مقدمة الكتاب بقلم رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، 1925م.

2- المصدر نفسه، عن المقدمة.

أما المشاعر القومية فقد حركتها العنصرية التركية على يد جمعية الاتحاد والترقي عندما حولت الثورة الدستورية إلى انقلاب عسكري لصالح العنصر التركي وحده دون القوميات الأخرى، وخاصة العربية التي كانت تشكل أكبر عناصر الدولة⁽¹⁾.

- رد الفعل العاطفي:

ويتمثل رد الفعل العاطفي بالولاء للدولة العثمانية والعهد الجديد في المهرجانات التي أنشئت في المدن الرئيسية مثل بيروت ودمشق وحلب. ففي دمشق، احتفلت جمعية النهضة العربية بهذه المناسبة، فأقامت مهرجاناً كبيراً على مسرح القوتلي بعد إعلان الدستور بأيام قليلة. وفي هذا المهرجان، ألقى أعضاء الجمعية خطاباً حماسياً أشادت بالدستور والارتباط بالدولة العثمانية، والإخوة العربية التركية في عهد الحرية والإخاء والمساواة التامة. فقد ألقى رشدي الحكيم خطاباً بعنوان "أمنية الأمانى" وزاكي الخطيب بعنوان "على سلم الارتقاء" وصالح الدين القاسمي بعنوان "سماء تركيا" ولطفي الحفار بعنوان "الماضي والحاضر"⁽²⁾.

كما أظهرت الصحف الشام التي صدرت في تلك الفترة عن عمق ذلك الانفجار العاطفي فامتلات الصحف بمئات القصائد الشعرية والأناشيد الوطنية، وكانت جميعها معبرة عن عواطف الأمة تجاه الحدث العظيم الذي جعلها تسبح في خضم واسع من الأمانى والآمال، لقد عاشت الرابطة العثمانية عصرها الذهبي في غمرة الفرحة بالعهد الجديد⁽³⁾.

ومما يستلفت النظر في هذا الموقف العربي أن الطبقة العربية الواعية وهي المثقفة ثقافة حديثه، والرائدة في الحركة العربية، قد تخلت مؤقتاً في غمرة الفرحة عن المبادئ التي نادى بها من قبل، وهي المبادئ التي تمثلت في ثلاث اتجاهات فكرية رئيسية وهي:

- عروبة الخلافة.

- الانفصال التام عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية موحدة في بلاد الشام.

-
- 1- قدر عدد سكان الدولة في عام 1908 ب 22 مليون نسمة، منهم 7.5 مليون أتراك، و 10.5 مليون عرب، و 4 ملايين قوميات أخرى. أنظر سليمان موسى: المرجع السابق، ص 26.
 - 2- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 7.
 - 3- احسان عسكر: المرجع السابق، ص 92-93.

- الإصلاح العام للدولة العثمانية مع إطلاق الحريات العامة لجميع العناصر في الدولة على أساس من اللامركزية الإدارية.

وقد اكتفت هذه الطبقة باكتساب الحقوق الدستورية فقط متخلفة عن جميع الحقوق القومية التي ذابت في خضم المواطنة العثمانية. ومثال ذلك المقال الذي نشره شبلي شميل في جريدة الأهرام مطالباً فيه الحكومة العثمانية الجديدة بأن تفرض على أقطار الإمبراطورية لغة واحدة مشتركة، ولتكن هذه اللغة هي اللغة التركية، لأنها معروفة لدى جميع شعوب الدولة تقريباً⁽¹⁾. كما أيد هذا الاتجاه سليمان البستاني في كتابه⁽²⁾ حيث يقول: "إن أعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين، وأعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية، وجعل تعلم اللغة التركية إجبارياً".

ورد كل من رفيق العظم وحقي العظم وهما من رجالات الحركة العربية على منشور أصدرته الجمعية السورية في باريس برئاسة رشيد ونحلة مطران، وهو المنشور الذي جاء في جريدة المؤيد⁽³⁾، والذي يدعو إلى الاستقلال الإداري لسوريا، فوصفا هذا المنشور بأنه دعوه انفصاليه لسوريا عن الدولة العثمانية، وأنه ليس سوى بذرة من بذور التفرقة بين صفوف الأمة العثمانية⁽⁴⁾. وعلى المستوى الشعبي، فقد استنكرت الجماهير هذه الدعوة. ففي دمشق رفعت وثيقة موقعة من قبل ثلاث مئة شخص إلى الحكومة التركية تصف المنشور بالاستهزاء⁽⁵⁾.

- رد الفعل القومي:

ويتمثل هذا الرد القومي في تشكيل جمعية "الإخاء العربي العثماني" ثم تكوين الكتلة النيابية العربية في البرلمان العثماني، كذلك مبايعه الشريف حسين بالخلافة.

- جمعية الإخاء العربي العثماني:

وقد تشكلت في 2 ديسمبر 1908م من قبل الجالية العربية المتواجدة في استانبول، بجهود شفيق بك المؤيد وصادق العظم وشكري الأيوبي وعبد الكريم الخليل من دمشق، وشكري الحسيني من القدس، مع مجموعه من النواب العرب في البرلمان العثماني.

1- الأهرام: 1909/3/8.

2- سليمان البستاني: المصدر السابق، ص 98.

3- المؤيد: 1909/1/17.

4- الأهرام: 1909/1/18، 1909/1/21.

5- محمد صالح منسي: المرجع السابق، ص 97.

ونص نظام الجمعية على حق كل عربي بالانتساب إليها إذا كان متصفا بحسن الخلق والسيرة وغير فاقد الحقوق المدنية، ووصف العربي بأنه الشخص المولود في بلاد العرب والمتكلم باللغة العربية والذي اتخذ بلاد العرب موطناً له، كما نص نظام الجمعية وبرنامجها على الأمور التالية⁽¹⁾:

- السعي لتأييد العدل والحرية والمساواة بين العناصر العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم فيما بينهم.
- جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة بينهم، لخدمه الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلفة.
- معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي.
- السعي لإعلان شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائل والتدابير لنشر العلوم والثقافة العربية. ومن ذلك تأسيس المدارس وإصدار الجرائد وزيادة ثروة الأهلى بنذل النصائح والإرشادات اللازمة لتأسيس المعامل والشركات الزراعية والصناعية والتجارية، وتحضير البدو.
- وقد أغلقت الحكومة الاتحادية هذه الجمعية في أبريل عام 1909م بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني والاستيلاء على السلطة مباشرة. ومما يلاحظ على هذه الجمعية ما يلي:
- لقد مر عهد الجمعية القصير الأمد (ديسمبر عام 1908 - أبريل عام 1909م) بمرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى عندما كان الأعضاء المؤسسين متأثرين بالرد الفعل العاطفي تجاه الدولة العثمانية، فسارعوا إلى تشكيل جمعيه عربيه هدفها الأول توثيق الوفاق العربي التركي في ظل الدستور العثماني، ودليل ذلك أول بند من بنود برنامجها العملي الذي نص على معاونه جمعيه الاتحاد والترقي في المحافظة على الدستور، وحضور عدد من زعماء الحزب جلسات مجلس الجمعية التأسيسي، وفي هذه المرحلة أيضاً نجد من خلال برنامجها الاعتدال في المطالبة بالحقوق القومية، حيث أن هذا البرنامج لم يتجاوز تعريف الأمة العربية بأنها جزء لا يتجزء من الأمة العثمانية ككل، وذلك رغم المطالب القومية المقتصرة على الثقافة العربية فقط.

1- أسعد داغر: ثورة العرب، مطبعة التقدم، القاهرة، 1916، ص 26. أنظر أيضاً: أحمد قدرى: مذكراتي عن الثورة العربية، مطابع ابن زيدون، دمشق، 1956، ص 8-9.

أما المرحلة الثانية، فتشير الدلائل⁽¹⁾ إلى تحول تام في الأهداف لهذه الجمعية نحو القومية العربية، وأن هذا التحول يعود إلى سياسة حزب الاتحاد القومية، وذلك بمضمّن الحقوق القومية العربية والانفراد بالسلطة. لذلك فإن هذه الجمعية أخذت تركز على الحقوق العربية بشكل عام، وقد اتصف هذا العمل القومي بالسرية التامة، كما أيد الجمعية من رجالات الحركة العربية في بلاد الشام كل من: عبد الوهاب الانجليزي، وحقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ورضا الصلح والدكتور حسين حيدر والشيخ رشيد رضا. وأسست ناديا لها وجريده تنطق باسمها، وهي بنفس الاسم، وكان يحررها شفيق المؤيد. وكانت المقالات التي تنشرها هذه الجريدة تهدف إلى توسيع فكره الاستقلال العربي، وقد أسست لها الفروع في بيروت ودمشق لهذا الغرض.

ومن جملة ما قامت به من أعمال قومية إعطائها عبد الغني العريسي المال لإنشاء جريدة "المفيد" البيروتية، وهي الجريدة التي أطلقت العنان للمطالب القومية، كما أنها كانت وراء توحيد السياسة العربية في البرلمان العثماني. وقد مثل النواب العرب تكتلا سياسيا معارضا سياسة حزب الاتحاد والترقي القومية⁽²⁾.

- لا يوجد أي دليل على مشاركة هذه الجمعية في الحركة الرجعية المضادة التي قام بها عبد الحميد الثاني للقضاء على الثورة الدستورية في عام 1909م، وهي التهمة التي وجهتها الحكومة الاتحادية ضد الجمعية لتكون ذريعة لإغلاقها⁽³⁾.

ج- الكتلة النيابية العربية في البرلمان العثماني:

ومن الأمور القومية التي برزت في عهد الدستور بعد إعلانه، تشكيل الكتلة النيابية العربية في المجلس النيابي وموقف هذه الكتلة القومي تجاه سياسة الاتحاديين، بعد المشاركة في هذه النيابة⁽⁴⁾. ومن الملاحظ على هذه

1- ومن هذه الدلائل كتاب "إيضاحات" بقلم جمال باشا، قائد الجيش الرابع وهو تقرير عن التبريرات التي ساقها جمال باشا لإعدام الزعماء القوميين العرب في عامي 1915، 1916. وقد أتهم الجمعية بالعمل للانفصال العربي عن الدولة العثمانية. أنظر كتاب: أحمد جمال باشا: إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها ديوان الحرب العرفي المتشكل بعالية، نشرها قائد الجيش الرابع، إستنبول، 1916، ص 8-10.

2- المصدر نفسه، ص 10.

3- المصدر نفسه، ص 10.

4- مثل ولاية بيروت، كل من رضا الصلح وسليمان البستاني وفؤاد خلوصي وأسعد شقير ومحمد أرسلان وأحمد خماش. ومثل ولاية حلب كل من ازتين أفندي ورفعت أفندي وعلي جنائي بك ومسعود أفندي ونافع باشا والحاج حسن أفندي وحمد شكري أفندي. ومثل ولاية سوريا كل من رشدي الشمعة وشفيق المؤيد وعبد الرحمن بك اليوسف ومحمد العجلاني وخالد البرازي وعبد الحميد الزهراوي وسعد الدين المقدار وتوفيق المجالي. أما متصرفية دير الزور فقد مثلها خضر لطفي، كما مثل متصرفية القدس كل من حافظ السعيد وروحي الخالدي وسعيد الحسيني. أنظر محمد دروزة: المصدر السابق، ص 300.

المشاركة، إنها لم تمثل بلاد الشام بجميع أقسامها الإدارية، لأن لبنان لم تشارك في البرلمان العثماني، وذلك بعد أن أبدى القسم الكبير من اللبنانيين الرغبة في الإبقاء على امتيازات التي يتمتع بها، بدعوى أن اشتراك جبل لبنان في البرلمان سيقضي على استقلاله وامتيازاته الخاصة⁽¹⁾.

ومن الأمور التي تلفت الانتباه في المناقشات النيابية، ما أثاره نائب دمشق شكري العسلي في مارس من عام 1911م، حول قضيه توزيع الوظائف في الدولة، فقد أثاره موضوع إعطاء العرب حقهم في وظائف الدولة، حين أعلن إمام المجلس النيابي أنه باستقصاء أسماء الموظفين المنشورة في التقويم العثماني لم يجد بينهما إلا أسماء قليلة جدا من العرب، مع أنهم يشكلون نصف عدد سكان الدولة، ومع أن العرب يشتركون مع بقية العناصر في دفع الضرائب، فلا بد من وضع قانون عادل لتوزيع وظائف الدولة، وأعلن نائب دمشق أنه يتكلم باسم الأمة العربية لتحقيق هذا المطلب العادل⁽²⁾.

وفي العام نفسه أثار شكري العسلي وروحي الخالدي مندوب القدس قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وكان قد مهدا لها بتوزيع طوابع بريد صدرت من قبل الحركة الصهيونية في فلسطين تحمل اسم هرتزل. وقال العسلي ان الصهاينة يريدون شراء الأراضي المشرفة على سكة حديد الحجاز بغية التوسع في سوريا حتى العراق، ثم تحدث روجيه الخالدي مرددا ما جاء في التوراة عن أماني اليهود في استعادته ملك فلسطين، منبها إلى ازدياد عددهم حتى أصبح في متصرفية القدس وحدها حسب تقديره مائة ألف يهوديا. وقال أن القوانين التي سنتها الحكومة لهجرتهم وتخصيص جواز السفر الأحمر للأجانب منهم، لم تنفع في منع هجرتهم، لأنها لم تنفذ، إذ أن نسبة اليهود العثمانيين المهاجرين إلى فلسطين لا تزيد عن 10% والباقي أوروبيين صهاينة، وقد أسسوا بنكا للاستعمار الصهيوني⁽³⁾.

وكان العرب في هذه الفترة يهتمون الاتحاديين بأنهم يقفون موقفا يتصف بالتراضي إزاء الحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين إذا ما قورن موقفهم بموقف السلطان عبد الحميد الثاني، خصوصا وأن اليهود في فلسطين انتهزوا فرصة ثورة عام 1908م وشعارات الحرية التي كانت ترددها لكي يطالبوا بانتخاب الصهاينيين للبرلمان العثماني، حتى يتمكنوا من عرض مطالبهم الخاصة بحصول فلسطين على الحكم الذاتي.

1- بولس مسعد: لبنان والدستور العثماني، د.د.ن، القاهرة، 1909، ص 57. بشارة الخوري: حقائق لبنانية، ج1، أوراق لبنان، بيروت، 1960، ص 53-54.

2- محب الدين الخطيب: خلاصة خطاب شكري العسلي، المؤيد، 1911/6/8.

3- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 282.

ومن الدلائل على موقف الاتحاديين المتراضي مع الصهاينة، قد سمح لليهود بتكوين حرس خاص بهم، بدعوى الخوف من أن تنزل بهم مذابح مماثلة بما نزل بالأرمن⁽¹⁾.

وفي عام 1908م أصدر نجيب نصار في حيفا جريدة " الكرمل " وأخذ يحمل على الحركة الصهيونية والمستوطنين اليهود. وفي عام 1909م عطلت السلطات التركية صحيفة الكرمل مرتين، وقدم نصار للمحاكمة عام 1910م بتهمة سب اليهود، ثم أفرج عنه وكان اليهود يملكون الأراضي في فلسطين، واتخذوا لهم شعارا، وهو العلم الأزرق تتوسطه نجمة داوود، كما اخذوا يعلمون أبنائهم المصارعة والمبارزة، ويملثون بيوتهم بالأسلحة، وجعلوا لأنفسهم خدمه بريدية خاصة.

وبعد عام 1913م ازداد تواطؤ الاتحاديين مع الحركة الصهيونية، لأنهم كانوا بحاجة إلى المال اليهودي فخذوا يقدمون التسهيلات لهم، حيث سمحت لهم بافتتاح جمعيه صهيونية في الأستانة⁽²⁾. ومن ناحية أخرى، عطلت الحكومة الاتحادية ثلاثة من اشد الصحف العربية عداء للصهيونية لأعداد متفاوتة وهي : " المقتبس " في دمشق و " الكرمل " في حيفا و "فلسطين" في يافا. كما حملت هذه الصحف على موقف الاتحاديين من الصهيونية. ففي إحدى المقالات التي كان ينشرها نجيب نصار في الكرمل، لام الاتحاديون على موقفهم من الصهيونية قائلا: "ومن أهم الأخطاء التي وقع فيها الاتحاديون أنهم قاموا بعمل كبير يخلد لهم ذكرا مشئوما في التاريخ العثماني، حيث اشتروا لنا المشكلة الصهيونية وهي ستصبح يوما في أسيا العثمانية أعظم من المشكلة البلقانية في أوروبا العثمانية، واني أشهدكم قومي على ما أقول"⁽³⁾.

ومن الأمور التي وقف فيها العرب موقفا قوميا، ما حدث عندما طرحت المادة الرابعة من نظام الاجتماعات العامة على مجلس النواب للمناقشة، وهي المادة التي وضعها حزب الاتحاد بقصد منع تشكيل الجمعيات السياسية ذات الأهداف القومية، فعارض مندوبو العرب منع مثل هذه الجمعيات، كما عارضت مناقشة هذه المادة، مندوبو القوميات الأخرى، لان هذه القوميات بما فيها العرب، رأت في منع هذه المادة أضعافا لها دون القومية التركية، إلا أنه صدرت موافقة المجلس عليها بأغلبية 90 صوتا مقابل 69 صوتا معارضا⁽⁴⁾.

وفي عام 1910م اندلعت ثلاث انتفاضات عربية في كل من اليمن، وحوارن، وجبل الدروز، ومتصرفية الكرك. وكانت هذه الانتفاضات احتجاجا على سياسة الاتحاديين بشكل عام ونظام التجنيد الذي فرضه

1- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 111-113.

2- المرجع نفسه، ص 114-115.

3- نجيب نصار: الكرمل: 1 أكتوبر عام 1912.

4- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 257.

الاتحاديون بشكل خاص. وقد سلكت الحكومة الاتحادية تجاه هذه المشكلة مسلكا يتصف بكل شدة وقسوة في ضرب هذه الثورات.

وبهذه المناسبة، عارض النواب العرب هذه السياسة ودعوا إلى إتباع أسلوب التفاهم بدلا من أسلوب العنف وسفك الدماء. وقد عبر عن هذا الشعور رشيد رضا في "المنار"⁽¹⁾ قائلا: "هل تعد الدولة جنودها الذين هم أبناء الأمة لسحق الأمة وتدميرها، اما كان ينبغي ان يقال ان أولئك العربان وغيرهم كانوا مرهقين بالظلم وسوء الإدارة فتتشر بينهم العدل والسلام والنظام فتجعلهم بذلك يتفانون في حب الدولة وطاعة الحكومة".

ومما يجدر ذكره أن الكتلة النيابية العربية لم تستطع أن تكون حزبا سياسيا معارضا لأن القانون كان يمنع تشكيل الأحزاب القومية، ومع ذلك، فقد اندمج العرب في المجلس مع المعارضة ككل، على شكل تكتل ائتلافي من جميع العناصر الذين ضمهم حزب الحرية والائتلاف المعارض لسياسة الحزب الاتحاديين المركزية⁽²⁾.

د- مبايعة الشريف حسين بالخلافة:

لقد تجاوز نشاط النواب العرب داخل البرلمان العثماني إلى خارج هذا البرلمان، حيث ذكرت بعض المصادر أن طالب النقيب، الزعيم البصراوي ونائبها في البرلمان قد أرسل برسالة في عام 1913م⁽³⁾ إلى الشريف حسين شريف مكة باسم الكتلة النيابية العربية، يطلب فيها من الشريف حسين القيام بحركة عربية ضد الاتحاديين لتخلصهم من هذا الحكم، ومبايعة الشريف خليفة على جميع العرب في حالة القيام بهذا العمل. وأرفق برسالته وثيقة موقعة من 35 نائبا عربيا يبايعون فيها الشريف حسين بالخلافة، هذا نصها: "نحن نواب العرب في مجلس الأمة نعهد إلى الحسين باشا في حكم مكة، ونقر باسمنا واسم البلاد التي نمثلها، بان هو وحده السلطة الدينية على البلاد العربية. ونحن مستعدون ان نجاهر علانية بهذه البيعة متى دعت الأحوال إلى ذلك.

1- محمد رشيد رضا: العرب والترك، المنار، م12، ج12، جانفي 1910، ص 917.

2- ومن هؤلاء النواب: أحمد الكبشي وحسن عبد القادر وعبد الله المخفي وفراج سعيد، من نواب اليمن، وعبد الحميد الزهراوي ونافع الجابري وشكري العسلي وسعد الدين المقداد وشفيق المؤيد وخالد البرازي وتوفيق الجالي، من نواب سوريا، ورضا الصلح، من نواب بيروت، وسعيد الحسيني وروحي الخالدي وحافظ السعيد، من نواب القدس، وعلي فاضل وداوود اليوسفاني وعبد الوهاب فرطاس وخضر شوكة، من نواب العراق. أنظر: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 359.

3- توفيق برو: المرجع السابق، ص 93.

وقد أشار سليمان فيضي إلى ثلاثة نواب فقط من مجموع 35 نائباً الذين وقعوا على هذه الوثيقة وهم: طالب النقيب وشكري العسلي وشفيق المؤيد⁽¹⁾. غير أن المصادر الأخرى لم تذكر أحداً من هؤلاء النواب، سوى مرسل الوثيقة فقط.

ومما يلاحظ على هذه الدعوة:

- أن وثيقة مبايعة الحسين بن علي، حملت أفكاراً ترددت من قبل على السنة وأقلام المفكرين العرب في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين. ومن هؤلاء المفكرين: عبد الرحمن الكواكبي ونجيب عازوري وقد نادى هؤلاء بما فيهم الكواكبي وعازوري بعروبة الخلافة وتحديد شريف مكة بالذات لهذا المنصب، كما حددوا مكة بأن تكون مركزاً للخلافة العربية، وليس اسطنبول. ويدّعون أن الكتلة النيابية كانت متأثرة بهذه الأفكار إذا ما صحت روايتها فرات الشريف حسين خير زعيم عربي لتولي هذا المنصب بصفته يتصل بصله القرابة مع أسرة الرسول(ص).

- إن دعوة مبايعة الحسين كانت سابقة لأوانها، حيث أن غالبية العاملين بالحركة العربية وخاصة في بلاد الشام، لم يتفكروا بالخروج عن نطاق المطالبة بالحقوق القومية المتمثلة بالجامعة العثمانية على أساس من اللامركزية الإدارية، ولم يكن الانفصال التام عن الأتراك وارداً عندهم في هذه الفترة.

- ومن ناحية أخرى، فإن الشريف حسين لم يكن على استعداد للخروج على الاتحاديين وتركيا بشكل عام، لأن الظروف لم تكن مهيئة لمثل هذه الحركة كما تهيأت فيما بعد عام 1916م، عندما حدث تحالف بين الشريف حسين وبريطانيا ضد الدولة العثمانية.

- تحدثت الرسالة المذكورة باسم النواب العرب، وليس باسم العسكريين منهم، مع العلم بأن العسكريين كانوا في هذه الفترة يشكلون عماد الحركة العربية⁽²⁾.

- وكما أثارت هذه الرسالة الخلاف حول تاريخها، فقد أثارت أيضاً الشكوك في مدى صحتها، حيث أنها لم تكن تركز على أسانيد قوية تثبت صحتها⁽³⁾. ومع ذلك، فإن هذه الدعوة لا تخلو من الحقيقة خاصة، فيما يتعلق بعروبة الخلافة وتحديد شريف مكة لهذا المنصب.

1- سليمان فيضي: في غمرة النضال، دار القلم، بغداد، 1970، ص 88.

2- أنيس الصايغ: الهاشميون والثورة العربية، دار الطليعة، بيروت، 1966، ص 23-24.

3- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 292-295.

- الفصل الثالث: تبلور التنظيم القومي العربي وأبعاده الانفصالية:

أخذت الجمعيات والأحزاب السياسية ذات الطابع القومي العربي تتشكل بعد الثورة الدستورية، في الوقت الذي أخذت فيه الأحزاب القومية التركية تتشكل أيضا تمهيدا للانفصال التام بين القوميتين الكبيرتين في الدولة العثمانية، وهما القومية العربية والقومية التركية.

وقد مرت الحركة القومية العربية في بلاد الشام بمرحلتين متصلتين منذ عام 1908م وحتى إعلان الثورة العربية الاستقلالية في عام 1916م.

أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة تشكيل الأحزاب أو الجمعيات ذات الصبغة القومية في برامجها، حيث طالبت هذه البرامج بالحقوق القومية كاملة في نطاق الجامعة العثمانية، وعبرت عن هذه الأهداف باللامركزية الإدارية في الحكم، بحيث تكون الدولة العثمانية " دولة فيدرالية " تضم العرب والترك.

أما المرحلة الثانية فهي المرحلة التي تطورت فيها الحركة العربية إلى حركة استقلالية عن نطاق الدولة العثمانية، وتحقيق هذا الهدف عن طريق الثورة المسلحة. وتمتد هذه المرحلة منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914م حتى اندلاع الثورة العربية 1916م.

ويؤخذ على الحركة القومية العربية بعد إعلان الدستور:

- انها لم تكن حركة جماهيرية عربية ساهمت فيها جميع القطاعات الشعبية بل اقتصر على نشاط الطبقة المتوسطة المثقفة بقطاعيها المدني والعسكري، وكان القطاع الأخير قطاعا نشطا في هذه الحركة.

- إن هذه الطبقة لم تكن على درجة عالية من الوعي القومي، حيث إنها اكتفت بالمطالبة بالحقوق القومية ضمن اللامركزية وضمن الرابطة العثمانية أولا، ثم حين دفعته التطورات في الدولة إلى الاتجاه القومي الانفصالي لم تتردد في السير نحو تحقيق هذا الهدف.

- ورغم أن هذه الحركة حركة علمانية، إلا أن المفهوم القومي لم يتحرر طيلة المرحلتين عن التأثير بالرابطة الإسلامية التي تجمع العرب مع الأتراك.

- لم تطرح الحركة العربية برامج تقدمية واكتفت بالمطالبة بالتحرر القومي والوحدة العربية⁽¹⁾.

1- أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 67.

وتتميز الحركة العربية في بلاد الشام وكذلك في مصر والعراق خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بأنها حركة حزبية أخذت تطفو على مسرح الأحداث في الشرق الأوسط نتيجة لليقظة الفكرية التي شملت هذه المنطقة. والحزب السياسي في المدلول اللغوي يعني التكتل الجماعي على إيديولوجيا فكرية معينة، ويتعصب هذا التكتل لهذه الإيديولوجية أشد التعصب. وإذا ما قرنا بين الحركة الحزبية في الشرق الأوسط والحركة الحزبية في بقية أنحاء العالم المتقدم، نجد أن هذه الحركة في الدول المتقدمة اتخذت لها طابعا مختلفا تماما عنها في الشرق الأوسط، ذلك أن الدول المتقدمة تميزت حركتها الحزبية بالمفاهيم التالية⁽¹⁾:

- المفهوم الديمقراطي.

- المفهوم الاشتراكي.

- المفهوم الشيوعي.

غير أن الحركة الحزبية العربية اتخذت لها طابعا قوميا تحرريا نتيجة للظروف الراهنة. كذلك فإن هذه الحركة اختلفت في مصر عنها في كل من العراق وبلاد الشام. ففي مصر قامت الحركة الحزبية على أساس من الحرية والاستقلال عن الاستعمار البريطاني، واتجهت إلى طلب المساعدة، من الدولة العثمانية وتمسكت بالسيادة الاسمية للسلطان العثماني على مصر، حيث كانت المسألة المصرية هي شغلها الشاغل⁽²⁾. لكن الحركة الحزبية القومية في بلاد الشام والعراق، كانت لا تخلو من الأعضاء المصريين الذين قاموا بدور رئيسي في تشكيلها، ومثال ذلك عزيز علي المصري، كما أن القاهرة كانت مسرحا لهذا النشاط الحزبي، حيث أن أحزابا قد تكونت في القاهرة من المهاجرين الشاميين الذين اشتغلوا بالقضية العربية.

أما بلاد الشام والعراق، فإنه نتيجة لظروفها المتشابهة من حيث وقوعهما تحت نير الحكم التركي الذي تحول إلى استعمار وتسلط عنصر على يد الاتحاديين، بتتريك العنصر العربي، فقد أصبح هنالك رد فعل قومي عند المثقفين، فأخذوا يشكلون الأحزاب للدفاع عن الحقوق القومية العربية.

وتتميز الحركة العربية في بلاد الشام والعراق أيضا بأنها أفسحت المجال لكل عربي في أن ينخرط في عضويه أحزابها، وعلى أساس من تحرر القومي والوحدة العربية، ولهذا نلاحظ في هذه الحركة الحزبية اشتراك الأعضاء

1- سهيلة الريماوي: الحياة الحزبية في سوريا 1908-1920، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين الشمس، 1969، ص 1-10.

2- أنظر: الفصل الثاني والثالث من كتاب يونان ليب رزق: الحياة الحزبية في مصر (1907-1914)، دار الهلال، القاهرة، 1970.

الشاميين والعراقيين في كل حزب من هذه الأحزاب. أما بقية الأقطار العربية الأخرى الخاضعة للحكم التركي، فإن الظروف الاجتماعية، لم تسمح بإنشاء الأحزاب السياسية فيها نتيجة للتخلف الاجتماعي كما كان الحال في كل من اليمن والحجاز⁽¹⁾. وقد اتخذت الحركة العربية في بلاد الشام شكلين من أشكال التنظيم الحزبي، وهما التنظيم العلني والتنظيم السري.

1- التنظيم العربي العلني:

ويضم هذا التنظيم بضع جمعيات أو أحزاب، هي: المنتدى الأدبي، وحزب اللامركزية الإدارية العثماني، والجمعية الإصلاحية البيروتية، والجمعية الإصلاحية الدمشقية، وجمعية البصرة الإصلاحية.

أ- **المنتدى الأدبي:** تأسس المنتدى الأدبي في عام 1909م في الأستانة بواسطة الشباب العربي القومي الذي حصل على ترخيص من الدولة بإقامته، فكان أول جمعيه عربيه تأسست في الأستانة بشكل علني ليحل محل جمعيه الإخاء العربي العثماني بعد إغلاقها. كان معظم مؤسسيه من النخبة العربية المثقفة التي تضم عدد من الموظفين والنواب والأدباء والطلاب العرب⁽²⁾.

ومن ابرز مؤسسي عبد الكريم الخليل (طالب حقوق من الصور)، ويوسف سليمان حيدر (من بعلبك)، وسيف الدين الخطيب (من دمشق)، وجميل الحسيني (من القدس)، وأحمد قدري، ورفيق رزق سلوم (مسيحي من حمص)، وعاصم بسيسو (من غزة)، وعزت الأعظمي (من بغداد)⁽³⁾.

وفي بدايه إنشائه كان يرأس هيئته الإدارية جميل الحسيني ثم انتقلت الرئاسة إلى عبد الكريم الخليل. ويصرح أحمد عزت الأعظمي احد مؤسسيه بأنه الجمعية " التي أحييت الروح القومية بين الشبيبة العربية في الأستانة وخارجها، وكانت خطتها الوحيدة نشر الدعوة للقضية العربية القومية"⁽⁴⁾.

1- لم يبق تحت الحكم التركي حتى عام 1912، سوى بلاد الشام والعراق وعسير واليمن والحجاز. أما باقي الأقطار العربية، فكانت تحت حكم الاستعمار الغربي، باستثناء نجد التي كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي تحت حكم آل سعود. أنظر: محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 260.

2- رؤوف عباس: الفكر السياسي العربي قبل الحرب الأولى، مجلة الفكر العربي، عدد سبتمبر 1982، ص 122.

3- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 35. جورج انطونيوس: المصدر السابق، ص 116-117.

4- أحمد عزت الأعظمي: القضية العربية: (أسبابها، مقدماتها، تطوراتها ونتائجها)، ج3، مطبعة الشعب، بغداد، 1934، ص 3.

كما كانت تهدف إلى تجمع القوميين العرب، وبخاصة الطلاب العرب في الأستانة، ونشر التوعية السياسية بينهم، وفتح فروع لها في المدن العربية، مما أدى إلى توثيق الصلات العربية في الأستانة والشام والعراق⁽¹⁾.

وقد بلغ عدد أعضائها نحو بضعة آلاف شخص، ومعظمهم من الطلاب العرب في الأستانة الذين كانوا يدرسون بمدارسها العالية العسكرية والمدنية. ولذلك كانت قيادتها تختلف فكراً وتكويناً عن قياده جمعية الإخاء العربي العثماني⁽²⁾.

وكان من أنشط أعضائها الذين انضموا إليها خليل حمادة عربي مصري وزير الأوقاف، ونواب العرب شفيق المؤيد، ورشدي الشمعة، وشكري العسلي، وعبد الحميد الزهراوي، ورضا الصلح، ورشيد رضا، وحقي ورفيق العظم، وحسين حيدر، وطالب النقيب، وعزيز علي المصري، وندر مطران، ونحلة مطران، ويوسف مخير، وعزت الجندي، حيث كانوا يلقون الخطب في الاجتماعات المنتدى⁽³⁾.

وقد اعترفت الحكومة الاتحادية بالمنتدى "كمؤسسه ثقافيه تهيئية" دون ان يكون لها أي نشاط سياسي، إلا أن هذه الجمعية اتخذت من هذه الأهداف الثقافية ستاراً تخفي وراءها الأهداف ذات الطابع القومي. ويستدل على ذلك من منهج الجمعية السياسي، الذي يتلخص فيما يلي:

- لقد حرص جميع أعضاء المنتدى الأدبي في البقاء على الرابطة العثمانية والوفاق مع العنصر التركي. وفي سبيل ذلك كانت تقام الحفلات التي يدعو إليها الشخصيات المشهورة من الأتراك، الرسميون وغير الرسميين، حيث تلقى فيها الخطب⁽⁴⁾. كما كان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها شباب من الترك مع شباب من العرب، فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأجداد القومية التركية والعربية، وينبه فيها إلى عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية تحت لواء العثمانية التي تتساوى فيها الحقوق القومية لكل عنصر.

ومن خلال هذا التيار نجد المقالات على صفحات الجرائد والمجلات تهدف إلى التمسك بالرابطة العربية والرابطة العثمانية كقول الدكتور عزت الجندي: "إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي والمسيحي عربي... أجل إننا عرب قبل ان نكون مسلمين، ومسيحيين عرب قبل ان يكونوا مسيحيين. وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات

1- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 122.

2- المرجع نفسه، ص 122.

3- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 12. أنظر أيضاً: منير مشابك موسى: الفكر العربي في العصر الحديث: سوريا في القرن الثامن عشر حتى العام 1918، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1973، ص 199-200.

4- المؤيد: 1910/2/17.

إلى الجوامع والكنائس، فإذا كنا عربا قبل ان نكون مسلمين او مسيحيين، فالأولى أن نكون عربا قبل أن نكون عثمانيين"⁽¹⁾.

- تعميق التربية القومية ويستدل على ذلك من نشاط رئيس المنتدى عبد الكريم الخليل، حيث قدم مشروعا لإصلاح المدارس العربية الابتدائية. وعلى هذا الأساس دعا أعضاء الجمعية النواب العرب في البرلمان إلى حفلته أقاموها لهم في جوان عام 1911م. وقد شرح عبد الكريم الخليل في هذا اللقاء برنامج المنتدى وهو يستند على دعائمين:

- توثيق الاتحاد والإخاء بين العرب على اختلاف أجناسهم وأديانهم وعناصرهم في إطار العروبة والوطنية. وفي هذا المجال حدد عبد الكريم مفهوم الأمة كما حدد أهم معالم القومية وأركانها، مثل وحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة⁽²⁾.

- توحيد طرق التعليم في البلاد العربية حتى تتربي النفوس تربية واحدة ويسير العرب جميعا على طريق واحد. ولتحقيق هذا الهدف، قام عبد الكريم بجولة في الأقطار العربية لبحث هذا المشروع، فالتجأ أولا إلى مصر حيث تشكلت لجنة فرعية مكونة من محمود سالم ورفيق العظم وحسن عبد الرازق وعبد الكريم الخليل لوضع القانون ورفعته للهيئة العمومية للجمعية.

كما قام عبد الكريم الخليل بجولة في بلاد الشام أيضا لنفس الغرض، وكللت رحلته بالنجاح، وانحالت التبرعات من بلاد الشام على هذا المشروع⁽³⁾. وقد انتخبت هيئة إدارية برئاسة محمد باشا الشريعي، لتحقيق مشروع المنتدى، حيث بدأت التبرعات تنهال على اللجنة التنفيذية للمشروع⁽⁴⁾.

ومن ناحية أخرى، كان شباب المنتدى يمثلون بعض الروايات العربية التاريخية، التي كانت تدر على المنتدى أريادا حسنا، كما أنها أسهمت في التوعية القومية من ناحية ثانية⁽⁵⁾. ومفضلا عن ذلك إصدار المنتدى مجلة باسمه بعنوان "لسان العرب"، كان يشرف عليها أحمد عزت الأعظم ويعاونه عاصم بسيسو، وكانت مجالا لأقلام شباب العرب من شعراءهم وأدباءهم في كل ماله صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها، مظاهر نشاط القومي في ما كان

1- الأهرام: 1911/7/13.

2- أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ص 14-20.

3- حقي العظم: عن المنتدى، المفيد، 1911/8/24.

4- المصدر نفسه.

5- محمد عزت دروزة: المصدر السابق، ص 354.

ينشر على صفحاتها من المقالات القومية والقصائد والأناشيد التي تشيد بأجداد العرب وتحريضهم على الثورة ضد الترك⁽¹⁾.

وفي كتاب إيضاحات مقتطفات من اعترافات منسوبة إلى رفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب وعبد الغني العريسي، تفيد بأنه كان للمنتدى أهدافا ظاهرة مشروعة وأخرى قومية بعيدة المدى لا يعرفها إلا الأخصاء، وأنه كان من ذلك الدعوة للانفصال عن الدولة العثمانية وإنشاء الدولة العربية في النهاية، وأن بعض أعضاء المنتدى البارزين كانوا يتحولون في البلاد العربية وينشرون هذه الأفكار ويجمعون التبرعات من رجالات العرب في الخارج لإنفاقها على هذه الدعوة كما أن المنتدى كان يستورد سرا الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في مصر وأمريكا وأوروبا، والتي كانت تدعو إلى هذه الأفكار وتحمل على الدولة والاتحاديين وتنقض سياستهم وتصفها بأنها خطر على كيان العرب القومي⁽²⁾.

لكن هذه الاتهامات جميعا لم تكن صحيحة، حيث أن الحركة العربية لم تسع للانفصال عن الدولة العثمانية إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، حين تم وضع أسس الثورة العربية المسلحة. وقد بقى المنتدى الأدبي قائما حتى عام 1915م وإعدام رئيس عبد الكريم الخليل⁽³⁾.

ب- حزب اللامركزية الإدارية العثماني:

تأسس هذا الحزب في ديسمبر عام 1912م من قبل الشاميين المقيمين في القاهرة، ومن هؤلاء: رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وحقي العظم ومحب الدين الخطيب والدكتور شبلي شميل، وإسكندر عمون وداود بركات وسامي الجرديني ونعمان أبو شعر. وقد شكل هؤلاء هيئة إدارة الحزب الأولى. وكان رفيق العظم رئيسا لحزب، واسكندر عمون نائبا للرئيس، وحقي العظم سكرتيره، ومحب الدين الخطيب مساعدا لرئيس العام.

وكان هدف الحزب السعي لتطوير أسلوب الحكم في أقطار الدولة العثمانية على أساس من اللامركزية، أي منح كل ولاية قسما كبيرا من الاستقلال الإداري حتى تستطيع تنفيذ الإصلاحات الضرورية. وقد نص برنامج الحزب على ثلاثة وثلاثون مادة أهمها⁽⁴⁾:

1- أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ص 35-38.

2- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 12-16.

3- أحمد قدری: المصدر السابق، ص 11.

4- وللمزيد من نصوص برنامج الحزب التأسيسية أنظر: كتاب أمين سعيد: المصدر السابق، ج 1، ص 14-17. كذلك أسعد داغر: المصدر السابق، ص 57-62.

المادة 1: ألف حزب سياسي باسم حزب اللامركزية الإدارية العثمانية⁽¹⁾.

المادة 2 : ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الأسرار، فهو ينشد مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من احد، لاعتقاده يقينا ان الدولة لا تبقى في العالم السياسي، إلا إذا بقيت حكومتها على أساس من اللامركزية الإدارية.

المادة 3 : إن الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر على شرط ان يكون: من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، وغير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف، وغير مشتهر بسوء السيرة، وان يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب.

واصدر الحزب عند تأسيسه بيانا جاء فيه: "إن أفضل أشكال الحكومات هو الحكم الدستوري، وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفرق والمذاهب واللغات واختلفت العادات والتقاليد والأخلاق. ان اللامركزية أفضل مربي لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتي الذي هو خير وسيله لترقي الأمم لأنها أي، اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعث حكومة مقصورة على أفراد قلائل، تصدر عنها القوة والعمل إلى كل ناحية من أنحاء المملكة، فتكون كالحرك في آلة كبيره، إذا أصابها عطب أو ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لأي جزء من الأجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه، ودون أن يكون مسئولا عن نتيجة وقوفه عن العمل، فاللامركزية توزع على الأفراد الأمة بمقدار ما تعطيه من السيطرة على مصالح الوطن. وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الإتكالية ويفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهات الحياة. وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من اقرب سبيل وفي وقت قصير".

وجاء في البيان أيضا: "إن الحرص على سلامة الدولة من غوائل الفتن والمشاغبات الداخلية والصدمات الخارجية التي بسببها عدم رضا العناصر العثمانية والتفافها بإخلاص حول العرش العثماني، يحتم على كل عثماني صادق الوطنية، النظر في الأسباب التي تتماسك بها أعضاء هذا الجسم الذي اخذ يتفكك بقوة الجذب والدفع بين المركز والأطراف، ودخله الوهن والضعف المؤدي إلى الانحلال".

وقد حدد الحزب برنامجه السياسي فيما يلي:

- تبنى الإدارة في الولايات على أساس اللامركزية الإدارية.

1- المقصود من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية وللشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات واديان وعادات مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تأسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.

- لا يجوز عزل موظف إلا بحكم من مجلس التأديب.

- إن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية، وكل ولاية من ولاياتها جزء من السلطنة لا تنفك عنها⁽¹⁾.

واهتم الحزب بالتعاون مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا وفرنسا بغرض الحصول على مساعدتها وتأييدها للحركة العربية، فوافق على إقامة نوع من الإشراف الفرنسي على سوريا ولبنان، والإشراف الإنجليزي على القسم الأكبر من فلسطين والعراق، دون أن يتنبه إلى التناقض الكامل بين الحركة القومية والأهداف الاستعمارية في البلاد العربية. ومما يدل على عدم وجود دراية كافية لدى القيادات العربية بالشؤون السياسية الدولية، لأن الامتيازات الاقتصادية التي طرحتها كانت تسهم في تسليط النفوذ الاستعماري إلى البلاد العربية، وتمهد للاحتلال السياسي والعسكري⁽²⁾.

ويلاحظ أن حزب اللامركزية الإدارية العثماني لم يتخذ اسماً عربياً قومياً، فكان يبدو من تسميته أنه حزب عثماني، كما ينص برنامجه السياسي، يهدف إلى تحقيق المصلحة العامة للدولة العثمانية على أساس الإصلاح السياسي ضمن النظام اللامركزي للولايات العثمانية. ولكنه ظل حزباً عربياً في تشكيلاته واتجاهه، حتى أنه أصبح من اقوي التنظيمات السياسية المتحدثة باسم العرب، والمدافعة عن أمانيهم القومية، والمطالبة باللامركزية حزبية منظمة⁽³⁾.

قام الحزب بنشر مبادئه بواسطة المنشورات والصحف، ومن خلال تنظيم الاجتماعات والمظاهرات والأناشيد الوطنية. وقد كان له دور بارز في توحيد وتنسيق اتجاهات العمل القومي العربي، فأقام علاقات وثيقة مع المنتدى الأدبي وجمعياته السرية، ومع الجمعيات الإصلاحية في الشام والعراق، التي تأثرت بنفس دوافع تشكيله، واشتركت معه في الهدف والمبدأ، فالتجته نحو تحقيق أهدافه في الاستقلال الذاتي، والمطالبة بالإصلاحات الإدارية داخل الدولة، وأخيراً ساهم مساهمة فعالة في مؤتمر باريس عام 1913م⁽⁴⁾.

وبذلك جمع حزب اللامركزية التكتلات والتنظيمات الحزبية العربية في بلاد الشام، لإبراز القضية العربية، وتعزيز الأهداف القومية.

1- وللمزيد من برنامج الحزب أنظر: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 365-382.

2 - Khoury, Philip: op. cit, pp 63-64

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 365-382. أنطونيوس: المرجع السابق، ص 118.

4- أنطونيوس: المرجع السابق، ص 118. جلال يحيى: الثورة العربية، ج 1 من تاريخ القومية العربية، ط 1، دار المعرفة، القاهرة، 1959، ص 91-92.

ادعى الترك بأن للحزب أهدافا سحرية لتحقيق الاستقلال الذاتي على غرار مصر، التي يتزعمها حاكم مصري وتعاونته سلطات الاحتلال ويرجع حوراني بان أهدافه كانت تتجه نحو تحقيق ذلك الهدف. وتتضمن مذكرات جمال باشا، اعتراف منسوب لعبد الغني العريسي في المحكمة العسكرية في عالية بلبنان، ورسالة منشورة بعث بها القنصل الفرنسي في القاهرة إلى وزير الخارجية في باريس وهي وثيقة مؤرخة في 28 مارس 1913م، توضيح موقف الحزب، والتباين أفكاره تجاه مسألة استقلال سوريا وفلسطين والعراق عن الدولة وجعلها إمارة مستقلة، والحماية الأوروبية المطلوبة.

قام البعض بترشيح شفيق المؤيد العظم ملكا لهذه البلاد المستقلة بينما اتجه البعض الآخر إلى ترشيح احد أفراد الأسرة الخديوية في مصر، وهو الأمير يوسف كمال باشا، ابن عم الخديوي عباس حلمي الثاني، ملكا على سوريا. كانت صلة أعضاء الحزب بالانجليز سببا في اتهام جمال باشا له بتهمة الخيانة العظمى، والحكم على أعضائه بالإعدام⁽¹⁾.

وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب في نوفمبر عام 1914م، استمر الحزب قائما، إلا أنه التزم السرية التامة في اتصالاته وتشكيلاته بسبب الموقف الاتحادي الذي تبلور في سياسة الاعتقالات والمحاكمات العسكرية والإعدامات لأحرار العرب.

ثم طور حزب اللامركزية الإدارية، برنامجه السياسي من المطالبة باللامركزية الإدارية إلى الاستقلال العربي التام، بعد قيام الحرب العالمية الأولى، ونقد الحكم التركي العنصري لاتفاقيه، وعدم تحقيق المطالب القومية لمؤتمر باريس. ويتضح ذلك في بيان نشره الحزب بعنوان "الصرخة الثالثة إلى أبناء الأمة"⁽²⁾.

ومما جاء فيه: "وليعلن العرب أن حركتهم لن تقف دونها دسائس الساسة، وإنهم ضاربون هذه الدولة من أركانها حتى تحقق في البلاد راية العرب على سكانها"، وختم البيان بهذه العبارة: "فسلاما على الأمة سلاما بر أمين، ويضلله في سواد الليل بياض الضمير، وخضرة الأمل اليقين" تعبيراً عن ألوان علم الحزب.

توضح الصرخة أن الحركة العربية لن تتوقف على الرغم من خداع الحكومة لبعض القادة وإغرائهم بالمناصب والمراكز، لأنها تمثل الشعب، وقوة دائما للأمة. ثم تهاجم الدولة التركية، وتتهمها بالخضوع للسيطرة الأوروبية في شؤونها الداخلية والخارجية، وإنها حالت دون التقدم الاقتصادي للعرب، وتوظيف بأن الدول التي انفصلت عنها

1- علي أحمد شكري: مذكرات جمال باشا، مكتبة الهلال، القاهرة، 1923، ص 211-214. أنظر أيضا:

Hourani, A, op. cit, p 283. Khoury, Philip S, op. cit, p 64

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 140. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 383-385.

مثل اليونان والجبل الأسود ورومانيا والصرب، أصبحت ارقى منها وتنعم بالحياة القومية، بينما البلاد العربية لا تزال تعاني الفقر والجمود والتخلف، لان الترك هم سبب البلاء⁽¹⁾.

ج- الجمعية الإصلاحية البيروتية:

تباينت اتجاهات وأراء عناصر العمل القومي العربي، وخاصة بعد إعلان الدستور، بينما تطلع الروم الكاثوليك والموارنة من مسيحي جبل لبنان إلى فرض الحماية الفرنسية، للتخلص من السيادة الإسلامية، تمسكت فئة أخرى من مسيحي لبنان بالفكرة القومية، ورأت ضرورة إجراء الإصلاح اللامركزي بالاتفاق مع مسلمي بيروت. كان هناك أيضا اتجاه عربي قومي يمثلته خريجو الكلية العثمانية الإسلامية، كما كان البعض من زعماء الحركة العربية يعتقد بالتعاون مع الدول الأجنبية⁽²⁾.

وبذلك اشتد قلق الموقف السياسي العربي، وخشي مسلمو بيروت من استغلال الموارنة للموقف، وبخاصة بعد هزائم الدولة في البلقان، وانتهاز فرنسا الفرصة لاحتلالها، متذرة حجة سوء الإدارة، وبما لها من مصالح الاقتصادية.

لذلك اتفقت هذه الاتجاهات على تأييد فكرة اللامركزية الإدارية، وطالب الاصلاحيون العرب من أمثال شفيق المؤيد، وشكري الحسني، وعبد الرحمن العابد، وزكي مغامر حكومة كامل باشا الائتلافية، بتطبيق الإصلاحات الإدارية الواسعة لحماية الولايات العربية من خطر التدخل الأجنبي، ومقاومة الأطماع الاستعمارية الأوروبية⁽³⁾.

كذلك ارتبطت الحركة العربية بالنشاط التجاري والفكري في بيروت وحلب ودمشق والقدس، واخذ الولاة الائتلافيون يسألون الحكومة الائتلافية ان تطبق برنامجها الإصلاحي، وعندما بعث والي بيروت أدهم بك بتقرير عن تمسك واهتمام العرب بالإصلاح اللامركزي، ودعوتهم إليه على صفحات الجرائد، أجب إلى طلبه⁽⁴⁾. وعلى ذلك تشكلت في بيروت وحلب ودمشق والبصرة، والموصل وغيرهم من المدن جمعيات إصلاحية تقوم بوضع

1- عزت الجندي: إلى الامام إلى الامام، لا بد من تطبيق الإصلاح، الاهرام، العدد 10698، 1913/5/12، ص 3. خليل: الصحيح وغير الصحيح، الاهرام، العدد 10775، 1913/8/9، ص 1. أنظر أيضا:

Hourani, A, op. cit, p 285.

2- عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 244. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 69. أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 34.

3- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 18.

4- نسيب أرسلان: النهضة الفكرية في سوريا، المؤيد، العدد 2952، السنة 24، 1913/4/5، ص 4.

اللائحات الإصلاحية المطلوبة. وكانت لجنة بيروت تتميز بنشاط سياسي ملحوظ في حملتها الإصلاحية، لذلك كانت من أشهرها وأقواها في أواخر عام 1912م⁽¹⁾.

وفي 21 ديسمبر عام 1913م اتفق الاصلاحيون على وضع لائحة تصدر عن أهالي بيروت أنفسهم، وتمثل مطالب وحاجات الولاية، فقاموا بدعوة المجالس المالية مع بعض أعيان بيروت من المسلمين والمسيحيين، والمحامين والصحفيين، فتألفت منهم جمعية عمومية، انتخبت من بينها لجنة تنفيذية لوضع اللائحة الإصلاحية وقد تكونت من سليم على سلام، وألبير سرقس، واسكندر عازار، ورزق الله ارقش، وسليم طبارة، وكامل الصلح، ومحمد إبراهيم طبارة، والشيخ أحمد حسن طبارة، واحمد مختار بيهم، وخليل زنيه، والدكتور أيوب ثابت، وجان بطرس، ويوسف الهاني، ومحمد الفاخوري، وبترو طراد، وجيليل الحسامي، وحسن الناطور، وحبيب فرعون، وفؤاد حنتس، وسليم أيوب، وحنا نقاش⁽²⁾.

عقدت الجمعية العمومية اجتماعا للتصديق على اللائحة الإصلاحية، وكان على اللجنة أن تقوم بتقديمها إلى الحكومة. وكانت الاجتماعات تعقد بمعرفة الحكومة في دار المجلس البلدي ببيروت. وعقد الاجتماع الثاني في 31 جانفي عام 1913م، ونصت اللائحة الإصلاحية على خمس عشرة مادة تفصيلية، تضمنت المطالب اللامركزية الإدارية، والحكم الذاتي الموسع للولايات العربية ضمن الدولة العثمانية⁽³⁾.

عرفت الجمعية الحكومية العثمانية في بداية اللائحة، بأنها حكومة دستورية نيابية. وفرق البند الأول من هذا البرنامج بين الاختصاصات الأساسية العامة، والمسائل ذات الطابع الإقليمي. وبذلك لم يترك للإدارة المركزية سوى الإشراف على الشؤون الخارجية والدفاع والمواصلات والمالية العامة للدولة، والجمارك والجيش والتشريع. أما المسائل المحلية الإقليمية، مثل إدارة المقاطعات ومواردها، والدوائر المحلية، فيختص بها مجلس يمثل أهالي ولاية بيروت، ومن صلاحياته عزل الوالي التركي بأغلبية ثلثي الأصوات، ويعتبر ذلك تأكيداً للاتجاه اللامركزي وإقرار لمبدأ المساواة، ومنح عناصر الدولة حقوقها⁽⁴⁾.

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 18-19. أنظر أيضاً: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 399.

2- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 62-66. أنظر أيضاً: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 18. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 399.

3- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 19-23.

4- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 125.

ونصت المادة الثانية علي أن يمثل الوالي الحكومة المركزية، وعليه تنفيذ القوانين وقرارات الأستانة، كما يعتبر ممثلاً للولاية ويجب عليه تنفيذ القرارات التي يصدرها المجلس العمومي للولاية. كما وضعت حدوداً معينة يستطيع فيها الوالي وقف تنفيذ قرارات المجلس التي تصبح نافذة عند الإصرار عليها بثلاثي الأصوات⁽¹⁾.

وتنص المادة الثالثة على انتخاب المجلس العمومي من ثلاثين عضواً ليمثل الطوائف، نصفه من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم، لمدة أربع سنوات، ويتخبون منهم رئيساً، أما سائر الانتخابات العمومية فتبنى على قاعدة التمثيل النسبي العددي.

وهو يقرر جميع الأعمال والأنظمة الداخلية للولاية، ويعقد القروض التي تتجاوز قيمتها نصف الواردات المخصصة للولاية، وما زاد يتم بمعاونة الحكومة المركزية، وله حق إعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة عثمانية للمشروعات العمومية النافعة التي تخدم التجارة والصناعة والزراعة، وجميع الشؤون العمرانية العمومية داخل الولاية بشرط إلا تتضمن امتيازاً. أما المشروعات التي تتضمن امتيازاً فلا بد من تصديق الحكومة المركزية عليها⁽²⁾.

وتوضح اللائحة الاتجاه العروبي القومي في الحركة الإصلاحية، فترفض الامتيازات الأجنبية خوفاً من النفوذ الأجنبي، كما توضح تطلعات الطبقة البرجوازية العربية من بيروت وأعيانها في مواجهة الإدارة المركزية التي تحد من نشاطهم الاقتصادي في التجارة والزراعة.

كما تضمنت مطالب الجمعية أن تقوم الحكومة المركزية بتعيين كبار الموظفين، ورؤساء الدوائر الحكومية بشرط معرفتهم بالعربية، ولمدة خمس سنوات. أما باقي موظفي الدوائر، فينبغي أن يكونوا من أبناء الولاية، ويعينون بالاختيار، من قبل لجنة تختار أفضل اثنين، يعين الوالي أحدهما. بعد تصديق المجلس العمومي (المادة 6)⁽³⁾.

وتنص المادة السابعة من اللائحة على أن تقوم الحكومة المركزية بتعيين مستشارين أجانب بشرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاثة العربية أو التركية أو الفرنسية في دوائر الولاية الحكومية المالية والبرق والبريد والجمرك، وتعيين كذلك مفتشاً عاماً أجنبياً لكل لواء في الولاية، له حق تفتيش أية دائرة في اللواء، ومن ضمن مطالب الإصلاح أن يعين المجلس العمومي مستشارين خبراء أجانب، من الدول التي ترضاهم الحكومة المركزية، والتي ليس لها مصالح

1- راجع النص الكامل لللائحة الإصلاحية في كتاب محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 400-405. أنظر أيضاً: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 19-23.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 19. سليمان فيضي: المصدر السابق، ص 30. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 400. أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 42-43.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 402. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 21.

سياسية في الدولة، لدوائر الحكومة وهي مجلس الولاية، والعدلية والنافعة والمعارف والبلدية والبوليس، ومدة الاستشارة خمسة عشر عاما قابلة للتجديد⁽¹⁾.

وتنص لائحة على تكوين مجلس مستشارين له سلطات تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية وفقا لهذه اللائحة، وكذلك تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي، والحكم في وجوب عزل الموظف، أو عدمه (المادة 13). ويعتبر حكم مجلس المستشارين نهائيا في كل خلاف ينشب بين المستشارين والمجلس العمومي، أو إحدى لجانه أو أية دائرة، ويرأس هذا المجلس والي الولاية وينوب عنه رئيس المجلس العمومي أو مستشار هذا المجلس⁽²⁾.

كما اشترطت الجمعية في المادة الرابعة عشر أن يعترف بالعربية لغة رسمية في ولاية بيروت، وان تكون أيضا على قدم المساواة مع التركية، في مواجهة الطورانية، وتتم بها المعاملات الرسمية، وتكتب بها السجلات، وتستخدم في المجالس النيابية. كما نصت المادة الخامسة عشر على ألا يخدم المهندون العرب خارج ولايتهم وقت السلم⁽³⁾.

يلاحظ تشابه مواد هذه اللائحة الإصلاحية وبرنامج حزب اللامركزية الإدارية، فقد كانت العلاقات بين الجمعية وأعضاء الحزب وثيقة، فجاءت اللائحة تعبيرا عمليا عن مبادئ حزب اللامركزية ودعاه الحكم الذاتي اللامركزي.

ولكن الحكومة الاتحادية لم تقبل بالمادة السابعة التي تتعلق بمسألة الاستعانة بالمستشارين الأجانب على أساس أن الصلاحيات الممنوحة لهذه الهيئة واسعة، وتمهد للتدخل الأجنبي الفرنسي في بلاد الشام. لذلك خضعت هذه المسألة لنقد الحكومة الاتحادية التي عادت إلى الحكم، بعد فترة قصيرة من تقديم اللائحة، واتهمت العناصر

1- فائز الخوري، مبحث خطير في اصلاح سوريا، الأهرام، العدد 10596، 1913/1/9، ص 1. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 23-21.

2- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 402. عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 248-249. أنظر أيضا: Hourani Albert, op. cit, p 283.

3- خليل زينية: حديث مع سفير الدولة العثمانية في باريس، الأهرام، العدد 10674، 1913/7/28، ص 1. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 62، ص 67. جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 123.

المسيحية الكاثوليكية في الجمعية الإصلاحية بوضعها بتحريض من فرنسا التي تتطلع إلى احتلال سوريا، وان بعض مؤسسي الجمعية قد كتبوا بذلك لقنصل فرنسا في بيروت⁽¹⁾.

فقد ذكر جمال باشا في كتابه "إيضاحات"، بأن الحكومة عثرت على وثيقة مرفقة برسالة مؤرخة بتاريخ 18 مارس 1913م، من القنصل الفرنسي في بيروت إلى السفير الفرنسي في الأستانة، ووقع عليها كل من ميشيل التويني، ويوسف الهاني، وبترو طراد، وأيوب ثابت، ورزق الله ارقش، وخليل زينية، يقولون فيها: "ان الموقعين على يذكرون ما يقاسيه النصارى العثمانيون من ظلم وتعصب المسلمين، وازدياد ذلك بعد الحرب البلقانية التركية، لان المسلمين اعتبروها حرب صليبية ضد الإسلام، وان مقدمي الوثيقة يعدون فرنسا حامية لهم، ويتطلعون إليها، وأنهم على معرفتهم باللائحة الإصلاحية قد وضعت بتلقين الحكومة. فإن نصارى بيروت وافقوا على الاشتراك مع المسلمين في تنظيمها لخداع الحكومة العثمانية، وأتاحت الفرصة لوضع رقابة أوروبية على جميع أقسام الإدارة من جهة ثانية، حتى يتعمق عند الأهالي فكرة، ان الإصلاحات في بلاد العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بمساعدة أوروبا. غير أن هذه الإصلاحات لو تم إجراؤها ولو بمساعدة أوروبا، فإنها لا تحل المسألة ولا تحقق الرغبات الحقيقية لنصارى سوريا، لأنهم مرتبطون مع فرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك، ولا ينسون في وقت ما مدنيتهما ودهاءها وشفقتهماه واهتمامها بهم. وأن أكبر أمالهم ان تستولي فرنسا على البلاد الشامية⁽²⁾.

كما أشار إيضاحات، إلى تأسيس جمعية سرية في لبنان، وهي جمعية النهضة اللبنانية، المارونية الاتجاه، وأول جمعية تكونت في بيروت بعد إعلان الدستور العثماني، وان مؤسسيها جماعة من أسرة الخازن. ومن أعضائها: خليل زينية، ويوسف الغليون. وقد كان لها فرع في القاهرة، رئيسه اسكندر عمون ومن أعضائه داوود عمون. كما كان لها فرع في باريس رئيسه شكري غانم، ومن أعضائه خير الله خير الذي كان يقوم بالدعاية لفرنسا في سورية ولبنان. وكان فرعها في أمريكا⁽³⁾ يتأهه نعوام مكرزل، وقد حصلت على مساعدات مالية من القنصل الفرنسي في بيروت، لتحرير جريدة الاتحاد العثماني برئاسة رزق الله ارقش، وعضويه سعيد عقل.

1- ناجي الأصيل: أي الحزبين أصلح للأمة والوطن الاتحادي أم الائتلافي، المفيد، العدد 1081، السنة 4، 1912/9/18، ص 1-2. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 24. خليل زينية: الإصلاح في البلاد العثمانية- المسألة السورية، الأهرام، العدد 10768، 1913/8/1. ص 1.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 24. أنظر أيضا: أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 39: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 406.

3- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 30-32. أنظر أيضا: خليل زينية: حول الاصلاح في سورية، الأهرام، العدد 10798، 1913/9/5. ص 1.

ومن أهداف الجمعية إلحاق ولاية بيروت بלבnan مع توسيع حدوده إلى البقاع، وكانت تمهد لفرنسا في سوريا. ولتحقيق هذا الهدف وبتحريض من فرنسا وحدث نشاطها السياسي مع حزب اللامركزية، والإصلاح البيروتية.

وكانت الجمعيتان الإصلاحية البيروتية، والنهضة اللبنانية في بيروت على اتصال دائم بالمهاجرين العرب المقيمين في مصر والولايات المتحدة وفرنسا، وتعاونت مع القنصلية الفرنسية في بيروت بخصوص استقلال لبنان، بل واشتركت في تقديم مذكرة إلى الحكومة الفرنسية عام 1913م، تدعوها فيها إلى احتلال سوريا ولبنان، وفرض حمايتها عليها⁽¹⁾.

وقامت عناصر قومية من المسلمين والمسيحيين في وضع البرنامج الإصلاحي، وأدركت ضرورة الاستعانة بهيئة أجنبية استشارية. ففي مقال جريدة الأهرام، يصرح أحمد مختار بيهم لجريدة "لازاد أمارد" الأرمنية، بضرورة توسيع سلطات الولايات، كأساس للنظام الإداري على قاعدة اللامركزية، ومراعاة أن تكون قرارات مجالس الإدارة نافذة، وان يعين مستشارين أجانب لهم سلطات واسعة للانتفاع بنصائحهم ويختارون من البلاد الأوروبية التي ليس لها مطامع استعمارية⁽²⁾.

وهذا يوضح الحاجة إلى الأساليب الإدارية الناجحة التي تعتمد على الكفاءات العالية المؤهلة علميا وفنيا للإدارة الولايات، والقيام بأعمال التنظيم والإصلاح ومقاومة الأطماع الاستعمارية، ومواكبة النهضة الغربية.

ولم يكن ذلك الأسلوب بحديث فقد استخدمته من قبل العناصر الأخرى كالأرمن والألبان. كما ان الدولة اعتادت هي الأخرى الاستعانة بالمستشارين الأجانب في إصلاح وتنظيم دوائرها. إلا أن عدم تطبيق المساواة بين جميع العناصر لضمان ولاءها للحكومة، وعدم إتاحة الفرصة لنمو الشعور القومي لدى تلك الطوائف في بلاد الشام، ضمن النطاق اللامركزي، لدى الي تطلع بعض المسيحيين العرب إلى فرنسا للتخلص من الظلم والاستبداد التركي⁽³⁾.

1- مذكرات جمال باشا: المصدر السابق، ص 403-406. أنظر أيضا: خليل زينية: الإصلاح في البلاد العثمانية- المسألة السورية، الأهرام، العدد 10768، 1913/8/1. ص 1.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 14. أنظر أيضا: أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج4، ص 72-7. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 406. عزت الجندي: المصلحون والمفسدون، الأهرام، العدد 10687، 1913/4/27، ص 3. فياض شبيب: بواذر الإصلاح في الدولة وخلوها من العثمانيين، الأهرام، العدد 1085، 1913/11/8، ص 2. المؤيد: الإصلاحات في الولايات العربية، حديث مع الشيخ أحمد طيارة، العدد 1012، السنة 24، 1913/6/17، ص 1.

3- شبلي شميل، نحن وحكومتنا، الأهرام، العدد 10578، 1913/12/17، ص 1. محمد عزة دروزة: المرجع السابق، ص 406.

ولكن أعضاء الجمعية من المسلمين أعلنوا بأنهم يسعون لتحقيق الإصلاح أو الاستقلال، وليس الاحتلال الفرنسي. وقد صرح مختار أحد أعضاء وفد الجمعية لوزير الخارجية الفرنسي بان السوريين يحترمون فرنسا وينشدون مساعدتها لتحسين أحوالهم، ولكنهم لا يرحبون بالفرنسيين⁽¹⁾.

قامت جمعية بيروت الإصلاحية بنشر مشروعها في منتصف فيفري عام 1913م، فاستقبل بحماس شعبي كبير في سوريا والعراق والقاهرة، وعقدت الاجتماعات العامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة لتأييده والدعاية له، كما أرسلت برقيات التأييد إلى الأستانة تعبيرا عن الأمانى العربية⁽²⁾.

د- الجمعية الإصلاحية الدمشقية:

وفي دمشق تكونت الجمعية الإصلاحية الدمشقية، في جانفي عام 1913، بناء على أوامر الحكومة، وتألفت من أعيان دمشق، وأنصار اللامركزية الإدارية، لوضع لائحة بالإصلاحات المطلوب تنفيذها لولاية دمشق. ولكن بمجرد تشكيلها، تفككت لاختلاف آراء أعضائها حول مسألة الإصلاح، وترتب على ذلك ظهور فريقين مختلفين⁽³⁾. يمثل الفريق الأول أنصار الاستقلال الإداري للولاية، ويترأسه أعضاء حزب اللامركزية الإدارية العثماني وأنصار حزب الحرية والائتلاف، من أمثال عبد الرحمان شهندر، وعبد الوهاب الانجليزي ورشدي الشمعة، وشكري العسلي. ويمثل الثاني أنصار المركزية الإدارية، ويتزعمه الاتحاديون مثل محمد فوزي العظم، وعبد الرحمن اليوسف⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من عدم اتفاق الأعضاء حول تحضير اللائحة الإصلاحية، استطاع الفريق الأول التوصل إلى أعدادها، وتقديمها إلى الحكومة المركزية للتصديق عليها، بعد ان وافق عليها معظم أعضاء جمعيه دمشق. ويلاحظ تشابهها مع لائحة جمعيه بيروت الإصلاحية في معظم مواد الإصلاح، وبخاصة في ما يتعلق بالاستعانة بالمستشارين الأجانب في إصلاح الإدارة المحلية التي تختص بها الحكومة المحلية⁽⁵⁾.

1- إسكندر عمون: المؤتمر العربي السوري، الأهرام، العدد 10742، 1913/7/3، ص 1. محمد عزة دروزة: المرجع السابق، ص 510. محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 139.

2- إبراهيم سليم النجار: الحركة الإصلاحية وأبناء العرب، الأهرام، العدد 10746، 1913/7/7، ص 4.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 407-408. إبراهيم سليم النجار: بعد الاتفاق وقبل الإصلاح، الأهرام، العدد 10756، 1913/7/18، ص 5.

4- رفيق العظم: نحن والأمير شكيب، الأهرام، العدد 10760، 1913/7/23، ص 1. أنظر أيضا: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 19.

5- عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 246. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 408.

وبينما كانت الجمعيات الإصلاحية تعمل على إعداد وتقديم اللوائح الإصلاحية إلى الحكومة الائتلافية، تسلم الاتحاديون السلطة بانقلاب عسكري، بعد تصفيه الائتلافيين في 23 جانفي عام 1913م. فعملوا على إقالة الولاة العرب من الولايات العربية، وإبدالهم بولاة من أنصارهم⁽¹⁾. كما حاولوا تصفيه الجمعيات الإصلاحية في فيفري 1913م، ورفضوا مطالب جمعية بيروت، وأصدروا قرارا بحلها في 8 أفريل 1913م بعد أن أصبحت جمعية دائمة، وادعوا أن وجودها غير قانوني. وقام والي بيروت الجديد، أبو بكر حازم بإغلاق نادي الإصلاحيين، ووزع بيانا نشر في الصحف الموالية للاتحاديين، بتاريخ 9 أفريل 1913م، وكان ينص على إغلاق الجمعية⁽²⁾.

ويشير القنصل البريطاني في 10 أفريل 1913م، إلى صدور الصحف الإصلاحية مثل المفيد، والاتحاد العثماني، ولسان الحال، والحقيقة، وعلى صفحاتها الأولى نص البلاغ مجللا بالسواد، دلالة على الحداد. وجاء في البيان: " أن تشكيل الجمعية الإصلاحية مغاير لقانون تأسيس الجمعيات، فضلا عن أن المطالب التي جاءت بها منافية لأحكام القانون الأساسي فصار من الطبيعي بناء على ذلك منع دوام واجتماع هذه الجمعية"⁽³⁾.

بعثت الجمعية ببرقية احتجاج تمثل جميع الطبقات إلى وزير الداخلية تخبره بان الجمعية لم تعارض القانون الأساسي، بل هي مجرد تعبير عن متطلبات ورغبات الأهالي، واتضح ذلك في بيان الجمعية الإصلاحية⁽⁴⁾.

أيدت الوزارة الاتحادية الوالي في إجراءات القمع، فقد قام بإثقال قادة الجمعية مثل زكرياء طبارة، واسكندر عازار، وسليم طبارة، ورزق الله أرقش، كما قام بتعطيل الصحف الإصلاحية مثل المفيد والاتحاد العثماني، التي استشهد صاحبها العريسي وأحمد طبارة على أعواد المشانق⁽⁵⁾.

ظهر رد الفعل العربي في مدينة بيروت اتجاه هذا الإجراء التعسفي من جانب الوالي، وأدى ذلك إلى قيام الاضطرابات في بيروت وسوريا، وإغلاق المحلات التجارية.

1- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 125.

2- شبلي شميل: دعوة إلى التمزيق، الأهرام، العدد 10655، 1913/3/19، ص 1.

3- توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 466.

4- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 410.

5- رفيق العظم: تلغرافان من حزب اللامركزية إلى والي بيروت، المؤيد، العدد 6959، 1913/4/13، ص 5.

كما تواجه بعض أعضاء الجمعية إلى القنصلية البريطانية والفرنسية للاحتجاج على إجراءات الحكومة، فسمح لهم بعقد اجتماعاتهم في قاعة الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية الآن)، حيث قرروا استمرار المقاومة والإضراب إلى أن يتم الإفراج عن المعتقلين، وقاموا بإصدار الجريدتين، وتوزيعهما سرا⁽¹⁾.

وقد يكون للحادثتين السابقتين دلالتهم، فقد ازدادت حركة الاستياء العربي، وإزاء برقيات الاحتجاج، وقيام المظاهرات في بلاد الشام، اضطرت الحكومة إلى إطلاق سراح الزعماء المعتقلين، وإصدار الوعود بتنفيذ الإصلاح. فأذاعا نائبا المسلمين والمسيحيين، محمد بيهم، ويوسف سرسق، بيانا يدعوان الأهالي فيه إلى إنهاء الإضراب والعودة إلى أعمالهم⁽²⁾.

وفي 5 ماي 1913م، أصدرت الحكومة قانونا جديدا للولايات، لكنه لم يحقق أهدافا جمعيه بيروت الإصلاحية، وكان اقل بكثير من المطالب الإصلاحية العربية. فقد جاءت نصوصه مناقضة لمبدأ اللامركزية، وتؤكد من جديد مركزه الحكم وكبت الحريات.

لذلك هاجمه الاصلاحيون العرب على صفحات الجرائد، وأوضحوا ان الإصلاح المطلوب يتمثل في لائحة الجمعية⁽³⁾.

وكانت الحكومة قد رفضت المادة الرابعة عشر من اللائحة، من واقع مقاومتها للثقافة العربية الإسلامية، وتمسكها بسياسة التتريك. ولذلك استنكر العرب نصوص القانون الغامضة⁽⁴⁾.

وبذلك كانت السياسة العثمانية تتعارض مع مصلحة الولايات العربية، والامان القومية، مما أدى إلى ظهور الاحتجاج والمظاهرات في المدن السورية والعراقية. وفي خلال هذه الحوادث كتب حقي العظم احد قادة حزب اللامركزية رسالة هامة إلى محمود الحمصاني ببيروت، ينصحه فيها بتوسيع التشكيلات السرية، وإتباع بعض النظم العسكرية فيها، والاجتهاد في إلا تكون في البلاد قوة عاملة إلا وهي مناقضة إلينا، ولو في جماعات مختلفة الأسماء، وأوصاه بالحرص على التكتم والتدقيق في التنظيم خشية الوشايات⁽⁵⁾.

1- حقي العظم: كيف يغيرون الحقائق، الأهرام، العدد 10700، 1913/5/14، ص 1. رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 125.

2- شبلي شميل: أقفلوا الإشراف من بينهم، الأهرام، العدد 10668، 1913/4/5، ص 1.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 410

4- المصدر نفسه، ص 410-411. أنظر أيضا: جلال يحيى: الثورة العربية، ص 97. أنظر أيضا:

- Hourani Albert, op. cit, p 282-283.

5- ابراهيم سليم النجار: المسألة اللبنانية، الأهرام، العدد 10733، 1913/6/21، ص 1.

وفي دمشق قامت الحكومة بإغلاق الجمعية الإصلاحية الدمشقية وفق المنشور الصادر في 19 أبريل عام 1913م، واخذ والي دمشق الجديد عارف المارديني في مطاردته أعضائها من القوميين العرب، بالرغم من كونه عربياً. كان المارديني أحد أعضاء رجال الحركة العربية، انتساب إلى جمعية الإخاء العربي العثماني واشتغل بالعمل السياسي. ولكن الحكومة استطاعت إغراءه بالمال للتخلي عن مبادئ الإصلاح والتمسك بالحقوق العربية، وعينته والياً على دمشق عام 1913م⁽¹⁾. فاتخذ اتجاهها اتحادياً متطرفاً باستخدام الشدة، واضطهد الإصلاحيين، وأغلق صحفهم، مما اضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى مصر.

هـ - جمعية البصرة الإصلاحية:

استطاعت الحكومة الاتحادية قمع الحركة الإصلاحية في بيروت ودمشق، ولكنها لم تستطع ذلك في البصرة. فقد كان السيد طالب النقيب، نائب البصرة في المبعوثان (مجلس النواب العثماني)، واحد زعماء حزب الحرية والائتلاف، يتمتع بنفوذ كبير في جنوب العراق وفي الأوساط العثمانية. عارض قانون الولايات الجديد على أساس أنه لا يتضمن إصلاحات حقيقية⁽²⁾.

تأسست جمعية البصرة الإصلاحية في 28 فيفري 1913م، وانظم إليها عدد من أعيان البصرة والضباط العرب، وأعضاء حزب الحرية والائتلاف، وكان برنامجها يتشابه مع برامج جمعية بيروت الإصلاحية، وحزب اللامركزية التي كانت تدعو إلى تحقيق أهدافه. وكان للجمعية جريدة باسم النهضة تنطق باسمها وتصدر في بغداد⁽³⁾، وأدى فشل سياسة الحكومة الاتحادية إلى تأكيد المطالب العربية في اللامركزية واختيار الارتباط بالأحزاب التركية، فاتضح اتجاه قومي في جمعية البصرة ينادي بحقوق الأمة العربية كاملة، وبتحريرها من استبداد الاستعمار التركي، وبخاصة بعد توسيع نفوذه وتطور برنامجه عام 1913م.

اتجهت الجمعيات الإصلاحية العراقية نحو إنجلترا، وطالب النقيب بيان تتولى الإشراف على إجراء الإصلاحات المطلوبة في العراق، بل رضي بفرض الحماية البريطانية على العراق⁽⁴⁾.

-
- 1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 414. عزت الجندي: المصلحون والمفسدون، الأهرام، العدد 10687، 1913/4/29، ص 3. شبلي شميل: الحاجة في الإصلاح إلى الرجال، الأهرام، العدد 10590، 1913/1/2، ص 1.
 - 2- سليمان موسى: المرجع السابق، ص 36. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 24. سليمان فيضي: المصدر السابق، ص 130-131.
 - 3- سليمان فيضي: المصدر السابق، ص 99-100. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، المرجع السابق، ص 85. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 24-25.
 - 4- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 125.

ولكن يلاحظ أن الحركة الإصلاحية استطاعت توحيد عناصر العمل القومي في تنظيم عربي قومي موحد ضد الحكم التركي، على حد تعبير إبراهيم سليم النجار، مراسل الأهرام في الأستانة، الذي أشار إلى امتزاج الحركة القومية باليقظة الفكرية، مما أدى إلى وحدة الشعور القومي بين المسلمين والمسيحيين. وبذلك تغلبت المصلحة القومية على الفكرة الدينية⁽¹⁾، على الرغم من تكوين الجمعية التي تضم عناصر متباينة في اتجاهاتها وأهدافها، مما يفسر أن الوعي القومي فوق كل الاعتبارات والمصالح والانقسامات المذهبية.

وعلى الرغم من أن الفكرة القومية كانت تختلط بالدين أو الطائفية، لذلك لم تجتمع العناصر الطائفية داخل إطار قومي، ولكن اليقظة الفكرية أظهرت عدم جدوى الفكرة الإسلامية في الإصلاح السياسي، فقد استخدمها الترك في القضاء على الحركة العربية⁽²⁾.

وعندما رفضت الحكومة الاتحادية المطالب الإصلاحية، بدأت الصحف الموالية لها في إثارة النزاعات الدينية، فاتهمت بعض الأعضاء المسيحيين بخيانة الإسلام واستغلال الحركة الإصلاحية لخدمة المصالح الفرنسية لفرض الحماية الفرنسية على بلاد الشام، على الرغم من تأكيد الأعضاء المسلمين على أن هدفهم هو "الإصلاح الذي يحول دون تدخل الدول الأجنبية"، لا الانفصال عن الدولة، وبأنه لا يوجد بين رجال الإصلاح العربي من يعمل لحساب أجنبي على حد تعبير أحمد طباره، في حديثه لجريده المؤيد الصادرة بتاريخ 17 جوان 1913م بعنوان الإصلاحات في الولايات العربية⁽³⁾.

كما أرسلت الحكومة أعوانها مثل "الشيخ عبد العزيز جاويش" إلى بلاد الشام بغرض التفريق بين المسلمين والمسيحيين. فقام المسيحيون بمهاجمة الدعوة الطائفية باعتبارها تشكل خطراً على الكيان القومي. كما تصدت لهم الصحف العربية التي تعبر عن آراء المسيحيين والمسلمين، وفي مقال لجريدة الأهرام الصادرة في 19 مارس 1913م، بعنوان دعوته إلى تمزيق، يهاجم الشميل دعوة جريدة الحق يعلو، وحكومتها التي تعطيها حق النشر، ويدعو المسلمين إلى اليقظة، وعدم السير وراء الأدعياء⁽⁴⁾.

وفي مظاهرات الاحتجاج لإطلاق سراح الإصلاحيين. شاركه الضباط العرب في هذه المشاعر القومية، وظهرت حركة عربية تشمل العناصر القومية للجماهير العربية. وهكذا كانت الفكرة القومية تحل تدريجياً محل

1- إبراهيم سليم النجار: نهضة البلاد السورية، والصحافة التركية، الأهرام، العدد 10595، 1913/1/8، ص 1.

2- عربي مسلم: إلى الأمام لا إلى الوراء، الأهرام، العدد 10683، 1913/4/22، ص 5. شبلي شميل: بيان لا بد منه، الأهرام، العدد 10650، 1913/3/13، ص 1.

3- الشيخ أحمد طباره: الإصلاحات في الولايات العربية، المؤيد، العدد 7012، السنة 24، 1913/6/17، ص 1.

4- شبلي شميل: دعوة إلى التمزيق، الأهرام، العدد 10655، 1913/3/19، ص 1.

الشعور الديني الذي سيطر على التفكير العربي. وعندما اعتبر الاتحاديون الحركة العربية حركة وظائف، واتجه الوالي أبو بكر حازم إلى كسب ولاء زعماء المسلمين، بإغرائهم بالوظائف، والمسيحيين بالامتيازات الاقتصادية⁽¹⁾. قامت العناصر القومية برفضها، كما حدث مع شكري العسلي. واتضحت الروح القومية في استقالات الموظفين احتجاجاً على رفض الحكومة لمطالبهم الإصلاحية في بيروت. وقد حاولت الحكومة إغراء بعض قادة الحركة في الأستانة بالوظائف، ولكنها فشلت أيضاً حين أصروا بان هدفهم ينحصر في الإصلاح. وأصبح شعار "نحن طلاب حقوق إصلاح ولسنا طلاب وظائف" سائداً على صفحات الجرائد العربية، وارتبطت بقضية الإصلاح واستقالات كبار موظفي بيروت⁽²⁾.

وهكذا يستمر الحركة العربية للحصول على الإدارة الذاتية، وبدأت الجمعيات والتنظيمات العربية تسعى لتوحيد نشاطها السياسي وكسب اعتراف أوروبا بها، ومطالبها القومية، وذلك من خلال عقد المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في جوان عام 1913م⁽³⁾.

2- التنظيم العربي السري:

هناك عدة تنظيمات سرية، كان لها تأثيرها على ظهور القومية العربية، ومتمثلة في الجمعية القحطانية، وجمعية الجامعة العربية، وجمعية العربية الفتاة، وجمعية العهد، وجمعية الثورة العربية.

أ- الجمعية القحطانية:

في أواخر عام 1909م شكل عبد الكريم خليل، رئيس المنتدى الأدبي جمعية سرية سياسية عرفت باسم القحطانية، تضم في عضويتها عدداً من الضباط العرب في الجيش العثماني، مثل سليم الجزائري، وصفوت العوا، وأمين لطفي الحافظ من دمشق، وعلي النشاشيبي من القدس، ومن ابرز أعضائها عزيز علي المصري. كما انضم إليها الزهراوي، وعارف الشهابي دمشق، وحقي العظم، وخليل حمادة بيروت، وعزت الجندي حمص وشكري العسلي دمشق، وأمين كزما مسيحي من حمص، والأميران أمين وعادل ارسلان ديرزيان من لبنان⁽⁴⁾.

1- عثماني لامركزي: الولايات العربية بين المطالب والمناصب، الأهرام، العدد 10672، 1913/4/10، ص 1.

2- الأهرام: طلاب الإصلاح في سوريا ولبنان وبلاد العرب يرفضون الوظائف، العدد 10652، 1913/3/15، ص 1-2.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 126. أنظر أيضاً: Holt, op. cit, p 260.

4- جمال عبد الجواد: شخصيات قومية - عزيز المصري، الأهرام، العدد 35987، 1985/6/20، ص 11. مصطفى الشهابي:

محاضرات عن القومية العربية، ص 69-70. منير مشابك موسى: المرجع السابق، ص 200. أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 16-

17. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 462. أنظر أيضاً:

Hourani, A, op. cit, p 285.

كانت الجمعية تنتقد فكرة الجامعة العثمانية، التي نادى بها جمعية الإخاء العربي العثماني، وتؤكد على وجود أمة عربية متمسك بذاتها ومقوماتها اللغوية والتاريخية وتركز على العروبة، فتدعوا لنهضة العرب وجمع كلمتهم والمطالبة بحقوقهم في الدولة اتجاها سياسة التتريك⁽¹⁾، وبخاصة ان الحكومة لم تمارس الحكم الدستوري الديمقراطي العادل الحر. بل كانت تتبع سياسة دمج القوميات الأخرى في تيار القومية التركية، وربطها بالحكم المركزي التركي، مما كان يشكل خطورة على اللغة العربية⁽²⁾.

ولذلك حاول العرب وضع تصور لشكل حكم نيابي يتخطى مركزه الحكم، ويحافظ على الكيان القومي العربي. لذلك اتجه برنامج القحطانية نحو الحكم الثنائي، وذلك بإعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية كدولة ثنائية القومية من العرب والترك، تشبه إمبراطورية النمسا والمجر، بحيث يصبح السلطان العثماني ملكا للعرب في نفس الوقت، وتكون الولايات العربية مملكة عربية مستقلة ضمن الإمبراطورية العثمانية لها برلمان خاص بها، وإدارة مستقلة، وحكومة محلية خاصة لغتها العربية الرسمية، على ان ترتبط بالدولة العثمانية من خلال التاج الثنائي⁽³⁾. وبذلك يرتبط العرب والترك بوحدة حقيقية واقعية، فيعطى كل فريق مطالبه القومية بدون المساس بمصالح والقومية الفريق الآخر. وقد تضمن ميثاق الجمعية العمل على توحيد جهود الأمة العربية، وحشد صفوفها لتحقيق هذا الهدف⁽⁴⁾. ويمثل هذا الاتجاه الجمعيتان السريتان القحطانية والعهد.

وكان مركز الجمعية في القسطنطينية، ولها فروع في خمس مدن عربية، اهتمت بالأعمال التنظيمية، ولكنها لم تقم بعمل حقيقي مباشر. كانت خططها تتطلب الكتمان واستخدمت كلمة سر خاص بها ومتعارف عليها، ووضعت نظاما دقيقا لاختيار الأعضاء، فلم تقبل بين صفوفها إلا من كانت وطنيته فوق مستوى الشبهات، وعندما اكتشفت الأعضاء أن أحدهم قد افشي سرها للحكومة، فضلوا حل الجمعية بعد عام من تأسيسها، قبل أن تنالهم السلطة، وانتسب أعضاؤها إلى جمعية الفتاة والعهد⁽⁵⁾.

1- رفيق العظم: العرب والترك، الأهرام، العدد 9422، 1909/3/15، ص 1. أنظر أيضا:

Kirk, op. cit, pp 353-354. Khairallah, K, op. cit, p 34.

2- ساطع الحصري: البلاد العربية، المرجع السابق، ص 126-127.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 123. أنظر أيضا:

Hourani, A, op. cit, p 285. Zeine, op. cit, pp 81-82.

4- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 123. أنظر أيضا:

Kirk, op. cit, p 128. Khairallah, K, op. cit, p 34

5- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 16-17. محمد بديع شريف: المرجع السابق، ص 90.

يشير أحمد جمال باشا ايضاحات إلى ان أعضائها قاموا بتشكيل ثلاث جمعيات هي حزب اللامركزية، والعهد، والثورة، كما يهتم معظم أعضائها بالدعوة لاستقلال البلاد العربية، وإقامة الخلافة العربية، ولكن هذا الاتهام لا يطابق تطور سير الحركة العربية في تلك الفترة.

ب- جمعية الجامعة العربية:

كانت هناك جمعيات أخرى اقل أهمية، ومنها جمعية الجامعة العربية، التي أسسها السيد محمد رشيد رضا، في القاهرة عام 1910م، بعد عودته من رحلته إلى الأستانة، وتأكدته من استحالة استمرار التعاون بين العرب والترك. كان يهدف إلى إقامة التحالف بين أمراء شبه الجزيرة العربية بغرض الاتفاق، ونبذ الشقاق، والتعاون لتعمير البلاد العربية والدفاع عنها، وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية في الشام والعراق وغيرها. كانت الجمعية خاصة بالأمراء والزعماء المسلمين، وقد انضم لعضويتها إمام اليمن يحيى حميد الدين، وأمير نجد عبد العزيز آل سعود، وأمير عسير محمد علي الإدريسي، والأمير عبد الله بن الحسين، ومن أعضاء الجمعية في مصر، الشيخ علي يوسف، ورفيق العظم كما انتسب إليها بعد إعلان الحرب الدكتور عبد الرحمن شهنندر، وشريف الفاروقي وغيرهم⁽¹⁾.

وقد وضع السيد رشيد رضا قسما للجمعية التي كانت خاصة بالأمراء والزعماء المسلمين، ويتضمن القسم: "اقسم بالله العظيم القهار، المنتقم الجبار، العالم بسري وعلائي، القادر على سلمي كل ما أعطاني من المواهب والقوة، بكتابه المجيد أني ابذل كل ما في وسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم، بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية، التي انضم في سلكها اليوم، وتتضمن القسم أيضا مع الأعضاء بالصدق والإخلاص والمحافظة على مقاصد الجمعية وأسرارها، وعدم إفشاء أسرار الجمعية، وان يساعد العضو على النهوض والعمل من اجل مصلحة الجامعة وقد عدل هذا القسم بعد الحرب"⁽²⁾.

ج- الجمعية العربية الفتاة:

تعتبر الجمعية العربية الفتاة أهم تنظيم سياسي سري في اتجاه العمل القومي العربي الثوري، فلقد اعتمدت على الفكرة القومية والأمة العربية، وقام بتأسيسها في باريس عام 1911م نخبة مثقفة من الطلاب العرب أعضاء المنتدى الأدبي، كانوا يتمون دراستهم العالية في فرنسا. وقد بلغ تأثير قيادتها القومية بالممارسة السياسية للحركة القومية التركية، إن اتخذت اسما قوميا "العربية الفتاة" على نمط تركيا الفتاة⁽³⁾.

1- محمد رشيد رضا: عبر الحرب البلقانية وخطر المسألة الشرقية - مقدمات الخذلان في الحرب، المؤيد، العدد 6857، السنة

1912/12/19، ص1. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 506

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 53-56.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 130. أنظر أيضا: Hourani Albert, op. cit, p 285.

اختلفت المصادر حول تحديد بداية تأسيسها، فيذكر الدكتور أحمد قدرى السوري، بأن فكرتها بدأت في الأستانة، حيث كان يدرس هو وزميله عوني عبد الهادي من نابلس، واخبر بذلك محمد رستم حيدر بعلبك. فأيد الفكرة، ثم سافر كل من عوني عبد الهادي، ومحمد رستم حيدر إلى باريس، وراسلاه بشأن تنفيذ هذه الفكرة، فلاحق بهما في باريس وأسسوا الجمعية في عام 1911م. وقد شكل الثلاثة هيئتها الإدارية الأولى، وجعلوا هدفاً نخضة العرب، ورفع شأنهم إلى مصاف الأمم الراقية، في مواجهه أحكام الرقابة على الحريات، واضطهاد الصحافة العربية، وتحجم الصحافة التركية على العرب.

وقد أطلقوا عليها اسم "العربية الفتاة"، ثم ضموا إليها رفيق التميمي (نابلس)، ومحمد الحمصاني (بيروت)، وعبد الغني العريسي (بيروت)، وصبري الخوجة (العراقي)، وتوفيق الناطور (بيروت)⁽¹⁾.

وبعد ذلك انتسب إلى الجمعية بعض الطلاب العرب في باريس مثل جميل مردم دمشق، وصبحي الحسيني، والأمير مصطفى الشهابي دمشقيون، والتوفيق فايد بيروت، وإبراهيم حيدر بعلبك.

ويتفق زين مع مصطفى الشهابي في أن الفكرة نشأت في الأستانة، وتأكدت في بيروت، وتحققت في باريس في 14 نوفمبر عام 1909م. وهذا يناقض رأي مؤسسها أحمد قدرى الذي حدد تاريخ إنشائها بباريس في عام 1911م. اعتمد الشهابي على الوثائق المنسوبة للجمعية، وهي منشوراتها المعروفة باسم الصرخات الأولى والثانية، والتي تؤرخ عام 1909 لتأسيس الجمعية. ولكن اتفق على أن سنة 1909م تؤرخ لنشوء الفكرة، بينما يكون تاريخ إنشائها هو تاريخ تأسيسها الحقيقي في باريس، كما أشارت بذلك الوثائق، ووفقاً لتأسيس أول هيئة إدارية لها عام 1911م، كما ذكر أحمد قدرى⁽²⁾.

كانت عضوية الجمعية حقاً من الحقوق العربية، لذلك تمسكت بفكرة الأمة العربية، والمحافظة على حقوقها الطبيعية، وإن العرب أمة كغيرهم من الأمم الحية. ففي بداية تكوينها، أشارت أولى نشراتها إلى تخلف العرب، فجاء البند الأول من دستورها، ليهدف إلى ترقية الأمة العربية في نواحي الثقافية والاجتماعية والعلمية والصحية إلى مصاف الأمم الراقية⁽³⁾.

1- أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 6-7، 11-12. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 9. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 73. منير مشابك موسى: المرجع السابق، ص 201.

2- أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 12. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 73. زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص 91.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 382. أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 13.

هناك اختلاف أيضا حول أهداف الجمعية، فقد ذكرت بعض المراجع بان هدفها هو العمل على استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، وتحرير العرب من الحكم التركي والسيطرة الأجنبية. ويشير زين إلى برنامجها السياسي في حديث له مع توفيق الناطور، أحد مؤسسيها، ومن هيئتها الإدارية الأولى، فيقول: "إن فكرة القومية العربية أو العروبة لم تكن قد تبلورت بعد حتى تصل إلى درجه الاستقلال عن الدولة العثمانية، وجل ما كنا نطلبه، نحن العرب هو ان نتمتع في الإمبراطورية العثمانية بنفس الحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها الأتراك، وان تقوم الإمبراطورية على ركنين عظيمين، وهما الشعب التركي والشعب العربي"⁽¹⁾.

ويقول أحمد قدري "إننا تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا وان كنا في السر نعمل وراءه"⁽²⁾.

ويلاحظ تطور البرنامج السياسي للجمعية من المطالبة بالاستقلال الذاتي ضمن الرابطة العثمانية على أساس مبدأ اللامركزية الإدارية، إلى الثورة على الترك والمطالبة بالاستقلال العربي التام عن الدولة، بعد إعلان الحرب العالمية الأولى⁽³⁾. ويعتبر السعي لتحقيق هذا الهدف القومي تقدما في برنامج العمل السياسي.

ضمت الجمعية إلى صفوفها خلال سنتي 1912، 1913م الشباب القومي العربي في الأستانة وبلاد الشام مثل سيف الدين الخطيب، ومحب الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم، ويوسف مخير حيدر، ورشيد الحسامي، وتوفيق البساط، والأمير عارف الشهابي، وعمر حمد، ومحمد الشريقي، وفخري البارودي، وفايز الغصين، والأمير طاهر الجزائري، والشيخ كامل القصاب، ونسيب البكري، وفوزي البكري، وياسين الهاشمي، ورضا الركابي، وشكري القوتلي، والأمير فيصل بن الحسين، وفوزي القاوقجي، ونسيم الأطرش، ونواف الشعلان⁽⁴⁾.

وقد بلغ عدد الأعضاء الذين انضموا إلى الجمعية حتى عام 1915م ما يقارب من 86 عضوا كان معظمهم من أبناء سوريا. ولذلك حرصت الخارجية الفرنسية بباريس، والقنصلية الفرنسية ببيروت على تأييد الجمعية وتوثيق علاقاتها بها، في نفس الوقت الذي كانت تقوم فيه بتشجيع الاتجاهات الإقليمية لدى بعض

1- أحمد قدري: المصدر السابق، ص14. سليمان موسى: الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1977، ص 33. زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ص 91-92. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 489.

2- أحمد قدري: المصدر السابق، ص14.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 130. أنظر أيضا: Khoury Philip S, op. cit, p 65.

Edib Halide, Conflict of East & West in Turkey, India, 1935, p 98.

4- أحمد قدري: المصدر السابق، ص 13-17. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 9-10. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 500-502.

المسيحيين اللبنانيين، أصحاب فكرة الأمة اللبنانية كأسرة الخازن، وأنصار الفكرة السورية القومية العلمانية التي وضعها الأديان المسيحيين اللبنانيين، جورج سمّنة، وشكري غانم، كبديل للعروبة. وهذا يفسر الدور الهام الذي لعبته الخارجية الفرنسية في المؤتمر العربي الأول الذي عقد بباريس عام 1913م⁽¹⁾.

وقد لعبت هذه الجمعية دوراً حاسماً في الحركة القومية العربية، فعمل أعضائها على توحيد جهود الجمعيات العربية القومية السرية في بلاد الشام، لتحقيق الاستقلال التام الكامل. فكان من أهم مظاهر نشاطها في باريس الدعوة إلى عقد المؤتمر العربي في 1913م، الذي جمع العاملين بالحركة العربية.

وقد استشهد معظم أعضائها في مذابح جمال باشا في عام 1915م في بيروت ودمشق من أمثال محمد الحمصاني، وتوفيق الناطور، وعبد الغني العريسي ومحمود الحمصاني، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم، وتوفيق البساط، وعارف الشهابي، وعمر حمد وأصبح البعض الآخر من كبار السياسيين العرب بعد الحرب⁽²⁾.

وبعد عودة أعضاء الجمعية إلى أوطانهم، نقلوا نشاطهم إليها في أواخر عام 1913م، وكان محمد الحمصاني يتولى منصب السكرتير العام لها في بيروت، ويتولى فرعها في دمشق الدكتور أحمد قدري.

وعندما دخلت الدولة الحرب إلى جانب ألمانيا في نوفمبر عام 1914م، انتقل مركز الجمعية إلى دمشق، مع بقاء فرعها في بيروت. وفي دمشق تم الاتصال بين أعضاء الفتاة والعهد، وتم الاتفاق على تنسيق الخطط، اطلاع الأمير فيصل على أهداف الحركة القومية، والتحققت قطاعاتها المدنية والعسكرية بالثورة العربية ضد الحكم التركي⁽³⁾.

تميزت الجمعية بدقه التنظيم وإتباع أسلوب السرية التام في العمل القومي، فكان لكل عضو رقم سري، واستخدم الأعضاء رموزاً سرية في مكاتبتهم. وكانوا ينقسمون إلى ثلاثة مجموعات وهي: مجموعة القادة، والأعضاء العاملين، والمرشحين للعضوية. وكان أعضاء المجموعة الأخيرة لا يعرفوا بعضهم بعضاً. ولا يسمح لعضو بالانتساب إليها إلا بعد التزكية عضو قديم، ولا يسمح له بمعرفة الآخرين إلا بعد أداء قسم الإخلاص للجمعية، بالمحافظة على أسرارها وتحقيق أهدافها، ولو أدى ذلك إلى التضحية بحياته⁽⁴⁾.

1- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 123. أنظر أيضاً: Samme G, op. cit, p 89-90.

2- المرجع نفسه، ص 123. أنظر أيضاً: Zeine Z.N, op. cit, p 104-105.

3- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13. أحمد قدري: المصدر السابق، ص 29-33. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 9. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 503.

4- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 123. أنظر أيضاً: Antonuis G, op. cit, p 111-112.

ولذلك عندما قام جمال باشا قائد الجيش الرابع في دمشق عامي 1915 - 1916م، بتشكيل المحكمة العسكرية بلبنان، لمحاكمة القوميين العرب من أعضاء الحركة العربية، بتهمة الخيانة أثناء الحرب، لم يستطع كشف تنظيم الجمعية، لشدة تكتم أعضائها على الرغم من التعذيب والمشاق، مما حال دون البطش بهم، فقد حاول أحد أعضائها شكري القوتلي، الانتحار عندما اعتقل في عام 1916م مع أحمد قدرى حتى لا يفشي سرها. ولم يعرف بها أحد إلا بعد تحرر البلاد العربية من الحكم التركي⁽¹⁾.

ويشير أحمد قدرى وأمين سعيد إلى أن الجمعية كانت تحتفظ بسجلات منظمه يقوم بإدارتها سكرتيرها العام محمد المحمصاني، كما أنها كانت تجتمع أسبوعياً بانتظام، وتدون قراراتها في سجل خاص كما كان محب الدين الخطيب، يكتب بخط يده اسم العضو، وتاريخ انضمامه لعضوية الجمعية إلى ما بعد عام 1918م. ولكن لم يبق من تلك الوثائق سوى ما احتفظ به الخطيب من أوراقه الخاصة⁽²⁾.

كان بيان الجمعية المعنون بالصرخة الأولى موجهاً إلى الحكومة العثمانية ليدكرها بالوجود العربي، وقيمته في الدولة، فهو أكبر عناصرها، ويبدأ ذلك بمقدمة موجهة إلى أولياء الأمور في العاصمة. أما البيان الثاني، فكان موجهاً إلى أبناء الأمة العربية ينبههم إلى ضرورة التمسك بشخصيتهم القومية، والمطالبة بحقوقهم في الدولة على أساس فكره اللامركزية، بعد أن وضع تحاذلها في الحروب الطرابلسية والبلقانية⁽³⁾.

كما يوضح حقيقة الأوضاع القائمة في الدولة وازدياد الخلاف بين الحركة العربية والحكومة بعد اتجاهه الأخير اتجاهها قومياً، فقد تمسكت بالتترك ومركزية الحكم والحركة الطورانية. فلم تستجب للمطالب العربية، وتحقيق المساواة بين جميع العناصر العثمانية، بصرف النظر عن الأديان والطوائف، وعلى الرغم من ذلك يتمسك بالعثمانية في مواجهة الخطر الغربي، إذا حصل العرب على المساواة والمراكز في الدولة⁽⁴⁾.

ومن المرجح أن الصرختين صدرتا قبل مؤتمر باريس عام 1913م. فالجمعية العربية الفتاة، في بداية تكوينها، كانت تطالب باللامركزية الإدارية، والاستقلال الذاتي ضمن الجامعة العثمانية، مثل حزب اللامركزية

1- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 122. توفيق برو: العرب والتترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 319. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، المرجع السابق، ص 78. أنظر أيضاً:

- Hourani Albert, op. cit, p 258.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 9-10. أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 35-37.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 395. عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 259.

4- المصدر نفسه، ص 396.

والجمعية الإصلاحية البيروتية إلا أنها أكدت في برنامجها السياسي على الهدف القومي، ولم تدرج مسألة المستشارين الأجانب.

صاغت الجمعية فكره اللامركزية الإدارية، لتقسيم سياسة الدولة إلى سياسة عامة وسياسة داخلية فتهتم الحكومة المركزية بالسياسة العامة، التي تنقسم إلى السلطة التشريعية، وهي عبارة عن مجلس النواب ومجلس أعيان، تتساوى فيه نسبة الأعضاء من العرب والترك وسائر القوميات إلى النسبة العددية للسكان. ويتزعم السلطة التنفيذية السلطان العثماني والوزارة المركزية التي تمثل العرب والترك والأرمن، وغيرهم بنسبة عدد السكان. كما توزع المراكز الوزارية والوظائف الإدارية تبعا لعدد السكان والكفاءة⁽¹⁾.

وبخصوص السياسة الداخلية، فقد وجدت الجمعية أن الدولة تتألف من ثلاث ولايات عربية وتركية وأرمنية، وأدركت أن الحكم المركزي في إدارة العناصر المختلفة يؤدي إلى الهلاك، فرفضت فكرة توسيع ماذونية الولاية وطالبت العرب بالاعتماد على دعم قواتهم، وذاتهم في إصلاح الإدارة. كما دعت إلى وجود حكومات محلية لامركزية في هذه الولايات، على غرار الحكومة المركزية⁽²⁾، تختص بالمهام المحلية للولايات، فتراعي فيها خصائصها القومية. وبذلك يتحدد للعرب شكل الإدارة الذاتية.

تتألف الحكومة المحلية من السلطة التشريعية، ويمثلها مجلس النواب والأعيان، وينتخب محليا من قبل الأهالي، ويشرع لشؤونها المحلية، وتتألف السلطة التنفيذية، وتمثلها الحكومة المحلية من حاكم من أهل الولاية، ووزارة محلية تجمع الوزارات التي تختص بالأمور المحلية، مثل الداخلية والمالية والعدلية والأمن العام والأوقاف والمعارف والنافعة. وتكون وزارتات الخارجية والحربية من اختصاص الحكومة المركزية⁽³⁾.

وبذلك أوضحت العربية الفتاة أهمية الاتجاه اللامركزي الإداري، واعتمدت في إثبات ذلك على أمثله من الدول الكبرى المتقدمة، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الألماني، كي تقتفي الدولة العثمانية الفيدرالية أثرهما.

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ملحق ك، ص 168. عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 258. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 392-393.

2- عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 260. - زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، ملحق ل، ص 169. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 396.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 194. وعبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 258.

كما أوضحت للأمة العربية ضرورة تحقيق الاستقلال الذاتي للحفاظ على مقوماتها العربية⁽¹⁾، وبينت الجمعية أن الحركة العربية تضم العرب على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم على أساس قومي. فقدمت تعريفا قوميا للأمة العربية في بيانها الثاني، جاء فيه: " فليكن كل المسيحيين في هذه الحركة موحدين في جنسيتهم مع اليهود والمسلمين، وكل المسلمين واليهود متضامنين مع المسيحيين، ولا دين يفصم عراهم، ولا تعصب يقسم ظهورهم، فالجنسية قد أوجدتهم قبل وجود الأديان، وما الأديان إلا مسالك قد تفرعت من هذه الجامعة فالفرع مهما امتدت جوانبه لا يخرج عن أصله"⁽²⁾.

د-جمعية العهد:

في 28 أكتوبر عام 1913م أسس عزيز علي المصري جمعية العهد السرية في الأستانة، وقد تشابه برنامجها مع الجمعية القحطانية، من حيث التكوين وأسلوب العمل، ولكن لصياغته العسكرية، فقد اختلفت عنها باقتصارها على فئة العسكريين من الطليعة العربية المثقفة، التي أسهمت بدور فعال في التشكيلات العسكرية في بلاد الشام⁽³⁾.

ويرجع ذلك إلى انتشار التعليم العسكري، والمدارس العسكرية في بلاد الشام والعراق والأستانة، فتكونت هذه الفئة التي تأثرت بدورها بالتنظيمات العثمانية. فقد ضمت تركيا الفتاة الضباط الأحرار في الجيش العثماني، ولذلك تعتبر جمعية الاتحاد والترقي تنظيما عسكريا. فكان من الطبيعي ان يتأثر الضباط العرب بهذا التنظيم الجديد بصفتهم رعايا العثمانيين، وقد كان لهذا التنظيم العسكري نشاط سياسي هام في الحركة العربية التي اتجهت نحو الثورة العربية المسلحة ضد الحكم التركي عام 1916م.

جاء تأسيس الجمعية في فترة توتر العلاقات بين الوزارة الاتحادية والحركة العربية، وبعد أن رفضت الأولى منح العرب حقهم في الاستقلال الذاتي أو الثقافي واتجهت اتجاها تركيا خالصا. فتدخلت في انتخابات المجلس النيابي الجديد، وحاولت القضاء على المعارضة العربية فطاردت الضباط العرب ومنعهم من الالتحاق بالبعثة الألمانية، وأقصتهم عن مناصبهم إلى الحاميات العثمانية النائية⁽⁴⁾.

1- عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 259. ومحمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 396-397.

2- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 397.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 128. أنظر أيضا:

Hourani, A, op. cit, p 280. Saab, op.cit, p 260.

4- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 366، 457-458. محمد بدیع شریف: المرجع السابق، ص 88.

اقتنع الضباط العرب بزعامة عزيز علي المصري بضرورة المطالبة بالاستقلال الذاتي والإصلاح اللامركزي ضمن الرابطة الإسلامية والجامعة العثمانية، وخاصة عقب انعقاد مؤتمر باريس الذي جمع الحركة الحزبية السرية والعنلية. لذلك قام عزيز بتشكيل هذا التنظيم السري الثوري الجديد من الضباط العرب من الجيش التركي، بغرض الضغط على الحكومة لتنفيذ هذا الهدف القومي⁽¹⁾.

وكانت دعوته تشمل أيضا الضباط الترك، لكنهم رفضوا من واقع تمسكهم بالسيطرة التركية، فحافظت العهد على طابعها العربي، مما ساعدها على تقوية ودعم الفكرة العربية القومية، والتطور باتجاه الثورة العسكرية.

وقد وحدت الجمعية الضباط العرب العراقيين والشاميين، وبخاصة العراقيون الذين كانوا من كبار الأعيان، ويشكلون أكبر عنصر في الجيش التركي، ولم يقبل بما سوى مدنيين، لثقتهم بوطنيتهم، أحدهما هو الأمير عادل ارسلان، للقيام بالثورة المرتقبة⁽²⁾.

وقد قرب عدد أعضائها من أربعة آلاف شخص، وتأسست لها فروع في بغداد والموصل وحلب ودمشق، واشترك في تأسيسها من الضباط الشاميين: سليم الجزائري، وعون القضماني، ومحمد إسماعيل الطباخ، ومصطفى وصفي، ويحيى أبو الخير، ومحي الدين الجبان، وعلي النشاشيبي، وأمين لطفي الحافظ. ومن العراقيين: ياسين الهاشمي، ونوري السعيد، وعلي جودت الأيوبي، وحميل المدفعي، ومولود مخلص، وعبد الله الدليمي، وتحسين علي، ومحمد علي الحاج دياب، وعلي رضا الغزالي، وموفق كامل⁽³⁾.

ضمت العهد في عضويتها 315 ضابطا من جملة الضباط العرب البالغ عددهم 490 ضابطا عربيا في الجيش العثماني⁽⁴⁾.

وأثار ذلك رد فعل قوي لدى الحكومة الاتحادية التي قررت مقاومه اشتداد الحركة العربية والتفريق أعضائها، بنقل الضباط العرب، ومن ضمنهم عزيز المصري من الأستانة للخدمة في جهات نائية بعيدا عن بلادهم، وتوليته القيادة إلى الترك في بلاد العرب، والإسراع في تنفيذ التتريك على أن يتولى ذلك أحمد جمال باشا، ومقاومة الحركة الإصلاحية في بيروت وباريس، وإلغاء الأحزاب العربية كلها، وتأليف شعبة سياسية في وزارتي الداخلية والخارجية

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 46. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 36. محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 146. جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 1.

2- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 1. أنظر أيضا: Saab, op.cit, p 238

3- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 516. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 474.

4- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 47. جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 11.

للأشراف على الشؤون العربية، ومقاومة الحركات الانفصالية، وإبعاد العرب الذين يعملون ضد الحكومة، واستمالة غيرهم، وتعزيز حركة الاتحاديين في أنحاء البلاد⁽¹⁾.

كان برنامج الجمعية يرى إنشاء نظام اتحادي بدلا من النظام المركزي، يضم جميع العناصر التي تتألف منها الدولة. فتبقى الخلافة فيه مع العثمانيين، ويكون السلطان العثماني، رمزا سياسيا لا فعليا للاتحاد، فلا يكون له دستوريا سوى وضع شبيه بوضع ملك إنجلترا، على أن تتولى كل ولاية إدارة شؤونها من خلال حكومة محلية مستقلة ذاتيا، ترتبط بالتاج العثماني وبسائر الإمبراطورية في الشؤون العامة المشتركة⁽²⁾.

ولا يقتصر ذلك على ولايات العراق وسوريا، وإنما يشمل أيضا جميع العناصر التي استقلت عن الدولة قبل وبعد الحرب البلقانية، مثل مصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس والجزائر في هذا الاتحاد، لتكوين دولة اتحادية لامركزية في شرق البحر الأبيض المتوسط⁽³⁾.

وكان برنامج الجمعية واضحا وصريحا حين اقترح عزيز ومؤسسوها من الضباط السوريين والعراقيين بقاء الخلافة وديعة في آل عثمان، وذلك لتأثيرهم بالاتجاه الإسلامي العثماني، الذي يربط بين العرب والترك في مواجهة الخطر الغربي.

لذلك جاءت مطالبهم معتدلة ومتدرجة⁽⁴⁾، وهم في ذلك لا يختلفون عن التنظيمات الأخرى للحركة العربية التي كانت مطالبها القومية لا تتعدى الحفاظ على الحقوق واللغة والمساواة مع الترك، أو المطالبة بالاستقلال الذاتي، والاتحاد الفيدرالي، لإقامة كيان قومي مستقل للعرب، لا الاستقلال السياسي التام.

تطورت سياسة الجمعية القومية إلى الاتجاه الثوري الاستقلالي بعد أن وجدت أنه لا أمل في التفاهم مع الترك كشركاء في الاتحاد، فقد نقضوا اتفاقياتهم ووعودهم، واتبعوا سياسة المراوغة والقمع ضد الحركة العربية في بلاد الشام، منتهزين فرصه إعلان الحرب العالمية الأولى، التي كانت عاملا هاما في تأكيد مسار الحركة العربية السرية، لذلك اهتمت الطليعة العربية المثقفة، بقطاعيها العسكري والمدني بمصير البلاد أمام الأخطار المتوقعة، واتضح ذلك

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 475. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 50. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 47.

2- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 128. أنظر أيضا: Saab, op.cit, p 240.

3- أنظر أيضا: أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 54. وأيضا: Hourani Albert, op. cit, p 285.

4- محمد رشيد رضا: العرب والاسلام والترك الاتحاديين، المنار، ج4، مجلد 19، 1916/9/28، ص 233-235. أنظر أيضا: Saab, op.cit, p 250-253.

في موقف الجمعية التي وضعت خطه للتخلص من الحكم التركي بالقوة، وذلك بالثورة العسكرية المسلحة، تتخذ من الحجاز مقراً لها⁽¹⁾.

اتحدت جمعية العهد مع الجمعية العربية الفتاة في ائتلاف حزبي في دمشق عام 1915م، واتصلنا بالشريف حسين أمير مكة تعرضان عليه قيادة الحركة القومية للقيام بالثورة العربية في الحجاز⁽²⁾. وهذا يعد تطوراً في برنامج العمل السياسي السري، دفع بالحركة الحزبية نحو الاتجاه القومي، بتوحيد جميع التنظيمات الحزبية في بلاد الشام لتحقيق الاستقلال العربي التام عن الدولة.

وبذلك اتسع نطاق الحركة القومية في بلاد الشام والعراق، وكان اهتمام الأحزاب العربية موجهاً صوب الحجاز لتمرکز الجيوش العثمانية في الشام، مما يؤدي إلى صعوبة قيام الثورة هناك. هذا بالإضافة إلى أن الصفة الدينية للشريف حسين كانت تساعد الحركة القومية على موازنة النفوذ الديني للخليفة العثماني⁽³⁾.

وأدت سياسة الحكومة الاتحادية التي رشحت جمال باشا لتنفيذها في بلاد الشام، بغرض تصفيه الحركة العربية وزعماءها، في مذابح بيروت ودمشق، إلى انهيار التعاون مع الترك، والمطالبة بالانفصال التام والنهائي عن الدولة والتعجيل بالثورة العربية⁽⁴⁾.

وعلى ذلك فاتهم الترك لرجال الحركة العربية بمحاولة تمزيق الدولة اتهام غير حقيقي، لأنهم لم يفكروا في الانفصال عنها إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، واشترك الدولة بجانب الألمان ضد الحلفاء. وتتفق مصادر تلك المرحلة على أن زعماء الحركة القومية قرروا وقف حركتهم السياسية، والدفاع عن البلاد مع الترك للدفع خطر الاستعمار الأوروبي، كما صرحوا بتأييدهم للحكومة وتمسكهم بالرابطة العثمانية. ويتضح ذلك في مواقف أحرار العرب من أمثال أحمد مختار بيهم، ورشيد رضا، وأحمد قدري⁽⁵⁾.

1- منير أبو خاطر: الجنسية واللغة، المقتطف، ج4، م43، أكتوبر 1913، ص 321-329. منير مشابك: المرجع السابق، ص

204. أنظر أيضاً: Kirk, op. cit, p 122. Antonius G, op. cit, p 188-189.

2- الأهرام: الشريف حسين - مساهمة من الجزيرة العربية في الحركة القومية، العدد 36225، 1968/2/12، ص 13.

3- المصدر نفسه، ص 13.

4- رشيد رضا: المسألة العربية، المنار، ج1، مجلد20، 1917/7/30، ص 40-47. أنظر أيضاً:

Lenczowski, op. cit, p 47. Brockelmann, op. cit, p 215.

5- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 444. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 71. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 57-58،

108، 322، 324. أنظر أيضاً: Zein, Z.N, op, cit, p 110-111.

حاول جمال باشا تبرير الأحكام العسكرية القاسية التي أصدرها ديوان الحرب العرفي بعالية ضد قادة الحركة العربية، فأصدر إيضاحاته ومذكراته التي تتضمن المراسلات والوثائق السياسية التي عثر عليها بالقنصلية الفرنسية في دمشق وبيروت بعد دخول الدولة الحرب.

وهي تتهم بعض رجال الحركة بالتعاون مع القنصل الفرنسي ببيروت بغرض الحصول على الحماية الفرنسية على بلاد الشام، وبخاصة لبنان، وضم سهل البقاع وولاية بيروت بمساعدتها وتأييدها. وقد أرفق بمذكراته وثيقة مرسلة من المسيو بومبار إلى وزارة الخارجية الفرنسية، مؤرخة بتاريخ 15 جانفي عام 1913م، وتدين شفيق المؤيد، وتثبت تعاونه مع فرنسا. كما تشير إلى اتفاق حزب اللامركزية مع أعضاء جمعية النهضة، بواسطة اسكندر عمون رئيس فرعها في مصر، وأحد أقطاب الحزب، بغرض توحيد العمل القومي في حالة دخول الدولة الحرب. وقد اعتبرها الديوان العرفي بمثابة إدانة الحزب اللامركزية، بالتأمر على الدولة لخدمة المصالح الفرنسية⁽¹⁾.

وتؤيد الوثائق البريطانية بعض ما جاء في اعترافات العريسي، من اتصال القوميين العرب في بلاد الشام، في نهاية عام 1912م، بالمعتمد البريطاني في بيروت، لطلب مساعده بريطانيا للعرب في نضالهم القومي ضد الحكم التركي. وقد قامت بريطانيا بالاتصال برفيق العظم، ورشيد رضا، وأبلغتهم موافقتها على تأييد الأمانى القومية العربية. كما قام وفد من أعيان العرب بزيارة كتشنر، المعتمد البريطاني في القاهرة، وسألوه ضم سوريا إلى مصر، بشرط حصولها على إدارة مستقلة⁽²⁾.

يلاحظ من دراسة الوثائق التي أرفقها جمال باشا بمذكرته، وكتابة إيضاحات بتاريخ 15 جانفي، 12 مارس، 18 مارس من عام 1913م، وجود الهدف القومي التحرري في المواقف العربية لأعضاء الحزب، فقد اتجهت الحركة القومية إلى التعاون مع هيئات أجنبية وبخاصة إنجلترا أو فرنسا، لتحقيق استقلال بلاد الشام من الاحتلال التركي، ودفع الخطر الأجنبي عنها.

وفي 9 فيفري عام 1914م، ألقى القبض على الضابط عزيز المصري، بأمر من أنور باشا وزير الحربية، الذي اتهمه بأنه أساء التصرف بمبلغ من المال استلمه حين ذهب ليقود حركة المقاومة المسلحة ضد الغزو الايطالي عام 1912م⁽³⁾.

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 66، 72. محمد عزة دروزة: المرجع السابق، ص 381. أنظر أيضا:

Hitti, op. cit, p 215. Lenczowski, op. cit, p 47.

2 - Gooch, G.P & Temperley Harold, op. cit, p 824-826.

3- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 14. أنظر أيضا: Saab, op.cit, p 235

وقد قامت الحكومة باتهامه بهذه التهمة الملفقة لاعتقاله وتقديمه إلى المحاكمة العسكرية بتهمة الخيانة العظمى، والحكم عليه بالإعدام في أوائل افريل عام 1914م وذلك لتعارض أفكاره مع الحكم الاتحادي ولنشاطه السياسي⁽¹⁾.

ثم خفف الحكم إلى السجن لمدة خمسة عشر سنة وأخيرا اضطرت السلطات التركية للإفراج عنه في 21 افريل عام 1914م، وذلك بسبب ضغط الرأي العام العربي، والمصري بصفة خاصة. ونتيجة لمساعي الزعماء العرب والهيئات الحزبية العربية، وتوالي برقيات الاحتجاج على الأستانة، وتنظيم الحملات الصحفية، وعقد الاجتماعات وقيام المظاهرات الشعبية في الأستانة والقاهرة وغيرها من المدن العربية الأخرى⁽²⁾. وبصفة خاصة تلك التي اشترك فيها حزب اللامركزية في القاهرة الذي كان على صلة وثيقة بالمعتمد البريطاني في القاهرة، كما كان عزيز المصري، وبعض أعضاء جمعية العهد. وهذا يفسر تدخل الدبلوماسية الانجليزية وضغطها على الحكومة العثمانية للعفو عنه وإطلاق سراحه⁽³⁾.

شكل حزب العهد العراقي حزبا عسكريا منفصلا في العراق، تبقى لنتائج الحرب العالمية الأولى، التي أدت إلى انقسام الحركة القومية في بلاد الشام والعراق، فأصبحت الحركة القومية في بلاد الشام تقوم تحت الانتداب الفرنسي، وفي العراق الانجليزي، وفي فلسطين الانجليزي، والحركة الصهيونية العالمية⁽⁴⁾.

هـ - الجمعية الثورية العربية:

وبجانب العهد تكونت بعض الجمعيات السرية الأخرى عام 1914م، ومن ضمنها جمعية القلم التي تأسست في الموصل، والجمعية الثورية العربية، التي قام عزيز علي المصري بتأليفها بالقاهرة، بعد نفيه إليها. فجاءت في فترة انهيار العلاقات العربية التركية، واهتمت بتحقيق الاستقلال العربي التام والثورة المسلحة ضد الترك، وذلك بتنسيق مع حزب اللامركزية والسلطات البريطانية في القاهرة⁽⁵⁾.

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 477. أنظر أيضا: اسعد داغر: المصدر السابق، ص 36.

2- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 11. أنظر أيضا: محمد بدیع شریف: المرجع السابق، ص 92-93. وأيضاً: اسعد داغر: المصدر السابق، ص 49-50.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 471-473. أنظر أيضا: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 48. وأيضاً:

Gooch, G.P & Temperley Harold, op. cit, p 833-834.

4- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 478.

5- عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 266. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 464-465، 471.

اتبعت هذه الجمعية أسلوب كتابة المنشورات التي تتناسب مع اسمها، وتطور منهج ومسار الحركة العربية، وقد نشر مؤلف "إيضاحات" منشورا مطولا صادرا عنها، تدعو فيه إلى الفكرة القومية، والثورة العربية، لان الترك لم يمنحوا العرب حقوقهم القومية.

ويبدو أنه صدر بعد فشل المفاوضات مع الحكومة الاتحادية، ويتضح ذلك في الحركة الإصلاحية، والمؤتمر العربي في باريس، لأنه يدعو العرب إلى اليقظة، والعمل السياسي السري، ويندد بالسياسة الاتحادية التي تضحي بالبلاد العربية في سبيل الأجانب، فقد وضعت البلاد تحت المراقبة الأجنبية، عن طريق إعطاء امتيازات أجنبية لفرنسا في سوريا، والتنازل عن حقول البترول لإنجلترا، وبذلك آلت خياراتهم ومرافقهم إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا بسبب الظلم التركي⁽¹⁾.

ويضيف المنشور بان الاتحاديين يسوقون الشباب العربي لقتال إخوانهم في اليمن والكرك وحوران. وكان ذلك من أسباب تدمير أحرار العرب، فطالبوا بتعديل هذه المسألة التي أدرجت ضمن المطالب العربية⁽²⁾.

ويحذر المنشور أهل اليمن وعسير ونجد والعراق من كيد الترك. ويتضح اتساع الحركة العربية في دعوته الولايات السورية والعراقية إلى الاتفاق باسم القومية والوطنية، بالاعتماد على وحده اللغة والأرض. كما يتوجه المنشور إلى غير المسلمين من العرب، فيذكركم بأن العرب المسلمين أخوة لهم في الوطنية، ويطالبهم بالاتفاق مع بني وطنهم وجنسهم⁽³⁾.

ثم يعلن المنشور عن تأسيس جمعية فبدائية لتصفية من يقاتل العرب ويقاوم حركة الإصلاح العربي. فجاء أسلوبه شديدا في قوته ودعوته إلى العنف، وتجاوز المطالب الإصلاحية اللامركزية، ليمسك بمبدأ الاستقلال التام للبلاد العربية، وإقامة دولة عربية لامركزية⁽⁴⁾.

وبذلك جاءت جمعية الثورة العربية مطابقة لتطور الحركة القومية التي أصبحت تتعارض مع أي حل سياسي لا يقوم على تحرر من الاحتلال التركي، فكانت تتخلص تدريجيا من المفهوم الإسلامي الذي كان يحول دون وضوح وتبلور العمل السياسي العربي.

1- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 10-16. أنظر أيضا: خليل زينية: فرنسا وسورية وفرنسا والعثمانية، الأهرام، العدد 10774، 1913/8/8، ص 3. وأنظر أيضا: Hourani Albert, op. cit, p 285.

2- خليل زينية: الإصلاح في البلاد العثمانية (المسألة السورية)، المصدر السابق، ص 1.

3- عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 263.

4- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 470. أنظر أيضا: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 49.

وهكذا عندما استعد القوميون العرب للقيام بحركة ثورية ضد الترك، قام قادة الحركة القومية بالاتصال والتفاوض مع ممثلي السلطات الانجليزية والفرنسية. ففي بداية عام 1914م، أجرى شفيق المؤيد باسم حزب اللامركزية مفاوضات مع "يومبار" السفير الفرنسي بالأستانة، ومسألة أن تقوم فرنسا بتقديم المعونة المالية والسياسية للثورة العربية. كما اتفق حزب اللامركزية مع فرنسا على إرسال بعض الخبراء العسكريين والحصول على عشرين ألف بندقية، وغير ذلك من العتاد الحربي، كما اتصل عبد الله الهاشمي بكشنر، المعتمد البريطاني في مصر، وسأله تقديم المساعدة العسكرية والسلاح اللازم لقيام ثورة عربية في الحجاز⁽¹⁾.

3- مؤتمر باريس العربي:

نشأت فكرة عقد أول مؤتمر عربي في باريس في 17 جويلية عام 1913م، لدى قادة حزب العربية الفتاة، لتوحيد جهود الحركة الإصلاحية العربية في بلاد الشام، وذلك في تكتل عربي قومي، بهدف ممارسة ضغط مشترك على الحكومة التركية، لتعجل في تنفيذ المطالب الإصلاحية، ومناقشة قضايا الحركة العربية، والأمة العربية، ومحاولة كسب تأييد الدول الأوروبية لها⁽²⁾.

وقد جاء في مستهل خطاب رئيس المؤتمر، الصحفي المعروف عبد الحميد الزهراوي، الذي ينتمي إلى إحدى عائلات حماة، أن الأول من تبنى الدعوة شباب مقيمون في باريس مؤقتا، وكلهم من أسرة محترمة شهيرة في بلاد مختلفة من سوريا. وهؤلاء الطلاب العرب هم: عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد البيروتية، ومحمد الحمصاني خريج كلية الحقوق بباريس، وتوفيق فايد من بيروت، وجميل مردم من دمشق طالب حقوق في باريس، وعوني عبد الهادي من نابلس كان يدرس الحقوق بباريس بعد تخرجه من المدرسة الملكية للإدارة في الأستانة⁽³⁾.

وقد دفعتهم طبيعة العمل السري للعربية الفتاة إلى إجراء اتصالات بشخصيات عربية معروفة، مثل شكري غانم، ونادرة مطران المقيمين في باريس، حتى تبدو الدعوة للمؤتمر، وكأنها صادرة عن الجالية العربية فيها، ومعظمهم من اللبنانيين والسوريين الذين أيدوا الفكرة.

1- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13.

2- محب الدين الخطيب: المؤتمر العربي الأول، اللجنة العليا لحزب اللامركزية، القاهرة، 1913، ص 4-5. أنظر أيضا: Hourani Albert, op. cit, p 283. Khalidi R, op. cit, p 40.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 126. رشيد رضا: مستقبل الدولة والمصلحون من العرب، المنار، ج5، 1914/4/25، ص 395-400. أنظر أيضا: Brocklmann, C, op. cit, p 481.

فانتخبت لجنة تحضيرية من السادة شكري غانم، وندرة مطران، وجميل معلوف أديب من رحلة بلبنان، وشارل دباس محامي من لبنان، بالإضافة إلى الأعضاء الخمسة من أعضاء العربية الفتاة، المشار إليهم سابقا.

كان في مقدمة مهامها، الاتصال بزعماء الحركة العربية، والهيئات العربية في البلاد العربية والأجنبية للتهيئة أسباب عقد المؤتمر، وتحديد زمنه، وبرنامج أعماله⁽¹⁾، وعهد بأمانة سر اللجنة إلى السيد عبد الغني العريسي، ليقوم بالاتصال بالأحزاب والهيئات التي ستشارك في المؤتمر. فاتصل بأعضاء حزب اللامركزية، وخاصة العضو المؤسس لها، والسكرتير الثاني في اللجنة العليا لحزب اللامركزي بالقاهرة، محب الدين الخطيب، وهو أيضا رفيق النضال في الأستانة، ومؤسس جمعية النهضة العربية. وهكذا انضم الأخير إلى العربية الفتاة من خلال مراسلاته مع العريسي، ليصبح همزة الوصل بين الحزب والعربية الفتاة⁽²⁾.

وفي جلسة لجنة المؤتمر المنعقد في 11 مارس 1913م، تقرر أن يعقد المؤتمر بإشراف حزب اللامركزية الإدارية العثماني في مصر بصفة رسمية، وأن ترتبط مطالبه السياسية ببرنامج الحزب، وذلك لصغر سن الأعضاء، وقلة خبرتهم السياسية، فكان اتصالهم بالحزب وسيلة لاكتساب المؤتمر التأثير والفعالية اللازمة لإنجاحه. وفي 4 من أبريل بعثت برسالة إلى اللجنة العليا للحزب، تقترح عليها فيها أن تكون قدوة للمؤتمر، ومصدر عمله، وانتخاب من يمثلها فيه، وفي 14 أبريل استجابة الحزب، وجاءت الموافقة بتوقيع رئيسه، رفيق العظم⁽³⁾.

أخذ الحزب في التحضير لوضع جدول أعمال المؤتمر لبحث القضايا التي تهم بها الحركة العربية وهي:

- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

- حقوق العرب في المملكة العثمانية.

- ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية الإدارية.

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 25. أحمد قدرى: المرجع السابق، ص 14. محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 3-5.

2- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 422. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 86. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 58.

3- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 5-6. أنظر أيضا: العريسي: افتتاح المؤتمر العربي الأول في باريس، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12، ص 1. وأنظر أيضا: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 25-26. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 58. وأنظر أيضا:

Khoury Philip, op. cit, p 65.

- المهاجرة من سوريا الى سوريا⁽¹⁾.

كان البحث الأول جديرا بالاهتمام، ولذلك جاء على رأس قائمة الأبحاث، التي ستطرح للمناقشة أمام المؤتمر. كما جاء في بيان اللجنة التحضيرية إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية الإدارية العثمانية، في القاهرة بتاريخ 4 افريل 1913م، ويعلنون عن استنكارهم ورفضهم للأطماع الأجنبية.

فقد شعر القوميون العرب بالمطامع والاستعمارية في بلادهم، وبخاصة بعد غزو ايطاليا لإقليم ليبيا، وغزو فرنسا للمغرب الأقصى في عام 1912م، نتيجة لمؤامرة التوافق الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا، ففي مقابل احتلال بريطانيا لمصر والسودان وسواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، أطلقت يد ايطاليا في ليبيا، وفرنسا في المغرب⁽²⁾.

كما دارت المباحثات والمفاوضات بين وزارة خارجية الدول الاستعمارية وهي روسيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا، وتناولت التصريحات السياسية قضايا سوريا ولبنان بصورة علنية، ولم تكن فرنسا تخفي مطامعها في بلاد الشام، ودعوتها بحق حماية مسيحييها، وقد اتضح هذا الاهتمام في تدخلها عام 1912م إبان الحرب الايطالية التركية في طرابلس الغرب، حيث وصلت السفن الحربية الايطالية على مفرقه من بيروت، وأطلقت نيرانها على السفن التركية الراسية في الميناء، مما أعطى لفرنسا الفرصة للكشف عن أطماعها⁽³⁾.

وفي ديسمبر عام 1912م، أعلن رئيس وزرائها عن مصالح بلاده في سوريا ولبنان، وحققها في الدفاع عنها. كما جرت المباحثات بين فرنسا والدولة العثمانية، وصرحت فيها عن ضرورة احترام الدول لمصالحها التقليدية في هذين القطرين. كما وقعت فرنسا بروتوكولا جديدا حول القضية اللبنانية، حاولت بموجبه الحصول على درجه كبيره لاستقلال لبنان الذاتي الذي سبق وان منح له، على أساس اتفاقية عام 1861 و1864م، وينتهي ذلك بطريقة مرضية لفرنسا قبل نشوب الحرب العالمية⁽⁴⁾.

1- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 8، 6، 4. أنظر أيضا: العريسي: لجنة المؤتمر العربي السوري: دعوة إلى أبناء الأمة العربية، المؤيد، العدد 6972، 1913/4/29، ص 4. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 28.

2- جمال عبد الجواد: عبد الحميد الزهراوي - الأمة العربية من الأقبانوس إلى بحر الهند، الأهرام، العدد 36064، 1985/9/4، ص 13. أنظر أيضا: أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج 4، ص 35.

3- رفيق العظم: نحن وأوروبا، المفيد، العدد 877، 1912/1/9، ص 1-2.

4- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 423-424. أنظر أيضا: لوتسكي: المرجع السابق، ص 405.

أدى انتشار الثقافة الغربية، وبخاصة الفرنسية في بيروت إلى محاوله فرنسا احتواء القضية المارونية، والطليعة العربية المثقفة من الموارنة المسيحيين كحليف لها في المنطقة العربية بغرض تأكيد نفوذها السياسي في بلاد الشام⁽¹⁾. وقد تطلعت هذه الفئة إلى الحصول على الحماية الفرنسية على حساب لبنان المستقل والمتحد مع ولاية بيروت، مما يعد انحرافاً عن مسار الحركة العربية بوجه عام. ويدل على ذلك الوثائق التي اعتمد عليها جمال باشا في مذكراته، وإيضاحاته، والتي تدين بعض القوميين العرب بالتعامل مع فرنسا⁽²⁾.

كما أشارت الوثائق البريطانية إلى قيام بريطانيا بتشجيع نفس الاتجاه، لنشر النفوذ البريطاني في بلاد الشام، فحاولت اجتذاب وتأييد القضية العربية، بمساعدة حزب اللامركزية في القاهرة، وطائفة من بعض الدروز ومسلمي سوريا، في نضالهم ضد الترك. ولذلك لم ترفض عروضهم المقدمة إلى كتشنير، المعتمد البريطاني وحكومته، بل قبلت بلباقة، وظل الحديث مطروحا بين الجانبين. وبذلك كان الصراع السياسي على المسألة الشرقية يتبلور في مساندة فرنسا وبريطانيا للاتجاهات الانفصالية في الولايات العربية العثمانية، لتدعم موقفهما في حالة اقتسام الإمبراطورية العثمانية⁽³⁾.

ويلاحظ ان الاتجاهات الانفصالية السابقة تحت الحماية الفرنسية أو البريطانية، لاعتبارات دينية أو قومية، والمنسوبة إلى حزب اللامركزية في القاهرة أو الفئات الحزبية الأخرى المشار إليها، لا تمثل سوى فئة محدودة وقليلة، ولذلك فهي لا تشكل اتجاها قويا يجعلها تؤثر أو تغير مسار الحركة العربية نحو تحقيق أهدافها. بل جاءت الدعوة لمؤتمر باريس بغرض توحيد جهود الجمعيات والتنظيمات العربية السياسية، لتحقيق مطالب إصلاحية محددة لا تتجاوزها الحركة العربية، وخاصة فيما يتعلق بالقضية الأولى.

ولذلك أرادت العناصر القومية التي وضحت منهج أبحاث المؤتمر، معالجة البند الأول لتنفيذ الاتهامات التي توجه إلى الحركة العربية بصفة عامة، والمؤتمر اللامركزية الإصلاحية التي يشترك فيها المسلمون والمسيحيون بوجه خاص⁽⁴⁾، لدفع تهمة التعاون مع القوى الأجنبية، وتأكيد وإبراز نقاء وآصال الحركة العربية التي لا تحركها أهداف استعمارية.

1 - Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie*, Paris, 1959, p 220-221.

2- فليب وفريد الخازن: المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من 1840-1910، ج1، مطبعة الصبر، لبنان، 1910، ص 123-126. أنظر أيضا: يوسف الحكيم، المرجع السابق، ص 118. وأنظر أيضا:

Hourani Albert, op. cit, p233-234.

3- فليب وفريد الخازن: المصدر السابق، ص 110-113. أنظر أيضا: يوسف إبراهيم يزبك: أوراق لبنانية، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1955، ص 64-66.

4- أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 19-20. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 424.

وقد أكد ندره مطران في خطابه على مبدأ " حفظ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية"، وبأن رجال الحركة الإصلاحية من مفكري العرب وإشرافها، يعملون لتحقيق المطالب القومية، ويقاومون كل تدخل أجنبي، كما يشير إلى اتهام أنصار الحكومة للمسلم بدول عربية والمسيحي بدسياسة أجنبية، ويعتمد على الحقائق التاريخية ليوضح عروبة سوريا في القديم والحديث، ويبين بأن العرب بصفه عامه، وأهل سوريا بصفة خاصة، كانوا دائما أصحاب حق، ومن الواجب احترام استقلالهم، وأحوالهم الوطنية⁽¹⁾.

كما أشار مطران إلى حقيقة علاقة عرب سوريا بالحكم التركي، الذي لم يكن له إلا القليل في البلاد، وكيف قضى على سلطة الأمراء والإشراف العرب في سوريا ولبنان، وأثار الفتنة الطائفية، وأدى إلى مذابح 1860م، لبث الفرقة بين المسلمين والمسيحيين.

ثم ذكر مساوئ الاستعمار الأوروبي، وربط بين توقعه وبقاء ارتباط العرب بالدولة العثمانية، على أن تلي الأخيرة مطالبهم الإصلاحية، فتقيم حكما صالحا، يدرأ عن البلاد عادية الأجانب، ويسر لها تحقيق التقدم. وهنا يؤكد بأن العصبية العربية موجودة في سوريا، لكنها لا تعني الانفصال عن الدولة، التي مازال العرب بحاجة إليها⁽²⁾.

كما كانت مسألة الاستعانة بالمستشارين الأجانب من أهم القضايا التي أثير حولها نقاش حاد في الجلسة الثالثة للمؤتمر بناء على اقتراح شارل دباس، ومن أضعفها كذلك، ويتضح فيها تلاعب فرنسا. فقد أدرجت هذه المسألة ضمن لائحة جمعية بيروت الإصلاحية، ثم عادت إلى البحث في المؤتمر، لاعتقاد البعض من الأعضاء بأن الإصلاح الحقيقي لم يتم بدون الاستعانة بمستشارين أوروبيين، بينما عارضها البعض الآخر، وموقف منها موقفا متشددا ومتشككا.

وهنا يتضح تباين اتجاهات وتطلعات المؤتمرين، فقد كانت هناك عناصر قومية وأخرى أقلية، تضمها الدولة إلى اللامركزية والإصلاح، فيمن يريد تنفيذ ذلك ضمن إطار الدولة أو خارجها⁽³⁾.

1- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 54-66. ناجي علوش: الثوري العربي المعاصر: تطور الفكر القومي منذ بدء النهضة حتى نهاية الحرب الكبرى، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1960، ص 175. أنظر أيضا:

Hourani Albert, Op, cit, p 233.

2- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 55-60. أنظر أيضا: Hourani Albert, op. cit, p219.

3- شارل دباس: المؤتمر العربي السوري- الجلسة الثالثة، خطبة بعنوان "تاريخ النهضة الإصلاحية"، المؤيد، العدد 7027، 1913/7/5، ص 5.

يشير توفيق السويدي إلى ثلاثة اتجاهات في مواجهة الموقف الأوروبي وهي:

- اتجاه إصلاحي، يدعو إلى المساواة بين العرب والترك، ويضم معظم المسلمين وبعض المسيحيين العرب.

- اتجاه مناهض للحكم التركي، ويضم معظم العناصر المسيحية العربية من أعضاء المؤتمر.

كانت هذه القضية من الحجج التي استند عليها أعداء المؤتمر، حين زعموا، " أنه وليد دسائس أجنبية... وان أعضائه، إما خونة مأجورون، أو ضحايا مخدوعون ". فقد ربط الترك بين محاولة العرب الاستعانة بأوروبا في تحقيق الإصلاح، وبين تصريح بإنكاره، والمطالبة بالإصلاحات الضرورية لها، بناء على طلب موارد لبنان، فلم يفرقوا بينهم وبين سلوك وتصريحات رجال المؤتمر⁽¹⁾.

وقد استبعد هذا الموضوع من المناقشة في المؤتمر، عندما اقترح ذلك خليل زينة، مدير جريدة (الثبات) التي تمولها فرنسا، والذي يعمل مترجماً بالقنصلية الفرنسية. وتكررت آثاره هذه المسألة في جلسة أخرى، فبادر كل من سليم سلام، والشيخ أحمد طبرة بحسمها، فذكر بان النظام اللامركزي يحل المشكلة، وأنه لا بد من إتاحة الحرية لكل ولاية كي تقرر ذلك، حتى لا يتعارض هذا المبدأ وأهداف اللامركزية⁽²⁾.

كان التأكيد على شجب التدخل الأجنبي، ضد آمال فرنسا، والعناصر المتفرنسة التي تحاول توجيه واستغلال المؤتمر لخدمه مصالحها في سوريا، لذلك رأى المؤتمر ان يفسدوا عليهما ذلك بإبراز مظاهر الاتحاد والإخاء بين المسلمين والمسيحيين. ويدل على ذلك حديث الزهراوي لوزير الخارجية فرنسا، الذي نقلتها (الطان)، ويقول فيه: "...ان الاتحاد والإخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين السوريين واللبنانيين من جهة أخرى، هو أعظم برهان على ارتقائنا وكفئتنا لإدارة أعمالنا مع استعانتنا بتجارب أوروبا، واستغلالنا بظلال الراية العثمانية..."⁽³⁾.

وعندما أدرك "بشون"، وزير خارجية فرنسا غرضهم، كتب رسالة سرية إلى قناصل فرنسا في سوريا، يقول فيها: " إن الحركة الإصلاحية العربية، قد انقلب تعلينا، ولذلك يجب ان تتظاهر بمساعدتها، كي تكسبوا قلوب الأهليين (ثقة الشعب)، على ان تسعوا في الخفاء للقضاء عليها"⁽⁴⁾، وعلى الرغم من وقوع هذه الوثيقة في يد الحكومة التركية، ونشرها مع غيرها من الوثائق غير أنها استمرت في محاولة القضاء على الحركة العربية.

وبينما كان البعض يشكك في موقف الدول الأوروبية، ويحذر من أطماعها، ويرى ضرورة بحث وإثارة هذا الموضوع، كان البعض الآخر يتطلع إلى مساعدتها، ويتضح ذلك في كلمة ندره مطران، وتعليقات الزهراوي

للمزيد من التفاصيل أنظر: ساطع الحصري: البلاد العربية، ص 200-201. عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 254.

1- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 529. أسعد داغر: المصدر السابق، ص 61.

2- ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 201.

3- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 30-31.

4- ساطع الحصري: البلاد العربية، المرجع السابق، ص 201. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 101. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 30-31.

وشكري غانم. فكان يتخلل خطاباتهم ثناء على فرنسا، وإشادة بالمدينة الغربية، ونظم الحكم فيها، ومناشدة لأوروبا كي تضغط على الدولة العثمانية⁽¹⁾.

أشارت الأبحاث إلى أن التدخل الأجنبي في البلاد العربية محتمل الوقوع، ويجب صرفه بعزم أكيد، ولكن كان ذلك يصاغ بأسلوب حكم، وبجذر لارتباطه بالأطماع الأوروبية الانجليزية أو الألمانية، والفرنسية في سوريا بصفة خاصة. لذلك تحدث ندره مطران، فطمأن المؤتمرين حول ما أشيع من رغبة بعض الدول في احتلال سوريا، فقال: " إن كل ما يتمناه سياسة أوروبا هو أن يتمكن العثمانيون من تدبير شؤون دولهم، ليتلافوا بذلك خطراً عظيماً على السلم العام"⁽²⁾.

وعندما تساءل العضو محبوب الشرتوني عما إذا كان ذلك يعني: " إنكار أن لبعض الدول مطامع في سوريا، تدخل رئيس المؤتمر ملفتا النظر إلى ضرورة أن لا يخرج النقاش عن موضوع شؤوننا الإدارية وسياستنا الداخلية". وهنا اقترح خليل زيني منع الكلام في كل جلسات المؤتمر عن سياسة الدول الخارجية⁽³⁾، فوافق الأعضاء بالإجماع، مما أثر على أعمال المؤتمر العربي.

كما نجد في حديث الزهراوي لجريدة الطان الفرنسية الذي أشار فيه إلى النخبة الأوروبية الحاكمة، التي تنير الشرق والغرب، والمدينة الأوروبية العصرية التي انتشلتنا من سباتنا العميق، إعجاب بالمدينة الغربية، بدون إدراك للجانب التوسعي الاستعماري لفرنسا في هذا الإشعاع الحضاري⁽⁴⁾.

ولذلك يطالب القوميون العرب بما يشبه الوصاية، متصورين أن فرنسا ناصرة الحريات، وغاب عنهم: مطامعها في المنطقة، وهذا يدل على عدم وعي، أو انتباه دعاة الفكرة العربية عندئذ بمخاطر الاستعمار الغربي، فتعاونوا معه، سعياً وراء الحفاظ على مصالحهم، بينما كانوا في أشد الحاجة إلى وحدة الأمة، وفي ظروف دولية خطيرة حيث كانت الدول الغربية الطامعة بزعامة بريطانيا وفرنسا وروسيا، تعد فيها العدة لتقسيم الدولة العثمانية.

وهذا يعتبر قصوراً في قيادات العمل السياسي، التي لم تدرك حقيقة التناقض التام بين الفكرة القومية العربية، والمصالح الاستعمارية في المنطقة العربية، وهو ما قاست منه البلاد العربية سياسياً في المرحلة التالية للاستقلال⁽⁵⁾.

1 - Hourani Albert, op. cit, p 283.

2- جلال يحيى: الثورة العربية، المرجع السابق، ص 98.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 132.

4- المرجع نفسه، ص 131.

5- المرجع نفسه، ص 132.

وبناء على استجابة الحزب للاشتراك في المؤتمر، تألفت لجنة إدارية من السادة عبد الحميد الزهراوي رئيساً، العضو السابق في مجلس المبعوثان عن متصرفية حماة، وصاحب جريدة الحضارة في الأستانة، وشكري غانم نائباً للرئيس، وسليم سلام، والمحامي اسكندر عمون، من زعماء موارد لبنان، والشيخ أحمد طيارة، وندرة مطران، وكلاء للرئيس، وعبد الغني العريسي، ومحمد الحمصاني، وعوني عبد الهادي، وجميل مردم كاتباً بالعربية، وشارل دباس كاتباً بالفرنسية⁽¹⁾.

سارعت اللجنة للإعداد من أجل انعقاد المؤتمر، وتوجيه دعوة عامة للاشتراك فيه، خرجت على شكل منشور نشر في الصحف العربية والأجنبية، وكانت موجهة إلى أبناء الأمة العربية، شرحت فيه الدوافع الموجبة لانعقاده، والتي تتشابه مع الحركة الإصلاحية⁽²⁾. جاء فيه ما يلي: "إن ما يجري من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية، واخصها زهرة الوطن سورية، نتيجة لسوء الإدارة المركزية، وجوب اتخاذ الأسباب الواقية للبلاد من المطامع الخارجية، وإنقاذها من صبغة السيطرة والاستبداد، وإصلاح أمورها الداخلية، على قواعد اللامركزية، حتى ينقطع بذلك خطر الاحتلال واضمحلال"⁽³⁾.

أشار الزهراوي إلى أن السبب في عقد المؤتمر يعود إلى إدراك العرب بضرورة مناقشة حكومتهم في المسائل السياسية والاجتماعية، ووجوب مشاركة العرب للترك في العمل السياسي.

في البداية كان المؤتمر ينوي مناقشه القضايا السورية فقط، ثم قرر أن يتخذ الاتجاه العروبي، ويناقش القضايا العربية. ويرجع الفضل في ذلك إلى توفيق السويدي، رئيس الوزراء العراقي، الذي كان يدرس في باريس، فأقنع زملائهم بأن يطلق عليه اسم المؤتمر العربي، بدلا من المؤتمر السوري⁽⁴⁾.

لذلك جاء في الدعوة للمؤتمر، بأنه تقرر عقد مؤتمر قومي، يقوم به السوريون، ويمثل به العرب، ويتحقق فيه التضامن الاجتماعي والسياسي للأمة العربية، حيث نبسط فيه للأمم الأوروبية أننا أمة متماسكة، ذات وجود حي لا ينحل، ومقام عزيز لا يضام، وخصائص قومية لا تنزع، ومنزلة سياسية لا تقعر ونصارع الدولة العثمانية بان

1- مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، المرجع السابق، ص 87. أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 14.

2- محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 8-10. أنظر أيضا:

Mantran Robert: **Histoire de la Turquie**, 2nd, ed. Press Universitaires de France, Paris, 1961, p 101.

3- حقي العظم: السياسة الخرقاء ونتائجها، المقتبس، العدد 720، 1911/7/4، ص 1. أنظر أيضا:

Ramsaur Ernest Edmondson: **The Young Turks, Prelude to the Revolution of 1908**, Princeton Univ, Press 1957, pp 90-93.

4- توفيق السويدي: مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، ص 30. سليمان موسى: المرجع السابق، ص 37.

اللامركزية قاعدة حياتنا، وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا، وإن العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الحرية، شركاء في الإدارة، شركاء في السياسة، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم⁽¹⁾.

وأخيراً دعا بيان اللجنة المخلصين من أبناء الأمة العربية في الوطن والمهاجر الأمريكية والأوروبية، وبخاصة قادتها أرباب الزعامات والجماعات، بالانضمام إلى المؤتمر، وإرسال ممثلين للمشاركة في بحوثه وقراراته، أو تأييده بإرسال البرقيات والرسائل، حتى يدلي لدى الأمم بمجته، وتستوثق قوته بقوة أمته⁽²⁾.

تلقت اللجنة تأييداً واسعاً النطاق من شخصيات وهيئات من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والأستانة والمهاجر، وانحالت البرقيات والرسائل المؤيدة للمؤتمر، تحمل توقعات الأعيان والمتقنين. وقد شجعها هذا على تنفيذ فكرتها، وتحديد يوم 17 جوان موعداً لعقد المؤتمر⁽³⁾، الذي بلغت جلساته أربع جلسات رسمية في الفترة من 17 إلى 23 من شهر جوان عام 1913، وذلك بالقاعة الكبرى للجمعية الجغرافية الفرنسية، بشارع سان جيرمان بباريس. وتولى رئاسته عبد الحميد الزهراوي، أحد أعضاء حزب اللامركزية الإدارية العثماني⁽⁴⁾.

وقد خضعت مسألة عقد المؤتمر في باريس، لكثير من التساؤلات، وتناولها المؤرخون والباحثون، بالتحليل والنقد. فقد كانت الحكومة العثمانية تنقم على المؤتمرين، وتعتبر ذلك خيانة وتأمراً من الجانب العربي، فيقول جمال باشا في مذكراته: "أرادوا عقد مؤتمر من العرب... ولما توقعوا أن تتخذ الحكومة الإجراءات القانونية ضد زعمائهم، قرروا أن يجتمع المؤتمر في باريس... وتحت الرعاية الفرنسية، غير المؤتمر شكله، ودستوره واستقر في الأذهان أن تدخل فرنسا أصبح قريباً"⁽⁵⁾.

يشير طيباوي، ووليد قمحاوي إلى غرابة عقد مؤتمر في عاصمة الدولة، وتحت حمايتها، وهي المعروفة بمطاعمها في سوريا ولبنان، التي ذهبت إلى أبعد من مجرد المسائل الثقافية والامتيازات الأخرى، كما أنها استولت على مراكز قبل عام واحد فقط، ومكانة إيطاليا من استعمار ليبيا⁽⁶⁾.

1- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 126.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 28. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 59. ناجي علوش: المرجع السابق، ص 169. محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 9-10.

3- ساطع الحصري: البلاد العربية، ص 191. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 429-433.

4- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المؤتمر العربي الأول (18-23/6/1913)، مطبعة البوسفور، القاهرة، 1913، ص 7-10.

5- علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 71، 90-91.

6- وليد قمحاوي: النكية والبناء في الوطن العربي، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، 1960، ص 31.

كان الطلاب العرب الذين يدرسون في باريس يشعرون بواجبهم القومي تجاه القضية العربية، فقاموا بعقد مؤتمرهم في باريس، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها: تصريح الزهراوي، رئيس المؤتمر، لمراسل صحيفة الطان الفرنسية، حيث قال: "ان المؤتمر عقد في باريس، لان ما جرى في بيروت ضد الجمعية الإصلاحية، برهن على ان مثل هذا المؤتمر لا يمكن عقده في الوطن، ومن جهة أخرى أراد العرب إسماع صوتهم إلى أوروبا، التي كانت تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية عسى أن يتوصلوا إلى وضع أسس بين الشرق والغرب"⁽¹⁾.

لذلك لم يكن أمام المؤتمرين سوى عقده في مصر أو في إحدى البلاد الأوروبية. غير أن عقده في مصر، يجعل الترك يزعمون ان إنجلترا دفعتهم إلى ذلك. فقد كانوا يتهمونها بالتحريض بعزت باشا العابد، الذي استخدم جريدة المؤيد لمهاجمة الدولة العثمانية، بالاشتراك مع الخديوي، وانه كان يعمل لفصل سوريا عن الترك، وإلحاقها بمصر، مثلما اتهم الترك حزب اللامركزية بالخيانة، وعدوا الانتساب إليه، من التهم الأساسية لإعدام أحرار العرب⁽²⁾.

وعلى الرغم من عقد هذا المؤتمر القومي في عاصمة الدولة التي يعلمون بأطماعها، فقد حاولوا الاستفادة منها، واستبعاد العناصر التي تخدم مصالحها في سوريا. ويدل على ذلك أن معظم العناصر القومية وبخاصة المسلمين، كانت تتمسك بفكره الإصلاح اللامركزي الشامل للعرب والترك معنا وفي نطاق الدولة، وتستنكر التدخل الأجنبي الاستعماري⁽³⁾. وغاية ما تطلعوا إليه هو نقل الحركة العربية إلى العالم الخارجي، وتعريف الرأي العام بوجود أمة عربية، والإعلان عن حقوقها القومي في جو محايد، وفي محاولة للتعويض الإخفاق الداخلي للحركة العربية، التي لم تستطع عقده سوى خارج الدولة التي منعتها حقوقها العادلة المشروعة، والتعبير عن وجودها القومي⁽⁴⁾.

فيكتب نسيب أرسلان في المفيد قائلاً: "... يجوز للعثماني أن يرفع صوته بالموضوع في أرض غير عثمانية، كما يرفعه في أرض عثمانية، لا فرق في ذلك، فلا يلزم من ذلك أن يكون لأوروبا مدخلا في الأمر... أي جناح

1- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 59. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 427. أنظر أيضا:

Khoury Philip, op. cit. p 65.

2- جلال يحيى: الثورة العربية، ص 98. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 525-526.

3- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 426.

4- المصدر نفسه، ص 434.

على الذين ينادون بطلب اللامركزية من باريس ومن مصر ومن أمريكا، وسائر الأفاق. ما داموا لا ينطقون هجراً، ولا يرتكبون ما يثلم صدقهم وأمانتهم تلقاء الدولة؟⁽¹⁾.

كان ترحيب فرنسا بعقد المؤتمر في عاصمتها، محاولة لاحتضان الحركة العربية، وعرقلة مساعي بريطانيا لاستغلالها. ولذلك كان تبني الحكومة الفرنسية للمؤتمر يتماشى مع أطماعها ومصالحها الاستعمارية في سوريا ولبنان. فقامت وزاره الخارجية الفرنسية بتشجيع وإعانة المؤتمر، وقدمت له التسهيلات. فوفرت له المكان اللازم لعقده، واهتمت بنشر أبحاثه ومذكراته، وخطب الوفود، في جريدة الطان، التي تتناول أعمال المؤتمر بالتفصيل. وقد أسهم في هذا العمل الصحفي العربي خير الله خير الله، العضو بأمانته المؤتمر⁽²⁾.

وقد تحقق توقع العناصر القومية، فكان للمؤتمر تأييد قومي داخليا وخارجيا، مما جعل الحكومة الاتحادية تسعى مكروها للتفاوض والوفاق مع أعضاء المؤتمر، الذي لم يكن إيمان منها بالمطالب العربية، بقدر مكان مناورة مرحلية، لمسايرة الظروف، خوفا من استغلال فرنسا للمؤتمر، واتخاذ حجة للتدخل في سوريا⁽³⁾.

كما كانت باريس أفضل مكان لعقد المؤتمر، لوجود الهيئة الإدارية لحزب العربية الفتاة، وهي التي دعت إلى عقد المؤتمر. وقد كان وجود أعداد كبيرة من الجالية العربية سببا مباشرا لعقد هذا المؤتمر هناك. كما أن هذا المؤتمر جاء تقليدا لحركة تركيا الفتاة، التي عقدت مؤتمرا لها في باريس في عام 1902 و1907م، لتوحيد الجهود الحزبية بغرض تحقيق الإصلاح المطلوب في الدولة العثمانية⁽⁴⁾. وقد تأثر القوميون العرب بممارستها السياسية، وشاركوا مدنيين وعسكريين في صفوفها.

اشترك في المؤتمر وفود لجميع الهيئات والتنظيمات العربية في الأستانة ودمشق وبيروت والقاهرة⁽⁵⁾. فجاء عن اللجنة العليا للحزب اللامركزية الإدارية العثماني: كل من السيد عبد الحميد الزهراوي الذي رأس المؤتمر، واسكندر عمون، الذي تولى نيابة رئاسة المؤتمر.

1- نسيب أرسلان: العرب عقولهم في عيونهم، المفيد، العدد 1429، نوفمبر 1913، ص 2. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 427-328.

2- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 126.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 4-9. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 422-423. توفيق بزو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 529. عبد الرحمن البزاز: بحوث في القومية العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1962، ص 383.

4- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 130. أنظر أيضا: اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 14-16، 118.

5- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 428-429.

وكان وفد جمعية الإصلاح البيروتية، يتألف من سليم علي سلام، واحمد مختار بيهم، وخليل زانیه، محرر جريدة الثبات البيروتية، والشيخ أحمد طيارة صاحب جريدة الإصلاح والاتحاد العثماني البيروتين، والدكتور أيوب ثابت، وألبرت سرسق.

ولّى الدعوة أيضا وجيهان من بعلبك هما محمد وإبراهيم حيدر، وممثّلان لشباب العراق هما توفيق السويدي طالب حقوق في فرنسا، وسليمان عنبر من وجهاء العراق، وتاجر بفرنسا، وكان يقيم في باريس⁽¹⁾.

ومثّل المهاجرين السوريين واللبنانيين في الولايات المتحدة الأمريكية، ثلاثة أعضاء هم: نجيب دياب ممثّل جمعيه الاتحاد السوري بنيويورك، وصاحب جريدة مرآة الغرب العربية التي كانت تصدر في نيويورك، ونعوم مكرزل ممثّل جمعية النهضة اللبنانية، وصاحب جريدة الهدى العربية التي كانت تصدر في نيويورك، والياس مقصود ممثّل ثاني لجمعية الاتحاد السوري⁽²⁾. ومثّل المهاجرين العرب في المكسيك، عباس أفندي بجافي، وكان في باريس. وعن الجالية العربية في باريس، شكري غانم ونادرة مطران، وشارل دبّاس، وخير الله خير الله.

ومثّل حزب العربية الفتاة جميع الأعضاء في اللجنة التحضيرية للمؤتمر، وهم عبد الغني العريسي، ومحمد الحمصاني، وتوفيق فايد، وعوني عبد الهادي، وجميل مردم، ومثّل المنتدى الأدبي عبد الكريم الخليل⁽³⁾.

وبذلك اشترك في المؤتمر 24 عضو رسميا، نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، واغلبهم من أبناء سوريا، باستثناء العضوين العراقيين، وكانت نسبه التمثيل الولايات العربية، باستثناء الشام ضئيلة⁽⁴⁾.

وفي جلسات المؤتمر، أُلقيت الخطب التي تتعلق بالقضايا العربية، وبدراسة المحاضرات والأبحاث والمناقشات التي أعقبتها، وقام المؤتمر ببحثها وتداولها، لاتخاذ قرارات هامة، ويلاحظ عدم وجود تناقضات جذرية في مواقف واتجاهات الهيئات المختلفة، التي تتضح في:

- موقف ممثلي حزب العربية الفتاة: الاتجاه القومي وحق العرب كجماعة.

- موقف ممثلي حزب اللامركزية: الاتجاه اللامركزي ومسألة شكل الحكم.

1- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 428-429.

2- المصدر نفسه، ص 428.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 3-8، 14-16، 28. زين نور الدين زين: المرجع السابق، ص 99.

4- جلال يحيى: الثورة العربية، ص 98. أنظر أيضا: Enczowski, G, op. cit, p 46.

- موقف ممثلي الأحزاب السورية في المهاجر: المسيحيين عموماً من أعضاء المؤتمر.

توضح وقائع المؤتمر وتصريحاته، ومذكراته، التأثير البرجوازية العربية بالاتجاه العلماني نتيجة احتكاكها بالغرب وباللبراليين الترك، مما أدى إلى رد فعل عربي قومي تجاه نظام الحكم المركزي المتخلف. فسار تلك الطبقة المثقفة في طريق النضال السياسي، حتى جاءت إلى المؤتمر العربي بشرائحها الاجتماعية المختلفة، للتعبير عن طموحاتها السياسية، مما يوضح تباين الخطب والمناقشات والمقررات، التي ارتبطت بدورها بتغيير السياسة التركية، بالتفكير القومي والإدراك السياسي لتلك النخبة، في رؤيتها للحقوق العربية القومية، وإبعاد الموقف العربي، والحركة العربية في الدولة العثمانية.

يشير الزهراوي إلى العنصر العربي في حوار صحفي مع أحد محرري جريده الطان الفرنسية بقوله: "إن لهذا العنصر العربي ميزة بين العناصر الأخرى بوحدة لغته وعاداته ومصالحه وميوله. وإن هذه الخصائص والصفات أحدثت له حقوقاً كانت مهمة حتى الساعة. ولذلك قمنا بصفتنا عثمانيين، إن نشترك بالإدارة العامة، وأن نعرض على الحكومة بصفتنا عرباً، نطالب خاصة بقوميتنا وحالاتنا"⁽¹⁾.

يوضح حديث الزهراوي بداية تعريف لأسس ومقومات الأمة العربية، وتعداد للعناصر المكونة لها، وإن العرب يمثلون قوميته لها حقوق ومطالب خاصة بها. وبذلك يبرز الوعي بكيان عربي، ويظهر الاتجاه القومي الحديث ليستبدل الرابطة الدينية بالقومية، فيؤكد المؤتمرون على أن حركتهم بعيدة عن الدوافع والغايات الدينية. لذلك اشترك فيها المسلمون والمسيحيون باعتبارهم أبناء الأمة العربية التي تربطهم بها روابط مشتركة في الإطار العربي"⁽²⁾.

كما يشير المفيد إلى تركيز المؤتمر على وحده الأمة بجميع عناصرها أكثر من ذي قبل، فيقول: "فالجامعة التي تجمع العرب مسلميهم ومسيحيهم وإسرائيلهم هي أقوى الجامعات وأثبتها وأشدّها انطباعاً على المعقول والمحسوس"⁽³⁾.

وقد أيد هذا الاتجاه الحديث الشيخ أحمد طبارة، عضو وفد بيروت في خطابه الذي قال فيه: "نحن نعني بالعرب كل ناطق بالضاد، لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم". ويتضح هذا الاتجاه في أكثر الخطب التي

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 14-18. جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13.

2- المصدر نفسه، ص 18. أنظر أيضاً:

- Hourani Albert, op. cit, p 283.

3- العريسي: الجامعة الوطنية، في العرب، العدد 35-1469، 1914/1/25، ص 1.

ألقيت، وفي فكرة المؤتمر ورسالة اللجنة التأسيسية إلى حزب اللامركزية، وفي الدعوة التي واجهتها هذه اللجنة إلى أبناء الأمة العربية⁽¹⁾.

اتجهت الطليعة العربية المثقفة، التي تضم عددا من العائلات الشامية المعروفة، إلى تأكيد الفكرة القومية العربية، من منطلق تأثرها بفكرة الأمة العربية، وحتى طالب بالحقوق العربية القومية، فتذهب إلى ابعاد من حزب اللامركزية، ومن مجرد المطالب العربية التي أعلنها القوميون العرب، لتحديد شكل الإدارة الذاتية للعرب، وقد اتضح هذا الاتجاه القومي الخالص في الخطاب الذي ألقاه عبد الغني العريسي، الذي ينتمي إلى أعرق العائلات البيروتية، في الجلسة الثانية التي انعقدت في 20 جوان 1913م. وهو يعيد اشمل دراسة علمية ووطنية عن حقوق العرب في الدولة العثمانية⁽²⁾.

اطلع العريسي على النظريات القومية الألمانية والفرنسية والايطالية الشائعة في أوروبا في أوائل القرن العشرين، وتدور حول عناصر الأمة وعوامل وجودها، أثناء دراسته للصحافة والعلوم السياسية في باريس. فأتضح التفكير القومي في تعريفه للأمة العربية⁽³⁾، ومطالبته بأن يكون للعرب قومية متميزة بإجماع آراء المفكرين السياسيين، وتحديثهم عنهم كأمة أو جماعة، حين أجاب عن سؤال هل للعرب حق الجماعة بقوله: " ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت على رأي علماء الألمان، وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المطنح السياسي. فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة التاريخ ووحدة عادات ووحدة مطنح سياسي. فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم على رأي كل علماء السياسة، دون استثناء حق جماعة، وحق شعب وحق أمة"⁽⁴⁾.

وبمضي مؤكدا حق العرب في أن يكون لهم كيان سياسي قومي فيقول: " نحن عرب قبل كل صبغة سياسية أي قبل العثمينة، حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة، رغما عما كان ينتابنا من حكومة

1- ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المرجع السابق، ص 194. محب الدين الخطيب: المصدر السابق، ص 194.

Khoury Philip, op. cit, p 65.

2- عبد الغني أفندي العريسي: المؤتمر العربي السوري- الجلسة الثانية: خطاب سكرتير المؤتمر عبد الغني أفندي العريسي، الأهرام، العدد 10744، 1913/7/4، ص 1.

3- أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 70.

4- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 42-43. أنظر أيضا:

Khalidi, R, op, cit, p 41.

الأستانة من أنواع الإدارات، كالامتصاص السياسي، أو التسخير الاستعماري، أو الذوبان العنصري سياسة العثمنة"⁽¹⁾.

يتأثر العريسي بموقف العربية الفتاة، فيلح قائلاً: "ألينا على أنفسنا أن نحافظ في هذه المملكة على مكانتنا، وعلى جنسيتنا، وعلى مساواتنا، فلا أرض بعد اليوم تستعمر، ولا أمة تسخر، وإنما نحن الرعاة لا الرعية..."⁽²⁾. وهو بذلك يؤكد أن كل المحاولات السابقة لم تؤدي إلى الحرص على حق الجماعة، وإحياء هذا الحس الشريف النبيل حس الجنسية، لذلك فهو يقاوم كل ما يؤدي إلى أضعاف هذه القومية، ويتمسك بإحياء خصائص ومميزات العرب، "فنحن كتلة حية، قائمة بذاتها وخاصتها لا تدع أية قوة تمس بناءات هذا الركن والركن..."⁽³⁾.

يتضح في الخطبة التي ألقاها ندره مطران، اهتمامه بالفكرة القومية، ومحاولة فصلها عن الطائفية، لإبراز الحقوق القومية بدون تحيز طائفي، فيتوسع مطران في خطابه لبيان التضامن الاجتماعي بين مسلمي العرب ومسيحيهم، فيشيد بالروابط القومية عن العرب، وباتفاق كلمتهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يجد أمة أشد تمسكا بها من الأمة العربية. ويعتمد على التاريخ العربي الإسلامي: "إذا كان الوعي العنصري فضيلة في النفس، فلست اعرف أمة أشد تأثراً بهذا الوعي من الأمة العربية، إذ لما تقدم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى بلاد الشام، وجدوا الغساسنة العرب حراساً على أبوابها، وكان الغساسنة من العرب النصاري، وقد تقدم ملكهم جبلة بن الأيهم المسيحي إلى القتال. إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجهتهم عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية التي كانتا تقضيان عليهم بموالات الروم، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم، فمهدوا لهم السبيل وفتحوا الطرق ومكنوهم من فتح البلاد. وهذا أعظم دليل على أن العرب متحمسون بالعرق قبل الدين، وهي فضيلة الشعوب الحية التي لا تريد أن تموت"⁽⁴⁾.

ويضيف مطران قائلاً: "أفتخر بأن الأمة العربية مسلمة وغير مسلمة، متضامنة ومترابطة في مصالحها، تسعى لنيل إصلاحات مشروعة، وتنبذ بكل قوتها كل حركة من شأنها تداخل الغريب في إحكامها، أو اتصال العربي بينها وبين الدولة العثمانية، وترويج أية غاية كانت غير عربية عثمانية في البلاد العربية العثمانية"⁽⁵⁾.

1- العريسي: مميزات العرب والنضال من أجل حقوقهم، المفيد، العدد 876، 1912/1/8، ص 1. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 42-45.

2- العريسي: مميزات العرب والنضال من أجل حقوقهم، المصدر السابق، ص 4. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 42-50.

3- العريسي: المصدر السابق، ص 4

4- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 58-59. ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 194-195.

5- المصدر نفسه، ص 60.

وعلى الرغم من اعتقاد أعضاء المؤتمر بالوجود العربي، فقد ظلوا على ارتباطهم بالدولة العثمانية. فأكدت خطب ومحاضرات المؤتمرين، بأنهم لا يفكرون في الانفصال عن الدولة، بل يحرصون على وحدتها، والتأكيد على أن في نخضة العرب قوة لها، بشرط الاعتراف بحقوقهم القومية ضمن الشكل اللامركزي للحكم، وإشراكهم في الإدارة العامة للدولة¹. وبذلك كان الاتجاه القومي السائد هو الإصلاح على قاعدة اللامركزية لعلاج مشاكل الإمبراطورية، ويتضح ذلك في الدعوة التي وجهتها لجنة المؤتمر إلى أبناء الأمة العربية، وفي تبني حزب اللامركزية للمؤتمر.

ولكن الارتباط بالدولة لم يكن تعلقا بالرابطة الدينية، فتصف أعضاء المؤتمر مسيحيون، وإنما لا يمانهم بأن نخضة العرب لن تتم إلا في نطاق الدولة. ولذلك صرح الزهراوي في أعقاب المؤتمر لمراسل جريدة الطان " بان الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية. فنحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية، بل رغبه منا في إيجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل يقف في طريقه، وأملا في قيام حكومة رشيدة تكون لنا المشاركة في أمورها، والدولة العثمانية هي التي تقدر أن تحقق رغباتنا، إذا هي عملت بلوازم الإصلاح الذي نحن مصرون على طلبه⁽²⁾.

أكد الزهراوي على ضرورة المشاركة السياسية بين العرب والترك، فبحث في موضوع " تربية الأمة السياسية"، وتحدث عن وجود "العرب العثمانيين" و"الترك العثمانيين"، كما أوضح علاقة العرب بالترك، وكيف التزم الفريقان امتزاجا عظيما، وكيف فرقت بينهما السياسة، ولم يبق منها غير الرابطة العثمانية. ولحرص العرب على تلك البقية الباقية، فقد تنبهوا إلى واجب عظيم، وهو وجوب اشتراك الفريقين في إدارة سياسة البلاد، لضمان ارتباط العرب والترك على أساس المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات السياسية⁽³⁾.

وهو يعتبر أن العرب جماعه تشترك في المصالح العامة، ومن ضروريات ذلك اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على مصالحها وتقويتها. لذلك ركز على ضرورة مراقبة الأمة للحكومة، حتى وان لم يعمل كل أفرادها بالسياسة ومن هنا يرفض استبداد واستئثار الترك بسياسة البلاد، ويلح في خطبته على الإخاء العربي التركي، الذي يقتضي مشاركته العرب في الحكم على أساس اللامركزية. فأساس تربيتنا السياسية بعد الآن، هو بث هذه الفكرة والتعصب لها، وقد وجدنا أن اللامركزية هي خير الوسائل لتجسيد هذا الاشتراك⁽⁴⁾.

1 - Kedourie Elie, op, cit, pp 421-423.

2- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 127. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 18-21.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 28-29.

4- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 29-32.

ولكن المؤتمر ربط مسألة المطالبة باللامركزية، بمدى استجابة الدولة لمطالب العرب الإصلاحية، ولم يجعلها قاعدة ثابتة وإلا فهم أحرار في اختيار أي مطلب آخر، وهذا تلميح ضمني بالانفصال، ويفهم أن الولاء على قدر المعاملة. فيقول الزهراوي لمراسل الطان: "أما إذا ظلت بعيدة عن ذلك، فاني أصرح لك، كما صرحت في القاهرة، بأن خططنا معها تتغير عندئذ تمام التغير"⁽¹⁾. ويعبر العريسي عن اتجاه العربية الفتاة، فيعلن ضرورة أن يتناسب الارتباط بالدولة وضمن حقوق العرب، فإن كثر فكثرت، وإن قل فقل⁽²⁾.

ثم أشار العريسي إلى حقوق العرب المهضومة في الدولة العثمانية، وما ينالهم من الظلم في المجالس التشريعية، كمجلس الأعيان والمبعوثان وفي السلطة الإجرائية التنفيذية، في الوزارات والمناصب الرئيسية في العاصمة والولايات. وذلك لقلّة نواب العرب فيهما، على الرغم من أهميتهم وقيمتهم العددية في الدولة، والتي بلغ ثلاثة عشر مليوناً، أي أكثر من نصف المملكة، وليس لهم سوى خمسة أعضاء في مجلس الأعيان⁽³⁾.

يتوسع العريسي فيما أجمله الزهراوي، ويطالب بحق العرب في كل ذلك، ويدعو إلى تمثيلهم في مجلس الأعيان بنسبة عددهم، حفظاً لكرامتنا ومنزلتنا السياسية... إن كل قانون لا يوضع بمشاركة أبناء العرب يكون غير مستوفي الشروط من حيث الحق والعدل⁽⁴⁾.

يحتج العريسي، ويندد بطريقة تعيين النواب "... فإذا عرفنا أن انتخاب النواب أصبح بين أيدي من احتكروا السلطة واستلموا الإدارة، صح أن نقول طريقة تعيين النواب لا طريقة انتخاب النواب... وما دام أقدس حق لهذه الأمة مغموطاً وهو حق التمثيل، فإننا نعذر إذا صممنا على أن نتذرع بالوسائل التي تصون حقوقنا في هذا المجلس سواء في زيادة نوابنا، أو حرمة تمثيلنا..."⁽⁵⁾.

1- أديب نصر: مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام 1850-1948، إشراف على تحريره فؤاد صروف ونبيه أمين فارس، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1967، ص 102. أنظر أيضاً:

Hourani Albert, op. cit, p 283.

2- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 45.

3- العريسي: حقوق العرب في المملكة العثمانية، المؤيد، العدد 7026، السنة 24، 3 جويلية 1913، ص 4. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 43.

4- المصدر نفسه، ص 43-44.

5- المصدر نفسه، ص 44-45.

ولذلك يطالب العريسي بحق الموازنة بين كل الجماعات، وبإحصاء جدي للنفوس، وبأن تكون الانتخابات حرة، حتى يمثل العرب تمثيلاً حراً في مجلس النواب. فقد كانت الحكومة تتجاهل ذلك، حتى لا يزداد عدد النواب العرب في المجلس⁽¹⁾.

كما ناقش العريسي تجاهل حقوق العرب وعدم إشراكهم في المناصب الوزارية والمختلفة، ويهاجم تأليف الوزارة التي لا تمثل إلا قسماً من الأمة، بصفتنا قسماً أكبر في هذه الدولة، وعلى ذلك فهي غير مستوفية الشروط في نظر حق الجماعات، أو حق الشعوب، لأن الوزارة في علم الحقوق العامة لا تكون وطنيه، إلا إذا مثلت كل أبناء الوطن، ولا تكون شرعية، إلا إذا جمعت فيها إرادة المجتمع كله⁽²⁾.

كما يندد بالظلم الذي لحق بالعرب في كل فروع السلطة الإجرائية، ولا سيما إدارة الداخلية، فإنكم لا تجدون سوى والي واحد على نحو ثلاثين ولاية. وهكذا يمكننا أن نقول عن بقية ما يتعلق بالوزارات الأخرى⁽³⁾. وهذا إنما يتم بان يكون لنا من المراكز الوزارية على نسبة مكانتنا في هذه الدولة، ونطلبه أيضاً عملاً مبدأ حفظ الحياة الوطنية والكيان الجنسي، فإن الذات، واستقلال البلاد، وشرف العنصر، يدفعنا إلى أن نطالب بهذا الحق بكل ما لدينا من قوة⁽⁴⁾.

أشار العريسي إلى أن قوة الدولة تعتمد على نظام الحكم فيها، لذلك وجد ضرورة أن تكون الحكومة ديمقراطية، مما يستلزم حرية ولايتها. لذلك يطالب بأن يكون للعرب نصيبهم المشروع في كل وزارة، حتى يتسنى لهم المشاركة العملية والفعالية في الإدارات، كما هو الحال في كل قانون أساسي، وبذلك كان العريسي يطالب تحصل الولايات العربية على استقلالها الإداري، وتصبح العربية لغة رسمية في البرلمان ودوائر الحكومة المحلية، وذلك بمادة تذكر في الدستور، ولذلك كان من جملة قرارات المؤتمر، إقرار العربية لغة رسمية في الولايات العربية⁽⁵⁾.

كذلك ذكر بان للعرب حقاً مشروعاً وصريحاً فيما يتعلق بالأمور النافعة للأشغال، وما دما نؤلف نصف المملكة، فلنا حق بان تصرف نصف القروض في المشروعات العامة ببلادنا العربية⁽⁶⁾.

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 45.

2- المصدر نفسه، ص 45-48.

3- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 12.

4- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 49.

5- المصدر نفسه، ص 49. أنظر أيضاً: العريسي: المصدر السابق، ص 4.

6- العريسي: المصدر السابق، ص 4.

ويختتم العريسي خطابه قائلاً، إذا كانت لائحة إعلان حقوق الإنسان قد احترمت حق الأفراد فمن باب أولى أن تحترم حق الجماعات وحق الشعوب، وإن العرب يطلبون هذا الحق كشركاء في الدولة. ويلخص حقوق العرب فيجد أن لهم الحق في المشاركة على قدم المساواة في القوة الإجرائية والتشريعية، والإدارات العامة. وأما في داخلية بلادنا، فنحن شركاء أنفسنا في أموال المعارف، أموال النافعة، أموال الأوقاف، حرية الاجتماع، حرية الصحافة، وذلك لا يكون إلا بتوسيع صلاحية المجالس العمومية⁽¹⁾.

وأخيراً يدعو العرب إلى الحصول على هذه الحقوق بالوسائل المشروعة، وعلى الحكومة التركية إلا تقف في وجه هذا الحق بالقوة والقهر، لأن ذلك سيجعل العرب يبحثون عن طرق أخرى، ويشير إلى أن النبي محمد (ص) استمال العرب بمعقول القران، وتحقيق مبدأ العدل والمساواة والإخاء⁽²⁾.

عقب السيد أحمد مختار بيهم على خطبة العريسي بقوله أنه يوافق على المطالبة بحقوق العرب في الدولة، ولكن يجب إلا يفهم من ذلك قصد العرب للوظائف، بل إن الهدف هو إصلاح أحوال بلادهم، وذلك للرد على أعداء الحركة العربية، الذين زعموا بأنها تسعى وراء طلب الوظائف فحسب. يقول بيهم: "... إن رجال الأستانة، يظنون أن النهضة العربية يمكن تسكينها بتوظيف بضعة أشخاص من العرب، لذلك ينبغي لنا مع ما نحن فيه من المطالبة بحقوقنا أن نسللك طريق رفض كل وظيفة تعرض على رجالنا قبل تنفيذ الإصلاح المطلوب"⁽³⁾.

لذلك دعا رجال الحركة الإصلاحية بصفة عامة، والمؤتمرين بصفة خاصة، إلى عدم قبول أي وظيفة قبل تنفيذ الإصلاح، وقد وافق المؤتمر على ذلك، بعد مناقشة هذه القضية.

ومن أهم الخطب التي تميزت بادرار سياسي عميق، خطاب اسكندر عمون، المحامي واحد مندوبي اللجنة العليا لحزب اللامركزية في المؤتمر، ونائب رئيسها في القاهرة، ونائب رئيس المؤتمر، وقد ألقاه في الجلسة الثالثة للمؤتمر، بعنوان الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

بدأ حديثه بتحليل فوائد اللامركزية، وأشار إلى أهدافها السياسية، كما قدم تحليلاً واضحاً وشاملاً لمساوئ الحكم المركزي في إدارة الشعوب، الذي يقود إلى التأخر والأخطار الأجنبية، فيقول: "أما إذا أبت الأمة التركية إلى

1- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 12.

2- العريسي: المصدر السابق، ص 4.

3- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 88-94. أنظر أيضاً: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 436. وأنظر أيضاً:

Khoury Philip, op.cit, p 62.

كان لشكري العسلي دوراً سياسياً هاماً داخل وخارج البرلمان، فقد بلور المعارضة العربية الليبرالية ضد الاتحاديين، فندد بهم في المسألة الوظائف، وبسبب توسع الحركة الصهيونية في فلسطين.

الهلاك، فالعرب معذرون إذا هم ترددوا قبل أن يلقوا بأنفسهم معها في الهوة... وهل تبقى الدول العظمى على سكوتها، إذا ساءت إدارتنا إلى حد أن تجعل مصالحها وأموالها في خطر؟"⁽¹⁾، وبين حاجة الأمة العثمانية إلى الحكم اللامركزي الدستوري وخاصة أنها تتكون من عناصر قومية متباينة، وكل فريق فيها أدرى بحاجاته الخاصة من سواه، فلا يمكن أن يقوم بإدارتها عنصرا واحدا، ولا يصح أن يطبق على حاجاتها قانون واحد⁽²⁾.

ولذلك يؤكد اسكندر عمون على ضرورة تطبيق الإصلاح على مبدأ اللامركزية، لأنه الأسلوب الكفيل بإصلاح الولايات العربية، كما أوضح أن غاية ما يطلبه العرب هو الإصلاح، ولكن هذا لا يعني فكرة الانفصال عن الدولة، "... فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد الذي يكاد يودي بالدولة، بالحكم الذي يرجى منه وحدة الصلاح والنجاح لنا ولهم، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية. ولو كانت البيئة الحاكمة اليوم من صميم قریش، لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا..."⁽³⁾.

وبذلك يطالب اسكندر عمون، بإقامة نظام الحكم البديل، الذي يناسب متطلبات العناصر القومية المكونة للدولة على اختلاف شؤونها، فيكون بمقتضاه لأهل كل ولاية الكلمة العليا في إدارة شؤونهم الداخلية، ويكون لمجموع الأمة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبية الصحيحة لإدارة الشؤون العامة⁽⁴⁾.

وبذلك ينتهي اسكندر عمون، بالدعوة إلى حكومة عثمانية، يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس، ولا بداعي الدين، عربيا كان أو تركيا أو ألمانيا أو أرمينيا أو كرديا، مسلما أو مسيحيا إسرائيليا أو درزيا⁽⁵⁾.

ويختتم كلمته بتحفظ وتلميح ضمني بفكرة الاستقلال التام فيقول: " هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة، وإن كان لابد لهذه القاعدة من شهداء فكلنا لها مستعدون"⁽⁶⁾.

وقد أكد عضو الوفد البيروتي الشيخ أحمد طيارة على هذا الاتجاه بقوله: " فنحن قوم ولدتنا أمهاتنا عثمانيين، ونشأنا عثمانيين، ونريد أن نبقي عثمانيين، ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلا... ولكنه أضاف،

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 103-105.

2- المصدر نفسه، ص 98-100.

3- المصدر نفسه، ص 103-104.

4- المصدر نفسه، ص 104-105.

5- المصدر نفسه، ص 104.

6- المصدر نفسه، ص 104.

فالواجب على حكومة المركز أن تبادر إلى الإصلاح الجدي على قاعدة الاشتراك بالحكم، وعلى طريقة اللامركزية، كل ولاية بحسب استعدادها وحاجياتها، فهو خير لها وأبقى"⁽¹⁾.

ويقول مطران: "إن العرب لا يجهلون حسنات ارتباطهم بالدولة العثمانية، وحرصهم عليها إذا أرادوا أن يصونوا أنفسهم من شرور اقل ما فيها الأسر والاستعباد إلى ما شاء الله"⁽²⁾.

كما ألقى توفيق السويدي، كلمة تحية العراق للمؤتمر، أعلن فيها تأييد المفكرين العراقيين للمؤتمر، وإعلان تضامنهم معهم في المطالب الإصلاحية على أساس اللامركزية، وضمان حقوق العرب المشروعة في الدولة، على أساس إن الغاية واحدة، والأمة واحدة، والكلمة واحدة لإنقاذ الوطن"⁽³⁾.

كانت الجلسة الختامية عامة، شهدها حشد كبير من أبناء الجاليات العربية، وكبار الشخصيات الفرنسية، ومندوبون عن الصحافة الأوروبية وألقى فيها أحمد مختار بيهم خطبة بالفرنسية، أكد فيها استمرار العرب في نضالهم طلباً للإصلاح مهما كانت النتائج"⁽⁴⁾.

كما ألقى كذلك شكري غانم خطبه بالفرنسية، أكد فيها أيضاً حق العرب في المطالبة بالإصلاح، وشكر فرنسا لترحيبها برجال الإصلاح، وأشاد بصدقتها للعرب وللدولة العثمانية"⁽⁵⁾.

وهكذا جاءت أبحاث وقرارات المؤتمر، تعزيزاً وترديداً للمبادئ التي أعلنها حزب اللامركزية، والاقتراحات التي قدمتها الجمعية الإصلاحية البيروتية. كما كانت شاملة لمبادئ الإصلاح اللامركزي، ومطالب الإصلاحيين لذا كان الإقرار عليها بالإجماع من قبل العرب، مسلمون ومسيحيون"⁽⁶⁾.

جرت المداولات في مشروع القرارات، وتمت الموافقة على البنود التالية في 21 جوان عام 1913م:

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 58.

2- المصدر نفسه، ص 60.

3- المصدر نفسه، ص 75-76.

4- شكري العسلي: حياة العرب بالاتحاد مع الترك، المقتبس، العدد 113، 1909/5/1، ص 1-2. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 28.

5- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 28-29.

6 - Zeine.N.Z: Arab Turkish Relations on the emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1968, p 110. See also Lenczowski, op. cit, p 46.

اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 124-134.

- المطالبة بالإصلاحات الحقيقية في الدولة العثمانية، ويجب أن تنفذ على وجه السرعة.
- ضمان الحقوق السياسية للعرب، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للدولة العثمانية، اشتراكاً فعلياً.
- إقامة إدارة محلية لامركزية في كل ولاية عربية، للنظر في حاجاتها حسب عاداتها وأوضاعها.
- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وفي المجلس النواب العثماني، إلى جانب التركية.
- أكد ما سبق أن طلبته الجمعيات العربية في أن تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية، إلا في الظروف الاستثنائية.
- يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمصرفية لبنان ووسائل تحسين مالياتها يتضح بأن هناك تأكيداً على المسالة اللبنانية.
- قرر المؤتمر أن تبلغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية، والحكومات الأوروبية الصديقة لها.
- يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية لترحيبها الكريم بضيوفها⁽¹⁾.
- كما أضاف المؤتمر ملحقاً للقرارات تضمن المواد الثلاثة التالية:
- حذر المؤتمر أعضاء لجان الإصلاح العربية من قبول أي منصب في الحكومة العثمانية، في حالة عدم استجابتها لهذه القرارات، إلا بعد الرجوع إلى جمعياتهم المنتمين إليها.
- إن هذه القرارات ستكون برنامجاً سياسياً يلتزم به القوميون العرب، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد مقدماً بتأييد هذا البرنامج، وطلب تنفيذه.
- المؤتمر يشكر مهاجرين العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم⁽²⁾.

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 29-30. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 11-12. أسعد داغر: المصدر السابق، ص 59-60. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 436.

2- زين نور الدين زين: المرجع السابق، ص 153-154. ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 191-193. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 83-88.

وعندما انتهت جلسات المؤتمر، ذهب وفد من رئيسه، عبد الحميد الزهراوي، وبعض أعضائه، مثل شكري غانم، واسكندر عمون، وسليم سلام، الشيخ أحمد تبارة، واحمد مختار بيهم، وخليل زيني، إلى وزارة الخارجية الفرنسية في 30 جوان عام 1913م، حيث استقبلهم وزير الخارجية، المسيو بيشون، فشكروا فرنسا ما لقيت المؤتمرين من عطف وترحيب، ناتج عن كونهم من رعايا دولة صديقة لفرنسا، وأبناء بلاد تظهر فرنسا نحوها العطف. كما أشاروا إلى اعتمادهم على فرنسا وغيرها في تأييد المطالب الإصلاحية التي وعدت بها الدولة، بكفاءة العرب لإدارة شؤونهم المحلية، مع رغبتهم في الاستعانة بخبرة أوروبا، والاستمرار تضامنهم مع الدولة⁽¹⁾.

شكر الوزير الفرنسي الوفد على عواطفه، وأشاد بالصدقة الفرنسية العثمانية، وأنها تريد الخير للسوريين، وأبدى إعجابه بما أظهره رجال الإصلاح من التعقل في مطالبهم، فقال: " أنه لجدير بأوروبا كلها ان تكون ضامنة لتحقيق الإصلاح، كافة لمستقبل تلك البلاد، وان فرنسا تقبل أن تكون محامية لسوريا لدى أوروبا، وأنها تفعل ذلك خدمة للعثمانية لا ضدها"⁽²⁾.

ثم ذهب الوفد إلى السفارة العثمانية في باريس، وقدموا للسفير العثماني، رفعت باشا، نسخة من قرارات المؤتمر، لرفعها إلى الحكومة العثمانية، ويفهم من حديث السفير ضرورة إجراء الإصلاح للسلطنة، مع بلوغ ذلك بالليلين⁽³⁾.

4- رغبة العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية:

عندما أعلنت الدولة العثمانية الدخول في الحرب العالمية الأولى توقف نشاط العرب المعادي للأتراك، وتوقفت جرائمهم عن الخوض في المسائل العربية، وقاموا بحل الأحزاب السياسية، واندفعوا عن إخلاصهم للدولة، وأخذ الأتراك من جانبهم يتربصون من الزعماء العرب وكسب ثقتهم حتى أن سيرة جمال باشا الوالي التركي الاتحادي في الفترة الأولى من حكمه لسوريا كانت مسيطرة إلى حد كبير للاتجاهات العربية، وذلك قبل أن تتحول إلى سياسة قمع لتلك الاتجاهات⁽⁴⁾.

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 149-150، 152-210.

2- المصدر نفسه، ص 149-150. أنظر أيضا: محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 440. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 523-524.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 150.

4- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 610.

وأعلن جمال باشا في خطبة له في دمشق يناير 1915م، بأن العرب والترك خاضعون لخليفة واحد لا يختلفان، وهما إخوان في العقيدة، وركز على الجهاد والدفاع عن الدولة والإسلام⁽¹⁾، وعندما اندلعت الحرب غير الأتراك الاتحاديين من سياستهم الطورانية إلى دعاة الوحدة الإسلامية، وأخذوا يشرعون بالجهاد المقدس والخلافة⁽²⁾.

وشرع القوميون العرب في التحضير للثورة بإجراء اتصالات وإرسال مبعوثين إلى الأمراء العرب في شبه الجزيرة واستقطاب شيوخ القبائل ورؤساء العشائر لصفوفهم وراهنوا على عبد العزيز آل سعود أمير نجد في قيادة ثورتهم ضد الترك إلا أنه لم يستجب لدعوتهم، فراسلوا الشريف حسين بن علي لذات الهدف، فوافق على ذلك فأرسل نجله فيصل إلى دمشق والأستانة لاستطلاع الأجواء، والذي اكتشف خلالها أن الأجواء مهيئة في دمشق لإنجاح الثورة، فأسرع بالعودة إلى دمشق لينضم للقوميين في ثورتهم مع جمعيتي "العربية الفتاة" و"العهد"، ووضعوا ميثاقاً ينص على الشروط المناضلون العرب أن يقبلوا العمل مع إنجلترا وحلفائها ضد الترك، وطلبوا منه أن يأخذها إلى والده لدراستها ومفاوضة الانجليز⁽³⁾.

ولكن جمال باشا أثناء سير العمليات العسكرية غير من سياسته إزاء العرب وكشف عن نواياه الحقيقية والمكر والخديعة، ففي دمشق استدعى عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، وأخذ يتودد له ويقبل وساطته وراح عبد الكريم يداريه اتقاء لشربه وتجنباً لغدره، وحاول إقناعه بأن من المصلحة تأزر الترك والعرب على السراء والضراء ولكنه اتبع سياسة عدوانية، فبدأ بتشتيت شمل ضباط العرب، ولاسيما الضباط الاحتياط، فوجه معظمهم إلى جبهات القتال في مضيق الدردنيل وفي جبال القفقاس⁽⁴⁾. وأخذ يعتقل كل من برز له عمل أو مقالا أو خطابا ممن اشتركوا في مؤتمر باريس أو المنتدى الأدبي، وألف في عالية من أعمال لبنان محكمة عسكرية، وأصدرت أحكام الإعدام في 21 أوت 1915م وهؤلاء عرفوا بالفوج الأول من الأحرار في ساحة البرج في بيروت والتي عرفت

1- Zeine.N.Z : op. cit, p 101.

2- محمد جميل بيهيم: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ج2، مطبعة الكشاف، بيروت، 1950، ص 25.

3- وقد جاء في هذه الوثيقة: - أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية باستثناء الولايات العربية في إفريقيا.

- إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية.

- عقد معاهدة دفاعية مع إنجلترا وتفضيلها على غيرها في المشروعات الاقتصادية. أنظر: توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 224.

4- مصطفى الشهابي: القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، ط1، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1961، 107.

بساحة الشهداء⁽¹⁾. وصدرت ردود الفعل إزاء هذه الجريمة النكراء التي اقترفها السفاح جمال باشا في المدن والقرى وانتشر التمرد بين الجنود العرب داخل الجيش العثماني، وكان عددهم يقدر بالآلاف، وصدرت الأوامر بعقاب هؤلاء بالإعدام⁽²⁾.

وادعى جمال باشا كي يبرر جرمته البشعة بحق الشبان العرب الأبرياء أن بعض الموظفين الأتراك، قد داهموا قبل وصوله دمشق بقليل القنصليتين الفرنسيتين في كل من بيروت ودمشق وقاموا بتفتيشهما، وتم العثور على رسائل فيها اتهام لبعض الشخصيات العربية، كما ادعى الأتراك أن هذه الوثائق تتضمن أدلة على نشاط الزعماء القوميين العرب الذين أعدمهم بتهمة الخيانة وسلخ سوريا وفلسطين والعراق عن الدولة العثمانية، وعلى أثرها أخبر جمال باشا الشريف حسين علي في مكة حول هذه الوثائق⁽³⁾.

وقرر جمال باشا السفاح إعدام الفوج الثاني من القوميين العرب، وكان فيصل بن شريف مكة عند جمال باشا، وقد بذل إلى جانب الكثير من الوجهاء جهودا كبيرة من أجل إلغاء قرار الحكم أو إعفائهم، إلا أن جمال باشا لم يوافق، وأصر على تنفيذ حكم الإعدام بهم⁽⁴⁾.

وتباينت آراء المؤرخين حول وضع فيصل في دمشق حيث كان عند جمال باشا، فقد ذكر أحد الضباط أن الأمير فيصل كان في مقر جمال باشا رهينة تحت الأنظار⁽⁵⁾. على حين أن الباحث التركي "بايود" يرى أنه نزل ضيفا عند جمال باشا، والدليل على ذلك تحركاته في دمشق، فقد كان يقوم بدراسات وسفريات واتصالات واستشارات في المنطقة دون تقييد، وكان كل ما يقوم به خافيا على الحكومة العثمانية، وكان يرسل والده كما كان

1- الشهداء: وهم عبد الكريم الخليل، سليم عبد الهادي، محمد محمصاني، محمود محمصاني، محمود العجم، نور القاضي، عبد القادر الخرسا، علي الأمرناري، صالح حيدر. أنظر: أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ص 71-75. مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 107-108.

2- كان جمال باشا قد أصدر أحكاما بالإعدام على الجنود العرب الفارين من الجيش التركي، وأصدر أحكاما غيابية بحق الجنود الذين لم يعتقلوا. أنظر: أمين سعيد: المصدر السابق، ص 73.

3- جور أنطونيوس: المرجع السابق، ص 230. مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 109.

4- شهداء الفريق الثاني وهم: شكري العسلي، عبد الوهاب المليحي، عبد الغني العريسي، الأمير عارف الشهابي، سليم الجزائري، أمين لطفي الحافظ، عبد الحميد الزهراوي، شفيق العظم، رشدي الشمعة وآخرون. أنظر: مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص 108.

5- هند أبو الشعر: بناء الدولة العربية الحديثة تجربة فيصل بن الحسين في سوريا والعراق 1918 - 1933م، عمان، منشورات جامعة آل البيت، 1999م، ص 512.

يرسل برقيات مشفرة إليه مستخدماً أجهزة الجيش العثماني، ويبدو أنه كان حريصاً على تحركاته ولم تقع في أيدي الحكومة أية رسالة أرسلها أو استلمها من والده⁽¹⁾.

وتعرض جمال باشا إلى انتقادات شديدة بعد الجرائم التي ارتكبها بحق القوميين العرب، ولم تكن هذه الانتقادات من العرب فقط، بل حتى من الأتراك أنفسهم عسكريين كانوا أم سياسيين، فيرى الضابط التركي "رحمي أباك" أن ما قام به جمال باشا كان سليماً من حيث القانون الحربي، إلا أنه كان خطأ فادحاً من حيث السياسة، إذ كان ينبغي عليه إلا يشنق هؤلاء، بل نفهم وحجزهم في قلعة "سينوب" إلى نهاية الحرب، وبهذا يكون قد اتبع سياسة معتدلة تحول دون القيام بالأعمال السيئة، لكن هذا كان يعتبر عملاً لا يفهمه قائدا ذا طبيعة قاسية كجمال باشا⁽²⁾.

ويتضح لنا من مجريات الأحداث أن الآثار السلبية التي ولدتها إعدامات جمال باشا في سورية أدت إلى الإضرار بالعلاقات العربية التركية وكذلك لكرهية العرب لحكومة الاتحاديين، مما دفعهم إلى إعلان الثورة العربية الكبرى بزعامة الحسين بن علي شريف مكة والتحالف مع بريطانيا في الحرب العالمية الأولى على أمل التخلص من حكم الأتراك.

إن وصول الحملة العسكرية التركية المتجهة نحو اليمن إلى المدينة المنورة، قد أقنعت الأطراف المعنية أن الوقت قد حان لإعلان الثورة العربية ضد الدولة العثمانية في يونيو 1916م بمكة قبل أن تتم الاستعدادات كلها⁽³⁾، خاصة موقف الشريف حسين كان أكثرهم حرجاً إذا أعلن تمرده على الدولة العثمانية دون أن يعلن أسباباً قوية للعالم الإسلامي، ركز في هذا الإعلان على سيطرة جمعية الاتحاد والترقي على الدولة واغتصاب السلطة وأن قرارهم بدخول الحرب في صراع أوروبي بحت⁽⁴⁾، وكذلك اضطهادهم للعرب ولغتهم ورموزهم الدينية والتاريخية⁽⁵⁾، واختلفت ردود الفعل للثورة التي أطلقها الشريف حسين في 10 يونيو 1916م ففي الجزيرة العربية لاقت تأييداً من الأمراء باستثناء ابن الرشيد أمير حائل وإمام اليمن المواليين للأتراك، وفي مصر استقبلتها الدوائر الموالية لتركيا بامتناع عكس استقبال الجاليات السورية والعراقية بالقاهرة والقطاعات الشعبية المصرية استقبلتها بحماس، ولما وصلت أسماع الدولة العثمانية بالثورة حتى ثارت ثائرة جمال باشا فأمر فخري باشا قائد الجيش العثماني بالمدينة المنورة بأن يسير إلى مكة ويحتلها ويعتقل الشريف حسين، وتضاعفت شراسته فصب غضبه على

1- هند أبو الشعر: المرجع السابق، ص 512.

2- المرجع نفسه، ص 513.

3- قدرى قلعي: الثورة العربية الكبرى 1916-1925، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، 1993، ص 228-229.

4- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 362-363.

5- قدرى قلعي: المرجع السابق، ص 231.

من بقي طليقا من زعماء وأحرار العرب فاعتقلهم وعذبهم، ولولا الأمير فيصل أنذر جمال باشا بأنه مقابل كل شهيد جديد من زعماء العرب، سيضطر إلى إعدام عشرة من ضباط الأتراك الأسرى لديه⁽¹⁾.

أما الحكومة التركية فقد كان للثورة العربية وقع شديد عليها وبلغ استيائها منها، فبادرت بخلع الشريف حسين من إمارة مكة إلى منافسه من ذوي زيد، الشريف علي حيدر⁽²⁾.

ولم يمض على إعلان الحسين للثورة العربية فترة من الزمن حتى بدأ في ترسيخ دعائم دولة عربية، إذ أصدر إرادة سنية في 5 أكتوبر 1916م، بإسناد منصب قاضي القضاة إلى الشيخ عبد الله السراج وعين نفسه رئيسا للوزراء، فتولى نجله عبد الله الخارجية، وفيصل الداخلية وتولى عزيز علي المصري رئاسة الأركان ورئاسة الجند، والشيخ علي المالكي والشيخ يوسف بن سالم الأشغال العامة والشيخ محمد أمين الأوقاف. وألف مجلس الشيوخ الأعلى وعين لرئاسته الشيخ محمد صالح الشيبلي ولعضويته مفتي الشافعية والمالكية، وأطلق على حكومته اسم " الدولة العربية الهاشمية "، وحرّم استعمال الألقاب التركية (باشا، بك، أفندي) وأيضا حرم حمل الأسلحة في المدن ومنع بيع وتجارة الخمر.

وهيا مشروعا لصك عملة عربية هاشمية مقتبسة من الطراز الانجليزي، على أن تسك في الهند وكان في حكومة الشريف موظفين من السوريين والعراقيين، وأنشأ جريدة سياسية سماها (القبلة) بهدف الدعاية والتوجيه لخدمة حركته الثورية⁽³⁾، وبويع الشريف حسين ملكا على العرب في 2 نوفمبر 1916م⁽⁴⁾، واهتم الشريف بتنظيم وتدريب مقاتليه وتحويلهم إلى جيش نظامي، وعهد لعزيز علي المصري بالمسؤولية على الشؤون العسكرية ولكنه سرعان ما ترك القيادة لجعفر العسكري ونائبه نوري السعيد.

وكان قد انضم للثورة العديد من الضباط العرب في الجيش العثماني، بعض منهم كان أسيرا لدى قوات الحلفاء في معسكرات الأسر بمصر والهند⁽⁵⁾، والبعض الآخر هربوا من التشكيلات العثمانية، كما إلتحق بجيش الثورة عدد كبير من الضباط الانجليز كخبراء على تعليم فنون القتال واستعمال المتفجرات.

1- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 356.

2- قدرى قلعي: المرجع السابق، ص 238.

3- خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص 31.

4- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 357.

5- خيرية قاسمية: المرجع السابق، ص 31.

وقد إلتحق " لورانس " ضابط استخبارات العسكرية البريطانية في مصر بالثورة في أكتوبر 1916م، وعمل كمستشار لفصيل الذي تولى قيادة الجيش الشمالي⁽¹⁾، وبدأت العمليات العسكرية تسير وفق خطة منظمة وتوسعت نطاقات أعمال الجيش الشمالي نحو "الوجه" أقصى موانئ الجداز الشمالية في يناير 1917م، وعقد التحالف مع زعماء القبائل بلاد الشام⁽²⁾.

وكان استيلاء فيصل على "الوجه" وإرغام فخري باشا على أن يقبع بالمدينة ولا يستطيع الخروج منها لإسترداد مكة بعد أن فرض حصارا الأميران علي وعبد الله في "رايع ووادي العيس"، والاستيلاء على العقبة، وكونت الجناح الأيمن للقوات البريطانية الزاحفة من مصر على فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي، وكان قد تم إيفاد بعثة إلى سوريا تدعو أهلها لمؤازرة الثورة وتضع أسس العمل برئاسة الشريف "ناصر بن الحسين"، و"نسيب البكري" و"عودة أبي تايه" و"لورانس" و35 فارس، فتفرق أفرادها في وجهات مختلفة "عودة" إلى قبيلته لحشد أفرادها، و"نسيب البكري" إلى جبل الدروز، و"لورانس" إلى دمشق، مروراً ببعض القبائل وتكاثر إلتحاق الضباط والجنود العرب بالجيش العثماني لصفوف قوات الثورة، وباقترب صيف 1918م، أصبحت معظم القوات في جيش فيصل من السوريين يحاربون في بلادهم ووضع اللنبي في سبتمبر 1918م، خطة هجوم نهائي على طول الجبهة لينتهي بالاستيلاء على دمشق وعهد إلى القوات العربية بمهمة قطع المواصلات بين الجنوب ودمشق باحتلال درعا، فيحمي بذلك جناح القوات البريطانية، ويشغل القوات التركية في شرق الأردن ويمنعها من إرسال الإمدادات إلى فلسطين.

وبعد احتلال درعا بدأ الجيش الرابع العثماني في التراجع تتبعه القوات العربية النظامية ورجال القبائل وانهارت الجبهة التركية في سبتمبر بعد استيلاء الانجليز على كامل فلسطين.

وأخذت القوات البريطانية القادمة من جبال الجليل والقوات العربية إلى الشرق في خطين متوازيين تزحفان نحو دمشق وإنهاء الحرب في الشرق العربي⁽³⁾.

وفي مساء 30 سبتمبر كانت القوات قد أحاطت بدمشق ودخلت القوات العربية غير النظامية إلى دمشق لنقل الأخبار إلى السكان والدعوة لإقامة حكومة عربية، كما دخلت في نفس الليلة فرقة من الخيالة عبر شوارع

1- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 391.

2- قدرى قلججي: المرجع السابق، ص 256.

3- خيرية قاسمية: المرجع السابق، ص 32-34.

المدينة وهي تتعقب الأتراك المنسحبين عن طريق حلب شمالاً، وغادر آخر جندي تركي محطة "القدم" مساء 30 سبتمبر 1918م⁽¹⁾.

وكان الدخول الرسمي للقوات العربية والبريطانية في صباح أول أكتوبر حيث استقبلت بمشاعر البهجة والفرح الذي بلغ ذروته بوصول فيصل إلى دمشق بعد يومين.

وبعد دمشق لم تبق معركة كبرى في سوريا وانتهى احتلال سوريا قبل نهاية أكتوبر بحجوميين الأول ساحلي استهدف صور وصيدا وطرابلس دون مقاومة، والثاني داخلي نحو حمص وحماة وحلب وكانت المقاومة الوحيدة عند ضواحي حلب، وكان آخر نقطة وصلها العرب شمالاً هي محطة المسلمة قبل هدنة مندروس في 30 أكتوبر 1918م.

وفي هذه الأثناء تدخل اتفاقية مندروس 30 أكتوبر القاضية باستسلام ما تبقى من الدولة العثمانية حيز التنفيذ، فيحتل الانجليز الموصل والاسكندرونة، وفرنسا تستولي على رأس الشرقية وتنتهي باحتلال الحلفاء للأستانة يوم 13 نوفمبر لتبدأ النهاية⁽²⁾، للوجود التركي في جميع الولايات العربية باستثناء حامية المدينة المنورة الذي رفض قائدها "فخري باشا" إطاعة الأوامر التي تلقاها من الباب العالي بالاستسلام وفقاً لهدنة مندروس وظل يقاوم حصار الأميرين "علي وعبد الله" إلى أن استسلم في أوائل عام 1919، وعلى أثر عقد الهدنة وصل الجنرال اللنبي لدمشق في 3 نوفمبر لتنظيم إدارة سلطات الاحتلال العسكري لسوريا تلخص في إنشاء حكومة عربية عسكرية تسيطر على شرق الأردن ودمشق وحمص وحماة وحلب، ويكون على رأسها الأمير فيصل باسم القيادة الحليفة.

أما المنطقة التي تقع غرب نهر الأردن فلسطين، فتوضع تحت الإدارة العسكرية الانجليزية المباشرة كما يعهد للفرنسيين بإدارة الساحل السوري بقيادة الكولونيل "دي ياباب" تحت قيادة اللنبي، ومنطقة العراق تحت حكم عسكري بريطاني تابع لحكومة الهند البريطانية، والحجاز تحت سلطة الشريف حسين، ولما إحتج فيصل على هذه الإجراءات أصر اللنبي على ضرورة قبولها إلى أن تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح بين الدول المتحاربة⁽³⁾.

شهدت النصف الثاني للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تنامي الوعي القومي للعناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية، ولم يشذ العرب عن ذلك، فما كان منهم الا البدا بتشكيل الجمعيات والاحزاب السرية والعلنية التي قامت بدور مهم في العمل التخلص من نير الحكم العثماني، ومما يلاحظ أن الحركة القومية العربية

1- قدري قلعي: المرجع السابق، ص 262.

2- خيرية قاسمية: المرجع السابق، ص 52.

3- المرجع نفسه، ص 55-56.

كغيرها من الحركات القومية في العالم تدرجت من اتجاهات ثقافية الى أخرى سياسية وتطورت من تطلعات اقليمية محدودة ضمن الاطار العثماني الى أفاق قومية أوسع.

ان المتتبع للحركة القومية العربية يرى أنها قد أدت الى اضعاف الدولة العثمانية نتيجة لما كانت تسعى إليه في مخططاتها من تحقيق أهداف تخدم المصالح القومية دون الاكتراث بما يحدث من اضرار في الدولة، فضلا عن أن هذه الحركة لم تتمكن من الاعتماد على أنفسها لذا سعت الى الحصول على دعم وحماية أطراف أخرى ووقعت ضحية الدول الأوروبية، فقد كانت المحرك الاساس لهذه التنظيمات السرية، فقد وجدت هذه التنظيمات بأنفسها حاجة الى المرتب الاجتماعية المتنفذة، مما أضعف من حرية تحركها، كما عرقلت الحرب العالمية الاولى عام 1914. 1918م النمو الطبيعي للاتجاه القومي العربي وذلك بتحميله مسؤوليات لم يكن مهيتها لها الامر الذي اضطره الى الدخول في مساومات مع قيادات علنية محافظة تقليدية معادية للعثمانيين كالشريف حسين، ونتيجة لقصور هذه التنظيمات وضعفها وقعت في خطأ التحالف مع الانجليز الذين سرعان ما تنكروا لها وعملوا على اقتسام الاقاليم العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية مع الفرنسيين.

الباب الثاني:

القومية التركية ودورها في تقويض الدولة العثمانية

- الفصل الأول: ظهور ونشأة النزعة التركية

1- نشوء فكرة القومية عند الاتراك العثمانيين

2- مراحل ظهور التيارات القومية التركية

3- الجمعيات والمؤسسات الداعية الى التتريك

- الفصل الثاني: سياسة الاتحاد والترقي في الادارة والحكم

1- استيلاء الحزب على السلطة

2- التناقضات الفكرية في سياسة الاتحاديين

3- موقف الحكومة الاتحادية من المؤتمر باريس

4- موقف العرب من اصلاحات الاتحاديين اتجاه مؤتمر باريس

5- تأثير نظريات ضياء كوك ألب في رسم سياسة الاتحاد والترقي

6- اثر اشتراك تركيا في الحرب العالمية الاولى

- الفصل الثالث: تبلور الجمعيات الوطنية التركية وأثرها على انهيار الخلافة العثمانية

1- مصطفى كمال وحركة المقاومة الوطنية

2- مسألة إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية

3- تداعيات سقوط الخلافة على تركيا والأقطار العربية

4- ملامح الدولة التركية الحديثة

لم يكن ظهور فكرة القومية عند الأتراك العثمانيين وليد المصادفة، بل كان نتيجة طبيعية لتغيرات كثيرة شهدتها الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يأتي في مقدمتها انفتاح الدولة العثمانية على السوق الرأسمالية العالمية واندماجها بها، وتغير الهيكل الاقتصادي العثماني، وهو ما انعكس على واقع المجتمع العثماني، كما ونوعاً، وظهور فئات اجتماعية جديدة، وبالضرورة امتدت رياح التغيير شاملة الوضع السياسي في الدولة العثمانية بما يتلاءم مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي.

- الفصل الأول: ظهور ونشأة النزعة التركية:

كانت الدولة العثمانية حتى أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعتمد على تراثها الاسلامي وقيمها الاسلامية في إدارة شؤون الدولة، إلا أن التحالف الأوروبي الروسي ضد الدولة العثمانية نتج عنه اتجاه الغرب نحو محاربة الدولة من خلال بث الأفكار الغربية في أوساط نخبتها، فتحوّلت الدولة في ذلك الوقت (1839-1861م) إلى ما يعرف بحركة التنظيمات التي قادها وزراء ماسونيون مثل رشيد باشا⁽¹⁾.

إن خصوصية الدول العثمانية أنها متعددة الثقافات، وشرعية الدولة واستمرارها بالنسبة لرعاياها نابعة من الضمانات التي تؤمنها لحماية استقلال هذا التنوع العرقي والديني والثقافي، سواء كان ذلك على صعيد علاقة الجماعات فيما بينها أو على صعيد علاقة كل جماعة على حدة مع السلطات المركزية - الباب العالي -، ولكي تؤمن التوازن اكتفت بمراقبة المجتمع عن بعد⁽²⁾، دون أن يؤكد ذاته كممثل لخصوصية محلية أثنية أو دينية، لذلك نلاحظ أنه بعد زوال الدولة العثمانية، بدأ العالم كما كان قبل أن تتكون هذه الدولة فسيفساء من التجمعات الدينية والمذهبية، الأثنية والقومية، والمثال الأبرز لعدم تأصل سلطة السلالة العثمانية في الداخل والخارج يعطينا إياه التاريخ الحديث، فبعد هروب آخر السلاطين العثمانيين عام 1922م إلى أوروبا لم تستطع السلالة العثمانية أن تتواصل كما فعلت بقيه العائلات الملكية المخلوقة في أوروبا وروسيا⁽³⁾.

1 - محمد حرب: محمد علي إنمجا وظاهرة التمرد في المجتمع التركي المعاصر، المجتمع، عدد 534.

2 - Ed. And Trans: **Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution**, With Introduction and Notes, Cambridge, Mass, 1966, pp 23-25.

3 - إبراهيم العريس: تعيين عبد المجيد خليفة، فيما هرب وحيد الدين دون أن يتنازل، جريدة الحياة اللندنية، العدد 13403 بتاريخ 1999/11/8م.

1- نشوء فكرة القومية عند الأتراك العثمانيين:

كان الأتراك العثمانيين حكومة وشعبا مرتبطين بفكرة الوطنية العثمانية ارتباطا شديدا، وبعدين عن الشعور بالقومية التركية بعدا كبيرا، ولقد استمرت الأحوال على هذا المنوال، حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين.

لقد أثرت الثورة الفرنسية في الدولة العثمانية معارضة للفكرة القومية عن طريق البعثات والترجمة، وقامت في سبيل نشرها في البلاد منظمات سرية وخلايا في المدارس العالية، من مدنية وعسكرية، وصدرت من أجل تعميمها - أي لفكرة القومية - صحف معارضة للحكومة العثمانية في الخارج⁽¹⁾، وبدأت فكرة القومية التركية تعمل عملها في النفوس وصارت تستولي على الأذهان، وتستهيوي القلوب بسرعة، وأخذت تقتحم الموانع التي تقوم في سبيلها، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن أصبحت سيدة الموقف تماما، بقيام الدولة التركية الفتية، مقام السلطنة العثمانية المحتضرة⁽²⁾.

وقد بدأت فكرة القومية عند الأتراك العثمانيين، أولا كحركة لغوية وأدبية بتتريك اللغة، ثم صارت تظهر في الأبحاث التاريخية بتتريك التاريخ، بعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسة بتتريك الدولة.

ظهرت الحركة القومية التركية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن العشرين متأثرة بنظرياتها في أوروبا، ومتزامنة في ذلك مع القوميات الأخرى، ولم يكن يتسنى لها التبلور والظهور قبل ذلك بسبب التعاطي العثماني الكلاسيكي حول الموقف من الشعوب والأعراق التي دأبت منذ البداية على استيعابها، دون الاعتبار للتمييزات العرقية بين رعاياها ورغم أنه لم تسع إلى بلورة هوية عثمانية جامعة لتلك الجماعات من سكان أقاليمها، إلا أنه عمدت إلى تنظيم العلاقات بينها كدولة وبين جماعات بشرية متنوعة⁽³⁾، عرقيا ولغويا ودينيا ومنتشرة في ثلاث قارات العالم القديم، من خلال اقتباسها النظم الحاكمة القديمة (الفارسية، والعربية الإسلامية والبيزنطية) وتطوير نظام الملل للدولة المملوكية في مصر والشام.

كانت الشعوب المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية تتعاطى نظام الملل العثماني منذ عهد السلطان محمد الفاتح وخليفته سليمان القانوني، والذي ظل ساريا حتى أجريت عليه بعض التعديلات في إطار سياسة التنظيمات

1- محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، 1996، ص 110.

2- ساطع الحصري: الأعمال القومية لساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 95.

3 - Auleneau. J: La Turquie et la Guerre, Paris, 1915, p 22.

الخيرية في ثلاثينات القرن التاسع عشر الميلادي، متماشية مع النظم الأوروبية الإدارية والعسكرية وحتى الاجتماعية منها، لتقضي على أدوات الدولة العثمانية في الحكم والاقتصاد والتعليم التي لازمتها طيلة أربعة قرون هي عمر الدولة وقتئذ، فعمدت إلى القضاء على الانكشارية وإحلال محلها جيش إمبراطوري على أحدث النظم العسكرية الأوروبية، وقضت على الإقطاع ونشرت التعليم مما أتاح الفرصة لظهور الطبقات المتوسطة البرجوازية المتنورة⁽¹⁾، والتي سرعان ما تسلي لها قيادة طبقات المجتمع في مواجهة الحكم الأوتوقراطي الاستبدادي والأطماع الاستعمارية.

وقد تجلّى ذلك بداية في ظهور فئة من المثقفين الشباب الذين اطلقوا على انفسهم اسم "العثمانيون الجدد أو شباب العثمانيين"⁽²⁾، من أبناء الأسرات البارزة في النخبة العثمانية ومن موظفي الحكومة، وكانوا قد تلقوا تعليمهم وفق الأساليب العلمانية الحديثة، أو أرسلوا إلى الخارج، ولكنهم لم يشغلوا المكانة التي كانت تؤهلهم لها ثقافتهم وخبرتهم في البيروقراطية الجديدة، مما جعلهم مناوئين للنظام القائم بحيث سعوا إلى استغلال الصحافة في خلق رأي عام عثماني، وإدخال مفاهيم مثل البرلمانية والوطنية والقومية في وعي العثمانيين، ولقد اصدر العثمانيون الشبان في البداية، البيانات الأدبية المستوحاة من الفكر الأوروبي وكان أبرزهم⁽³⁾: "إبراهيم شنازي 1826/ 1871م، وضياء باشا 1825/ 1880م، ونامق كمال 1840/ 1888م"، وكان هذا الأخير أبرزهم على الإطلاق، وقد نشرت أشعاره ومقالاته بالحرية والوطنية (وهما من أفكار الثورة الفرنسية) اللتين أظهرهما في ثوب إسلامي، وطيلة حياة نامق كمال كان متمسكا بالقيم والمعتقدات الإسلامية التقليدية، وأحيانا يوجه النقد الشديد إلى رجال التنظيمات لفشلهم في المحافظة على أحسن ما في التقاليد الإسلامية وجعلها أساسا للنظم الجديدة بدلا من استيرادها برمتها من أوروبا⁽⁴⁾.

لقد نشر حاول نامق كمال ورفاقه أن أفكارهم عن طريق تربية الرأي العام على النمط الأوروبي، ومن ثم اهتمامهم بإنشاء الصحف الجديدة، منها جريدة "ترجمان أحوال الأسبوعية"، و"الحوادث الأسبوعية"، و"مرآة اليومية" و"مخبر" و"عين وطن" الخ، كما أصدرت كتباً وتمثيلات جرى عرضها على المسارح الجديدة، وأنشؤوا جمعية "شباب العثمانيين" عام 1865م⁽⁵⁾.

إلا أن هؤلاء الليبراليين كانوا أكثر محافظة من رجال التنظيمات، خاصة وأنهم شعروا أن الإصلاحات الراديكالية على النمط الغربي التي جرى إدخالها منذ عام 1839م قد ضعفت الأساس الأخلاقي الأيديولوجي

1 - Mandelstam. A : **LA Turquie**, Paris, 1918, p 56.

2- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط 3، 1998، ص 225.

3- المرجع نفسه، ص 225.

4- Seignobose Capit: **Turcs Et Turquie**, Paris, 1920, p 23.

5- Mandelstam. F: **bey Etude sur la Crise Ottomane Actuelle 1914-1915**, Geneve, 1915, p 84.

للمجتمعات العثمانية دون أن تقدم بديلا مناسباً، وحين نادوا من جديد على الإسلام بهدف ملء الفراغ، أصبحوا أول مفكرين مسلمين يحاولون التوفيق بين النظم السياسية الغربية من ناحية، وبين النظريات والممارسات الإسلامية العثمانية، وقد أكدوا على المظاهر التقدمية للإسلام⁽¹⁾.

2- مراحل ظهور التيارات القومية التركية:

إذا ما أردنا تتبع سير التيارات القومية التركية، وجب علينا ان نستعرض مظاهرها في ثلاثة ادوار:

- الدور الأول الذي يمتد من بدأ حركة التنظيمات إلى حين انقلاب الدستور وتأسيس مشروطية الحكم حسب تعبير الأتراك سنة 1908م. كانت اثار الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين قليلة، ضعيفة ومتغيرة، أنه تجلت في كتابات بعض الأدباء والمفكرين لكنها لم تستطع أن تحدث تياراً مؤثراً في الحياة الفكرية والسياسية.

- أما الدور الثاني الذي يمتد من بدء حركة التنظيمات إلى انقلاب المشروطية العثمانية إلى إعلان الجمهورية التركية. فقد أخذت الفكرة شكل تيارات قوية واضحة، وصار القائلون بها يبذلون جهوداً متواصلة لتنظيمها من جهة ولنشرها من جهة أخرى، فألفوا الجمعيات وأسسوا النوادي، وأصدروا المجلات إلا أنه م في البداية لاقوا معارضة شديدة من بعض البيئات لأن جماعة من الكتاب والمفكرين كانوا يعارضون فكرة القومية التركية باسم الإسلامية لأنهم كانوا يذهبون إلى أن النعرات القومية منافية لمبادئ الإسلام بوجه عام⁽²⁾.

وجماعة أخرى من المفكرين كانوا يعارضون فكرة القومية التركية باسم العثمانية لأنهم كانوا يعتقدون أن انتشار هذه الفكرة يؤدي إلى تفكك الروابط التي تربط الأقاليم العثمانية، وتسبب انقراض السلطنة.

لكن الفكرة القومية تغلبت على كل هذه العقبات، ومما يجدر بالذكر أن الوقائع السياسية والحربية التي توالى على السلطنة العثمانية بسرعة كبيرة ساعدت على هذه العقبة مساعدة كبيرة حيث أنه ١ - الحروب - أدت إلى انفصال العديد من الدول والولايات التي تضم الألبان، والصرب والبلغار، والعرب عن الدولة العثمانية، بحيث لم تبق سوى الولايات التركية البحتة فأصبحت الدولة تركية فعلاً.

1- Mandelstam. F: op. cit, p 84.

2 - Zohre Bilgegil: **M kaya Bilgegil in Makaleleri**, Ankara, 1931, p 81.

- أما الدور الثالث الذي بدأ بإعلان الجمهورية التركية⁽¹⁾. كانت السلطنة العثمانية قد زالت من عالم الوجود بصورة رسمية، تاركة محلها للجمهورية التركية التي أخذت على عاتقها إتمام تترك الشعب والحكومة وتحقيق كل ما تقتضيه فكرة القومية التركية، وفق خطط مرسومة مستندة إلى قوانين وأنظمة جديدة⁽²⁾.

3- الجمعيات والمؤسسات الداعية إلى التترك:

بلغت سلطة السلطان عبد الحميد الثاني أوجها في السبعينات من القرن التاسع عشر، وبدأت الأجيال الصاعدة في الدولة العثمانية تتحقق من بزوغ مشكلة جديدة، ألا وهي الحد من سلطة السلطان الاستبدادية، وكانت أحسن وسيلة بالنسبة لهم لحل كل هذه المشكلة هي إتباع نظريه وتجربه أوروبا، غير ان الروح التي أخرجت هذا الدستور إلى حيز الوجود لم تبقى طويلا، فأقصى السلطان مدحت باشا من الحكم الذي كان المخطط الرئيسي للدستور والنموذج المثالي للطبقة التركية الجديدة والهادفة إلى الإصلاح وفي عام 1878م انتهز السلطان الحرب مع روسيا وألغى الدستور⁽³⁾.

وبينما أخذت قوة السلطان تزداد وتنمو داخل الدولة العثمانية أخذت حدود هذه الدولة تتقلص وتنكمش، وتمكنت فرنسا أن تفرض حمايتها على تونس عام 1881م، وفي عام 1875م اشترت إنجلترا أسهم قناة السويس، ومنيت الدولة العثمانية خسائر كبيرة في البلقان، كما حدث منذ مؤتمر برلين عام 1878م تغيير جوهري في سياسة بريطانيا اتجاه الدولة العثمانية فتحولت من سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية إلى رغبة في تقسيم أملاك هذه الدولة، فاحتلت مصر فعلا في 1882م⁽⁴⁾.

وقد أدى الاستياء من حكم السلطان عبد الحميد وتفتيت الدولة العثمانية إلى تطور حركات المعارضة والتي بدأ أعضاؤها في تنظيم أنفسهم منذ عام 1889م.

أ- تركيا الفتاة:

تعود هذه الحركة إلى جهود الطبقة المتوسطة المثقفة ثقافة غربية والتي تعرف عند الغرب بمصطلح الانتلجنسيا⁽⁵⁾. ترجع حركة تركيا الفتاة إلى عهد السلطان عبد العزيز (1861-1876) الذي كان مستبدا

1- أبو خلدون ساطع الحصري: المرجع السابق، ص 96.

2- المرجع نفسه، ص 98.

3- علي شعيب: كمال أتاتورك، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992، ص 9-10.

4- المرجع نفسه، ص 10.

5 - Kohn Hans: Nationalism and Imperialism in the Hither East, London, 1932, p 19.

فعطّل حركة التنظيمات وكان سبب قيام الحركة، أنه لا بد من وجود قوة من العناصر الوطنية تفرض الإصلاح، فرضا على السلاطين الذين لا يجب أن يترك مصير حركة الإصلاح في أيديهم، ومن ناحية أخرى يدل على بداية إحساس الطبقة الوسطى بقوتها الذاتية وحاجتها إلى التعبير عن نفسها⁽¹⁾.

نشأت هذه الحركة في البداية كحركة أدبية ولقد عبرت هذه الحركة عن نفسها أول الأمر في الأدب، فبدلاً من النماذج الفارسية والعربية أخذ الاتجاه يظهر نحو تقليد النماذج الأوروبية وبخاصة منها الفرنسية، كانت الحركة الرومانتيكية في الأدب التركي مع أنه لم تملك قوة تأثير كبيرة، إلا أن أهميتها تأتي من أنه كانت انعكاساً، كما أنه ساعدت في نفس الوقت على تقوية الاتصال بالحياة الثقافية الغربية⁽²⁾.

ومما يؤكد ذلك تأثير الأتراك الشبان وإعجابهم بأفكار الثورة الفرنسية ومبادئها، وأن كثيراً منهم كان يتهاافت على مشاهدة الفرنسيين في استانبول، بل إن الحماسة بلغت ببعضهم إلى حد تزيين عمامتهم بشعار هذه الثورة⁽³⁾. وكان منتصف القرن التاسع عشر قد تأثر بآداب ولغات أوربا في التربية والتعليم، وتعلم كثير من الأتراك الشبان اللغة الفرنسية لكونها لغة سياسية وعشقوا آدابها واستهوتهم أفكارها، وكانت مدعاة للفخر لمن يجيد كثيراً أو قليلاً منها⁽⁴⁾. ولم يكن الأتراك الشبان قد تأثروا فقط بالثورة الفرنسية وأفكارها ومبادئها وإنما كانوا قد تأثروا أيضاً بالحركة القومية الإيطالية التي قادها جوزيف مازيني مؤسس جمعية إيطاليا الفتاة عام 1831م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية⁽⁵⁾. وكان من بين هؤلاء الذين ساروا على النهج الفرنسي وأعجبوا بفلسفته وأدبه أحد الشباب التركي وهو إبراهيم شنازي الذي تعلم في باريس وترجم سنة 1859م الكثير من الشعر الفرنسي إلى اللغة التركية، وأسس في الدولة صحيفة "تصوير أفكار"⁽⁶⁾. ويعد إبراهيم شنازي أول المشاركين في تحرير صحيفة تركية غير رسمية وهي صحيفة "ترجمان أحوال" بعد عام 1870م وكانت صحيفة أفكار تم تحريرها بمساعدة العديد من المثقفين، ولكن الصحيفة لم تستمر في الصدور وأغلقت أبوابها سنة 1866م، بعد أن أصدرت 830 عدداً⁽⁷⁾.

1 - Yusuf Akcura : **uc Tar z-i Siyaset**, Istanbul, 1995, p 37.

2- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 248.

3- علي سلطان: **تاريخ الدولة العثمانية**، منشورات مكتبة طرابلس العالية، طرابلس، د-ت، ص 320.

4- حسين ليب: **تاريخ المسألة الشرقية**، مطبعة الهلال، مصر، 1921، ص 91.

5- علي محمد الصلابي: **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2001، ص 451.

6- حسين ليب: المصدر السابق، ص 91.

7- عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون 1516-1916، ط3، مكتبة أطلس، دمشق، 1993، ص 381. أنظر أيضاً:

Serif Mardin: **The Genesis of young ottoman thought astudy in the Modernization of Turkish political idea**, princeton, New York, prin ceton University press, 1962, p 260.

ظهرت في كتابات الأتراك تعبيرات جديدة كالحرية الفردية والحياة النيابية، ثم تحولت بعد ذلك إلى حركة سياسية وطابعها الأساسي قومي، إذ بدأ أعضاؤها يدركون ضرورة عدم توقف الإصلاح في الدولة العثمانية، إلا أن هذه الحركة لم تستطع أن تمارس نشاطها بحرية بسبب تضيق الحكومات العثمانية عليها خاصة بعد تولي السلطان عبد العزيز الحكم، الذي بدأه باتجاه أوتوقراطي استبدادي، مما دفع عناصرها للمهجر، حيث اتخذت لها مقرات في لندن وباريس منذ عام 1860م، وفي عام 1864م ظهرت أول جريدة معبرة عن اتجاه الأتراك الأحرار، تسمى " الحرية " ترأس تحريرها رفعت بك⁽¹⁾.

وقد قامت هذه الطبقة في محاوله فاشلة عام 1876 لتحقيق الحياة النيابية في الدولة العثمانية، ولكن هذه المحاولة لم تستمر إلا لفترة قصيرة، لذلك عادت هذه الطبقة إلى الكفاح والنضال السري من أجل إعادة الدستور والحياة النيابية المعطلة. وقد سميت هذه الحركة "بحركة تركيا الفتاة" وهي تسمية تعني تركيا الحرة أو الليبرالية، وتقابل تسمية تركيا لتقدمها تركيا المحافظة⁽²⁾.

لقد استمر نشاط هذه الجمعية محصوراً في الكتابة والنشر، وفي هذه الأثناء ظهرت مسرحية "الوطن" للكاتب التركي نامق كمال والتي كان لها دويها هائلا في أوساط المتعلمين لاسيما المدارس العسكرية والتي منع السلاطين العثمانيون تداولها في ولايات الدولة⁽³⁾.

ويجب الإشارة هنا إلى أن الحركة الوطنية التركية لم تهدف أبداً في كافة مراحل نموها قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى تصفية الإمبراطورية العثمانية، بل على العكس كانت تهدف إلى زيادة قبضة السلطة الحاكمة عليها عن طريق الإصلاح⁽⁴⁾، بإقامة حكم دستوري فيها، حتى تستطيع الصمود في وجه الأطماع الغربية، وإرضاء القوميات الثائرة داخلها. وكان مدحت باشا قائدا لهذه الحركة تركيا الفتاة إلى حركة سرية داخل البلاد وعلنية خارجها من أجل إعادة العمل بالدستور⁽⁵⁾. وهو موقف أدى إلى زيادة اصطدام القومية التركية التي تمسكت بسيطرتها في

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 248.

2- السيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، المرجع السابق، ص 46.

3- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ط2، ج2، مكتبة الأجلو المصرية، 1986، ص 1005. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي: المرجع السابق، ص 248. أرنست رامزور: تركيا الفتاة والثورة 1908، ترجمة أحمد صالح العلي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1960، ص 40.

4-Ramsour Enest Erdmond: op. cit, p 41.

5- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 40-41.

داخل الإمبراطورية مع القوميات الأخرى ولا سيما العربية والأرمنية⁽¹⁾. وكانت أفكار الأدباء والأحرار في فرنسا مثل جان جاك روسو ومونتسكيو قد ترجمت وانتشرت بين المثقفين العثمانيين⁽²⁾.

ويعتبر نامق كمال الزعيم الروحي للشبان الأتراك، وكان أول من استخدم مصطلح الترك Turk، عندما تحدث عن إنجازات ومساهمات الأتراك في العلوم الإسلامية خلال القرون الوسطى⁽³⁾، ومن ثم دخل مصطلح الترك ومشتقاته إلى المطبوعات والمنشورات العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني واستخدمته صحيفة الترقى المتخصصة في المصالح الشرقية والشئون الدولية، وهناك صحيفتان صدرتا في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني وهما "ميزان" و"إقدام" اللتان ظهرتتا سنة 1886-1894م على التوالي واعتبرت أنه تركية⁽⁴⁾. وإلى جانب نامق كمال، كان الأمير مصطفى فاضل⁽⁵⁾ الذي كان متأثراً ومعجباً بتنظيم ألمانيا الفتاة وإيطاليا الفتاة⁽⁶⁾.

وهناك آراء متباينة بين المؤرخين حول الفترة الزمنية لنشأة تركيا الفتاة، فبعض المؤرخين يرجع تأسيسها سنة 1862م، حينما تولى مصطفى فاضل نظارة المعارف في عهد السلطان عبد العزيز⁽⁷⁾، وقد سمي هؤلاء بـ "جون ترك" أي الأتراك الشبان أو تركيا الفتاة⁽⁸⁾، كما أن مؤرخين آخرون يرجعون أصول هذه الحركة إلى سنة 1865م، 1868م وهناك من يعتبر نشاطها قبل ذلك بسنتين⁽⁹⁾. لكن هناك من يرجح أن تأسيسها كان في سنة 1865م، ويرجع ذلك إلى أن الأتراك الشبان المؤسسين لها كانوا متأثرين بالفكر القومي الأوربي لاسيما جهود القوميين الإيطاليين والألمان البروسيين والذين نجحوا أخيراً في بناء الوحدة الإيطالية والاتحاد الألماني، وبالتالي رأوا أنه من الضروري تأسيس حركتهم في تلك الفترة والنهوض بالدولة العثمانية ومواجهة التحديات التي تهددها وتشكل خطراً عليها.

1 - Ramsour Enest Erdmond son : op. cit, p 41.

2 - باسيل دقاق: تركيا بين جبارين، ط1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1947، ص 11.

3 - Altmur Kilic: **Turkey and the World**, Washington public Affairs press, D.C, 1989, p 16-17.

4 - David Kushner: **The Rise of Turkish Nationalism 1876-1908**, London, Frank Cass, 1977, p 94.

5 - مصطفى فاضل (1839-1875) شقيق الخديو إسماعيل في مصر، ذهب إلى إستانبول بسبب خلافات شخصية مع إخوته، ويعتبر من المؤسسين الأوائل لتركيا الفتاة مع إبراهيم شناسي ونامق كمال، والتي غدت فيها النواة الأساسية لجمعية الاتحاد والترقي. أنظر: أرست رامزور: المرجع السابق، ص 40. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج2، ص 1005.

6 - Erik Zurcher: **The Unionist Factor, The Role of the committee of union and progress in the Turkish National Movement 1905-1926**, Leiden, E. T. brill, 1984, p 6.

7 - يوسف أضاف بك: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص 124.

8 - ولي الدين يكن: **المعلوم والمجهول مصر**، ج1، مطبعة الشعب، 1909م، ص 80.

9 - باسيل دقاق: المصدر السابق، ص 11.

وفي فيفري عام 1867م نشرت جريدة بلجيكية اسمها (Le Nord) أي الشمال، أنباء تقول "إن مصطفى فاضل أنشأ مؤسسة مصرفية في الدولة العثمانية، فأرسل الأمير إلى الجريدة تكذيباً لهذا النبأ وأشار إلى أنه من مؤيدي جمعية تركيا الفتاة، وقد أعادت نشر هذا التكذيب جريدة (Courriet de orient) التي تصدر في بيرا، وهي إحدى ضواحي استانبول. وكان رئيس تحريرها على علاقة طيبة بأحرار الدولة، وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية، وجاء اسم الجمعية في الترجمة التركية على هذا النحو "يكي عثمانلي لر" ومعناها العثمانيون الجدد أو الشبان⁽¹⁾.

والواقع أن حركة تركيا الفتاة قد ولدت في عام 1889م عام الذكرى المئوية للثورة الفرنسية، أول عمل جدي في جدي في حركة تركيا الفتاة بالعاصمة، ذلك أن عدداً من طلاب مدرسة الطب العسكري في اسطنبول يشكلون جماعة سرية في الداخل وعلنية في الخارج، وهدفها معارضة للنظام عبد الحميد الثاني وخلعه، يسمونها لجنة الاتحاد العثماني وتنظم الجماعة نفسها في خلايا على غرار الكاربوناري أو ربما على غرار العدميين الروس، ومنذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضواً واحداً من أصل تركي خالص فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة⁽²⁾، وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً، أما أحمد رضا فقد كان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجرياً، كما أن اليهوديين نسيم روسو ونسيم مازلياج كانا من العناصر المؤسدة والفعالة في حركة تركيا الفتاة، كما أكدت الأحداث المعاصرة عظم نفوذ اليهود وكثرتهم الغالبة في هذه الحركة⁽³⁾، ويعتبر إيمانويل قارصو من أهم الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في حركة تركيا الفتاة، أيضاً وهو يهودي إسباني الأصل، كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وقد وصفته المصادر الأجنبية بأنه من قادة الاتحاد والترقي، ومن بين أوائل المنتمين إليها يبرز عرب مسيحيون وألبانيون وأكراد وأتراك، وخلال الاجتماعات يجري الحديث عن الثورة الفرنسية وتتلى قصائد نامق كمال ويجري تحليل الوضع في الإمبراطورية، وبما أن الطلاب المنتمون إلى حركة تركيا الفتاة لا يملكون خبرة كافية، فأنهم يطمحون إلى تطبيق الأفكار التي تعلموها على مقاعد المدرسة⁽⁴⁾.

1- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج2، ص 1005.

2- أرنيست رامزور: المرجع السابق، ص 49-50. عبد المسيح أنطاكي: المصدر السابق، ص 177.

Pinon Rene: *L' Europe et les Jeunes Turcs*, Paris, 1913, p 65.

3 - رفيق شاعر التنشة: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991، ص 116.

4 - روبري مانتان: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج 2، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص

228. السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية 1891-1908، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص 98.

Tawley Donalpd: *the Turcial States*, London, 1970, p 78.

وبعد بدايات متواضعة سوف تنتشر اللجنة في الدولة العثمانية، أولاً بين صفوف طلاب المدارس العليا في العاصمة، الأكاديمية الحربية، مدرسة الطب البيطري، مدرسة الإدارة، الأكاديمية البحرية، لكنها تجند أعضاء أيضاً من بين صفوف الضباط العاملين بالفعل في الجيش ومن بين صفوف العلماء والشواهد عديدة على المناخ قبل الثوري الذي يهيمن في هذه المدارس حيث تتزايد أعمال العصيان وحيث يهتف الطلاب حريتهم " يحيا الدستور " بدلا من " يحيا السلطان"⁽¹⁾.

كما تنتشر حركة تركيا الفتاة خارج الدولة العثمانية، بين صفوف الناقمين العديدين الذين اضطروا إلى الهرب من الرقابة أو من الإبعاد إلى إحدى مدن الولايات البعيدة، وهكذا وجدت خلايا تتشكل مع مرور الوقت في القاهرة وفي رومانيا وفي لندن وبوجه خاص في باريس وفي جنيف، والواقع أنه لا توجد حركة تركيا الفتاة، بل نوع من السديم الذي يشمل جماعات صغيرة معزولة أحدهما على الأخرى ومنتظمة إلى هذا الحد أو ذاك حول أحدى الصحف أو أحدى الشخصيات⁽²⁾.

وأخذت هذه الحركة تهاجم حكم عبد الحميد الاستبدادي وتنادي بوضع الدستور، وكانت الصحف التي يحررها أعضاء الحركة تصل إلى داخل الإمبراطورية بواسطة البريد الأجنبي الذي كان يتمتع بامتيازات خاصة، ثم توزع سرا في جميع أنحاء الإمبراطورية⁽³⁾، ومن هذه الصحف "مشورت" التي كانت تصدر في باريس منذ عام 1895م كل أسبوعين باللغة التركية مع ملحق لها باللغة الفرنسية. وكان يحررها كل من خليل غانم وهو عربي من لبنان، وأحمد رضا التركي، الذي قدر له فيما بعد أن يصبح من أشهر رجال تركيا الفتاة في أوروبا ثم رئيسا لمجلس النواب عام 1908م⁽⁴⁾.

وفي الثالث من ديسمبر عام 1895م نشرت "مشورت" أهداف جمعية الاتحاد والترقي بعنوان "منهجنا" ركزت فيه على المصلحة العامة لكل العثمانيين، وليس لمصلحة قومية دون أخرى، كذلك معارضة التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية، وتقويتها بالأخذ من الحضارة الغربية مما يناسب الحضارة الشرقية⁽⁵⁾، وفي القاهرة صدرت صحيفة أخرى للجمعية بعنوان "ميزان" الذي كان يحررها مراد بك عام 1895م، ثم انتقل بها إلى باريس في

1 - Francais Georgeon: **Turk Milliyetçiliginin Koken Leri Ysuf Akcura 1876-1935** **Geviren**, Alev ER, Ankara, 1986, p 198.

2 - محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 250.

3 - Robison Richard, op. cit, p 6.

4 - Lewis B, op. cit, p 193.

5- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 57.

العام التالي ليصبح قائدا فكريا آخر لجمعية الاتحاد والترقي في المهجر، إلى جانب احمد رضا الذي كان بدوره يشكل جناحا قياديا للجمعية⁽¹⁾.

ومع أن هذه الحركة في المهجر كانت تبدو قوية وبعيدة عن متناول السلطان، إلا أنه لم تكن كذلك في داخل الإمبراطورية، حيث أصابها كثير من الضعف نتيجة لكشف السلطان تنظيماها السرية التي كانت تعد لانقلاب ضده. ففي عام 1897م محاكمه المتهمين وتم نفي عدد كبير منهم إلى خارج العاصمة، وأرسل الأشد منهم خطرا الى طرابلس الغرب⁽²⁾، وتبع ذلك مغادره الأعضاء البلاد إلى مقر الحركة في المهجر وخاصة باريس⁽³⁾.

وقد ظهر على مسرح الأحداث مدحت باشا أحد رموز تركيا الفتاة رغم عدم صلته المباشرة بنشاطها الدائر في لندن أو باريس كنموذج مثالي للطبقة المثقفة ثقافة غربية الهادفة إلى الإصلاح، ولقد اشتهر كحاكم للولايات الأوروبية أولا، ثم ازدادت شهرته منذ تولي الباشوية في بغداد، ثم عينه السلطان عبد العزيز عام 1873م صدرا أعظم، وكان إمام مدحت باشا أحد أمرين، فأما أن يساير السلطان عبد العزيز الذي شهدت الإمبراطورية في عهده الانهيار الاقتصادي والإفلاس، ويغض الطرف عن الإضرابات والفوضى في الحكومة العثمانية، وأما أن يحاول وضع حد لها، وذلك أولا بوضع حد للاستبداد السلطان عبد العزيز، بإصدار الدستور⁽⁴⁾، وتحديد مسؤولية الوزراء أمام الشعب، وقد اختار مدحت باشا الطريق الثاني، ساعده في ذلك ثورة البلغار والصرب ضد الدولة، وعجز ميزانية الأخيرة وإفلاسها، وزيادة التدخل الأوروبي في شؤونها، وهكذا تحرك مدحت باشا مستندا إلى تأييد ضباط الجيش، وعزل السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخامس والذي كان متعاطفا مع تركيا الفتاة، ولما كان الأخير متهم بالاضطراب العقلي فقد تم عزله وجيء بأخيه عبد الحميد الثاني سلطانا بشروط مدحت باشا في أن يقبل السلطان الجديد فكرة الحكم الدستوري، وأعلن الدستور أو المشروطة الذي كان قد عده مدحت باشا واقره عبد الحميد الثاني في 23 أوت عام 1876م⁽⁵⁾.

غير أنه سرعان ما اتضح لمدحت باشا أنه أساء اختيار السلطان الجديد، فقد كان عبد الحميد مستبدا كل الاستبداد، بدأ حكمه بتعطيل البرلمان والدستور وعزل مدحت باشا وقاوم كافة الاتجاهات المتحررة في جميع

1 - Armajani Yahya, op. cit, p 239.

2 - ظلت طرابلس الغرب، طوال عهد عبد الحميد المنفى الأنموذج لأولئك الأشد خطورة. أنظر:

F.O. 371/9928 , Tel. No. 255, From Sir N. O'conor to Sir Edward Grey, 23 April 1906.

3 - Lewis B, op. cit, p 194.

4 - Ezel Erverd: **Ve Baskalari Turk Milliyetçiligi ve Batililasma**, 2. Baski, Istanbul, 1979, p 58.

5- Haje Khalefah: **the History of the Maritime Wars of Turks**, London, 1831, p 89.

الولايات وخاصة ناشطي تركيا الفتاة، عن طريق شبكة واسعة النطاق من الجواسيس، متخذًا شعار الجامعة الإسلامية ستارا لاستبداده وحكمه المطلق الذي دام ثلاثة عقود⁽¹⁾.

وكان من نتيجة هذا الانقلاب الحميدي، أن اضطرت حركة تركيا الفتاة إلى النشاط السري وانتقلت كوادرها إلى المنافي في أوروبا، حيث أصدرت الصحف في فرنسا وسويسرا وبريطانيا ومصر بوجه خاص.

وقد بلغ عدد الصحف التي أصدرها الأحرار باللغة التركية، خارج حدود السلطنة أكثر من مائة، يبدو أن ثلثها كان يصدر في القاهرة.

وبعد اكتشاف اعضاء الجمعيات السرية، ازدادت إجراءات النفي إلى الولايات البعيدة الأناضول والموصل وسوريا، في حين كان المعارضون يبعدون إلى واحة فزان بجنوبي ليبيا، وانضم إلى الثوار أفراد من الأسرة الحاكمة: الأمير "محمود جلال الدين" وابناه "صباح الدين" و"لطف الله"، وقد أدى انضمام جلال الدين وابناه إلى الحركة الثورية، إلى انقسام الثوار ما بين جمعية "تركيا الفتاة" التي اتجه أعضاؤها إلى المركزية، بسبب تزايد الإخطار الناجمة عن القوميات والنشاط الأوروبي، وبين جمعية "التشبث الشخصي وعدم المركزية والمشروطية"، وهذه الأخيرة كانت تحت زعامة الأمير صباح الدين، وقد افتتحت كلا الجمعيتين فروعا في المهجر وفي داخل الدولة العثمانية، ويبدو أن جمعية "التشبث الشخصي وعدم المركزية والمشروطية" كانت تمثلها في العاصمة "جمعية انقلابية" التي تأسست عام 1904م وكان محكوما عليها بالفشل منذ البداية، فمسيحيو الدولة لم يجدوا ما يجتذبهم إلى اللامركزية العثمانية وفضلوا السعي إلى أمانهم السياسية عن طريق الكفاح في سبيل الاستقلال، مما قوى حركة القومية التركية الناشئة⁽²⁾.

وتتميز سنوات 1895-1897م بتطور سريع لأنشطة جماعة تركيا الفتاة في داخل الدولة العثمانية وخارجها، وفي أوروبا نجد أن الرأي العام جد المتصاعد ضد عبد الحميد بسبب سياسته العقيمة ضد الأرمن، يؤيد المعارضة التي تمثلها حركة تركيا الفتاة⁽³⁾.

وقد ظل أعضاء تركيا الفتاة في باريس مجهلون وجود الجمعية العثمانية للحرية في داخل الإمبراطورية حتى سبتمبر عام 1907م، حيث جرت اتصالات بين لجنة الاتحاد والترقي التي يقودها في باريس أحمد رضا ولجنة سالونيك، وفي شهر سبتمبر تقرر المنظمتان أن الانصهار في منظمة واحدة، التي اتخذت اسم "الاتحاد والترقي"،

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 93. لوتسكي: المرجع السابق، ص 395.

-Jacop Landau: **Pan Turkism Mturkey**, A study of irredentism, London, 1981, p 61-62.

2 - أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 260.

3 - Sanger R: **the Arabian Peninsula**, New York, 1954, p 86.

وتضمنت الوثيقة أن جمعية عثمانلي ترقى واتحاد والتي مركزها باريس وجمعية عثمانلي حریت التي مركزها سالونيك قد اتحدتا باسم "عثمانلي ترقى واتحاد جمعيتين"، ويقوم المقر الخارجي بواجب تمثيل الجمعية للعالم الخارجي، ووسائل النشر العام هي⁽¹⁾: "صحف مشور أي أمت التركية"، و"مشورت الفرنسية"، والواقع ان لجنة سالونيك هي التي تهيم منذ ذلك الحين على حركة تركيا الفتاة، التي ينتقل بذلك مركزها من العواصم الأوروبية إلى سالونيك، ومن جهة أخرى في نفس السنة يجمع مؤتمر ثاني لحركة تركيا الفتاة في باريس جماعة احمد رضا وجماعة صباح الدين إلى جانب مناضلي حرب الداشتاق الأرمن، والغرض الرئيسي من هذه الخطوة الاتحادية هو إعادة إحياء دستور مدحت باشا، وإزالة الحكومة الحالية للامبراطورية واحلال حكومة تمثيلية محلها بأسرع السبل، سواء كانت ثورية أو غير ذلك مع تأكيد بشكل متزايد فكرة انقلاب عسكري⁽²⁾.

ب- جمعية الاتحاد والترقي:

كانت جهود شهود الشبان الأتراك أو العثمانيون الجدد بقيادة مؤسسيها الأوائل إبراهيم شناسي، ونامق كمال، ومصطفى فاضل تركزت في وضع الأسس الهامة لجمعيات سياسية سرية مناهضة لسياسة الدولة العثمانية، واستمرت تركيا الفتاة تعمل خلال فترة حكم السلطان عبد العزيز ولم يستطع إيقاف نشاطها السياسي السري. بل استمرت بعد مرور عقد من الزمن بالهجوم على مقر جراغان، الذي دبره علي سعاوي أحد الثوار، بقصد إخراج مراد وتنصيبه بالقوة سلطانا مرة أخرى بدلا من عبد العزيز⁽³⁾، غير أن الأمر قد اختلف منذ تقلد السلطان عبد الحميد العرش عام 1876م وإصداره الدستور الذي لم يعمل به سوى أشهر معدودة حيث انصدع شملهم، ولم يبق منهم إلا من غلب عليه الخوف فأثر السكوت على مضض، أو فتنه المال فاختار النفاق⁽⁴⁾. وانتقلت أفكار الحرية والدستور والحياة البرلمانية وغيرها من الأفكار إلى الأجيال الجديدة في الكليات التخصصية في العاصمة إستانبول، ومن أهمها "كلية الخدمة المدنية" و"الكلية الحربية" و"الكلية البحرية" و"الكلية العسكرية". وقد بلغ عدد الكليات مع نهاية القرن التاسع عشر حوالي ثمان عشرة كلية⁽⁵⁾.

1 - روبير مانتزان: المرجع السابق، ص 230، 237.

2- سمية وهبة المناوي: تركيا بين هدنة مدرّوس 1918 وإلغاء الخلافة 1924، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1992، ص 11.

3- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة محمد حرب، دار الأنصار، القاهرة، 1978، ص 5.

4- ولي الدين يكن: المصدر السابق، ص 42.

5- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج3، ص 1161.

- Erik.J.Zurcher : op. cit. P 12.

تأسست جمعية الاتحاد والترقي في عام 1865م، زمن السلطان عبد العزيز، وكانت تضم 245 عضواً، أكثرهم من ضباط الجيش والموظفين، وبينهم أميران من الأسرة العثمانية، وكان من ضمن مؤسسيها إبراهيم تيمور وهو من طلاب المدرسة الطبية العسكرية السلطانية، وعبد الله جودت من خربوط، ومحمد رشيد من قفقاسيا، وحسين زاده علي من باكو، وإسحاق سكوتي من ديار بكر، وعلي حسين. وكان الاسم الأول للجمعية "جمعية عثمانية اتحاد وترقي". وكان من بين أول من دخلها أناس مثل أصاف درويش باشا وسليمان أمين باشا وإسماعيل صفا بك وناجي باشا. وقام إبراهيم تيمو بمساعدة زملائه هؤلاء بمطالعة المؤلفات السياسية التي كانت في أغلبها تعبر عن الأفكار الغربية ومنها كتب إبراهيم شناسي ونامق كمال⁽¹⁾. وتميز أداء أعضاء جمعية الاتحاد والترقي آنذاك بالسرية التامة خوفاً من جواسيس السلطان عبد الحميد الثاني التي كانت منتشرة هنا وهناك في أنحاء استانبول وبقية الولايات العثمانية، ومع ذلك كانت الدولة على علم بذلك التنظيم، وكانت تتجاذب أعضاء الجمعية تيارات مختلفة.

وبعدها انتقل نشاطهم السري من المدارس إلى الكليات الحربية، ثم إلى القطار الذي كان يأتي من باريس إلى محطة "سيركجي" والتي تقع قرب المدرسة العسكرية، حيث كانت تصلهم الأفكار الغربية. واستمرت الجلسات السرية للأعضاء خارج مدينة استانبول، في مقهى يملكها ألباني مؤيدا لهم يدعى "علوش أغا" وشارك في الجلسات السرية اثنا عشر عضواً، وكان من بينهم "عبد الله جودت"⁽²⁾ الذي كان مشهوراً بإلحاده وعداوته الشديدة للإسلام⁽³⁾. وضمت الجمعية خليطاً من أجناس وأديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك، ويليهم اليهود وانجذب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى. وتم انتخاب "علي رشدي هرسكلي" لمنصب رئيس الجمعية كونه أكبر الأعضاء سناً، كما انتخب "شرف الدين مغمومي" أميناً للسر وأصاف درويش أميناً للصندوق⁽⁴⁾. أما إبراهيم تيمو فلم ينتخب لإحدى هذه الوظائف، ولم يشارك في الاجتماع الثاني للجمعية هو وإسحاق سكوتي لأسباب أمنية⁽⁵⁾.

واتهمت الجمعية بمخالفة اليهودية والماسونية وغيرهما من المذاهب، ولكن أكثر أعضائها كان يناصر زعيم الجمعية الروحي مدحت باشا وينادي بتحديث وتقوية الدولة العثمانية القديمة، وإقامة دستور يكفل العدل

1- حسن كلشي: الوجه الآخر للاتحاد والترقي، تقديم وترجمة محمد الأرناؤوط، قدسية للطباعة والنشر، إربد، 1990، ص 21.

2- المصدر نفسه، ص 23.

3- محمد علي اورخان: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، ط1، دار الأنبار، العراق، 1987، ص 279.

4- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 176. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج3، ص 1004.

5- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 23-24. أرنس رانزور: المرجع السابق، ص 51.

والمساواة لجميع الأجناس والقوميات والديانات ويطالب برلمان يتألف من مجلسين: الأول ينتخبه الشعب، والثاني يعينه السلطان من بين الأعيان⁽¹⁾.

ورغم أن شعار العثمنة الذي رفعته جمعية تركيا الفتاة في أديباتها ونشاطها السياسي العلني والسري، كان يدعو لفكرة الوطن الأم، مع تساوي جميع الرعايا أيا كان جنسهم ودينهم أمام القانون، وتحرك الآمال القومية لدى المجموعات المسلمة من غير الأتراك في داخل الإمبراطورية، كل ذلك أدى إلى نمو الشعور بالكيان التركي وظهور القومية التركية⁽²⁾.

ومما ساعد على ذلك أن عددا من الأوروبيين المتخصصين في الدراسات التركية بدأوا يكتشفون ماضي الأتراك والدور الحضاري الكبير الذي لعبوه في آسيا الوسطى ودور لغتهم وثقافتهم في التاريخ، ويلفتون النظر إلى الشعوب المعاصرة التي تتكلم اللغة التركية خارج نطاق الإمبراطورية العثمانية في آسيا الوسطى ومنطقة الفولجا والقوقاز وإيران⁽³⁾، التي تزامنت مع تكوين طبقة متنورة من المسلمين الترك التتار في روسيا وازدهارها بفضل شخصيات مثل: علي حسين زادة (باكو)، يوسف أقجوار (قازان)، أحمد أغا أوغلو (قرباغ)، وقد استطاع هؤلاء التصدي لمعارضة التوجه الطوراني الآتية من الأتراك في تركيا⁽⁴⁾.

وهكذا وجد الأتراك من يملكون اعترازا بجنسهم وثقافتهم، في الوقت الذي قوي فيه الشعور القومي التركي في أحرى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أخذ الأتراك يربطون أنفسهم بحضارات السومريين الطورانيين والحثيين، على حين أن بعضهم الآخر امنوا بوجود جنس طوراني⁽⁵⁾، ينتشر في أوروبا وآسيا، وأن من الواجب تكتيل شعوب هذا الجنس في وحدات سياسية مترابطة، أما شعور العثمانيين بغيرهم من الأتراك فقد أثاره كذلك المهاجرون الأتراك الذين فروا من وجه التوسع الروسي في آسيا ولجئوا إلى الدولة العثمانية، وقاموا بنشر أفكار حول

1 - Seignobose Capit, op. cit, p 59.

2 - Mohammed f. Bey : **Etude Sur la Crise Ottomane Actuelle 1914-1915**, Geneve, 1915, p 72.

3- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 260-261.

4 - Islam Ansiklopedise : **Ioran maddeoi**, C. 12/2, Istanbul, 1988, p 111.

5- طوران هو الاسم الذي أطلقه الإيرانيون على البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من إيران، ولم تكن هذه الكلمة معروفة قبل عصر الفارسية الوسطى، وقد أطلقت هذه الكلمة فيما بعد على بلاد الترك، ويستخدم المفهوم السياسي للطورانية كمرادف للقومية التركية من جهة أو إشارة إلى الأقوام الطورانية التي تربط ببعضها البعض بصلبة القرابة من جهة أخرى، ولم يحدث قط أي توجه قومي أثناء فترة ازدهار الإمبراطورية العثمانية، إذ كانت أرفع المناصب في الدولة بأيدي أجناب دخلوا الإسلام حديثا، كان يتم جمعهم من أولاد النصارى عن طريق نظام الدوشيرمة، وكانت نظرية السلطان تجعل من غير الممكن تفضيل العناصر التركية على غيرهم من رعايا الدولة الآخرين من المسلمين، وكان لفظ الترك في الإمبراطورية العثمانية حتى القرن الثامن عشر الميلادي يحمل معاني القوي والجلف والفظ، إلا أن هذا اللفظ قد تغير مدلوله تماما مع ظهور حركة الاتحاد والترقي. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، ص 107-111.

الجامعة التركية في أوساط الطلبة وأسهموا في ظهور جمعية الاتحاد والترقي، التي تبلورت حولها حركة شباب الأتراك " تركيا الفتاة " الذين كانوا يعانون من الاضطهاد الحميدي واعتمد نشاطها ومحاربيها الذين نجوا من النفي إلى العمل السري⁽¹⁾.

وتأسيسا على ذلك فإن جمعية الاتحاد والترقي كانت واحدة من حلقات النشاط المطرد لاتجاه تركيا الفتاة الأدبي والسياسي، وفي ماي 1887م كون "كاظم نامي دور" وخمسة من رفاقه الطلاب في المدرسة الطبية العسكرية " جمعية الاتحاد والترقي " (اتحاد تركيا)، ويبدو أنه لم تستمر طويلا، وفي ماي عام 1889م كان أحد أعضائها " إبراهيم أونيمو " طالب شرکسي " محمد رشيد " واثان من الأكراد " عبد الله جودت وإسحاق سيكيوتي " ليعيدوا تكوين الجمعية من جديد " الاتحاد التركي "، وطالبوا ببرنامج الدستورية العثمانية وتغيير السلطان عبد الحميد بأحد أشقائه، السلطان السابق مراد الخامس أو محمد رشاد⁽²⁾.

ولعل ظهور هذه الجمعية في مدرسة عسكرية، وانتشارها فيما بعد بالمدارس العسكرية العثمانية الأخرى، يرجع إلى أن التعليم العسكري كان أنضج أنواع التعليم وأكثرها صلاحية في الدولة العثمانية (لم تنشأ جامعة القسطنطينية إلا عام 1900م) بينما ظلت هيئة العلماء تسيطر إلى حد كبير على المعاهد الدينية، كان التعليم العسكري الجديد يقوم على أسس أوروبية ولا سيما منها الفرنسية أولا، ثم الألمانية لاحقا⁽³⁾.

ومن ثم كانت المدارس العسكرية أكثر اتصالا بالثقافة الأوروبية، وهو أمر يفسر ظهور الاتجاهات الثورية فيها، ثم يضاف إلى تفسير هذه الظاهرة، دور الجيش العثماني في الحياة التركية، فهو لم يكن مجرد أداة للحرب فحسب، بل للحكم أيضا، وتاريخ الدولة العثمانية بقوتها وضعفها، هو تاريخ الجيش العثماني، حيث بني الإمبراطورية في عهد ازدهارها، ثم أُلقيت عليه مسئولية المحافظة عليها فيما بعد⁽⁴⁾.

ولقد نظمت هذه الجمعية على غرار الجمعية الإيطالية " كاربوناري "⁽⁵⁾ التي تأسست في القرن التاسع عشر الميلادي ولعبت دورا في الوحدة الإيطالية، ومن المؤكد أن رئيس الجمعية التركية إبراهيم تيمو قام برحلة إلى

1 - أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 261-262.

2 - Stanford. J. Shaw : **History of the ottoman Empire and Modern Turkey**, Cambridge universit, London, 1977, p 256.

3 - محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 250.

4 - المرجع نفسه، ص 250.

5- تعتبر الكربوناري من أهم الجمعيات السرية التي ازدهرت وبلغت ذروتها وبأسها في النصف الأول من القرن التاسع، الكربوناري أو حارقو الفحم وأن أصل الكلمة يرجع إلى أن الجلفيين كانوا يفرون من مطاردة أعدائهم الجيلاان ويجمعون في بطن الغابات في أكواخ الفحمين والخطابين. يبدو أنه مهما كان الجدل الذي يدور حول أصل الكربوناري، فانها لم تلعب دورها الهام الذي يسجل لها مكانة

إيطاليا وتوقف في "برنديزي ونابلي" في طريقه إلى بلاده (ألبانيا) وأنه خلال إقامته في "برنديزي ونابلي" درس تاريخ جمعية الكاربوناري وتنظيماتها⁽¹⁾. وأثناء عودته إلى ألبانيا وقرية "أوهريد" تم اعتقاله ونقل تحت الحراسة إلى إستانبول وتم التحقيق معه لأسابيع، ثم أطلق سراحه لعدم توافر الأدلة⁽²⁾. وفي عام 1894م تخرج إبراهيم تيمو طبيا وحصل على رتبة ضابط حيث تدرب في عدة مستشفيات وخلالها كان يمارس عمله الدعائي والسياسي في الليل، وعندما تعرضت العاصمة العثمانية إستانبول للزلزال في 10 جويلية 1894م كتب إبراهيم تيمو قصيدة يقارن فيها بين زلزال إستانبول والزلزال السياسي الذي سيضرب نظام حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وانتشرت هذه الأبيات بين صفوف الطلبة مما أدى إلى اعتقاله مرة أخرى، ثم أطلق سراحه بعد فترة وجيزة⁽³⁾. ولقد ازداد النشاط الاتحادي بشكل كبير في هذه السنوات، كما زادت في ذات الوقت رقابة الأجهزة الأمنية على هذه النشاطات، وأعتقل إبراهيم تيمو عدة مرات، إلا أنه يطلق سراحه⁽⁴⁾.

وبعد تلك الإجراءات التي اتخذت ضد إبراهيم تيمو، استمر في نشاطه السياسي السري ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني، والدليل على ذلك قيامه ومعه "إسحاق سكوتي" وغيرهما بتأمين مطبعة حجرية بعد ثورة الأرمن، وطبعوا بيانا تم توزيعه في أنحاء إستانبول، حيث عبر هؤلاء عن أسفهم للثورة (أي ثورة الأرمن ضد الدولة العثمانية)، وما أعقبها من أحداث وحملوا الدولة المسؤولية المطلقة عما جرى من أحداث، ودعا البيان إلى التخلص من السلطة الاستبدادية، ووقع البيان غير المؤرخ باسم جمعية الاتحاد والترقي العثمانية (عثمانلي اتحاد وترقي جمعيتي). ويعتبر هذا البيان على ما يبدو أول بيان ظهر علنا بهذا الاسم الخاص بالجمعية. وكان لهذا البيان

عظيمة في صحف الجمعيات السرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي، وكانت غايتها من هذا الدور سياسية محضة، حيث عول أنصارها على محاربة الاستبداد بجميع صورة، والوصول إلى أن يهبوا إلى أمتهم نظما ديمقراطية حرة. ورغم أن عدد أعضاء الجمعية في ذلك الحين لا يتجاوز بضعة آلاف، غير أن دعوتها ما لبثت في أعوام قليلة أن اجتاحت كل إيطاليا، وذاعت في فرنسا وإسبانيا وأخذت تبعث الرعب إلى كل العروش الأوروبية. ورغم تقدمها السريع في إيطاليا وإضرارها في نابولي ثارت حركة ثورية ضد الملك الذي أذعن لرغبات الشعب بأن يقسم بإتباع دستور حر، إلا أن فرديناند لم يكن مخلصا في قسمه، إذ استعان بالجنود النمساويين على تمزيق الكربوناري في نابولي التي نجح في إخمادها في إيطاليا، غير أنه كانت قد اجتازت جبال الألب وأخذت تنبت مبادئها في فرنسا. ومن المعلوم أن الكربوناري قد أدت دورا هاما في حركة الأحياء والوحدة الإيطالية، وإذا لم تكن قد اشتركت فعلا في سلسلة الحروب والثورات الإيطالية التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر وانتهت بتحرير إيطاليا فلا ريب أنه عملت كثيرا للتمهيد إليها، وقد كان من حسناتها أن ألقت بين الإيطاليين من جميع الطبقات والمقاطعات وعلمتهم أن يعملوا يدا واحدة على سحق الاستبداد والتير الأجنبي. أنظر السيد رجب جراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، المرجع السابق، ص 46. أنظر أيضا: محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 152-155.

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 251.

2- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 24-25.

3- المصدر نفسه، ص 24-25.

4- المصدر نفسه، ص 26.

الذي أعتبر هجوما على سياسة الدولة العثمانية ردود فعل على المستويين العام والخاص، إذ قامت السلطات باعتقال إبراهيم تيمو بعد أن تأكدت الأجهزة الأمنية من اشتغاله بالسياسة ثم أطلق سراحه، وتم تعيينه طبيا في الأناضول، بهدف إبعاده عن مركز العاصمة استانبول⁽¹⁾.

وسرعان ما انتشرت جمعية الاتحاد والترقي من مدرسة الطب العسكرية إلى المدارس العسكرية العليا: الأكاديمية العسكرية، المدرسة البيطرية، المدرسة الملكية (المدرسة المدنية لتخريج موظفي الدولة)، والمدرسة البحرية، والمهندسة خانة، وحوالي عام 1892م بدأت الجمعية تنتشر بين موظفي الدولة⁽²⁾.

ولم يقتصر النشاط السياسي السري لجمعية الاتحاد والترقي داخل الدولة العثمانية، بل كان الأتراك في الخارج خاصة في جنيف وباريس يجرون اتصالات سياسية علنية ضد السلطان، وكان على رأس هؤلاء أحمد رضا الانكليزي الذي عمل مديرا للتعليم في بروسه⁽³⁾، وكان يكتب في بعض المقالات في مدح السلطان عبد الحميد الثاني تقربا إلى القصر⁽⁴⁾، ولما ذهب إلى باريس لزيارة معرضها الدولي واتصل فيها بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي حيث قرر بعدها البقاء في العاصمة الفرنسية، وراح يعمل على إعادة الحياة الدستورية، وبعث من باريس بمطالب إصلاحية أهملها السلطان⁽⁵⁾، وأثناء وجوده في باريس كان ممثلا للجناح المدني⁽⁶⁾، وسافر إلى أوروبا ليحمل على حكم السلطان عبد الحميد الثاني مع زملائه الأحرار الأتراك، واشترك في تنظيم الأتراك الأحرار في باريس، وتولى بالاشتراك مع خليل غانم تحرير جريدة "مشاورات" والتي كانت لسان حال هذه الحركة منذ عام 1895م⁽⁷⁾، وانضم إلى عضوية الجمعية ناظم سالنيكي وكان يعد من مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي، ورأس إدارة صحيفة "مشاورات" ومعه خليل غانم في تحريرها.

وكانت صحيفة مشاورات تصدر مرتين في الشهر، وتطبع باللغة التركية فقط للقراء الأتراك داخل الامبراطورية، وأخذ أحمد رضا على نفسه إضافة ملحق بالفرنسية بغرض اطلاع القراء الفرنسيين على حقيقة نظام حكم السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁸⁾.

1- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 27.

2- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 251.

3- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 92. أرنست رامزور، المرجع السابق، ص 55.

4- محمد علي اورخان: المرجع السابق، ص 272.

5- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 55.

6- السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية، المصدر السابق، ص 280-281.

7- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 251.

8- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 55.

ومن الملاحظ أن إبراهيم تيمو كان على خلاف واضح مع أحمد رضا زعيم جناح الجمعية في فرنسا إذ كان إبراهيم تيمو يتهمه بعدم العقلانية، وفي الوقت نفسه كان منزعجا من محاولات أحمد رضا لعرض نفسه رئيسا لجمعية الاتحاد والترقي، ووصفه العديد من الأعضاء بالإلحاد بحيث شكل هذا الوضع عقبة كؤود أمام تقوية التنظيم.

ومنذ بروز حركة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني وسياسته ضد الأرمن تزايد نشاط المعارضين خارج الدولة العثمانية وداخل أوروبا والذي لقي تأييدا من السفارات الأجنبية لاسيما سفارات إنجلترا وفرنسا التي فتحت أبوابها أمام كل معارض وأوت إليها الفارين من حكم السلطان ومنحتهم حرية العمل والحركة⁽¹⁾.

وكانت قوة جمعية الاتحاد والترقي تتزايد مع تفاقم الأوضاع الخارجية والداخلية على السواء، وعجز السلطان عبد العزيز عن التأثير فيها، واستغل مدحت باشا ظروف قيام ثورة البلغاريين على الأتراك ودبر مع وزير الحربية، وبعد استصدار الفتوى المناسبة من المفتي انقلابا سلميا⁽²⁾، عزل السلطان عبد العزيز، وولي ابن أخيه السلطان مراد مراد الخامس، وبعد ذلك بثلاثة شهور، نظم مدحت باشا انقلابا سلميا جديدا، وعزل فيه السلطان مراد الخامس "الضعيف العقل"، وتولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم⁽³⁾.

وفي 23 ديسمبر عام 1876م أعلن السلطان عبد الحميد الثاني عن دستور جديد يضمن لجميع أبناء الدولة حريات متساوية، وينظم انتخابات عامة لجمعية وطنية تضم ممثلين عن جميع أبناء الدولة من دون النظر إلى جنس أو قومية أو دين، وبعد أيام قليلة عزل السلطان عبد الحميد الثاني مدحت باشا ونفاه إلى أوروبا وبعد ذلك بشهور حل الجمعية الوطنية وعطل الدستور⁽⁴⁾.

وكان الصراع على أشده داخل جمعية الاتحاد والترقي التي فقدت عمليا أغلب فروعها خارج تركيا بسبب سياسة العنصرية، ولقد تكتلت القوميات غير التركية داخل الأحزاب الأخرى لتضمن لها استمرارها في المطالبة بحقوقها القومية، وهكذا تحولت محاولات إنقاذ السلطنة من العدو الخارجي إلى عمليات تمزيق قومي داخلي⁽⁵⁾.

1- محمد سهيل طقوش: العثمانيون من القيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة 1299-1924، ط1، دار الخروسة، بيروت، 1995، ص 529.

2 - Mohammed f. Bey : op. cit. P 45.

3- فتحي رضوان: مصطفى كمال أتاتورك، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 29.

4 - المرجع نفسه، ص 45.

5 - Ramsour Ernest Edmond: The Young Turks Prelude The Revolution of 1908, Khoyats, Khoyats, Beirut, 1956, p 67.

كانت آخر محاولات الاتجاه العثماني في الجمعية قد فشلت بعد هزائم السلطنة في حرب البلقان، حيث ساد طغيان الاتجاه الذي عبر عنه بشكل إعلامي قومي ضياء كوك ألب حين لخص التوجهات الجديدة بقوله: "إن بقاء الدولة لن يتحقق إلا بقيام أمة واحدة هي الأمة التركية"، وذهب إلى أن عصر تنوع الأجناس قد ولى داخل الإمبراطورية، وطال بتحرير اللغة التركية من الفساد الذي أدخلته العناصر غير التركية، وكانت تلك بداية لغة جديدة في معاملة القوميات غير التركية، لغة تعبر عن توجه حسم لإتباع سياسة التتريك التي ستكون الانطلاقة الجديدة للاتحاديين مع العناصر المؤلفة للسلطنة، ومنها ستكون النهاية المأساوية لتأليف القوميات، ونهاية النزوع العثماني أيضا⁽¹⁾.

ومع البواكير الأولى للقرن العشرين، جرى في عروق المعارضة التركية دماء جديدة، حيث هرب الداماد محمود (1853 - 1903 م) حفيد محمود الثاني وزوجته، بسبب مواقفه الدستورية، ومعه اثنان من أبنائه: الأمير صباح الدين (1877 - 1948 م) والأمير لطفي الله، وعلى متن سفينة شحن فرنسية، وتعاون مع أحمد رضا، وقد قاوم كل الجهود التي قام بها (أحمد جلال الدين) أحد أعوان السلطان وآخرون لعودته إلى القصر مرة أخرى⁽²⁾.

وازداد تأثير أحرار المهجر أيضا بوصول "إسماعيل كمال" بأي فلورا الألباني المسلم، والذي كان قد شغل منصب عثماني رفيع المستوى قبيل انضمامه للحركة القومية الألبانية.

وهكذا بدأت حركة الأحرار في المهجر خلال الستين الأولى في القرن العشرين تعود إليها الثقة في العمل من أجل خلع السلطان عبد الحميد وإعادة الدستور⁽³⁾.

- برنامج الاتحاد والترقي:

إن أهداف جمعية الاتحاد والترقي نشرتها جريدة "شوراي أمت" أي شورى الأمة عام 1895م، وتتلخص في: حماية وحدة أراضي الدولة العثمانية واستقلالها السياسي في مواجهة كل أنواع التدخل الأجنبي، والقضاء على الاستبداد، وإقامة المشروطة "الدستور" وتطبيق الأحكام الأساسية لقانون عام 1876م، وتحقيق وحدة جميع العثمانيين، وإخطار القائمين على الحكومة بمتطلبات الزمن وتطوره ودعوتهم لنشر فكرة الإصلاحات بين الأفراد والأقوام العثمانية، والعمل أيضا على إثبات أن العثمانيين ليسوا محرومين من القدرة على أن يكونوا من أكثر الأمم

1- قيس جواد العزاوي: الدولة العثمانية (قراءة جديدة لعوامل الإنحطاط)، مركز دراسات الاسلام والعالم، فلوريدا، د.ت، ص 142.

2 - Stanford. J. Show : op. cit. P 30.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 89.

تقدما، بالإضافة إلى تقوية السلطنة ومنصب الخلافة لفائدة الوطن والأمة⁽¹⁾، وكذلك أكدت الجمعية في أهدافها أيضا على مبادئ الحرية الفردية والقضاء على الإقطاع والتحرر من السيطرة الأجنبية⁽²⁾، وهذه الأهداف كما تبدو لم تكن تحمل أي نوايا عدوانية ضد السلطان، بل أن مطالبها تتمثل في الإصلاحات السياسية والقضاء على الفساد، إذ لم يفكر الاتحاديون باستبدال السلطان أو القيام بانقلاب ضده، كما كانت رغبتهم في تحقيق المساواة والحرية دون تمييز بين سكان الدولة العثمانية بغض النظر عن الدين أو الجنس.

غير أن تحركات الاتحاديين وسياساتهم العدائية ضد العثمانية لم تغب عن الحكومة، فثارت شكوكها واضطرت للقيام ببعض الاعتقالات عام 1895م وإيقاف عدد من الأعضاء الأصليين للجمعية بما فيهم عبد الله جودت وإسحاق سكوتي وشرف الدين مغمومي وكریم سيياطي⁽³⁾، وحكم بالنفي على الدكتور عبد الله وبعض طلاب مدرسة الطب إلى طرابلس الغرب ودمشق ومناستير مع تحديد إقامتهم هناك. غير أن الدكتور عبد الله استطاع الهروب إلى تونس ومنها إلى فرنسا في صيف عام 1897م⁽⁴⁾، وتمكن إبراهيم تيمو من الهرب هو الآخر خارج البلاد إلى رومانيا، حيث نظم فرعا للجمعية ونشر صحيفة لتركيا الفتاة⁽⁵⁾.

ومن الشخصيات الهامة الأخرى في نشاط الأتراك الأحرار في المهجر بباريس مراد بك، وهو من أصل داغستاني، هاجر من بلده قاصدا استانبول عاصمة الدولة العثمانية، وفي مقتبل حياته لزم الصدر الأعظم محمد رشدي باشا حيث أقام ببابه، وعمل على طلب العلم، فأصاب بعض الشيء من التاريخ والأدب وفن الكتابة⁽⁶⁾، ثم عمل في نظارة المعارف وأخذ يتدرج في المناصب المختلفة حتى انتهى إلى وظيفة في لجنة الديون العمومية براتب شهري حوالي مائتي ليرة⁽⁷⁾، وأصدر جريدته "الميزان" عام 1895م، وكان ينشر فيها مدائح للسلطان، وفي الوقت نفسه يهاجم بعنف رجال الدولة الذين عينهم السلطان في الوزارة، فأغلقت الحكومة جريدته بعد عدة سنوات⁽⁸⁾.

سنوات⁽⁸⁾.

1- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 522. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 251. أيضا أنظر: محمد رشيد رضا: البرنامج السياسي لجمعية الاتحاد والترقي، المنار، م 11، ج 8، 25 أكتوبر 1908م، ص 638-639.

2- Bernard Lewis, op. cet. PP 152- 174.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 58. محمد علي أورشان: المرجع السابق، ص 274.

4- محمد علي أورشان: المرجع السابق، ص 274.

5- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 58.

6- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 139.

7- ولي الدين يكن: المصدر السابق، ص 75.

8- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 139.

ولقد تعرف مراد بك على الشيخ نائلي الذي ضمه إلى جمعية الاتحاد والترقي، وشعر الشيخ بأن مراد بك شخصية ليبرالية إصلاحية⁽¹⁾، وعلى أثرها قام مراد بك بتقديم كتاب مطول إلى السلطان عبد الحميد يطلب فيه إجراء الإصلاحات في الدولة، هرب على أثره إلى روسيا خوفاً من العقاب، ومن هناك توجه إلى لندن حيث قابل اللورد "سالسبوري" ثم ذهب إلى مصر، واستطاع الحصول على تصريح بإصدار جريدته "الميزان"⁽²⁾، والتي أخذت تتسرب إلى الأستانة خفية لأعضاء جمعية الاتحاد والترقي والمثقفين بصفة عامة⁽³⁾.

وقد حصل مراد بك على تأييد وتشجيع من سلطات الاحتلال البريطاني في مصر، التي كانت تشجع كافة الحركات المعادية للسلطان عبد الحميد⁽⁴⁾، والدليل على ذلك صدور صحيفتي "المقطم والمقتطف" اللتان كانتا تهاجمان الدولة العثمانية وتشجعان الثوار، وفيها نشرت المقالات العنيفة في مهاجمتها والتشهير بها، والصلة واضحة بين كل المعادين للخلافة العثمانية والعمالة للأجنبي فضلاً عن العداء للإسلام والمسلمين⁽⁵⁾، ومن هنا ألصقت بمراد بك تهمة موالاته الإنجليز وتأييده لهم وحصوله على الأموال منهم، وظهر عند البعض بأنه عميل خائن لوطنه، ويرى آخرون بأنه تمتع بشعبية واسعة وسط صفوف الأوساط العثمانية في المنفى وأولى مكانة كبرى للقيم الإسلامية، فإنه يظهر بوصفه معارضا أكثر اعتدالا من أحمد رضا⁽⁶⁾، ومنذ ذلك الحين كان للجمعية نشرتان تدخلان تركيا من الخارج عن طريق الدوائر الأجنبية، جريدة الميزان التي يصدرها مراد بك، وجريدة مشورت والتي كان يحررها أحمد رضا، ولها سمعة سيئة لأرائه السيئة، ولموقفه وتصلبه في رأيه الذي كان يؤدي إلى فقدان الأصدقاء⁽⁷⁾.

ومن خلال تلك التفاصيل السابقة برزت حقيقتان هامتان حول سياسة جمعية الاتحاد والترقي وهما، التنظيم السري لجمعية الاتحاد والترقي داخل الدولة العثمانية، والذي حقق على ما يبدو غاياته، والقدرة والتنظيم العلني والحرية الكاملة لأعضاء الجمعية في الخارج والداخل، خاصة دول أوروبا وهي في الأساس دول معادية للدولة العثمانية.

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 59.

2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 139.

3- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 251.

4- المرجع نفسه، ص 252.

5- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ط4، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص 91-92.

6- روبر مانتزان: المرجع السابق، ج2، ص 230.

7- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 60. حسان حلاق: دور اليهود والقوي الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن

العرش 1908-1909، ط2، دار الخروسة، بيروت، 1993م، ص 85.

- محاولة انقلاب عام 1896م:

استمرت الحركة في إعداد الخطط للقيام بانقلاب ضد السلطان، وفي عام 1896م دعت إلى عقد مؤتمر في فيينا اشترك فيه كل معارض لحكم السلطان من أرمن ويونان ومقدونيون وعرب ويهود وغيرهم من الأقليات القومية، وتقرر في هذا المؤتمر قلب نظام الحكم وخلع السلطان عبد الحميد الثاني⁽¹⁾، وعهد بقيادتها للحاج أحمد أفندي الذي كان رئيسا للجنة المركزية في إستانبول لعدة جمعيات⁽²⁾، منها جماعة الشيخ نائلي من العلماء والقضاة وجماعة أخرى في وزارة الحرية برئاسة المقدم شفيق بك⁽³⁾. وتقرر القيام بانقلاب في شهر أوت عام 1896م لخلع لخلع السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁴⁾، بواسطة الفرقة الأولى من الجيش العثماني المتمركزة في استانبول والتي كان كاظم باشا قائدها، واستطاع حاجي أحمد أن يكسب ود كاظم ويجنده داخل صفوف الجمعية، وإناطة أمر الانقلاب إليه بحيث تقوم هذه الفرقة باحتلال مقر الباب العالي عند اجتماع مجلس الوزراء، ثم الحصول على فتوى من شيخ الإسلام بجواز خلع السلطان عبد الحميد الثاني من منصبه، وإناطة الأمر إلى السلطان المخلوع مراد الخامس أو محمد رشاد أخ السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁵⁾.

وكان من بين الشخصيات التي تعرف بأمر الانقلاب وكيفية تنفيذه ناظر مدرسة يدعى "نادر بك" وهو عضو في جمعية الاتحاد والترقي، وقد ذهب إلى مطعم "طوقا تليان" في العاصمة كعادته ليحتسي الخمر احتفالاً بما سيحدث وهناك التقى بمظهر بك المدرس في مدرسته، وأبوه إسماعيل باشا الذي كان هو الآخر مفتشاً عاماً للمدارس العسكرية، وأسرف نادر بك في شرب الخمر فقال: "آه لو علم الباشا (يقصد السلطان) ماذا سيحدث غدا"، وأثار حب الاستطلاع لدى إسماعيل باشا فألح على نادر بك الذي وافاه بالتفاصيل، فقام إسماعيل باشا من فوره بنقل المعلومات إلى الأجهزة العسكرية⁽⁶⁾، ولقد أوضح الدكتور أنور ضياء قرال مخطط أعضاء الاتحاد والترقي قائلا: "أن بعض الأعضاء اتفقوا حول السلاح الذي سيجري استخدامه واغتيال السلطان"، فكان إسحاق سكوتي يعارض استخدام القنبلة، وأكد أن هذا السلاح سوف يؤلب أوروبا عامة ضد الأتراك الشبان ودافع عن استخدام المسدس، وإزاء هذا التردد أسس تونه حلمي وشفيق حسن وغيرهم اللجنة الثورية العثمانية⁽⁷⁾،

1- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 529. حسان حلاق: المرجع السابق، ص 85.

2- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 252.

3-Fesh Paul: Constantinople Auxdeniers Jours Abdul Hamid, New York, Burt Frakin, 1971, p 331.

4- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 252.

5- يوسف أصاف بك: المصدر السابق، ص 135. أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 62.

6- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 62.

العثمانية⁽¹⁾، وكلتا الخطتين وإن اختلفتا في طريقة التنفيذ، فإن الهدف كان واحد وهو التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني.

وعندما علم السلطان عبد الحميد الثاني بأنباء تلك المؤامرة قبض على رؤساء الحركة ونفاهم خارج إستانبول، وتم تصفية أفراد الجمعية في المدارس العسكرية تصفية تامة⁽²⁾، وشملت قائمة المنفيين كاظم باشا وحاجي أحمد وشيخ نائلي مع أخويه حقي بك وعيني بك، وثمانية عشر آخرين من أفراد أسرته، ومكلي صبري وزهدي بك رئيس ديوان المحاسبة وكمال بك المدعي العام لمجلس الدولة وعدد آخر⁽³⁾، ووضع هؤلاء المنفيون على ظهر سفينة وأرسلوا إلى أماكن متفرقة مثل ليبيا التي كانت منفى حاجي أحمد مع الإقامة في فزان، والشيخ نائلي وأقاربه في بنغازي وحمص في بلاد الشام⁽⁴⁾، وربما كانت أحد اث الأزمات الأرمنية والضغط التي تتعرض لها الدولة العثمانية العثمانية وعدم رغبة السلطان في إثارة الخواطر داخل الدولة وراء عقوبة النفي بدلا من الإعدام بحق هؤلاء المتآمرين ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ولكن المنفيين في ليبيا استطاعوا الهروب من مناهم إلى باريس، فأرسل السلطان مدير الأمن العام الفريق أول أحمد جلال الدين باشا إلى باريس لاستمالة أعضاء المعارضة من الاتحاديين، فنجح في استمالة أكثرهم ومنحهم مناصب كبيرة في الدولة، ودفع لهم مبالغ من الأموال⁽⁵⁾، ومما لاشك فيه أن جمعية الاتحاد والترقي في الخارج تعرضت إلى الضعف والتشتت لعدة أسباب: أولا بسبب الخلاف بين جناحي الجمعية مراد بك وأحمد رضا باشا، وثانيا بسبب الضربة التي وجهها عبد الحميد الثاني للجمعية وأعضائها في الأستانة، وثالثا تخلي الخديو عباس حلمي الثاني عن تأييد الجمعية وطرده لمراد بك من مصر⁽⁶⁾، ورابعا النشاط الدبلوماسي للسلطان عبد الحميد الثاني إذ أوعز إلى سفرائه في العواصم الأوروبية بممارسة الضغوط على الحكومات الأوروبية التي تساعد الجمعية، فضلا عن إرساله عناصر من قبله للانضمام إليها بهدف إحداث انقسامات داخلية في صفوفها ومن بينهم مراد بك الذي تخلى عن نشاطه الثوري وعاد إلى إستانبول⁽⁷⁾.

1 - Enver Ziya Karal: **Osmanli Tarihi Islaht Fermani Devri 1861-1876**, Ankara, Turk Tarihi, Basimevi, 1988, vol 7, p 517.

2- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 252.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 63.

4- المرجع نفسه، ص 63.

5- محمد حرب: **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، ط2، دار القلم، دمشق، 1999، ص 45.

6- محمد أنيس: المرجع السابق، ص 253.

7- محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 530.

بعد فشل المؤامرة التي دبرت ضد السلطان عام 1896م امتد نشاط جمعية تركيا الفتاة في باريس إلى القاهرة، وذلك لبعدها عن العاصمة إستانبول ووقوعها تحت الإدارة البريطانية، مما جعلها ملجأ ومأوى لأنصار الجمعية الذين نفوا أو خشوا وقوعهم في قبضة الأجهزة الأمنية⁽¹⁾.

على هذا كتب أعضاء من تركيا الفتاة مقالات في الصحف المصرية تهاجم السلطان عبد الحميد وتطعن في حكمه، مثل المقطم التي أخذت تنتقد سياسة الحكومة المصرية في دعمها للدولة العثمانية في أزمتها المالية وكذلك في حروبها⁽²⁾، كما قام أعضاء تركيا الفتاة في القاهرة بتأسيس مكتب للطباعة والنشر عام 1899م أصدر جريدة "القانون الأساسي" كي تكون ناطقة باسمهم ومعبرة عن مبادئهم وأفكارهم⁽³⁾. ولما تعرضت الجريدة لأزمة مالية اشتراها أحد المقربين من السلطان العثماني نكاية بأعضاء تركيا الفتاة، الأمر الذي دفع الاتحاديين لإبلاغ اللورد كرومر الذي أصدر أمراً بوضعها تحت إشراف سلطات الاحتلال البريطاني⁽⁴⁾. لأنها كانت تحتوي على أوراق أوراق ورسائل خاصة بأعضاء تركيا الفتاة، ويعترف اللورد كرومر بدوره الفعال في دعم أعضاء تركيا الفتاة والسماح لهم بإصدار صحفهم من القاهرة، إذ يقول: "إن الحزب مدين لإنجلترا بفضل كبير وجميل يستحق الشكر والثناء على الحماية البريطانية لهم وتمتعهم بالحرية دون تسليمهم للدولة العثمانية كمجرمين سياسيين معارضين للدولة العثمانية"⁽⁵⁾.

أما الصحف الخاصة بالمعارضة المنشورة بالتركية فلم تجد تأييد داخل مصر إلى حد ما لأنه لم يكن هناك من يقرؤها لعدم معرفتهم باللغة التركية، إلى جانب انشغال الأتراك الذين يعيشون في مصر بأعمال أخرى غير السياسة التي كانت على ما يبدو لا يعيرونها وزناً⁽⁶⁾.

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، ط3، دار النهار، بيروت، 1979، ص 76-77.

2- محمد حرب: السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين، المرجع السابق، ص 237.

3- ولي الدين يكن: المصدر السابق، ص 65.

4- المرجع نفسه، ص 65.

5- المقتطف: ج1، 46، فيفري 1915م، ص 80.

6- الصحف التركية الصادرة في مصر: "الميزان" لمрад، "تورك" لجلال، "عثمانلي الاتحاد والترقي" و"اجتهاد" لعبد الله جودت. أنظر: ولي الدين يكن: المصدر السابق، ص 72.

Enver Ziya Karal : op. cit, p 513.

وعلى هذا ركز السلطان عبد الحميد الثاني اهتمامه على مصر بسبب زيادة نفوذ أعضاء تركيا الفتاة، في محاولة للقضاء على نشاطهم أو إخراجهم من مصر⁽¹⁾، التي كان مركزهم فيها قويا بحماية بريطانيا كما أشرت سابقا. وفي تلك الأثناء طرد الخديوي إثنا عشر من أعضاء القاهرة إلى إستانبول، وبقي ثلاثة أعضاء فقط وهم "باهر يالي" و"علي فخري" و"ضياء أفندي" وقام "طونالي حلمي" بعدة زيارات إلى القاهرة لتعزيز الطموحات وعقد مؤتمر عام للمعارضة العثمانية، إلا أن وظيفته الرسمية في السفارة العثمانية في مدريد، واختيار فرع الاتحاد والترقي في مصر، منعه من تحقيق هذه الغاية وتم إرسال "علي فخري" إلى جنيف لتنظيم النشاط وترك "باهر يالي رضا" وحيدا وهو شخصية لم تكن على وفاق مع أعضاء الجمعية الآخرين في القاهرة⁽²⁾.

وفي جنيف وبعد مناقشات مطولة تم إنشاء "جمعية الشباب العثماني المنتقم" التي أصدرت صحف "انتقام" و"الأمة" و"توكماك"⁽³⁾. وفي الوقت نفسه أصدرت جمعية الاتحاد والترقي بيانا باللغة العربية بعنوان "الحق الصريح" إتهمت فيه طونالي حلمي الذي بقي بالقاهرة بالفساد، وسارع الفرع بنفي هذه الاتهامات. والحقيقة أن الحادثة كان لها بدون شك تأثير سلبي على مكانة الجمعية في مصر⁽⁴⁾. ففي عام 1900م أخبر إسحاق سكوتي أن شخصا اسمه صالح جمال كان يسعى لتنظيم حركة جديدة سرية ضد جمعية الاتحاد والترقي، مما دفع مركز الجمعية إلى أن يطلب من فرعه بمصر الإعلان أنه ليس له تنظيم سري في مصر، فما كان من الفرع إلا أن أنكر ما نشر في جريدة "الحق الصريح" وأن له أي علاقة بالجمعية⁽⁵⁾.

وبعد هذه التطورات والتوتر بين أعضاء الجمعية، خرج مراد بك من مصر إلى فرنسا كما سبقت الإشارة، وانضم إليه العديد من قادة الجمعية أمثال إسحاق سكوتي وسليمان نظيف وشرف الدين مغمومي لأنهم كانوا يكرهون أحمد رضا الذي كان على خلاف مع مراد بك⁽⁶⁾، وفي باريس تم إجراء الانتخابات الخاصة بالجمعية، فانتخب مراد بك رئيسا للجمعية الاتحاد والترقي ثم أصبح للجمعية فرعان داخل باريس فرع بقيادة مراد بك والآخر بقيادة أحمد رضا، مما أدى إلى زيادة الخلاف والتوتر بينهما خاصة في الأفكار والتصورات وعلى أثرها تولى مراد بك زعامة الجمعية⁽⁷⁾. وما لبث مراد أن غادر باريس إلى جنيف بهدف تنظيم فروع للجمعية، ونجح في إعادة إعادة إصدار صحيفته المشهورة "الميزان". وفي ذلك الوقت أخذ نشاط أعضاء الجمعية منحى أكثر استقلالية

1 -Ahmet Bedevi Kuran: **Inkilap Hareketleri ve Milli Mucadele**, Istanbul, Baha Matbaasi, 1956, p 155.

2 -M. Sukru Hanioglu: **The Turk in Opposition**, Oxford University Press, 1995, p 158.

3 - Ibid, p 158.

4 - Ibid, p 163.

5 - Ibid, p 163.

6 - Ahmet Bedevi Kuran: **Inkilap Tarihimi ve Jon Turkler**, Istanbul, Tan Matbaasi, 1945, 155.

7 - Ibid, p 43.

وأسسوا عدد من اللجان في جنيف، علما بأن غالبيتهم احتفظوا بالعضوية في الاتحاد والترقي. وقد وصف طونالي حلمي أحد زعمائهم منذ مدة طويلة الظروف التي برزا في إطارها مع العديد من الجماعات الأخرى والتي اضطرتهم للبقاء تابعين للاتحاد والترقي، حتى استطاعوا بناء منظمات خاصة بهم والدفاع عن برامجها السياسية⁽¹⁾.

غير أن فرع الجمعية في جنيف برئاسة مراد بك كان أقرب كثيرا إلى إبراهيم تيمو في المبادئ والأفكار على عكس فرع الجمعية في باريس⁽²⁾. وانتقل في حينها - ماي 1897 - مركز الجمعية الرئيسي من العاصمة إستانبول إلى كل من جنيف وباريس في الوقت الذي زادت فيه حدة الخلاف بين الفرعين⁽³⁾. والدليل على ذلك ما أكدده أحمد رضا في مقابلة أجرتها معه صحيفة "الوطن" في جويلية عام 1897م، إذ اعترف بوجود خلافات بين أقسام الجمعية وأعضائها⁽⁴⁾، وفيما يبدو أن السلطان عبد الحميد وفق سياسته لتمزيق جمعية الاتحاد والترقي عن طريق الاقتراحات التي سبق الحديث عنها، غير أنه لم يستطيع أن يمنع اشتداد أزر الجمعية من جديد، لأنه لم يقض على العوامل التي أثرت على تأسيسها، ولأنه أيضا لم ينفذ الأمور التي وعد بها سوى التي تتعلق بالأحوال الشخصية⁽⁵⁾.

ومما لا شك فيه أنه بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني اجتمع العديد من الطلاب في المدارس والكلليات الحربية، واستطاعوا تشكيل لجان باسم "لجنة سليمان باشا" تخليدا لاسم رجل وطني قدم في نفس العام 1897م، بالإضافة إلى لجنة "حسين عوني"، وبالتالي فإن هذه الفروع لاقت ترحيبا من فروع الجمعية في أوروبا، بحيث أن الاتصالات كانت مستمرة بينها، وبعد فترة زمنية قصيرة أعتقل أعضاء هذه اللجان⁽⁶⁾، وتم نقل المعتقلين إلى ثكنة "طاش قشلة" وسجنوا، وهناك أجريت لهم محاكمة برئاسة رشيد باشا وأصدر حكما عليهم بالنفي الجماعي إلى طرابلس الغرب، وكان من بين المقبوض عليهم الضابط البحري "حيدر بك" وهو يوزع منشورات تضمنت بنود دستور مدحت باشا (القانون الأساسي)⁽⁷⁾.

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 68.

2- حسن كلشي: المصدر نفسه، ص 30.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 68-69.

4- BAR. Film No. 86095, Direktion der Justiz & Polizei des Kantons Zurich, An die Schweizerische Bundesanwaltschaft in Bern, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.477, 22 December 1906.

-Pual Fesch : op. cit, p 338.

5 - Enver Ziya Karal : op. cit, p 520.

6- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 68-69.

7- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة، ط4، دار السلام للطباعة، بيروت، 1985، ص 34.

ويمكن إرجاع ضعف وتمزق جمعية الاتحاد والترقي إلى الخلافات بين الأعضاء في الخارج وفروعها في كل من جنيف وباريس، إلى جانب عدم توفر الدعم المستمر من الدول الأوروبية، والتي كانت بدون شك تفضل بقاء واستمرار مصالحها مع الدولة العثمانية، طبقا للتطورات السياسية، بالإضافة إلى يقظة السلطان وجواسيسه المنتشرين داخل وخارج الدولة لاسيما في عواصم أوروبا، وسياسة عفو السلطان عن معارضيه وإطلاق سراح المعتقلين، والتوقف عن مهاجمة السلطان حفاظا على مصالحها مع الدولة العثمانية.

والحاصل أن كل من مراد بك وإسحاق سكوتي وعبد الله جودت وغيرهم من الشخصيات القيادية في جمعية الاتحاد والترقي قد عادوا إلى الأستانة بعد الوعود التي صدرت عن السلطان عبد الحميد بتحقيق قدر من الإصلاحات داخل الدولة، فكان هذا يعد ضربة كبيرة للجمعية، ومما يذكر أن السلطان استمال بعض الأعضاء بالمناصب، الأمر الذي كان له أثارا كبيرة بين الأعضاء، مما سبب الكثير من المشاكل والفرقة وغدت الجمعية في فترة المجادلة، تتجه ضد عبد الحميد من جهة وضد بعضهم البعض الآخر من جهة أخرى⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فإن العلاقات الخاصة بين الاتحاديين أدت إلى ظهور "جمعية التجربة الفردية واللامركزية" التي ستناضل ضد سياسة عبد الحميد الثاني مثلها مثل جمعية الاتحاد والترقي⁽²⁾، كما اكتسبت المعارضة التركية ضد السلطان العثماني مؤيدا قويا بفرار الداماد محمود باشا⁽³⁾، وابنيه الأمير صباح الدين ولطف الله إلى أوروبا في ديسمبر 1889م⁽⁴⁾، بسبب الخلاف مع السلطان حول مسألة منح امتياز خط سكة حديد بغداد لألمانيا وهو الذي كان يفضل إنجلترا، لانه عجز عن إقناع السلطان فقرر الرحيل إلى أوروبا ومنها إلى القاهرة⁽⁵⁾.

واعتبر هروب داماد محمود باشا ضربة قوية ومؤلة للسلطان إذ إلتحق بصفوف المعارضة، والتي وجدت لها بذلك مناصرين من القصر السلطاني⁽⁶⁾، وعاملا قويا لدعم جمعية الاتحاد والترقي، وعزز من مكانتها ضد حكم السلطان عبد الحميد. ولقد كان محمود باشا يقول في رسالته التي توضح أسباب هروبه قائلا: "أن للسلطان عبد الحميد الثاني حكومة تشتمل على بعض النقاط التي تشبه المستبدين، وأنها اعتمدت على طائفة من الموظفين

1 - Ahmet Kuran : Inkilap Hare Ketleri, op. cit, p 175.

2 - Enver Ziya Karal, op. cit, p 520.

3- الدامادا: كلمة تركية معناها صهر، والدامادا محمود جلال الدين باشا كان زوجا لابنة السلطان عبد المجيد وأخت السلطان عبد الحميد. الحميد. أنظر عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج3، ص 1587. ارنست رامزور: المرجع السابق، ص 83.

4 - Enver Ziya Karal, op. cit, p 520.

5- روبر مانتران: المرجع السابق، ج2، ص 231.

6- المرجع نفسه، ج2، ص 231.

تتكون من الجهال والكهول الذين خرفوا والمحتالين والكذابين... أنتم الظالم الوحيد الذي تسبب في أنه يار البلد"⁽¹⁾.

ولقد ظل السلطان عبد الحميد يطالب الخديوي عباس حلمي الثاني بإعادتهم إلى إستانبول أو على الأقل إخراجهم من مصر، وجرت بين الطرفين اتصالات كثيرة بهذا الشأن⁽²⁾، وأصدر السلطان قرار العفو عن داماد محمود باشا وولديه، وسمح لهم بالعودة إلى إستانبول على أن يرافقهم الجانب الخديوي عند القدوم إليها بأنفسهم، وأما جماعة تركيا الفتاة فكان يتوجب أن يخرجوا من مصر والتوجه إما إلى أوروبا أو الأستانة⁽³⁾.

غير أن ابني الدامادا محمود باشا رفضا العودة إلى إستانبول قبل إجراء إصلاحات داخل إدارات الدولة، كما أن والدهما محمود كان مترددا بالعودة، وفضل البقاء في مصر مدة شهرين حتى يضمن خروج ولديه من مصر إلى أوروبا⁽⁴⁾، ثم سافر الدامادا محمود باشا وولديه إلى فرنسا ثم إلى جنيف، وذكرت صحيفة "الخلافة" عام 1900م بأن محمود باشا صرح في أوروبا بأنه موافق على حركات حزب تركيا الفتاة وأنه في عزمه أن يطبع رسالة يفصل فيها دسائس السلطان وحاشيته في يلديز، وأن نشراته ستكون واسطة لانضمام كثير من الأهالي مع حزب تركيا الفتاة وتكون نتيجة ذلك أحد اث انقلابات أساسية في إستانبول⁽⁵⁾.

وأظهرت الأحداث وتطوراتها مدى تعاون الفارين العثمانيين مع الدول الأوروبية حتى أن صهر السلطان عندما وصل إلى لندن لقي حفاوة وتأييدا من الحكومة البريطانية وأهل السياسة والمقامات العالية هنا يساعده على تنفيذ مقاصده وترويج غاياته⁽⁶⁾، وأثناء وجوده في لندن أصدر صحيفة "عثمانلي" أهم صحف المعارضة في إنجلترا⁽⁷⁾، وربما كان تأييد واستضافة إنجلترا لحركة تركيا الفتاة نتيجة استيائها من مسألة مشروع سكة حديد برلين بغداد، تبدو فجأة مفعمة بالنوايا الطيبة تجاه خصوم النظام⁽⁸⁾، ومما يجدر ذكره أن قسما من الأتراك الشباب تركيا

1 - Enver Ziya Karal : op. cit, p 520.

2 - Aksin Sina Jon: **Türk Tarihi Kongressi Kongreye Sunulan bildiriler**, Ankara, türk Tarihi Kurumu Basimevi, 1988, cilt III, p 1794.

3- أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص 353.

4- المصدر نفسه، ص 358.

5- BAR. Film No. 86096, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/14250, No.156, 31 March 1900.

- BAR. Film No. 86096, Jungturcn, Bundesarchiv- Bern, 18 May 1900.

أنظر أيضا: حسان حلاق: المرجع السابق، ص 88.

6- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 88.

7- روبر مانتران: المرجع السابق، ج2، ص 231.

8- المرجع نفسه، ج2، ص 231.

الفتاة بدأوا يلتفون حول أحمد رضا بعد عام 1889م، وأما القسم الآخر فكانوا يلتفون حول داماد محمود باشا وابنه الأمير صباح الدين⁽¹⁾، وحظي محمود باشا بالاحترام والتقدير لدى كافة فروع الجمعية، إلا أن المنية عاجلته عام 1903م، وانتقلت الزعامة إلى ابنه الأمير صباح الدين الذي ظهر على مسرح الأحداث السياسية داخل الجمعية عام 1902م ولغاية ثورة عام 1908م⁽²⁾، الذي نادى هو الآخر بخلع السلطان عبد الحميد وإعادة الدستور وعدم المركزية في الحكم مع بقاء الولاء للبيت العثماني الحاكم وتكريس المساواة بين شعوب الإمبراطورية في إطار العثماني⁽³⁾، مما عجل بالتناقض بينه وبين أحمد رضا، الذي كان بدوره يدعو إلى المركزية في الحكم والإدارة والإدارة من خلال الحكم الدستوري، ورغم هذا التباين في الأسلوب والتوجه بين قائدي أحرار المهجر، إلا أنه ما عملا معا في سبيل الدستور⁽⁴⁾، غير أن هذه الخلافات ما لبثت أن عكرت صفو العلاقات ومن ثم نشط أحرار المهجر من جديد، خاصة بين مراد بك رئيس فرع جمعية الاتحاد والترقي في جنيف، وبين أحمد رضا قائد فرع باريس⁽⁵⁾، وحاول هذا الأخير الإصلاح حيث دعا إلى عقد "المجلس العام للشيوخ الليبرالي العثماني" الذي اجتمع اجتماع في باريس من 4 إلى 9 فيفري 1902م، وكان الأول من نوعه، الذي ضم مختلف أعضاء تركيا الفتاة المنتشرين في جميع أنحاء أوروبا، إلى جانب أقلية من المجموعات القديمة، بالإضافة إلى أحمد رضا ومجموعته ورغم تحفظهم لكونهم أقلية بين العثمانيين غير المسلمين⁽⁶⁾.

وقد حاول صباح الدين التقريب بين تلك المجموعات، من خلال تأكيد على القرارات التي تحمل صعوبات الإمبراطورية على أسلوب حكم عبد الحميد، مشددا على المثالية في التساوي بين كل الشعوب والسلالات - رعايا الإمبراطورية - ووعد باستمرار الولاء للبيت العثماني وفكرة التعامل بين الولايات العثمانية⁽⁷⁾.

1 - Enver Ziya Karal : op. cit, p 520.

2- روبر مانتزان: المرجع نفسه، ج2، ص 231.

3- لم يكن صباح الدين يمثل القومية التركية النامية، رغم دفاعه عن الدستور، فقد هاجم فكرة الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر في مواجهة معارضي حكمه المطلق من ناحية، وكسب ولاء العالم الإسلامي من ناحية أخرى، ووصفها صباح الدين بأنها محاولة من السلطان عبد الحميد في التستر بثوب الدين لعلها تنفذ صرح الاستبداد الذي أضحت دعائمه تهتز، وأنها حقدا على الحركة التحررية وليست إخلاصا للفكرة الإسلامية.

4- عزة عبد الرحمن الصاوي: القومية في أدب ضياء كوك الب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1977، ص 5.

5 - Charles Swallow: *The Sickman of Eurpe Ottoman Empire to Turkish Republic 1739-1739-1923*, London, Ernest Benn, 1973, p 84.

6- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 33.

7 - Haje Khalefah: *The History of The Maritime wars of Turks*, London, 1831, p 89.

وخرج المؤتمرون من المؤتمر وسط ظهور الخلافات والمنافسات بين القيادات⁽¹⁾، ولفت الأمير صباح الدين ومؤيدوه انتباه العاملين بالحركة إلى القضية القومية، وظهرت الاختلافات حول هذه القضية بين أعضاء تركيا الفتاة، وأيد أحد الاتجاهات بقيادة صباح الدين لأجل حسم القضية القومية عن طريق تأسيس ولايات ذات استقلال ذاتي وعلى أساس مبدأ اللامركزية في الإدارة العامة، وساعد هذا الاتجاه مساعدة فعالة ممثلو القوميات في الدولة مثل اليونان والأرمن والعرب والألبان، وغدا أتباع الأمير صباح الدين يشكلون حزبا معارضا لجمعية الاتحاد والترقي، وكانوا يرون ضرورة قيام الإصلاحات في الدولة عن طريق تدخل الدول الأجنبية⁽²⁾.

أما الاتجاه الثاني فقد أيد تكوين دولة تركية مركزية موحدة، وكان يتكون من أكثرية الأتراك الملتفين حول جمعية الاتحاد والترقي بقيادة أحمد رضا، والذي كانوا يرون السلطان الحاكم هو مصدر الشر، كما أنه م كانوا يرون أن كل شيء يتوقف علاجه على استبدال السلطان بعضو آخر من نفس العائلة، وإعادة الدستور الذي كان معطلا منذ عام 1877م، أما السلطان الجديد فسيكون بالطبع خليفة أيضا بكل ما لهذا المنصب من متطلبات، وقد انطلقت هذه الأكثرية من مبدأ وجوب سيطرة القومية التركية، وكانت المهمة الرئيسية التي طرحت من قبل أحمد رضا وهي ضرورة قلب نظام حكم عبد الحميد الثاني الذي طغى عليه الظلم، فقد ارتأت أنه من الممكن التحالف مع منظمات الأقليات القومية لإيجاد حل مشترك في هذه المهمة⁽³⁾، وكان هذا الاتجاه يوضح سياسة ومبدأ أحمد رضا ضد التدخل الأجنبي الخارجي وضد التفريط بالسلطة المركزية⁽⁴⁾، بعكس الأمير صباح الدين الذي الذي كان يميل إلى الليبرالية، وتيار أحمد رضا الذي يميل إلى التعصب⁽⁵⁾.

لكن الأمير صباح الدين كان يؤمن بالعمل العسكري وضرورة التخلص من السلطان عبد الحميد بالقوة العسكرية، لذلك تم الاتصال بالمشير "رجب باشا" وهو ألباني كان قد تولى قيادة القوات التركية في ولاية طرابلس الغرب، فوافق على القيام بالعملية، وعرض تلك الخطة بكاملها على السير "إدموند مونسن" السفير البريطاني في باريس، وبعد أن فكر في هذا الأمر، زوده برسائل إلى وزارة الخارجية البريطانية تفيد أن اللورد لانسدون أيد الخطة، ويروي إسماعيل كمال ذلك بقوله: "في اليوم التالي دعاني اللورد ساندرسن الوكيل الدائم لوزارة الخارجية لمقابلته في داره الخاصة، فقدمت له توضيحات مفصلة عن الخطة، ثم جاء الرد بالتأييد اللائق بالسياسة التقليدية البريطانية العظمى"، وتنقل إسماعيل كمال من طرابلس إلى القاهرة ولندن، وعند وصوله باريس وجد صباح الدين ولطف الله حزينين جدا على فقدان والدهما "الدامادا محمود باشا" الذي وافته المنية في 18 جانفي 1903م، ومع هذا فقد

1 - Bernard Lewis : op. cit, p 203.

2- لوتسكي: المرجع السابق، ص 395.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 113-115.

4 - Pual Fesch : op. cit, p 374. Askin Sina : op. cit, p 1794.

5- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 34-35.

رافقته صباح الدين إلى لندن للقيام بالترتيبات المالية للانقلاب المرسوم، ويروي صباح الدين أن هناك ثلاثة سفن يونانية كانت مستعدة في أثينا تنتظر إسماعيل كمال فقط للتحرك إلى طرابلس والتوجه إلى استانبول وعلى ما يبدو أن إسماعيل كمال لما وصل أثينا لم يجد استعداد أو أي تفاهم على الأمور⁽¹⁾.

ويذكر أحمد كوران أن إسماعيل بك كان السبب المباشر في الفشل وتنفيذ الخطة، والسبب تلاعبه بالأموال التي رصدت لتنفيذ الخطة⁽²⁾، وإزاء زيادة الخلافات بين الأعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، أصدر الأمير صباح الدين عام 1906م ورفاقه صحيفة ترقى واستمرت الجمعيتان تلقيان التهم على بعضهما البعض بواسطة مؤسساها النشيرة من أجل الترويج للأفكار والبرامج السياسية من ناحية وكسب المؤيدين من ناحية أخرى⁽³⁾. وعهد بإدارة صحيفة ترقى لأحمد فضلي بك الذي كان سكرتيراً عاماً في جمعية التجربة الفردية واللامركزية الإدارية والمبادرة الخاصة التي أنشأها الأمير صباح الدين⁽⁴⁾.

أما لطف الله أخ صباح الدين فقد توجه إلى استانبول لمواساة والدته سنيحة سلطنة بوفاة والده الدامادا محمود باشا، وبمجرد أن وصل إلى القصر فوجئ برجال الأمن في استقباله، ومع ذلك أقام في العاصمة على ضفاف مضيق البسفور، وتم إلغاء حكم الإعدام الذي صدر بحقه⁽⁵⁾. وكان صباح الدين رئيس الأحرار قد وجه رسالة إلى وزراء الخارجية الأوربية عام 1905م لتوطيد السلام بين أوروبا والدولة العثمانية وحملت رسالته شعار "الإمبراطورية العثمانية للعثمانيين"⁽⁶⁾.

غير أن هذا لم يمنع حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي من الانتشار بين عام 1902 - 1907م تجلت في ظهور مجموعات معارضة - للسلطان عبد الحميد - جديدة في القاهرة وفي جنيف، بل وفي الأستانة ذاتها، وهو ما كانت تحتاجه⁽⁷⁾.

- محاولة إعادة توحيد جمعية الاتحاد والترقي:

كما ذكرت أنفا أن جمعية الاتحاد والترقي مرت بظروف وخلافات سياسية وانقسامات داخلية بين أعضائها في الخارج، نتيجة دور الدولة العثمانية في إضعافها من خلال استمالة أعضائها وإغرائهم بالمال تارة، وبالمناصب

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 103.

2 - Ahmet Kuran : op. cit, pp 159-164

3 - Enver Ziya Karal : op. cit, p 522.

Fesch Paul : op. cit, p 383.

4- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 112.

5- المرجع نفسه، ص 112.

6- علي سلطان: المرجع السابق، ص 353.

7 - Sanger R, op. cit. p 33.

السياسية تارة أخرى. ومع ذلك بدأت محاولة جادة لإعادة بناء وتنظيم الجمعية. وفي مقدمة الخطوات الأولى التي اتخذت في ذلك المجال إنشاء "تنظيم عسكري سري". يرجع الفضل في إنشائه لمصطفى كمال أتاتورك، وكان من العناصر الساخطة والناقمة ضد حكم السلطان عبد الحميد⁽¹⁾، ففي أثناء وجوده في دمشق عام 1906م أسس جمعية أسمها "الوطن" ثم أضاف إليها كلمة الحرية وغدت تعرف بجمعية "الوطن والحرية" وقد ضمت الجيش العثماني الخامس المرابط في بلاد الشام، ومن دمشق كونت الجمعية فروعا لها في كل من يافا والقدس، ولكنها سرعان ما نقلت إلى سالونيك في مقدونيا⁽²⁾، وكان من زملاء مصطفى كمال أتاتورك في هذا العمل الرئيسي مساعد أول اسمه مفيد أوزداش، وآخر اسمه سليمان بك وطبيب اسمه حاجي مصطفى لعل هذا الأخير هو المنشئ الفعلي للجمعية، غير أن كمال أتاتورك صار كما يدعي هو بالتأكيد المؤسس الحقيقي لها⁽³⁾.

ويرجع اختيار سالونيك مقرا لنشاط هذه الجمعية بسبب وضعها الخاص، لأنها كانت في ذلك الوقت أكثر مناطق الدولة تقدما واتصالا بالعالم الخارجي الأوروبي، إلى جانب ضعف قبضه عبد الحميد نسبيا عليها، كما ان نشاط قوميات البلقان في المنطقة دفاع الدولة إلى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادته أنشط وأكفأ الضباط وأكثرهم ثقافة وأقداما يضاف إلى ذلك الإدارة الدولية التي تمتعت بها تحت إشراف خمس دول أوروبية، فكانت سالونيك تقع في مجال التدخل الأجنبي⁽⁴⁾، أما أهم هذه الأسباب فهو أن سالونيك كانت تزخر بنشاط الأتراك الأحرار الذين كانوا يشكلون جمعيه سريه باسم "الجمعية العثمانية للحرية" بقياده أنور ونيازي وجمال وطلعت، الذين يصبحون من أقطاب الحكم في الدولة بعد ثوره عام 1908م⁽⁵⁾.

وفي سالونيك⁽⁶⁾ دبر أعوان مصطفى كمال أتاتورك له إجازة أربعة أشهر⁽⁷⁾، حيث أسس فيها لجنة من ضباط الجيش الثالث التي كانت غامضة في نشأتها، وكان لمصطفى كمال ومجموعة دمشق دور فعال في تأسيسها في سبتمبر عام 1906م والتي عرفت بجمعية "عثمانللي حريت جمعيي" أي جمعية الحرية العثمانية⁽⁸⁾، وكانت تتألف من أعضاء أهمهم رحمي بك وطلعت بك، ومدحت شكري وإسماعيل جنبلاط مدير "مدرسة الرشيدية

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 253.

2 - Bernard Lewis : op. cit, p 201.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 118.

4- المرجع نفسه، ص 119.

5-Zein. N. Z : op. cit, p 63.

6- كانت أكثر المدن الإمبراطورية انفتاحا بحكم أن سكانها كانوا أوروبيين أكثر منهم أتراكا، وحوالي نصفهم من اليهود السفارديم الذين تحول عدد منهم إلى الإسلام في القرن السابع عشر بعد نزوحهم من اسبانيا، وعرفوا باسم الدونمة.

7- عبد الله التل: الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1971، ص 86.

8 - Bernard Lewis : op. cit, p 205.

العسكرية" وبورصلي طاهر وبعض الضباط الساخطين على الحكم في مقدونيا والأناضول وفيها بعد تحول مركز نشاط المعارضة من زعامات الفكر الجديد في المنفى صفوف الجيش العثماني⁽¹⁾.

وكان من ضمن الشخصيات الهامة التي انضمت إلى الجمعية العثمانية "أحمد نيازي"، وقد تحدث عن كيفية التحاقه بالجمعية فقال: "كنت اطلعت على منشورات العثمانيين الأحرار ومقررات مؤتمراتهم في باريس فيها يتعلق بالاتحاد من أحد إخواني بأزمير ثم سالونيك وهو الملازم مجير الدين أفندي، إذ أخبرني أن في سالونيك جمعية مؤلفة من أحرار المسلمين وأعلمني بعدها أن أحرار العثمانيين الموجودين في أوروبا ماعدا أنصار أحمد رضا بك لا شأن لهم فيهم، فكان شبابنا وضباطنا الذين يتهافتون في ذلك الوقت على منشورات أحمد رضا بك أشد التهافت، اعترفوا باحتياجنا إلى انقلاب وطيد الأركان والوصول إلى الإصلاحات العامة واتحدوا كلهم في نقطة واحدة وهو استرداد القانون الأساسي⁽²⁾، واتهمت جمعية الاتحاد والترقي بقيادة أحمد رضا بك الأمير صباح الدين وأعضاء حزبه بأنهم أصبحوا مطية للأرمن يسعون لتحقيق أهدافهم على حساب المصالح العليا للدولة، ووصفوه بأنه عميل للدول الأوروبية والتي تتدخل في شئون الدولة العثمانية، لذا فإن أنصاره الأتراك ليسوا سوى رجعيين وجواسيس باعوا أنفسهم للأجانب، كما أن دعوته إلى اللامركزية لا تعني سوى تمزيق للدولة والقضاء على السلطنة والخلافة معا وإخضاع المسلمين للكفار والأجانب⁽³⁾.

وبعد هذه التطورات التي كادت تعصف بجمعية الاتحاد والترقي، حدث تقارب بين الاتحاديين وتولى تلك المهمة "عمر ناجي" و"خسرو سامي" المنتمين للجمعية العثمانية للأحرار والذان هربا إلى باريس من الاعتقال، وعلى أثرها قاما بدراسة البرنامج السياسي للأمير صباح الدين وأحمد رضا، ووجدوا أن سياسة أحمد رضا وآرائه أقرب إلى جميعتهم، وبعد محادثات سجال تم الوفاق بين الجماعتين في 27 سبتمبر عام 1907م وجاء في بيان الوحدة ما يلي: "إن جمعية عثمانلي وترقي واتحاد والتي كان مركزها باريس وجمعية عثمانلي حريت والتي كان مركزها هي الأخرى في سالونيك قد حدث اتحاد بينهما باسم عثمانلي وترقي واتحاد جميعتي منذ ذلك التاريخ"⁽⁴⁾.

ودعت جمعية الاتحاد والترقي بعد هذا البيان إلى عقد مؤتمر في باريس في نهاية العام بتاريخ 29/27 ديسمبر عام 1907م، وكان المشاركون في هذا المؤتمر أحمد رضا والأمير صباح الدين وكذلك "مالوميان" ممثل الاتحاد الأرمني الثوري "الداشناك" والذي كان له دور بارز إلى حد ما في توحيد العديد من الجماعات الثورية

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 139.

2- أحمد نيازي الرسنه لي: خواطر نيازي أو صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني الكبير، تعريب ولي الدين يكن، مطبعة علي سكر أحمد، مصر، 1909، ص 29.

3- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج3، ص 1595.

4- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص ص 137-138.

الأرمنية، بحيث كان يعلق آمالا كبيرة على الاتحاديين والسعي إلى الوحدة والتنسيق في اجتماعاتهم، وخرج المؤتمرون الذين كانوا يمثلون القوميات أنه م يكتفون بالحصول على الاستقلال الذاتي في نطاق الإمبراطورية، وصدر عن المؤتمرين قرارات ذات طابع ثوري عنيف كان من أهمها: ضرورة خلع السلطان عبد الحميد من العرش والمقاومة المسلحة إذا لزم الأمر لتحقيق أهداف الحركة، والمقاومة غير المسلحة وذلك بالامتناع عن أداء اليمين في الجيش والعمل على إثارة القلاقل بين السكان المدنيين والإضرابات بين الموظفين والشرطة لإحداث البلبلة في جهاز الدولة والامتناع عن دفع الضرائب، وتعزيز وسائل الإعلام ضد نظام حكم السلطان عبد الحميد، ونشر الدعاية في الجيش وحمله للتصدي للسلطان وعدم محاربة الجمعيات الثورية⁽¹⁾.

ولقد تغلغلت خلايا الاتحاد والترقي في وحدات الجيش بين موظفي الدولة من المدنيين، وفي عام 1906م أخذت تنتشر الخلايا في الجيش العثماني، لعل من أهمها "جمعية الوطن والحرية" التي أسسها عدد من صغار الضباط في الجيش الخامس في دمشق، منهم "مصطفى كمال أتاتورك" الذي كان حديث التخرج يناير 1905م وأنشأت لها فروع في يافا والقدس وبيروت والعريش⁽²⁾، واتحدوا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيها العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد.

ونشط الثوار في سالونيك وخاصة في صفوف ضباط الجيش الثالث المرابط فيها، الذين عزموا على القيام بالثورة في عيد جلوس السلطان عبد الحميد على العرش، غير أن ظرفا خارجيا أوروبيا تمثل في الوفاق الودي بين إنجلترا وروسيا، اعتبره الثوار الأتراك مساومة استعمارية بين الدولتين على حساب الدولة العثمانية، التي كانت تعاني أيضا من خطر التدخل النمساوي في ألبانيا، مما دفع هؤلاء الثوار بالتعجيل بثورتهم لإيقاف المؤامرات الخارجية على ممتلكات دولتهم، فأرسل فريق من الضباط تلغرافا إلى السلطان عبد الحميد يطالبه بإعادة دستور 1876م الذي كان قد عطل العمل به منذ ثلاثة عقود، وان لم يمل هذا المطلب فان مائة ألف عسكريا سيتحركون باتجاه استانبول⁽³⁾، من جهته حاول السلطات العثمانية تدارك الموقف، بتعيين سعيد باشا المعروف بميله التحررية في رئاسة الوزراء، غير أنه ا كانت متأخرة، فقد أعلن الثوار الدستور في أماكن متفرقة من الدولة وشن بعضهم - طلعت بك ثم أنور بك - حرب عصابات ضد رجال السلطان عبد الحميد الذي سارع بإرسال قائد جديد "شمسي باشا" للجيش الثالث في مقدونيا، غير أنه قتل على يد أحد أعضاء لجنة الاتحاد والترقي، وانضمت القوات التي أرسلها السلطان من الأناضول لمقدونيا إلى الثوار وفي آخر جويلية 1908م كانت أعمال العصيان

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 140-142. أنظر أيضا: Bernard Lewis : op. cit, p 206.

2 - Stanford. J. Show : op. cit. P P 54. 260.

3 - رضا هلال، السيف والهلال: تركيا من أتاتورك إلى أربكان، الصراع بين المؤسسة العسكرية والاسلام السياسي، ج 10، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص 44.

العسكري والإضرابات المدنية قد عمت كثيرا من المدن، ولما فشل السلطان في قمع الثورة عن طريق الجاسوسية والرشوة، أعلنت جيوش سالونيك وموناستر وأدرنة الثورة ضد السلطان الذي خضع لمطالب الثوار وأعاد الدستور وان كان اجل عودة البرلمان إلى وقت مناسب⁽¹⁾، وقوبل إعلان الدستور بابتهاج شديد في كافة أنحاء الإمبراطورية، وأصر الضباط الأحرار على إجراء حركة تطهير طالت كل رموز العهد الحمدي⁽²⁾.

وبدا الاستعداد لانتخابات البرلمان التي جرت في ديسمبر من العام نفسه، وفاز الاتحاديون الذين كانوا يحكمون من وراء الكواليس ولم يقدموا برنامجا انتخابيا واضحا بأغلبية المقاعد التي بلغت 288 مقعدا، باستثناء مقعد واحد حصل عليه حزب اتحاد الأحرار العثماني، ومثل المجلس الجديد جميع عناصر الإمبراطورية (بلغ عدد الأعضاء الأتراك 147، والعرب 60، والألبانيين 27، واليونانيين 26، والأرمن 14، واليهود 4، والأسلاف 10) وكانت الانتخابات حرة وجرى تمثيل كل الملل بنسبة عدد السكان⁽³⁾.

وبدا أن البلاد مقدمة على الحكم النيابي من نفس النقطة التي انتهت عندها المسيرة في عام 1878م⁽⁴⁾.

وافتح السلطان البرلمان في 17 ديسمبر 1908م، ولكن لم تتوفر للعهد الجديد فرص كبيرة للنجاح، فقد بذل نواب الأقليات كل ما في وسعهم لشل أعمال البرلمان إلى أن يستجاب مطالبهم، وعلى حين أن النواب المسلمين قد تذبذبوا ما بين السلطان ولجنة الاتحاد والترقي فان أنصار الجامعة الإسلامية بدأوا يتحركون علانية دون أن يتضح ما إذا كانوا يستمدون وحيهم من السلطان أم لا، خاصة وان الأخير كان لا يزال حتى ذلك الوقت يتمتع بهيبة كبيرة في دولة ثيوقراطية قامت على أسس عسكرية، وهذا ما منع رجالات الثورة من خلعه في بادئ الأمر، ولكنهم ما لبثوا أن فعلوها بعد أحداث الثورة المضادة التي أطلقها أنصار الجامعة الإسلامية في العام التالي للثورة.

بعد أن كانوا قد استصدروا فتوى من شيخ الإسلام بخلعه - حيث وجهت إليه اتهامات بتدبير الثورة المضادة - وعقدوا اجتماعا لمجلس المبعوثان ليقر هذا الخلع، وتولية محمد رشاد سلطانا تحت أيديهم وسيطروا على مقاليد الحكم منذ الإعلان عن حزبهم في أبريل عام 1909م وحتى أنه يار الإمبراطورية العثمانية⁽⁵⁾، وكان من أبرز

1- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 267.

2- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 257.

3 - Welles ted: **Travels in Arabia**, 2 Vols, London, 1838, p 58.

4- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 271.

5 - Andrew W.P: **Annuaire Diplomatique de l'Empire Ottoman**, Constantinople, 1872, p 90.

أعضاء جمعية الاتحاد والترقي أحمد رضا بك، طلعت باشا، أنور باشا، جمال باشا، الدكتور ناظم، الفيلسوف محمد ضياكوك ألب⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن جمعية الاتحاد والترقي تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام ولل فكر الإسلامي، لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير عليهم، وكسب أنصار لهما في معركتهما ضد السلطان عبد الحميد، وقد نجحوا في ذلك.

ج- جمعية ترك أوجاقي:

لقد أنشأ الاتحاديون جمعية تركية سموها جمعية " ترك أوجاقي " أي طائفة الترك أو العائلة التركية، وجعلوا غاياتها محو الإسلام، وتترك العنصر العثمانية وكان مركزها الأستانة، وتخصيص مصاريفها من وزارتي الأوقاف الداخلية، ومن المشيخة الإسلامية أيضاً، وهي منتشرة في كل بلدة وقرية في الأناضول والقوقاز وتركستان وتراقية ومقدونيا، ولها فروع لكل منها مهمة خاصة به وهذه الفروع هي⁽²⁾:

أولاً: ترك كوجي، أي (القوة التركية) ومهمته العناية بصحة الترك وتقوية أجسامهم ونشر الألعاب الرياضية بينهم⁽³⁾، ويشترط الدخول في هذه الجمعية أو أحد فروعها أن يكون طالب الدخول تركيا، وان يدفع رسماً شهرياً، وان يتعهد ببذل حياته ونشاطه وماله لإعلاء شأن الترك، وبسط سيادتهم على الأمم الأخرى، وان يغير اسمه باسم توراني يعرف به بين أصحابه⁽⁴⁾.

ثانياً: ترك بوردي، أي (المملكة التركية) ومهمته العناية بالآداب التركية بطرق شتى أهمها: تطهير اللغة التركية من الكلمات العربية، وتأليف الكتب القومية باللغة المغولية، وتعليمها في المدارس ونشرها في البلاد التركية. ووظيفة أعضاء جمعية ترك بوردي مقاومة كل كاتب تركي، أو غير تركي، لا يرى رأيهم، ولا يعتقد معتقدهم، ونشر الكتب القومية، والأناشيد الحماسية بين الترك، وتدريبهم التاريخ التوراني القديم، وإفهامهم أن الترك أعظم أمة في العالم، اختارتها الأقدار لسيادة الأمم.

1- محمد حرب: السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين، المرجع السابق، ص 281، 282.

2- أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية: ثورة العرب ضد الأتراك، ترجمة وتحقيق عصام شبارو، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص 127.

3- قيس جواد العزاوي: المرجع السابق، ص 145.

4 - Andrew W.P, op. cit , p 75.

ثالثاً: ترك بلكيش، أي (العلم التركي) ومهمة أعضائه ترجمة الكتب العلمية إلى التركية⁽¹⁾.

وقد أنشأت جمعية الترك أوجاقي وفروعها، أندية عديدة في جميع المدن والقرى التركية، لتدريس تاريخ الترك القديم، ولا سيما تاريخ هولوكو وأوغوز وجنكيز خان، وبث الفكرة التركية في الأمة التركية، وجعلها تعتقد بتفوقها على الأمم الأخرى في كل شيء. وكانت هذه الأندية محرم دخولها على غير الترك، فكل من يريد أن يدخل إليها يجب عليه أن يظهر للبواب ورقة عليها اسمه ورسمه وتاريخ ولادته، وقد سعت جمعية ترك أوجاقي أخيراً في ترجمة القرآن الكريم إلى التركية القديمة مع خطبة الجمعة والأدعية الدينية وغيرها، مما يوجب عدم تلاوة القرآن والأدعية باللغة العربية، وعزمت على نزع أسماء الصحابة من الجوامع، لاعتقادها بان وجود هذه الأسماء العربية في الجوامع والأماكن المقدسة، يضعف الفكرة القومية في الترك⁽²⁾.

وليس المدارس العثمانية، رشدية كانت أو إعدادية، ملكية أو عسكرية إلا فروعاً من فروع جمعية ترك أوجاقي، وكذلك جمعية الاتحاد والترقي وجميع الجمعيات السياسية والعلمية والدينية، التي تأسست في الأستانة والأناضول، قبل الحرب الأوروبية وبعدها⁽³⁾.

د- جمعية الوطن التركي:

من الجمعيات التركية الأخرى التي استهدفت جمع الترك في جامعة قومية، يجب الإشارة إلى جمعية الوطن التركي التي تأسست في عام 1911م على يد جماعة من المتعصبين للقومية التركية، ومن بينهم خالدة أديب مؤلفة رواية "طوران الجديدة"، وجلال نوري صاحب كتاب "تاريخ المستقبل" الذي دعا فيه إلى الحرص وفرض اللغة التركية، وتحويل الحجاز واليمن إلى مستعمرات تركية، وإكراه أهالي الشام على ترك بلادهم وزرع جاليات تركية فيها، إلى جانب تحويل الأفطار العربية إلى أقاليم تركية مبرراً ذلك بأن الأجيال العربية الجديدة أصبحت يغلب عليها التعصب للجنس العربي مما يهدد الأتراك بكارثة عظيمة، كذلك الإشارة إلى فؤاد كبوروللي والشيخ عبيد الله من أهالي أفغانستان وصاحب كتاب "قوم جديد"⁽⁴⁾، الذي كان يتضمن خطبة ألقاها في جامع أيا صوفيا، وقد أثار هذا الكتاب العرب إثارة جديدة، مما يتضح جلياً في منشور الشريف حسين الذي ارجع فيه بعض مبررات الثورة العربية إلى تلك الاتجاهات العدوانية التي صدرت في المؤلفات التركية وما تتضمنه من طعن في العرب

1- أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية: المصدر السابق، ص 127.

2- المصدر نفسه، ص 128-129.

3 - Berard. V: **La Mort de Stanbul**, Paris, 1913, p 63.

4 - The Asiatic Quarterly Review: **Edited by Demetrius Boulger Vol 1 January, Apr, 1886**, London, p 81.

والإسلام، وإلى جانب تلك المنتديات والجمعيات الأدبية والوطنية أسس الأتراك أحزابا سياسية من بينها الحزب الدستوري الذي ظهر في استانبول عام 1912م ووضع شعارا له بان الرابطة التركية فوق الرابطة العثمانية⁽¹⁾.

هـ - الحركة الطورانية:

الأتراك من الأقوام الكبيرة المنتشرة على مساحة واسعة من الأرض، فالفرع الغربي منهم يقطن آسيا الصغرى المعروفة باسم "الأناضول" على حين أن الفرع الشرقي منهم يقطن "كاشغر"⁽²⁾ المعروفة باسم "تركستان الصينية"، وتختلف الآراء حول أصل الترك، فأنور باشا⁽³⁾، يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول، ويميل إلى أن الترك هم أصلا من الجنس الأبيض الآري، وإنما اختلطوا بالجنس الأصفر المغولي، وقد وصف بعض مؤرخي الترك أعمال جنكيز خان وهولاكو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والإفرنج والروس، بل لقد ألف لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوي كتابا خاصا بفضائل جنكيز خان وهولاكو وجرائمهما، حيث أنه ليس للترك الفخر بمثل هؤلاء المفسدين في الأرض العائثين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب، وإذا أراد الأتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة حسابهم فيراجعوا تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وأل زنكي الأتابكي والدولة العثمانية.

أما جلال نوري صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة فيقول: "أن الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانيا"، وأما الرأي الآخر الذي يدعم الفئة الطورانية فمن أشهر دعاة ضياء كوكب ألب⁽⁴⁾، وأحمد أغايف ويوسف أقشور اللذان قدما من روسيا، ويزعم هؤلاء أن الترك هم أقدم الأمم البسيطة وأعرقها مجدا وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحدا ويسمون ذلك "بالجامعة الطورانية"، ولم يقتصر فيها على الترك الذين يعيشون في سيبيريا، وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاز

1- معهد البحوث والدراسات العربية: العلاقات العربية التركية من منظور عربي، ج 1، 1991، ص 186.

2- كاشغر مدينة إسلامية قديمة وتقع في غرب بلاد الصين بالقرب من روسيا على شاطئ نهر قيزل صو، وتسمى بالصين سوفو. نقلا عن فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط2، دار النفائس، بيروت، 1983، ص 61.

3- أنور باشا هو ناظر الحربية في الحكومة الاتحاديين.

4- ضياء كوكب ألب (1875-1924) أنه واحد من أبناء تركيا الذين دعوا إلى سلخ تركيا من ماضيها الإسلامي الغربي وتكوينها قوميا خالصا، وإثارة الحضارة الغربية على أساس امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك كما يزعم في تكوينها وحراستها، واستغل ضياء كوكب ألب وظيفته كأستاذ في جامعة إستانبول ومواهبه الشخصية، فاستطاع أن يؤثر بأفكاره في الجيل التركي الجديد. ولقد نادى بقوله الحضارة الغربية وترك الدين الإسلامي، لأنه ادعى سبب استعبادنا للغرب، وبذلك يقول: علينا أن نختار أحدى الطريقتين، إما أن نقبل الحضارة الغربية، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب... ويجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لنُدافع عن حريتنا واستقلالنا، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة إسلامية، كما لا يصح أن نسمي الحضارة الشرقية حضارة إسلامية. أنظر صالح حسين الرقب: حاضر العالم الإسلامي والغزو الفكري، مكتبة الأمل التجارية، غزة، 2000م، ص 92. محمد محمد حسين: المرجع السابق، ص 65.

والأناضول والرومللي، بل تمتد تلك الرابطة إلى المغول في الصين وإلى المجر والفنلانديين في أوربا وكل ما يقال أنه ينتمي إلى أصل طوراني، وهم يقولون أنه م ترك أولا ومسلمون ثانيا، وشعار عدم التدين وإهمال الجماعة الإسلامية، وقد غالى كثير من أصحاب هذا الرأي في الطورانية، حتى قالوا نحن أترك فكعبتنا طوران، وهم يتغنون بمدائح جنكيز خان ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم، وأصحاب هذا الرأي يفضلون إحياء الجاهلية التركية كالوثن التركي المعروف "يوزقورت" (الذئب الأبيض) ولهذا الوثن أناشيد يترنمون بها وهو مصور على بعض طوابع البريد للحكومة التركية⁽¹⁾.

وقد أسس الأتراك دولا عديدة في مختلف أقسام آسيا عبر مراحل التاريخ المختلفة، وبعض هذه الدول انقرضت قبل أواسط القرن 19م باستثناء واحدة منها هي الدولة العثمانية⁽²⁾، على أن بعض المؤرخين يرون أن الحركة القومية التركية كان لها صدى واسع، لأنها كانت مبكرة في ظهورها عن الحركة العربية من ناحية الترتيب الزمني، ولكنها أثرت أيضا بشكل وغير مباشر في مجرى واتجاهات الحركات القومية في بقية أنحاء الإمبراطورية⁽³⁾، إلا أن جذور الفكرة التركية في الأساس كانت قديمة منذ القرن الثامن عشر الميلادي، ويرى الدكتور قيس العزاوي أن التأسيس النظري للفكر القومي التركي كان قد بدأ قبل ذلك بكثير، وبالتالي فإن الجهود أثمرت في التنقيب عن أركان هذا التأسيس وأعلامه ودوافعه إلى حقائق في غاية الأهمية نتج عن تصنيفها وجمعها⁽⁴⁾.

ويرى ساطع الحصري رأيا آخر عن كلمة التركية إذ يقول: التركية أصبحت في عرف رجال الدولة وكتابها مرادفة للعامة والبدائية، فكانت لا تستعمل إلا للدلالة على السرقة والسذج من الناس حتى أن بعض المؤرخين عندما يضطرون إلى ذكر كلمة الأتراك كانوا يردفونها بتعبير " بي إدراك " ومعناها المحرمون من الإدراك⁽⁵⁾.

وعلى ما يبدو أنه حتى القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن لدى الأتراك أي نزعات قومية، إلا أنه م اعتبروا أن ما كتبه المؤرخ الفرنسي "دجين" عام 1756م عن التاريخ العام للهن والترك والمغول⁽⁶⁾، وبعض التتار الغربيين مرجعا أساسيا أيقظ الأتراك وجعلهم يبحثون عن جذورهم القومية، والتي تربط ارتباطا وثيقا بالتتار والهن على امتداد أواسط قارة آسيا وأروبا.

1- مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط1، دار الدعوة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1985، ص 174

2- ساطع الحصري: الأعمال القومية لساطع الحصري، القسم الأول سلسلة التراث القومي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 716.

3- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، 247.

4- قيس جواد العزاوي: المرجع السابق، ص 127.

5- المرجع نفسه، ص 126.

6- أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، دار المعرفة، القاهرة، 1961، ص 23.

وهكذا بدأت القومية التركية تظهر في مجالات الأدب، فبدلاً من النماذج الفارسية والعربية أخذ الاتجاه يظهر نحو تقليد النماذج الأوروبية عامة والفرنسية خاصة، فكانت الحركة الرومانتيكية في الأدب التركي، ومع أن هذه الحركة لم تكن لها قوة كبيرة، إلا أنه أ ساعدت على تقوية الاتصالات بالحياة الثقافية الغربية⁽¹⁾، وكانت أفكار الأدباء والأحرار في أوروبا مثل جان جاك روسو ومونتسكيو قد ترجمت وانتشرت بين المثقفين العثمانيين، كما كانت أفكار الثورة الفرنسية وأحداثها قد وصلت إلى كل مكان، ووجد الشباب العثماني كل ذلك الضوء المنير لهم لإصلاح الدولة العثمانية وكان أشهر هؤلاء الشباب نامق كمال، وإبراهيم شناسي وضياء باشا الذين وجدوا أن الغربيين قد أخذوا كثيراً من المفاهيم الإسلامية وطبقوها، وعلى الدولة العثمانية العودة إليها والتمسك بها⁽²⁾، وقد ازداد تأثر هؤلاء الشباب أيضاً عن طريق البعثات العلمية إلى أوروبا أو نتيجة السفر إلى الخارج، فضلاً عن انتشار حركة الترجمة والصحافة⁽³⁾.

وعلى هذا بدأت جهود إحياء الذكريات القومية التاريخية، فالأتراك العثمانيون حتى نصف القرن التاسع عشر، لا يكادون يعرفون شيئاً عن ماضيهم وتاريخهم وأصلهم، ومنسبهم، بل كانوا تذكروا ماضي أجدادهم العسكري، بالإضافة إلى تلاوة القرآن الكريم وقراءة السيرة النبوية والأحاديث الشريفة، يليها أنباء انتشار الفتوحات العثمانية في القارات الثلاث، فلما انبرى رواد عصر الإصلاح من أرباب النهضة أخذوا يوقظون أبناء قومهم، وأخذت رائحة العزة القومية تنتشر⁽⁴⁾.

في الوقت الذي أخذت فيه الأصداء تتجاوب مع دعوة الجامعة الإسلامية التي أعلنها السلطان عبد الحميد ليبشر بها أجيال المسلمين التي تراخت لتتجمع تحت راية واحدة هي راية الإسلام، وتقف متحدة في وجه الاستعمار الغربي، وأدرك الاستعمار الغربي خطر هذه الدعوة التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني التي تهدده من جهة، وتذهب بأطماعه من جهة أخرى، كذلك نظر الاستعمار إلى هذه الدعوة على أنه استضعاع عليه سيطرته على الدولة العثمانية والدول التابعة لها، والذي بات يخطط لها.

لذلك اتجه الغرب إلى ضرب هذه الجامعة بإيجاد البديل عن الخلافة الإسلامية، بإحياء القوميات المحلية والإقليمية الضيقة للحيلولة دون تجمع المسلمين فكرياً وسياسياً، وعمل النفوذ الغربي على تهيئة الاتحاد بينهم منذ وقت بعيد من خلال محافل الماسونية للدور الذي سيقومون به لتمزيق الدولة العثمانية والقضاء على ترابط

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، 248.

2- علي سلطان: المرجع السابق، ص 321.

3- محمد حرب: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، المرجع السابق، ص 93.

4- محمد محمد حسين: المرجع السابق، ص 65. لوثر ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، ط4، ج4، دار الفكر، الفكر، بيروت، 1973، ص 157-158.

المسلمين، فقاموا بتبني فكرة الدعوة إلى الجامعة الطورانية في مقابل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وقد تأخر في استانبول ظهور الحركة الطورانية بشكل علني ورسمي حتى نجاح الانقلاب الدستوري الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي عام 1908م⁽¹⁾، وسعى الاتحاديون منذ وصولهم إلى الحكم إلى هدم المدنية الإسلامية وإحياء القومية التركية على أنقاضها، واتخذوا من الدعوة للحركة الطورانية دعامة من دعائم سياستهم بعد أن انتهى إليهم حكم البلاد، وكانت هذه الحركة تستمد أسسها من تحديد الإيمان بانتساب الشعب التركي العثماني إلى أصول طورانية فأدى إلى الاعتقاد بأن السبيل لبعث الجنس التركي واتحاده من جديد بالشعوب التي تمت إليه بصلة القرى من السلالة الطورانية، وكان أكثر هذه الشعوب تحت الروس، وعلى الرغم من أن الاتحاديين لم يعتنقوا عقيدة الوحدة الطورانية الشاملة بكل ما نتج عنها من مشكلات تحرير تلك الشعوب وضمها مما يدلنا على أن هذه الحركة كانت تهدف إلى هدم الخلافة وتمزيق وحدة المسلمين.

لقد أثرت الحركة الطورانية في الاتحاديين تأثيراً قوياً وانتشرت الدعوة إلى تجنيد العناصر التركية وأبرزها لروابط القرى بين الأتراك العثمانيين في الدولة العثمانية وخواصهم في الجيش في آسيا الوسطى، وأصبح الرأي الشائع لدى الأتراك العثمانيين هو أن الحركة الطورانية هي الملاذ الوحيد لخلاصهم وسعادتهم⁽²⁾.

دعت الحركة الطورانية إلى إحياء مجد الأتراك الأوائل وربط الأتراك بتراثهم الحضاري التركي الأصيل وتخليص الفكر التركي من المؤثرات الخارجية التي دخلت عليه ولا سيما الفارسية والعربية، وأصبح طوران من أكثر الألفاظ عندهم تداولاً، ولم يكتف هؤلاء مقتهم لباقي القوميات الأخرى لداخلية في الدولة وبخاصة القومية العربية، بعد خلع السلطان عبد الحميد عام 1909م تحولت الفكرة القومية من كونها مجموعة من الدعوات لبعض الأدباء المثقفين الذين يحملون بوطن مثالي إلى سياسة ينتهجها أغلب سياسي الصف الأول في الدولة، وقد تفرغ ضياء كوك ألب عضو اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي بعد مؤتمر سالونيك عام 1909م لنشر نظريته القومية والاجتماعية على صفحات مجلة "الأقلام الشابة" التي صدرت في سالونيك، وفي عام 1911م تأسست رسمياً "الجمعية الطورانية للإعلام والعلوم" وفي ديسمبر من العام نفسه صدرت مجلة قومية تركية هي "تورك يوردي"⁽³⁾، لذا تميزت هذه المرحلة بازدهار الأدب القومي فنشر ضياء كوك ألب ديوان شعر طوراني الذي يقول فيه: "إن وطن الأتراك ليس تركيا ولا تركستان، إن وطنهم هو بلادهم الكبيرة الخالدة طوران"، كما نشرت الكاتبة المعروفة خالدة

1 - Huart Geoffery Lewis : **Histoire des Arabes**, 2 tomes, Paris, 1912, p 29-32.

2 - مجدي عبد المجيد الصافوري: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة، 1990، ص 215-217.

3 - Edid Halid : op. cit, p 64.

أديب خانم رواية سمّتها " بني طوران " أي طوران الجديدة وفيها تطالب بالعودة إلى طوران الكبرى، حيث لابد ان تتمتع النساء بحقوقهن كاملة ومن بينها حق الانتخاب⁽¹⁾.

لقد حملت الحركة الطورانية في طياتها بذور العداء للعرب والإسلام، ويشهد بذلك عبد الله أفندي في كتابه " قوم جديد " الذي عينته جمعية الاتحاد والترقي مدرسا في جامع أيا صوفيا، وقد قامت مجلة المنار بترجمة أجزاء من كتاب " قوم جديد " وذكرت ان الكتاب يحرف القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة دين القدماء المسلمين وعبر عنهم بكلمة " قوم عتيق " وصرح بعدم جواز العمل بكتب فقه الأئمة الأربعة، وفي مقابل ذلك بين الكتاب أركان دين " قوم جديد " وهي العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد مالا والسعي لإعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الإسلامية العثمانية، والإشارة في كتاب " قوم جديد " إلى الجهاديين تثير العجب لأن جمعية الاتحاد والترقي فضلا عما كان يحيط بها من شبهات فيما يصل قيادتها باليهودية العالمية لم يكن يربطها بالخلافة الإسلامية سوى الاحتفاظ بخليفة رمزي لا حول له ولا قوة⁽²⁾.

ومن الحقائق التي أثبتتها الأبحاث التاريخية والوثائق التي نشرت في القرن العشرين، ان هذه الحركات القومية العنصرية كانت تقف وراءها الماسونية العالمية وسفارات الدول الأجنبية، والأقليات غير الإسلامية، والمؤسسات الثقافية التنصيرية التي أنشأتها الدول الاستعمارية الكبرى يومئذ، ومن أبرزها الجامعة الأمريكية في بيروت⁽³⁾.

وانتهت الحركة الطورانية العنصرية في تركيا إلى إلغاء الخلافة العثمانية الجامعة الإسلامية لوحدة المسلمين، وإبعاد الإسلام من شؤون الحياة وإعلان اللاتينية ومحاربة اللغة العربية وإلغاء حروفها، وفرض سياسة التتريك على الشعوب الإسلامية الأخرى كالأكراد والعرب في ظل الانقلابات الكمالية في أوائل القرن العشرين⁽⁴⁾.

لقد استغل دعاة الطورانية نفوذهم بأساليب استفزازية دالت على حمايتهم لترجيح المصلحة التركية والأضرار بإخوانهم رعايا الدولة الآخرين وحكموا الدولة على أساس السيادة والجنس للعنصر التركي⁽⁵⁾، وكان لسياسة التتريك هذه، واضطهاد الشعوب التي كانت منضمة تحت لواء الخلافة العثمانية لا سيما العرب والاستعلاء عليهم سببا في رد فعل قوي عند شباب العرب المتأثرين بالثقافة الأوروبية.

1- قيس جواد العزاوي: المرجع السابق، ص 141.

2- محمد الخير عبد القادر: نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة، 1985، ص 82-83.

3- Charles Swallow, op. cit. P 63.

4- مجدي عبد المجيد الصافوري: المرجع السابق، ص 220-221.

5- علي شعيب: المرجع السابق، ص 28.

إن كل هذه العوامل كانت دافعا أساسيا للمطالبة بالإصلاحات الإدارية والسياسية في الدولة العثمانية، والتي أدت في النهاية إلى الاتجاه المركزي بهدف تشديد القبضة على الولايات التابعة لها⁽¹⁾.

وهكذا شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نشاطا قوميا كثيفا ظهر معبرا عن تحد كبير للاتجاهات كانت مقدسة في الدولة العثمانية كمبدأ تساوي الشعوب المتآلفة بالإسلام داخل الإمبراطورية، فالقوميون الجدد ينادون بسيادة جنس على باقي الأجناس ويقولون بتميزه بل أنه م شرعوا يجاهرون باحتقار الأجناس الباقية وينظرون لسياسة تترك القوميات غير التركية⁽²⁾.

1 - ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، ط1، دار النهار، بيروت، 1968، ص 47.
2 - Welles ted : op. cit. P 20.

الفصل الثاني: سياسة الاتحاد والترقي في الإدارة والحكم:

شكلت جمعية الاتحاد والترقي حلقة في السلسلة التاريخية للتحديث أو التغريب العثماني، بل قيم الاتحاديون على أنهم الجناح الأكثر حداثة بين المفكرين العثمانيين، ومثلما كان للاتحاديين دورهم في حركة التحديث العثمانية، فإن هذه الحركة التي بدأت مبكراً إبان القرن التاسع عشر، كان لها دورها الفعال في صيرورة جمعية الاتحاد والترقي وصياغة أفكارها، واستولت على الإدارة والحكم، وبدأت في تنفيذ سياستها على السلطة.

1- استيلاء الحزب على السلطة :

لقد كشف البرنامج السياسي الذي أعلنته جمعية الاتحاد والترقي بعد الثورة الدستورية النقاب عن طبيعة المرحلة السياسية المقبلة، ورغم أن الجمعية وصفت هذا البرنامج بأنه مؤقت ريثما يجتمع مجلس المبعوثان، إلا أنه نص على مسؤولية الوزارة أمام البرلمان وحق مجلس المبعوثان والأعيان في تشريع القوانين والتصويت العام. كما نص البرنامج السياسي على المساواة التامة بين جميع المواطنين أمام القانون وفي الحقوق والواجبات دون تفرق بين الأديان والأجناس، وحرية التعليم وتأليف الجمعيات وشمول خدمه التعليم في لكافة المواطنين بما فيهم غير المسلمين، وإصلاح حاله الفلاحين وتسوية العلاقات بين العمال وأصحاب العمل⁽¹⁾.

لقد جاء هذا البرنامج معدلاً لنصوص الدستور عام 1876م، ذلك أن هذا الدستور لم يتضمن المسؤولية الوزارية أمام البرلمان وحق المجلس في التشريع، أما اللغة الرسمية فقد بقيت اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة. ورغم أن جمعية الاتحاد والترقي قد تمتعت بأغلبية برلمانية في الانتخابات التي أجريت عام 1908م، كما انتخب أحمد رضا أحد مؤسسيها رئيساً لمجلس النواب، إلا أن الجمعية لم تعزل السلطان عبد الحميد الثاني وتستلم السلطة مباشرة، بل أبقت على السلطان والحكومة على رأس السلطة، ولم يبعد الرجال السلطان المشكوك بهم.

ويرجع ذلك إلى عدم وجود رصيد جماهيري في العاصمة، لأن الحركة هناك تلقت الضربات التصفية على يد السلطان قبل إعلان الدستور من ناحية، ولأن مركز السلطان عبد الحميد الثاني بمكانته الدينية من ناحية ثانية، كان يحول دون سيطرة الجمعية المباشر على السلطة⁽²⁾.

لكن الجمعية كانت توجه السياسة العامة من المركز العام لها في سالونيك بواسطة اللجنة المركزية التي تم انتخابها في عام 1908م، وهي مكونة من ثمانية أشخاص، كما كانت الأندية التابعة للجمعية في الولايات تقوم

1- توفيق برو: العرب والترك في عهد الدستوري، المرجع السابق، ص 80.

2 - Robison Richard : op. cit, p 10.

بتوجيه الولاة ومما يلتفت النظر في تكوين اللجنة المركزية أنه اقتضت على عنصر واحد من عناصر الدولة وهو الترك، حيث لم يمثل أحد من القوميات الأخرى وخاصة العرب في هذه اللجنة، وقد سارت الجمعية على هذه السياسة حتى آخر عهد الاتحاديين في الحكم⁽¹⁾.

وقد أتاحت الفرصة للجمعية لكي تستولي على السلطة مباشرة اثر القضاء على الثورة المضادة التي قام بها التجمع الرجعي المعارض للجمعية الاتحاد والترقي والثورة الدستورية بشكل عام. وقد تكون هذا التجمع من أنصار السلطان عبد الحميد الثاني والمتدينين المسلمين الذين اعتبروا الثورة الدستورية اعتداء على الشريعة الإسلامية وإجبار السلطان على هذه المخالفة، وكانت هذه الفئة قد كونت جمعا معارضا للثورة بقياده درويش وحدي، وهو أحد المتدينين. وأطلق على هذا التجمع اسم "الاتحاد المحمدي" الذي تأسس في الخامس من أبريل عام 1909م⁽²⁾، أما الفئة الثانية من هذا التجمع فقد تمثلت في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي، والذي تكون في أواخر عام 1908م باسم "حزب الأحرار"، ورغم أن هذا الحزب قد ورث المبادئ التي نادى بها حزب "اللامركزية الإدارية للتجمعات القومية" من حيث اللامركزية الإدارية، إلا أن حزب الأحرار وقف وقفا معارضا للثورة الدستورية، متحالفا مع الفئة الإقطاعية الساخطة على الثورة والمؤيدة لعبد الحميد الثاني⁽³⁾.

وفي 13 أبريل من عام 1909م اندلعت هذه الثورة المضادة واستولى الثوار على عدد من المباني الحكومية وقاموا بحمله ضد أعضاء الثورة الدستورية، وكان من بين القتلى محمد ارسلان الشخصية الكبيرة في الحركة العربية كما قتل وزير العدل التركي⁽⁴⁾.

وفي دمشق قدر محمد كرد علي الذين دخلوا الاتحاد المحمدي بحوالي 70 ألف، لكنه أضاف قائلا "بأنهم دخلوها عن سلامة نية، لأنهم أحبوا اسمها فقط، لكنهم لم يكونوا ضد الدستور"⁽⁵⁾، وإذا صحت رواية كرد علي، فإن هذا العدد الكبير من الشاميين الذين ساندوا الحركة المضادة لم يكونوا يشكلوا سوى حركة ضد سياسة الاتحاديين المركزية والعنصرية.

1- توفيق برو: العرب والترك في عهد الدستوري، المرجع السابق، ص 117-118.

2 - Lewis. B : op. cit, p 212.

3- لوتسكي: المرجع السابق، ص 401.

4- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 98-99. لوتسكي: المرجع السابق، ص 401.

5- محمد كرد علي: خطط الشام، ج3، دار النوادر، دمشق، 1952، ص 120.

ونتيجة لهذه الحركة المضادة التي كان وراءها السلطان عبد الحميد، استدعت جمعية الاتحاد والترقي القوات العسكرية المتمركزة في سالونيك بقيادة محمود شوكت إلى العاصمة⁽¹⁾.

وبعد معارك ضارية في شوارع العاصمة، استطاع محمود شوكت قمع الثورة المضادة. وفي 27 أبريل من نفس العام خلع السلطان عبد الحميد وعين مكانة أخيه الأصغر محمد رشاد باسم محمد الخامس، وقد صدر بذلك فتوى من شيخ الإسلام⁽²⁾.

وبعد قمع الثورة المضادة، عقد الاتحاديون العزم على أن يؤلفوا الحكومة بأنفسهم وليس عن طريق السيطرة غير مباشرة، وأقاموا ديكتاتورية عنصرية لصالح الأتراك واضطهاد القوميات الأخرى. وكانت السياسة القومية التي انتهجها الاتحاديون رجعية بصفة عامة إذ أنه لم تخلوا كلياً عن العهود التي التزموا بها أمام القوميات التي تتكون منها الإمبراطورية في مؤتمر باريس عام 1907م.

وقد بدءوا بإغلاق الجمعيات العربية وجمعيات القوميات الأخرى، فأغلقوا في أبريل من عام 1909 جمعية الإخاء العربي العثماني، ثم تبع بعد ذلك سياسة التتريك القسري للشعوب الغير تركية، فأغلقوا المدارس القومية وجعلوا اللغة التركية هي لغة الدولة الرسمية فقط⁽³⁾.

2- التناقضات الفكرية في سياسة الاتحاديين:

لقد وقع الاتحاديون في تناقضات فكرية من أجل المحافظة على تماسك الإمبراطورية من ناحية، وضمان سيطرة العنصر التركي من ناحية ثانية، ويقول بهذا الشأن ارلوند توينبي: " أن الاتحاد والترقي كان هدفين متناقضين، وانه عندما أرغمت الأحداث الحزب على الاختيار والمفاضلة بينهما ضحوا بالترقي على أمل إنقاذ الوحدة، وفي هذه الظروف كان لابد من استخدام القوة من اجل تماسك الإمبراطورية، وتعني القوة العودة إلى الاستبداد من النوع الحميدي يفرضه الترك واحدهم على باقي العثمانيين من غير الترك، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين"⁽⁴⁾.

وقد تبلورت هذه التناقضات في ثلاث تيارات فكرية رئيسية طيلة حكم الاتحاديين وهي:

1- وهو عربي من العراق، أصبح أخوه حكمت سليمان رئيساً للوزراء العراق في عام 1936 وعين محمود شوكت وزيراً للحربية بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، ثم رئيساً للوزراء عام 1913، إلا أنه اغتيل في هذا العام على يد الحزب المعارض للاتحاديين وهو حزب الحرية والائتلاف. أنظر سليمان موسى: المرجع السابق، ص 27.

2 - Lewis. B: op. cit, p 213.

3- لوتسكي: المرجع السابق، ص 401-402.

4 -Toynbee. A: A Study of History Vol 8, Oxford , 1955, p 262.

- الجامعة العثمانية.

-الجامعة الإسلامية.

- الجامعة الطورانية.

- التناقض الأول الجامعة العثمانية:

وكانت أولى النظريات السياسية التي تبناها حزب الاتحاديين، وهي " الجامعة العثمانية". ورغم ان هذه الرابطة تهدف إلى حل مشكله القوميات في الإمبراطورية، وذلك بعثمة هذه القوميات فيصبح جميع سكان الدولة على اختلاف دياناتهم وعرقهم مواطنين أحرار في امة واحدة يتمتعون بالحقوق والواجبات بالتساوي، وعلى الرغم من عيوب هذه النظرية في إنكار أصله القوميات، فان هذه الوعود الجميلة لم تحقق إطلاقا طيلة حكم الاتحاديين⁽¹⁾، ذلك ان الاتحاديين اخذوا يفسرون هذه النظرية بالمفهوم التركي ولصالح عنصر واحد من عناصر الإمبراطورية وهو العنصر التركي فقط، وهذا ما عبر عنه وزير خارجية الدولة العثمانية عام 1912 لمراسلة جريدة "الديلي تليغراف" اللندنية حيث اعتبر العثمانية بأنها لا تتنافى مع التركيز على العنصر التركي في الدولة بصفه عنصرا حاكما⁽²⁾.

ولتحقيق هذا الغرض، ارتكب الاتحاديون كثيرا من الأعمال التي تتناقض مع مفهوم الجامعة العثمانية والإخاء والحرية والمساواة التامة لجميع العناصر، ومن هذه الأعمال:

- قضية تنسيق موظفي العهد البائد: فقد الغوا اللجان في الأستانة وعواصم الولايات لهذا الغرض، فتم عزل عدد كبير من الموظفين العرب لاسيما من وزارتي الداخلية والخارجية، حيث عزلوا في وقت قصير أكثر من عشرة متصرفين عرب⁽³⁾، ولم تعد وزارة الخارجية تضم إلا واحدا من العرب بعد أن كانت تضم اثني عشر شخصا عربيا. وكانت لجان التنسيق كي تفرق بين التركي والعربي، تضع الجانب اسم العربي حرف " ع " في جداول التنسيق. وقد نشرت الصحف العربية هذا الخبر ولم تكذبه الحكومة حتى أستدل العرب بسكوتها على صحته، وبعد أن ابعد كل من عزت العابد وأبو الهدى الصبادي والإخوان سليم ونجيب ملحمة وغيرهم من كبار موظفي القصر

1 - Heyd Urzil: op. cit, p 120.

2- الكومل: 1912/9/6.

3- محمد رشيد رضا: العرب والترك، المنار، م 12، ج12 يناير 1910، ص 917.

السلطاني، لم يبق عرب آخرون لهم من الأهمية والنفوذ من يذكر في مناصب الدولة بما فيهم وزير الأوقاف العربي الشريف علي حيدر، حيث تم إسناد هذا المنصب إلى شخصية تركية⁽¹⁾.

- قضية الانتخابات النيابية العامة: كذلك اتبع الاتحاديون سياسة انتخابية لعضوية مجلس النواب، بحيث تكفل أكثرية تركية أولاً، ومن المنتسبين إلى جمعية الاتحاد والترقي ثانياً. وعلى الرغم من أن المادة 72 من الدستور تنص على أنه من الواجب على الناخبين أن ينتخبوا المبعوثين من أهالي دائرة الولاية التي هم منها، فإن الاتحاديين لم يتقيدوا بهذه المادة، لذلك عمدوا إلى ترشيح مبعوثين من الترك في مختلف الولايات العربية، وقد فاز منهم 15 نائباً تركيا ليمثلوا العرب⁽²⁾.

ونتيجة لهذه السياسة جاء عدد المقاعد التي شغلها العرب في مجلس النواب 60 مقعداً مقابل 156 مقعداً للأتراك، وبلغ عدد أعضاء مجلس الأعيان الذين تم تعيينهم 40 عضواً كان من بينهم ثلاثة أعضاء فقط من العرب، وبذلك يكون حزب الاتحاد والترقي قد ضمن أغلبية تركية في هيئته الاستشارية رغم أن العرب كانوا يشكلون نصف عدد سكان الدولة تقريباً⁽³⁾. وهذه السياسة متناقضة مع مفهوم الجامعة العثمانية والمساواة بين جميع العناصر في الدولة. قد أكدتها أيضاً تصريحات بعض زعماء الاتحاديين في حق العنصر التركي في التمايز على غيره من عناصر الدولة، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه حسين جاهد في صحيفة " طنين " في أكتوبر من عام 1908م، بأن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفقتهم فاتحين، وأنه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى، وأن الدستور العثماني لا يمكن أن يكون في شكله النهائي سوى دستوراً تركياً⁽⁴⁾.

وعلى ذلك فإن مجال الانتخابات العامة في الدولة كثيراً ما كان يخرج عن نطاق التنافس الشخصي الحر ليصبح صراعاً قومياً بين العرب والترك. إذ حرص الاتحاديون على أن يكون نواب البلاد العربية الذين لا يكونون منتسبين إلى جماعاتهم من غير المتحمسين للقضايا العربية القومية ومن غير المثقفين ثقافة عصرية، ومن غير أصحاب النشاطات والحركات الاجتماعية والسياسية، إلا أن هذا الأسلوب قد لاقى مقاومة عنيدة في بلاد الشام

1- رفيق العظم: مجموعة آثار رفيق بك العظم، جمعها عثمان العظم، مطبعة المنار، مصر، 1344هـ، ص 113.

2- منهم خلوص بك عن طرابلس الشام، وآخرون عن طرابلس الغرب، والحديدة، وبغداد، والديوانية وفزان، أنظر توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 101.

3- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 110. محمد بديع شريف: المرجع السابق، ص 86.

4- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 101.

واستطاع عدد من الأشخاص من أصحاب النشاطات والتطلعات في القضية العربية أن يفوزوا بالانتخابات، رغم الجهود التي بذلتها جمعية الاتحاد والترقي لتحويل دون ذلك⁽¹⁾.

كذلك تصرف حزب الاتحاد والترقي في الدورة الثانية من دورات الانتخابات للهيئة البرلمانية في عام 1912م، تصرفاً مطابقاً للدورة الأولى في عام 1908م، حين أجريت الانتخابات لأول مرة⁽²⁾، ففي سوريا لجئوا إلى الفئات المناوئة للإصلاحيين العرب، مثل محمد باشا العظم وعبد الرحمان اليوسف وسليم الكزبري في دمشق، وخالد البرازي في حماه، وذلك بعد أن استمالوه، كما استمالوا كمال الأسعد في بيروت وسعد الدين أفندي في حوران واسعد شقير في عكا، وكان الاتحاديون يلفقون على من يعترض إرادتهم الدعاوى الكاذبة، فيتعرض للسجن والتعذيب⁽³⁾.

ويروي حقي العظم عن اسعد شقير نائب عكا عندما جاءه الأهالي مهئين كنائب عنهم، فأجابهم " لم ينتخبني أهل عكا، ولست مديونا لهم بالشكر، لأن انتخابي كان قد تقرر في الأستانة على يد جمعية الاتحاد والحكومة"⁽⁴⁾، كما يضيف حقي العظم ما يقرب من 65 مخالفة قام بها الاتحاديون في عملية الانتخابات عام 1912م⁽⁵⁾.

- المركزية الإدارية وفرض اللغة التركية على حساب اللغات القومية في الدولة: كما اتبع الاتحاديون سياسة المركزية الإدارية كي يضمنوا السيطرة التركية على جميع القوميات في الإمبراطورية وتحويل هذه السياسة إلى سياسة التتريك العناصر بما فيهم العرب. واتبع الاتحاديون أساليب شتى لتحقيق أهدافهم في التتريك: ومن هذه الأساليب فرض اللغة التركية كلغة رسمية واحدة في الدولة، حيث أنه لم يسمحوا للعرب بفتح مدارس أهلية تعلم دروسها باللغة العربية، أما مدارس الحكومة، فإنها كانت تدرس البرامج التي وضعتها الحكومة والتي تهدف إلى التتريك⁽⁶⁾، كما صدرت التعليمات إلى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية، وأبلغت لجان الاتحاد والترقي في الولايات العربية بأن تكون مخابراتها مع اللجنة المركزية في سالونيك باللغة التركية، وفرض على تجار العرب تقديم البيانات إلى دائرة الجمارك باللغة التركية ومنع قبول الشكاوى المكتوبة باللغة العربية في مجلس النواب.

1- ومن هؤلاء: شفيق المؤيد، ورشيد الشمعة عن دمشق، وروحي الخالدي عن القدس، وحافظ السعيد عن يافا، ومحمد أرسلان عن اللاذقية، وعبد الحميد الزهراوي عن حماة، أنظر محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 299.

2- لقد جاء في المادة 69 من الدستور بأن تجري الانتخابات البرلمانية كل أربع سنوات. أما هيئة الأعيان فيتم تعيينهم مدى الحياة.

3- حقي العظم، حقائق عن الانتخابات النيابية في سوريا وفلسطين والعراق، القاهرة، 1912، ص 9-10.

4- المصدر نفسه، ص 34.

5- المصدر نفسه، ص 34-39، ص 53.

6 - Saab Hassan: op. cit, p 219-220.

ويقول توفيق برو، بخصوص المركزية في الإدارة: "كان من الممكن مزج العناصر في الدولة في وقت لم تكن تشعر هذه العناصر في قواتها أو حين كانت ضعيفة إبان الفتح العثماني في الوقت الذي كان فيه سلاطين آل عثمان من القوة بحيث يستطيعون تحقيق هذا الهدف الكبير، لكنهم لم يفعلوا ذلك وتركوا لكل عنصر لغته وتقاليده، ومؤسساته القومية، أما المركزية فقد جاء بها الإصلاحيون في عهد التنظيمات تقليد للغرب، وذلك لإيجاد الدولة تركز على الوحدة والتجانس والمركزية، فقط في هذا السبيل بعض الخطى ومع ذلك كان منهم عقلاء لم يسع إلى الوحدة العثمانية بأسلوب المركزية الضيقة، بل كان مدحت باشا واضع دستور 1876 من أنصار توسيع المأذونية الإدارية الواسعة القريبة من المركزية، غير أن الاتحاديين أرادوا أن يحكموا الدولة في القرن العشرين في الوقت الذي تطورت فيه الفكرة القومية لدى شعوب الدولة المختلفة بما فيهم العرب بعقلية منتصف القرن التاسع عشر"⁽¹⁾.

وقد أكمل الاتحاديون سياستهم المركزية والاقتصر على العنصر التركي في إدارة شؤون الدولة والحكم، لأنهم لم يدعوا العرب في الدخول بلجنتهم المركزية في سالونيك من ناحية، أو مشاركة أحد من العرب في الاجتماعات والمذكرات السياسية التي كانت تعقدها اللجنة المركزية للحزب الحاكم للنظر في شؤون الدولة من ناحية ثانية⁽²⁾.

ونتيجة للتناقضات الفكرية والسياسية التي وقع فيها الاتحاديون بخصوص كيفية حكم الولايات العربية التابعة للحكم التركي في ظل الجامعة العثمانية، أصابه هذه الجامعة على التفكك والانقسام، وأصبحت القضية العربية بالمفهوم العربي تشكل اختلافا فكريا واسعا مع المفهوم التركي لهذه القضية، ومن ناحية أخرى، فقد تحولت القضية إلى قضيه قومية ومحاوله الحفاظ على المؤسسات الذاتية للقومية العربية، والحقيقة ان حزب الاتحاد والترقي منذ البداية في تحريك وتوجيه السياسة في الدولة بعد ثورة عام 1908 كان يسير على إيديولوجية فكرية معينة، وهي القومية التركية والتركيز على العنصر التركي في الإدارة والحكم مع اضطهاد القوميات الأخرى التي تتشكل منها الدولة.

ويقول أحمد قدرى بهذا الشأن " شرع الاتحاديون يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب إعلان الدستور، وهو من أوثق الأدلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب، فبينما كنت أسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب إعلان الدستور، شاهدت جمهورا غفيرا من الأهالي أمام ضابط يدعى سيري بك وقد قام يخطب مثنيا بحسنات الدستور وأمجاده، ثم ما لبث أن انتقل إلى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين كان يقول: الخائن عرب عزت والخائن عرب أبو الهدى، وقد عجبت لهذا التحامل المفرض، أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة

1- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 221-222.

2- رفيق العظم: المصدر السابق، ص 133.

كبيره من الأتراك؟ فلم يندد بواحد منهم بمثل ما ندد الخطيب بشخصيتين العربيتين، وإذا كان يندد بهما لشخصهما، فلماذا يتعمد ذكر قوميتهما؟⁽¹⁾.

وفي أبريل عام 1909م صدر قانون الجمعيات في الدولة، وهو قانون منع تشكيل أية جمعية يقصد بها الإخلال بأحكام القوانين والآداب العامة وأمن الدولة ووحدةها وتبديل صورتها الحاضرة والتفريق بين العناصر العثمانية المتعددة، كما منع تأليف جمعيات سياسية على أساس القومية والجنسية أو بعنوانهما، فضلا عن منعه بصورة جازمة تشكيل جمعيات سرية⁽²⁾.

وقد صدر هذا القانون لمنع القوميات في الدولة - وخاصة العرب - من المطالبة بالحقوق القومية المهضومة، وبموجب تم إغلاق جمعية الإخاء العربي العثماني بالرغم من عدم التطرف في أفكار هذه الجمعية، وقد بلغ سوء التفاهم بين العنصر العربي والعنصر التركي، إن بعض الإجراءات الرسمية سواء اتخذت عن قصد أو عن غير قصد كانت تأخذ طابعا قوميا، فإذا ما نقل ضباط من العرب من فرقهم في بلاد الشام، واجري ذلك فعلا، وتجمعوا بالأستانة، فسر الضباط العرب ذلك بان الترك يريدون بهم شرا على حين يفسر الترك تدمير الضباط العرب بأنه يعود إلى تأثرهم بالعاطفة القومية⁽³⁾.

ولكي يحافظ العرب في هذه الظروف على مقوماتهم القومية، فقد راحوا يطالبون باللامركزية الإدارية في ظل الجامعة العثمانية، وقد ظهر من الأتراك الأحرار من اخذ ينظر نظره واقعية بالنسبة للقوميات التي تتشكل منها الدولة، ولذلك راحوا يطالبون باللامركزية وإعطاء العرب نوعا من الحكم الذاتي ضمن الجامعة العثمانية، وترتب على ذلك ان شكل هؤلاء الأتراك حزبا معارضا لحزب الاتحاد والترقي، وهو حزب الحرية والائتلاف.

وقد تكون هذا الحزب من مجموعة المعارضة لحزب الاتحاد والتركي والذين شكلوا جبهة متحدة مع جميع العناصر العرقية المعارضة للاتحاديين في عام 1911م، واستطاع هذا الحزب أن يسقط حزب الاتحاد والترقي ويصل إلى الحكم منذ 21 جوان من عام 1912م حتى 23 جانفي عام 1913م⁽⁴⁾، لكن هذه الفترة القصيرة من حكم حزب الحرية والائتلاف لم تمكنه من تحقيق برنامجه السياسي المتمثل في اللامركزية، واعتبر هذا الحزب ان الائتلاف الحقيقي للعناصر والاتحاد السياسي إنما يكمن في ضمان الحرية الاجتماعية والنشاط الطبيعي لكل عنصر

1- أحمد قدری: المصدر السابق، ص 6.

2- يوسف الحكيم، المرجع السابق، ص 175.

3- فارس نمر: رسائل الأستانة، العناصر العثمانية - اتحادها وانشقاقها العرب والترك والأرمن، المقتطف: م 35، ج 4، نوفمبر عام 1909، ص 942-944.

4- سليمان موسى: المرجع السابق، ص 35.

من عناصر الدولة، وتسليم كافة أعمال الولايات المحلية كالتعليم والأشغال العامة والتجارة والصناعة والزراعة الإدارات المحلية، وزيادة سلطه الحكومات المحلية، كما أقر هذا الحزب بان تكون الخدمة العسكرية لمدة سنتين وان تكون هذه الخدمة محليا.

أما الرابطة العثمانية فقد بقيت في الأمور السياسية المتعلقة بالدفاع العسكري، والسياسة الخارجية وبقية القضايا التي تتجاوز الإدارة المحلية، ولم يتطرق إلى اللغة الرسمية المحلية⁽¹⁾، وهذا هو الاختلاف الوحيد بين هذا الحزب وبين الأحزاب العربية التي سيأتي الحديث عنها، لذلك فان هذا الحزب قريب الشبه في برنامجه من برامج الأحزاب العربية وفي نظره هذه الأحزاب العربية نحو مفهوم الجامعة العثمانية.

وقد تشكلت فروع لهذا الحزب في بلاد الشام وخاصة في بيروت ودمشق ففي دمشق، فتح له فروع بمهمة عبد الرحمن شهنندر وشكري العسلي وشفيق المؤيد ورشيد الشمعة وعبد الوهاب الانجليزي وحقى العظم. وفي بيروت تأسس له فرع من أنور القاضي ومصطفى سمسميه وعبد القادر الخرسا وألبير حمصي ومحمود العجم⁽²⁾، ويضيف محمد دروزه بان فرعا لهذا الحزب قد تكون في مدينه نابلس بفلسطين بمهمته وهمة تفيق عبد الهادي وحسن حماد⁽³⁾، ومن المعروف ان هذه الفروع في بلاد الشام كانت هي أيضا نفي الفروع لحزب " اللامركزية الإدارية العثماني " الذي تأسس في القاهرة عام 1912م وعندما سقط حزب الحرية والائتلاف بقي الحزب الأخير ممثلا في هذه الفروع.

وفي جانفي عام 1913م عاد حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم بسياسته المركزية وسياسة التتريك، وهي سياسة تعرضت لشيء من النقد من جانب بعض المفكرين الأتراك، يقول بهذا الشأن خالد أديب: "ان الاتحاديين كانوا يحملون مثالا وأهدافا لا يقفون دون تحقيقها، فاستخدموا جميع الطرق والوسائل للوصول إليها، لذلك ما أن سيطروا على دفة الحكم حتى اعتبروا أنفسهم وراثاء عهد التنظيمات، واعتقدوا بان توحيد العناصر وتحقيق التمثيل البرلماني هو كل ما يلزم لقلب المملكة من صبغتها القديمة إلى صبغة جديدة"، ثم نجد أنها تدعو إلى التفاهم مع العرب فنقول: "إن الإمبراطورية العثمانية لا تستطيع أن تكون قوية عزيزة الجانب إلا إذا حصل تفاهم وتعاون تام بين العرب والأتراك"⁽⁴⁾، وتصف شكل الدولة الموجودة فيقول: "نعم كان العرب يتقدون وطنيه، لكن إلى جانب هذا كانت هنالك فكره تعزى إلى محمود شوكت، وهي إقامة ملكيه مزدوجة تركية عربية يكون مركزها حلب، أما

1- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 304-306.

2- محمد عزة دروزه: المصدر السابق، ص 372.

3- المصدر نفسه، ص 373.

4- Edib Halide : op. cit, p 87-88.

إذا كان مثل هذا التدبير سيحول دون تجزئه الأقطار الإسلامية وتفككها فأمر يقع في نطاق الحدس والتخمين، لكنها فكره كان ينبغي أن يكون لها حظ من التجربة"⁽¹⁾.

وكان ضياء كوك ألب الذي يعتبر أبا روحيا للقومية التركية واحد قادة الفكر التركي المعاصر، قد اقترح قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى إقامة دولة مزدوجة تسمى الدولة التركية العربية يرأسها خليفة تركي⁽²⁾.

غير أننا نجد كتابا وصحفيا تركيا، وهو أحمد أمين يبرر في كتابه " تركيا في الحرب العالمية " سياسة الاتحاديين العنصرية والاستبدادية ويتهم العناصر القومية في الدولة بما فيهم العرب بأنهم مسئولون بشكل مباشر عن سلوك الاتحاديين المتطرفة فيقول: "ان فئة الاتحاديين لم يتمكنوا من رؤية التبادلات الجوهرية لأسلوب الحكم بأنها يجب أن تتلائم مع استعداد البلاد الأدبي وأوضاعها الاجتماعية، كما أنه م تجاه المشاكل التي كانت تعترضهم باستمرار وأمام المعارضة التي كانت تواجههم كان همهم الاحتفاظ بسلطتهم السياسية ودعمها كحزب سياسي وإجبار مختلف عناصر الدولة للخضوع التام المباشر للسلطة الحكومة المركزية، وبما أنه م كانوا متمسكين بالتعصب القومي في سياستهم الخارجية، فقد اظهروا التصلب والتزمت عن كل متطلبات المواقف العملية، وان السياسة الطائشة التي قضت باكرة مختلف العناصر على ضرورة الخضوع للسياسة مزج العناصر قد لاقت معارضة قوية، وسببت مشاكل داخلية وخارجية كثيرة أوجعت على حكومتهم ان تتخذ خطة الاستبداد بحيث أنه حكم عبد الحميد المستبد المطلق لم يلبث ان عاد بثوب آخر، ولم يكن الفرق بين العهدين سوى أن عهد الاتحاديين كان عليه مسحة المدنية الغربية"⁽³⁾.

ونستطيع أن نخرج بفكرة عامة حول مفهوم الجامعة العثمانية كتيار سياسي في عهد الاتحاديين، إن هذا المفهوم كان سببا مباشرا في دفع الحركة العربية في بلاد الشام نحو التكتل الحزبي لتحديد هذا المفهوم بشكل يحفظ التوازن بين العرب والترك ضمن الرابطة العثمانية وعلى أساس من اللامركزية الإدارية والمساواة التامة في الحقوق والواجبات لكل عنصر.

- التناقض الثاني الجامعة الإسلامية:

ومن التناقضات الفكرية التي وقع فيها الاتحاديون الجامعة الإسلامية، وهي رابطة اشمل وأوسع من الرابطة العثمانية، استغلها الاتحاديون من اجل الحفاظ على الوحدة مع العرب، وكسب ولاء المسلمين خارج حدود

1 - Edib Halide: op. cit, p 98.

2 - Heyd Urzil: op. cit, p 131.

3 -Emin. A: **Turkey in the World War**, U.S.A, 1930 , p 45.

الإمبراطورية لكن هذه السياسة، سارت أيضا جنبا إلى جنب مع سياسة التتريك التي غلبت جميع التيارات الفكرية من اجل وحدة الإمبراطورية.

ومن المعروف أن هذا التيار الإسلامي في عهد الاتحاديين، هو تيار مكمل لسياسة عبد الحميد الثاني الإسلامية في عهد الاستبداد، ومن مظاهر السياسة الإسلامية في عهد الاتحاديين: أنه م ابقوا على نظام الخلافة في حين عزلوا السلطان عبد الحميد، عينوا أخاه الأصغر محمد الخامس، سلطانا وخليفة على جميع المسلمين، كذلك ابقوا على منصب شيخ الإسلام كأعلى سلطة روحية في الدولة.

وفي 27 ديسمبر عام 1911م، ذكرت جريده التايمز اللندنية أن ثمة قرارات اتخذتها جمعية الاتحاد والترقي في مؤتمر سالونيك من هذا العام، وهي يجب عقد مؤتمر سنوي في استانبول يضم وفودا يمثلون جميع البلدان الإسلامية لبحث الشؤون التي تهم العالم الإسلامي، ويجب تأسيس فروع لجمعية الاتحاد والترقي في جميع الأقطار الإسلامية ولا سيما في روسيا وإيران، وينبغي لنا أن نحث مسلمي روسيا على القيام بدعاية ثورية في الجيش الروسي، ويقال إن رابطة كبيرة للاتحاد الإسلامي قد تأسست إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي، وقد حضر اجتماعها الأخير خمسة أعضاء من الهنود⁽¹⁾.

وقد استغل الاتحاديون فكره الجامعة الإسلامية في الأزمات السياسية والعسكرية الحرب الطرابلسية عام 1912م بين الدولة العثمانية وإيطاليا، بصفة الأخيرة دولة مسيحية، وكذلك الحرب البلقانية الأولى والثانية عام 1912 و 1913م بين الدولة والحلف البلقاني المسيحي أيضا.

وقد عبر الرأي العام العربي في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية العثمانية، عن الشعور نحو الدولة العثمانية في هذه المحنة والحماسة الدينية في نصرة الدولة، أما أهم مظاهر هذا الحماس، ما قام به سكان المدن في بلاد الشام من جمع التبرعات لصالح الجيش العثماني، ففي حيفا بفلسطين قامت فرقة " النهضة التمثيل الأدبية " بتمثيل الروايات المسرحية والتبرع بكل ربحها لصالح جرحى الحرب البلقانية، من أفراد الجيش العثماني⁽²⁾.

وفي مجال السياسة الخارجية، فإن الاتحاديين أخذوا يستغلون سياسة الاتحاد الإسلامي لإثارة المتاعب في وجه روسيا القيصرية من قبل رعاياها المسلمين، لأن روسيا كانت تؤيد الحلف البلقاني ضد الدولة العثمانية، كما استغلوا هذه السياسة أيضا في وجه الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى.

1- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 85.

2- وقد مثلت هذه الجمعية روايتين هما "القائد المغربي" و "هملت"، الكرمل 1912/10/26.

لكن تطور الحركة القومية التركية من ناحية، وظهور الحركة القومية العربية في بلاد الشام من ناحية ثانية، قد حددتا بداية انفصام عرى الوحدة الدينية في الشرق الأوسط⁽¹⁾، فقد نجم عن الحرب العالمية الأولى والظروف المترتبة على اندلاع هذه الحرب من تحالف العرب مع بريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية وحليفاتها ألمانيا، إلى أنه يار فكرة الجامعة الإسلامية بين العرب والترك أنه يارا تاما، وذلك لتحالف كل منهما مع دولة المسيحية.

- التناقض الثالث: الجامعة الطورانية:

وإذا كانت جميع التيارات الفكرية التي سادت في الدولة العثمانية على يد حزب الاتحاد والترقي قد أصابها الفشل، فإن حركة الجامعة الطورانية، هي التيار الوحيد الذي بقي قائما إلى آخر عهد الاتحاديين، وهو التيار الذي خرجت منه فكره القومية التركية الحديثة، وقد جاءت هذه السياسة لخدم غرضين في أن واحد.

أولا: من أجل تماسك الدولة العثمانية بجميع العناصر العرقية المكونة لها، وخاصة العرب بعد الحروب البلقانية في عام 1912 - 1913م وانفصال القوميات البلقانية عن الدولة، وحتى يتحقق هذا الغرض، فقد دعت هذه الحركة إلى تترك العرب والعناصر الأخرى الباقية في الدولة بالكراه والإجبار، مع الاستعلاء العنصري التركي على حساب القوميات الأخرى في الدولة، وذلك بالشعور بأن العنصر التركي هو عنصر مميز على غيره من عناصر الدولة بما فيهم العرب بصفتهم توابع محكومة للعنصر التركي.

ثانيا: السعي وراء إثارة العواطف القومية لدى الشعوب التركية خارج حدود الدولة العثمانية، والتي تقع تحت النفوذ الروسي، والاتحاد معها على أسس قومية.

لذلك فإن هذه الحركة هي حركة بعث للقومية التركية التي أعادت أصولها إلى القبائل الطورانية الوثنية التي كانت تعيش في أوساط آسيا⁽²⁾، ولتحقيق هذا الغرض اخذ الأتراك يشكلون النوادي والجمعيات التي تمتاز بطابع قومي تركي، ومن هذه التكتلات " المنتدى الأدبي التركي " وقد تأسس عام 1908م ثم " جمعية المملكة التركية " عام 1911م، وفي نفس العام تأسست جمعية " الموطن التركي " كما تأسس في عام 1912م " الحزب القومي الدستوري ".

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 116.

2- يعتقد أن الفكرة من كتاب لعالم فرنسي وهو "ليون كاهون" في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث يرى كاهون أن الطورانيين كانوا فيما مضى من الزمن شعبا ذكيا ممتازا، لكنه أخذ بالتقهقر والانحلال عندما تخلّى عن الخصائص التي كان يتميز بها في صحاري آسيا الوسطى واعتنق الاسلام دينا وحضارة ويقال أن الدكتور ناظم كان عضوا بارزا في جمعية الاتحاد والترقي، وأنه اعتنق الطورانية مذهبا بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذي أعاره أيام القنصل الفرنسي العام في سالونيك. أنظر زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 87.

وقد تضمنت برامج هذه الجمعيات والأحزاب القومية، تنقية اللغة العثمانية من الشوائب الدخيلة عليها من عربية وفارسية وأوروبية، وجعلها لغة تركية صافية كما كانت عليه قديما، كذلك تضمنت البرامج بعث التاريخ التركي القديم والتغني بالأجداد القديمة أيام هولوكو وجنكيز خان، كما اتخذوا شعار الذئب الأغمر، شعار القبائل الطورانية البدائية، شعارا علي رايات جماعات الكشافة التي أخذت تتشكل من الشبيبة التركية⁽¹⁾.

وكانت هزيمة الأتراك في الحرب البلقانية على يد مسيحي البلقان قد أدت إلى دفعة قوية للحركة الطورانية، حيث أصبح الأتراك يعتقدون أن المعونة الحقة للإمبراطورية المتداعية، إنما يكمن في توحيد الشعوب التركية والاعتماد على العنصر التركي وحده في حماية الدولة⁽²⁾، لأن رابطة الدم أقوى من جميع الروابط الأخرى بما فيها الروابط الروحية.

وقد تطورت فكرة الطورانية إلى اتجاهين مختلفين بعد الحرب البلقانية التركية عام 1913م:

- الاتجاه الأول: وهو اتجاه أخذ به كل من ضياء كوك ألب وأحمد أغايف، وهما من أقطاب القومية التركية، وهي فكرة بناء المجتمع والدولة على أساس القومية التركية السائدة على جميع القوميات في الدولة، ولم يهمل هذا الاتجاه الوازع الديني، بل نادي بموجب إصلاح الدين إصلاحا جوهريا بحيث يجعله دينا عصريا يتلائم مع المجتمع الجديد، ومن هذا المنطلق الديني نادى هذا التيار بالإصلاحات التالية:

- ترجمه القرآن إلى اللغة التركية بالاعتماد على ما جرى في أوروبا من ترجمة للإنجيل إلى اللغات القومية الأوروبية، إلا أن ترجمة القرآن إلى التركية لم يتم بسبب الشعور الديني لدى غالبية الأتراك، والتي عارضت هذا الاتجاه.

- جعل الخطبة يوم الجمعة باللغة التركية، لأن المسلمين ينامون أثناء سماعها باللغة العربية، ويعتبر هذا إثما⁽³⁾.

- تطوير الدين الإسلامي حتى يتلائم مع التطور وروح العصر، حيث أن هذا الدين ترك لمعتقديه الحرية المطلقة في هذه الناحية، لاسيما وأن التوسع والتعقيد في المجتمع أوصيا بذلك⁽⁴⁾.

1- توفيق برو: العرب والترك، المرجع السابق، ص 323-327، ص 392.

2 - Saab Hassan : op. cit, p 224.

3- زين نو الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 88.

4- المفيد: 1913/10/27 عن مقال أحمد أغايف في جريدة جون ترك.

-الاتجاه الثاني: فقد تمثل في شخصيتين كبيرتين في الأستانة، وهما يوسف أفجوره واحمد فريد بك وإتباعهما، ويتلخص هذا الاتجاه في إتباع سياسة قومية تركية بحتة، وذلك بالاعتراف بوجود قوميتين كبيرتين في الدولة، وهما القومية العربية والقومية التركية، إلى جانب الأقليات القومية الأخرى مثل الأرمنية والكردية، لذلك نادى هذا الاتجاه بأن تشكل في الإمبراطورية دولتان كبيرتان على أساس قومي، أحدهما تركية والأخرى عربية، وترتبط هتان الدولتان بالجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية.

ويقول يوسف أفجوره في هذا الشأن: "إن الترك أمة قائمة تستطيع أن تكون لنفسها قومية تأسس عليها دولة قوية، مادامت القومية التركية ذات ماضي عظيم، ولها اليوم نحو عشرين أو ثلاثين مليون نسمة"، ثم يقول: "قولوا لي ما هي الجامعة العثمانية؟ هل هي قوم؟ هل هي ملة؟ هل هي عنصر؟ لا لا هذا ولا ذاك، إنما هي مجموعة عناصر متضادة وأقوام مختلفة، الواجب علينا أن نهتم في دولتنا وسلطتنا ولغتنا وآدابنا وكل أوضاعنا ومرافقنا فنقلبها كلها رأساً على عقب، ونصبغها كلها بالصبغة التركية"⁽¹⁾.

ويقول أيضاً: "إن الدولة العثمانية مستعدة العناصر لا يمكن أن تعيش بل ستموت وتنقرض حتماً، ولكن بعد موتها ستقوم دولة تركية لا تضم غير الترك، وإنني أتمنى أن تنفصل البلاد العربية بسرعة لكي لا يتأخر تحول الدولة العثمانية إلى دولة قومية بكل معنى الكلمة"⁽²⁾.

أما أحمد فريد، فقد عبر عن القومية التركية واللامركزية اصدق تعبير، فيقول: "وفي رأينا أنه ينبغي أن يكون للدولة العثمانية سياسة داخلية قائمة على القومية التركية، ويكون نفوذها منحصراً في الولايات التي يسكنها الترك وتسمى ديار الترك، أما سوريا والجزيرة العربية بل يجب أن تدار بالمركية، ولما لا تكون دمشق وبغداد ومكة مراكز للقومية العربية؟"⁽³⁾.

أما حزب الاتحاد والترقي فقد مال إلى الاتجاه الأول، واتبع سياسة عنصرية متطرفة أشبه بالنازية، وفرض سياسة التتريك والمركزية المشددة في جميع أنحاء الإمبراطورية والاعتراف بالقومية الواحدة في الدولة، وهي القومية التركية السائدة، وقد اتبع الاتحاديون هذه السياسة حفاظاً على الوحدة، لأن حركة تركيا الفتاة لم تهدف إلى تصفية الإمبراطورية وتجزئتها، وظلت هذه السياسة سارية المفعول حتى أواخر عهد الحكم العثماني للولايات العربية⁽⁴⁾.

1- المؤيد: 1914/6/20.

2- محمود صالح منسي: المرجع السابق، ص 127.

3- المؤيد: 1913/2/16 مقال مترجم لأحمد فريد عن جريدة افهام.

4- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص 246. السيد رجب جراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، المرجع السابق، ص 22.

ومن هذا المفهوم أخذت الصحافة التركية تعبر عن هذا الشعور الذي يخالج الاتحاديين أنصار الطورانية المتطرفة، ومن ذلك قول أحد هم: "بأن الأتراك لهم الحق في أن يحكموا العرب تماما كما يحكم الفرنسيون أهل الجزائر، وكما يحكم الانجليز الهند"⁽¹⁾، كما كتب الصحفي أحمد شريف في جريدة "طنين" التركية، مقالا هاجم فيه اللغة العربية ومعبرا عن سياسة التتريك، فقال: "لا يزال العرب يهجون بلغتهم، وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت حكم الترك، فمن واجبات الباب العالي في هذه الحالة أن ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم اللغة التركية، لغة الأمة التي تحكمهم، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم، فإنهم سيعملون عاجلا على استرجاع مجدهم الضائع وتشديد دولة عربية جديدة تقوم على أنقاض الدولة العثمانية"⁽²⁾.

ويتحدث محمد جميل بيهم عن سياسة التتريك فيقول: "لقد شاهدت بنفسي ألوانا من التحيز للترك والتعصب، من ذلك إيعازهم إلى أفراد الشرطة للتدخل كي تكتب اللوحات فوق الدكاكين والمخازن في بيروت باللغة التركية بدلا من العربية"⁽³⁾.

ومما يؤخذ على الحركة الطورانية التي تبناها الاتحاديون الأمور التالية:

- لم يقتصر جهود الطورانيين على النيل من العروبة، بل أخذت هذه المجموعة تهاجم الإسلام بعد فشل محاولتهم ترجمة القرآن إلى اللغة التركية بسبب معارضة علماء الدين، ونتيجة لذلك تحولت الطورانية إلى حركة علمانية بحثة يسميها بعض الباحثين بالحركة الجاهلية، وهي حركة لها مثيل في أوروبا فيما يسميه الألمان "الألمانية الأصلية العريقة"⁽⁴⁾، فقد أحاط الأتراك، الطورانيين الوثنيين أمثال هولكو وجنكيز خان بهالة من التقديس والعبادة، وخاصة الخطب التي كان يلقيها الشيخ عبيد الله باللغة التركية في مسجد أيا صوفيا في اسطنبول، والتي جمعت في كتاب "قوم جديد" ووزعت الحكومة ملايين النسخ من هذا الكتاب بالجحان على الشعب التركي⁽⁵⁾.

- إن الطورانية حركة استعمارية لا تقل عن الاستعمار الغربي للدول العربية، خاصة وأن الإمبراطورية العثمانية أصبحت تضم العرب والترك وبعض الأقليات العرقية، كالكردية والأرمنية، بل أن الاستعمار التركي يفوق

1- احسان عسكر: المرجع السابق، ص 164-166.

2- سامي الكيالي: صراع في سبيل القومية العربية، مطبعة الشرق، بيروت، 1968، ص 18.

3- محمد جميل بيهم: المرجع السابق، ص 139.

4- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 89.

5- سليمان فيضي: المصدر السابق، ص 84.

كانت ألمانيا تشجع وتؤيد الحركة الطورانية وتساعد الاتحاديين في توصيلها إلى الأوساط التركية عبر السلطنة العثمانية لا سيما إلى روسيا يقصد إثارة تلك الأوساط ضد هذا العدو المحارب ضدها في الحرب العالمية الأولى. وقد ظهرت تباشير هذه الدعوة هناك في المحاضرات التي نظمها عام 1916م، حيث أظهر التثار والشركس كثيرا من الحماس للاتحاد الطوراني. أنظر محمد جميل بيهم: المرجع السابق، ص 138.

الاستعمار الغربي شدة وتطرفا، ذلك في السياسة التي اتبعها في القضاء على كل ما هو عربي، وقد عبر عن ذلك الكاتب التركي المتعصب للطورانية، وهو جلال نوري، عن السياسة الاستعمارية بكل وضوح حيث يقترح في كتابه " تاريخ المستقبل " تحويل الولايات العربية الخاضعة للحكم التركي إلى مستعمرات تركية بكل ما في هذه الكلمة من معنى⁽¹⁾.

ونستطيع أن نخرج بفكرة عامة عن سياسة الاتحاديين وتناقضاتهم الفكرية في هذه السياسة حسب احتياجات الدولة ومواقفها، وهي أن هذه السياسة قد دفعت بالحركة العربية القومية في بلاد الشام دفعة قوية في الوصول إلى تحقيق أهدافها العامة لأنها أصبحت حتمية تاريخية بحركة وقائية تقف متحدية سياسة التتريك.

3- موقف الحكومة الاتحادية من مؤتمر باريس:

عارضت الحكومة الاتحادية الفكرة اللامركزية، من واقع استئثارها بالسلطة وتمسكها بالنزعة العنصرية، فصممت على رفض المطالب الإصلاحية.

لذلك اتخذت موقفا عدائيا من فكرة عقد المؤتمر ومقرراته وحاولت مقاومته بمختلف الوسائل والأساليب، فأوعزت لجرائدها مثل جريدة "طنين" التركية، المتحدث بلسان جمعية الاتحاد والترقي، والتي يديرها حسين جاهد، أحد أعضاء الحزب، باستنكار المؤتمر والاستخفاف بفكرته، وشن الحملات الصحفية الشديدة عليه، وذلك هاجمت سلوك الإصلاحيين بصفة عامة، والقائمين على المؤتمر بصفة خاصة، ووصفتهم بالخيانة، وبكونهم رعايا لفرنسا، وقالت ان اجتماعهم لا يستحق الذكر⁽²⁾.

كما وصفت جريدة "طنين" المؤتمر العربي بأنه مؤتمر غريب، وحاولت التهوين من شأنه، فقالت: "ان موقعي بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسية، ولم يبق لهم أقل صلة بالعربية والإسلامية، فمؤتمرهم الذي يعقد في باريس على ما جاء في بياهم، عار من كل أهمية..."⁽³⁾.

1- سامي الكيالي: المرجع السابق، ص 18.

2- شكري العسلي: العرب وطنين، المقتبس، العدد 679، 1911/5/17، ص 2-3. اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 215-217. حقي العظم: السياسة الخرقاء ونتائجها، المقتبس، العدد 723، 1911/7/8، ص 1-2. أنظر أيضا: علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 92.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 215-217.

ثم حذت حذوها صحف الأستانة، فحرضت الحكومة الاتحادية الصحف العربية الموالية لها في بلاد الشام، مثل "الرأي العام"، التي كان يصدرها طه المدور، و"أبايل" لحسين الحبال، بنعت المؤتمر والمؤتمرين بالتصفية والتهوين، ونشر المقالات المغرضة كما اتصلت بالحكومة الفرنسية، وحاولت إقناعها لمنع عقد المؤتمر في باريس⁽¹⁾.

تصدت الصحف العربية للرد على الصحف التركية، فقامت جريدة "المفيد" البيروتية، بالدفاع عن المؤتمر وتأييده، فقالت: "اليوم يطلع عن كذب حسين جاهد ورفقاؤه في باريس إن القائمين بهذه الحركة المباركة ليسوا ببضعة متشردين، كما ذكرت جريدته "طنين" بل هم مئات من صفوه أبناء الأمة العربية، ينطقون بلسانها، ويتحسسون بإحساسها"⁽²⁾، وبالطبع تعرضت الجريدة للمضايقة ثم الإغلاق.

ولكن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تعمل شيئاً في فرنسا، أو تصرف المؤتمرين عن هدفهم، فقامت بتشكيل "حزب الإصلاح" المعارض لفكرة المؤتمر بزعامة الشيخ أسعد الشقيري، وعبد الرحمن اليوسف، ومحمد المخزومي، ومحمد فوزي العظم وسلطت أقلام أنصارها وعملائها من ذوي النزعة العثمانية، من موظفين ونفعيين، وبعض الناقمين على رجال الإصلاح في سوريا والأستانة لإرسال برقيات احتجاج واستهجان لمقررات المؤتمر من دمشق وعكا وحيفا والناصرة وطبريا وبيروت إلى الحكومة المركزية⁽³⁾، يوضحون فيها أن أهل سوريا ضد فكرة المؤتمر، وبذلك فهو لا يمثل إلا نفسه، ويهاجمون المؤتمر والمؤتمرين، بدعوى أنه م لا يمثلون الأمة العربية، لأنهم لا يعبرون عن رأي البلاد وزعمائها، حتى ييحثوا في مطالب العرب، بل هم طلاب منافع تحركهم المصالح والدول الأجنبية، في ظروف تألب الشعوب البلقانية ضد الدولة⁽⁴⁾.

كما يعلنون بأنهم أهل الحل والعقد، ولا يصح لأحد غيرهم أن يتحدث باسم الأمة، وأوضحوا تمسكهم بنظام الحكم في الدولة، وطالبوا بإبقاء البلاد العربية على حالها، وفي رأيهم أنه إذا كان لابد من عقد مؤتمر عربي، فيجب ان يعقد في استانبول وليس باريس⁽⁵⁾.

1- أسعد داغر: المصدر السابق، ص 75-77.

2- المفيد: افتتاح المؤتمر العربي في باريس، العدد 1302، 1913/6/12، ص 1.

3- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 12.

Khoury Philip: **Urban Notables & Arab Nationalism: the Politics of Damascus 1860-1920**, Cambridge, 1983 , p 65-66.

4- شكيب أرسلان: سيرة ذاتية، دار الطليعة، بيروت، 1969، ص 110. منير مشابك موسى: المرجع السابق، ص 26. ناجي علوش، المرجع السابق، ص 177.

5- أحمد قدرى: المصدر السابق، ص 190.

كما لجأ المناهضون إلى استخدام الدين فأرسلوا عريضة إلى الأستانة، بتوقيع علماء المدينة المنورة ووجهائها، توضح مخالفة المؤتمرين لله ورسوله والخلافة والسلطان، كما استخدموا وسائل الإغراء مع والي دمشق عارف بك المارديني⁽¹⁾.

كذلك قامت الحكومة الاتحادية بتحريض الشيخ عبد العزيز جاويش وأنصاره من المتأثرين بتيار الجامعة الإسلامية، لتكثيف نشاطهم في الدعوة للجامعة الإسلامية، لمقاومة مساعي العناصر الإصلاحية، وإثارة الفتن الطائفية بين المسلمين والمسيحيين العرب⁽²⁾.

تصدت العناصر القومية الأعيان، بسبب انتشار الوعي القومي، والنهضة الفكرية، فأشار رفيق العظم في "المؤيد" إلى أن الأحوال في سوريا ناتجة عن أسباب ارتقاء الأمة العربية، وأنها كانت رائدة الشرق، ولم يؤخرها غير الحكم المركزي⁽³⁾، كذلك ظهرت الحملات الصحفية الموجهة ضد الأعيان في كتابات "المفيد"، في مقال بعنوان "ماذا يناهضون الحركة الإصلاحية"، فيقول: "لم نكن نتوقع من أعيان سوريا، وذوي الرأي فيها، إلا أن يعضدوا جميعاً حركة الإصلاح المؤسسة على المطالب بتحقيق اللامركزية"⁽⁴⁾.

كما يندد سيف الدين الخطيب بفوزي باشا العظم في مقال بعنوان "كتاب مفتوح إلى محمد فوزي باشا العظم"، فيقول: "... إنني حرت لدى تلاوتي بريقيتكم في جريدة طنين المشهورة بتعصبها ضد الإصلاح، تحملون بها على رجال الإصلاح الحقيقيين. .. واعلم بان الشعب كسر قيد الذل والاستعباد، ويأبى الضلم، ويفضل الموت في سبيل حياة الوطن، التي لا تكون إلا بالإصلاح الذي أنت تناهضه..."⁽⁵⁾.

كما هاجم احمد باشا الشمعة، عبد الرحمن بك اليوسف، ودافع عن الإصلاحيين أمثال جميل مردم بك، وعبد الغني العريسي، ومحمد كرد علي، وشكري العسلي، وعبد الوهاب الانجليزي، كذلك بعث المفكرون والإصلاحيون ببرقيات تأييد للقائمين على المؤتمر مطالبين بمبدأ اللامركزية⁽⁶⁾.

1- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 52-53. زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 107.

2- محمد رشيد رضا: جماعة الدعوة والارشاد، المنار، المجلد 14، ج 4، ا 1911/3/30، ص 317-318. اسعد داغر، المصدر السابق، ص 75.

3- حقي العظم: السياسة الخرقاء، المقتبس، العدد 723، ص 1. علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 89-90.

4- حقي العظم: حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وفلسطين وسورية، المفيد، العدد 1050، 1912/8/10، ص 1.

5- سيف الدين الخطيب: كتاب مفتوح إلى محمد فوزي باشا العظم، المفيد، العدد 1299، 1913/6/9، ص 1.

6- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 508.

اتخذت الدولة موقفاً أقرب إلى أسلوب المهادنة والدهاء، فقبلت التفاوض مع العرب وتقريب وجهات النظر بين الفريقين، بصدد بعض الإصلاحات، وبخاصة بعد نجاح المؤتمر وفكرة الإصلاح اللامركزي، ويرجع ذلك لعدة أسباب، وكانت الدول الكبرى تساند الشعوب البلقانية، فرأت الدولة ألا تزيد مشاكلها، وخاصة أن العرب يكونون أكثر من نصف عدد سكان الدولة⁽¹⁾.

وحتى تستطيع كذلك القضاء على الحركة الانتلافية المناوئة، كما كان للحكومة الفرنسية دوراً هاماً في الضغط عليها، بغرض التفاهم مع قادة المؤتمر، وجرت المفاوضات بينهما لعقد القرض جديد تحصل عليه الحكومة التركية، ودعت مدحت شكري أمين حزب الاتحاد والترقي لزيارة باريس والتفاوض مع زعماء المؤتمر⁽²⁾.

ومن مظاهر هذا الموقف الاتحادي، أن أخذ البعض منهم يدلي بتصريحات تتلاءم مع الإصلاحات، فتوضيح مذكرات جمال باشا اتفاقية مع أعضاء الوزارة، بشأن إرسال مدحت باشا، سكرتير اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، وآخرين إلى باريس، للتفاوض مع قادة العرب، كما يصرح حسين جاهد، عدو الإصلاح لمراسلة الأهرام، بأن قانون الولايات غير كافٍ، وأنه من الحكم التفاهم مع العرب، وتقوية روابط الإخاء التركي العربي، لأن العرب سيستمرون على المعارضة حتى يحصلوا على الإدارة الذاتية بأنفسهم وبلغتهم، ويعينون الموظفين بمحض اختيارهم⁽³⁾.

ويصرح مدحت شكري لمراسل الأهرام، بأن الحريين الطرابلسية البلقانية، قد نهبتا الدولة على أنه لا حياة لها بدون إصلاح حقيقي، يعتمد على اشتراك العرب في إدارة الدولة، حتى "طنين" المعروفة بحملاتها العنيفة على المؤتمر والمؤتمرين، أخذت تردد بعضاً من هذه التصريحات والأقوال، فذكرت في مقال لها بأن الإصلاح أمر ضروري⁽⁴⁾.

جاء اتفاق مدحت شكري والوفد العربي في باريس برئاسة عبد الكريم الخليل، رئيس المنتدى الأدبي، على لائحة النصوص، وبه استجابة مقبولة للمطالب العربية الإصلاحية، بعد إدخال تعديلات بسيطة، لذلك أعتقد البعض بتقارب وجهات النظر في المسائل السياسية بينه وبين المؤتمرين، ثم عاد بها إلى الأستانة يرافقه الخليل لإتمام

1- العريسي: اللامركزية الإدارية والمشكلة الأرمنية، المفيد، العدد 1299، 1913/6/9، ص 1. علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 164.

2- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 31-32.

3- علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 92.

4- شكري العسلي: العرب وطنين، المقتبس، العدد 679، 1911/5/17، ص 2-3. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 532. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 422.

المباحثات مع طلعت بك وزير الداخلية، وظل بعض الإصلاحيين العرب في باريس في انتظار التصديق عليها، ولاستخدامهم إلى الأستانة لمراقبة تنفيذ الاتفاقية⁽¹⁾.

تم الاتفاق النهائي، وجاء في الاتفاقية بعنوان "الوفاق العربي التركي"، والمواد التالية:

- جعل إدارة الأوقاف الخيرية، والمنافع العامة من اختصاص الإدارة المحلية، على أن تدار من قبلها وفق شروطها الخاصة.

- يشترط في مأموري إدارة الولايات، معرفة اللغة العربية، وتتولى الولاية تعيينهم، فيما عدا الحكام ومأموري القضاء فيكون تعيينهم من قبل الدولة المركزية.

- جعل التعليم الابتدائي والثانوي باللغة العربية في جميع الولايات العربية، على أن يكون التعليم العالي بلغة الأكثرية مع تدريس التركية إجباريا بالمدارس الإعدادية كلغة ثانية.

- حدد الاتفاق عدد الوزراء العرب، فيكون مبدئيا في الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل، ويعين منهم عدد من المستشارين والمعاونين في الوزارات، ويكون منهم اثنان أو ثلاثة في كل مجلس من مجالس شورى الدولة، ومحكمة التمييز، والمشيخة الإسلامية، وبقية المصالح الأخرى، ويؤخذ في كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين من العرب على الأقل في مراكز أخرى، ومجالس سائر الدوائر المركزية.

- يؤدى المجندون العرب خدمتهم العسكرية وقت السلم داخل ولاياتهم في مناطق الجيش التي ينتسب إليها، ويختار الجنود الذين لا بد من إرسالهم في الحالة الحاضرة إلى الحجاز والعسير واليمن بنسبة عادلة من جميع أنحاء الولايات العثمانية، وبخاصة أن العرب كانوا يستأثرون من إرسال أبنائهم لقتال عرب اليمن وعسير، وكانت غالبية أفراد هذه الحملات من العرب، لقمع الثورات ضد السلطات التركية، فاهتم المفاوضون العرب بهذا الأمر في هذا النص.

- مقررات المجالس العمومي تكون نافذة فيما هو من اختصاصها القانوني، فقد كان قانون الولايات يجعل تنفيذ قرارات بعض المجالس العمومية رهنا بموافقة الوالي، فاهتم المفاوضون العرب بهذا النص (مبدأ اللامركزية) لإعطاء المجالس العمومية في الولايات صلاحيات تنفيذية، وكانت هذه المادة واضحة وإن لم تكن حقيقية.

1- علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 58-59، أمين سعيد: المصدر السابق، ص 31-34. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 533.

- تمثيل العرب بالحكومة المركزية والإدارات الهامة بنسب معينة، وإسناد خمسة مناصب ولاية وعشرة متصرفين إلى أفراد من العرب، وتعيين عضوين من العرب بمجلس الأعيان عن كل ولاية، وينصف الذين لم يرقوا منهم، ويعاملون معاملة زملائهم من موظفي الدوائر الملكية والحقانية والشرعية الترك. وفيما بعد سيكون تعيين الموظفين، وترفيعهم وتأديبهم، وفقا لقانون خاص، وتعتبر هذه المادة من أهم مواد الاتفاق.

- سيسد النقص الموجود حاليا في ميزانيات الدوائر التي تركت إدارتها إلى الولايات عن طريق إضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية، وسيخصص نصف حصيلة ضريبة المسقفات إلى الإدارات المحلية على أن تصرف لأموال المعارف.

- تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية، على أن ينفذ ذلك تدريجيا.

- سيعين في كل ولاية مفتشون أخصائون من الأجانب، بنسبة الحاجة، وتحدد وظائفهم واختصاصاتهم، بنظام خاص يكفل الحصول على الفوائد الانضباطية والإصلاحية المطلوبة والمتنطرة منهم⁽¹⁾.

وصفها رفيق العظم، رئيس حزب اللامركزية بأنها دون المنهج المقرر في برنامج الحزب، وانه على ما فيها من غموض وإبهام، فقد رضي بها قادة المؤتمر خطوة لمفاوضات الإصلاحية أخرى⁽²⁾.

اتفق الطرفان العربي والتركي على سرية نصوص الاتفاقية حتى تتخذ "جمعية الاتحاد والترقي"، التدابير اللازمة لوضع إصدار القوانين والتعليمات الخاصة، بمبادئ اتفاقية لتنفيذها تدريجيا بالأساليب التي تراها الحكومة، مع ملاحظة أحوال العناصر العثمانية الأخرى⁽³⁾.

لكن الحكومة العثمانية تباطأت في تنفيذ الاتفاقية، ثم أذاعت "وكالة أنباء رويتر"، نبأ التصديق عليها رسميا، وموعد تنفيذها، لذلك سارعت اللجنة العليا لحزب اللامركزية في 13 جويلية عام 1913م بنشر نصوص

1- سليمان فيضي: المصدر السابق، ص 129-130. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 61. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 31-

34. سليمان موسى: المرجع السابق، ص 40. زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 101.

2- العريسي: الشعب وبرقية الإصلاح، المفيد، العدد 1343، 1913/8/14، ص 1. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 442-443.

3- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 222. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 536.

الاتفاقية، ثم أرسل رفيق العظم برقية شكر إلى الصدر الأعظم، أعرب فيها عن أمله بأن تكون الاتفاقية بداية مرحلة جديدة للإصلاح الحقيقي⁽¹⁾.

استاءت الحكومة الاتحادية من نشر نصوص الاتفاقية بسبب تعرضها لحملة شديدة من المتطرفين، فأصدرت تكذيباً لها، وذكرت "طنين" بأن الحكومة ترغب في إجراء الإصلاح لا عملاً بالاتفاق المزعوم، بل برغبة خالصة منها⁽²⁾.

وفي الوقت نفسه، عقدت فرنسا اتفاقية مع الحكومة الاتحادية، منحتها الأخيرة بموجبها عدداً من امتيازات السكك الحديدية، والمرافئ في سوريا، فاطمأن الترك إلى الموقف الفرنسي، وتراجعوا عن تنفيذ اتفاقهم مع العرب. لذلك أصدرت مرسومًا بشأن الإصلاح والحقوق العربية الأخرى بتاريخ 5 أوت عام 1913م، أثار استياء القوميين العرب، فلم تنقيد فيه باتفاق باريس روحاً ونصاً، بل اختزل المرسوم مواد الإصلاح والمطالب العربية، التي جاءت دون ما تم الاتفاق عليه، بينما أحيط الباقي منها بالتحفظ والغموض.

جاء التعديل الواضح في كثير من المطالب، ليحور ويطمس معالم الاتفاقية التي لم يبق لها أي قيمة، وقد كان هذا الغموض مقصوداً في الأصل التركي، بدليل ما جاء في ذلك القرار بشأن التعليم، الأمر الذي أوضح خدعة الحكومة، التي لم يكن في نيتها تنفيذ بنود الاتفاقية⁽³⁾.

تصريح الحكومة الاتحادية:

لقد نص قرار الحكومة الاتحادية على ما يلي:

- أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي المشروط، وصرف ريعها على الجهات الخيرية، بحسب شروط الوقف، إلى المجالس العمومية في الولايات، وذلك بموجب قانون جديد سينشر قريباً، لتنفيها في تأسيس مدارس إسلامية على ما هي الحال في المؤسسات المسيحية واليهودية. جاءت هذه المادة طبقاً للاتفاق، ولكنها قيدت بعبارة "توفيقاً للقانون الخاص الذي هو قيد الوضع".

1- خليل زينية: مطالب الإصلاح بين الأستانة وباريس، الأهرام، العدد 10780، 1913/8/15، ص 1.

2- المصدر نفسه، ص 1. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 536. Zeine. Z.N : op. cit, p 106.

3- العريسي: الشعب وبرقية الإصلاح، المفيد، العدد 1343، 1913/8/14، ص 1. العريسي: اليهود والقيود، فتى العرب، العدد 128-1622، 1914/8/16، ص 1. أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج 4، ص 43. جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص

128. أنظر أيضاً: Hourani Albert : op. cit, p 284.

- يؤدي الجنود خدمتهم العسكرية زمن السلم في دائرة التفتيش التابعين لها.

حدث تعديل في هذه المادة، فجاءت مناقضة للاتفاق، فقد أضيف لها نص يبطل السابق، إلا إذا رأت الدولة لسبب ما، ان الحالة تقضي بزيادة عدد الجنود المحتشدة في جهة من جهات الحدود، فللحكومة أن تسوق جميع الصفوف العسكرية، دون قيد أو شرط، ويؤخذ الجنود بحسب الضرورة إلى الولايات البعيدة، كاليمن والحجاز وعسير ونجد، وأمثال هذه المقاطعات من البلاد العثمانية، بنسب صحيحة بدون قيد ولا شرط، وبذلك لم تقيدها بحالة الحرب كما نص عليه الاتفاق.

مما سبق نجد رفض الحكومة الاتحادية لما يتعلق بالأوقاف والخدمة العسكرية.

- جاءت المادة الثالثة مخالفة للأولى من الاتفاق بخصوص لغة التعليم.

فقد نص المرسوم على أن يكون التدريس بالعربية في جميع مدارس الولايات التي يتكلم فيها غالبية السكان هذه اللغة، على أن يبدأ منذ الآن في المدارس الابتدائية والثانوية، جعل تعليم التركية إجبارياً، وينظر في الوسائل التي تؤدي إلى جعل التعليم العالي في البلاد العربية باللغة العربية، ثم أضاف القرار المادة التالية.

على أن يظل التعليم باللغة التركية إجبارياً في المدارس الثانوية التي تتركز في العواصم الولايات، وبذلك قضت بجعل التعليم باللغة التركية إجبارياً في البلاد العربية، واشترط بقاء التدريس بها كما كان لأجل تعميمها.

ومعنى ذلك أن التعليم في المدارس الإعدادية بقي على ما كان عليه، وحصر التدريس باللغة العربية في المكاتب الرشدية والإعدادية، ولم يرد أي نص قانون باعتبار العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وفي مجلس النواب بالعاصمة، أو حتى اعتبارها كإحدى اللغات الرسمية في الولايات العربية، وبالطبع تجاهل البيان المادة التي تقول بان تكون المعاملات في البلاد العربية باللغة العربية.

وكل ما هنالك، أن الحكومة في الولايات العربية لا ترفض الأوراق الرسمية التي تقدم إليها بالعربية، ويمكن أن تجيب عنها بهذه اللغة.

- يجب ان يلاحظ في تعيين الموظفين في الولايات العربية معرفتهم باللغتين العربية والتركية، وتعين الحكومة المحلية الموظفين من الدرجة الثانية، طبقاً لما نص عليه في القوانين الخاصة بذلك، والذين يعينون بإرادة سنية، يناط تعيينهم بالحكومة المركزية في الأستانة.

لم يأت ذكر شيء عن الوظائف والمناصب المخصصة للعرب في الوزارة، وإدارة الولايات، وبذلك أعاد المرسوم أمر تعيينهم إلى قانون الولايات، بشرط أن يكونوا واقفين على اللغة العربية. وقد يضيق بذلك من سلطة المجالس العمومية في الولايات.

ولم يكن لذلك معنى سوى اتضاح مخادعة ومراوغة الحكومة الاتحادية.

وبذلك لم يأت ذكر شيء هام بخصوص تعيين الموظفين، حتى شرط وقوفهم على اللغة العربية، لم يكن له فائدة، لأن الحكومة كانت تجد البعض ممن لا يعرفون اللغة العربية، وتقول أنه م واقفون على أسرارها، وتعينهم في البلاد العربية، لتضلعهم في لغة سكانها.

فذكرت "طنين": "بأنه يجب أن لا نفتش الآن على مأمورين (موظفين) واقفين على كنه اللغة العربية وقوفا تاما، بل يجب أن ننظر في الأقدمية، والاستقامة، والعفة قبل الوقوف على اللغة"⁽¹⁾، وهكذا لم يبق من تلك القرارات سوى ما جاء ذكره في قانون الولايات، وقد قبل بها العرب حسما للخلاف.

وعندما وجد الاتحاديون بان العرب تنبهوا إلى الاختلاف بين ما اتفق عليه في باريس، وبين هذا المرسوم الصادر بمواد الإصلاح، اخذوا يصرحون بان ما أعلن ليس كل ما يمكن تقديمه للعرب، بل كان ذلك وسيلة لمنع العناصر العثمانية الأخرى من الطمع والتحرك. واخذوا يطالبون العرب بالصبر والأناة، كما ذكروا لهم ان مجلس النظار قد بعث القضية، وقسم المطالب إلى عامة، وهي التي نشرت، وخاصة كعدد أعضاء العرب في مجلس الأعيان والوزارات، وهكذا ظهرت حقيقة الموقف الاتحادي واستغلاله للتفاوض الذي تم مع العرب، في محاولة للتأجيل والتسويق، وخداع فئة من العرب بحجة تنفيذ الاتفاقية تدريجيا، لبذر بذور الشقاق والفرقة بين صفوف الإصلاحيين للقضاء على الحركة العربية⁽²⁾.

وبذلك انقسم زعماء الإصلاح ما بين مؤيد ومعارض للاتفاقية، بينما كان هناك قسم آخر يؤيد عبد الكريم الخليل، ويأمل أن يكون الاتفاق كافيا لتحقيق الإصلاح، وصيانة حقوق العرب في الدولة، على الرغم من النقص المشين في النصوص، ولذلك ظهر نوع من التفاهم والوفاق العربي التركي، وفي 5 أوت قابل وفد من

1- مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، المرجع السابق، ص 99-100. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 445-446. Khoury Philip : op. cit, p 59.

2- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 67-71. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 446-447. توفيق بروج: العرب والترك في العهد الدستوري: المرجع السابق، ص 537-539. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 34.

الإصلاحيين العرب في الأستانة برئاسة الشريف علي حيدر باشا رئيس الوزارة، وطالب الحكومة بالإسراع في تنفيذ وعودها، فوعدهم بذلك⁽¹⁾.

أظهرت التصريحات الرسمية العثمانية، بداية مرحلة جديدة في العلاقات العربية التركية. فأرسل الخليل برقية إلى أعضاء المؤتمر في باريس للحضور إلى الأستانة، لدراسة الوضع، ومراقبة تنفيذ مواد الاتفاقية. فحضر ثلاثة من أعضاء جمعية الإصلاح البيروتية، وهم سليم علي سلام، والشيخ أحمد حسن طبارة، وأحمد مختار بيهم⁽²⁾.

وعند وصولهم، اجتمعوا بممثلي الجمعيات العربية في المنتدى، وأشاروا إلى أن مهمتهم هي توضيح ما استعصى فهمه في الاتفاق الذي أعلنته الحكومة، ومفاوضتها في تعيين بعض زعماء الأحزاب العربية في مناصب الدولة، وجعلها تعترف رسمياً بالاتفاق الذي تم في باريس، ومنذ 15 أوت عام 1913م بدأوا في مفاوضة الحكومة⁽³⁾.

ولكن تأكد الوفد أن الحكومة تعتزم التسوية والمماطلة، وأن التغيير الذي طرأ على الاتفاقية لم يكن عن حسن نية، فقرروا مغادرة العاصمة، وبعثوا بتقرير إلى مندوبي الجمعيات العربية في الأستانة وسوريا ومصر، أوضحوا فيه استيائهم، وأنهم سمعوا من رجال الحكومة وعود صريحة قاطعة بتنفيذ الإصلاح في القريب العاجل⁽⁴⁾.

ولذلك أصدر حزب اللامركزية العثماني، بياناً إلى الشعب في 9 أكتوبر 1913م، أوضح فيه حاجة الأمة إلى اللامركزية، وأعلن أنه لا يرضى بأقل من الإصلاحات التي اتفق عليها⁽⁵⁾.

أبرق الخليل إلى الزهراوي، بالحضور إلى الأستانة، للاشتراك في المساعي وتنفيذ الاتفاق، بدأ الزهراوي المفاوضات التي دامت أسبوعاً، في 30 من أكتوبر مع مدحت شكري بك، وبعض أعضاء الوزارة، لكنه أدرك أن الحكومة الاتحادية تنوي التسوية، فصمم على مغادرة الأستانة إلى القاهرة، وعقد مؤتمراً صحفياً في 21 نوفمبر

1- أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج3، ص 79-80. مصطفى الشهابي: محاضرات عن القومية العربية، ص 100. اسعد داغر:

المصدر السابق، ص 61-62. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 540.

2- محمد طاهر العمري: تاريخ مقدرات العراق السياسية، المكتبة العصرية، بغداد، 1924-1925، ص 173-174. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 427. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 62-63.

3- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 35. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 63-64. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 448. ساطع الحصري: البلاد العربية، ص 305-306.

4- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 37. علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 92-93. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 65.

Khoury Philip : op. cit, p 66.

5- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 449. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 543-545.

1913م قال فيه: "أنه سمع من وعود الدولة الكثير، كما سمع غيره من الإصلاحيين، ولكن ما الفائدة ونحن نريد أعمالاً لا أقوال"⁽¹⁾.

تنبه الزهراوي إلى أن السبب في ممانعة الحكومة يرجع إلى الاختلاف في الرأي بين القوميين الترك من أعضاء الجمعية، حول المسألة العربية، والإصلاحات اللامركزية⁽²⁾. وهذا يفسر كيف كان تطبيق مبادئ الاتفاق يسير ببطء شديد، وبأسلوب المطل والتسويق، إلى أن توقف نهائياً بعد إعلان الحرب العالمية.

استخدمت الحكومة الاتحادية شتى الوسائل للقضاء على المعارضة العربية، فحاولت بث الخلاف بين زعماء المؤتمر، بتعيين البعض منهم في المناصب والمراكز العالية، فأصدرت في 4 جانفي عام 1914م، مرسوماً بتعيين خمسة أعضاء من العرب في مجلس الأعيان، لم يكن بينهم من القوميين سوى الزهراوي، أما البقية فكانوا من كبار الأعيان والتجار، الذين لا يمثلون الحركة القومية، وهم عبد الرحمن اليوسف من دمشق، وسليمان الباروني من طرابلس الغرب، ومحي الدين النقيب من بغداد، ومحمد بيهم ويوسف سرسق من بيروت، وأحمد الكخيا من حلب⁽³⁾.

وبذلك تأكد ارتياب الإصلاحيين العرب في نية الحكومة، وعندما منحهم بعض حقوقهم في الوظائف، كانت تقوم بتعيين أنصارها من المناهضين للإصلاح اللامركزي دون غيرهم.

كما تم تعيين كل من عبد الوهاب الانجليزي وشكري العسلي، مفتشين في الدوائر العدلية بسوريا، وآخرين بدوائر الوزارات بالعاصمة، وطلبت من الزهراوي ترشيح أسماء أخرى لتعيينهم في مراكز عالية في الدولة⁽⁴⁾.

وهذا يوضح مبادرة الحكومة للتفاهم مع العناصر القومية المعارضة من أنصار الإصلاح الإداري، وخاصة بعد وقوفها على ما يجده الوفد السوري في باريس من عطف الدول الأوروبية، ولذلك حاولت عرقلة مساعي الوفد وتحويل المعارضة إلى تأييد، ويدل على ذلك أن يوسف سرسق لم يستدع مطلقاً لحضور مجلس الأعيان⁽⁵⁾.

1- الصفدي: الجامعتان العثمانية والعربية، فتى العرب، العدد 31-1465، 1914/1/19، ص 1. اسعد داغر: المصدر السابق، ص

66. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 38. توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري، ص 546.

2- العبيدي: لوتفاهما لاتفاقاً: مبدأ الجنسية، فتى العرب، العدد 60-1594، 1914/6/20، ص 1. الصفدي: المصدر السابق، ص

1. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 51-52.

3- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 67-68. يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 117. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 449.

توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 547-548.

4- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 67. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 38-39.

5- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 119.

كذلك أدخلت الحكومة بعض تعديلات على قانون الولايات، كوجوب تعيين موظفي الولاية من العارفين باللغة المحلية، وان تستعمل اللغة المحلية في المرافعات أمام بعض المحاكم، ودواوين الولايات العربية، وان تبلغ أوراق الدعاوى والأحكام إلى أصحابها باللغة المحلية، كما تنشر القوانين والأنظمة وقرارات الحكومة باللغتين التركية والمحلية، وأقرت إنشاء مدرستين عربيتين ثانويتين في بيروت ودمشق، وعينت لهما مديرين وأساتذة عرب، وبقضاء الخدمة العسكرية للمجندين في مناطقهم العسكرية خلال فترة الخدمة الإجبارية⁽¹⁾.

رأي الزهراوي في هذه البوادر، دليلاً على صدق الموقف الاتحادي، فقد وضع بعض شروط اتفاق باريس موضع التنفيذ، مثل اللغة العربية مستخدمة في المحاكم المحلية، على الرغم من قصر استعمالها على بعض النواحي التي تعينها الحكومة، وبذلك انتهت المساعي العربية بإنشاء المدرستين، وتعيين بعض الشخصيات العربية في مجلس الشيوخ، وفي مناصب بالعاصمة ومراكز الولايات. وكان الزهراوي يرى ضرورة تعاون العناصر الإصلاحية مع الاتحاديين، حتى لا يحل محلهم المنافقون وطلاب المنافع⁽²⁾.

وهكذا نجح الترك في تفريق الحركة الإصلاحية العربية، فنشب الخلاف بين القوميين العرب حول مستقبل العلاقات العربية التركية، وانقسموا بين مؤيد ورافض لموقف الزهراوي، فقد أيدته فريق من أمثال عبد الكريم الخليل، بينما أخذ فريق آخر من زعماء العرب في الأستانة والمدن العربية والمهاجر في مهاجمته والظعن في وطنيته.

وبذلك أنه ارت الآمال العربية بقيام تقارب عربي تركي عن طريق الاتفاق المبرم بين الاتحاد والترقي والشبيبة العربية⁽³⁾.

4- موقف العرب من اصلاحات الاتحاديين:

وقد اتضح ذلك في تطور مواقف القوميين العرب وبرامج التنظيمات السياسية العربية، فقد تطور برنامج العربية الفتاة، الذي كان أكثر وضوحاً وتحديداً في صياغة الفكرة العربية ومفهوم اللامركزية ضمن الدولة العثمانية، إلى التمسك بالكيان العربي، والمطالبة بالاستقلال العربي التام عن الحكم التركي، وقد جاء ذلك بعد فشل الحركة الإصلاحية في بيروت والمؤتمر العربي الأول، في تحقيق أهدافهما، وفقد الثقة ازدياد الشكوك بوعود ونوايا الحكومة

1- توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 546. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 449-450.

2- العبيدي: المصدر السابق، ص 1. عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 262. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 549. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 451-452.

3- رشيد رضا: الشيخ عبد الحميد الزهراوي: المنار، ج3، المجلد 19، 1916/8/29، ص 181-182. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 38-39. جلال يحيى: الثورة العربية، ص 103.

الاتحادية، التي اتضحت في تقديم المناصب الاسترضائية للقيادات العربية القومية وغيرها كبديل عن الإصلاح اللامركزي⁽¹⁾.

كما كان للضباط العرب موقف محدد وإيجابي بالنسبة للقضية العربية، وخاصة بعد وضوح المؤامرة الاتحادية في مقاومة الحركة الإصلاحية في بيروت وباريس، وتفريق أعضاء المؤتمر، وإغراء بعض زعماء العرب بالرتب والنياشين والوظائف، في مقابل إدخال إصلاحات بسيطة على قانون الولايات جاءت دون الاتفاق المبرم، ولذلك هاجموا موقف الزهراوي، وأرسل إليه عزيز علي المصري، جميل المدفعي، ويوسف العزاوي، وسعيد التكريتي، لإقناعه بعدم التعاون مع الحكومة⁽²⁾.

ولكن طلائع العمل القومي من العسكريين العرب أصبحت ترى عدم جدوى العمل السياسي السلمي، وتجد البديل في الاتجاه الثوري المباشر، وذلك بالعودة إلى أسلوب العمل السري، في حزب العهد، الذي طالب بألا تتجاوز صلة الولايات العربية بالدولة العثمانية، صلة المجر بالنمسا، وتخطي الاتجاه الإصلاحي اللامركزي، ليتطور برنامجه إلى الدعوة بإنشاء كيان عربي سياسي مستقل تماماً⁽³⁾.

اتضح هذا الاتجاه الاستقلالي في مواقف وأراء العربية الفتاة والعهد، ومحاولة توحيد جهودهما للسير على منهج عربي موحد. فقامت هاتان الجمعيتان بنشاط كبير في نشر الفكرة العربية بين صفوف الجيش وموظفي الحكومة، بغرض الدعوة إلى تحسين أحوال الدولة، وإعلاء شأن العرب فيها، كما أجريتا اتصالات مع القوميين العرب والضباط العراقيين، والشريف حسين، وعندما اندلعت الحرب، تطورت الدعوة بقطع الصلات بالترك وإنشاء دولة عربية موحدة، وأثناء الحرب انضم أعضاؤها إلى الشريف حسين للقيام بثورة عربية ضد الحكم التركي في 10 جوان عام 1916م⁽⁴⁾.

أما المنتدى الأدبي فقد اتخذ اتجاهها قومياً، واحتج أعضاؤه على قبول الزهراوي لعضوية مجلس الأعيان.

1- رفيق العظم: تلغرافان من حزب اللامركزية إلى الصدر الأعظم وإلى بيروت احتجاجاً على عداء الوالي للإصلاح، المؤيد، العدد 6959، 1913/4/13، ص 5.

2- العريسي: العهود والقيود، فتى العرب، العدد 188-1622، 1914/8/16، ص 1.

3- رؤوف عباس: المرجع السابق، ص 128.

4- جمال عبد الجواد: فيصل بن الحسين: الدولة العربية الأولى في التاريخ الحديث، الأهرام، العدد 36246، 1986/3/5، ص

13. محمد رشيد رضا: أراء الخواص في المسألة العربية واستقلال الشريف في الحجاز، المنار، ج3، مجلد 19، 1916/8/29، ص

165-168. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 68-69. See also Lenczowski, op. cit, p 47.

عندما وجد فريق من الشباب العربي في الأستانة، من أعضاء المنتدى الأدبي، أن ممثلهم عبد الكريم الخليل، لم يتخذ الأسلوب الملائم في صلته بالحكومة، وفي الخطة التي اتبعها في المفاوضات معها، قاموا باستدعائه لمناقشة موقفه من الحكومة، وجمعية الاتحاد والترقي، وسؤاله عن موافقته على قبول الزهراوي لمنصب عضوية الأعيان، وعما تم في موضوع الإصلاح حتى يعلنوا رأيهم في موقفه⁽¹⁾.

وكان ذلك في اجتماع سري عقد بمقر المنتدى الأدبي في 7 جانفي 1914م، وتألّفت لجنة للاستماع إلى مبررات موقفه، من نجيب بك شقير، وسيف الدين الخطيب، واسعد داغر، وجلال البخاري، وصبحي حيدر، دافع الخليل عن سياسته، وأوضح ان قبول الزهراوي، عضوية الأعيان خير من عدمه، لأنه يفعل في المجلس، ما لا يستطيع خارجه، من محاولة إقناع المسؤولين بضرورة تنفيذ الإصلاح، وان الاتفاق السري الذي عقده مع الاتحاديين يحتوي على فوائد جلية للعنصر العربي، لا يمكن وضعها موضع التنفيذ الا بالتدريج خوفا من هياج العنصر التركي، وسائر العناصر الأخرى على الحكومة⁽²⁾.

كما حاول إقناعهم بحسن نية الاتحاديين، وبفائدة مسايرتهم وإظهار الولاء لهم لتنفيذ الاتفاق، وتحقيق الوعود، وبرر ذلك أيضا بالأخطار والمطامع الأجنبية في البلاد العربية، التي قد تنجم عن انتهاز الخلاف بين العرب والترك لتحقيق الأغراض الاستعمارية، وان هذا وحده يعتبر كافيا لمعذرة الزهراوي⁽³⁾.

وبصفة عامة لم تكن تصريحاته مقنعة، ولكن اللجنة اقتنعت بأقواله لرغبتها في تجنب النزاع بين العرب والترك، واصدر أعضائها بيانا في 9 جانفي 1914م، نشر في الصحف الأستانة وبيروت والقاهرة⁽⁴⁾.

لذلك أعلنت اللجنة أنه ا ترى من المصلحة العامة الاستمرار في الثقة بعبد الكريم الخليل، والسماح له بالاستمرار في مواصلة المساعي مع الاتحاديين، لتحقيق المطالب العربية كاملة، مع توصيتها بتشكيل لجنة استشارية من أربعة أشخاص، يتشاور معها، ويرجع إليها ويستعين بها في مساعيه (مفاوضات)، وتبقى صلتها بال خليل، الذي يظل الرسول بين الشبيبة والوزارة، وجمعية الاتحاد والترقي وهذا اقرب إلى المصلحة العامة⁽⁵⁾.

1- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 67-68. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 39-40. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 552.

2- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 68.

3- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 40. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 451.

4- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 68. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 553.

5- محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 451. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 40. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 68-69.

ظهر الاتجاه الاستقلالي في موقف المنتدى، الذي كان وسيطا بين الحكومة ومؤتمر باريس، فتحول عن موقفه المعتدل بعد المؤتمر، إلى المطالبة بالاستقلال والانفصال عن الترك.

موقف حزب اللامركزية من مؤتمر باريس:

أشار جمال باشا في مذكراته إلى أن الحركة العربية تهدف إلى الحصول على الوظائف فحسب، وبشتى الطرق، حتى ولو أدى ذلك إلى الانقسام والتأمر مع فرنسا، وهو يقصد البعض من أعضاء الجمعية الإصلاحية البيروتية وهم أحمد مختار محمد بيهم، وسليم علي سلام، وميشيل سرسق، الذين حصلوا على امتياز مشروع استثمار أراضي الدولة⁽¹⁾.

كانت هذه محاولة سياسية من جانب والى بيروت، بالاتفاق مع الوزارة، للقضاء نهائياً على معارضة رجال الإصلاح اللامركزي، فضمن لأصحاب شركة بيهم، وسلام، وسرسق المراكز الحكومية إلهامه التي تساعد على إنجاح المشروع الاستثماري⁽²⁾.

وقد واجهت هذه الفئة مقاومة ومعارضة، لكونها استفادت من الامتيازات الاسترضائية الاتحادية، فتراجعت عن القضية العربية، مما أدى إلى انقسام العناصر القومية وجمود الحركة الإصلاحية⁽³⁾.

ولكن الحركة العربية براء من هذا الاتهام، بدليل تطور الاتجاهات العربية القومية السابقة، وكما يتضح في موقف وبيان حزب اللامركزية إلى عرب المهجر الذي يؤكد فيه رفيق العظم على مبدأ الإصلاح فيقول: "...نحن طلاب إصلاح، لا طلاب وظائف وليس لأحدنا مطمح غير الإصلاح الذي ننشده، بكل وسيلة من الوسائل المشروعة"⁽⁴⁾.

كما يتضمن كتاب إيضاحات رسالة من حقي العظم، أحد أقطاب حزب اللامركزية، وسكرتيره العام، إلى محمود الحمصاني يوضح له فيها موقف الحزب من هذه القضية ويهاجم بمبدأ قبول الوظائف، والامتيازات، ويلوم أصحابها من بعض الإصلاحيين، يقول فيها: "... من المنتظر ان يحدث بيننا كما حدث من قبل بين طلاب

1- علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 88-94.

2- يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص 119-120.

3- نسيب أرسلان: العرب عقولهم في عيونهم، المفيد، العدد 1429، 1913/11/20، ص 2. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 453.

4- رفيق العظم: المجالس العمومية وماذا يطلب منها، المقتبس، العدد 44، 1909/2/9، ص 1-2. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 43. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 450. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 55.

الإصلاح الأرمن والبلغار والروم وغيرهم، مع ان تربيتهم امتن من تربيتنا نحن معشر المسلمين، كما أنه م أثبت على المبدأ وقل نفاقا، فإذا كان يوجد من الألف منهم منافق واحد من أمثال (لم يوضح الأسماء)، فانه يوجد 80% منا من أولئك المنافقين الذين لا ذمة لهم ولا وطنية"⁽¹⁾، ويضيف قائلا: "زد على ذلك الجري وراء المنفعة الشخصية التي لا تتأخر الحكومة عن منحها إلى الأعيان النفعيين منا نظير ما يقدمونه لها من المساعدة على أماته عواطف الشعب... لذلك يجب أن نعرف كيف نسلك مع الحكومة، وكيف نربي المنافقين منا، كما فعل الأرمن والبلغار والروم..."⁽²⁾.

وبعد فشل مؤتمر باريس، وكرد فعل للسياسة التركية، تطور برنامج الحزب السياسي من مجرد المطالبة باللامركزية الإدارية، إلى الاستقلال التام عن الدولة العثمانية، والدعوة بإقامة دولة عربية مستقلة، ويدل على ذلك بيان نشرة الحزب بعنوان "الصرخة الثالثة إلى أبناء الأمة".

أما موقف المسيحيين العرب في المهجر، فيتضح في إرسال جمعية الاتحاد السوري في أمريكا احتجاجا مؤرخا بتاريخ 19 فيفري 1914م إلى حزب اللامركزية، بشأن قبول بعض أعضاء اللجان الإصلاحية في سوريا ومصر، لوظائف مختلفة في الحكومة، هاجمت فيه سلوك الزهراوي، وعبد الكريم الخليل، وظلت تعتبره انحرافا عن الحركة العربية، وخيانة لقرارات مؤتمر باريس، الذي نص في المادة الأولى من ملحقة، على عدم قبول أي منصب في الحكومة العثمانية قبل استجابة الاتحاديين إلى مطالبه ومقرراته⁽³⁾.

وعلى الرغم من محاولة الزهراوي الدفاع عن نفسه، فقد فشل في إقناع معارضة من العناصر القومية، بانه من خلال تمثيل الأمة، يمكنه المساهمة في تحقيق الإصلاح، وبأن قبوله لهذا المنصب، كان مجرد مناورة سياسية⁽⁴⁾، فقد وجد ان المؤتمر الذي انعقد بعد نشاط لجنة الإصلاح البيروتية، قد أوصل العلاقات العربية التركية إلى مرحلة خطيرة، تشرف فيها على الانهيار، وانه من خلال منصبه الجديد، قد يفيد في تحسين هذه العلاقات واستخدام نفوذه في مجلس الشيوخ للضغط على الحكومة، وإقناعها بإتباع سياسة إصلاحية حرة نحو الولايات العربية⁽⁵⁾.

1- أحمد جمال باشا: المصدر السابق، ص 70. توفيق برو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 551-552.

2- علي أحمد شكري: المصدر السابق، ص 88-94. محمد عزة دروزة: المصدر السابق، ص 453-454.

3- عارف الشهابي: أين الوعود وأين العهود، فتي العرب، العدد 168-1602، ص 29. أمين سعيد: المصدر السابق، ص 39-41. منير مشابك: المرجع السابق، ص 229.

4- اسعد داغر: المصدر السابق، ص 67. جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 128.

5- أمين سعيد: المصدر السابق، ص 45.

ولذلك حاول تبرير موقفه والدفاع عن سياسته، والتأكيد على ان وطنيته فوق مستوى الشبهات، وكذلك التعبير عن حالة العرب، وانقسام الحركة الإصلاحية، في رسالة سرية، بعث بها إلى صديقه الأستاذ رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، وأحد أركان حزب اللامركزية في القاهرة، في 16 جانفي عام 1914م ليبلغها إلى أعضاء حزب اللامركزية، وقامت المنار بنشرها⁽¹⁾.

نلاحظ مما سبق، أن المؤتمر العربي الأول كان مظهرا من مظاهر التكتل العربي القومي، وخطوة تمهيدية في تبلور الاتجاه القومي، وأساس للفكرة العربية التي جاءت لتصب في المؤتمر، فعبّرت الاتجاهات المختلفة عن نفسها، من خلال كلمات وخطب الأعضاء من المسلمين والمسيحيين المثقفين ثقافة علمانية.

ولكن المؤتمر أكد أكثر من الحركات القومية السابقة التي اضطلعت بها الأحزاب والمنظمات والأفراد، على أن العرب جميعهم أمة مستقلة واحدة ذات ماضي عريق ومستقبل مشرق، وقد فسر هذا الواقع القومي بأساليب ومفاهيم موضوعية حديثة، وعاطفية في نفس الوقت⁽²⁾، فقد جاءت أحاديث ومناقشات الخطباء، من أبناء الأعيان وعائلاتهم، لتؤكد أن العرب يمثلون جماعة، وأمة متميزة عن غيرها من العناصر العرقية، وعلى ذلك يطالبون بأن تكون لهم حقوق الجماعات القومية.

وهذا يوضح ما كان بأذهان طبقة الأعياد التي تطلعت إلى تحقيق الإصلاح، وتنظيم الحركة السياسية من جديد على أساس الفكرة القومية، لإقامة الكيان القومي المستقل⁽³⁾، وبذلك قرر المؤتمر بأن للأمة العربية وجودا قوميا، على الرغم من استمرار الحفاظ على الرابطة العثمانية.

وهكذا اتضحت الدراسة النظرية الحديثة في تحديد مفهوم القومية العربية ودوافعها، فكان للمؤتمر دور كبير في إيقاظ الشعور القومي لدى المسلمين والمسيحيين العرب، بدون النزاعات الدينية والطائفية، التي ولدتها حوادث عام 1860م، ومن هنا طالب المؤتمر بالمساواة التامة في الحقوق بين المسلمين والمسيحيين⁽⁴⁾.

1- محمد رشيد رضا: كتاب سري من السيد الزهراوي، المنار، ج3، مجلد 19، 1916/8/29، ص 175-182. أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج4، ص 19-30. توفيق بزو: العرب والترك في العهد الدستوري، ص 557.

2- الغلاييني: الإصلاح والجمعيات، النبراس، العدد 4، 1909/4/21، ص 124-131. أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 68.
Khalidi Rashid: **British Policy Towards syria & Palestine 1906-1914: A Study of the Antecedents of the Hussein-Mcmahon Corres- Pondence, the Sykes-Picot Agreement & the Balfour Declaration**, London, 1980, p 54.

3- محمد رشيد رضا: مستقبل الدولة والمصلحون من العرب، المنار، ج5، 1914/4/25، ص 395-400. وليد قزيبها: المصدر السابق، ص 9.

4- Hourani Albert : op. cit, p 233.

كما أكدت العناصر القومية في المؤتمر على نوع من الاستقلال الذاتي للعرب عن الدولة العثمانية، الذي يعتبر خطوة لتحقيق الاستقلال القومي، فيتضح من الأبحاث التي أقيمت في المؤتمر، أن الحل المنطقي للمشكلة التي تواجه الدولة المتعددة القوميات، هو نظام اللامركزية أو الاستقلال الإداري، وليس الاستقلال التام⁽¹⁾، ولكن المؤتمرين ربطوا بين المطالبة باللامركزية، ونجاح النظام نفسه حتى يقبلوا به، ويدل هذا التحفظ القومي على وعيهم بسوء النية التركية.

وهكذا اتجهت الحركة القومية نحو اللامركزية، مع التوسع في الإدارة الذاتية ضمن الرابطة العثمانية.

ويرجع تمسك القوميين العرب بالإصلاح اللامركزي، لاعتبارات منها، الخوف من عدم تأييد الرأي العام الإسلامي لفكرة الاستقلال العربي التام. فقد كانت الفكرة الإسلامية لا تزال تسيطر على الحياة الفكرية العربية، لدى معظم المسلمين، والكثير من المثقفين، فظلت قوة الإسلام، وسلطة الخليفة، واستقلال الدولة يشكل محور اهتمامهم، ولذلك بعدت الجماهير العربية عن التفكير القومي.

وقد استمرت هذه الازدواجية في الفكر السياسي العربي، إلى أن تنبه العرب إلى انحراف السياسة الاتحادية عن جوهر التفكير الإسلامي، وحكمها البلاد العربية حكما استعماريًا استبداديًا باسم الخلافة⁽²⁾، ولكن على الرغم من معارضتهم لسياسة تركيا الفتاة، لم تنضج الفكرة القومية بدرجة كافية، لتنتشر بين الصفوف الجماهيرية، وتتغلب على النزعات المذهبية والطائفية، وتتخذ شكل مذهب أو عقيدة، لتؤدي إلى الانفصال عن الرابطة العثمانية، ولذلك اقتصر على الطبقة المثقفة.

كذلك حرص المؤتمرون وهم يصرحون بوجود الأمة العربية، ويتحدثون باسمها على الالتزام بمنهج الحركة العربية، وهو الدعوة إلى الكيان العربي ضمن الرابطة العثمانية، ونبت كل حركة من شأنها انفصال العرب بينها وبين الدولة العثمانية، وذلك خوفاً من أن يؤدي الاستقلال التام إلى وقوع البلاد العربية العثمانية تحت سيطرة الأطماع الأوروبية الاستعمارية⁽³⁾، مما يفسر اتخاذ مبدأ الاستقلال القومي شكلاً سلمياً في البداية، فيطالب العرب بمطالب سياسية بسيطة.

1- جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 12. العريسي، حقوق العرب في المملكة العثمانية، المؤيد، العدد 7026، 1913/7/3، ص 4. أنظر أيضاً:

Khoury Philip: op.cit, p 66.

2- محمد رشيد رضا: العرب والإسلام والترك الاتحاديين، المنار، ج4، مجلد 19، 1916/9/28، ص 233-135. أنظر أيضاً:

Hourani Albert, op. cit, p 287.

3- شكري العسلي: حياة العرب بالاتحاد مع الترك، المقتبس، العدد 113، 1909/5/1، ص 1-2. أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 69. اسعد داغر: المصدر السابق، ص 70-71.

كما أن المطالبة بفكرة الاستقلال قد تؤدي إلى إحراج بعض الدول الأوروبية التي تتعاطف مع الحركة العربية وخاصة فرنسا التي رحبت بعقد المؤتمر في عاصمتها، وكانت الدولة تتهمها بتأييد الحركة الإصلاحية العربية، ومحاولة استغلالها لتحقيق مكاسب ومصالح أجنبية⁽¹⁾.

وهكذا تبلور القضايا الرئيسية في مناقشات القوميين العرب، وتتضح في الدعوة للإصلاح على أساس اللامركزية، لصيانة حقوق العرب القومية، على اعتبار أنه م مواطنون وشركاء متساوون في حكم وإدارة الدولة، مع ضرورة تمثيل مصالحهم في نطاق حكومة لامركزية⁽²⁾، وهذا يوضح الموقف العربي الراض لسياسة العثمانيين، والمركزية، والعنصرية التركية، والذي يتعلق بالعثمانية في مواجهة الأطماع الأوروبية في البلاد العربية العثمانية، لتحقيق النهضة والتقدم العرب.

حاولت الحكومة الاتحادية امتصاص وتشويه وتصفيه القضية العربية نهائياً بعد مؤتمر باريس، فلم تقف عند تقديم الاسترضاءات والإصلاحات الطفيفة، ونقض ما سبق وان أبرمته، بل تعدت ذلك إلى تأجيل وتجميد الإصلاح اللامركزي، وما يتصل به من الحقوق القومية في المساواة والديمقراطية والحياة الدستورية، وإعلان الأحكام العرفية، والانتقام من زعماء الحركة الإصلاحية⁽³⁾.

وقد اتضح هذه الاتجاه في سياسة الإرهاب، ومذابح جمال باشا في سوريا ولبنان. فعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى، أعدمت الدولة في عام 1916م جميع من ارتبط وتمسك بها من زعماء المؤتمر العربي، بما فيهم الخليل والزهراوي، دعاة الأناة والانسجام بما أعطته الحكومة كخطوة أولى⁽⁴⁾.

أدى ذلك إلى تطور الاتجاهات القومية للحركة الإصلاحية العربية التي سادت المؤتمر، نتيجة لظروف الحرب واشتداد السيطرة التركية، فقد أدرك العرب أن الحكم العثماني كان السبب وراء تأخر البلاد العربية، والاستبداد بالحريات السياسية، فأشارت الجمعيات السياسية إلى السياسة التركية التي تفرط في الحقوق القومية للعرب، وتثير النزعات الدينية⁽⁵⁾.

1- مصطفى الغلاييني: المصدر السابق، ص 127-131. أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 70.

2- العريسي: اللامركزية الإدارية، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12، ص 1. محمد رشيد رضا: الإصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية، المنار، ج3، مجلد 17، 1914/2/25، ص 234-239.

3- العريسي: حرب جنسية لا حرب انتقام، فتى العرب، العدد 186-1620، 1914/8/4، ص 1. محمد أمين العمري: المرجع السابق، ص 261-263. أنظر أيضاً: Khoury Philip: op.cit, p 65-66.

4- محمد رشيد رضا: العصبية الجنسية، وعاقبة قتل نابغى العرب، المنار، ج2، مجلد 19، 1916/7/15، ص 78. أنظر أيضاً:

Khoury Philip: op.cit, p 215.

5 - Zeine. Z.N : op. cit, p 104-105.

ومن هنا ظهر اتجاه يشجب الرابطة الإسلامية، ويؤكد على اتحاد العرب في الإطار القومي لخدمات الجامعة العربية القومية، وبذلك جاءت العروبة لتتخلص تدريجياً من التفكير الديني في المؤتمر، وتتجه نحو التفكير القومي، ويبرز ذلك بوضوح في مناقشاته، وما صدر عنه من قرارات⁽¹⁾.

وهكذا دفعت الضرورات السياسية بالحركة العربية في بلاد الشام نحو الاتجاه الاستقلالي القومي، والإعداد لهذه المرحلة المصيرية، فتطورت برامج الهيئات العربية السياسية نحو الاتجاه الثوري. ويتضح ذلك في التحول الفكري لقيادات الثورة العربية، التي تخلت عن مبادئ الإصلاح واللامركزية واتجهت نحو الدعوة إلى الفكرة القومية لإقامة الدولة العربية الموحدة على أسس قومية عربية⁽²⁾.

وحدد لها فيصل الحدود الجغرافية، فاقترنت على دول المشرق العربي وشبه الجزيرة العربية، كما أكد على الدور الشامي في نشر الحركة العربية، فقال: "كان السوريون العرب زارعي بذور هذه الحركة، وناشري روحها، والمبشرين بها بين العناصر بلا فارق أو ميزة بين الأجناس والأديان والطبقات"⁽³⁾.

وهكذا جاءت الفكرة القومية على يد قيادات اجتماعية وسياسية تنتهي لأصول اجتماعية وإقليمية متباينة، في المشرق العربي والحجاز، وكان لارتباطها أثر عميق في ترسيخ المفهوم القومي في أذهان الجماهير العربية التي تنهت بدورها إلى نشاطها السياسي والفكري، لتحقيق الهدف القومي كبديل للمفهوم الإسلامي⁽⁴⁾.

وبذلك امتزجت العلمانية بالفكر القومي، نتيجة أنه يار الرابطة الدينية، وشعار الارتباط بالدولة العثمانية لصالح القومية إبان الحرب وما بعدها، وارتبط مفهوم الجماعة القومية بمفهوم الدولة الموحدة، لتكتسب الفكرة القومية أبعادها الكاملة كالقوميات الأوروبية، ويصبح المفهوم القومي أساس الفكر والعمل السياسي في المنطقة العربية⁽⁵⁾.

1- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المصدر السابق، ص 4-5. محب الدين الخطيب: المؤتمر العربي الأول، المصدر، ص 42-50.
2- أنظر منشور الجمعية الثورية في: أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج 4، ص 108-116. أنيس الصايغ: المرجع السابق، ص 67-68.

3- وليد قزيبا: المصدر السابق، ص 15-16. جمال عبد الجواد: المصدر السابق، ص 13. أنظر أيضا:

- Hourani Albert : op. cit, p 284.

4- وليد قزيبا: المصدر السابق، ص 16. العريسي، افتتاح المؤتمر العربي الأول في باريس، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12، ص 1.

5- المصدر نفسه، ص 10-14. أنظر أيضا: Khalidi. R : op, cit, p 50.

وعلى الرغم من علمانية الحركة واعتبار المؤتمر العربي حركة عربية، فإن الكيان العربي المنشود لم يشمل مصر والسودان والمغرب العربي، ويرجع ذلك لظروف سياسية باعدت بين التيارات الفكرية في المشرق والمغرب، برغم وحدة اللغة، والأساس الثقافي العربي المشترك. فقد كان القوميون العرب على علاقة وثيقة ببريطانيا وفرنسا، قبل وخلال الحرب، فلم يستطيعوا إخراج بريطانيا بالمطالبة باستقلال مصر والسودان، واعتبارهما جزءا من الكيان العربي⁽¹⁾.

ويدل على ذلك ما حدث في مناقشات المؤتمر، عندما حاول أحد الشباب المصري، سيد كامل، الحصول على الدكتوراه في الحقوق، المشاركة فيه، فمنعه الزهراوي رئيس المؤتمر من الكلام بأسلوب لبق، وبرر عدم دعوة المصريين إلى الاشتراك فيه حين أثير التساؤل حول ماذا كانت مصر بلدا عربيا عثمانيا أم لا، بقوله: "نحن نحى إخواننا المصريين، ونبدي حرمتنا لآرائهم، ونعرف أن مصر عربية عثمانية، ولكن بما أن لها إدارة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين، لذلك أرجو أن يكون هذا عذر البقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة لآرائهم حق التأثير على أحوالهم"⁽²⁾.

أصبحت الحركة العربية تضم قبيل قيام الحرب اتجاهين مختلفين، أحدهما يمثل أقلية عربية في الحركة القومية، تأمل في التوصل إلى اتفاق مع الترك، حول مطالب إصلاحية ضمن إطار الدولة العثمانية خوفهم من أن تسفر الثورة عن احتلال انجليزي، وفرنسي للبلاد العربية، يفوق الخطر العثماني، أما الاتجاه الآخر، والأقوى فهو يدعو إلى الثورة ضد الترك، ويمثله معظم العرب، ولتحقيق ذلك أنصاره التعاون والتنسيق مع إنجلترا وفرنسا⁽³⁾.

تعاون القوميون العرب مع القوى الأوروبية لتحقيق استقلالهم القومي، على الرغم من إدراكهم بأن لهم مصالح خاصة، ولكنهم كانوا يتناولون القضية العربية على أساس مبدأ المصالح المشتركة أو ربما لثقتهم بحسن نوايا أوروبا الليبرالية، أو للحصول على حماية إنجلترا أو فرنسا، المهم أن بريطانيا وجدت حليفا محليا يساعدها على تنفيذ مخططاتها في المنطقة العربية، ويمثله حركة الشريف حسين وأعيان المشرق⁽⁴⁾.

وهنا يلاحظ استمرار الطبقة الأعيان على قمة الهرم الاجتماعي، فتلعب دور الوكيل وأحيانا الشريك للدول الاستعمارية الأوروبية، بدون أن تنتبه كذلك لسيطرة القوى الاستعمارية الرأسمالية الطامعة، والاحتكارات الدولية

1- وليد قزيبا: المصدر السابق، ص 15.

2- المصدر نفسه، ص 15.

3- رؤوف عباس، المرجع السابق، ص 129. أنظر أيضا: Hourani Albert : op. cit, p 283.

4- جمال عبد الجواد، المصدر السابق، ص 13.

على المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات العربية، مما مهد إلى الاتفاق الفرنسي البريطاني على اقتسام بلاد الشام والعراق.

ولكن هذا لا يعني فيصل وغيره من القيادات العربية، من مسؤولية تقسيم تنازلات للانجليز في عدن والعراق، أملا في الحصول على مساعدتهم في التصدي للأطماع الفرنسية في سوريا، فقد خدع البريطانيون فيصل وسقطت الدولة العربية الأولى، ليتم تقسيم بلاد الشام، وتتاح الفرصة للصهيانية لتحقيق مشروعهم في فلسطين⁽¹⁾.

وهكذا على الرغم من علمانية الحركة، فقد فشلت بسبب تصادمها مع المخططات الامبريالية، فاتسمت بصراع سياسي اقتصادي ضد القوى الأوروبية، وحضاري ضد الترك، وقد تخللتها تيارات فكرية، انتهت بالبلاد العربية إلى التقسيم السياسي الشامل، وظهور الكيانات العربية المنفصلة تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي والانجليزي، وتغليب التيارات الإقليمية على حساب الوحدة العربية والشعور القومي العربي⁽²⁾.

5- تأثير نظريات ضياء كوك ألب في رسم سياسة الاتحاد والترقي:

لقد أثرة كتابات ضياء كوك ألب على مجمل توجهات وسياسات قادة الاتحاد والترقي في الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى واشترك تركيا فيها حيث نشر سلسلة مقالات بين عامي 1913 - 1914، وضع فيها أسس نظريته القومية " إن الأمة التي يسود فيها الشعور القومي، لا يستطيع حكمها إلا من يتمتعون بهذا الشعور "، وبطبيعة الحال يشترط لنجاح هذا المبدأ إلى الإحكام التالية⁽³⁾:

- يلزم أن يكون القائمون على الأمر في الوطن والحكومة من الترك، أو على الأقل يعرفون أنهم ترك يفخرون.

- يلزم أن يكون هؤلاء من القوميين.

- يلزم ابعاد من يحملون المفهوم العثماني من الإدارة.

1- جمال عبد الجواد، المصدر السابق، ص 13.

2- وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860-1920، معهد الانماء العربي، بيروت، 1978، ص 161.

3-Bernard. Marius : Turquie d'Europe et d'Asie De salonique a Jérusalem, Paris, 1899, p 67.

- حصر هذه الصلاحية فيمن يقبلون بسياسة الاتحاديين الشبان. ومن حيث المبدأ، يبدو الشبه واضحاً بين الفكرة وتلك التي طرحها مصطفى أتاتورك: "أيها السادة إنني في هذه المناسبة أوصي أمتي العزيزة ألا تهمل للخطة تفحص الجوهر الأصلي في دماء ووجدان الرجال الذين ترببهم في أحضانها وترفعهم على رأسها"⁽¹⁾.

لقد نشر ضياء كوك ألب مقالته الأولى، وكان محمود شوكت باشا (عربي عراقي من أصل جورجي) يشغل منصب صدر الأعظم، مع أنه لم يكن يختلف عن الآخرين، من حيث موقفه من التوجه العثماني، إلا أنه لم يكن من الممكن تعاطفه مع التيار القومي التركي، وطبقاً لهذا فإنه يفهم من المقال المذكور، أن قيادة الاتحاد والترقي لم تكن راضية عن الصدر الأعظم ولم ترد في التصريح بذلك.

هذا وقد فند ضياء كوك ألب الادعاء القائل بأن القوميين الأتراك قضوا على تيار العثمنة بقوله: "إن تيار التتريك أقوى مؤيد لتيار العثمنة في الحقيقة، ناهيك عن أنه يعارضه، ولكن كما يحدث في كل تيار جديد، هناك بعض المغالين من الشبان الذين يكونون سبباً للتفسيرات الخاطئة فالتتريك ركيزة حقيقية للإسلامية والعثمنة تجاه التحرر من الفكر القومي والحلي".

ويؤكد ضياء كوك ألب أن تيار التتريك لا يتعارض مع العقيدة الإسلامية حيث يقول: "إذا كانت الأقوام المنتسبة لنفس النموذج التشريحي، هي عرق واحد طبقاً لعلم الانثروبولوجيا، فإن الأمم المنتسبة لدين واحد تعد دولية فوق القومية طبقاً لعلم الاجتماع واللسان التركي يشبه القوم التركي"⁽²⁾، فقد أخذ شكلاً إسلامياً من حيث الأبجدية والاصطلاح بعد دولة الإسلامية، إذن فإن العامل الذي يخلق روح العالمية هو الكتاب القران الكريم، وبناء على ذلك فإنه لا تعارض بين الجماعتين التركية والإسلامية فالأولى القومية، والثانية العالمية، وعندما تصور مفكرو الترك العثمنة تياراً دينياً عاماً، وأنكروا الجامعة التركية لم يشعروا بالحاجة إلى التيار الإسلامي، وبناء عليه فإنه حينما ظهرت فكرة التتريك بدأ الإحساس بالحاجة إلى التيار الإسلامي⁽³⁾.

يقول ضياء كوك ألب لبعض المتعصبين الذين يعتبرون الأتراك الجدد كفاراً: "إن الطريق الذي اتبع منذ التنظيمات دفع المفكرين إلى دعم إعطاء الأهمية اللازمة للعقيدة الإسلامية والالتفاف حول فلسفة العثمنة"، وعلى ذلك فإن تيار القومية التركية جعل المفكرين يشعرون بضرورة التيار الإسلامي، ولهذا يطلب من هؤلاء المتعصبين تأييد القوميين الأتراك والاتحاديين الذين قبلوا بهذا التيار ونظراً للتدخل بين المفكرين ورجال الدولة، فإن ضياء كوك

1 - Welles ted : op. cit. P 45.

2 - Bernard M : op. cit. P 80.

3- Yussuf Hikmet Bayur : **Türk inkilabi Tarih, c 3 / 4 1914-1918 Genel Savasi- Savasin Sonu**, 2 Baski, Ankara, 1983, pp 323-324.

ألب يتوصل إلى القول: "بأن القوميين الأتراك يحكمون الدولة الإسلامية أكثر من أنصار التيار العثماني التنظيميين"⁽¹⁾.

ومما يعزز أطروحات ضياء كوك ألب، محاولة القوميين الأتراك في أحداث تغييرات في إطار سياستهم الإسلامية، فبعد أن استولوا على السلطة مجددا في يناير 1913م، طبقوا ما سبق أن اقترحوه على البرلمان قبل حله، بشأن تعديل الدستور، خاصة فيما يتعلق بتوسيع صلاحيات الحاكم من خلال الديكتاتورية التي اتبعوها، غير أن هذه التغييرات لم تحصل على فرصة تطبيقها إلا أعوام 1915 - 1916م، وزادت صلاحيات الحاكم في عام 1918م، حيث نص آخر تعديل للدستور على منح الحاكم صلاحيات عقد البرلمان أو تأخير أو تمديده أو حله، بناء على إرادة من السلطان. وأثناء هذه التغييرات التي أدت إلى التلاعب بالدستور، اكتسب وجهة نظر الإسلاميين ضد فكرة الفصل بين الدين والدولة قوة كبيرة، خاصة في ظل المناخ الذي سببته حرب البلقان، التي زادت من تأثير رأي الإسلاميين بالاعتماد على الدين.

ومع هذا فإن أي تطور لا يفهم وجهة نظر الإسلاميين، يمكن أن يؤدي إلى إثارة موضوع علاقة الدين بالدولة عن طريق آخر، ومع أن حرب البلقان قد أوجدت مناخ الدين، إلا أنه بدأت تزيد من تأثير القومية في مجال السياسة⁽²⁾.

وفي هذه الفترة بدأوا لأول مرة في استخدام تعبيرات الحكومة التركية والجيش التركي وخاقان الترك، وهذا أدى إلى اعتبار معظم المسلمين في صف الأمم غير التركية وكان المسلمون يعارضون إقامة نظام قومي، مثلما كانوا يعارضون النظام الليبرالي والديمقراطي، ففي مقال نشرته مجلة "سبيل الرشاد" 1912م "أسئلة استفهامية، شبيهة بتلك التي يمكن أن يطرحها القوميون الأرمن "ماذا يعني لفظ الترك" الترك هم أعضاء شراكة سياسية تحمل اسم السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية.

وفي السياق نفسه هاجم الكاتب الشهير "ليمان نظيف" القومية التركية من زاوية أخرى فهو يرى: "أن القومية التركية تؤدي إلى أضرار أسوأ من جميع الأضرار التي سببتها حرب البلقان فلا دماء عثمانية، والقومية العثمانية كاللغة العثمانية، ظهرت من امتزاج الأعراق المختلفة على مدى العصور.

وما يدعيه القوميون الأتراك، ليس سوى اصطناع قرابة العثمانيين بالتتار والمغول وهذا أيضا ما عبر عنه بمرارة أحد ثوار تركيا الفتاة "أبو الضياء توفيق" من ادعاء وحدة العرق بين العثمانيين والتتار، واعتبر أن تركية الأتراك

1 - Yussuf Hikmet Bayur : op. cit, p 324.

2 - Garnegy A: **My Log Persian Gulf and Turikish Arbian 1878**, p 60.

العثمانيين، ليست سوى رمز، ولهذا اختلطوا منذ فترة طويلة بأعراق كثيرة تحت مظلة الإسلام، حتى أن خانات بخاري كانوا من الأتراك، أما التتار والمغول فلم يكونوا كذلك، لأن أجداد هؤلاء في الأصل كانوا من العرب الذين استولوا على تركستان⁽¹⁾.

وعشية اندلاع الحرب العالمية الأولى عول قادة الاتحاد والترقي، على إتباع استراتيجية تستند إلى نداءات جامعة الإسلامية التي نجحت بعض الشيء في إزعاج الانجليزيين والايطاليين والفرنسيين في مستعمراتهم الإسلامية⁽²⁾، وفي الوقت نفسه تبرير التغييرات القانونية المناصرة للتوجه القومي التركي، باعتبارها لا تتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية⁽³⁾، من خلال تطوير سياستهم الإسلامية وتطويعها، بحيث تستوعب الجامعة التركية كجزء من التيار الإسلامي، وكالة المجلة الإسلامية التي تصدر في تلك الأثناء تؤيد جهود الاتحاديين في سبيل مواءمة الإسلام لتطور الزمن⁽⁴⁾.

6- أثر اشتراك تركيا في الحرب العالمية الاولى:

إن اشتراك تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، دفعت دول الحلفاء التي ما لبثت أن أرسلت بقواتها لاحتلال الدردنيل والبوسفور لتخفيف الضغط عن روسيا وإخراج الأتراك من الحرب، إلى تبني سياسة تقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينها من خلال عقدها الاتفاقيات السرية البينية لتوزيع تركة الرجل المريض على أن هذه الاتفاقيات⁽⁵⁾، وإن وفرت مؤشرا لطموحات الأطراف الأوروبية، إلا أنه لم ترسم خريطة ما بعد الحرب التي املتتها تطورات الأحداث، وفي الوقت الذي كانت تواجه فيه الدولة العثمانية الغزو البريطاني للعراق والشام، والثورة العربية المندفعة من الحجاز والتي كان من الممكن أن تزعزع مركز القوات العثمانية فيما لو امتدت إلى الشام،

1 - Nyazi Berkes: **Turquie de cagdaslasama, Istanbul Pay Lasilmasi ic, in analasmalar – paylas malar**, 2 Baski, Ankara, p 426.

2 - Yussuf Hikmet Bayur : op. cit. p 399.

3- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 189.

4 - Yussuf Hikmet Bayur: op. cit. p 398.

5- أ- تصريح لندن الصادر في سبتمبر 1914م، وتعهدت فيه كل من بريطانيا وروسيا بعدم توقيع أي منها صلح مع أعدائها.

ب- اتفاقية الأستانة في مارس 1915م الموقعة بين الدول الثلاث واتفاقية سايكس بيكو 1916م لتقسيم أملاك الدولة العثمانية مع وعود للعرب بإقامة مملكة عربية في المشرق، واليهود بوطن قومي في فلسطين.

ج- اتفاقية سان جان دي مورين في أبريل 1917م بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لنفس الغرض، كما نجحت في ضم اليونان إليها رغم فرار القادة الثلاثة قبل ساعات من احتلال الحلفاء للأستانة، ولجأوا لألمانيا، إلا أنه لم يتحولوا عن قناعتهم بالقومية التركية، فقد حاولوا إعادة تنظيم التيار التركي الإسلامي، فقد سعى أنور إلى التعاون مع البلاشفة ولما خاب رجاءه بعد طول انتظار غادر موسكو إلى بخاري وانخرط في صفوف الثوار التركستان الذين كانوا يقاومون تسلط الحكومة الجديدة إلى أن سقط قتيلًا في أوت 1921. أنظر أيضا:

Huart Geoffery Lewis, op. cit. p 51.

نشبت الثورة في روسيا في مارس 1917م، واستولى البلاشفة على الحكم في أكتوبر من نفس العام وانسحبوا من الحرب وأعلنوا تخليهم عن نصيبهم من تركة الرجل المريض.

وقد أدى دخول الولايات المتحدة الحرب إلى ترجيح كفة الحلفاء بالرغم خروج روسيا منها، مما دفع السلطات التركية بطلبها إلى الأميرال " كالثورب " قائد الأسطول البريطاني المحاصر للدردنيل لاتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد هدنة مع الحلفاء ولا التي وقعت " بمندروز " في 31 أكتوبر 1918م، وكان طلعت الذي تولى رئاسة مجلس الوزراء قد استقال هو وزملاؤه، ولم يوجد من يضطلع بمهام الدولة إلى أن قبل احمد عزت باشا، منصب الصدر الأعظم، وشكل وزارة جديدة ضمت عددا كبيرا من أعضاء الاتحاد والترقي، وذلك بالرغم فرار (طلعت، وأنور، وجمال)، وكان الأخير قد مارس القمع والتنكيل برموز النهضة العربية، مما ساهم في ثورة العرب ضد حكام تركيا الاتحاديين وتعاونهم مع الانجليز في هذا الصدد، الأمر الذي ساعد في هزيمة تركيا التي خرجت من هذه الحرب، وقد فقدت كل أراضيها باستثناء الأناضول، وتقاسمت كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا للولايات العثمانية في أوروبا والشرق العربي، وعلى هذا النحو صفت الإمبراطورية العثمانية، مما أستلزم تصفية كل الادبولوجيات الإسلامية والعثمانية والتركية اصطنعها الاتحاديين لينقذها من المصير المحتوم⁽¹⁾.

وفي هذه الأثناء مات السلطان محمد الخامس وتولى أخوه محمد السادس وحيد الدين العرش، ويبدو أن السلطان الجديد حاول تكرار تجربة السلطان عبد الحميد في موقفه ضد الاتحاد والترقي، حين أنتهز فرصة هزيمة الاتحاديين في الحرب أمام الحلفاء، وهروب قياداتهم للخارج، ليمسك بالزمام في يديه، رغم سيطرة العناصر المتبقية من الاتحاد والترقي على البرلمان، وعلى ذلك قام بجل البرلمان في ديسمبر 1918م، حكم من خلاله الدامادا فريد⁽²⁾.

وكانت سياسته أن يبقى على العرش بأي ثمن، ولتحقيق هذا الهدف كان عليه أن يرضخ لمطالب الحلفاء لا يهمه مقدار الأراضي التي سينزعونها من دولته، طالما أنه سيبقى سلطانا على ما تبقى من أراضي، وفي 14 نوفمبر 1918م بدأت قوات دول الحلفاء تنزل من سفن الأسطول لاحتلال العاصمة رغم تصريحات الأميرال كالثورب السابقة بأنه ليس لديه نية لاحتلال الأستانة، التي وقعت تحت الاحتلال المشترك للحلفاء في 8 فيفري 1919م، بقيادة هذا الأميرال باعتباره مندوبا ساميا تعاونه لجنة ثلاثية تضم مندوبا عن كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، كما عين مندوبون للإشراف على أعمال الوزارات العثمانية⁽³⁾.

1- عزة عبد الرحمن الصاوي: المرجع السابق، ص 10.

2 - Charles Swallow : op. cit. P 5.

3 - Emin Ahmed: **Turkey in The World War**, U.S.A, 1930, p 83.

وزاد شعور الأتراك بالمرارة جراء احتلال الحلفاء لبلادهم، موقف الأقليات اليونانية والأرمنية التي رحبت بهذا الاحتلال، مما اعتبرها الأتراك جحودا وخيانة، فقامت بما قام به العرب إبان الحرب خاصة الثورة العربية التي أطلقها الشريف حسين بن علي، مما حرك لديهم الاعتزاز بالقومية التركية -الأناضول- التي تتميز عن التركية الشاملة التي تشمل التتار والأتراك والروس⁽¹⁾.

1 - Guinet Vital: **La Turquie d'Asie**, Geographic Administrative, Statistique, Descriptive et Raisonnée de chaque Province de l'Asie Mineure 4 Tomes, p 51.

الفصل الثالث: تبلور الجمعيات الوطنية التركية وأثرها في انهيار الخلافة العثمانية:

وظهرت الجمعيات الوطنية في كل أنحاء الأناضول، وإحدى الجمعيات الأولى كانت (اللجنة العثمانية للدفاع عن ترأس)، وكان هدفها المعلن محليا وإقليميا هو الحفاظ على ترأس في الأيدي التركية، غير أن هدفها الحقيقي كان أكبر من ذلك بكثير وظهر من خلال رفض اللجنة لعرض استقلال الإقليم قدمه رئيس الوزراء اليوناني " فينزيلوس " .

وفي قارس كان هناك مؤتمر قومي يحكم الإقليم الواسع لمدة سنة ونصف، وبعد ذلك نقلت الحكومة القومية في جنوب غرب القوقاز إلى حلها البريطانيون في أبريل عام 1919م وفي وائل فيفري 1919م قدم رئيس الوزراء اليوناني " فينزيلوس " إلى مؤتمر الصلح بباريس مطالبا رسميا بحق اليونانيين في امتلاك " سميرنا " وحصل على تأييد رئيس وزراء إنجلترا وفرنسا " لويد جورج كلمنصو "، وفي منتصف ماي من العام نفسه نزلت فرقة عسكرية يونانية في دعمها بحرية الحلفاء ورحبت الأقلية اليونانية بجيوش الاحتلال وباركهم مطران المدينة، ثم بدؤوا بمذبحة نظامية للأتراك في المدينة والإقليم، ولم تفعل أوروبا شيئا ضد المذبحة، لأن الإقليم كان ثمن دخول اليونان الحرب إلى جانب الحلفاء.

والتأمت في استانبول اجتماعات جماهيرية احتجاجية ضد الاحتلال اليوناني⁽¹⁾، خاصة وأن الأخير بعد أن ثبت أقدامه، شرع في التوغل داخل الأراضي التركية هكذا وفق بنود معاهدة سيفر التي وقعها الحلفاء مع الدولة العثمانية حصلت اليونان على مدينة أزمير، والمناطق المحيطة بها لمدة خمسة سنوات يحق للسكان بعدها أن يطالبوا بالانضمام إلى اليونان، ووضع البوعازين - البوسفور والدردنيل - تحت إدارة دولية مع نزع سلاح الأراضي المجاورة لهما، على أن تبقى استانبول تحت السيطرة الاسمية للدولة العثمانية التي أقرت استيلاء اليونان على جزر بحر إيجه، وإيطاليا على جزر الدوديكانيز بما في ذلك جزيرة رودس⁽²⁾، وهكذا انتهى وجود الدولة العثمانية، باعتبارها دولة أوروبية إذ لم يبقى لها في هذه القارة سوى مساحة صغيرة من الأرض فقد اعترفت الدولة بجمهورية إيريفان الأرمنية وبمملكة الحجاز باعتبارها دولتين مستقلتين، كما اعترفت باستقلال الذاتي للأكراد وبالانتداب الأوروبي على كل من العراق وسوريا وفلسطين، كما تنازلت عن كل أملاكها الاسمية في إفريقيا وبحر إيجه، فقد تنازلت لبريطانيا عن قبرص ومصر، وإيطاليا عما تبقى لها من جزر.

1 - Huart Geoffery Lewis, op. cit. P 54.

2- Contenson Ludovic: Les Reformes de Turquie d'Asie la Question Arménienne et la Question Syrienne , Paris, 1913, p 91.

أما شروط المعاهدة الأخرى فقد قلصت سيادة ما تبقى من الدولة العثمانية، فقد تقرر إلا يزيد عدد الجيش العثماني عن خمسين ألف جندي يخضعون لإشراف الضباط الأجانب، وحدد سلاح الجيش والأسطول، وأعيدت الامتيازات الأجنبية، وتقرر تشكيل لجنة جديدة يمثل فيها الحلفاء مهمة الإشراف على الدين العام العثماني، وعلى ميزانية الدولة وعلى الضرائب والرسوم الجمركية والعملة والقروض العامة، وأخيرا طلب من العثمانيين أن يقدموا تنازلات كبيرة لمن تبقى في داخل الدولة من غير المسلمين⁽¹⁾.

1- مصطفى كمال وحركة المقاومة الوطنية:

أ- حركة مصطفى كمال:

ولتنفيذ الجزء الأخير من المخطط الصهيوني الاستعماري الرامي للقضاء على الدولة العثمانية جلب اليهود وحلفائهم الإنجليز أحد تلاميذ محفل سلانيك أيضا وهو الدوثة "مصطفى كمال"⁽²⁾ وأضفوا عليه ثوب البطولة والصلاح فانخدعت الشعوب الإسلامية بالبطل المصطنع وعلقت عليه أكبر الآمال في استرداد الأجداد الضائعة فإذا به قد جاء ليجهز على الدولة العثمانية، ويدير ظهر تركيا للإسلام ويجعلها تابعا ذليلا لأوروبا بعد أن كانت دار الخلافة الإسلامية ومركز القوة السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي⁽³⁾.

ولد مصطفى كمال⁽⁴⁾ في سلانيك عام 1880م من أبوين ينحدران من أصول ألبانية، فأمه تدعى زبيدة ابنة فلاح أما أبوه فيدعي علي رضا⁽⁵⁾، وهو من أسرة كانت تعيش في جبال ألبانيا قدم إلى سلانيك وأصبح

1 - Latour M Antoin : **Voyage de S.A.R. Monseigneur le Duc de Montpensier à Tunis en Egypt. en Turquie et en Grèce**, Paris, 1847, p 295.

2- ه. س. أرمسترونج: **الذئب الأغبر مصطفى كمال**، دار الهلال، القاهرة، 1952، ص 30.

3- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط2، دار النفائس، بيروت، 1983، ص 751 - 752. محمد قطب: **واقعا المعاصر**، ط2، مؤسسة المدينة للطباعة والنشر، جدة، 1988، ص 382 - 283.

4- مصطفى صبري: **النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة**، تقديم وتعريب مصطفى حلمي، ط1، دار الدعوة، الاسكندرية، 1985، ص 49، 156. - عبد الوهاب المسيري: **البداية الخفية دراسة في الحركات الهدامة والسرية**، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1998، ص 103.

- أحمد النعيمي: **يهود الدونمة**، ط1، مؤسسة الرسالة، دار البشير، بيروت، عمان، 1995، ص 87 - 89.

5- تشكك بعض المصادر في نسب مصطفى كمال لعلي رضا وتشير إلى أن علي رضا لم يكن إلا زوجا لأمه ولكنه تبناه، أما عن تسميته بمصطفى كمال فتذكر المصادر أن أحد أساتذته في المرحلة الثانوية كان اسمه مصطفى وكان معجبا به لتفوقه وأنه عهد إليه بالإشراف على فصل صغير وأطلق عليه لقب (كمال) حتى لا يحدث ليس بسبب تشابه اسمي المدرسين فصار يعرف منذ ذلك التاريخ بمصطفى كمال. أنظر: ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 11 - 16. وأنظر أيضا: ضابط تركي سابق: **الرجل الصنم كمال أتاتورك**، تعريب عبد الله عبد الرحمن، جزآن، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ص 36-37.

موظفا بسيطا في تلك المدينة، وقد توفي ومصطفى كمال لم يتجاوز السابعة من عمره فتولت والدته رعايته وألحقته بإحدى المدارس الابتدائية في سلانيك، وكان مصطفى كمال تلميذا مشاغبا متمردا شرسا مع أساتذته متعاليا على زملائه فكثرت شكاوى أساتذته منه ولشدة مراسه رأت والدته أن من الأجدي إلحاقه بسلك الجندية فألحقته بالمدرسة الحربية الابتدائية في سلانيك فنجح في دراسته لكنه لم يكن محبوبا من المختلطين به⁽¹⁾.

وعندما بلغ مصطفى كمال السابعة عشر تخرج من المدرسة العسكرية في سلانيك، وأرسل إلى المدرسة العسكرية العليا في موناستر حيث يوجد المحفل الماسوني الإنجليزي الذي اجتذبه فأصبح من أكثر أعضائه ولاء، كما كانت موناستر تعج بالأجانب الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم في إثارة الفتن وإشاعة روح السخط ضد السلطان عبد الحميد فروج تلك الأفكار⁽²⁾.

وبعد تخرجه من المدرسة العسكرية العليا في موناستر التحق بالأكاديمية الحربية في استانبول، حيث ازداد اهتمامه بالسياسة واتضح ميوله الثورية وتأثر بأفكار الأديب القومي نامق كمال ذي الآراء غير الملتزمة وقرأ الكثير عن الثورة الفرنسية كما أخذ يقضي أوقاتا طويلة في أماكن اللهو يقامر ويشرب الخمر ويمارس كل الموبقات والردائل حتى أثر ذلك على صحته⁽³⁾.

وبعد تخرجه من الأكاديمية الحربية في استانبول دخل كلية الأركان ثم تخرج منها برتبة رائد عام 1905م، فعين في لواء الفرسان المرباط في دمشق وهناك أنشأ مع بعض زملائه جمعية ثورية أطلقوا عليها اسم (جمعية الوطن) كانت تعارض السلطان عبد الحميد وتتهمه بالطغيان كما كانت تهاجم علماء الدين الذين يعارضون الإصلاح على الطريقة الغربية⁽⁴⁾.

وكان الدافع الحقيقي لإنشاء مصطفى كمال لهذه الجمعية كان نفسيا أكثر، فقد كان الرجل بطبعه ثائرا، وفي هذا الصدد يقول الكاتب أرمسترونج: "...فقد كان بفطرته ثائرا لا يحترم ديناً أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع ولا يقدر شيئا على الإطلاق"⁽⁵⁾.

1- هـ. س. أرمسترونج: المصدر السابق: ص 13 - 16.

2- علي حسن: تاريخ الدولة العثمانية، ط3، المكتب الاسلامي، بيروت، 1994، ص 308. - محمد ثابت الشاذلي: المسألة الشرقية، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989، ص 216 - 217.

3- ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 1، ص 58 - 62.

4- ارنست. أ. رامزور: المرجع السابق، ص 118.

5- هـ. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 25.

لقد تبين لمصطفى كمال بعد فترة من إنشاء "جمعية الوطن" أن دمشق ليست تربة صالحة لأفكاره الثورية وأن جهوده لن تؤتي ثمارها فيها لأن أهلها لم يتقبلوا أفكاره وعارضوها بشدة، وأدرك أنه لن يتمكن من تحقيق أهدافه إلا في موطنه سلاطية مركز القلاقل والفتن، لذا فقد سعى جاهدا حتى تمكن من الحصول على أمر نقله إلى سلاطية في 1907م حيث عين في دائرة الأركان في الجيش الثالث⁽¹⁾.

وبعد أن استقر مصطفى كمال في سلاطية بدأ يخطط لإنشاء جمعية ثورية على غرار تلك الجمعية التي أنشأها في دمشق لاحظ بأن هناك منظمة ثورية سرية كبيرة جدا قد انتشر نشاطها بين معظم أفراد وضباط الجيش الثالث في سلاطية، وكان قد أطلق على هذه المنظمة اسم "جمعية الاتحاد والترقي".

كان ضباط الجيش الثالث تربطهم بمصطفى كمال علاقة جيدة، ويعلمون بأن له ميولا ثورية، لذا فقد وجهوا إليه دعوة للانضمام لتلك الجمعية فلم يتوان عن تلبية الدعوة، ولكن بحكم كونه حديث عهد بها لم يعهد إليه بشيء سوى تنفيذ أوامر كبار الأعضاء⁽²⁾، يقول أرمسترونج تلك السمات الشخصية لمصطفى كمال حيث يقول: "...لا زمه شوق دائم إلى أن يكون ملحوظ المكانة مرموق الشخصية من الجميع وأن ينظر إليه الناس على أنه ممتاز متفوق على أقرانه"، ويقول في موضع آخر: "...كانت طبيعته تميل إلى أن يكون هو الأمر الناهي"⁽³⁾، ويؤكد أيضا محمد عزة دروزة عن مصطفى كمال: "...كان في كثير من مواقفه وخطواته متحديا ومتحرضا.. وما كان يقفه من مواقف الإماء والفرس والاعتداد بالنفس"⁽⁴⁾.

لقد لمسوا زعماء جمعية الاتحاد والترقي النزعة التي كانت عند مصطفى كمال، لذا فقد حرصوا على تركه خارج نطاق الدائرة الضيقة التي تدير أعمال الجمعية، فلم يكن له دور يذكر في الجمعية غير أنه كان واحدا من الضباط الذين شاركوا في جيش الحركة⁽⁵⁾، وهو الجيش الذي جرده الاتحاديون عام 1909م للتصدي للثورة المضادة - التي قامت في استانبول في أعقاب الانقلاب الدستوري عام 1908م - فاحتل استانبول وخلع السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁶⁾.

1- أرنست. أ. رامزور: المرجع السابق، ص 118 - 120. - علي حسون: المرجع السابق، ص 308.

2- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 52. - موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض، ط1، دار البيارق، بيروت، 1984، ص 266.

3- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 15، 30.

4- محمد عزة دروزة: تركيا الحديثة، مطبعة الكشف، بيروت، 1946، ص 60، 63.

5- أرنست. أ. رامزور: المرجع السابق، ص 121. - محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1976، ص 419.

6- يوسف أصاف: المصدر السابق، ص 138. - مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 87.

غير أن مشاركة مصطفى كمال في جيش الحركة الانقلابية لم تعد عليه بفائدة حيث عاد بعد ذلك إلى سلانيك لمزاولة عمله العسكري، فإمتلأت نفسه غيظا وحقدا على زعماء الجمعية الذين سيطروا على مقاليد الحكم في البلاد وذاعت شهرتهم، وقد دفعه هذا الشعور إلى التهجيم على الجمعية بين الجنود، وتنظيم اجتماعات سرية مع بعض الضباط الحاقدين على زعماء الثورة، وعندما علم زعماء الجمعية بتصرفاته تلك وجهوا له اتهاما بتحريض الجنود على الثورة وجعلوه تحت المراقبة⁽¹⁾.

إذ ما أن استتب الأمر لذلك الدوغة الماسوني حتى شرع في تنفيذ الخطة التي رسمت له لمحاربة الإسلام وهدم الخلافة الإسلامية ففي عام 1922م ألغى السلطنة وجرّد الخليفة من جميع صلاحياته وفي العام الذي يليه 1923م أعلن قيام الجمهورية التركية وقامت الجمعية الوطنية التركية بانتخابه رئيسا لها، وفي عام 1924م ألغى الخلافة الإسلامية التي طالما كانت درعا واقيا للإسلام والمسلمين وخنجرا في صدر أعدائهما⁽²⁾.

لذا فقد عبرت الدوائر اليهودية الماسونية عن اغتباطها بإبنها مصطفى كمال الذي حقق لها أكبر أحلامها حيث جاء في دائرة المعارف الماسونية: "إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة وأبطل المحاكم الشرعية، وألغى دين الدولة الإسلام وألغى وزارة الأوقاف أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة ؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقا ولاحقا؟"⁽³⁾.

ب- حركة المقاومة الوطنية:

ارتبط ظهور الحركة الوطنية التركية بهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وخضوعها لشروط دول الحلفاء المنتصرة التي تقاسمت أملاكها في الجزيرة العربية والشام وشمال إفريقيا وأوروبا، ولم يتبقى لها إلا إقليم الأناضول، الذي خضع بدوره للاحتلال من قبل الحلفاء واليونان، هذا إلى جانب خضوع السلطان وحكومته لقوات الاحتلال، وهو الذي انعكس سلبا على الوطنيين الأتراك، الذين حاولوا تنظيم صفوفهم لتحرير بلادهم خاصة بعد أن ضيق السلطان عليهم الخناق بحل الجمعية الاتحاد والترقي وحل البرلمان في ديسمبر 1918م⁽⁴⁾.

1- هـ. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 36 - 39.

2- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 163، 177. - إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1980، ص 193.

3- المرجع نفسه، ص 195. نقلا عن دائرة المعارف الماسونية، ص 192.

4 - Howard Hanny, N: **The Partition of Turkey**, Howard - Fertig, New York, 1966, p 72.

وفي هذه الفترة ظهر على مسرح الأحداث القائد التركي مصطفى كمال، الذي خاض غمار توحيد صفوف الوطنيين الأتراك تحت إمرته لإدارة حرب الاستقلال لتركيا الحديثة، ومن ثم إلغاء السلطنة وإعلان الجمهورية وفي الأخير إلغاء الخلافة العثمانية وللأبد بعد أن استمرت طيلة ستة قرون.

وفي الحقيقة لم يكن مصطفى كمال غريبا عن الحركة الوطنية، فهو ومنذ بداية القرن العشرين وهو يمارس نشاطا سياسيا ضد الحكم الحميدي⁽¹⁾، وقد كون في دمشق عام 1906م جمعية "وطن"، وفي العام التالي وبعد نقله للجيش الثالث في سالونيك مسقط رأسه أسس فرع مقدوني لجمعية متعاوننا مع بعض عناصر الاتحاد والترقي، ومن بينهم "طلعت بك"، غير أن الحركة الثورية التي قامت بالانقلاب الدستوري 1908م، ومن ثم خلع السلطان عبد الحميد في عام 1909م، كانت أقوى من إمكانياته كضابط شاب، وبقي في الظل لعدة سنوات بعد أن أعلن امتعاضه للاتحاديين المتأثرين بالألمان، وآراؤه الخاصة بابتعاد العسكريين عن السياسة، واتهم بالأداء العسكري، الذي ظهر تميزه في حرب طرابلس ضد الاحتلال الإيطالي وبخاصة عندما تولى قيادة القسم 19 الذي أوكلت إليه الدفاع عن الدردنيل وشبه جزيرة جاليبولي، وحقق انتصارا هناك بإفشاله إبرام القوات البريطانية وإجلائها عن الجزيرة وهذه الحملة التي أنقذت استانبول جعلت منه بطلا قوميا، ورقى إلى قائد لواء ومنح الباشوية وتم إرساله إلى قيادة جهة القوقاز⁽²⁾، وكان الحظ حليفه بقيام الثورة البلشفية وهدوء الجبهة هناك، ومن ثم أرسل إلى الجبهة السورية لإنقاذ الجيش التركي المترنح أمام قوات اللبي، وانقذه مصطفى كمال من الهزيمة المنكرة أو الاستسلام، وانسحب به من القتال إلى الجبال شمال حلب ومن ثم رفض تعيينه قائدا للجيش السادس في نصيبين، بعيدا عن الحدود السورية حسب اقتراح الجنرال اللبي، غير أنه رفض في ظل الحلم الذي يراوده بدخول الأناضول لتنظيم قوى المعارضة التركية للاحتلال، وتحويلها إلى قوة فاعلة⁽³⁾ وهو ما تحقق عام 1919م، عندما أرسلته السلطات العثمانية مفتشا عاما على الجيشين الثالث والخامس عشر لتحقيق عدة أهداف:

- استنادا إلى تأثيره الكبير على الجندية التركية فهو يستطيع ان يجمع الاضطرابات أولا في الشمال، ثم في باقي الأناضول والإشراف على نزع سلاح القوات التركية.

1- سيد محمد سيد: دراسات في التاريخ العثماني، ط 1، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1996، ص 296.

2- عايض بن خزام الروقي: حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني 1912-1913، ط 1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1996، ص 154.

ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 1، ص 74-75. محمود شاكور: التاريخ الاسلامي، العهد العثماني، ط 3، المكتب الاسلامي، بيروت، 1991، ص 229.

3 - Huart Geoffery Lewis : op. cit. pp 56-58.

- نقله خارج العاصمة نظرا لشعبيته الجارفة فيها، فقد كان قائدا عسكريا فذا، وكان يحارب النفوذ الألماني في الدولة والجيش ولم يرتبط بجمعية الاتحاد والترقي التي حملها كل من السلطان والحلفاء مسؤولية ما آلت إليه الدولة، ومن ثم فهو كان يحظى بقبول معقول لدى الحلفاء.

وفي هذه الأثناء وصلت قوات الاحتلال اليوناني إلى سامسون ومن ثم فقد عمّد مصطفى كمال إلى استخدام صلاحياته في تنظيم صفوف الأتراك في الأناضول، وحثهم على تنظيم المظاهرات احتجاجا على الاحتلال اليوناني لأزمير، وأرسل إلى الهيئات العسكرية والحزبية التركية منشورا في 22 جوان 1919م، جاء فيه: "إن وحدة أراضي الوطن واستقلالها الوطني في خطر، والحكومة المركزية غير قادرة على القيام بمسؤولياتها، ولا بد من إقامة جماعة وطنية بعيدة عن التدخل الخارجي، توصل إلى إسماع العالم مطالب الأمة بحقوقها، لقد تقرر عقد مؤتمر قومي في "سيواس" في المستقبل القريب، وعلى كل الأقاليم إرسال مندوبين إلى هناك، والذين عليهم عند الضرورة أن يسافروا بأسماء مستعارة".

لقد ضغط الانجليز على الحكومة العثمانية لفصل مصطفى كمال، وهو ما قامت به وزارة الداخلية في 23 جوان من خلال المرسوم الذي عمّمته على الدوائر الحكومية بعدم التعامل معه بصفة رسمية، وقد حاولت وزارة الحرية إعادته إلى العاصمة ولكن بدون جدوى، لأنه أعلن استقالته من منصبه في جوان من العام نفسه، ومنذ ذلك الوقت وإلى أن كلف بمهمة جديدة من الجمعية الوطنية كان مدنيا⁽¹⁾.

وبعد أن أحس مصطفى كمال بأنه تحت مراقبة الانجليز غادر سمسون وتوجه إلى الداخل ثم إلى المناطق الشرقية مشيرا الحمية في القادة والحكام والمختارين وقوات المقاومة المحلية، مستغلا الأنباء التي وردت عن تغلغل اليونانيين داخل الأراضي التركية، فقد أقرت الدول الكبرى، انتداب اليونان على أزمير والمناطق المجاورة لها، ورغم احتجاج حكومة استانبول، فقد بدأ الزحف اليوناني إلى داخل الأناضول ترافقه المذابح واغتصاب النساء في كل مكان على أيدي الجالية اليونانية، التي كانت تقطن هذه المناطق، وفي أواخر جويلية 1919م، تغلبت القوات اليونانية على الدفاعات التركية المحلية وسيطروا على وادي مندريس، وحينئذ توقف الهجوم اليوناني لالتقاط أنفاسه، تحت إصرار الحلفاء إلا أن الوطنية التركية التي كانت قد لاحت بوادرها منذ الهزيمة قد ازدادت قوة نتيجة لأعمال التشفي التي صدرت عن الأقلية اليونانية وغيرها من الأقليات⁽²⁾.

وسرعان ما بدأت مجموعات المقاتلين الأتراك النضال وجرى الأعداد لحركة المقاومة الوطنية، فقد وجدت في الأستاذة جمعية "القره قول" السرية التي ضمت عددا كبيرا من الموظفين الذين استغلوا مناصبهم عقب توقيع

1 -Huart Geoffery Lewis : op. cit. p 59.

2- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 304.

الهدنة في عرقلة تنفيذ مطالب الحلفاء وإرسال الأسلحة والذخيرة إلى الأناضول، وحين امتدت الحركة إلى الريف بذل كثير من الموظفين أقصى ما في وسعهم لحجبها عن أنظار سلطات الاحتلال إلى أن جاء الوقت الذي أصبح من الصعب فيه أن تتم السيطرة عليها، على أنه ما كان باستطاعة هؤلاء أن ينجزوا الكثير لولا انضمام جموع الجيش التركي إلى الحركة، فقد ضمت المقاومة مجموعات الفدائيين المتحولين والمليشيات النظامية التي انضم إليها المتطوعون، كما انخرط في سلوكها جنود وموظفون مدنيون وملاك أراضي ورجال أعمال وحرفيون ورجال الدين وفلاحون بالإضافة إلى البدو والمجرمين⁽¹⁾، وأعضاء لجنة الاتحاد والترقي وغيرها من الأحزاب القديمة كما ساند الحركة الحزب الشيوعي التركي، الذي كان يرغب في استغلال الفوضى الناشئة للاستيلاء على الحكم وقد أسهم الشيوعيون في توفير الدعاية اللازمة لحركة المقاومة التي تصدت للاحتلال الأجنبي وتاقت إلى تحرير البلاد⁽²⁾.

وهو ما تجلّى في مؤتمر "أرزمروم" الذي عقد ما بين يومي 23 جويلية 1919م، و6 أوت 1919م، وقد حضره مندوبون من جميع المناطق الشرقية وصدر عن هذا المؤتمر جملة قرارات أصبحت أساسا لقرارات مؤتمر "سواس" في أوائل سبتمبر التالي الذي توافد عليه المندوبون من كل أنحاء البلاد بما فيها تركيا.

وتمثلت هذه القرارات في تأكيد مبدأ حق تقرير المصير، ورفض الانتداب الأمريكي، والاستقلال المطلق لتركيا المتحررة من عبء الأقاليم العربية، فقد كان مشروع الانتداب الأمريكي الذي يسعى إليه الرئيس ويلسون، لإدارة المناطق العثمانية بما فيها سوريا والعراق، قبل تنصيب الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكا على سوريا عام 1920م ومن ثم العراق عام 1921م، ثم أرسل رسالة إلى العاصمة باسم المؤتمر تطالب باستقالة الدماذا فريد وانعقاد مجلس النواب فوراً، وبالطبع لم يستجاب إلى هذا الطلب⁽³⁾، فأرسل مصطفى كمال إنذار إلى رئيس الوزراء هدد فيه بقطع الاتصالات مع الحكومة المركزية، وحمله فيها مسؤولية عزل السلطان عن رعاياه الوطنيين وما لبث رئيس الوزراء أن استقال، لأسباب صحية، وعين مكانه "علي رضا" الذي بدأ وزارته بالإعداد لانتخابات

1- تمكن أحد الخارجين عن القانون ويدعى "يورك علي عفي" من تنظيم حرب عصابات ضد اليوناني لأزمير، وكان يورك علي الذي ولد في سنة 1896م بإحدى قرى جنوب غرب الأناضول، قد التحق بالجيش في الحرب العالمية الأولى، ولكنه سرعان ما تركه بعد أن جلدته أحد الضباط، وعاش في التلال البعيدة معتمدا على اللصوصية، وفي 1920 استطاع أن يكون ميليشيا من زملاءه وعبروا نهر مندريس على أطراف خشبية ليمحو كتيبة يونانية ويستولوا على أسلحتها، وهذا العمل دفع السلطات التركية التغاضي عن جرائمه السابقة فإنه ألهم مشاعر الجماهير بالثورة على نطاق واسع ضد قوات الاحتلال في إقليم أيدين، ومع إمتداد سلطة القوميين أطلق اسم جماعة يورك علي، بعد أن تضخمت بصورة كبيرة "كتيبة إيدن القومية" ومنحوه رتبة عقيدة، وقد خلدت خدماته بعد حرب الاستقلال بإطلاق اسمه على الكتيبة

37 يورك علي عفي للقسم 57 من جيش الجمهورية. أنظر: Huart Geoffery Lewis : op. cit. P 62.

2 - Stanford. J. Show : op. cit. P 333.

3 -Huart Geoffery Lewis, op. cit. p 60.

جديدة، وأرسل وزير حريته "صالح باشا" للتفاوض مع مصطفى كمال وبعد ثلاثة أيام من المناقشة اتفقا على خمس مبادئ هي⁽¹⁾:

- الحفاظ على وحدة الأراضي التركية.

- اجتماع مجلس النواب الجديد في استانبول.

- عدم إعطاء امتيازات خاصة للأقليات.

- اعتراف الحكومة بالمنظمة القومية.

- موافقة المؤتمر القومي على سفر المندوبين الأتراك إلى مؤتمر الصلح⁽²⁾.

غير أن وزارة علي رضا باشا استقالت في 13 مارس 1920م، لأنه لم يستطع التوفيق بين الحركة الوطنية وحكومة الأستانة ومطالب دول الحلفاء وتدخلها في الإدارة العثمانية، ولم تستطع الالتزام بهذه الاتفاقية مع مصطفى كمال، الذي نقل مركز قيادته إلى أنقرة وأعلن أن اللجنة التمثيلية القائمة في أنقرة هي الحكومة الشرعية الوحيدة في تركيا وإصدار أوامره لكل الموظفين مدنيين وعسكريين بأن يطيعوا أوامر حكومة أنقرة لا حكومة استانبول الخاضعة تماما لسيطرة الحلفاء، ووضعت الخطوات اللازمة لإقامة حكومة وبرلمان جديدين في أنقرة، وطلب من السلطان أن يعترف بهما، وتوافد عدد ضخم من استانبول إلى أنقرة وفي 19 مارس 1920م أعلن كمال أن الأمة التركية قد شكلت برلمانها الخاص في أنقرة تحت اسم "المجلس الوطني الكبير" الذي اجتمع للمرة الأولى في 23 أبريل 1920م، وانتخب مصطفى كمال رئيسا له و"عصمت أينونو" رئيسا لأركان⁽³⁾، واستصدر فتوى من مفتي أنقرة وأيدها 152 مفتيا آخرون في الأناضول، ردا على الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام في 11 أبريل 1920م، تبيح دم المواطنين ورغم ذلك فإن المؤسسات القديمة - كخليفة وشيخ الإسلام - كانت لا تزال لها فاعليتها مما أدى إلى نشوب كثير من أعمال التمرد ضد الوطنيين، وبينما كان مصطفى كمال يجمع الأعوان والأنصار في الأناضول، كانت الأحوال في الأستانة تزداد سوءا ووطأة الحلفاء تزداد شدة⁽⁴⁾.

1 - Heller Jaseph: **British Policy Towards the Ottoman empire 1908-1914**, First Published Fankcoss, London, 1983, p 85.

2- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 305.

3 - Mans Fields Peter: **the Ottoman Empire and its Successors**, First Published, London, 1973, p 24.

4- عبد الرحمن الراعي: **الجمعيات الوطنية، صحيفة من تاريخ الناهضات القومية**، ط1، مطبعة النهضة، القاهرة، 1922م ص 291.

بعد إستقالة رئيس الوزراء علي رضا باشا خلفه صالح باشا، الذي أظهر الاستعداد للتفاهم مع الحركة الوطنية وهو ما سبق فعله عندما كان وزيرا للحرية، إلا أنه لم ينجح في اجتياز الأزمة وسرعان ما قدم استقالته، ليتولاها من جديد الدماذا فريد المشهور بخصومته للحركة الوطنية وزعمائها، متوافقا مع الاحتلال الجديد للأستانة من قبل الحلفاء في 16 مارس، وبدأ جولة جديدة من الصراع مع الوطنيين، مما دفعهم إلى التمرد الفعل ضد حكومة استانبول وجعل المجلس الوطني الكبير حكومة فعلية، رغم أنه م عند هذه المرحلة قد أعلنوا ولاءهم للسلطان وحيد الدين باعتباره سلطانا لما تبقى من الدولة العثمانية وخليفة للمسلمين وأجلوا مصير السلطنة إلى ما بعد الاستقلال، وفي تلك الإثناء وقعت معاهدة سيفر 10 أوت 1920م بعد أن هدد الحلفاء الدولة العثمانية بطردها من أوروبا كلية في حالة عدم التوقيع عليها، ولكن المعاهدة لم تنفذ لأن دولة جديدة كانت قد قامت في الأناضول تحت قيادة رجال رفضوها واتهموا الموقعين عليها بالخيانة، وكان توقيع معاهدة سيفر من العوامل الرئيسية التي أدت إلى الالتفاف جماهير الأناضول حول حركة النضال القومي التي تزعمها مصطفى كمال⁽¹⁾.

لقد وجدت حكومة أنقرة قبولا عاما في جميع أنحاء البلاد خاصة بعد توقيع حكومة الدماذا فريد على معاهدة سيفر المهينة لتركيا التي تهدد وحدة أراضيها، وهو ما رفضته الحكومة الوطنية على الفور، واعتبر عامة الأتراك يوم توقيعها يوم حداد وطني، مما عزز موقف الحركة الكمالية لدى الأتراك، الدماذا فريد للاستقالة من جديد، وتشكيل حكومة برئاسة توفيق باشا في أكتوبر عام 1920م وعضوية عزت باشا وصالح باشا رئيسا الوزراء السابقين كوزراء، فكان وجودهما دليلا على ان هذه الوزارة تسعى بإخلاص للتفاهم مع الحكومة الوطنية، ولاسيما بان عزت باشا معروف بميوله ومؤازرته للحركة الوطنية، وجعلت الوزارة ضمن برنامجها " العمل على إزالة الانقسام الذي حدث في الوحدة الوطنية "، ومعنى هذا صراحة التفاهم مع الحركة الأناضولية ورغم ترحيب الأخيرة للتفاهم والتقارب مع حكومة الأستانة، إلا أنه كانت مشغولة بتنظيم الجيش الوطني للدفاع عن كيان البلاد ضد الخطرين الأرمني واليوناني⁽²⁾.

كما أقر المجلس الوطني الكبير الدستور الجديد "قانون التشكيلات الأساسية" في يوم 20 جانفي 1921م الذي نول الاطلاع بالسلطة التشريعية والتنفيذية، ولم يتطرق إلى مصير السلطان⁽³⁾، وتقرر رفض كل

1 - Antes Jahn: **Observations on the Manners and Custom of the Egyptians**, London, 1800, p 19.

2- عبد الرحمن الرفاعي: المصدر السابق، ص 301-311.

3- المصدر نفسه: ص 304.

المعاهدات والالتزامات التي أبرمتها حكومة استانبول محتفظا لنفسه بعد أن سمى نفسه " حكومة المجلس الوطني التركي الكبير " بالحق الأوحد في عقد الاتفاقيات وإقرار القوانين باسم الشعب⁽¹⁾.

لقد أيدت حكومة أنقرة الثورة البلشفية في روسيا، على اعتبار أن دولة تركية فتية ستكون ضمانا لحماية جناح روسيا الجنوبي، وخلق توافق معها ضد استقلال الأرمن في البلدين، وعقدت معاهدة تحالف بين الثورتين - البلشفية والتركية - في مارس 1921م، وتدفقت الأسلحة الروسية على أنقرة التي حسمت الصراع لصالحها ضد الانفصال الأرمني ومقاومة الاحتلال اليوناني وتحرير البلاد وهو ما تحقق علي مدار عام 1921م، أو بالأحرى من يناير إلى أبريل - موقعة اينونو - وحتى سبتمبر منه عندما حقق الجيش التركي الذي قاده في معركة سقاريا 8 - 13 سبتمبر، مصطفى كمال نفسه الذي منحه المجلس الوطني الكبير رتبة مشير ولقب غازي الذي كان يفرد به سلاطين آل عثمان الأوائل⁽²⁾، وسرعان ما تعزز موقف مصطفى كمال الدولي بعد نصر سقاريا، ففي 20 أكتوبر 1921م جرى التوقيع في أنقرة على اتفاقية بين تركيا الجديدة وفرنسا، كانت بمثابة صلح منفرد مع فرنسا، بعد أن أقرت الميثاق الوطني التركي وتحلف عن معاهدة سيفر، كما جلا الايطاليون عن المناطق التي كانوا احتلوها في جنوب الأناضول وان احتفظوا بجزر الدوديكانيز وقد تخلوا عن كميات من الأسلحة للوطنيين الأتراك، مما عزز موقفهم وجعلهم يقرون استكمال تحرير الأناضول وأراضي تركيا خاصة وأنهم قد نجحوا في توقيع اتفاقيات سابقة مع الحكومة الأفغانية في موسكو 1 مارس، ومع أذربيجان وجورجيا في مدينة قارس في 13 أكتوبر من عام نفسه، وجميعها جاءت الاعتراف بالكيان القائم في أنقرة وصبت في مصلحة تركيا.

وهكذا تكونت الشخصية الدولية الاعتبارية لحكومة أنقرة، وهو ما تجلّى في موقف الحلفاء أنفسهم بعد ان ابدوا عترافا ضمينا بحكومة أنقرة⁽³⁾.

وفي يوم 12 أكتوبر 1921م عقدت هدنة " مودانيا " وبمقتضاها اعترفت حكومات الحلفاء بعودة السيادة التركية إلى استانبول والبوغازين وتراقيا الشرقية، وأجلت عودة الأتراك إلى استرداد هذه المناطق حتى توقيع معاهدة الصلح، فلما كانت معاهدة سيفر قد أصبحت غير ذات موضوع بعد انتصار الكماليين، فقد استلزم الأمر التوصل إلى معاهدة جديدة، ومن ثم فقد وجه الحلفاء الدعوة إلى حكومتي استانبول وأنقرة، لحضور الصلح في لوزان، ورأى المجلس الوطني الكبير أن ازدواج الحكم في البلاد يجب أن ينتهي، ولم يقبل مصطفى كمال السلطنة الدستورية، فقرر في أول نوفمبر 1922م إلغاء السلطنة والإبقاء على الخلافة في آل عثمان على أن ينتخب

1- يعتبر هذا القانون الذي تكون من 23 مادة بمثابة الخطوة الأولى لإلغاء السلطنة، لأن هذه الصلاحيات من اختصاص السلطان.

2- عبد الرحمن الراجعي: المصدر السابق، ص 308.

3 - Ed. And Trans: **Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, The Nizarn name Misir of Ahmed Pasha**, Cambridge, Mass, 1962, p26.

المجلس الوطني وحده " أصلحهم وأشدهم "، وفي 17 نوفمبر هرب السلطان وحيد الدين آخر السلاطين العثمانيين⁽¹⁾، وتم اصدر قانون يقوم بإلغاء جميع الاتفاقيات التي ارتبطت بالسلطان وحكومته بأثر رجعي يبدأ من 16 مارس 1920م، وليذهب وفد حكومة أنقرة مطلق اليدين وهو ما سمح له بالحصول على الاعتراف بمعظم مطالب الأتراك، وانسحب الاحتلال من استانبول في 6 أكتوبر 1923م⁽²⁾، ودخلت القوات التركية وبعد ذلك بأسبوع أصدر المجلس الوطني الكبير قانونا جديدا اعتبر فيه أنقرة عاصمة رسمية للدولة التركية، وفي 29 أكتوبر 1923م أقر المجلس الوطني دستورا جديدا نص على كون تركيا جمهورية تستمد شرعيتها من الشعب، وفي أول مارس ألغيت الخلافة العثمانية ونفى آل عثمان خارج تركيا⁽³⁾.

وأخيرا وجدت حركة المقاومة الوطنية التركية قائدها في مصطفى كمال أتاتورك، فهو الذي نسق جماعاتها وبلور أهدافها وجسم أمانيتها، ثم قادها إلى النصر في النهاية⁽⁴⁾.

2- مسألة إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية:

لقد اعتقد الرأي العام في تركيا أعقاب هدنة مودانيا وما ترتب عليها من نتائج بأن النصر العسكري قد تم وأن الأمور قد دخلت في طور المفاوضات السياسية التي هي مسئولية الإدارة المدنية المرتبطة بالسلطان في استانبول، ورأى أعضاء المجلس الوطني الكبير - الذي تشكل على يدي مصطفى كمال نفسه - أنه لم يعد هناك

1- بدأ الخليفة وحيد الدين يشعر بالقلق منذ إلغاء السلطنة في بداية نوفمبر 1922م، فاستدعى فور وصوله من مالطا في الشهر نفسه المفوض السامي البريطاني " سير هوراس رامبولد " إلى قصره، لكي يطلب إليه رسميا أن يحميه غير أن الأخير أجابه بأن بلاده لم تعد تعترف إلا بالحكومة الوطنية المقيمة في أنقرة، مضيفا أنه على أية حال يمكنه أن يؤمن حياته إن هو تعهد بالتنازل عن العرش، وكان وحيد الدين قد أسر قبل ذلك لرفعت باشا بأنه لا يزال يأمل في الوصول إلى تسوية مع أنقرة، وطلب موعدا للقاء مصطفى كمال، إلا أن الأخير أصر أن يكون طلب اللقاء خطيا وليس شفويا، وهنا شعر السلطان أن في الأمر محاولة الإهانة، وإن رضخ لهذه الإهانة سوف يتدفق سيل الإهانات، لذلك اتصل بالجنرال " تشارلز هنتون " قائد قوات الاحتلال البريطانية في تركيا، وأعلنه قراره مبارحة الأراضي التركية، حيث أنه لم يعد يشعر أنه في مأمن، وبالفعل وفر له الأخير فرصة الهروب على متن سفينة عسكرية إلى مالطة، واعتبرت بمثابة خطوة أولى على الطريق إلى المنفى الذي سوف يختاره السلطان وحيد بنفسه، فيما كان مجلس النواب التركي يخلع السلطان وحيد الدين عن العرش واختيار عبد المجيد أفندي خليفة له، الذي خلع بدوره بعد عام ونصف العام، وأيضا نفي، وكان مصطفى كمال قد حسم الجدل الدائر من قبل النواب الإسلاميين في البرلمان التركي، ودوائر المسلمين في الهند والقوقاز، يوم داك عن واجبات ومكانة الخليفة بعد عزل وحيد الدين، معتبرا إياها مسألة شكلية لاختيار الخليفة، وأن الأمر يخص تركيا وحدها وليس العالم الإسلامي، مؤكدا أن الخليفة لم يعد يحق له أي دور سياسي وأن وظيفة الخليفة رمزية لا أكثر أنه لن يعود أكثر من مرشد روحي للمسلمين الأتراك. أنظر: إبراهيم العريس: تعيين عبد المجيد خليفة، فيما هرب وحيد الدين دون أن يتنازل، جريدة الحياة اللندنية، العدد 13403 بتاريخ 1999/11/8م.

2- سمية وهبة المنياوي: المرجع السابق، ص 196.

3- Ganem Khalil: Les Sultans Ottomans, Paris, 1902, p 96.

4- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، المرجع السابق، ص 295-300.

داع للشائبة حكومة مؤقتة في أنقرة وأخرى رسمية في العاصمة واقترح بعضهم أن تدمج الحكومتان في حكومة واحدة يصبح فيها مصطفى كمال رئيسا للوزراء⁽¹⁾. وقد أبدت الحكومة الشرعية في استانبول استعدادها للتوفيق بين الحكومتين⁽²⁾.

لقد تعهد مصطفى كمال عند تعيينه قائدا عاما بأنه سيعود مواطنا عاديا في صفوف الشعب حالما يتحقق النصر، لكنه لم يكن ليقنع حتى برئاسة الوزراء⁽³⁾، فقد كان يطمح بأن يكون حاكما مطلقا على البلاد ولكنه كان ما يزال يخفي نواياه الحقيقية ويتحين الفرصة الملائمة لتحقيق أطماعه، لذا فقد حاول في هذا الوقت التهرب من مواجهة أعضاء المجلس الوطني الذين كانوا يتساءلون عن وضع الحكومة المؤقتة وعن إمكانية دمجها مع الحكومة الشرعية في استانبول⁽⁴⁾.

وفي 27 أكتوبر 1922م وجهت بريطانيا وحليفاتها الدعوة إلى كل من الحكومة الشرعية في استانبول والحكومة المؤقتة في أنقرة لحضور المؤتمر الذي سوف يعقد في العاصمة السويسرية لوزان لوضع معاهدة الصلح الجديدة التي ستحل محل معاهدة سيفر⁽⁵⁾.

وتحاول تركيا وبريطانيا أن تقوم بلعبة من الأعيب السياسية، فهي توعد إلى السلطان أن يرسل وفدا إلى مؤتمر لوزان، وبهذا يكون لتركيا وفدان يتصارعان معا، فما أن سمع الناس في تركيا أن بريطانيا طلبت من السلطان أن يرسل وفدا حتى ثاروا وفاروا غضبة وسخطا علي السلطان⁽⁶⁾.

وفي خضم هذه الثورة الشعبية العارمة قرر مصطفى كمال أن يضرب ضربته الأولى، فأوعز إلى عدد من أعضاء الجمعية الوطنية في أنقرة أن يطلبوا مناقشة موقف السلطان وحيد الدين.

وقد دعا مصطفى كمال المجلس الوطني للاجتماع، فاجتمع المجلس، وفي وسط الضجيج الذي سادته بشأن دعوة الحلفاء للحكومتين صعد مصطفى كمال على المنبر وطلب من الحضور الإصغاء إليه ثم اقترح فصل السلطنة

1- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 181.

2- محمد عزة دروزة: تركيا الحديثة، المصدر السابق، ص 55. - محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 227.

3- ضبط تركي سابق: المصدر السابق، ج 2، ص 206.

4- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 181.

5- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج 1، ص 278. - فتحي شهاب الدين: كيف سقطت الخلافة الإسلامية، ط 1، دار البشير

للثقافة والعلوم، طنطا، 1998، ص 53.

6- Kazim Karaabekir: Op Cit: P.798.

عن الخلافة وأن تلغى السلطنة ويخلع السلطان محمد وحيد الدين، فصعق النواب من هول المفاجأة بهذا الاقتراح وأعرب غالبيتهم عن رفضهم له⁽¹⁾.

وأمام إصرار مصطفى كمال على رأيه طالب النواب بإحالة الاقتراح على لجنة الشؤون القانونية للنظر فيه، فاجتمعت تلك اللجنة التي كانت مؤلفة من علماء في الشؤون الدينية وخبراء في القانون في 1 نوفمبر 1922م، وبعد مناقشة موضوع فصل السلطنة عن الخلافة انتهت إلى رفض هذا الاقتراح مدعمة رفضها بالعديد من نصوص القرآن الكريم والسنة المشرفة التي تثبت أن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها⁽²⁾. ومن خلال قول مصطفى كمال: "نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون"⁽³⁾ لم يكن ليقم وزنا لا لرأي اللجنة ولا لحكم الشريعة الإسلامية فقد عقد العزم على أن يضع العالم الإسلامي أمام الأمر الواقع واتخذ لهذا القرار عدته.

ويقول مصطفى كمال وهو محاط بأنصاره المسلحون وصاح بأعلى صوته: "...إنني أرى أن من المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا وأعضاء المجلس على اعتبار هذه قضية طبيعية ولكن إذا حدث العكس فإن هذا الأمر سينفذ أيضا وفي إطار المجرى الطبيعي، ولكن من المحتمل أن بعض الرؤوس ستقطع"⁽⁴⁾.

وفي هذا الجو إقترح مصطفى كمال التصويت فلم ترتفع سوى أيد قليلة، ومع ذلك فقد أعلن رئيس الجلسة - الذي لم تفارق عيناه أنصار مصطفى كمال الذين وضعوا أيديهم على مسدساتهم - النتيجة بأن المجلس أقر الاقتراح بالإجماع فساد الهياج وتعالّت الأصوات ورفعت الجلسة وغادر مصطفى كمال قاعة المجلس⁽⁵⁾.

وبعد مرور خمسة أيام على اتخاذ هذا القرار تم تنفيذه عمليا حين قام الكماليون بهجوم مفاجئ على العاصمة واستولوا على الدوائر الحكومية فيها وعزلوا حكومة السلطان بالقوة على مراءى ومسمع القائد العام

1- محمد عزة دروزة: تركيا الحديثة، المصدر السابق، ص 56.

2- علي حسن: المرجع السابق، ص 325. - محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 231.

3- ظل مصطفى كمال يتلبس لباس الدين ويخفي حقيقة مشاعره الدينية إلى أن استتبت له الأمور بعد الإعلان عن قيام الجمهورية التركية حيث بدأ ينتكر للقيم الإسلامية وبلغت به الوقاحة أن أصبح يتهجم على القرآن الكريم علانية في مجلس الشعب. أنظر: - محمد علي الزعبي: الماسونية في العراق، دار الجبل، بيروت، ص 221.

4- ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 2، ص 209 نقلا عن: - مصطفى كمال: الخطابة، المصدر السابق، ص 422.

5- حسن جيلان: الصراع بين الإسلام والعلمانية، تعريب كمال خوجة، الطبعة الأولى، دار القبلية للثقافة الإسلامية، جدة، 1992م، 1992م، ص 73. - إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998، ص

الإنجليزي⁽¹⁾، وفي 17 نوفمبر 1922م رحل السلطان محمد وحيد الدين على متن بارجة حربية إنجليزية إلى جزيرة مالطة⁽²⁾، وخلفه عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز (1922 - 1924م) خليفة للمسلمين لا سلطانا بانتخاب من المجلس الوطني الكبير⁽³⁾.

وفي أعقاب هذه الخطوة الانقلابية الخطيرة ذهب الوفد التركي إلى لوزان ممثلاً لحكومة أنقرة وحدها بعد أن خلى لها الميدان، وكان رئيس الوفد "عصمت باشا اينونو" الذي كان مصطفى كمال قد عينه وزيراً للخارجية، وكان برفقته "رضا نور"⁽⁴⁾ وزير الصحة، و"حاييم ناحوم"⁽⁵⁾ كبير الحاخاميين اليهود في الدولة العثمانية⁽⁶⁾.

وقد جرى عقد المؤتمر على فترتين بدأت الفترة الأولى في 20 نوفمبر 1922م واستمرت جلسات المؤتمر والمفاوضات بين عصمت باشا واللورد "كرزون" ممثل الحلفاء ورئيس الوفد الإنجليزي حتى 4 فيفري 1923م حيث انفض المؤتمر وعاد عصمت باشا والوفد المرافق له إلى أنقرة دون أن يتم التوقيع على معاهدة الصلح، وفي 23 أبريل 1923م بدأت الفترة الثانية من المؤتمر حيث استأنف عقد جلساته⁽⁷⁾، وتم التوقيع على معاهدة الصلح في 24 جويلية 1923م واعترف الحلفاء باستقلال تركيا⁽⁸⁾.

1- علي حسون: المرجع السابق، ص 325

2- محمود شاكور: المرجع السابق، ص 233 - يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سلمان، ط1، ج 2، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1990، ص 261

3- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 120

4- رضا نور: طبيب ومؤرخ وسياسي تركي شغل منصب نائب وزير الخارجية في عهد مصطفى كمال، كتب مذكراته وأودعها فرنسا مشروطاً عدم نشرها قبل عام 1960م وقد نشرت في تركيا عام 1968م فأحدثت ضجة كبيرة لما حوته من فضائح كمالية فقامت الحكومة التركية آنذاك بمصادرتها. - موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 268

5- حاييم ناحوم: ولد عام 1873 م في أسرة يهودية كانت تعيش في قرية بالقرب من ازمير وتعلم في مدرسة القرية ثم ذهب إلى استانبول حيث التحق بكلية الحقوق وبعد تخرجه سافر إلى باريس ودرس علوم الدين في جامعة السوربون وعندما عاد إلى تركيا عين أستاذاً لفقه التلمود في المدرسة الإسرائيلية العليا وكان يتقن اللغة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والعربية إضافة إلى التركية والعبرية، عمل أثناء الحرب العالمية الأولى في المخابرات في تركيا وفي جميع الدول العربية ثم عين كبير الحاخاميين اليهود في تركيا، وأصبح من المقربين لمصطفى كمال وعصمت اينونو. وبعد إلغاء الخلافة الإسلامية انتقل حاييم ناحوم إلى القاهرة حيث أصبح كبير الحاخاميين هناك. لأنظر: - موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 269 - الموسوعة العربية الميسرة: ج 2، ص 1814

6- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 265 - أحمد نوري النعيمي: المرجع السابق، ص 95 - 96. - عبدالله التل: المرجع السابق، ص 94

7- حسن صبري الخولي: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، ج 1، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، 1973، ص 430

8- هارولد تمبلي وأ.ج.جرانت: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، تعريب محمد أبو درة ولويس اسكندر، ج2، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1978، ص 268

وقد إلترم المؤرخون الغربيون⁽¹⁾ الصمت تجاه تفسير أسباب انقطاع المفاوضات وتفرق الوفود دون أن يتم التوقيع على معاهدة الصلح في الفترة الأولى للمؤتمر، كما إلترموا نفس الموقف تجاه تفسير سبب التغير المفاجئ في موقف المتفاوضين في الفترة الثانية من المؤتمر حيث تم الاتفاق والتوقيع على معاهدة الصلح والاعتراف باستقلال تركيا. نجد أن المصادر التاريخية الإسلامية تذكر بأن سبب انقطاع المفاوضات هو أن كرزون ممثل الحلفاء ورئيس الوفد الإنجليزي وضع أربعة شروط لإتمام معاهدة السلام والاعتراف باستقلال تركيا وهي:

- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

- أن تلغي الخلافة الإسلامية نهائيا.

- أن يستبدل بالدستور العثماني المستمد من الشريعة الإسلامية دستور مدني بحت.

- أن تضمن حكومة تركيا إخماد أي حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

كما تؤكد المصادر بأن الوفد التركي عندما عاد إلى تركيا وأخبر مصطفى كمال بأمر تلك الشروط التي أمثلتها بريطانيا وحليفاتها، قبل بتنفيذها فتم التوقيع على معاهدة الصلح واعترف الحلفاء باستقلال تركيا⁽²⁾.

عند عودة الوفد التركي أثناء توقف مؤتمر لوزان قام مصطفى كمال بجولة حول المدن التركية في محاولة لتهيئة الشعب لتقبل الخطوات التي اعتمزم القيام بها إنفاذا للشروط التي أمثلتها بريطانيا وحليفاتها، ويقول مصطفى كمال حول أهداف جولته في كتابه الخطابة قائلا: "...لمعرفة رأيهم في مؤتمر لوزان، وفي سلطة الأمة ومقام الخلافة وأوضاعها وعلاقاتها... ولكي أزيل تردد وقلق الأمة حول مسألة الخلافة فإنني قمت في كل مكان بإعطاء إيضاحات وبيانات كافية قد قلت بشكل قطعي بأنه لن يسمح لكائن من كان مهما كان عنوانه بأن يتدخل في مقدرات الدولة الجديدة التي أنشأها أمتنا أو في صلاتها أو في استقلالها... لقد أوضحت للأمة كيف أن دولة تركيا وشعبها القليل النفوس لا تستطيع أن تكون رهن إشارة خليفة يفترض فيه أنه مكلف بتأسيس دولة إسلامية شاملة"⁽³⁾.

1- إلترم بهذا الموقف كل من: - ه. س. أرمسترونج : المصدر السابق، ص 190. - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط 12، دار العلم للملايين، 1993، ص 694.

2- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 265-266 - ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 2، ص 287 - 289. - فتحي شهاب الدين: المرجع السابق، ص 54

3- ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 2، ص 284 - 286. أنظر أيضا: - مصطفى كمال: الخطابة، المصدر السابق، ص 429-433

وأيضاً أثناء توقف المؤتمر قام حاييم ناحوم عضو الوفد التركي، كان يتردد كثيراً على الدوائر الحكومية في تركيا، والسفر إلى بريطانيا، مما يدل على أنه كان يقوم بدور الوسيط بين الطرفين⁽¹⁾. وتأتي شهادة المؤرخ اليهودي إيلي ليفي أبو عسل حيث يقول: "...من غريب الاتفاق أن انتخاب ناحوم أفندي كان في وقت هبوب العاصفة العنيفة التي اضطرت لها أعصاب تركيا وهزت أركان النظم التي كانت سائدة فيها... فكانت نتيجة ما أظهره من الترفع عن التعصب ومن صدق العاطفة الوطنية أن سمّت مكانته وارتفعت منزلته في أعين مصطفى كمال والوزراء وغيرهم من ذوي الحل والعقد... وقد ناطت به معالجة القضية التركية ليتولى الدفاع عن مصالحها الحيوية... فأفرغ ما كان في جعبة قريحته من حذق ومهارة وروية وإقناع للوصول إلى تضيق هوة الخلاف والتشاد ووقاية تركيا وحفظها من الوقوع بين مخالب الحلفاء وكان من جراء ذلك أن أزال سوء التفاهم ومهد الطريق لتسهيل المفاوضات التي قامت عليها دعائم السلام"⁽²⁾.

لقد قام مصطفى كمال في الفترة التي أعقبت انقطاع المؤتمر إلى استخدام طريقة الإرهاب وتدابير عمليات اغتيال لبعض النواب المعارضين لسياسته، كما أصدر مرسوماً يقضي بإلغاء حصانة النواب من الاعتقال والمحاكمة⁽³⁾.

ويعترف "رضا نور" وهو الرجل الثاني في الوفد التركي إلى مؤتمر لوزان في كتابه (حياتي وذكرايتي) بحقيقة ما تم في مؤتمر لوزان حين يقول: "...لقد كنت أول من تلفظ بهذه الكلمة في جلسات مؤتمر لوزان إذ قلت: إن تركيا أصبحت علمانية وقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا ما تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية... كانت هذه أهم نقاط الارتكاز التي اعتمدنا عليها في لوزان... أن صفقة بيع وشراء الخلافة، والتنازل عن الموصل⁽⁴⁾ قد تم بين لندن وأنقرة وما حضور وفد تركي إلى لوزان إلا للتمويه والتوقيع"، وعن دور الحاخام "حاييم ناحوم" في إتمام هذه الصفقة يقول رضا نور: "...كان هناك تنسيق بين حاييم ناحوم واللورد كرزون رئيس الوفد البريطاني، وهما

1- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 269

2- عبد الله التل: المرجع السابق، ص 94، أنظر أيضاً: - إيلي ليفي أبو عسل: يقظة العالم اليهودي، ط 1، مطابع النظام، القاهرة، 1943م، ص 258 - 259.

3- محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 234

4- أبدى الإنجليز اهتماماً خاصاً بالموصل للسيطرة على منابع النفط الموجودة بها. - زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 114. - محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، المرجع السابق، ص 432

يؤكد أن إلغاء الخلافة يساعد على تحقيق الصلح. وفي حقيقة الأمر إن حاييم ناحوم ومنذ مدة ليست بالقصيرة مهتم كل الاهتمام بمصير الخلافة في الدولة العثمانية وكان حلقة وصل بين اينونو واللورد كرزون في هذا المجال⁽¹⁾.

لقد كان هناك اتفاق مسبق بين مصطفى كمال وبين الإنجليز على أن يقوم مصطفى كمال بدم الخلافة الإسلامية ومحاربة الإسلام مقابل أن يتنازل له الإنجليز عن تركيا الوطن الذي قلمت أظافره وقصت أجنحته، وأن الإنجليز قبل أن يمنحوا مصطفى كمال المكافأة التي وعده بها أرادوا أن يستوثقوا من إلتزامه بإتمام بقية الخطوات التي تضمن قطع دابر الإسلام والخلافة الإسلامية في تركيا نهائياً، وهنا قام الخاخام "حاييم ناحوم" بدور الوسيط بين الطرفين ويظهر جلياً أن وساطته كانت موفقة وأنه نقل إلى الإنجليز وعد مصطفى كمال بالالتزام بإتمام المهام المنوطة به، إذا تم الصلح ومنحه الإنجليز المكافأة التي وعده بها، فما كان من الإنجليز إلا أن أتموا الصلح ومنحوه استقلال تركيا وسحبوا جيوشهم منها.

كان مصطفى كمال حريصاً على الوفاء بوعده للإنجليز من كيد للإسلام والمسلمين وإرضاء لنزعاته الشخصية، فما أن تم صلح لوزان حتى لجأ إلى تدبير المكائد ضد الجمعية الوطنية ووضع المأزق والعراقيل أمامها⁽²⁾، ثم نجح في تحريض الوزراء على الاستقالة بحجة كثرة تدخل النواب في اختصاصاتهم ومحاسبتهم لهم في كل صغيرة وكبيرة⁽³⁾، وعندما اجتمعت الجمعية الوطنية لتشكيل حكومة جديدة كثر بين أعضائها الجدل والشجار وسادت الفوضى، وبإيعاز من مصطفى كمال اقترح أحد أنصاره من أعضاء الجمعية الوطنية استدعاء مصطفى كمال لإخراج الجمعية من ذلك المأزق، وفي غمرة تلك الفوضى وافق النواب على الاقتراح فلما استدعته الجمعية الوطنية لحل تلك الأزمة، اشترط قبول رأيه بلا مراجعة فوافقوا على ذلك⁽⁴⁾.

وفي يوم 29 أكتوبر 1923م حضر مصطفى كمال إلى مقر الجمعية وصعد المنبر وقال : "لقد أرسلتم في طلبي كي أنقذ الموقف في لحظة الحرج لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم، فليس منشأ هذه الأزمة أمر عابر بل خطأ أساسي في نظام حكومتنا... لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب"⁽⁵⁾ وذهل النواب

-
- 1- رضا نور: حياتي وذكرايتي، ج 3، دار نشر التون داغ، استنبول، 1967، ص 969، 1188. - داود عبد الغفور سنقرط: القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية، ط 1، دار الفرقان، عمان، 1983، ص 137. - أحمد نوري النعيمي: المرجع السابق، ص 96.
 - جميل عبد الله المصري: حاضر العالم الاسلامي وقضايا المعاصرة، ج2، ط2، دار أم القرى، عمان، 1989، ص 127.
 - 2- محمود شاكر: المرجع السابق، ص 233.
 - 3- محمد عزة دروزة: تركيا الحديثة، المصدر السابق، ص 65.
 - 4- محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 236.
 - 5- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 94.

لهذا القرار المفاجئ وعلى الرغم من امتناع أربعين في المائة من النواب عن التصويت لهذا القرار فقد أقر الأمر وانتخب مصطفى كمال رئيسا للجمهورية التركية⁽¹⁾.

وهكذا تحققت لمصطفى كمال السلطة المطلقة التي كان يسعى إليها فقد أصبح الحاكم الرسمي للبلاد علاوة على كونه رئيس مجلس الوزراء ورئيس الجمعية الوطنية والقائد العام للقوات العسكرية.

ولكن مصطفى كمال لم يف بعد بأهم الوعود التي قطعها على نفسه بالقضاء على الخلافة الإسلامية وقطع صلة تركيا بالدين الإسلامي⁽²⁾. ويقول أرمسترونج في هذا الصدد: "...لكن كفاحه الأكبر كان ما يزال ينتظره ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا"⁽³⁾.

لذا فلم تكذب قبضة مصطفى كمال تهيمن على زمام حكم البلاد حتى وجه اهتمامه لإلغاء الخلافة⁽⁴⁾، سيما وقد لاحظ أن الكثير من المعارضين له من السياسيين وعلماء الدين قد أخذوا يلتفون حول الخليفة عبد المجيد في استانبول وأصبحوا بمثابة حزب معارضة يشكل خطورة كبيرة عليه خاصة بعد افتضاح ميوله ونواياه على إثر الخطوات الانقلابية الخطيرة التي أقدم عليه⁽⁵⁾.

وقد اتخذ مصطفى كمال عدة إجراءات تمهيدا لتنفيذ مخططاته، حيث أمر بخفض المخصصات المالية التي كانت تصرف للخليفة وأسرته، وبإلغاء المظاهر الرسمية التي كانت تحيط بموكب الخليفة أثناء ذهابه لتأدية الصلاة وأثناء استقباله للشخصيات الإسلامية⁽⁶⁾.

استخدام مصطفى كمال الأساليب الإرهابية ليزرع الرعب في قلب من قد تسول له نفسه أن يعترض على ما قرر القيام به، ومثال ذلك أن أحد النواب أظهر اعتراضا في إحدى جلسات الجمعية على بعض الإجراءات التي كان مصطفى كمال قد قام بها فما كان منه إلا أن كلف شخصا باغتياله في نفس الليلة أثناء عودته إلى منزله⁽⁷⁾.

1- علي حسون : المرجع السابق، ص 326. حسن جيلان: المرجع السابق، ص 136

2- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 266

3- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 195

4- عبد الحليم عويس : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، ط 3، دار الشروق، جدة، 1983م، ص 198

5- محمد عزة دروزة : تركيا الحديثة، المصدر السابق، ص 67.

6- المصدر نفسه، ص 67.

7- ه. س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 199

كما أصدر قرارا بنقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة في 13 أكتوبر 1923م⁽¹⁾، وقد كانت هذه الخطوة محاولة لطمس كل ما يرتبط بهذه المدينة في أذهان المسلمين من ماضٍ حافل بالأعاجاد، كونها مقر علماء الدين وأنصار الخلافة الإسلامية في تركيا. وقد غضب الكثيرون من موقف مصطفى كمال وديكتاتوريته وإلتفوا حول الخليفة الذي كان ضعيف الإرادة، لكن مصطفى كمال لم يرتح لذلك، فعامل الخليفة معاملة سيئة وارتقب الفرصة المواتية للخطوة التالية⁽²⁾.

وفي يوم 3 مارس 1924م قدم مصطفى كمال مرسوما يقضي بإلغاء الخلافة ونفي الخليفة وجميع أبناء البيت العثماني إلى خارج البلاد وفصل الدين عن الدولة، فوافقت الجمعية على هذا القرار من غير مناقشة⁽³⁾.

وفي نفس اليوم هاجم الجيش قصر الخليفة وأجبره على أن يستقل عربة نقله إلى محطة السكة الحديدية في استانبول حيث تم وضعه في قطار أقله إلى منفاه في مدينة نيس الفرنسية، كما أجبر جميع الأمراء والأميرات وزوجات السلاطين وأصهار الأسرة العثمانية على مغادرة البلاد خلال أسبوع⁽⁴⁾.

بعد ذلك قرر مصطفى كمال الالتفات إلى الغرب وأراد أن يجعل من تركيا دولة غربية في أسرع وقت ممكن، كما أنه عارض فكرة الاتحاد الإسلامي معارضة كلية، وأصبحت الفكرة السائدة هي الفكرة الطورانية لأن الأتراك جنس طوراني، وهكذا فضل مصطفى كمال فكرة القومية الوثيقة على الفكرة الإسلامية العالمية المطاطة⁽⁵⁾.

وفي صباح اليوم التالي إستيقظ العالم الإسلامي على أكبر فاجعة نزلت به، وهي زوال الخلافة الإسلامية وسقوط دولتها وانفراط عقد المسلمين الذي كان ينتظم شعوبهم ويلم شتاتهم وتجريدتهم من سلاحهم الماضي الذي طالما أربع المتربصين بهم ومن درعهم الواقي الذي كان يحمي صدورهم من سهام أعدائهم.

وأما اليهود وحلفاؤهم فقد استيقظوا على أجهل حلم حلموا به وأعظم أمنية تمنوها وأهم غاية سعوا إليها، وهي زوال الخلافة الإسلامية العقبة الكؤود التي طالما حالت دون تنفيذ مخططاتهم في ديار الإسلام، ولم يسع تلك القوى المتربصة أن تخفي فرحتها بذلك الحدث.

1- يركز بعض المؤرخين في مناقشتهم لدوافع مصطفى كمال لاتخاذ هذه الخطوة على المبررات المتعلقة بالموقع الجغرافي والعسكري لهذه المدينة فيرجعون ذلك إلى كون استانبول مدينة مكشوفة ومعرضة لهجوم الأعداء من ناحية البر والبحر فيما أنقرة مدينة منيعة محصنة بالجبال. أنظر: هارولد تمبرلي وأ.ج. جرات: المرجع السابق، ج 2، ص 269.

2- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج 1، ص 307 - 309.

3- ضابط تركي سابق: المصدر السابق، ج 2، ص 296 - عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص 198.

4- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 718 - يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 263.

5- علي شعيب: المرجع السابق، ص 71 - 74.

3- تداعيات سقوط الخلافة على تركيا والأقطار العربية:

لقد ترتب على سقوط الخلافة آثار عديدة سواء أكان للأتراك أنفسهم، أو للمسلمين الذين يعيشون في الدول الغربية وبصفة خاصة "المسلمون في روسيا" وسوف نتناول هذه الآثار فيما يلي:

لقد خيم على الأتراك جو من الوجوم فمهما كان الأمر ومهما كان " الخليفة " مجرد اسم على غير مسمي، ومهما كانت الخلافة مصدرا للتعصب الأوروبي ضد الأتراك في الماضي والحاضر، فقد كان نظام الخلافة ومظاهرها سمة من سمات الحياة التركية عاش معها الأتراك وعاشت معهم قرون عديدة وقد اعتزوا بها حيناً، وألفوها وعاشوها حيناً، وضاقوا بها واحتملوها على مضض حيناً، لكنها جزء من تاريخهم وحياتهم فلم يكن اختفاؤها من حياتهم وعلي هذه الصورة، أمراً سهلاً على مشاعرهم. بل كانت صدمة نفسية من غير شك. وقد كان من أهم آثار إلغاء الخلافة علي تركيا هو أنه أضعف العلاقات التاريخية والعرقية والدينية التي تربط تركيا بالمسلمين في تركستان والقوقاز.

أما الكارثة الكبرى فقد حلت بأقرب المسلمين إلى تركيا وهم المسلمون في روسيا الذين كانوا حتى ذلك الوقت يقاومون الروس حفاظاً علي قوميتهم وعلي دينهم.

فعلى الرغم من كل الهزائم التي لحقت بهؤلاء المسلمين في معارك كثيرة فسي جبال تركستان ووهادها. فقد ظلت روح المقاومة العنيدة باقية فيهم لانهم كانوا يشعرون أنه ما بقيت تركيا إسلامية فستظل مصدراً يستمدون منه القوة المعنوية والعون المادي أحياناً. لذلك عندما أنه ارت الخلافة الإسلامية في تركيا أنه ارت مقاومة هؤلاء المسلمون خاصة بعد أن بدا لهم أن تركيا الجديدة قد أخلت نفسها من كل مسئولية عن هؤلاء المسلمين كما أنه ت تركيا الجديدة علاقاتها التاريخية والعرقية والدينية بالمسلمين في تركستان والقوقاز وكانت هذه هي نهاية تلك المقاومة⁽¹⁾.

تلقي الناس في مصر أنباء إلغاء الخلافة الإسلامية بالاستنكار والأسى وندد الخطباء في المساجد وفي الأندية الإسلامية بتقويض الخلافة التي كان الكثيرون منهم يعدونها ركناً شرعياً في النظام الإسلامي.

1- Ahmet Kabakli: **Temellerin Durusmasi**, 19 Baski, istanbul, 1993 P.93.

ومن ثم فقد ترتب على إلغاء الخلافة في تركيا قيام معركة دينية وفكرية وسياسية في مصر. فقد ظل موضوع الخلافة حية في مصر وظل لها مؤيدوها الكثيرون، ولها معارضوها القلائل فلما صدر في القاهرة كتاب يتناول موضوع الخلافة التهمت المشاعر فجأة وقامت قيامة الجانبيين⁽¹⁾.

وبعد البحث والدراسة تبين أن من أسباب ضعف الدولة نجمت عن عنصرين أساسيين:

العنصر الأول : العلماء، حيث كان العلماء في عهد الفتوح والعظمة مسيطرين على ملوك العثمانيين، وكان منهم في العهد الماضي رجال أعلام سلمت نفوسهم من المفسد ينكرون المنكر ويدعون إلى المعروف وكانوا قوة يخافها الملوك، ويقفون أمامهم إذا جاوزوا الحد، وكان شيخ الإسلام ذا مكانة مرموقة وله تخضع الهيئات القضائية والتشريعية، وكان السلاطين من آل عثمان يوقرونه ويخضعون له ويستشيرونه في جميع أمورهم حتى أمور الحرب لم تكن تتم إلا بعد فتوى شيخ الإسلام، وهذا هو التاريخ يسجل في أروع صفحاته أن القاضي شمس الدين القناوي رد شهادة السلطان بايزيد الملقب بالصاعقة - ولم يقبلها، لأنه تارك الصلاة مع الجماعة، وكان سليم الأول والذي عرف عنه أن الأمر بالقتل أقرب إلى شفتيه من الشمال إلى اليمين وطالما قتل وزرائه لأسباب تافهة كان سليم هذا يحاذر أن يقع في غضب مفتيه "زنبيللي علي" إلى هذا الحد بلغ إحترام السلاطين للشرع ورجاله⁽²⁾، ولكن لما أحد ث سليمان القانوني الألقاب والرتب العلمية وأمال على علماء الدنيا على ما لم يكن به عهد، أمسوا يتنافسون للوصول إلى هذه المقامات العلمية بالتقرب من السلاطين، وبعد أن كانت المناصب الدينية توجه في عهد السلاطين العشرة الأوائل لدوي الكفاءة من الرجال وذلك بالامتحان أو التقادم في العلم، أصبحت تلك المناصب تسند بالشفاعات، ومن هنا قلت رقابة العلماء على السلاطين خصوصاً من أواخر عهد سليمان ومن أتى من بعده - فأصبحوا لا يأخذون على أيديهم فيما تقع منهم من أخطاء أضرت بالدولة فيما بعد ضرراً كبيراً وأصبحت مصالح الدولة تذهب بسبب سكوت العلماء⁽³⁾.

العنصر الثاني :- الخلفاء حيث لم يكن من أتى من السلاطين بعد سليمان القانوني على شاكلة من سبقوهم من السلاطين الأول بإستثناء محمد الثالث ومراد الرابع ومصطفى الثالث، وقد كانوا على مستوى أهلية الحكم إلا القليل فقد ولى الحكم سلاطين وهم في سن صغيرة فقد كان عمر أحمد الأول، وعثمان الثاني أكثر من أربع عشرة سنة عندما بويعا بالسلطنة وكان سن مراد يوم مبايعته اثني عشر عاماً، وكان لمحمد الرابع سبع سنين،

1- عبد الحميد الكاتب: حكاية أتاتورك والاسلام، كتاب أخبار اليوم، العدد 344، مطابع دار أخبار اليوم، 1993، ص 124 - 126.

2- Ayni Yer: op. cit, p261.

3- مجدي عبد المجيد الصافوري: المرجع السابق، ص 153-154.

وماذا ينتظر من تولية أمور الدولة للأطفال إلا لأن يتحكم فيهم وفي الدولة الوزراء وغيرهم من النساء والندماء مما سبب فوضى في الجيش⁽¹⁾.

كما أن تغير الدم السلطاني يعد من الأسباب الجوهرية في ضعف الدولة فقد أكثروا من اقتناء الجواري والسراري من النصرانيات فكان سليم الثاني روسي، لأن أمه روسية، ومحمد الثالث نصف بندي لأن أمه بندقية وعثمان الثاني ومراد الرابع، وإبراهيم الأول أنصاف أروام، لأن أمهاتهم روميات، كما كثر عدد من تولوا أعمال السلطنة ممن دانوا بالإسلام من نصارى الروم والألبان والصرب والبغار، وعلى عهد سليم الثاني كان من بين ثمانية رجال تولوا الصدارة العظمى ستة من المهتدين إلى الإسلام حديثا منهم الجنوي والبنجناكي واليوناني والروسي، وكان إسناد المناصب العليا لهؤلاء وغيرهم من أسباب ضعف الدولة، فقد كان هؤلاء يعملون لحساب دولهم، كما كان من السلاطين من بلغ حدا في الإسراف حتى اضطرت خزينة الدولة للاقتراض بالفائدة الباهظة مما جعل الدول الغربية الدائنة تتدخل في شئون الدولة وتستعبد اقتصاديا حتى آخر أيامها⁽²⁾.

حقا كان الجناة والمسئولون الأوائل هم الأتراك - رجال الاتحاد والترقي - الذين زين لهم غرورهم ودفعهم حنقهم إلى الاشتراك في الحرب وما كانت إلا حريا أوروبية في أوروبية أمريكية مدارها النزاع على الإمبراطوريات والاستثمار بالمنافع الاقتصادية والسياسية فأوعزوا إلى ألمانيا وأعلنوا الحرب في أكتوبر 1914م على الإنجليز وفرنسا وروسيا فبذلك قاموا بدولتهم وأنفسهم والأقطار المرتبطة بهم مقاومة انتهت بتحطيم دولتهم وذهاب ربحهم، ثم كان أوحم العواقب تلك المقاومة أنه أتاح الفرصة للاستعمار ليشب على الشرق العربي، فيفقد تلك الأقطار استقلالها وحريتها ويؤذي كرامتها، ويحاول طمس شخصيتها ويهدد حياتها.

إلا أن العرب هم الآخرون شاركوا أيضا في عملية إسقاط الخلافة، ومشاركتهم هذه تتحدد في أنه م فقدوا الحس الإسلامي الصحيح فاندفعوا إلى ما اندفع إليه الأتراك - من رجال الاتحاد والترقي - فنادوا بالقومية العربية في مقابل القومية الطورانية، صحيح أن الاتحاديين هم الذين بدأوا بتلك النزعة إلا أنه كان يجب على العرب باعتبارهم أعرف الناس بالإسلام وبتعاليمه وهم أول من حمل شعلة الإسلام⁽³⁾، كان يجب عليهم أن يروا إخوانهم فإن أبوا فعلهم أن يتمسكوا بالإسلام وألا يحدوا عنه ومهما كانت الخطوب ففيه عزهم ونصرهم، ولكن للأسف لم يحدث هذا وارتمى العرب في أحضان الغرب - الإنجليز - الذين أغروهم بالانقضاض على الترك وهم في حرب حياة أو موت ووعدهم في سبيل ذلك بإقامة خلافة عربية بدل الخلافة العثمانية ولو أخذ المشروع طريقه إلى الحياة لاستحال إلى خلافة تضارع الخلافة العباسية أو العثمانية في عصور الانحلال والظلام.

1- Faith kursuistinde: op. cit, p249.

2- مجدي عبد المجيد الصافوري: المرجع السابق، ص 155-156..

3- Seydi Reis : **Mir, at - ül Memalik** ,Istanbul ,1313, p 1 – p 2.

وطبعا كان من المستحيل أن يحدث وما كان الإنجليز ليسمحوا به، فالصليبيون الجدد لا يتصورون في سياستهم أن يقيموا دولة فيها أية آثار للإسلام وهم الذين ورثوا في دمائهم بغض الإسلام وأهله⁽¹⁾.

ولقد غاب عن العرب الوعي الصحيح والإدراك السليم وذهب عنهم كياسة الإيمان، فلم يفتنوا إلى ما يراد بهم وبالإسلام فوثقوا ببلاهة غريبة في وعود الإنجليز التي كانت كالسراب حسبه العرب ماء يروي ظمأهم، حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئا، أعلن الشريف حسين زعيم العرب والخليفة المنتظر الثورة على الأتراك في 10 جوان 1916م، وتدفقت المؤن والدواب والذخائر والذهب تحملها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز، وأخذ فيصل بن الحسين ينثر الذهب الإنجليزي مع خطبه، ليجمع العرب حوله الذين اقساموا على الإخلاص للثورة العربية ولم يدر العرب أنه م باعوا بلادهم وأنفسهم بهذا الذهب ونال الإنجليز والفرنسيون من العرب كل ما أرادوه، وكان آخر ما أداه لهم الجيش العربي الذي كان كريما إلى حد السفه، أنه كفل لجيوشهم الأمن والأمان في بلاد العرب وفي أرجاء الشام حيث نظر إليهم الناس نظرة الحلفاء والأصدقاء وفتحوا لهم أبواب دمشق تستقبلهم استقبال الأبطال حين دخلوها تحت راية جيش فيصل العربي.

ثم استيقظ العرب على أكبر خديعة حدثت لهم في التاريخ من خيانة الإنجليز لكل عهودهم التي بذلوها للعرب، فقد تبين من بعد أنه م بذلوا للفرنسيين وللإهود في الوقت نفسه وعودا أخرى تتعارض مع الوعود التي بذلوها للعرب، إذ اتفقوا مع الأولين على احتلال الشام واتفقوا مع الآخرين على التمهيد لتحقيق أحلامهم في اتخاذ فلسطين ووطنا قوميا لهم⁽²⁾، وأن العرب هم المسؤولون عن إضعاف الخلافة بطعنهم في ظهرها وعن ضياع بلادهم، وبعد ضياع البلاد وإزهاق الأرواح وجد العرب أنفسهم في حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه في عهد الدولة العثمانية فقد مزقت بلادهم أربا وقطعت أوصالها ونصب عليهم سادة متعددون هم الأجانب عن ثقافتها، الغريباء عن روحها، الأعداء التاريخيين للإسلام منذ عصر الحروب الصليبية⁽³⁾.

4- ملامع الدولة التركية الحديثة:

لقد صدم الكثير من الأتراك، وعامة المسلمين، بإزاحة الخلافة، ووقف الأتراك في صمت إزاء سياسة الغازي مصطفى كمال الذي نجح في استقطاب جميع مراكز القوي بيديه، وبدأ منذ عام 1925م يطبق أفكاره ويمارس سياسته في تحديث وتعريب تركيا.

1-Prof.Dr.M.Kemal Oke, Hila Fethareketker: **Guney Asya Miislumanlarinin istikial Davasi ve Turk Mili Mueadelesi**, Ankara, 1991, p 237.

2- Yilmaz Oztuna: **Osmanli da Halifelik Kurumu Tarih ve Medeniyet**, Say is Nayis, 1995, p54.

3- مجدي عبد المجيد الصافوري: المرجع السابق، ص 166 - 167.

إلغاء الطربوش:

كان الطربوش يمثل عنوان الثقافة العثمانية في القرن التاسع عشر بعد أن جاءت إصلاحات محمود الثاني قبل قرن كامل من عهد مصطفى كمال، واستخدمه المسلمون والمسيحيون واليهود والعثمانيون، ولكن الغازي قاد ثورة " علي " الطربوش " وأقر " القبعة الأوروبية " عنوان جديدة لشباب الجمهورية الفتية ورمزا للتحرر والتقدم. وبدأ الغازي ثورته الجديدة، بطريقة مرحلية فرض القبعة أولا على نفسه، ثم علي حرسه الخاص ولما لم يجد الغازي اعتراضا فرض القبعة على الشعب، فكادت حرب أهلية تنشأ بسبب منع الطربوش، وانتزع الغازي مرسومها من المجلس الوطني بإلغاء الطربوش في أوت عام 1925م⁽¹⁾.

إغلاق التكايا والزوايا وإلغاء الطرق الدينية:

تعتبر الطرق الدينية والتكايا من عناصر الحياة الاجتماعية العثمانية فهي من ناحية كانت الوسيط الذي أنتشر من خلاله الإسلام في الأناضول ومن ناحية أخرى كان لها دورها في الرد عن الإسلام والبلاد من أوكار الخطر. ومن ناحية ثالثة، لعبت الطرق الدينية والتكايا دورة مهمة، كتضامنية اجتماعية لها مؤسساتها الخيرية والتربوية والتعليمية⁽²⁾.

وقد كان لمشايخ الطرق في تركيا، وقت إعلان الجمهورية، ضلع في الجمعيات والاجتماعات السرية والدعوة إلى التظاهر، وإثارة العصبية ضد الحكومة الأتاتورية الجديدة، وخصوصا الطريقة الرفاعية والطريقة الشاذلية، وفي نوفمبر عام 1925م استصدر مصطفى كمال مراسيم تضمنت:

- يحكم علي من يخالف هذه القرارات بالحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر وغرامة لا تقل عن خمسين ليرة.
- حظر استعمال عناوين وصفات أزياء تدل علي تلك الطرق.
- إلغاء كل أنواع الطرق ومشايخها وإلغاء ألقاب الدراويش والمرير والأستاذ والسيد والجبلي والبابا والأمير والنقيب والخليفة والعرافة، وحظر السحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجبة والتمائم.
- إغلاق الزوايا والتكايا الموجودة بالدولة سواء كانت وقفا أو ملكا لمشايخها.

1- Yilmaz Oztuna: Op Cit,P 54.

2- رضا هلال: المرجع السابق، ص 69-70.

وعندما تمرد الدراويش وتظاهروا احتجاجا على إلغاء الطرق الدينية وإغلاق التكايا، شن مصطفى كمال هجوما على هؤلاء الدراويش وقال فيه : طلب العون من الميت عار علي المجتمع المتمدن⁽¹⁾.

القانون المدني وحظر الحجاب:

عرفت الدولة العثمانية، خلال عصر التنظيمات، استمرار القوانين الغربية علي نحو ما حدث لدي إصدار القانون التجاري عام 1850م والذي أخذ من القانون الفرنسي، وكان قانون الجزاء العثماني الصادر عام 1858م مستمدة من قانون العقوبات الفرنسي.

وفي حين شهد عصر التنظيمات استحداث محاكم مدنية علي النسخ الغربي للنظر في القضايا المدنية التي تخص غير المسلمين، فإن المحاكم الشرعية ظلت تنظر القضايا المدنية للمسلمين⁽²⁾.

وجري تقنين الفقه الإسلامي، وفي كتاب سمي " مجلة الأحكام العدلية " واعتبر أساسا للقانون المدني في الدولة العثمانية، واستمر العمل بمجلة الأحكام العدلية حتى عام 1926م.

حينما قرر مصطفى كمال استمداد القانون المدني السويسري كأساس للقانون المدني التركي الذي صدر في أكتوبر عام 1926م، وتضمن القانون 448 مادة تضمنت ها موضوعات حقوق الشخص - الأشخاص المعنويين - الزواج - الطلاق - النفقة - ما النسب التبني - الميراث - وغيرها.

وفي نهاية 1926م، جري فرض السفور علي النساء، وأصدرت المجالس البلدية قرارا يحظر علي السيدات لبس الجلباب وإلزامهن بعدم لبس الستائر وإلا قدم أزواجهن أو أقرباؤهن للمحاكمة.

تغريب التعليم واللغة العثمانية القديمة:

قاد مصطفى كمال عملية تغريب التعليم علي مرحلتين، وتضمنت الأولى توحيد المدارس، وكانت المرحلة الثانية هي مرحلة إلغاء الحروف العربية واستبدال الحروف اللاتينية بها.

لقد قام التعليم العثماني، وخصوصا بعد عصر التنظيمات علي الازدواجية بين مدارس دينية ومدارس مدنية (غربية)⁽³⁾.

1- Islam Ansiklopedisi: Halife Maddes, c.5, Istanbul, 1977, P 75.

2- constantine Mouradsea d'Hsson: Op Cit: P.269.

3- Türkiye Büyük Millet Meclisi Zabıt Ceridesi, SB 267, Ankara, 1957, P 29-78.

وأصدر مصطفى كمال عام 1924، قانون توحيد المدارس، الذي تضمن ضم جميع المؤسسات التعليمية دينية وغير دينية إلى وزارة المعارف، كما أوكل لوزارة المعارف أن تنشئ كلية للإلهيات في الجامعة متخصصة في الأمور الدينية، وأن تنشئ مدارس خاصة لتخريج الأئمة والخطباء. ولفك أي ارتباط بالإسلام والعرب، قدر مصطفى كمال كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية.

وكما بدأ مصطفى كمال بنفسه في تعلم اللغة التركية الجديدة، سمي نفسه أتاتورك "أي أبو الأتراك" عندما طلب من كل تركي اتخاذ اسم عائلة ينتسب إليها.

لقد أراد أتاتورك، بكل ذلك، ثورة من أجل تغريب تركيا.

وفي عام 1938م، أيضا، ألغي أتاتورك مادة الدستور المتضمنة "الإسلام دين الدولة التركية"⁽¹⁾.

بعد نجاح مصطفى كمال في تدعيم أسس دولته الحديثة بالقضاء علي ثورة الأكراد، وبعد أن أزاح جميع معارضيهِ عن المسرح، باشر عندئذ في تطبيق الأفكار التي كانت تداعب مخيلته ولم يكتف بمهاجمة الرموز الإسلامية بل عمل في هدم المؤسسات الإسلامية فألغي الكتاب الذي كان يدرس فيه القرآن الكريم، واسم "مدرسه" العربي. كما ألغي الوقف الإسلامي وضم أملاكه إلى الدولة، وسن مجموعة قوانين أوروبية وطبقها بدلا من القوانين المستمدة من القرآن الكريم والسنة الإسلامية.

سار أتاتورك في سنة 1923م في تنفيذ برنامجه الديني بخطي أسرع، فألغي التكايا، وحل فرق الدراويش الصوفيين، وأمر رجال الدين ألا يرتدوا أزياءهم الدينية الرسمية إلا في الجامع أو الكنيسة. وألغي التقويم الهجري واستعاض عنه بالتقويم الغربي، وجعل نهار الأحد يوم العطلة الأسبوعية بدلا من يوم الجمعة وانحرف نحو علاقة مفتوحة مع الغرب وقطع كل علاقة تربط الأتراك بالعرب⁽²⁾.

وانتقل مصطفى كمال إلى الجولة الثانية من إصلاحاته³، فقد أحل بالقانون تغيير، كلية، فقد كان القانون مبنية على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف غير أنه أدخل عليه القانون المدني السويسري، والقانون الجزائري الإيطالي، والقانون الألماني وتبع ذلك تغيير قانون الأحوال الشخصية المتعلق بأحكام الزواج والارث وغيرها، وقد ألغي نظام تعدد الزوجات.

1- رضا هلال: المرجع السابق، ص 73-75.

2- علي شعيب: المرجع السابق، ص 77-78.

3- Ahmet Kabakli :Op Cit, P 67.

ومن التغيرات التي خرجت علي التقاليد الدينية القديمة تشجيع الرسم والتصوير والنحت علي شكل إنسان ومع أنه محرم في الإسلام، إلا أن أتاتورك قد فتح لها المدارس وأفسح المجال لتعليم المرأة الفنون أيضا.

أما المرأة التركية فإنها لعبت دورا هاما في كفاح تركيا في سبيل الحرية، أقدم مصطفى كمال علي تحريرها من كل قيد، وقامت جمعية باسم الدفاع عن " حقوق المرأة " كما فتحت المناصب أمام المرأة وكان الحجاب أول ما وقع كثيرا وكان مولعا به ويعتقد أنه يحرم المرأة ويساعد علي تغلغل الحضارة الأوروبية. الغناء والرقص رمزي التقدم والتمدن كذلك شجع مصطفى كمال الأطفال علي تنمية شخصيتهم، والاعتماد علي أنفسهم بنبد الأساليب البالية من الحفظ عن ظهر قلب التي كانت تتبعها المدارس الدينية.

ومن التعديلات البسيطة التي لها دلالة على الاتجاه الجديد الذي سار عليه حكام تركيا، هو صرف الناس عن الطريق القديم من إلقاء السلام " بعضهم علي بعض واستبدالها بالمصافحة باليد لأنها أكثر ملائمة لروح التحديث والرمز⁽¹⁾.

وأنقل أتاتورك في كفاحه إلى اللغة التركية فقد كانت التركية تكتب بالحروف العربية وهي في رأيه وسيلة رجعية. لذلك قرر استعمال الحروف اللاتينية بدلا من العربية في الكتابة والقراءة، وأصدر قانون حدد المدة التي يلغي بعدها استعمال الأحرف العربية واستعمال الأحرف اللاتينية إجباريا وأخيرا إلزام كل من يتراوح عمره بين السادسة عشر والأربعين علي دراسة الأبجدية اللاتينية في المدرسة⁽²⁾.

كذلك قرر مصطفى كمال إسقاط الكلمات العربية والفارسية من اللغة التركية والاستعاضة عنها بالكلمات التركية الأصلية. وكان وراء هذا التغيير واقع مؤلم لأن كمال أتاتورك كان يريد أن يفصل تركيا بقدر الإمكان عن المؤثرات العربية وغيرها.

وقد تتبع التبديل في اللغة بتبديل في أسماء المدن والأشخاص أيضا فقد أصبحت القسطنطينية "أستانبول وانكورا" انقره "ووسمسيرنه" أزمير " وكانت معظم أسماء الأعلام عربية كاسم مصطفى كمال. أما الاتجاه الحديث فهو إعطاء أسماء تركية صرفه لذلك تقرر في عام 1934م، أن يتخذ كل شخص لنفسه كنية بدلا من الانتساب لأبيه وبناء علي ذلك أطلقت الجمعية الوطنية علي مصطفى كمال لقبا فريدا هو " أتاتورك " أو أبو الأتراك، فأصبح يدعي "كمال أتاتورك"⁽³⁾.

1- علي شعيب: المرجع السابق، ص 79 - 80.

2- Yilmaz Oztuno: Op Cit: P.184,-185.

3- Kazim Karabekir : **Günlükler 1906-1948**, Kasım 2009, Yapı Kredi Yayınları, P 798.

وكخاتمة لعملية التحول إلى الغرب والانفصال عن الشرق وهي عملية تضمنت أيضا الاذان باللغة التركية، والاستعاضة عن اسم الجلالة بكلمة تركية، وحظر الموسيقى الشرقية، وأما الضجة علي هذا التحول فقد كان أتاتورك يلجأ إلى قمعها بشدة.

أجل إن أتاتورك قد قاتل طويلا من أجل بقاء الشعب التركي في وطن تركي مستقلا في حكم نفسه، ولكنه تنازل عن معظم ما تميز به الأتراك في الماضي. مجسد أتاتورك قومه غير أنه از دري ما حققوه في الماضي⁽¹⁾.

بعد أن قام مصطفى كمال بإلغاء الخلافة الإسلامية في عام 1924م وأقر الدستور الجمهوري المعارض في الإسلام قام هو نفسه بإلغاء المحاكم والمدارس الشرعية واستبدالها بأنظمة علمانية⁽²⁾، كما ألغي القانون الإسلامي وتبني قانون الأحوال الشخصية العلماني الخالص، وثم ألغي الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية، وأستبدلها بأحرف لاتينية وقطع كل صلة للشعب المسلم بماضيه الإسلامي إذ أن قرآنه وحديثه وفقهه وجميع تراثه مكتوب بالأحرف العربية ونشأ بذلك جيل مبتور الصلة بالماضي الإسلامي العريق، وتقهقرت الحياة. الأدبية والثقافية والاقتصادية وتعذرت الكتابة علي القلة وقلت الكتب والمجلات الثقافية واندثرت الملايين من الكتب. كما حدد عدد المساجد وفرض علي الخطباء الذين عينهم التكلم عن الزراعة والصناعة وسياسة الدولة وكيل المديح له في خطبة الجمعة.

ثم أخلي جامع آيا صوفيا ومسجد الفاتح ومنع التعبد فيهما وجعلهما متحفين ومن ضمن الآثار القديمة خطط المدارس العلمانية علي النمط الحديث وتبني القانون الجزائي والمدني الأوروبي⁽³⁾.

تجلت سياسة أتاتورك في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام 1394 هـ مرة ثانية في فبراير عام 1355 هـ - والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم علي علم الحزب وهي : (القومية - الجمهورية - الشعبية - العلمانية - الثورية - سلطة الدولة) وطبقا لمبادئ الحزب تم تغيير المناهج الدراسية وأعيدت كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي كما جري تنقية اللغة من الكلمات العربية والفارسية واستبدل الكثير من الكلمات بأخرى أوروبية أو أرجعت إلي أصول حيثية واستمر ذلك التبديل حتى طرح مفهوم أشمل اللغات، كما جري التخلي عن أهداف الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية والعثمانية في السياسة الدولية، وضم لواء (الأسكندرونة) إلى تركيا في عام 1309 هـ، واحتلته القوات التركية في عام 1357 هـ. وبحث الحكومات التركية عن الحلفاء من الدول الصغرى ووقعت معاهدة البلقان ثم ميثاق سعد أباد مع إيران

1- علي شعيب: المرجع السابق، ص 81-83.

2- Kamal Atatürk: **Um Soylev Ve Demecleri**, Maarif Matbaasi, Istanbul, 1945, p 262.

3- علي حسون: المرجع السابق، ص 278-279.

والعراق وأفغانستان، وجعلت هذه النقاط زاوية الخلاف مع العرب إخوة الأسم تزداد انفراج ووجدت مشكلة الخلاف المستحكم بين هاتين الفتتين وهكذا خطط لها الغرب أو أراد⁽¹⁾.

اتسمت الدولة التركية الحديثة بمجموعة من الملامح التي شكلت تركيا الحديثة.

أهمها ما يلي:

- نشر التعليم الحديث:

حيث رأي كمال أتاتورك أن تركيا الحديثة لن تقوم إلا عن طريق التعليم الحديث والعمل الحديث، وقام بفتح المدارس بكل حي وكل قرية وأصر علي ضرورة أن يذهب الأولاد والبنات أيضا، إلى هذه المدارس، وضرورة تعلم الكبار الكتابة والقراءة في فصول ليلية، كما قام أتاتورك بإدخال اللغة اللاتينية كوسيلة للقراءة والكتابة بدلا من اللغة العربية.

- النهضة الصناعية:

حيث قام أتاتورك بإنشاء المصانع الجديدة واستيراد الآلات لها من أوروبا كذلك مد الخطوط الحديدية في جميع أنحاء تركيا. كما قام بتوسيع المباني وبناء السفن وزيادة التجارة في البلاد⁽²⁾.

رحيل الأجانب من تركيا، وإحلال الأتراك مكانهم:

اعتمد أتاتورك في بناء تركيا الحديثة علي الأتراك أنفسهم وليس الأجانب... أولئك الذين استغلوا تركيا استغلالا بشعا علي مدي فترة طويلة من الزمان، أقاموا خلالها نظاما مهما من نظم الاستعمار والاستعلاء. لذلك قرر ترحيل هذا العدد الضخم من الأجانب من تركيا، وبدأ الأتراك في ممارسة شئون التجارة والمال في إدارة المرافق العامة.. وهي مجالات كانت أبعد ما تكون عن تفكير الأتراك.⁽³⁾

تحديث الأتراك في مظهرهم، وتحديث التركية في سلوكها:

حيث أمر أتاتورك بأن يلبس الأتراك القبعة بدلا من الطربوش، أما العمامة فتقتصر علي رجال الدين فقط.

1- علي حسن: المرجع السابق، ص 280-281.

2- Edward.F.Knight: **the Awakeening of Turkey**, London, 1909, p 95.

3- Islam Ansiklopedisi: Op Cit: P.13.

أما المرأة التركية الحديثة فإنها تذهب إلى المدرسة وإلى الوظيفة، وتخرج إلى الشارع بلا حجاب على رأسها. وتشارك في حفلات الرقص والسمر مع الشباب.

- تعديل الدستور التركي ليواكب المستجدات:

حيث أصدر المجلس الوطني قرارا بحذف جملة " الإسلام هو الدين الرسمي للدولة التركية " وهو ما كان ينص عليه الدستور التركي في مادته الثانية وأبقى اللغة التركية اللغة الرسمية للبلاد وأبقى أنقره عاصمة الدولة.

وترفع أيضا الجملة التي وردت في المادة الأخرى خاصة بالأحكام الشرعية، ويقرر المجلس وضع قوانين جديدة مستمدة من القانون الفرنسي والقانون الإيطالي وتجري تعديلات أخرى ويقرر منذ ذلك الوقت أن يقسم النواب " بشرفهم بدل قولهم " والله " وكذلك يفعل رئيس الجمهورية في قسمه. كذلك منع المدارس من تعليم الدين. وسري ذلك علي المدارس التركية والأجنبية على السواء، وهو ما ترتب عليه إغلاق المدارس التبشيرية فرحل المبشرون⁽¹⁾.

لقد أدت القومية التركية الى تقويض الدولة العثمانية نتيجة لما كانت تسعى إليه في مخططاتها من تحقيق أهداف تخدم المصالحة القومية دون الاكتراث بما يحدث من اضرار في الدولة، فضلا عن أن هاته الحركة لم تتمكن من الاعتماد على أنفسها لذا سعت الى الحصول على دعم وحماية أطراف أخرى ووقعت ضحية المحفل الماسوني، كما استغلته الماسونية من أجل الاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي كان حائلا أمام تنفيذ المخطط الصهيوني في انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، مما أدى الى قيام المحفل الماسوني بدور كبير في الاطاحة بالسلطان ثم سقوط الدولة العثمانية بعد أن اقحموها في سياسات خاطئة لا تتناسب مع امكانياتها السياسية والاقتصادية، فضلا عن أنها تعارض مصلحة البلاد، وادخلوها في تحالفات وعلاقات اضررت بمصالحها وادت الى توريطها في حروب انهكتها وادت الى وقوعها فريسة للدول الغربية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وذلك نتيجة وطبيعة لتوريط الدولة في سياسات بدافع خدمة المصالح القومية التركية (الطورانية) وليس الدولة.

1- عبد الحميد الكاتب: المرجع السابق، ص 112-117.

الباب الثالث

الجماعات اليهودية ودورها في تقويض الدولة العثمانية.

- الفصل الأول: يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي

- 1- نشاط اليهود داخل الدولة العثمانية
- 2- يهود الدونمة ونشاطهم داخل الدولة العثمانية
- 3- اليهود والحركة الطورانية
- 4- يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي
- 5- مشاركة اليهود في مؤتمر باريس 4 فيفري 1902م
- 6- العلاقة بين اليهود وجمعية الاتحاد والترقي

- الفصل الثاني: الماسونيون في جمعية الاتحاد والترقي

- 1- الماسونيون في الدولة العثمانية
 - 2- المحافل الماسونية في الدولة العثمانية
 - 3- مؤامرات الماسونية ضد السلطان عبد الحميد
 - 4- علاقة الماسونية بجمعية الاتحاد والترقي
- ### - الفصل الثالث: الصهيونية وخلع السلطان عبد الحميد

- 1- سياسة السلطان عبد الحميد اتجاه الصهيونية
 - 2- دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني
- ### - الفصل الرابع: الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد

- 1- انقلاب 1908م وإعادة العمل بالدستور
- 2- حادثة 31 مارس وخلع السلطان عبد الحميد من العرش 1909م

تميزت الدولة العثمانية بمعاملة أهل الذمة طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، حيث اعتبرتهم أصحاب ديانات، ولهم كافة الحقوق لإقامة شعائرهم، مثلهم مثل المسلمين وإلى جانب منحهم الامتيازات التي تمثلت في حرية العمل، السفر، والاقامة، وكذا شراء الأراضي، والحصانة القضائية، وقد أثرت هذه الامتيازات التي أعطتها الدولة العثمانية للأجانب المقيمين داخل أراضيها، حيث تمتع الأجانب في الدولة بحصانة قوية جعلتهم لا يخضعون لسلطة الدولة، فكانوا يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية.

ومن خلال المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية مع الدول الخاصة بحقوق الأقليات التي تقيم في الدولة، حصل اليهود على العديد من الامتيازات التي كفلت لهم الحماية في الدولة وحرية التنقل والتجارة، وقد راعت الدولة العثمانية في البلاد التي قامت بفتحها السماح لليهود بأداء شعائر ملتهم بقيادة الحاخام الأكبر في العاصمة، فكانت لهم مكائتهم الدينية والرسمية في الدولة العثمانية، وطبقاً لهذه المعاملة الكريمة من قبل الدولة العثمانية لليهود، عمل اليهود في كل الفروع: التجارة، الصناعة، والعلم، ووصلوا إلى مراكز مرموقة في الدولة وتمتعوا باستقلالهم الذاتي والإداري والطائفي.

وإذا كان اليهود قد حصلوا العلم في بغداد والأندلس، وحصلوا على المال في معظم البلدان الأخرى إلا أنهم لم يحصلوا على الراحة والاستقرار إلا في ظل الدولة العثمانية.

فقد كانت الدولة العثمانية طوق نجاة عثر عليه اليهود الفارون من إسبانيا وعاشوا عهد أمان واستقرار.

وعلى الرغم من التسامح العثماني الذي وجدته اليهود في ربوع الدولة العثمانية، إلا أن اليهود لم يندمجوا داخل المجتمعات، وتكتلوا في أحياء معينة خاصة بهم، وعاشوا حياة انعزالية مغلقة، حتى يستطيعوا الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، فكانوا ما يعرف بالأحياء اليهودية يعيشون فيها ويمارسون طقوسهم.

وقد كان خطأ الدولة العثمانية أنها لم تدرك الشخصية اليهودية التي فتحت لها أبوابها على مصراعيها من معاملة كريمة، وحرية، واستقلال داخل أراضيها.

ومن هذا المنطلق اتخذت الجماعات اليهودية مسارها داخل الدولة العثمانية، فشكلت حركة دينية سياسية أثرت على مجريات الأمور في الدولة، وكان لها دورها الكبير في القضاء على الدولة العثمانية. فيما تتمثل هذه الجماعات اليهودية؟ وما هو نشاطها داخل الدولة العثمانية؟

- الفصل الأول: يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي

يعتقد الكثيرون خطأ أن تأمر اليهود لإسقاط الدولة العثمانية قد بدأ في عهد هرتزل، لكن القرائن التاريخية تثبت أن تلك المؤامرة قد سبقت هرتزل بزمان طويل، فالحركة اليهودية التي استهدفت إلغاء الخلافة الإسلامية، وإسقاط الدولة العثمانية، مرت بمراحل عدة، سلمت كل منها الراية للآخرى، بعد أن قدمت لها أقصى ما بوسعها من دعم، كما أن لكل مرحلة منها نمط من الوسائل ما يكفي مقتضياتها وحاجاتها، ولعل ما قام به يهود الدونمة في هذا الصدد يعد أولى مراحل تلك الحركة اليهودية. فما هو الدور الذي قاموا به؟

1- نشاط اليهود داخل الدولة العثمانية:

مما لا شك فيه أن اليهود في الإمبراطورية العثمانية عملوا في كل فروع التجارة والصناعة والعلم، ووصل بعضهم إلى مراكز هامة، وتمتعوا كسائر الأقليات داخل الإمبراطورية بممارسة شعوتهم الدينية، " فالخاخام باشي " أو ما يسمى بالخاخام الأكبر كان يمثل اليهود في كل المسائل المرتبطة بالحكومة، كما كانت تفرض الضرائب عليهم، ولم يحدث أي تدخل بالأموال التي تجمع مؤسساتهم الخيرية أو التعليمية، بل أن المحكمة اليهودية كانت تحكم بينهم طبقاً للشرعية اليهودية⁽¹⁾، وكان أغلب تجمع يهود الدونمة في سالونيك حيث يوجد لهم مركزاً تجارياً هاماً⁽²⁾، فقد سيطروا على معظم الصناعات، وشكلوا أيضاً عصب البروليتاريا (الطبقة العاملة الكادحة)، خاصة في مصانع التبغ، النقل، والصناعات الخفيفة⁽³⁾، وبحكم موقع سالونيك الجغرافي القريب من أوروبا، ارتبط اليهود بروابط تجارية مع مدن أوروبا، وزادت أرباحهم وتحسن مستواهم الاقتصادي عن كثير من الأقليات داخل الدولة العثمانية⁽⁴⁾.

1- خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق وصداه 1908-1918م، مركز الأبحاث، بيروت، 1973، ص 19.

2- Stanford.J.Shaw and Ezel Kural Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey**, Cambridge University Press, 1977, vol 2, pp 264-265

3- Mete Tuncay Erik Zurcher: **Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire 1879-1923**, BBritish Academic press, London, 1994, p 51

4- محمد قربان نیاز ملا: السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، ط 1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988،

وحصل يهود الدونمة⁽¹⁾ فيما بعد على دعم الشركات اليهودية الأوروبية والأمريكية، حيث قدمت لهم المعونات المالية، مما كان له أثر فعال في انتعاش الحركة الاقتصادية بتركيا⁽²⁾، وكان من أبرز أثريائهم " موشيه الآليني" الذي اشتهر باستثمار أمواله في الصناعة في تركيا ومقدونيا، كما اشتغل بعضهم في تجارة الأفيون في الأناضول إلى جانب النبيذ والفواكه، ولم تكن السلطات تفرض عليهم أي قيود، مما أدى إلى زيادة نفوذهم في الاقتصاد وسوق المال والتجارة⁽³⁾، ولما كان اليهود لا يفضلون الالتحاق بالمدارس التركية، فقد سمح لهم بتأسيس مدارسهم⁽⁴⁾ وأهمها مدرستين ثانويتين، إحداهما تعرف " بالثانوية الفيضية " والأخرى " بـثانوية الترقى " إلى جانب تأسيس عدد من المدارس الأساسية الابتدائية⁽⁵⁾، وتؤكد الموسوعة اليهودية بأن السلطان عبد الحميد الثاني عامل اليهود معاملة طيبة، إذ يعتبر أول سلطان يمنح اليهود المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين، كما أمر بإعطاء رواتب شهرية لـحاخام تركيا الأكبر في العاصمة " إستانبول " واتخذ تقليدا " بأن يرسل سنويا في عيد الفصح إلى حاخام " إستانبول " حوالي 8000 فرنك " لتوزيعها على أسر اليهود الفقيرة، وبرز موقف السلطان عندما منعت حكومة كريت المحلية في عام 1881م مشاركة اليهود في الانتخابات البلدية، فألغى عبد الحميد هذه الانتخابات، ووبخ السلطات لتعديدها على حقوق اليهود.

وعندما شب الحريق في الحي اليهودي " هسكي " في استانبول عام 1882م وتشردت ستة آلاف من العائلات اليهودية، بذل السلطان عبد الحميد ما باستطاعته لتخفيف حجم هذه الكارثة عن اليهود، ورحب باليهود الروس الفارين من الاضطهاد الروسي، بعد مقتل القيصر الروسي الإسكندر الثاني، ومنح الحاخام الأكبر موشي ليفي الوسام العثماني⁽⁶⁾.

2- يهود الدونمة ونشاطهم داخل الدولة العثمانية:

بدأ مفكرو حاخامات اليهود في اللجوء إلى الكتب والنصوص الدينية القديمة في ديانتهم، يستلهمون منها فكرة خلاصهم، فتملكتهم في تلك الفترة فكرة المسيح المنتظر الذي سيأتي ويعيد إليهم ملكهم واستقلالهم،

1- الدونمة : كلمة تركية تعني المرتدين " Apostates " أي الذين غيروا دينهم من اليهودية إلى الإسلام تمييزا لهم عن مسلمي الأتراك الأصليين، وهي مأخوذة عن كلمة دونمك وحسب المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنه يعني المرتد أو المتذبذب. أنظر: محمود ثابت الشاذلي: المرجع السابق، ص 146

2- هدى درويش: حقيقة يهود الدونمة في تركيا، وثائق جديدة، ط1، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2003، ص33

3- المرجع نفسه، ص33.

4- Mete Tuncay Erik Zürcher :op. cit ,p51.

5- محمد قريان نیاز ملا : المرجع السابق، ص67

6- The Jewish Encyclopedia: vol 1 (U.S.A, Ktay publishing House INC,1990), p47.

متخذين الدين ستارا لنجاح دعوتهم وإثبات كيانهم، ومن ثم ظهرت دعوة "سباتاي زفي" الذي أعلن نفسه أنه المسيح المنتظر⁽¹⁾.

ولد "سباتاي" في أزميز لأب يدعى مردخاي زفي، وهو يهودي من أصل أسباني، كان يعمل بالتجارة في أزميز منتقلا إليها من المورة في اليونان⁽²⁾، وقد وصف "سباتاي" والذكاء ومنذ صغره طالع الكتب الدينية، وحينما اشتد الضغط على اليهود جالوا بأبصارهم يبحثون عن إمكانية ظهوره، كما هو وارد في كتبهم، ثم سعى لتحريف النصوص الدينية لمصلحته⁽³⁾.

أعلن "سباتاي" عن دعوته بين اليهود منتهازا فرصة أحد أعيادهم فاستقطب من سكن أزميز منهم، ثم انتشرت شهرته حتى وصلت رودوس، أدرنه، وصوفيا، وصارت له مراسم خاصة⁽⁴⁾، قام خلال حياته بالتنقل بين عدة بلدان، فعاش في اليونان فترة من الوقت، كما أقام في سالونيك، الإسكندرية، القاهرة، أثينا، وفلسطين⁽⁵⁾، وقد لاقت دعوته تأييدا كثيرا من أثرياء اليهود ذوي رؤوس الأموال، واستغلوها لأغراض سياسية ومالية⁽⁶⁾. ومنذ سنة 1666م بدأ يهود الدولة العثمانية يعيشون نوعا من الاستقلال في كل شئ يقدرون عليه، حتى أنهم امتنعوا عن الدعاء للسلطان العثماني في الكنيسة، وأصبحوا يدعون لمسيحهم سباتاي زفي⁽⁷⁾، ومن بعدها انتشرت التوبة التوبة بين اليهود كما ادعوا، وتطلعوا للعودة إلى "أرض الميعاد" عن طريق سباتاي وتوقفت الأعمال التجارية في بعض الأماكن قام العديد منهم لاسيما التجار بالتبرع بالذخيرة والأطعمة، لت شحن إلى الأرض الموعودة عن طريق البحر، وقام آخرون من كبار التجار بتوقيع عريضة أكدوا فيها استعدادهم لإعانتته، وفي "هامبورج" بألمانيا أصبح اليهود يرقصون احتفالا بظهوره واقتراب موعد العودة إلى أرض الميعاد⁽⁸⁾.

1- محمود ثابت الشاذلي: المرجع السابق، ص 6. وسباتاي زفي : النطق الصحيح للاسم " سباتاي صبي " كما ورد في المصادر العبرية، أما المصادر التركية فتستخدم اسم سباتاي زفي وتطلق على جماعته اسم السبتائيون نسبة إلى كتاب " السبتائيون في تركيا " وأنظر أيضا : د. هدى درويش : المرجع السابق، المقدمة، ص 7

2- محمد حرب عبد الحميد : يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد، مجلة العربي، الكويت، العدد 255، 1980، ص 44

3- علي حسون : المرجع السابق، ص 185.

4- نفسه، 185.

5- هدى درويش : المرجع السابق، ص 14

6- أحمد النعيمي : المرجع السابق، ص 21

7- عجاج نويهض: بروتوكولات حكماء صهيون، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1980، ص 519. أنظر: أحمد النعيمي: المرجع السابق، ص 27.

8- عجاج نويهض: المرجع السابق، ص 518

وتعالت هتافات اليهود بحياة ملكهم وزعيمهم المسيح تردد "عاش السلطان زفي الملك المسيح"⁽¹⁾، وجاءت إليه الوفود اليهودية من اليونان، ألمانيا، وصوفيا، حيث قلدته تاج "ملك الملوك" ثم قام بتقسيم العالم إلى ثمانية وثلاثين جزءا، وعين لكل منها ملكا اعتقادا منه بأنه سيحكم العالم كله من فلسطين حيث كان يقول: "أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصرا لي"⁽²⁾

والحاصل أنَّ حاخامات اليهود عارضوا معتقدات "سباتاي زفي" والتغييرات التي أدخلها على الشريعة اليهودية، وإحلاله للمحرمات وإحداثه الفوضى بين الشعب اليهودي الذي يخضع لأوامرهم، وحياتهم المعيشية المرتبطة بالشريعة اليهودية⁽³⁾، وبالرغم من شيوع دعوة "سباتاي زفي" بين اليهود، فإنَّ الدولة العثمانية لم تتدخل في كل ما جرى، وما صدر من هذا المسيح المزيف، مما يدل على استقلالية اليهود وعلى التسامح الديني، وحرية الاعتقاد في الدولة العثمانية، فضلا عن انشغال السلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687م)، والصدر الأعظم فاضل أحمد باشا بالحرب في جزيرة كريت⁽⁴⁾، ثم ظهر من يحارب دعوة "سباتاي زفي" ويقف ضده من قبل الحاخامات أنفسهم، إذ قام "نحميا كوهين" وهو حاخام بولندي كان مطلعا على كتب استحضر الأرواح بإبلاغ السلطان العثماني بأمر سباتاي واصفا إياه بأنه رجل فاجر منغمس في الملذات، ويشجع الثورة ضد الدولة العثمانية، وإقامة دولة اليهود على حساب الدولة العثمانية⁽⁵⁾.

وعندما وصلت أخبار هذه الفتنة إلى الصدر الأعظم "أحمد كوبرلي" في إستانبول أمر بالقبض عليه وإرساله إلى العاصمة تحت حراسة مشددة⁽⁶⁾، وبقي في السجن أكثر من شهرين⁽⁷⁾، وفي داخل السجن تم إجراء التحقيقات معه وشكلت المحكمة في سراي أدرنة هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من شيخ الإسلام "يحيى أفندي منقري زادة" وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر "محمد أفندي وانلي" وقام بدور المترجم من الإسبانية إلى التركية الطبيب "مصطفى حياي"⁽⁸⁾، وسأل القاضي "سباتاي": "تدعي بأنك

1- Stanford. J. Show: **The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish, Republic**, London, Mac, Millan, 1991, P 133

2- أحمد النعيمي: المرجع السابق، ص 27.

3- هدى درويش: المرجع السابق، ص 22.

4- مصطفى طوران: يهود الدونمة، ط2، ترجمة كمال خوجة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص12. أنظر أيضا:

أيضا: محمد علي قطب: يهود الدونمة، ط1، دار القلم، بيروت، 1987، ص 29-30

5- محمد حرب: يهود الدونمة، مؤسسة الدراسات التاريخية، الكويت، (د.ت) ص 20-28

6- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 12.

7- أحمد النعيمي: المرجع السابق، ص 35.

8- المرجع نفسه، ص 36. أنظر أيضا: أحمد حمدي الطاهر: مؤامرات اليهود على العرب والمسلمين، ط1، مطبعة شاهين، عمان،

1999، ص 146

المسيح فأرنا معجزتك، سنجدك من ثيابك ونجعلك هدفا لسهام المهرة من رجالنا..."، فهم سباتاي ما قيل له، فأنكر ما أسند إليه وقال: إنهم يقولوا عليه⁽¹⁾، وتم نقله إلى سجن "شناق قلعة" ليقتضي الحكم⁽²⁾، ومع ذلك فإن شعبيته لم تنقص بل ازدادت وكثر أتباعه.

ثم طلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فأذنت له، وانهزها فرصة للانطلاق باليهود ليوصل دعوته إلى الإيمان به، وحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام، مبطنين يهوديتهم، وارتدوا ملابس علماء المسلمين وأطلق عليهم لقب الدوغة⁽³⁾، وأشهر "سباتاي" إسلامه عام 1666م، وأصبح يدعى "محمد البواب"، لأن السلطان خصص له ربع وظيفة رئيس البوابين في القصر السلطاني⁽⁴⁾، ومع ذلك فإن أتباعه ومريدوه التزموا بآرائه وأفكاره، وارتدوا الجلب والعمامة، وأمرهم بالإيمان المطلق به كمسيح يهوى الحق، وأنه لا مخلص غيره، وسيدهم، وملكهم من نسل داود، كما أمرهم بقراءة مزامير داود سرا كل يوم، كذلك جعل يوم إعلان إسلامه عيداً يجب الاحتفال به احتفالاً بالغاً⁽⁵⁾، وكان قد بين لأتباعه أنه ما أسلم إلا خدعة لينجو من الموت، وراح يقنعهم بأن يفعلوا ما يفعل في كل شيء، وإبقاء يهوديتهم في قلوبهم، وقام اليهود بتلبية رغبته هذه⁽⁶⁾.

ونظراً لتزايد دعوة "سباتاي" وخطورتها على الدولة العثمانية، كان قد صدر حكماً من المحكمة بإعدامه، بيد أن شيخ الإسلام اعترض على تنفيذ الحكم، حتى لا يدعي مريدوه بعروجه إلى السماء مثل "عيسى عليه السلام" فقرروا نفيه إلى مدينة "دولسجنو" في ألبانيا وكان ذلك في عام 1673م⁽⁷⁾، ورافقه عدد قليل من رجاله فبقي هناك خمس سنوات، وكانت زوجته سارة والتي غير اسمها إلى "فاطمة" قد توفيت، فتزوج هناك بامرأة اسمها "يوهفبيد" من سالونيك وسمّاها عائشة⁽⁸⁾، وفي 30 سبتمبر عام 1675م توفي المسيح الزائف "سباتاي" عن

1- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 12.

2- علي حسون: المرجع السابق، ص 186. وأنظر أيضاً: محمد قطب: يهود الدوغة، المرجع السابق، ص 30.

3- المرجع نفسه، ص 186.

4- محمد حرب: يهود الدوغة، المرجع السابق، ص 45.

5- المرجع نفسه، ص 45.

6- عجاج نويهض: المرجع السابق، ص 523.

7- أحمد النعيمي: المرجع السابق، ص 42، أنظر: محمد قطب، يهود الدوغة، المرجع السابق، ص 42 وأيضاً انظر: عجاج نويهض: المرجع السابق، ص 544.

8- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 20.

عن عمر يناهز 49 عاما، حيث دفن على ضفاف الأنهار⁽¹⁾، ومن هنا اعتاد يهود الدوثة - أتباعه - المؤمنين بعقيدته الوقوف على ضفاف الأنهار والبحار يرددون "سباتاي زفي"، نحن في انتظارك.⁽²⁾

3- اليهود والحركة الطورانية:

أسس الأتراك دولا عديدة في مختلف أقسام آسيا عبر مراحل التاريخ المختلفة، وبعض هذه الدول انقرضت قبل أواسط القرن التاسع عشر ميلادي، باستثناء واحدة منها هي الدولة العثمانية⁽³⁾، يقر بعض المؤرخين أن الحركة القومية التركية كان لها صدا واسعا، لأنها كانت مبكرة في ظهورها عن الحركة العربية من ناحية الترتيب الزمني، ولكنها أثرت أيضا بشكل مباشر وغير مباشر في مجرى واتجاهات الحركات القومية في بقية أنحاء الدولة العثمانية⁽⁴⁾، إلا أن جذور الفكرة التركية في الأساس كانت قديمة منذ القرن الثامن عشر ميلادي.

يرى الدكتور "قيس العزاوي": أن التأسيس النظري للفكر القومي التركي كان قد بدأ قبل ذلك بكثير، وبالتالي فإن الجهود أثرت في التنقيب عن أركان هذا التأسيس وأعلامه ودوافعه إلى حقائق في غاية الأهمية نتج عن تصنيفها وجمعها رأي تدعّمه الوثائق إذ يقول: "أن الفكر القومي التركي عمل من أعمال الإثنولوجيين الغربيين واليهود".⁽⁵⁾

وما قد يثبت صحة هذه الفكرة ما ورد في "البروتوكول الخامس" من بروتوكولات حكماء صهيون الذي ينص على: "وقد خلقنا الحزاقات بين المصالح الشخصية والقومية للأغيار، أي غير اليهود عن طريق استشارة العداوات الدينية، والعنصرية التي غذيها في قلوبهم مدة عشرين قرنا⁽⁶⁾، وقد شرح "أرمينوس فاميري" عندما زار استانبول لأول مرة سنة 1856م كلمة "تركلك" (ترك) بأنها من مترادفات الفظاظ، والشكاسة، والهمجية، ويقول: "أنه لما كان يقدم على تنبيه الناس إلى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن منحدر الجنس التركي (المنتشر من أدنة حتى الباسفيك)"، كانوا يجيبونني: "ولكن بالله لا تجعلنا في مصاف القرغيز وأجلاف التتر"⁽⁷⁾.

1- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 20.

2- هدى درويش: المرجع السابق، ص 25.

3- ساطع الحصري: الأعمال القومية لساطع الحصري، المرجع السابق، ص 716.

4- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، مرجع سابق، ص 247.

5- قيس جواد العزاوي: مرجع سابق، ص 127.

6- عجاج نويهض: المرجع السابق، ص 35.

7- أرمينوس فاميري: وهو أستاذ جامعي يهودي مجري عمل في جامعة بودابست، وكان على علاقة صداقة بالسلطان عبد الحميد، وألف كتباً بالإنجليزية، وأتقن عشرة لغات، واعتنق خمسة أديان نقلا عن: قيس جواد العزاوي، المرجع السابق، ص 129.

كان لليهود أثر فعال في الحركة الطورانية إذ أنهم كانوا يضعون الخطط الهادفة إلى البحث عن الجذور الحقيقية للقومية التركية، بهدف فصلها عن تراثها، وعقيدتها الإسلامية، فاليهودي المجري "أرمينوس فامبري" تنكر بلباس درويش تركي، وطاف في أرجاء آسيا الوسطى وخرج من رحلته هذه بكتاب "رحلة درويش شاب في آسيا الوسطى"، وقد عبر من خلاله على ضرورة قيام الاتحاد القومي التركي، والذي سماه باسم "بان تركيزم" (Pan-Turkism) ويمتد من بحر إيجه حتى حدود الصين، ومن الطبيعي أن تؤيد بريطانيا ما ورد في ذلك الكتاب حفاظا على مصالحها في المنطقة، وتآمرا على الدولة العثمانية⁽¹⁾، ويتضح لنا من أفكار فامبري الخطيرة، والمؤثرة على العناصر التركية الطورانية أنه يوجه للإسلام انتقادات حادة واعتبره العائق الأساسي أمام وحدة الأتراك، ومن آرائه أن الإسلام ينافي الوطنية، وهو يقول: "لا وطن، ومن العسير أن تبني الأوطان وفقا للإسلام"، كما أن "فامبري" طالب الأتراك بضرورة التخلي عن الإسلام، لأنه ينزع عنهم الشخصية القومية⁽²⁾.

ومن بين اليهود المؤيدين أيضا للحركة الطورانية (قرصوا) "ومؤنيز كوهين"⁽³⁾، وهو من مؤسسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية، ويعتبر كتابه كتابا مقدسا للسياسة الطورانية، وزيادة على ذلك فإن "كوهين" كان نشطا جدا في التعريف بحركة الاتحاد والترقي، من خلال الصحف الأوربية، فأجاد اللغة العبرية والتركية بالإضافة إلى عدة لغات أوربية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان "الأتراك يبحثون عن روح قومية"⁽⁴⁾، بالإضافة إلى "إبراهيم جالانتي"، وكان لهؤلاء دورا هاما في جمعية الاتحاد والترقي التي قادت الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، ومن ثم تحالف اليهود مع الاتحاديين لأجل اتخاذ فلسطين وطنا قوميا خاصا بهم، وينبغي أن أشير إلى المثقفين الأتراك ذوي الثقافة الغربية، ممن شجعوا الأتراك الداعين للقومية التركية، لإحداث انقسامات داخل المجتمع التركي والعمل على إضعاف الدولة العثمانية، وعلى أثر ذلك عم الحقد والبغضاء بين الأتراك بمختلف طوائفهم وعرقاتهم.

وقد لعبت عدة عوامل دورا أساسيا في الحركة القومية التركية الطورانية لعل في مقدمتها جور أوربا على تركيا جورا سياسيا شديدا، لذلك فإن الأتراك كانوا كلما ازدادت الحملات الأوروبية على الأقطار العثمانية ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانيا في سبيله، ودفاعا عنه وحرصا على مستقبله، ومن ذلك أيضا زيادة الوعي القومي في أوربا في

1- قيس جواد الغزاوي : المرجع السابق، ص 129-130

2- المرجع نفسه، ص 129-130.

3- مؤنيز كوهين: ولد في سالونيك عام 1883 درس في مدرسة الحقوق وتخرج منها وأخذ يكتب في صحيفة "روم إيلي" بعد أن سيطر الاتحاديون على زمام الحكم وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي في عام 1905 نقلا عن السلطان عبد الحميد، إعداد محمد حرب: مؤنيز كوهين يهودي عثماني من قادة الطورانية، مجلة العربي، العدد 281، ماي 1982، ص 87.

4- المرجع نفسه، ص 87.

القرنين 18-19، والدعوة لقيام " الجامعة الجرمانية " و "الجامعة السلافية " و " الجامعة الإنجليزية " وغيرها من الجامعات المتعددة الجنسية⁽¹⁾، ناهيك عن الضغوط الأوروبية المتواصلة، وتدخلها المستمر في شئون الدولة العثمانية الداخلية، عبر المؤسسات الحديثة كدوائر البريد التي سيطرت عليها الدول الأوروبية داخل الدولة العثمانية، واستخدمتها لتوزيع واسع للصحف القومية المعارضة التي كانت تطبع في مصر وأوروبا⁽²⁾.

ومن ذلك أيضا المقالة التي نشرها الدكتور "ألفريد نوسنج" في جريدة "درتاج" الألمانية وأبرز فيها أهداف الفكرة الطورانية، وهي جعل روح القومية التركية مستقلة عن الدين الإسلامي، وجعل التركي العثماني تركيا أولا ومسلما ثانيا، وتحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية⁽³⁾، وتبغى الإشارة إلى مقولة "ضياء باشا" الذي كان من المتعصبين للقومية والحركة الطورانية ويقول فيها: "الذين ييغون اللغة العربية، فليذهبوا إلى بلاد العرب، والذين ييغون اللغة الفارسية، فليرحلوا إلى إيران... نحن أترك ينبغي أن يكون لنا لغة تركية"⁽⁴⁾.

وهكذا كان ضعف الدولة العثمانية وتدهورها اقتصاديا، وهزائمها المتتالية المتكررة في البلقان، عاملا مساعدا لدعاة القومية التركية والدعوة إليها، وسببا لتدخل الدول المعادية للدولة العثمانية، وعلى رأسها روسيا وإنجلترا، وزيادة مخططات اليهود ومؤامراتهم ضد الدولة العثمانية، وتشجيع الباحثين من أصل يهودي، من أجل إحداث شرح داخل الدولة العثمانية وتنقيتها للوصول إلى غاياتهم، وهي إقامة الوطن اليهودي في فلسطين.

وفي مقابل الحركة القومية التركية المعروفة (بالطورانية) بدأ الوعي بالعروبة يلقي اهتماما كبيرا من قبل العرب العثمانيين، ولكن هذا تطلب وقتا طويلا حتى برزت الحركة القومية العربية في مواجهة الحركة القومية التركية من خلال تأسيس الجمعيات العلمية والأدبية في بلاد الشام، وكان أشهر هذه الجمعيات، جمعية الآداب والعلوم التي تأسست في بيروت عام 1896م بجهود بعض المبشرين الأمريكيين، مثل "القس عالي سمث" و"القس وليم طومسون، و" نيلوس فان ديك"، و"الدكتور يوحنا"، وساعدهم في هذا العمل "ناصيف اليازجي"، و"بطرس البستاني"، ومن أعضاء هذه الجمعية "ميخائيل مشاقة"، و"ميخائيل مدورة" و"ميخائيل فرح الله" و"شكر الله خوري"⁽⁵⁾، أما أهداف الجمعية فكانت تتمثل في نشر الثقافة والتعليم في المدارس ورفع مستوى المعرفة، والعمل على نشر الوعي الاجتماعي في أوساط الشباب العربي من خلال اتصاَلهم بالثقافة الغربية.

1- لوثر ستودارد: المصدر السابق، ص 76-80

2- كانت مؤسسات البريد في الدولة العثمانية ملك للدولة الأجنبية، وموزعة على الشكل التالي، النمسا 30 مركزا، روسيا 24، فرنسا 20، إيطاليا 8، ألمانيا 5، إنجلترا 4، الهند 2 أنظر : السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية، المصدر السابق، ص 99.

3- محمود ثابت الشاذلي: المرجع السابق، ص 168-169

4- المرجع نفسه، ص 168-169.

5- محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة، المصدر السابق، ص 91

وكانت هذه الجمعية تعتبر أول الجمعيات العربية تأثيراً في النهضة الفكرية، والوعي القومي والسياسي العربي⁽¹⁾، كما كان لها أهدافاً أخرى مثل قيام المعلمين بإلقاء المحاضرات أمام طلبة العلم الذين كانوا يفدون من أماكن مختلفة وبعيدة، وأصدرت كتاباً تضمن الأعمال الصادرة عنها وتلخيصاً موجزاً لكل بحث أُلقي في اجتماعاتها، واقتصرت عضوية هذه الجمعية على المسيحيين، وأصبح لها مجلة باسم " المجلة السورية"، ولم تستمر في الصدور، إذ سرعان ما أغلقت بعد مرور خمس سنوات من تأسيسها⁽²⁾.

ثم يأتي دور الجمعية العلمية السورية التي تأسست عام 1898م، على أنقاض الجمعية السابقة بعد حلها، وشملت عضويتها المسلمين والمسيحيين، مثل حسين بيهم، والدروز مثل محمد أرسلان، والمسيحيون مثل بطرس البستاني، وناصيف اليازجي. وكان حسين بيهم ومحمد أرسلان يتعاقبان على الرئاسة، وقد ضمت من الأعضاء أديب إسحاق، وإسكندر عازار، وفارس نمر، ويعقوب صروف، وإبراهيم اليازجي، وكثير من المدن الرئيسية في بلاد الشام، والقاهرة والإسكندرية، ونالت اعترافاً رسمياً من الحكومة العثمانية عام 1875م، وانضم إليها بعض الساسة الأتراك أمثال: فؤاد باشا، وصفوت باشا، وقد وصل عدد أعضائها إلى 150 عضواً، وأذن لها بنشر أعمالها⁽³⁾.

ولقد كان من أهداف تلك الجمعية تنشيط المعارف، وتعميم الثقافة بين أبناء الشبيبة العربية، والارتقاء بالأمة العربية، وزيادة عدد المدارس⁽⁴⁾، وتولى أعضاؤها إلقاء المحاضرات في الأدب والتاريخ، وأنشأت لها مجلة باسم "مجلة العلوم" لنشر محاضراتها وندواتها⁽⁵⁾، ولكن الجمعية بعد فترة زمنية انتقلت من المجال الأدبي إلى المجال السياسي، فأخذت تعقد الاجتماعات السرية عام 1868م، حيث أُنشأت نشاطها بعد حوادث عام 1860م، وبرز دورها في إثارة الوعي القومي الوطني في النفوس، للعمل على بث التراث العربي والاعتزاز به⁽⁶⁾، وكان هذا واضحاً عندما عبّر الشاعر إبراهيم اليازجي ابن ناصيف اليازجي عن يقظة الأمة العربية، وأسهم في إثارة الشعور القومي في إحدى قصائده الحماسية⁽⁷⁾، وتقول القصيدة :

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

1- توفيق علي برو: القومية العربية في القرن 19، المرجع السابق، ص 136

2- جورج أنطونيوس: المصدر السابق، ص 117

3- المصدر نفسه، ص 119. أنظر أيضاً: -المقتطف، ج7، السنة فيفري 1883، ص391.

4- محمد عزة دروزة: نشأة الحركة العربية، المصدر السابق، ص 92، أنظر أيضاً: عبد الكريم غرايبة: المرجع السابق، ص 210-221

5- فليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج1، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913، ص 75

6- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، مطبعة الهلال، القاهرة، 1930، ص 69-70، وأيضاً أنظر: لويس شيخو: السر

المصون في شيعه الفرسمون، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1910، 43.

7- عادل الصلح: المرجع السابق، ص 36.

كم تظلمون ولستم تشكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

فشمروا وانفضوا للأمر وابتدروا من داهم فرصة ضنت بها الحقب⁽¹⁾

وقامت الجمعية بتوزيع المنشورات في بيروت عام 1875م منددة بسياسة حكم الأتراك، وتحث العرب على مقاومتهم من أجل استقلال سوريا ولبنان⁽²⁾، وتولى توزيع المنشورات خمسة شبان من خريجي الكلية البروتستانتية وهي أول عمل ثوري يشير إلى مساوئ الحكم التركي⁽³⁾، وأهم ما تضمنته: "إن رجال الدولة التركية يقهرونكم ويمتصون دماءكم ويسلبون ممتلكاتكم ويغتصبون نساءكم وحتى أطفالكم، وبدلاً من تنفيذ وعودهم بالإصلاحات فإنهم يخادعونكم ويتسلطون عليكم ويطالبونكم بدفع ضرائبكم مقدماً بحجة أنهم يدافعون عن حقوق بلادكم.. إلخ⁽⁴⁾".

ومن الجمعيات ذات الأثر القومي "جمعية المقاصد الخيرية" في دمشق والتي تأسست عام 1878م، وتهدف إلى نشر وتأسيس المدارس العربية للبنين والبنات، والاهتمام بجمع الكتب والتراث العربي في مكتبة عامة، وهي "مكتبة الظاهرية" بدمشق، وإلى جانبها تأسست "الجمعية التاريخية السورية" بدمشق عام 1875م، لتشجيع البحث التاريخي العربي على أسس قومية⁽⁵⁾، كذلك تم إنشاء "جمعية شمس البر" في بيروت عام 1869م، والتي كانت فرعاً لجمعية الشبان المسيحية (Youth Christian Society) في إنجلترا، كانت تشترط في عضويتها بعض الأمور الدينية، وفي عام 1874م أنشأت لها في دمشق جمعية باسم "جمعية رباط المحبة" فكانت أول جمعية أنشئت في دمشق⁽⁶⁾.

1- توفيق على برو: القومية العربية في القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص 198

2- محمد دروزة: نشأة الحركة العربية، المصدر السابق، ص 92.

3- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، ص 297.

4- أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون: العلاقات العربية التركية من منظور تركي، ج 2، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1993، ص 130.

5- عبد الكريم عزابيه: المرجع السابق ص 222-223 أنظر: المقتطف ج 7، السنة 7، فبراير 1883، ص 391.

6- جرجي زيدان: المصدر السابق، ص 70.

كما كانت هناك جمعية أخرى وهي " جمعية حقوق الملة العربية " والتي أنشئت عام 1881م، حيث كانت تضم أعضاء من المسلمين والنصارى على حد سواء، غدا لها فروعاً سرية في دمشق وطرابلس وصيدا، وكانت تدعو إلى عدم الاستكانة بظلم الترك وتهيب بوحدة العرب واستلهمهم أجماعهم القومية⁽¹⁾.

وينبغي الإشارة إلى أن مؤسسي جمعية بيروت السرية كانوا أعضاء في المحفل الماسوني ويشركون المحفل في أعمالهم⁽²⁾، على أن توافد الرسائل التبشيرية الأجنبية إلى بلاد الشام وما أحدثته من نهضة ثقافية وفكرية من خلال المدارس والكتليات، وانتشار الوعي، كان له الأثر في بروز جيل قاد حركة النهضة الأدبية وأهم روادها: ناصيف اليازجي، بطرس البستاني أحمد فارس الشدياق، أديب إسحاق، الشيخ يوسف الأسير، رزق الله حسون وفرانسيس مراش، وغيرهم من الذين أسهموا في بناء الوعي بالعروبة.

ولهذا فعندما أدرك السلطان عبد الحميد زيادة التدخل الأجنبي في بلاد الشام بحجة حماية الأقليات الدينية، ونوايا الأوربيين الحقيقية، أصدر أمراً عام 1888م بإغلاق مدارس المغتربين في الشام، وإلغاء الصحف التي تصدر من قبل أحزاب داخلية وطائفية، ومنع أية منشورات تدعو للأفكار الانفصالية القومية، والتي كانت تروجها جمعية بيروت السرية، وجمعية المقاصد الخيرية، وجمعية النهضة العربية⁽³⁾.

ويبدو محتملاً أن هذه الدعوات التي أخذت تنادي بالقومية كانت بتحريك من اليهود والماسيين لإحداث شرخ في العلاقة العربية - التركية، وهناك بعض الزعماء والكتاب والشعراء الذين تنبهوا لخطر الدعوة القومية، لما لها من أهداف خطيرة، كالزعيم المصري مصطفى كامل، والمصلح الكبير جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، والشاعر أحمد شوقي الذي كان يفخر ويعتز بانتصار القوات العثمانية على اليونان عام 1897م، وهو ما كتبه في قصيدة شعرية:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله إيان يضرب

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوب

1- مختارات قومية لمحمد عزة دروزة: تحرير ناجي علوش، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، ص 388. لمزيد عن تفاصيل المنشورات المناوئة للترك راجع نفس الكتاب ص 289-390

2- رفيق شاعر التنشئة: المرجع السابق، ص 146

3- محمد حرب: المرجع السابق، ص 243-246

وكان منسوباً إلى دولة القنا فليس شيء سوى العز ينسب⁽¹⁾

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء المنادين بالقومية العربية تتلمذوا في مدارس الإرساليات، وتأثروا بالثقافة والأفكار الغربية، ومطالبهم كانت تعبر عن سياسة قادة وزعماء الإرساليات بخلق فتنة تؤدي في النهاية إلى إضعاف الدولة العثمانية وتحقيق أهدافهم في السيطرة، واستعمار المنطقة العربية، وهو ما حدث فعلاً لفرنسا وبريطانيا في فترة لاحقة.

4- يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي

كان اليهود قد تعرضوا من قبل للطرد من إسبانيا بعد سقوط الحكم الأموي في الأندلس وتم تقييدهم بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد، فتحول البعض إلى المسيحية وآثر البعض الآخر مغادرة البلاد وعددهم ثلاثمائة ألف، وصلوا إلى أراضي الدولة العثمانية وعددهم مائة ألف فقط⁽²⁾.

وقد استقر أولئك المهاجرين من إسبانيا في أزمير ومنطقة أدرنه وبورصة والمناطق الشمالية والغربية من الأناضول، وتمتعوا بالحرية الدينية وممارسة أعمالهم المختلفة، وتغلغلوا في المراكز الحساسة الهامة في الدولة وكان للحاخام " جوزيف ناسي " نفوذاً كبيراً حتى أن مراسم قراراته كانت تصادق من قبل الحكومة، لدرجة أنها تحولت إلى قانون يخص اليهود⁽³⁾، وتمركز قسم كبير منهم في سالونيك، وعمل كثير منهم في الكلية الأكاديمية الطبية في "سلامانكا"، وأصبحوا أكثر أطباء القصر تأثيراً، كما أنهم عملوا مترجمين في القصر السلطاني⁽⁴⁾، وفي ظل سياسة التسامح الديني التي وفرتها لهم الدولة العثمانية، تمتعوا بمعاملة طيبة وقاموا ببناء حوالي 50 مدرسة بلغ عدد طلابها 900 يتلقون التعليم الأساسي غالباً باللغة الفرنسية⁽⁵⁾، وعندما امتزجت الطوائف تطلع اليهود لدراسة اللغة التركية، وأخذوا يستخدمونها فيما بعد في معاملاتهم الرسمية⁽⁶⁾، وفي تلك الفترة امتلك كبار التجار منهم المحلات التجارية في أزمير وسالونيك وإستانبول، وأصبح بمقدور يهود إستانبول منافسة الصدر الأعظم والوزراء الأتراك في المنازل الفخمة، وإدارتهم العديد من الأنشطة وتولي الوظائف الهامة في الدولة⁽⁷⁾.

1- توفيق برو: القومية العربية، المرجع السابق، ص 172

2- صالح زهر الدين: اليهود في تركيا 500 عام، ط1، دار الصداقة للترجمة والنشر، حلب، 1999، ص 10

3- أحمد النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998، ص 37

4- Salahi Sonyel: **Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire**, Ankara, Turkish Historical Society, printing House 1993, p 50-51

5- Mete Tuncay Erik Zurcher :op.cit, p51

6- David Kushner: op.cit, p94

7- أحمد النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 37.

وكان من ضمن وسائل تغلغلهم في الإدارة العثمانية أن أهدى تثار بلاد القرم السلطان "سليمان القانوني" في القرن السادس عشر الميلادي فتاة يهودية روسية، كانوا قد سبوا في غزواتهم فتزوجها السلطان، وأنجبت له بنتا وما إن كبرت حتى زوجها أمها اليهودية من اللقيط الكرواتي "رستم باشا"، ثم تمكنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونصبت صهرها اللقيط بدلا منه، ثم قامت بتدبير مؤامرة أخرى فخنقت ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى، ونصبت ابنها سليم الثاني وليا للعهد، وهو الذي تولى قيادة الدولة العثمانية في بداية الانحطاط⁽¹⁾.

5- مشاركة اليهود في مؤتمر باريس 4 فيفري 1902م:

لقد حاول الأمير "صباح الدين" إجراء مباحثات مع جمعية الاتحاد والترقي وتوحيد الصفوف من أجل عقد مؤتمر واحد يضم كل الأتراك الشبان، انعقد في النهاية بباريس 4 فيفري 1902م، في منزل أحد الفرنسيين الذي كان صديقا للأتراك⁽²⁾.

شارك في هذا المؤتمر ممثلون عن الأتراك والأرمن واليونان والعرب والألبان والأكراد واليهود⁽³⁾، بالإضافة إلى ممثلين عن المنظمات الثورية الأرمنية خاصة (الهنشاك Henchak و الداشناك Dashnak)⁽⁴⁾، ومن جانب آخر كان يمثل اليهود في المؤتمر "ألبرت فوا" الذي تلقى دعوة للحضور، بسبب إسهاماته ومشاركته الطويلة في الجمعية⁽⁵⁾، وقد مثل الجانب العربي في المؤتمر "خليل غانم"⁽⁶⁾، والدكتور "أنور كارال"، وعن الأتراك الشبان "يوسف أقورا"، و"فريد بك" والدكتور "ناظم السلانيكي" والدكتور "رفيق نوزات" و"إبراهيم تيمو"⁽⁷⁾، ولو أن حسن كلشي يقول: "بأنه لم يحضر بدليل عدم وجود إشارات في مذكراته تؤكد عدم حضوره"⁽⁸⁾.

1- علي حسن: المرجع السابق، ص 184

2- ENVER Karal: op. cit, p 521

3- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 33

4- المصدر نفسه، ص 33

5- Erik. J. Zurcher: TheUnionist Factor, op. cit, p17

6- ENVER Karal: op. cit, p 521.

7- Ibid, p 521.

8- حسن كلشي: المصدر السابق، ص ص 33-34

6- العلاقة بين اليهود وجمعية الاتحاد والترقي:

في خضام العلاقة بين جمعية الاتحاد والترقي واليهود فقد كان هناك اتفاق بين الكتاب، في كون أن أقطاب الجمعية كانوا من يهود الدونمة، أو من تلاميذهم وحملة آرائهم، والمنفذين لمخططاتهم⁽¹⁾، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسي " جان بروان " أن الدونمة هم من أصحاب المصيدة، أذكى الأقوام والأجيال التي تعيش في مدينة سالونيك، انتسب معظمهم إلى جمعية الاتحاد والترقي⁽²⁾، وكان من بين هؤلاء القادة اليهود أنور باشا مثلاً الذي لم يكن تركياً، بل هو ابن رجل بولندي، إضافة إلى أن جاويد بك كان من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة و"إمانويل قرصوا" وهو من اليهود الإسبان القاطنين في سالونيك، وكان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، كما كان مسئولاً أمام الجمعية عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد، وتأمين التخابر بين سالونيك وإستانبول⁽³⁾، بالإضافة إلى كل من " نسيم روسو " ونسيم مازلياح " وهما يهوديان كانا من العناصر المؤسسة والفعالة في حركة " تركيا الفتاة " وقد أكدت الأحداث المعاصرة بشكل واضح عظم نفوذ اليهود وكثرتهم الغالبة في هذه الحركة⁽⁴⁾.

وفي هذا الصدد يقول "أبراهام جالانتي" كما ورد في مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني قائلاً: "عن بعض دور اليهود في تأييد جمعية الاتحاد والترقي"، ويضيف قائلاً: "إن من أهم واجبات الجمعية الإسرائيلية بمصر إدخال المطبوعات التي تتأجج السلطان عبد الحميد داخل حدود الدولة العثمانية خاصة مطبوعات تركيا الفتاة"⁽⁵⁾، ولقد حصلت جمعية الاتحاد والترقي على مساعدات مالية من يهود الدونمة، الذين كانوا يمتازون بامتلاكهم الكثير من الثروات خصوصاً امتلاكهم التجارة سالونيك⁽⁶⁾، وقد ذكر "أرمسترونج" أن أعضاء الاتحاد والترقي دأبوا في معظم الأوقات الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر⁽⁷⁾، وهكذا استغل اليهود نفوذهم نفوذهم في البلاد المنتشرين فيها، وتجنسوا بجنسيات مختلفة وساعدوا الجمعيات السرية المعادية للدولة العثمانية⁽⁸⁾.

1- محمد علي قطب: المرجع السابق، ص 36

2- المرجع نفسه، ص 37

3- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 116، أنظر أيضاً: مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 6

4- المرجع نفسه، ص 117

5- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 12

6- محمد علي أورخان: المرجع السابق، ص 286

7- Govsa Ibrahim Alaettin: **Türk MeshurLariAnsiklopedisi**, Türk Ansiklopedisi 30 cilt, Istanbul 1989, pp 111-112

8- علي حسون: المرجع السابق، ص 187

ويمكن تفسير اختيار سالونيك مقرا لنشاط الجمعية، في أنها أكثر مناطق الدولة تقدما واتصالا بالعالم الخارجي، وإلى ضعف سيطرة الدولة العثمانية عليها، باعتبارها تحت الوصاية الدولية بمقتضى اتفاقية مع السلطان، خدمة لمصالح الدول الأوروبية الاستعمارية في ظل ما يسمى بالامتيازات الأجنبية، علاوة على ذلك أن نصف سكانها تقريبا كانوا من اليهود إلى جانب تزايد نشاط الحركات القومية في البلقان⁽¹⁾، فالإيطاليون الماسون بذلوا جهودا كثيرة في تمويل الحركات الثورية المناوئة للدولة العثمانية بالأموال الضخمة التي كانت ترد إليهم من مصادر مجهولة⁽²⁾.

وتعترف بريطانيا بوضوح وبشكل علني بالدور الفعال لنشاط اليهود في جمعية الاتحاد والترقي، وهذا ما أكدته لاوثر (Lowther) في رسالته إلى وزير خارجية بريطانيا: "إن حركة تركيا الفتاة هي في جوهرها وأساسها حركة يهودية وتركية تعارض العناصر الأخرى، كالعرب والبلغار والأرمن..."، وكان من المؤمل في البداية أن يؤلف الأرمن والبلغار واليونان واليهود العثمانيون للدعامة الاقتصادية للبلاد، ولكن يظهر أن جمعية الاتحاد قد تحالفت مع اليهود العثمانيين والأجانب وعادت العناصر الأخرى ويضيف لاوثر قائلا: "لقد قدم اليهود الأموال إلى الأتراك الشبان، وبهذا أحكموا سيطرتهم عليهم"، ولكن لكي يحافظوا على هذه السيطرة لابد أن يتظاهروا على الأقل بأنهم يوافقون على تحقيق الأتراك الشبان لأحلامهم القومية والسرية⁽³⁾.

وفي الحقيقة أن العرب شعروا بمدى خطورة تغلغل يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي، وهذا ما أكدته صحيفة "يقظة العرب" الصادرة في باريس، بأن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا مرتبطين مع اليهود ومع الحركة الماسونية، وأوضحت الصحيفة أن الاتحاد والترقي يهيمن عليها اليهود هيمنة كاملة⁽⁴⁾، وعلاوة على ذلك فإن الأتراك أدركوا حقيقة ونوايا يهود الدونمة ومدى تزايد نفوذهم وخطرهم على الدولة العثمانية والمجتمع. فقد شنت صحيفة "سبيل الرشاد" هجوما ضدهم واصفة إياهم بالافتقار إلى العفة والحياء، ومنهم من تقطعت صلته بأهله وأسرته" وأضافت الصحيفة أيضا أنهم يظاهرون الإسلام حتى يضمنوا بقاءهم بين المسلمين، للحصول على مكاسب ضخمة ويلقبون أولادهم بألقاب إسلامية، مع العلم أنهم لا يرتبطون بأي علاقة بالإسلام من خلال

1- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 119.

2- عبد الله التل: المرجع السابق، ص 85.

3- رسالة لاوثر (Lowther) إلى وزير خارجية بريطانيا، مجلة آفاق العربية، العدد 9، 1978، ص 91-92. أنظر أيضا:

Govsa Ibrahim Alaettin : op. cit, pp 111-112

4- نيفل مندل: مواقف العرب والأتراك من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بين عامي 1882 - 1914، ترجمة مكي حبيب المؤمن، مجلة الدراسات الفلسطينية، بغداد، العدد 28، جانفي 1978، ص 31

سياستهم الخفية بهدم المبادئ الإسلامية والانتقام والتآمر وإفساد حياة المسلمين وتدمير المجتمع⁽¹⁾. واستمروا في إعداد المخططات والمؤامرات، والتي كانت ضد الدولة العثمانية بإثارة الأقليات غير المسلمة مثل الأرمن ضد حكم السلطان عبد الحميد، بهدف تكوين دولة أرمنية داخل الأناضول ودعم الطوائف المسيحية في التمرد على الدولة العثمانية⁽²⁾.

وفي ذات الوقت كان اليهود يقومون بخلق الأكاذيب والأضاليل وتزويد الدولة بمعلومات كاذبة عن الأرمن، ومن هؤلاء المحامي "اعانويل قراصو"، الذي كان يقدم عشرات التقارير التي يتهم فيها الأرمن بالتجسس أو لتهريب الأموال إلى الخارج، أو محاولة اغتيال السلطان، كما كان اليهود يسارعون بدفع الرشاوي إلى المحققين بهدف طمس الحقيقة، إذا ما حاولت الدولة التحقق من هذه الأمور⁽³⁾، وكان أيضا من أهدافهم تمجيد الحضارة الغربية وتشجيع تغريب تركيا، والبعد عن المظاهر الإسلامية، في الوقت الذي قام فيه أساتذة اليهود بتلقين الشباب التركي المبادئ والاتجاهات الفكرية الغربية⁽⁴⁾.

ومن الأهمية بالقول أنهم حاولوا إرغام الطلاب الأتراك للانضمام إلى صفوفهم عن طريق رشوتهم وإغرائهم بالأموال، ومن يأبى مجاراتهم، كانوا يلفقون له التهم بانضمامه إلى الجماعات السرية المناهضة للدولة العثمانية.

1- موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، 1984، ص 249.

2- هدى درويش: المرجع السابق، ص 35

3- Govsa Ibrahim : op-cit, p115

4- Ibid, p115

- الفصل الثاني: الماسونيون في جمعية الاتحاد والترقي.

تعد الجمعيات والمنظمات السرية من أهم أسلحة اليهود التي استخدموها في سبيل تحقيق مآربهم، وتنفيذ مخططاتهم ضد المسلمين بوجه خاص والانسانية بوجه عام، فالتاريخ يشهد بأن لليهود براعة فائقة في مسيرات الظلام، وأنهم لعبوا في الخفاء دورا هاما لتحقيق أهدافهم يفوق في خطورته الدور الذي لعبوه في العلانية، فلا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا وكان اليهود خلفها، وقد تولى اليهود أنفسهم إنشاء هذه الجمعيات، أو يوعزون بإنشائها أو يجدون جمعيات قامت لغرض أو لآخر فيندسون فيها وينفثون فيها سمومهم ويوجهون الوجهة التي يريدونها.

فكما كان اليهود وراء عشرات الجمعيات والمنظمات السرية التي قامت في أوروبا منذ قرون لهدم المسيحية مثل جمعية فرسان المعبد، وجمعية الصليب الوردی، وغير ذلك من الجمعيات السرية. كانوا أيضا منذ قرون وراء الكثير من الجمعيات السرية الهدامة التي أوقعت بالمسلمين أبلغ الأضرار مثل: القرامطة، الحشاشين، الرواندية وغيرها من الجمعيات والحركات السرية، التي اتخذت الكثير منها التشيع ستارا لها، ونسجت خلفها ألوانا من الترهات، والأباطيل بقصد الكيد للإسلام والمسلمين.

إن اليهود كانوا وراء كثير من الجمعيات، والمنظمات السرية الهدامة الموجودة الآن، والتي بذلت وما زالت تبذل جهدا كبيرا لتحقيق أهداف اليهودية العالمية، وليست الماسونية إلا واحدة من هذه المنظمات اليهودية السرية بل هي من أهمها فقد كان لها دور فاعل في تنفيذ المخطط الصهيوني وما زالت تستكمل هذا الدور بكل جدارة واقتدار. فما هو الدور الذي لعبته داخل الدولة العثمانية لإسقاطها؟

1- الماسونيون في الدولة العثمانية:

في الحقيقة أن عددا من الماسون في الدولة العثمانية كانوا يتقلّدون أعلى المناصب في الدولة، لاسيما منصب الصدر الأعظم "رئيس الوزراء"، والمستشار الأول للسلطان⁽¹⁾، وعلى رأس هؤلاء الصدور العظام، الصدر الأعظم "سعيد جلبي"، والصدر الأعظم "مصطفى رشيد باشا"، و"محمد أمين عالي باشا" وغيرهم. وبهذا تغلغت الماسونية داخل الدولة العثمانية خدمة لأغراضهم⁽²⁾، ولهذا فإن إنجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق كبار رجال الماسونية الأتراك ومنهم "فؤاد باشا"، و"مدحت باشا"، و"أحمد وفيق باشا"، و"خير الدين التونسي باشا"،

1- عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق، ج 1، ص 358.

2- علي حسون : المرجع السابق، ص 192

و"إبراهيم حقي باشا"، و"نامق كمال بك"، و"ضياء باشا"، وكانت أيضا تتعاون مع "مدحت باشا"، حيث أنهم كانوا يأملون من ورائه فوائد عظيمة، وكان لإنجلترا كما هو معروف تأثير كبير على الدولة⁽¹⁾.

وقد لعبت المحافل الماسونية مع يهود "الدوغة دورا هاما في وضع التخطيط والمؤامرات، ضد الدولة العثمانية، وخلع السلطان عبد العزيز الذي كان رئيسا للماسونيين الأتراك، وكانت الماسونية بمثابة العقل المدبر، كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول، لنفوذها الكبير في أوساط الباب العالي، وبين الأتراك الشبان.⁽²⁾

وعندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني عرش الدولة العثمانية، اتخذ موقفا عدائيا كبيرا من الحركة الماسونية ونشاطها، حيث كان معارضا معارضة شديدة لها، لأنه كان يرى فيها جمعية سرية سياسية خطيرة في آن واحد⁽³⁾، وكانت تلك القيود المفروضة والمشددة على الأحزاب والجمعيات لا سيما الماسونية تهدف إخضاعها للمراقبة، ولكن حماية الدول الأوروبية لها لا سيما إنجلترا، كان يخفف من قيود المراقبة⁽⁴⁾.

وقد أوضح "رفعت أتلخان" أسباب معارضة السلطان عبد الحميد للماسونيين معارضة صريحة وواضحة، لما لها من دور مؤثر في تأييدها للأحزاب الثورية داخل الدولة، وإثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية، متخذة من الافتراءات والأكاذيب سلاحا لها، وكانت لهذه الأكاذيب والافتراءات من القوة ما لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها الجارف، وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات "لا حرية في الدولة العثمانية والاستبداد يخيم عليها... السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميها من نوافذ القصر إلى البحر"⁽⁵⁾. ولكن المؤرخ "نظام الدين نظيف" يذكر أن اليهود من خلال الماسونية لجؤوا إلى الدعاية الكاذبة ضد السلطان عبد الحميد الذي كان عدوا للماسون، ولم تترك أبواق الماسون عيبا من عيوب الحكم إلا وألصقته بحكم عبد الحميد، ووصفوه بالسلطان الأحمر المستبد الظالم⁽⁶⁾.

ومن الأهمية بما كان القول أن المحافل الماسونية مثل "ريزورتا" في سالونيك ومحفل باريس وجنيف ومحفل فلورنسا لعبت دورا هاما، بحيث استطاعت عن طريق جمعية الاتحاد والترقي الاتصال بالمؤسسات الهامة في الدولة

1- Izzet Nurigun: **Yalcin Celikler , Masonlukve Masonlar** , Istanbul, 1968, pp 17-21

2- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 72

3- Elie Kedourie: **Arab Political Memories and other studies**, London Frank cass , 1974, p 249.

أنظر أيضا: حسان حلاق: المرجع السابق، ص 74، أنظر: محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 159.

5- جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية ، ترجمة نور الدين رضا الواعظ سليمان محمد أمين القابلي، كركوك، العراق، 1376 هـ، ص 58-57

6- عبد الله التل: المرجع السابق، ص 78

العثمانية، وجعلت الفئات المنحرفة من البكتاشيين، الملاميين، والكاشناسيتين، وكذلك بعض أصحاب الطرق والضباط والوزراء والشعراء والكتاب والمحامين تنتسب إلى محافلها وتعتنق الماسونية. وكان على رأس هؤلاء "طاهر البورسلي" أحد مؤسسي جمعية الوطن والحرية "ملامي"، و"شيخ الإسلام" موسى كاظم، و"شيخ الإسلام" خيرى أفندي، والفيلسوف "رضا توفيق" و"كاظم نامق" بكتاشيون ماسونيون، بالإضافة إلى "طلعت باشا"، و"سليمان عسكري" و"وهيب باشا" والملازم "عاطف" الذي قتل قائد الجيش الثالث "شمسي باشا"، وبطل الحرية "نيازي"، والبكباشي "أيوب صبري" والثوار الأرناؤوط كانوا كلهم ماسونيون⁽¹⁾.

وقد بلغ انتشار الماسونية وتغلغلها في أوساط المجتمع التركي درجة ملحوظة، إذ بلغ عدد الماسون الأتراك المسلمين عام 1882م نحو عشرة آلاف شخص، كان من بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسلمين⁽²⁾، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع في عام 1894م إغلاق جميع المحافل الماسونية، ما عدا محافل سالونيك لارتباطاتها الدولية مع دول ومحافل أوروبا مثل: إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا، ونظرا لسيطرة الماسونيين على مجلس إدارتها، وما تسببه من خطر على الحكم العثماني، أصدر السلطان أوامره عام 1895م، وقررت لجنة التفتيش في ولايات الروملي لزوم تعيين أعضاء لمجلس إدارة ولاية سالونيك زيادة عن الموجودين، وأحيلت الكيفية إلى المرجع الإيجابي⁽³⁾.

2- المحافل الماسونية في الدولة العثمانية:

ويبدو أن كثرة الأدلة التي تثبت صلة اليهود بالماسونية هي التي دفعت "هولت زنكر" رئيس محاكم فيينا ليعبر عن ذلك بسخرية في قوله: "إن من بين الماسونيين المائة في فيينا مائة واثنين من اليهود"⁽⁴⁾.

وحيث أنه لم يعد هناك مجال للشك في أن الماسونية لا تعدوا كونها إحدى المنظمات السرية الهدامة التي أسسها اليهود تواصلا مع تاريخهم الحافل بالمكائد والدسائس وخادما لمصالحهم الصهيونية الاستعمارية⁽⁵⁾، لذا فلا

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 30-31

2- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 75 أنظر: محمد الزعي: الماسونية في العراق، دار الجيل، بيروت، 1983، ص 74-75

3- المرجع نفسه، ص 75

4- جواد آتليخان: المصدر السابق، ص 52.

5- أسعد السحمراني: الماسونية نشأتها وأهدافها، الطبعة الثالثة، دار النفائس، بيروت، 1992م، ص 80.

فلا يستغرب أن كان لها اليد الطولى في تنفيذ المخطط اليهودي الصهيوني الذي استهدف الخلافة الإسلامية، ودولتها - العثمانية - التي حالت بين اليهود وأطماعهم في أراضيها⁽¹⁾.

أما عن زمن دخول الماسونية إلى الدولة العثمانية فقد اختلفت المصادر التي أرخت لهذا الحدث فمنها من يرجعه إلى عهد السلطان بايزيد الثاني (1481 - 1512م) حيث أنشأ يهود سلانيك في مدينتهم أول محفل ماسوني⁽²⁾، وكان ذلك عام 1683م، وبهذا يكون محفل تركيا قد سبق محفل إنجلترا بحوالي أربعة وثلاثين عاما، وبعده انتشرت المحافل في أرجاء الدولة العثمانية⁽³⁾، ووضح الأب "لويس شيخو" موقف الدولة العثمانية من الماسونية بقوله: "كانت تركيا من بين أول الدول التي ناهضت الماسونية، وأن بين قوانينها ما تحت حجاب الظلمة وإذا بلغهم شيء من أمر تلك الجماع أسرعوا إلى إلغائها وتشتيت شمل أصحابها"⁽⁴⁾، ووصف أحد الأتراك عملية انتشار الماسونية في الدولة بأنها تخدير للشعوب بالحشيش اليهودي⁽⁵⁾، وتذهب أخرى إلى أن بداية النشاط الماسوني في الدولة العثمانية يعود إلى عهد السلطان أحمد الثالث (1703 - 1730م)، حيث أسست أول جمعية ماسونية في عام 1717م في العاصمة استانبول، وكانت مرتبطة بالمشرك الفرنسي، واستمرت قائمة حتى عام 1800م حيث أغلقت بعد قيام الثورة الفرنسية⁽⁶⁾.

وكان ثاني محفل ماسوني تم افتتاحه في تركيا في عهد السلطان "أحمد الثالث (1703-1730م) في أزمير 1737م يتبع ماسون فرنسا، كما تأسس محفل في منطقة "غلطة" بإستانبول عام 1738، وكان أول أعضاؤه إبراهيم متفرقة و(سعيد جلبي بن يكرمي ساكيز محمد جلبي)⁽⁷⁾، وكذلك تم تأسيس محفل في جزيرة كورفو (Kurfu) حمل اسم محفل "فيثاغورث" عام 1837م، وهذا المحفل عول عليه كثيرا⁽⁸⁾، وتأسست محافل أخرى في إستانبول وكانت تابعة لمحفل الشرق الأعظم الإنجليزي، وبعضها الآخر للفرنسي أو الإيطالي⁽⁹⁾.

1- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 230. أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ص 229.

2- داود عبد الغفور سنقرط: المرجع السابق، ص 129.

3- محمد زغروت: دور يهود الدونمة في إسقاط الخلافة العثمانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1991، ص 23.

4- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 72.

5- خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني، ص 44.

6- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 176.

7- محمد نور الدين: شؤون تركيا، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، العدد 11، ربيع 1994م، ص 28، أنظر: محمد الزعبي: الماسونية منشئة ملك إسرائيل، مؤسسة مطابع معنوق، بيروت، 1978، ص 101، أنظر أيضا: صالح زهر الدين: المرجع السابق، ص 20.

8- لويس شيخو: المصدر السابق، ص 32.

9- المصدر نفسه، ص 32.

هذا وقد نجحت بعض المؤسسات الماسونية في الغرب في إيقاع عدد من كبار الشخصيات العثمانية في شباكها، فأصبح هؤلاء خير عون للماسون في توسيع نطاق نشاطهم في الدولة العثمانية، ومن ذلك على سبيل المثال أن أحد المحافل الماسونية في بريطانيا استطاع أن يوقع بـ "رشيد باشا" سفير الدولة العثمانية في بريطانيا، حيث انتسب إليه في عام 1852م وعندما عاد إلى بلاده أسس جمعية ماسونية في استانبول بالتعاون مع السفير البريطاني في الدولة العثمانية⁽¹⁾.

وتعددت المحافل في استانبول في القرن التاسع عشر، وهي محافل فرعية منها المحفل الشرقي رقم 687، والذي كان تأسيسه عام 1856م، ومحفل البلور رقم 891، والذي كان تأسيسه عام 1861م، ومحفل الفضيلة رقم 1041، والذي كان تأسيسه عام 1864م⁽²⁾، وبلغ عددها في استانبول 9 محافل، ثلاثة منها تابعة للمحفل للمحفل الأعظم الإنجليزي المتحد، وثلاثة تابعة للشرق الأعظم الفرنسي، واثنان تابعان للشرق الإيطالي الأعظم، وواحد تابع لمحفل إيرلندا الأعظم⁽³⁾.

وفي محفل "ريزتورا المقدوني"، ومؤسسه قارصوا اليهودي السالونيككي⁽⁴⁾ بالتعاون مع الماسونية الإيطالية، كان هدفه هو فرض النفوذ اليهودي غير المستساغ على الأوضاع الجديدة داخل الدولة، وكان يتظاهر بأنه يريد مساعدة رجال الاتحاد والترقي في تضليل السلطان عبد الحميد⁽⁵⁾.

ويفسر اختيار ولاية سالونيك كمحفل أولي لليهود لأنها ثغرا تجاريا هاما في تركيا، حيث كان اليهود هناك يمثلون أكثرية سكان هذه الولاية، وبلغ عددهم 70 ألف يهودي من مجموع 100 ألف من سكانها الأصليين، وكان هذا العدد بإمكانه أن يقوم بدور كبير في تحقيق مطامحه، علاوة على ذلك فقد وجدت في هذه الولاية عدة

1- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 176.

2- جرجي زيدان: تاريخ الماسونية العام ونشأتها إلى اليوم، ط1، بيروت، دار الجيل، 1982، ص 14-15.

3- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 30.

4- إيمانويل قراصو: يهودي اسباني الأصل كان يتمتع بجنسيتين الإيطالية والعثمانية، وهو الأستاذ الأعظم لمحفل مكدونيا ريزوتورا في سالونيك وكان من أوائل المشتركين في جمعية الاتحاد والترقي وقد تمكن من استمالة عدد كبير من أعضاء هذه الجمعية للانضمام إلى الماسونية. وبعد الانقلاب الدستوري عام 1908م عملت جمعية الاتحاد والترقي على تعيينه في المجلس النيابي العثماني نائبا عن سالونيك مرة وعن استانبول مرتين، وبعد الحرب العالمية الأولى ذهب إلى إيطاليا حيث استقر فيها إلى أن مات في عام 1934م وقد رثته صحيفة التايمز الإنجليزية -التي يسيطر عليها اليهود- رثاء حارا. أنظر: - جواد ألتخان: أسرار الماسونية، المصدر السابق، ص 58. - أحمد نوري النعيمي:

اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 192 - 193. وأيضا أنظر: حسان حلاق: المرجع السابق، ص 74.

5- Elie Kedourie : op. cit, p 250.

محافل كانت تحت حماية الدبلوماسية، كما أن السلطان لم تكن في حوزته الأسلحة الكافية لاستخدامها ضد هذه المحافل⁽¹⁾.

ويعتبر كثير من المؤرخين أن سالونيك التي كانت تعتبر مركزا حصبيا لتآمر اليهود الذين عاشوا في أمن وسلام في ظل التسامح الديني داخل الدولة العثمانية، ما لم يجدوه من الأديان الأخرى، حيث هيمن العنصر اليهودي على سالونيك⁽²⁾.

وإذا كنا بصدد الحديث عن المحافل الماسونية في ولاية سالونيك يجب أن نؤكد في هذا المجال، إنه كان في سالونيك محفلان ماسونيان كانا مرتبطتين بالمشرق الأعظم الإيطالي (The Grand orient of Holy) وهذان المحفلان هما محفل مقدونيا، وقد ضم هذا المحفل اليهود الإيطاليين وعلى رأسهم "إمانويل قرصوا"، ومحفل (Laboretlux)، كما كان هناك محفل آخر باسم (Veritas) مرتبطا بالمشرق الأعظم الفرنسي، ومحفل إسباني باسم (Perseveranza)، ومحفل يوناني باسم (Philippos)، الذي كان يحاول تحقيق سياسة قومية يونانية⁽³⁾.

وكانت هناك محاولات أخرى في تأسيس المزيد من المحافل الماسونية في إستانبول، إذ أن السفير البريطاني "اللورد ريدنج" أسس محفلا ماسونيا بجوار محفل "غلطة"، وكان الصدر الأعظم "مصطفى رشيد باشا" عضوا فيه، وقام الفرنسيون بتأسيس محفل في "بي أوغلو" في إستانبول، ضموا إليه "فؤاد باشا"، كما فتح السير "هنري بلفور" محفلا في "بيوك درة" وفتح الألمان محفلا آخر لهم، وكان من أبرز هذه المحافل محفل "سر" (Ser)، الذي أسسه الأرمن، وكان له دور سياسي في تركيا، بالإضافة إلى هذا، فقد انضم إلى سلك الماسونية ولي العهد "مراد أفندي" وأعطيت له الدرجة الثامنة عشرة، وكانت هذه المحافل بمثابة مراكز الخيانة والتآمر والتجسس على الدولة⁽⁴⁾.

ومن ثم ضاعف الماسون جهودهم فتمكنوا من تأسيس العديد من المحافل في استانبول وازمير وغيرها من المدن التركية، كان بعضها تابعا للمشرق الأعظم الإنجليزي، وبعضها للفرنسي أو للإيطالي، إلى أن أنشأ الأمير "حليم باشا" مجمعا وطنيا تحت رعاية المحفل الأعظم الإنجليزي، ترأسه شخصا طوال حياته وتعددت محافله وكان

1- أحمد نور النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 189، أنظر أيضا: ارنست رامزور: المرجع السابق، ص 125

2- روبر مانتزان: المرجع السابق، ج 2، ص 236

3- أحمد نور النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 190

4- Izzet Nurigun : op. cit, pp 17-21.

لذلك أثره البالغ في إنخراط عدد كبير من الأتراك في الماسونية حتى أصبح عدد الماسون الأتراك في عام 1882م نحو عشرة آلاف شخص⁽¹⁾، من بينهم عدد كبير من الوزراء والقادة العسكريين وكبار موظفي الدولة⁽²⁾.

وقد بلغ الأمر أن تمكن أحد الماسون الأتراك من الوصول إلى منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية، وهو الدونمة "مدحت باشا" الذي كان له دور كبير في خدمة أهداف الماسونية⁽³⁾، وفي هذا يقول السلطان عبد الحميد: "لم يكتف مدحت باشا بإثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة في السراي ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب وحاول سن بعض الأعمال التي لا يتصورها العقل مثل تعيين ولاية من الأقليات في ولايات الأغلبية فيها مسلمون ... بناء على هذا كله كان الملك العثماني يهتز من أساسه وكنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى"⁽⁴⁾.

والواقع أن هذه المكاسب التي حققتها الماسونية لم تأت مصادفة، بل كانت نتائج لخطط مدروسة ومنفذة بدقة، ويمكننا الاستدلال على ذلك بما جاء في الخطاب الذي ألقاه رئيس جمعية "هوت فنت" الماسونية في عام 1822م، والذي يقول فيه: "...ترغب جمعية هوت فنت بأية وسيلة أن يلتحق أكبر عدد ممكن من الأمراء بالماسونية إن الأمراء يرضون طموحهم للشهرة... أعدوهم للماسونية... سيعمل الأمراء مؤقتاً على اجتذاب المعتوهين والمتأمرين والعاطلين عن العمل، وهؤلاء الأمراء المساكين يخدمون قضيتنا من حيث يظنون أنهم يخدمون أنفسهم، إنها الخدعة الكبرى"⁽⁵⁾.

كما تجدر الإشارة إلى أن هذا النجاح الكبير الذي حققته الماسونية في الدولة العثمانية، قد تم رغم تصدي السلطات العثمانية للماسونية منذ وقت مبكر، وفي هذا يقول الأب "لويس شيخو": "كانت تركيا من بين الدول التي ناهضت الماسونية منذ عام 1748م، وأن من بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين الجمعيات السرية، فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور إلى كل ما يتستر تحت حجاب الظلمة، وإذا بلغهم شيء من أمر تلك الجماع أسرعوا إلى إلغائها وتشيتت شمل أصحابها"⁽⁶⁾، ويمكن إرجاع ذلك إلى ما كانت تلقاه المؤسسات الماسونية من حماية الدول الأوروبية - بحكم معاهدات الامتيازات الأجنبية-⁽⁷⁾.

1- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 290.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 30 - 31.

3- زياد أبو غنيم: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ط2، دار الفرقان، عمان، 1986، ص 52.

4- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 106 - 107.

5- عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ط2، مطابع دار القلم، القاهرة، 1965، ص 147.

6- الأب لويس شيخو: السر المصون في شيعة الفرماسون، المصدر السابق، ص 606 - 607.

7- محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 175.

أما عن تمكن الحركة الصهيونية من متابعة نشاطها السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني، من خلال المحافل الماسونية فذلك أُنْهَما قد جعلت الأساتذة الكبار الحقيقيين في المحافل الماسونية من كبار اليهود الذين ينتمون للمنظمة الصهيونية العالمية، وجعلت وظيفتهم توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل وتوجيهها لخدمة المشروع الصهيوني، والعمل على جذب كبار موظفي الدولة، وأصحاب النفوذ في المجتمع لاستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية⁽¹⁾.

3- مؤامرات الماسونية ضد السلطان عبد الحميد الثاني:

كان من ضمن نشاطات الماسونية التآمرية ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ومن ذلك قيام الملك البريطاني "إدوارد السابع" بإعطاء "كارل إدوارد" مبلغ 13 ألف ليرة ذهبية ليقدمها للمنظمات الأرمنية لإلقاء قنبلة على قصر يلدز لقتل السلطان عبد الحميد، لذا فإن أول عمل قامت به المنظمات الأرمنية هو الهجوم على الباب العالي "دار الحكومة"، وفريق آخر هجم على البنك العثماني، وألقوا القنابل ليثيروا الرعب، إلا أن الصدر الأعظم "سعيد باشا" أصدر أمراً بمحاصرة البنك، وتمكن رجال الأمن من إلقاء القبض على الأرمن المهاجمين في الباب العالي، وتمكن عمال الموانئ من إعمال القتل فيهم بالأحجار والعصي، وحاول الأرمن الاحتباء بالكنيسة، وكانت لديهم أسلحة مختلفة كالمسدسات والقنابل، وأخيراً استسلموا لقوات الجيش، وبعد اتصالات السفير الروسي مدعياً بأن هؤلاء المقبوض عليهم هم من الجنسية الروسية، طلب السماح لهم بمغادرة البلاد على متن باخرة روسية، ووافقت السلطات العثمانية على ذلك الطلب بمقتضى الامتيازات الأجنبية⁽²⁾.

ثم كانت المؤامرة الثانية هذه المرة أشد إحكاماً وأقوى تدبيراً، حيث أشرف يهود سويسرا على إعداد الخطة، وكان الأرمن هم أداة التنفيذ، يذكر المؤرخ التركي مصطفى طوران: أن اليهود مولوا هؤلاء الأرمن، وعلى رأسهم اليهودي المجري الفرنسي الجنسية "إدوارد جورس" الذي تدرب في روسيا على أعمال الاغتيال، بالتعاون مع المنظمات الإرهابية الأرمنية المعروفة باسم "الداشناك" (Dashnak)، تفاصيل الخطة التي أعدوها عبارة عن إدخال عربة مفككة إلى البلاد صنعت في الخارج ووصلت إلى استانبول، وفيما يبدو بعد التحقيقات اتضح أن القطع دخلت البلاد دون تفتيش من رجال الجمارك الذين قبضوا ثمناً لها، وبعد تجميعها قاموا بوضع قنبلة موقوتة عرفت باسم "قنبلة الجحيم"، ووضعت تحت كرسي القيادة في القسم الخشي منه لتنفجر في الوقت الذي يأتي فيه

1- محمد علي اورخان: المرجع السابق، ص 294.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 18-19.

السلطان عبد الحميد لصلاة الجمعة، حيث عرف عن السلطان تقيده بالنظام والمواعيد في حياته الرسمية والخاصة⁽¹⁾.

وكما هو معتاد وصل السلطان في يوم الجمعة الموافق 21 من جويلية 1905م متوجها إلى المسجد وسط تكبير الحاضرين، وكان يصلي في السدة المحاطة بالشباك، وكان لا يوجد على جانبي السدة إلا المرافقون والحراس، وبعد الانتهاء من الصلاة والدعاء نزل السلطان من الدرج، ووصل إلى المكان الذي يمتطي فيه عربته، في حين كانت ساحة المسجد مملوءة بقيادة الجيش ونوابهم وأفراد الشرطة السرية، وكعادته أراد السلطان أن يجامل شيخ الإسلام "جمال الدين أفندي"، فأمضى بضع دقائق مع الشيخ في حديث ودي، وشاء القدر أن تنفجر القنبلة محدثة دويا وانفجارا هائلا، وطارت قطع من الخيول، والعربة والأرجل والأيدي البشرية في الهواء، وتحطم زجاج نوافذ المسجد، وقد أذهل الصوت رجال الجيش والشرطة، فهرب من بقي منهم على قيد الحياة، وبعد مدة عاد بعضهم فهنا السلطان على سلامته وأمرهم بتهيئة عربته الخاصة ومحاصرة المنطقة واعتقال المتسببين⁽²⁾.

وحول هذه الحادثة الأليمة تحدثت الأميرة "عائشة عثمان أوغلي" بنت السلطان عبد الحميد من خلال مذكراتها إذ تقول: "وفي تلك اللحظة رأيت والدي السلطان وهو يقف على الدرجة الثالثة من السلم تقريبا، ومضى يقول بصوته الجمهوري، باسطا ذراعيه، لا تخافوا، لا تخافوا، ثم بدأ ينزل بخطوات وثيدة، وهو يصيح فليق كل واحد في مكانه وراه آنذاك كل من تفرق هنا وهناك من بلوك المعية "أي الحرس الخاص" والضباط والجنود، وراحوا يأخذون أماكنهم على الفور، وجاء الوالد إلى مقدمة العربة وشرع في ركوبها، وهو يقول: "لا تنزعجوا فدخلها وتناول والدي اللجام وشرع يصعد الطريق ببطء أكثر من ذي قبل⁽³⁾".

وقتل في الحادثة عدد كبير من الجنود، ولم يتم التعرف على أشكالهم بسبب تمزق أجسادهم وقد اعتقل كثيرون، وكان أكثر المتأمرين الكبار من خارج البلاد، لذلك تم تشكيل لجنة تحقيق برئاسة "نجيب ملحم" الذي تولى هذه القضية، وبعد وقت قصير توصلت اللجنة إلى أبعاد المؤامرة، وألقت القبض على "كريستوفر ميكائيليان" وابنتيه "رروينا" و"قسطنطين قبوليان" وكان قبوليان يهوديا روسيا، وعندما أودع في السجن أخذ يقطع شرايينه بطرف الإبريق المعدني في المرحاض وتمكن من الانتحار، وقامت المخابرات التركية الخاصة بإجراء تحريات واسعة

1- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 20

2- المصدر نفسه، ص 22

3- عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبد الحميد، ترجمة صالح سعداوي، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1991، ص

استطاعت الحصول على نشرة لها أهمية بالغة كانت هذه النشرة تحوي 22 مادة⁽¹⁾، ولكن تبين لاحقاً حقيقة هذه المواد والتي عرفت ببروتوكولات حكماء صهيون.

4- علاقة الماسونية بجمعية الاتحاد والترقي:

في الدولة العثمانية تركز النشاط الماسوني في ولاية سلانيك لأنها تضم نسبة كبيرة من اليهود أكثر بكثير من أية ولاية في العالم في تلك الحقبة، حيث بلغت هذه النسبة سبعين في المئة من عدد سكانها، ومعظمهم من يهود الدونمة -الذين طردوا من اسبانيا-⁽²⁾، ناهيك عن الحماية الدبلوماسية التي حظيت بها المحافل الماسونية في تلك الولاية لارتباطاتها الأوروبية، ولأن بعض يهود سلانيك ينتمون إلى جنسيات أوروبية مختلفة⁽³⁾.

لذا فلا عجب أن برزت سلانيك بمحافلها الماسونية مركزاً آمناً للنشاط السياسي المناوئ للسلطان عبد الحميد، ومنطقة جذب لجميع القوى الداخلية والخارجية المعارضة والمعادية له⁽⁴⁾.

ف وراء ستار المحافل الماسونية تمكنت تلك القوى المناوئة من تنظيم العديد من الخلايا السرية الثورية، ولعل أخطر تلك المنظمات السرية التي برزت كقوة مؤثرة في المحيط السياسي للدولة العثمانية هي جمعية الاتحاد والترقي التي ولدت في الأوكار الماسونية⁽⁵⁾، فقد ذكر القائد التركي "جواد رفعت آتلخان" أن القرار رقم سبعين للجمعية الماسونية الفرنسية قد نص على تأسيس جمعية سرية باسم (جون ترك Jeune Turguie) تباشر نشاطها من سلانيك⁽⁶⁾.

كما أكدت هذا الدور للمحافل الماسونية الرسالة المطولة التي بعث بها لوثر السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية إلى وزير خارجية بلاده في عام 1910م حيث جاء فيها: "... قام إيمانويل قراصو وقبل عدة سنوات وهو من الماسونيين اليهود في سلانيك ونائب المدينة، ونائب غرفة التجارة على إيجاد محفل (ماكدونيا ريزوتورا)، وذلك بالتنسيق والتعاون مع المحافل الماسونية الإيطالية، وقد استطاع قراصو استمالة جمعية الاتحاد والترقي من

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 22

2- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج 1، ط 1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1895، ص 466.

3- هـ، س. أرمسترونج: المصدر السابق، ص 29.

4- محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1976، ص 14-15.

5- أرست رامزور: المرجع السابق، ص 123.

6- جواد رفعت آتلخان: الخطر المحيط بالإسلام - الصهيونية وبروتوكولاتها، ترجمة وهيي عز الدين، بغداد، 1965، ص 150.

مدينين وعسكريين إلى الانضمام إلى الماسونية وكان الهدف من وراء ذلك هو فرض النفوذ اليهودي على النظام السياسي في تركيا العثمانية"⁽¹⁾.

لقد كانت للماسونية علاقة قوية بجمعية الاتحاد والترقي من خلال اعتراف أحد أعضاء الجمعية الذي أكد قائلاً: "نحن العثمانيون مدينون للماسونية أكبر دين لأنها هي التي بثت في أعضاء الجمعية روح الحرية، وبها افتدوا إنشاء جمعيتهم التي فكت قيود الاستبداد"⁽²⁾. وصرح آخر لإحدى الصحف في باريس قائلاً: "إننا وجدنا سنداً من الماسونية خاصة الماسونية الإيطالية عن طريق محافلها في سالونيك، لاسيما "محفل ريزتورا بمقدونيا" و"لابوريت لوكس"، من حيث توفير الملاجئ لأعضاء الجمعية وحمايتهم داخل المحافل، واستمر في حديثه أيضاً قائلاً: "كنا نجتمع فيها كماسونيين لأن كثيراً منا كانوا ماسونيين، وأننا قد اخترنا معظم رفاقنا من هذين المحفلين"، ويضيف قائلاً عن العمل السري أنه كان يجري في سالونيك مما أثار شكوك استانبول، كما أن عملاء الشرطة حاولوا عبثاً دخول هذين المحفلين اللذين كانا يتمتعان بالحماية الإيطالية"⁽³⁾.

وإلى جانب ذلك كانت شهادات المؤرخين حيث أن بيرس يقول: "إن زعماء جمعية الاتحاد والترقي التحقوا بالمحافل الماسونية والإبقاء على خططهم السرية"⁽⁴⁾، ويؤكد اللورد "كنروس" قائلاً: "إن جمعية الاتحاد والترقي قد استفادت من أساليب وفنون الماسون"⁽⁵⁾.

وكان مؤسس جمعية الاتحاد والترقي "إبراهيم تيمو" قد تلقى دروساً في التنظيم السري في أحد المحافل الماسونية في مدينة نابولي الإيطالية⁽⁶⁾، وقد اعترف إبراهيم تيمو صراحة في مذكراته التي نشرت في عام 1939م بانتماء قادة ومؤسسي جمعية الاتحاد والترقي إلى الماسونية⁽⁷⁾.

ويمكن إرجاع زيادة النفوذ الماسوني الإيطالي في الدولة العثمانية، إلى رفض الدولة العثمانية نوايا إيطاليا الاستعمارية في ليبيا، من خلال أحد الشخصيات الماسونية اليهودية ويدعى "متر سالم" الحائز على الدرجة الثالثة

1- F.O.800/193A.

2- المقتطف: الماسون في البلاد العثمانية، القاهرة، ج2، م 36، فيفري 1910، ص 158-159

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 126-127 انظر أيضاً:

- Sir Edwin Pears: **Life of Abdul Hamid** , Anew York Times Company, New York , 1974, p 285

4- Ibid, p 285

5- Lord Kinorss: **Ataturk ,The Rebirth of Nation**, Weiden Feld and Nicolson, London ,1971, p 28

6- أرنست. أ. رامزور: المرجع السابق، ص 50.

7- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 139.

والثلاثين في الماسونية، إذ مكن الطليان من احتلال طرابلس في فترة لاحقة، بعد سحب قواتها إلى اليمن وإستانبول بحجة الإصلاح والتعمير⁽¹⁾، وكانت غاية الماسونية هو إتحاك قدرات الدولة العثمانية عسكريا، حتى كاد أن يحدث نزاع بين السلطان عبد الحميد والسفير الإيطالي "مرشيز إميرالي" حول ذلك الأمر⁽²⁾.

وكان لليهود دورا هاما داخل المحافل الماسونية، إذ يعترف أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي عن كيفية تنصيب العضو وكان يطلق عليه اسم الأخ من الأب والأم، وآخر غير مرتبط بالمحفل الماسوني فكنا نطلق عليه من الأب فقط لذا فإن الكاتب التركي نجيب فاضل يعلق على ذلك قائلا: "كان الضباط الاتحاديون في الجيش الثالث تحت إمرة الدولة أم تحت إمرة خدمة اليهودية الماسونية"⁽³⁾، ومن ثم تطلع اليهود إلى ضرورة التسلل داخل الجيش التركي الذي ارتبط عدد كبير من قادته بالماسونية، خاصة ضباط الجيش الثالث المرابط في سالونيك⁽⁴⁾.

ويمكن القول أن لليهود علاقة مباشرة بتدبير الانقلابات العسكرية، ونجدهم وراء كل حدث في أي بلد من بلاد العالم، وأكثر الناس انتفاعا من أجل تحقيق مؤامراتهم الخبيثة، وفق مخططات الماسونية في كل مكان⁽⁵⁾، وما يؤكد قوة ارتباط جمعية الاتحاد والترقي بالماسونية أن علمهم كان باللون الأحمر والأبيض، هي نفس ألوان علم الماسونية الإيطالية⁽⁶⁾، وأن شعارات الماسونية الثلاثة هي نفس شعارات الجمعية (العدالة - الحرية - المساواة)⁽⁷⁾، وكان أيضا شعارا للثورة الفرنسية التي من المعروف أن الماسون كانوا وراء قيامها⁽⁸⁾، وقد أعمى بريق هذا الشعار الماسوني بصائر الكثير من الأتراك المتحمسين من المدنيين والعسكريين⁽⁹⁾، فوقعوا في شباك جمعية الاتحاد والترقي⁽¹⁰⁾.

1- علي حسون : المرجع السابق، ص 192.

2- Joan Haslip: **The Sultan , the life of Abdul Hamid II**, Histor book club, London, 1958, p 256

3- محمد أورهان: المرجع السابق، ص 286-287

4- Joan Haslip : op. cit., p 256

5- لويس شيخو: السر المصون في شنيعة الفرمايون، المصدر السابق، ص 45

6- Elie Kedorie : op. cit., p 250

7- جواد أتلخان: أسرار الماسونية، المصدر السابق، ص 30. وحول شعار جمعية الاتحاد والترقي أنظر: الملحق رقم 09.

8- عبد الوهاب المسيري : المرجع السابق، ص 124. عبد الله التل : الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، المرجع السابق، ص 78.

9- للماسون أساليب عديدة لإيقاع الناس في شبكاتهم، وهم يتعاملون مع كل شخص بما يوافق فكره وميوله فإن كان من أهل الفضول لمعرفة الأسرار قالوا له إن في الماسونية أسرار لا يعرفها غيرهم، وإن كان من أهل التجارة أو الصناعة أغروه بالريح وزيادة عدد المستهلكين، وإن كان من عشاق المناصب وعدوه بالترقي في وظيفته. أنظر: محمد علي الزعبي : الماسونية منشئة ملك إسرائيل، المرجع السابق، ص 69.

10- جواد أتلخان : أسرار الماسونية، المصدر السابق، ص 58 - 59.

وينتقد السلطان عبد الحميد مرة أخرى المنتسبين للمحافل الماسونية خاصة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي إذ يقول: "لابد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سمو أنفسهم "جمعية تركيا الفتاة" عن ماسونيتهم، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أنهم كلهم تقريبا كانوا من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل، ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية⁽¹⁾.

ولم تتوقف الرعاية الماسونية لجمعية الاتحاد والترقي عند هذا الحد، بل قامت المحافل الأوربية ولا سيما الإنجليزية بتقديم العون المالي والسياسي والإعلامي لأعضاء هذه الجمعية في داخل الدولة العثمانية وخارجها، ليتمكنوا من مواصلة نشاطهم ضد السلطان عبد الحميد⁽²⁾، وقد أشار السلطان عبد الحميد، إلى هذا في مذكراته، مذكراته، حيث يقول: "لا بد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سمو أنفسهم (الأترك الشبان) أو (تركيا الفتاة)، وعن ماسونيتهم، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريبا من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية" ويضيف السلطان في موضع آخر من مذكراته: "رأيت خطابا... من علي كمال في مصر... فيه أسماء ومصادر التمويل إسماء، وفي هذا الخطاب يذكر أن الدكتور عبد الله جودت والدكتور إسحاق سكوتي والدكتور بهاء الدين شاكور والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمو ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية، وأن هذه المحافل تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد، هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات"⁽³⁾.

وكما هو واضح من خلال هذه المعلومات التي أوردها السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته، فقد كان على علم بطبيعة النشاط الذي تقوم به المؤسسات الماسونية في بلاده وبدورها في تأييد العناصر المناوئة له، ولذا فقد بذل قصارى جهده في التصدي لها حتى تمكن في عام 1894م من إغلاق جميع المحافل الماسونية في بلاده، ما عدا محافل سلانيك لأن ارتباطها بالدول الأوربية يعطيها حق الحماية الأجنبية⁽⁴⁾.

وهكذا تلاقت جهود الدوائر الماسونية مع جهود الدول الاستعمارية من أجل توفير المناخ المناسب لنشأة هذه المنظمة الثورية في (جمعية الاتحاد والترقي)، حتى اشتد ساعدها وأصبح أعضاؤها من الدونمة، وتلاميذ الماسون

1- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 49

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 50.

3- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 115، 134.

4- اورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 287. ارزنت. أ. رامزور: المصدر السابق، ص 123.

وأرباب المنصرين قادرين على القيام بالدور الذي أعدوهم له، فأعلنوا في عام 1908م الثورة على السلطان عبد الحميد متذرعين المطالبة بتطبيق النظام الدستوري⁽¹⁾، وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد - الذي كان يدرك أبعاد تلك الثورة - قد أجاب مطلبهم فإنه لم ينههم عن مواصلة نشاطهم حتى تمكنوا من تحقيق مطلبهم الحقيقي، وهو عزل السلطان عبد الحميد في عام 1909م⁽²⁾.

وقد بلغ بهم الحقد والشماتة أن جعلوا في مقدمة الوفد الذي كلفوه بتبليغ خليفة المسلمين قرار عزله الأستاذ الأعظم الماسوني اليهودي "إيمانويل قراصو" مؤسس محفل مكدونيا ريزوتورا⁽³⁾.

وإمعانا في إهانة السلطان الذي أعياهم سنين طويلة، قاموا بنفيه إلى سلانيك المركز اليهودي الدومني الماسوني، وفرضوا عليه الإقامة في منزل تاجر يهودي وعينوا عليه حارسا ماسونيا⁽⁴⁾.

وبهذا حقق الاتحاديون الماسونيون لليهود الحلم الذي طالما راودهم، لذا نجد القيادة اليهودية الماسونية تعبر عن فخرها بهم بحماس بالغ في دائرة المعارف الماسونية، حيث جاء على لسان الأستاذ الأعظم الماسوني "شاريبا" قوله: "انظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، دون أن تسيل نقطة دم واحدة... أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية"⁽⁵⁾.

كما أن الاتحاديين أيضا قد صرحوا بامتنانهم وعرفانهم للماسونية لدورها الكبير في دعم حركتهم، وعبروا عن افتخارهم بانتمائهم لها، فقد نشرت صحيفة "تمبس" الفرنسية في أعقاب نجاح انقلاب جمعية الاتحاد والترقي تصريحاً أدلى به "رفيق مانياسي زادة" أحد أعضاء تلك الجمعية جاء فيه قوله: "...لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا ويجب ألا نستغرب ذلك لأننا ماسونيون أيضاً وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها"⁽⁶⁾.

1- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 706 - 707.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 55، 99. وسوف نتناول موضوع الانقلاب الدستوري وما أعقبه من أحداث بشيء من التوسع في الفصل الرابع.

3- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 240.

4- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 325.

5- إسماعيل الكيلاني: المرجع السابق، ص 190، نقلاً عن دائرة المعارف الماسونية، ص 166.

6- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 221.

وبعد إقصاء السلطان عبد الحميد وانتقال السلطة إلى جمعية الاتحاد والترقي، أخذت النكبات تتوالى على الدولة العثمانية، فقد احتلت الكثير من ولاياتها ولم يحرك الاتحاديون ساكنها⁽¹⁾، بل لا يستبعد أن يكون الاحتلال قد تم بالتواطؤ معهم كما هو الحال في ليبيا التي من الثابت أن احتلال إيطاليا لها في عام 1912م قد تم بمؤامرة دبرها الاتحادي اليهودي "مترو سالم" الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، حيث ذهب إلى إيطاليا وقابل رئيس بلدية روما اليهودي ورسم الخطة اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية لمترو سالم مقابل إقناعه حكومة الاتحاد والترقي بسحب القوات العسكرية من ليبيا، وهكذا تم احتلال إيطاليا لليبيا⁽²⁾.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام 1914م، قام تلاميذ الماسونية الذين تركزت بيدهم السلطة في جمعية الاتحاد والترقي بزج الدولة العثمانية فيها⁽³⁾، مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية دفعتها لهم ألمانيا التي كسبتها في صفها⁽⁴⁾، فكانت النتيجة أن تذوقت الدولة العثمانية مرارة الهزيمة، ومزقت أشلاؤها بين الحلفاء المنتصرين وجعلت فلسطين من نصيب الإنجليز، ليتسكنوا من الوفاء بوعدهم لليهود بإقامة وطن لهم عليها⁽⁵⁾.

1- علي حسن: المرجع السابق، ص 272.

2- جواد أتلخان: أسرار الماسونية، المصدر السابق، ص 59.

3- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 236.

4- زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 117. - محمود شاكر: المرجع السابق، ص 217.

5- صالح مسعود أبو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ط2، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ص 87.

- الفصل الثالث: الصهيونية وخلع السلطان عبد الحميد.

أدرك السلطان عبد الحميد الثاني، أنه لا يمكن بقاء الدولة العثمانية - لا سيما ظهور تدهور أوضاعها - إلا الاعتماد على المسلمين والعرب وتأييدهم في مواجهة التدخل الأوروبي في شؤون الدولة. وكانت سياسته تقضي بالحفاظ على ما تبقى من ولايات في حوزة الدولة العثمانية، وكان معنى ذلك أن لا يثير غضب المسلمين والعرب في ممارسة نشاطاته السياسية. ولما كانت الحركة الصهيونية تسعى لدى الحكومة العثمانية بتحقيق مشروع استيطان فلسطين، كان المسلمون والعرب يرون في هذه المباحثات امتحانا علميا لإخلاص السلطان نحوهم ونحو قدسهم. وقد حدد كثير منهم موقفه تجاه عبد الحميد الثاني من خلال قوانين الهجرة اليهودية، ومن خلال موقفه من مشروع هرتزل، ومن هنا جاء رد السلطان بعدم الموافقة على هذا المشروع.

1- سياسة السلطان عبد الحميد اتجاه الصهيونية:

منذ أن أصبحت الدولة العثمانية صاحبة السيادة على أرض فلسطين، لم تمكن جاهلة بأطماع اليهود في تلك الأراضي، فقد أصدر السلطان سليم الأول في عام 1517م فرماتاً يمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين، واستمرت تلك السياسة الحذرة تجاه أطماع اليهود من خلفه على السلطة من آل عثمان⁽¹⁾.

يبدأ الحديث عن الدور اليهودي منذ سعي الحركة الصهيونية لدى الحكومة العثمانية بتحقيق مشروع استيطان فلسطين، كان المسلمون والعرب يرون في هذه المباحثات امتحانا عمليا لإخلاص السلطان نحوهم ونحو قدسهم"، وقد حدد كثير منهم موقفه تجاه السلطان عبد الحميد الثاني من خلال قوانين الهجرة اليهودية، ومن خلال موقفه من مشروع "هرتزل"، ومن هنا جاء رد السلطان بعدم الموافقة على هذا المشروع.

إلا أن العبء الأكبر في سياسة التصدي لأطماع اليهود، قد وقع على عاتق السلطان عبد الحميد الثاني، ففي عهده كثر اليهود عن أنيابهم واستشرت أطماعهم، وأصبحوا أكثر جرأة على التصريح عن آمالهم في استيطان تلك الأراضي المقدسة، لذلك فإن تقييم موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية يتصل اتصالاً وثيقاً بفترة حكم هذا السلطان⁽²⁾.

ولكن السلطان عبد الحميد الثاني، كان حريص على اتخاذ كافة التدابير للتصدي لتسلل اليهود إلى الأراضي الفلسطينية، ومن المثل في هذا الشأن أدخل تغييراً على الوضع الإداري لبيت المقدس، بإصداره فرماتاً في عام

1 - إسماعيل سرهنك: المصدر السابق، ص 530.

2 - جواد رفعت أتلخان: الإسلام وبنو إسرائيل، المصدر السابق، ص 205.

1887م يقضي بتحويلها الى صنجقية⁽¹⁾، تتبع إلى متصرفية دمشق⁽²⁾، وتتبع استانبول مباشرة، وقد اتخذ السلطان عبد الحميد هذا الإجراء لإحكام الرقابة على المنطقة من قبل الدوائر الحكومية في العاصمة لمنع الهجرة اليهودية إليها⁽³⁾.

لقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1891م ثلاث فرمانات لجهات حكومية مختلفة، تتضمن الرفض البات لجميع محاولات اليهود للوصول إلى فلسطين بغرض استيطانها، وكان قد رفض الطلب الذي تقدمت به "جمعية محبي صهيون" عام 1882م للقنصل العثماني في مدينة أوديسا الروسية، والمتضمن رغبة اليهود الروس بالحصول على إذن من السلطان العثماني للهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من وضوح الموقف العثماني تجاه طلب اليهود، إلا أنه لم يمنع جماعة منهم من التسلل إلى فلسطين، وإزاء ذلك التصرف بعث السلطان عبد الحميد إلى والي القدس يأمره بأن لا يسمح لأي يهودي قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يدخل فلسطين⁽⁵⁾.

وبسبب ضغط الدول الأوروبية على السلطات العثمانية بخصوص السماح لرعاياهم اليهود بدخول فلسطين، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1884م فرماناً يقضي بالسماح لليهود بدخول فلسطين، إذا كان بغرض زيارة الأماكن المقدسة، بشرط ألا تتجاوز مدة إقامتهم ثلاثين يوماً⁽⁶⁾، ثم مددت الفترة المسموح بها إلى ثلاثة أشهر في سنة 1900م بسبب الضغط الذي فرض من طرف الدول الأوروبية⁽⁷⁾.

ومن خلال ذلك أوعزت الحكومة العثمانية إلى قناصلها في جميع الدول، بعدم التأشير على جوازات سفر اليهود إلا بغرض الزيارة الدينية ولفترة محدودة⁽⁸⁾.

1- صنجقية: وحدة إدارية أصغر من الولاية تقابل المحافظة، ويطلق على حاكمها صندق وتتبع الولاية. أنظر: - حسن صبري الخولي : المرجع السابق، ص 47

2- المتصرفية : وحدة إدارية تلي الولاية مباشرة في الأهمية والمساحة، يكون لها وضع خاص متميز عند الدولة فتجعلها قسماً إدارياً قائماً بذاته تابعا للباب العالي رأسا : حسن صبري الخولي : المرجع السابق، ص 48.

3- محمد كرد علي : المصدر السابق، ج2، ص 228.

4- أورخان محمد علي : المرجع السابق، ص 257 - 258.

5- حسان حلاق : المرجع السابق، ص 95 - 97.

6- عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق، ج2، ص 976.

7- محمد كرد علي: المصدر السابق، ج 2، ص 202

8- أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 84.

ومن أجل التصدي لتحاييل اليهود على القوانين، ومنعهم لاستقرار في فلسطين تحت ذريعة الزيارة للأماكن المقدسة، استحدث في عهد السلطان عبد الحميد نظام (الشارة الحمراء)، حيث كان على الزائر اليهودي منذ وصوله إلى فلسطين أن يسلم جواز سفره إلى السلطات العثمانية هناك، ويستبدله مؤقتاً ببطاقة حمراء اللون يسمح لحاملها بالإقامة في الأراضي المقدسة لمدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر⁽¹⁾.

وجراء المحاولات المتزايدة لشراء الأراضي الفلسطينية من قبل بعض الجمعيات اليهودية، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1892م فرماناً، يحرم بيع الأراضي الفلسطينية لليهود حتى ولو كانوا رعايا عثمانيين⁽²⁾.

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني على علم بالفساد الذي تفشى في الدوائر الحكومية وانتشار الرشوة بين الموظفين⁽³⁾، فقد كان حرص عند اختياره الشخص الذي سيعينه متصرفاً للقدس أن يكون من الرجال الأكفاء الذين يثق في إخلاصهم، حتى لا يقع في إغراءات قناصل الدول الأجنبية، فيغض النظر عن دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين أو شرائهم أراضيها، ومن أولئك المتصرفين المخلصين على سبيل المثال "رؤوف باشا" (1876-1888م)⁽⁴⁾، فقد كان حريصاً على تعقب اليهود الذين يقيمون بطريقة غير قانونية، لذا كان يتنازع مع القناصل الأجانب في فلسطين لاعتراضهم على ملاحقته للمهاجرين اليهود وشراءهم الأراضي الفلسطينية⁽⁵⁾.

ولكن رغم الحرص الشديد الذي أبداه السلطان عبد الحميد الثاني والإجراءات الصارمة التي اتخذها تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فإن الهجرة استمرت في التدفق، ويمكن أن نرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

أ- استغلال الدول الأجنبية معاهدات الامتيازات:

لقد عقدت الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر ميلادي مع العديد من الدول الأوروبية مثل فرنسا وإنجلترا وهولندا معاهدات تضمنت القوانين التي تنظم إقامة المستأمنين تلك الدول في أراضي الدولة العثمانية،

1- أحمد نوري النعيمي: المرجع السابق، ص 85.

2- رفيق النشة: المرجع السابق، ص 172.

3- أورهان محمد علي: المرجع السابق، ص 260.

4- رؤوف باشا: ينتمي إلى عائلة تركية قديمة، وكان قد تلقى تعليمه في باريس، تولى متصرفية القدس اثني عشرة سنة وكان من الموالين للعرب كما عرف عنه كرهه لليهود والأوروبيين. أنظر: - أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 80

5- صبري جريس: تاريخ الصهيونية، ج 1، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، 1981م، ص 109.

وممارستهم النشاط التجاري فيها⁽¹⁾. بالإضافة إلى الإعفاءات الضريبية التي تمتع بها، فقد منحتهم حصانة شديدة تجاه السلطة القضائية، والسلطة التنفيذية في الدولة العثمانية⁽²⁾.

ولم تظهر مساوئ تلك الامتيازات إلا حين بدأت تظهر بوادر اضمحلال الدولة العثمانية في القرنين الثامن والتاسع عشر ميلادي، إذ أصبحت تلك المعاهدات الأجنبية بمثابة موائيق مذلة للعثمانيين، وكانت الذريعة التي تشبثت بها تلك الدول للتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة الحفاظ على حقوق رعاياها المقيمين في الدولة العثمانية، في حين كانت تعمل لخدمة مصالحها الاستعمارية⁽³⁾.

كما قدمت هذه المعاهدات خدمات جليلة للحركة الصهيونية، فكثيرا ما تدخلت تلك الدول لتعطّل الإجراءات التي كانت الدولة العثمانية تتخذها للحدّ من الهجرة اليهودية، وذلك بحجة رعاية مصالح رعاياها اليهود⁽⁴⁾، وذلك من خلال ما قام به القناصل الدول الأوروبية بتسهيل دخول اليهود إلى فلسطين، ومساعدتهم على امتلاك الأراضي فيها، وقد اعترف المؤرخ اليهودي "بولاك" بقوله: "أن هؤلاء اليهود تمكنوا من البقاء في البلاد بفضل الرشوة، كما تمكن كثيرون من الإفلات من قبضة الحكم بسبب كونهم رعايا أجنب، خاصة وقد حظر على السلطات التركية في حينه التدخل في شؤون رعايا الدول الأخرى، أو اعتقالهم أو محاكمتهم دون تدخل القناصل"⁽⁵⁾.

ويرى البعض بأنّ السبب في رفض السلطان عبد الحميد المشروع الصهيوني هو لرغبته في تجنب إثارة العرب من جهة، ولتجربته مع الأقليات، ولهذا فهو لا يريد أقلية جديدة تتبعه من جهة ثانية⁽⁶⁾، ثم أن السلطان كان يعاني في هذه الفترة من نمو الشعور القومي لدى قوميات عديدة في دولته مثل: القومية العربية، القومية البلغارية، اليونانية، الأرمنية، والسلافية، ولذلك فإن أعطى اليهود أية امتيازات في فلسطين فمعنى ذلك أنه يخلق لنفسه

1- تقوم تلك المعاهدات على أساس ثابت في الفقه الإسلامي. فقد قسم الفقهاء المسلمون العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب، دار الإسلام هي البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها وتقام فيها شعائر الإسلام، ودار الحرب هي التي ليس للمسلمين ولاية عليها ولا تقام فيها شعائر الإسلام، وحين يعبر أراضي الدولة الإسلامية أناس من دار الحرب وقيمون فيها فترة محدودة لأغراض سلمية يطلق عليهم المستأمنون أي الذين منحوا الأمان، حيث تكفل لهم الشريعة الإسلامية سلامة حياتهم وأموالهم ليتمكنوا من ممارسة نشاطهم السلمي. أنظر: - عبد العزيز محمد السلمان: الأسئلة والأجوبة الفقهية، ط11، ج3، الرياض، 1993م، ص 187.

2- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ص 728.

3- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 230. صبري جريس: المرجع السابق، ص 107.

4- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 70.

5- بولاك: إسرائيل أمة وتاريخها، تعريب: رسمي بيادسة، تل أبيب، 1971 م، ص 150.

6- هاني الهندي: حول الصهيونية وإسرائيل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص 54.

مشكلة قومية جديدة، بالرغم من اقتراح قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين⁽¹⁾.

وقد أثبتت الأحداث السياسية بأنَّ السلطان عبد الحميد الثاني لم يرفضه لتخوفه من وجود أقلية جديدة فحسب، وإنما كانت هناك أسباب عديدة في مقدمتها:

- دور الجامعة الإسلامية والمشاعر التي انبثقت عنها.

- شعور السلطان العثماني بخطر الحركة الصهيونية وأطمعها في فلسطين.

- ردود الفعل العربية الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية، بعد أن تزايدت خطورتها على المواطنين العرب.

والجدير بالذكر، أنه أثناء مفاوضات "هرتزل" مع المسؤولين العثمانيين، أدرك السلطان أنَّ هناك مشاعر عربية إسلامية ضد المشروع الصهيوني تزداد قوة يوما بعد يوم أكثر مما توقع، ومن أجل ذلك قطع وعدا إستجابة للاحتجاجات التي صدرت عن فلسطين بأنه سيفرض رقابة على الهجرة اليهودية، ومما يؤكد ذلك الجهد الذي بذله السلطان من أجل انتزاع سيناء من حكومة خديوي مصر عباس حلمي (1892-1914م) بهدف الحفاظ على سيناء بعيدة عن متناول الصهيونية، لأن محاولة استيطان اليهود في العريش كانت بمثابة باب إلى فلسطين، بل أنَّ السلطان كان مطالباً أيضا في هذه الفترة باستعادة مصر كلها من أيدي الإنجليز⁽²⁾.

ومن ثم فقد لعبت سياسة عبد الحميد الثاني دورا مؤثرا في وقف الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة، أتبعها بسلسلة من القرارات السلطانية طلب فيها من موظفي الإدارة العثمانية أن يطبقوها بحذافيرها، في الوقت الذي كان فيه زعماء المنظمة الصهيونية يطلبون في مفاوضاتهم مع السلطان الحصول على وثيقة رسمية تعلن قبول القادمين اليهود دون قيد أو شرط على أن يعلن ذلك السلطان نفسه، ولكن السلطان رفض مثل هذه الأمور لأسباب عديدة، ولموقع الدولة العثمانية بالنسبة إلى شعوب العالمين العربي والإسلامي، لاسيما وأنَّ بعضا من المسلمين والعرب كانوا يرون فيها ضمانا لحمايتهم واستقلالهم عن الدول الأوروبية⁽³⁾.

1- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 141.

2- ج.م.م. جفرين: فلسطين إليكم الحقيقة، ترجمة: أحمد خليل الحاج، مراجعة: محمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971م، ص 83.

3- Siyasi Hatiratim: Sultan Abdul Hamit, Dergah Yayınları, Istanbul, 1987, P 57.

اصطدمت الهجرة اليهودية إلى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد، بعدد من القوانين التي وقفت حائلاً دون تزايدها ودون إنشاء المستوطنات اليهودية، بالرغم من أن كثيراً من المجموعات اليهودية كانت تدخل إلى فلسطين بأساليب غير مشروعة، إما عن طريق رشوة السلطات المحلية العثمانية، وإما هرباً عن طريق الحدود المتاخمة لفلسطين مثل ولايتي بيروت وسوريا التابعتين للدولة العثمانية في تلك الفترة، وبعد انطلاق الحركة الصهيونية عام 1897م، حرصت على إقناع السلطان العثماني بالاستيطان اليهودي في فلسطين، ليكون ذلك تحت رعايته، حتى تنهي المنظمة الصهيونية ذاك الشكل غير القانوني في عمليات الهجرة والاستيطان، ولما أثبتت الأحداث فشل الاتصالات الصهيونية مع السلطان، رأى زعماء الصهيونية ضرورة التعاون مع الدول الأوروبية الكبرى للحصول على فلسطين بتأييد منها وبمساعدها، بإعتبار أن " الدولة اليهودية " المزمع إنشاؤها هي بمثابة قاعدة للمصالح الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية⁽¹⁾.

وفي الفترة التي أظهرت الصهيونية عداوتها للموقف العثماني، ظهرت نقمة يهود الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد، فاستغلوا كل خلل في الدولة للاستفادة منه، ورأت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الأوروبية وبالاتفاق مع يهود " الدونمة " حتمية إنهاء حكم السلطان عبد الحميد، لأن أطماع الصهيونية في فلسطين لا يمكن تحقيقها طالما بقي في الحكم، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية ترى أيضاً حتمية تقسيم الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على أملاكها، وإقامة دويلات لليهود والأرمن واليونان وبعض الأقليات الأخرى تكون بطبيعة تكوينها خاضعة للنفوذ الأوروبي، لذا حرصت هذه الدول على تغذية الروح القومية والانفصالية لعناصر الدولة العثمانية، وإن تكن هذه الروح القومية - لدى البعض - قد نشأت بدافع ذاتي ونتيجة لظروف سياسية معينة.

وقد بلغ التدخل الدولي في شؤون الدولة العثمانية أن أصرت الدول الأوروبية في إتفاقية برلين - التي عقدت بينها وبين الحكومة العثمانية - على إقرار بند خاص باليهود والنصارى الموجودين في أراضي الدولة العثمانية ينص على أنه " لا يمنع النصارى واليهود من إجراء رسوم أديانهم واتساع بطارقتهم وكواهنهم فيما يتعلق بمذاهبهم " ⁽²⁾.

1- حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، الدار الجامعة، بيروت، 1986، ص 78.

2- مخطوط سلاطين آل عثمان، ج 23 الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، مصنفة تحت الرقم 10709، المكتبة الظاهرية، دمشق، ص 70.

ب- سوء النظام الإداري في فلسطين:

كان لطبيعة النظام الإداري العثماني في فلسطين دور كبير في تردّي الأوضاع الاقتصادية للسكان لا سيما الفلاحين، فقد فرضت على الفلاحين ضرائب ورسوم إضافية، الذي كانت تمثل الزكاة⁽¹⁾.

ونتيجة لعجز بعض الفلاحين عن دفع هذه الضرائب وتراكمها عليهم، كانت الإدارة تعتمد الضرائب المترتبة عليهم بعرض أراضيهم للبيع في المزاد، وعند ذلك يكون المشترون من الرأسماليين اللبنانيين والسوريين المسيحيين، وبأسعار متدنية، ويكون غرضهم من شرائها المتاجرة ببيعها وليس زراعتها⁽²⁾.

وهي الفئة التي باعت الأراضي الفلسطينية لليهود بأسعار مغرية، حيث لا يهمهم إلا الكسب، فقد ثبت أن معظم الأراضي التي حصل عليها اليهود في تلك الفترة كانت ملك لعائلات لبنانية مسيحية مثل: عائلة متي، وفرح، وسليم الخوري، وتويني، لا سيما أسرة سرسق التي كانت تمتلك قرى كاملة⁽³⁾.

لقد كان موظفي الإدارة العثمانية في فلسطين كثيراً ما يخضعون للرشوة، التي تمنح لهم اليهود نظير عن إقامتهم وتسهيل دخولهم إلى فلسطين، دون تسجيل أسمائهم على اللائحة الخاصة بالزوار⁽⁴⁾، وقد اعترف اليهود أنفسهم باعتمادهم على هذه الوسيلة في الوصول إلى فلسطين، ففي هذا المعنى يقول الزعيم الصهيوني "وايزمان" في مذكراته: "كنا نعلم بأن أبواب فلسطين مغلقة أمامنا وكنا نعرف بأن أي يهودي يريد دخول فلسطين، كان عليه أن يحمل شارة حمراء، وإلا كان يطرد من قبل السلطات التركية، وكنا نعرف بأن القانون التركي يحظر على اليهود شراء الأراضي ولربما لو اعتبرنا هذا الموضوع مغلقاً أو حاولنا أن نكون نظاميين لرعبنا، ولكننا استطعنا العبور إلى فلسطين وبصورة منتظمة ومستمرة في جنح الظلام، وعليه نرى بأن اليهود قد استقروا في فلسطين ولم يطردوا، حيث قاموا بشراء أراض عن طريق أشخاص وهميين وفي بعض الأحيان عن طريق الرشوة، لأن طبقة الموظفين كانت فاسدة... وقد بنيت البيوت بعيداً عن القانون كما بنيت في ظل تلك الأوضاع المستعمرات الصهيونية الأولى"⁽⁵⁾.

1- محمد كرد علي: المصدر السابق، ج 4، ص 93 - 94.

2- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 78.

3- أشار هرتزل في مذكراته إلى دور هذه الأسرة في امتلاك اليهود لكثير من المستوطنات في فلسطين. - يوميات هرتزل: تعريب: هلدنا صايغ، ط 1، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1968، ص 75.

4- رفيق النتشة: المرجع السابق، ص 105.

5- احمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 84 - 86، نقلاً عن مذكرات حاييم وايزمان، ص 41.

وقد جاء في الموسوعة اليهودية أيضا ما يثبت فساد الجهاز الإداري، حيث تذكر الموسوعة بأن قانون عام 1891م الذي منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين حبر على الورق، وكانت الإدارة التركية تتغاضى عن هذا القانون، إلا أن السلطان العثماني كان حذرا من الأهداف الصهيونية⁽¹⁾.

لقد حاولت الحكومة العثمانية التصدي لهذا الفساد، حيث اكتشفت في عام 1887م أن موظفي ميناء يافا كانوا يرسلون كل شهر إلى المتصرف بيانات كاذبة، تفيد أن كل اليهود الذين دخلوا البلاد خلال الشهر السابق قد عادوا من حيث أتوا، فقامت باستبعاد هذه العناصر الفاسدة، وعززت قوات الشرطة في ذلك الميناء⁽²⁾.

ورغم حرص الحكومة العثمانية على تعقب هؤلاء المرتشين واستبعادهم، فإنها لم تستطع أن تقضي على تلك الظاهرة⁽³⁾.

2- دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني:

كانت الصيحات التي انطلقت معارضة حكم عبد الحميد الثاني، سواء من الأتراك أو من باقي القوميات المختلفة التي لعبت دورا فاعلا في مساعدة الدول الأوروبية والحركة الصهيونية لاستغلال هذه المعارضة والاستفادة منها، فبدأت الصهيونية تستميل بعض الأتراك الموجودين في بعض العواصم الأوروبية، وأتراك الدولة بمساعدة يهود دوغمة سلانيك للتخطيط في مسألة خلع السلطان.

كما لعبت المحافل الماسونية مع يهود "الدوغمة" دورا مؤثرا في التخطيط لخلع السلطان، وكانت بمثابة العقل المدبر، كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول، لأنه كان لها نفوذ كبير في أوساط الباب العالي وبين الأتراك الشباب⁽⁴⁾، وكانت الماسونية قد بدأت في الانتشار في أراضي الدولة العثمانية منذ وقت بعيد، ويقول الأب "لويس شيخو" عن موقف تركيا من الماسونية: "كانت تركيا من بين أول الدول التي ناهضت الماسونية منذ عام 1748م، وأن بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين الجمعيات السرية، فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور إلى كل ما يستتر تحت حجاب الظلمة، وإذا بلغهم شيء من أمر تلك الجماع أسرعوا إلى إلغائها وتشتيت

1- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 104، نقلا عن الموسوعة اليهودية، ص 75.

2- صبري جريس: المرجع السابق، ج 1، ص 110.

3- أورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 260.

4- Serif Mardin: **the Genesis of young Ottoman Thought astudy in the Modernization of Turkish Political Idea**, Princeton, New York, Prin Ceton University Press, 1962, PP 116-117.

شمل أصحابها⁽¹⁾، لاسيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أثرت حوادث عام 1876م بسيرته وسياسته منذ أن وجد أخاه السلطان عبد العزيز مقتولا في قصر " كوله باغجه "، ولما عين مراد سلطانا من بعده أعزل ولم يبق طويلا في الحكم.

وعين مكانه أخوه عبد الحميد الثاني الذي بدأ أعماله القانونية في ظل هذه الظروف وهذا الوضع⁽²⁾، ولذا وجدناه يخشى من سرية الأحزاب والجمعيات لا سيما الماسونية منها حين صمم على إخضاعها للمراقبة، لكن حماية الدول الأوروبية لها - لاسيما إنجلترا - كان يخفف من قيود المراقبة⁽³⁾، وكان السلطان عبد الحميد يشك دائما بالمخاطر الماسونية ونشاطاتها، وأن كراهيته لها يعود إلى يوم كان شقيقه مراد قد قبل كرئيس للماسونيين الأتراك⁽⁴⁾، ويذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته: "من أن العمل الوحيد الذي استطاع الماسونيون القيام به في الدولة العثمانية، هو نشر الشقاق والتمرد في البلد وبين صفوف الجيش، دون أن يعملوا لحساب إنجلترا التي تدعي نشر الأفكار المتحررة في دولتنا، وأشد ما يؤلمني أن يتعاون هؤلاء الضالون الأتراك مع اليونانيين والبلغاريين في سبيل إزاحة المستبد عن الحكم⁽⁵⁾".

واللافت للنظر في هذا المجال ما أكدته المصادر والوثائق المختلفة من ارتباط وطيد بين الصهيونية والماسونية، فقد أكدت الوثائق الصهيونية في مؤتمر بال الأول 1897م هذه العلاقة بالقول: "... وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة، سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من يصير أو من يكون معروف بأنه ذو روح عامة، وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد، كما أننا ستكون أفضل مراكز الدعاية"⁽⁶⁾.

1- لويس شيخو: السر المصون في شيعه الفرمسون، المصدر السابق، ص 606، 607.

2- وضيف إسماعيل سرهنك في المصدر السابق، ج 1، ص 722-728، بأن الظروف التي أدت إلى مقتل السلطان المقتول عبد العزيز كانت لها نتائج سيئة، فقد قام حسن الجركسي وقتل بعض الوزراء ثارا للسلطان للمقتول، فصدّم السلطان مراد وأفقدته الحوادث توازنه العقلي وكثيرا ما أغمي عليه، فعرض الأمر على أخيه عبد الحميد لكي يستلم مقاليد الدولة فنصحهم بالتأني إلى أن أستقر رأي الوزراء في المجلس المنعقد يوم الأربعاء 10 شعبان سنة 1293 هـ / 30 أغسطس 1876م على مبايعة عبد الحميد سلطنة للدولة، ويمكن تفسير سياسة عبد الحميد الحذرة، العامة منها والخاصة انطلاقا من ظروف المؤامرات التي أحاطت بعمه وإخوانه من قبله.

3- محمد علي الزغي: المرجع السابق، ص 174.

4- Joan Haslip: The Sultan - The Life of Abdul- Hamid II, History Book Club, London, P 256

5- Siyasi Hatiratim.Op Cit, P 81.

6- محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الخامس عشر، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص 173، 174.

ويذكر أيضا بأن الحركة الصهيونية عمدت إلى ابتداع الحركة الماسونية الحديثة منذ فترة مبكرة، من أجل أن يتخلى الإنسان عن كل ما يؤمن به ليصبح كما يسموه " كوزموبوليتيني"، ومن أجل أن تكون محافلها وسيلة للصهيونية في تحقيق أهدافها والتغلغل في الأوساط الحاكمة وكسب الطبقة العليا من الحكام والوزراء وأصحاب النفوذ في أي مجتمع، لاستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية، لذلك فإننا نرى أن نشاط هذه الحركة يكاد ينحصر في الأوساط الحاكمة وليس في الأوساط الجماهيرية⁽¹⁾.

وهناك أدلة كثيرة تؤكد الارتباط الوثيق بين الصهيونية والماسونية، وتؤكد أن الماسونية هي من إفرازات الحركة الصهيونية، وهذا ما تثبته دائرة المعارف الأمريكية عام 1906م ودائرة المعارف اليهودية، وبعض الصحف اليهودية الصادرة في فترات وسنوات متفاوتة والتي تؤكد هذا الارتباط الوثيق، فقد ذكرت المجلة اليهودية "لافيريه إسرائيلية" عام 1861م بأن روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية⁽²⁾.

وعلى هذا النحو استطاعت الحركة الصهيونية مع المحافل الماسونية متابعة النشاط السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشكلون اللجنة الأولى لتنفيذ المخططات الصهيونية - الدولية - الماسونية.

وفي عام 1889م شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية العثمانية في استانبول منظمة سرية هدفها الواضح عزل السلطان عبد الحميد الثاني، وكان وراء هذا التشكيل السري رجل ماسوني من ألبانيا اسمه "إبراهيم تيمو" أو أدهم كما كان يسمى أحيانا⁽³⁾، وقد أتفق مع عدد من الطلاب على الاشتراك في تلك المنظمة وكان في مقدمتهم: إسحق سكوتي، وشركس محمد رشيد، وعبد الله جودت، وكرديان، وقد باشرت أعمالها منذ عام 1891م في جنيف أولا ثم نقلوها إلى باريس، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سرا، واتخذوا لذلك طريق الجيش لبث أفكارهم⁽⁴⁾.

وقد أصدر كل من إسحق سكوتي وعبد الله جودت مجلة "عثمانلي" في جنيف لمحاربة السلطان عبد الحميد وتأييد الرأي العام عليه، وذلك لكسب مؤيدين لتنظيمهم، وقد عرف هذا التنظيم باسم "الاتحاد والترقي" وهو فرع لحزب "تركيا الفتاة"، ونظرا للمخططات المعارضة لحكم السلطان دأب أعضاء الجمعية على

1- عودة بطرس عودة: القضية الفلسطينية في الواقع العربي، المؤسسة الفنية للطباعة والنشر، القاهرة، 1970م، ص 141، 142.

2- ستحدث عن علاقة الماسونية باليهود والصهيونية بمزيد من الأدلة والوثائق أثناء بحث دور اليهود في ثورة 1908م وخلع السلطان عبد الحميد في 1909م.

3- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 49.

4- William Miller : op. cit, P 474.

عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وعقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الإيطالي، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان، وكانت إنجلترا وفرنسا سباقتين إلى إيواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي، وتركتهن يعملون في عواصمها علنا لإسقاط السلطان⁽¹⁾.

هذا وقد شهدت الفترة الممتدة بين عامي 1902 و 1907م نشاطا ملحوظا ضد السلطان، فقد بدأت أفكار "تركيا الفتاة" تنتشر في داخل وخارج الدولة العثمانية، فهناك جماعات ركزت نشاطها في جنيف والقاهرة، وجماعات أخرى نشطت في استانبول في المدارس الحربية والمدنية التي كانت تشغل الحركة الثورية، وبواسطة القائد التركي مصطفى كمال صار للجمعية فروع في يافا والقدس، وقد أنضم إليها قواد من الفيلق الخامس⁽²⁾، وفي عام 1902م عقد في باريس مؤتمر اتحادي للبحث في الخطط المستقبلية وفي كيفية مناهضة السلطان، وعقد مؤتمر ثاني في عام 1907م تضمنت مقرراته ما يلي:

- تأسيس أصول المشروطية والمشورة.

- تبديل الإدارة الحاضرة من أساسها.

- إجبار السلطان عبد الحميد على ترك العرش⁽³⁾.

وفي الفترة التي كانت فيها جماعة من العرب وأهل فلسطين تطالب الحكومة العثمانية بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كانت فئة عربية أخرى تتعامل مع الاتحاديين لقلب نظام السلطان عبد الحميد الثاني، داعية إلى الإصلاح ورفع الظلم والفساد عن العرب، وكانت أهداف الاتحاديين وشعاراتهم (حرية - عدالة - مساواة) قد استمالت بعض العناصر العربية المناهضة للسلطان، باعتبارها الغايات التي كان يسعى إليها العرب، وعن طريقها يمكن أن يحققوا أهدافهم ضد " السلطان الطاغية " على حد تعبيرهم، ولا يخفى ما كان لليهود من نفوذ قوي في أوساط " جمعية الاتحاد والترقي " الذين رأوا ضرورة التخلص من السلطان العثماني لأهداف لها صلة وثيقة بمستقبل فلسطين.

1- سعيد الأفغاني: كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضه المملكة العثمانية، العدد 169، مجلة العربي ديسمبر 1972م، ص 102.

2- Garnier Jean-Paul: **La Fin de L'Empire Ottoman** , Plon, Paris, 1975 , P 59.

3- ساطع الحصري : المرجع السابق، ص 106، أنظر أيضا: محمد روجي الخالدي المقدسي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، المنار، 24 ديسمبر 1908م، م 11، ج 11، ص 849، إذ تشير إلى مؤتمر ويانة : الذي حضره جماعة من الترك والأرمن والمقدونيين والكرد والعرب واليهود والارناؤوط الذي قرر استعمال جميع الوسائل الانتقالية لتحقيق الانقلاب وخلع السلطان.

وقد كانت السيطرة على فلسطين أمراً عسيراً من الناحية العسكرية والسياسية، وسيظل وضعها على هذا النحو ما دامت في حوزة الإمبراطورية العثمانية⁽¹⁾، لذا كانت مقررات مؤتمر " كامبل بانرمان " عام 1907م بزرع الشعب اليهودي في فلسطين أمراً وطيد الصلة بواقع فلسطين وبأهداف الإستعمار الأوروبي، ولما كان السلطان هو العقبة التي تقف في طريق الصهيونية إلى فلسطين، فمن الطبيعي أن تتجه الحركة الصهيونية إلى استغلال المؤتمرات والثورات والانقلابات ضد الحكم العثماني، والتغلغل في كافة المجالات والأوساط التي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر على الحكومة العثمانية⁽²⁾، إذ أن العمل الصهيوني في عهد السلطان عبد الحميد لم يكن ملائماً لتحقيق الأهداف الصهيونية، هذا ما يؤكد القنصل البريطاني في القدس " بلش (Blesh) "، الذي يصف المصاعب التي وضعتها السلطات المحلية العثمانية لعملية انتقال ملكية الأراضي إلى الرعايا الأجانب والهادفة إلى منع الاستيطان اليهودي في فلسطين⁽³⁾.

والواقع أن ردود الفعل العربية والحوادث المتكررة بين العرب واليهود، كان لها أثر واضح في إصدار مثل هذه القوانين، وقد أكد وكيل القنصل البريطاني في يافا في رسالته إلى "لوثر" السفير البريطاني في القسطنطينية: "من أن هؤلاء اليهود من المهاجرين الروس مشاغبون ومعتدون بأنفسهم وبسلوكهم وأعدادهم المتزايدة يمكن أن يثيروا استياء أهالي البلاد المسلمين والمسيحيين على السواء"، ويضيف: "بأن الحوادث بين العرب واليهود إنما مردّها إلى وجود شعور متزايد ضد تدفق اليهود"⁽⁴⁾، وبالفعل فقد أكد "بلش": "أنه وقعت صدامات في يافا بين العرب واليهود في مارس 1908م استدعت على أثرها الحكومة المركزية قائم مقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات"⁽⁵⁾، وقد بلغ من سوء الهجرة اليهودية والمضاعفات التي أحدثتها على الصعيد الفلسطيني والصعيد الدولي أن جعل ممثل دولة مؤيدة لليهود يتذمر من تصرفات هذه الفئة التي لا تستحق العطف⁽⁶⁾ على حد تعبيره.

وفي هذه الفترة كانت الدوائر الصهيونية لا تزال تسعى مع الساعين لتغيير نظام الحكم في تركيا مؤكدين استمرارهم في تحركهم إلى أن يحصلوا على مطالبهم، فقد أشاروا في مقرراتهم إلى أنه سنعمل كل ما في وسعنا على منع المؤامرات التي تدبر ضدها حين نحصل نهائياً على السلطة، متوسلين إليها بعدد من الانقلابات السياسية

1- توينبي: فلسطين جريمة و دفاع، ترجمة: عمر الداوي، دار العلم للملايين، بيروت، 1961م، ص 41.

2- عودة بطرس عودة: المرجع السابق، ص 225.

3- رسالة " بلش " إلى " أركونر " 11 جانفي 1908م، نقلا عن خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص 55. أنظر أيضا:

Report to Lowther, Dec 1907, No. 12052 in F.O.195/2276.

4- Report to Lowther, 18 March 1908, No. 1252, in F.O.371/591.

5 -Blesh to Lowther, April 1908, No 2 in F.O.195/2287.

6- رسالة " بلش " إلى " أركونر " 20 جانفي 1908م نقلا عن خيرية قاسية: المرجع السابق، ص 55.

المفاجئة التي ستنظمها⁽¹⁾، ونتيجة للتعاون الصهيوني - الماسوني قرر " الشرق الأعظم " الفرنسي في عام 1900م إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ يجذب لهذا الغرض حركة " تركيا الفتاة " منذ بداية تكوينها⁽²⁾، والواقع أن المبادئ اليهودية والماسونية أثرتا كثيرا على منتسبي جمعية الاتحاد والترقي، الذين حافظوا على تلك المبادئ والتقاليد حتى بعد الثورة، وهناك مسألة جدية بالتدقيق والتأمل وهي أن اليهود المنتسبين لفرقة الاتحاد والترقي أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في هذه الجمعية⁽³⁾.

وفي عام 1908م اتسعت جمعية الاتحاد والترقي وتفاقم خطرهما خاصة بعد دخول اليهود في عضويتها، ودخول يهود " الدوغة المستترين " المقيمين في سالانيك⁽⁴⁾، وتعتبر هذه المدينة المركز الرئيسي لدسائسهم ومؤامراتهم، لأن هذه المدينة تضم عددا كبيرا من الدوغة⁽⁵⁾، ورأى الاتحاديون أن نهاية السلطان باتت وشيكة الوقوع، فقرر أعضاء الجمعية البدء بهذه الثورة والقيام بها يوم ذكرى مقتل السلطان عبد العزيز، غير أن الظروف لم تكن مواتية، ولذا تأجلت من 5 جوان 1908م إلى 23 جويلية من نفس العام⁽⁶⁾،

ويذكر القائد التركي جواد رفعت أتلخان أن الهدف من ثورة 1908م هو: "أن الصهيونيين يريدون تجريد السلطان عبد الحميد الثاني من سلطنته وثروته وأملكه انتقاما منه، ولعدم إفساح المجال له للقيام ضدهم ثانية، والمتردون كانوا منحصرين في سالانيك يريدون إزالة عبد الحميد الثاني من طريقهم لتصفية الجو لهم ... وجمعية الاتحاد والترقي كانت بحاجة إلى المال..."⁽⁷⁾ ويضيف في كتابه الإسلام وبنو إسرائيل: "أن اليهود هم من نشر الفوضى داخلية البلاد، ونظموا القوة المناهضة للحكم التركي قصد تحطيم الدولة العثمانية، وسلحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج، ونظموا صفوفهم وأمدوهم بالأموال، كما نظموا عصابات السلافية في البلقان"⁽⁸⁾، وكان المحفل الماسوني قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة، فقبل عامين من انقلاب يولييه حصل اليهودي قراصوه على

1- محمد خليفة التونسي: المرجع السابق، ص 171.

2- ارنست رامزور: المرجع السابق، ص 126.

3- جواد رفعت أتلخان: الخطر المحيط بالإسلام، المصدر السابق، ص 151.

4- Lord Eversley: **The Turkish Empire**, T. Fisher Unin, London, 1923, P 370.

5- حقائق عن قضية فلسطين، صرح بها مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ص 120.

6- William Miller.Op Cit: P.474.

7- جواد رفعت أتلخان: المصدر السابق، ص 137، وكان أتلخان معاصر لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، وكان مديرة الدائرة الأمن العام العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى وقد وعي أهداف الحركة الصهيونية أثناء النشاط الصهيوني قبل وبعد ثورة 1908-1909م. ويعتبر هذا القائد من الذين تعرضوا - فيما بعد - لتهديدات الصهيونية بعد كشفه الستار عن كثير من المعلومات التي تتعلق بأطماع اليهود في فلسطين وخطرهم على العالم العربي والإسلامي.

8- جواد رفعت أتلخان: الخطر المحيط بالإسلام، المصدر السابق، ص 151، 152.

إذن لعقد اجتماعات جمعية الاتحاد والترقي في محفله، وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسون، في الوقت الذي كان فيه قراصوه منهمكا في تكوين اللجان الداخلية للجمعية⁽¹⁾.

هذا ويمكن القول أن اليهود لعبوا دورا فعالا في ثورة 1908م، ويؤكد (Seton – Watson) هذه الحقيقة بقوله: "إن أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي عام 1908م كانوا يهودا ومن الدوغة، وأما المساعدات المالية فإنما كانت تأتيهم عن طريق الدوغة ويهود سالانيك الممولين"⁽²⁾، وشعر العثمانيون بهذا الانقلاب في سالانيك وكان عدد اليهود سبعون ألفا⁽³⁾. وقد استطاعت هذه الحركة استغلال العداء الذي يكنه العرب وبقية القوميات في الدولة العثمانية لحكم السلطان العثماني، بالرغم من أنه لم يكن هناك هدف واحد وقاسم مشترك بين المشتركين بالثورة، ولكن تعددت الأهداف بتعدد القوميات، تعددت المطالب بتعدد الزعامات، كما يمكن القول أنه لم تكن هناك أهداف مشتركة بين الاتحاديين وبين الحركة العربية سوى اشتراكها في كراهية السياسة الحميدية.

ومن هنا يجب أن يقر حقيقة هامة، هي أن بعض العرب المقيمين في باريس أو في المناطق العثمانية، إنما استغلوا من قبل الصهيونية والموالين لليهود، دون أن يدروا غاياتهم وأهدافهم الأساسية المتمثلة في السيطرة على فلسطين، ولما تعاون العرب مع المنادين بخلع السلطان، إنما كانوا يهدفون من وراء ذلك الوصول إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي للبلاد العربية، بينما لم يكن اليهود والصهاينة يطالبون بمطالب إصلاحية معينة، بل كان مطلبهم الأساسي إنشاء "مملكة إسرائيل".

أ- تشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني:

بعدما أخفق اليهود في إقناع الساسة العثمانيين بالسماح لهم باستيطان فلسطين، أقبلوا على حلفائهم للانتقام من العثمانيين، كي يتسنى لهم تحقيق أطماعهم، ومن هنا بدأت الصهيونية العالمية تتغلغل في كافة المجالات والأوساط التي يمكن أن يكون لها دور في الإجهاز على الدولة العثمانية، فاستغلوا الجمعيات السرية، وشجعوا الحركات القومية ودبروا الثورات والأزمات السياسية والضائقات المالية⁽⁴⁾.

ومن أفتك الأسلحة التي استخدمتها الصهيونية وحلفاؤها للنيل من الدولة العثمانية، استغلال الدعاية الإعلامية اليهودية المغرضة في تشويه سمعة سلاطين الدولة العثمانية وإظهارهم بمظهر الحكام المستبدين، والمنغمسين

1- J.Haslin: Op. Cit, P 284.

2- Seton Watson: **The Rise of Nationality in The Balkans**, London, 1917, P 134.

3- المشرق: أوت 1911م، العدد 8، ص 617.

4- عبد الله التل: الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، المرجع السابق، ص ص 76 - 80.

في الفساد والملاذات، إلا أن ذلك التهميم كان أكثر ضراوة في تناوله للشخصيات العثمانية التي لم تستطع أحاييل اليهود التأثير عليهم⁽¹⁾.

لذا فقد كان السلطان عبد الحميد الثاني صاحب النصيب الأوفر من تلك الدعاية الإعلامية المغرضة، وليس ذلك بغريب وهو الذي وقف على أطماع اليهود في فلسطين⁽²⁾.

بدأ اليهود وحلفاؤهم حركة تشهير واسعة النطاق بهذا السلطان وحكمه، فلم تترك عيبا إلا وألصقته به، حتى أصبح شخصه رمزا للجهل والظلم وإراقة الدماء، والانغماس في الملاذات، وحكمه عنوان للاستبداد والتخلف والرجعية، وأخذوا يكيلون له التهم ويتهمون على أعماله وتصرفاته، حتى لم يبق قرار اتخذته إلا وأثيرت حوله الشبهات⁽³⁾.

وكان هدف هذه الحملة الإعلامية اليهودية ضد السلطان عبد الحميد، الحط من قدره ومسح صورته للتمهيد وتهيئة الرأي العام لتقبل فكرة التخلص منه ليسهل عليهم بعدئذ الانتقال إلى الخطوة التالية وهي القضاء على الدولة الإسلامية ذاتها⁽⁴⁾.

ومن بين أهم الافتراءات والشبهات التي أثّرت حول السلطان عبد الحميد الثاني نجد ما يلي:

– اتهامه بالميل لسفك الدماء وتلقيه ب (السلطان الأحمر):

من الاتهامات التي افترها اليهود على السلطان عبد الحميد تهمة ميله إلى سفك الدماء، وإطلاق لقب السلطان الأحمر عليه⁽⁵⁾، ولمعرفة دوافع إطلاق هذه التهمة أن نتعرف على أهم مصادر ترويجها، والحق أن السلطان عبد الحميد يقول في مذكراته: "أحضر لي مرافقي أول أمس كتابا صغيرا باللغة الفرنسية عنوانه (إلى ذكرى بيير كيار) وهو كتيب يحتوي على هجاء ومديح، والممدوح هو "بيير كيار" والمهجو هو أنا أعرف بيير كيار اسما... كان مدرس الفساد في المدارس الأرمنية... شيء غريب كان بيير كيار هو الذي أطلق عليه لقب (الحيوان

1- زياد أبو غنيم: المرجع السابق، ص 50

2- جواد آتلاخان: الإسلام وبنو إسرائيل، المصدر السابق، ص 209

3- إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988، ص 7. - محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 773

4- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 772.

5- المصدر نفسه، ص 773.

الأحمر)، كنت أعرف الكلمة ولكني كنت أجهل قائلها، وبقدر ما أحمل من أوسمة أجنبية بقدر ما سميت بأسماء أطلقت علي من هذه البلاد الأجنبي"⁽¹⁾.

وهكذا أوضح السلطان عبد الحميد أن أول من أطلق عليه هذا اللقب الجائر هو نفسه المحرك الأول للفتنة الأرمنية، وأن اليهود والدول الاستعمارية كانوا وراء قيامها، ومن أهم المصادر التي تهجمت على السلطان عبد الحميد، واتهمته بالوحشية والميل لسفك الدماء، كتاب (الأهوال البلغارية والمسألة الشرقية) الذي نشره "جلادستون" زعيم حزب الأحرار في إنجلترا عام 1876م، والذي اتخذ من المذابح التي تعرض لها المسيحيين البلغار نتيجة للثورة البلغارية ذريعة لشن حملة إعلامية شرسة للتشهير بالحكم العثماني وبالسلطان عبد الحميد فراح يصفها بالبربرية والوحشية وعداوة الإنسانية⁽²⁾.

ومن أهم الذين شجعوا "جلادستون" على شن هذه الحملة "جرانفيل" وزير المستعمرات البريطاني، وأنه قد حصل على وعد مسبق من قبل الصحف البريطانية الكبرى التي يسيطر عليها اليهود وعلى رأسها صحيفة (The Times) لتأييده في التشهير بالحكم العثماني⁽³⁾.

واتخذ مروجو الحملة الإعلامية المغرضة من أحداث الثورة البلغارية ذريعة لإقناع الرأي العام بأن السلطان عبد الحميد الثاني سفاح يجب إراقة الدماء، واستغلوا كذلك أحداث الفتنة الأرمنية لنفس الغرض، حيث راحوا يتخذون من موقف السلطان الصلب في التصدي لهذه الفتنة وشدته مع الذين أثاروها، وما نجم عن تلك الفتنة من مذابح، حجة أخرى لإثبات ادعاءاتهم⁽⁴⁾.

والحقيقة هي أن السلطان عبد الحميد معذور إن صدرت عنه بعض القسوة مع الأرمن إذ كيف يمكن معالجة ثورة أقدم أهلها على المطالبة بدولة مستقلة تحمل الشعار الصليبي وتعادي الإسلام وتتفق مع أعدائه، وتأخذ المساعدات منهم لضرب الدولة العثمانية⁽⁵⁾.

1- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 120 - 121

2- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، المصدر السابق، ص 720. - هارولد تمبرلي و أ.ج. جرانت: المرجع السابق، ص 17

3- عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المرجع السابق، ص 186- عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق، ج 2، ص 855 - 856.

4- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 126 - 127.

5- محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق، ص 297-300. - اورخان محمد علي : المرجع السابق، ص 216 - 217

كما أنه ليس من العدل أن يوصف حاكم يقدم على إعدام أو إبعاد أو اعتقال من خانوا الوطن بالوحشية، فليس هناك شريعة أو قانون في العالم لا يجيز قتل خائن الوطن.

والحق أن ما طبع عليه السلطان عبد الحميد وبدت آثاره على سياسته كان عكس ما أشيع عنه تماماً، فقد كان لين الجانب يميل للمساملة ويكره الحروب وينفر من إراقة الدماء ولم يصادق طيلة مدة سلطنته إلا خمس مرات على عقوبة بالإعدام، فقد كان يستبدل حكم الإعدام على مستحقه بالسجن المؤبد⁽¹⁾، وخير دليل على ذلك نجد موقف السلطان عبد الحميد الثاني من مدحت باشا، حين اكتشف السلطان عبد الحميد أنه كان عميلاً لبريطانيا⁽²⁾، صدر حكم القضاء العثماني بالإعدام على مدحت باشا، إلا أن السلطان عبد الحميد استبدله بالنفي خارج البلاد⁽³⁾.

وكيف يمكن أن يوصف بمثل هذه الأوصاف السلطان عبد الحميد، وهو الذي كان يعلم منذ البداية بما كان يديره ضده من أطلقوا على أنفسهم إسم الشباب الأحرار في أوكارهم في سلانيك وفي أوروبا، ورغم ذلك عاملهم بمنتهى الشفقة، على أمل استنابهم وإرجاعهم إلى جادة الصواب⁽⁴⁾، يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته في هذا الصدد: "... هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم إسم (تركيا الفتاة) كانوا في الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة، وهؤلاء عملوا ضدي عدة سنوات في أوروبا، تكلموا، خططوا، كتبوا كل ذلك قبل أن يفكروا أن العمل ضدي معناه أيضاً العمل ضد الوطن... ورغم هذا فإني كنت على صلة بهم، وحتى لا يتورطوا في شيء نتيجة لإفلاسهم، فقد بذلت لهم مساعدات مادية كبيرة بحجة شراء صحفهم... وكنت أقول: إن معارضتهم يجب أن تظل شريفة"⁽⁵⁾.

كما أشار السلطان عبد الحميد في مذكراته بقوله: "أوصاني مجموعة من رجال الدولة وفي مقدمتهم ناظم باشا بإيقاف جيش الحركة في الطريق قبل وصوله، ولكنني رفضت... ونبهت بشدة ألا يخرج الجيش الموجود في إستانبول من ثكناته... ألم يكن في إمكان جنود إستانبول في حالة خروجهم من ثكناتهم وانتشارهم على أعالي

1- محمد كرد علي: المصدر السابق، ج 3، ص 124. - يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 188.

2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 106 - 107

3- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج 1، المصدر السابق، ص 743

4- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 28

5- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 131-132

كاغد خانة أن ينتصروا على ذلك الجند القادم من سلانيك، وهم في حالة يعوزها النظام؟ لم أرغب في أن أريق دماء جنودي"⁽¹⁾.

وشهد "زاهد باشا الهبل" - باشا دمشق - بأن السلطان عبد الحميد الثاني، عندما علم بعصيان جيش سلانيك وتقدمه نحو العاصمة، لم يأمر جنده بالمقاومة ورفض طلب كبار رجال الدولة الإذن لخروج الجيش الموجود في استانبول، ليتصدى لهذا العصيان الذي جاء ليطيح بعرشه، وقال لرجاله: أعرف جيدا أن كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط القتلى منكم ومنهم، وأنتم جميعا أفراد من هذه الأمة والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائده"⁽²⁾.

- اتهامه بالرجعية والجمود:

كان من جملة تلك الاتهامات التي كالحا اليهود للسلطان عبد الحميد الثاني، تهمة الرجعية والانغلاق، والتخلف بدولته عن ركب الحضارة الأوروبية، وقد حظيت هذه التهمة بحالة إعلامية يهودية كبرى بدأت في الخارج، ثم تسربت إلى داخل الدولة العثمانية على يد بعض أبنائها الذين بعثوا للدراسة في الجامعات الأوروبية، فانبهروا ببريق الحضارة الغربية فاندفعوا يلهثون وراءه دون تمييز بين غثها وسمينها"⁽³⁾.

كما تأثر هؤلاء الطلبة بالأفكار المنحرفة التي كان ييثرها في عقولهم أساتذة الجامعات الغربية من اليهود والنصارى، مما أفقدهم الثقة بخليفتهم ونظام الحكم في بلادهم"⁽⁴⁾، فهذا ما شهد به زعيم الصهيونية هرتزل في الخطاب الذي بعثه إلى السلطان عبد الحميد في عام 1902م، يحثه على أن يأذن لليهود بإنشاء جامعة عبرية في القدس حيث يقول: "لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتك المتناهية الاقتراح التالي: إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقي العلم في الخارج، وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع، خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية، مما يجعل الحكومة أمام أمرين، إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي أو أن تعرضهم إلى مخاطر الغوايات السياسية، على أن هناك حلا للمشكلة، وأنا أسمح لنفسي بكل اتضاع أن أقدم لحكمة جلالتك هذا الحل، إننا معشر اليهود نلعب دورا هاما في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، والأساتذة اليهود يملؤون جامعات البلدان، كما أن هناك عددا كبيرا من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية"⁽⁵⁾.

1- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 194

2- حسان حلاق: المرجع السابق، ص 323 - 324

3- محمد قطب: واقعنا المعاصر، المرجع السابق، ص 347

4- أنور الجندى: الليقطة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، دار الاعتصام، القاهرة، ص 130

5- يوميات هرتزل: المصدر السابق، ص 214

وأشار أيضا السلطان عبد الحميد في مذكراته إلى الانحراف الذي كان عليه رعاياه المطالبين بالحضارة الغربية، حيث يقول: "بعض الشباب الذي ذهبوا إلى أوروبا، قبل أن ينظروا ما يحدث في المختبرات العلمية هناك، كانوا ينظرون الى السيدات تراقص الرجال، ويعجب بالأوربيين وهم يشربون الخمر أيضا، وعند عودتهم إلى بلادهم يوصون بالأخذ بكل ذلك مدعين أن قمة الحضارة الأوربية تتمثل في مثل هذه الأمور، وكنت أقول: إن هذا خطأ فكانوا يتهمون تفكيري بأنه عنكبوتي"⁽¹⁾.

أوضح السلطان عبد الحميد في هذا الأمر من خلال مذكراته بقوله: "ليس من الصواب القول بأي ضد كل تجديد يأتي من أوروبا لكن العجلة من الشيطان ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال، يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل به الله علينا... ليس الإسلام ضد التقدم، ولكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج"⁽²⁾.

لكن الواقع أن هؤلاء الطلاب الذين وقعوا في شرك تلك العناصر الصهيونية من الأساتذة المستشرقين الذين درسوهم الكثير من المبادئ والاتجاهات الفكرية المضللة، ليسلحوهم عن مقومات دينهم وثقافتهم، كانوا يطالبون بأخذ المنظومة الحضارية الأوربية كاملة بخيرها وشرها⁽³⁾.

أما بخصوص المطالبة بالحكم النيابي أو الدستوري والذي جاء مصاحبا لتيار التغريب الذي يدعو إلى الإصلاح على الطريقة الغربية، فقد كان أول الساعين إليه مدحت باشا⁽⁴⁾، وقد حاول مدحت باشا أن يضيف على مطلبه هذا لباس الدين فادعى بأن ما يدعو إليه هو وأتباعه ليس إلا نظام الشورى الإسلامي⁽⁵⁾.

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد لم يكن مقتنعا بالحكم النيابي أو الدستوري، ولم يكن دافعه إلى ذلك نابعا من محاربته للتقدم أو رغبته في الاستئثار بالحكم والاستبداد به كما يحاول أعداؤه أن يصوروا ذلك، وإنما كان عن اقتناع بأن هذا النظام لا يناسب الدولة العثمانية التي يعيش تحت مظلتها العديد من الأجnas والأقليات غير الإسلامية التي ثبت ولاؤها للدول المعادية للدولة العثمانية⁽⁶⁾.

1- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 182 - 183

2- المصدر نفسه، ص 27

3- محمد قطب: واقعنا المعاصر، المرجع السابق، ص 344. - إسماعيل الكيلاني: المرجع السابق، ص 40 - 41.

4- يوسف بك أصف: المصدر السابق، ص 128

5- أنور الجندي: المرجع السابق، ص 91 - 92

6- إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 359

كما أن السلطان عبد الحميد كان يعلم أن زعماء المطالبين بهذا النظام والمروجين له، وعلى رأسهم مدحت باشا كانوا عملاء لليهود والدول الاستعمارية⁽¹⁾.

وقد بين السلطان عبد الحميد الثاني أسباب عدم اقتناعه بتطبيق النظام الدستوري في مذكراته بقوله : "قلت وسأقول، شرحت وأسأشرح مسألة هامة وهي، ألم يكونوا يفكرون أن الدولة العثمانية دولة تجمع أمما شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد⁽²⁾، هل في البرلمان الإنجليزي نائب هندي واحد، أو إفريقي أو مصري ؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد ؟ وهم يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب"، كما يقول السلطان في موضع آخر من مذكراته : "مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية، ولا تأثيراتها الأخرى، أقراص لا تصلح لكل مرض كما لا تصلح لكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية قومية"، ويضيف السلطان قائلاً : "عند افتتاح مجلس المبعوثان للمرة الثانية أوضحت أن سبب الاغلاق الأول هو أن الأمة لم تكن قد وصلت بعد إلى الحالة الضرورية من الرشد... الدواء الناجح يصبح سما زعافا إذا كان في يد غير الأطباء، أو في يد من لا يعرفون أصول استعماله".⁽³⁾

ومن الوسائل التي استخدمها اليهود لتمزيق الدولة العثمانية، يقول السلطان عبد الحميد في هذا الشأن : "...والثانية القول بالمشروطية لإحداث الفرقة بين أنفسنا، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصارا يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السم⁽⁴⁾".

- اتهامه بالجهل :

لقد اتهم السلطان عبد الحميد بالجهل ومحاربة العقل والعلم، وأغرب ما في الأمر أن يردد هذه التهمة أناس كان للسلطان عبد الحميد الفضل فيما وصلوا إليه من علم وثقافة⁽⁵⁾، وقد أشار السلطان عبد الحميد إلى هذا الأمر في مذكراته بقوله : "...لكن كم هو غريب أن هؤلاء الذين يحملون لي كل هذا العدا، درسوا كلهم تقريبا في المدارس التي افتتحتها أنا، ومع ذلك وبكل أسف لا ينجحون أن يطلقوا علي لقب عدو العقل والعلم"⁽⁶⁾.

1- إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 359. أنظر أيضا: أورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 97.

2- يقصد بالعنصر الأصلي المسلمون.

3- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 131، 80، 96.

4- المصدر نفسه، ص 145.

5- أورخان محمد علي: المرجع السابق، 148.

6- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 164.

ولقد أثبتت الوثائق والمصادر التاريخية عكس ما اتهم السلطان عبد الحميد الثاني بالجهل، ومحاربة العقل والعلم، وأنه لم ينل حظاً من العلم والثقافة، فقد تلقى في نشأته العديد من العلوم على أيدي نخبة من الشخصيات العلمية، فتعلم اللغة العربية والفارسية والفرنسية والتركية⁽¹⁾، كما تلقى دروساً في العلوم الإسلامية وخاصة الحديث من صحيح الإمام البخاري، وكذلك درس الاقتصاد السياسي والتاريخ والأدب، وقد أشرف على تدريسه كل هذه العلوم وامتحنه فيها الوزير "أحمد كمال باشا" الذي تقلد وزارة المعارف ستة مرات ووزارة الأوقاف مرتين في الدولة العثمانية⁽²⁾.

أما فيما يخص مجال العلوم التقنية والفنون الجميلة، فقد ذكرت الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد في مذكراتها: "بأن والدها كان يجيد نظم الشعر والرسم والخط والنجارة والحفر على الخشب مشيرة إلى أن هذه المواهب قد صقلتها الدراسة العلمية لهذه الفنون على أيدي الخبراء، في عهد مبكر من حياته"⁽³⁾.

ولم يتوقف التحصيل العلمي والثقافي عند السلطان عبد الحميد الثاني على ما ناله من الدراسة في بداية شبابه، بل كان حريصاً على القراءة والاطلاع حتى بعد توليه حكم الدولة العثمانية، وكان شغوفاً بتتبع الصحف وقراءة الكتب في شتى المجالات، وقد شهد له بهذا معاصريه، ومنهم الفريق البحري الإنجليزي "السير هنري وودز" حيث يقول: "...كان السلطان عبد الحميد يتابع الصحافة الأوربية يومياً ويأمر بترجمة الكتب المهمة في نفس العام الذي تصدر فيه ويقرأها أو يستمع لقراءتها، وهكذا ترجم 6000 كتاب وجدت في مكتبته على شكل دفاتر"⁽⁴⁾.

كذلك أشارت ابنته الأميرة عائشة في مذكراتها بقولها: "كان الوالد في النهار يكلف أمين بك موظف المابين"⁽⁵⁾ بأن يقرأ عليه الكتب التاريخية الهامة، وكان هذا الرجل محل تقدير عظيم منه، لأنه كان ماهراً في الترجمة الترجمة السريعة السهلة من الفرنسية إلى التركية"⁽⁶⁾.

1- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 53.

2- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 97. - مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 164.

3- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 86، 340.

4- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 190 - 191، نقلاً عن مذكرات هنري وودز، ص 66.

5- المابين: هو ديوان خاص بالسلطان في قصر يلدز يتألف من مجموعة من المستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين، ويعتبر هذا الديوان المرجع الأول في شئون الحكم لون الباب العالي، وقد عرف هذا الديوان باسم المابين وهي لفظة مأخوذة من اللغة العربية لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالي فهو ما بين الفريقين. أنظر: عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج 1، ص 372.

- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 193.

6- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 91.

أما إذا كان يقصد باتهامه بالجهل أنه لم يول العلم اهتمامه وأنه كان عدوا للمتعلمين، فهذا القول أيضا يتعارض مع اهتمام السلطان عبد الحميد بهذا الميدان⁽¹⁾، حيث يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: "كنت عدوا للعقلاء ! هكذا يكتبون دون أدنى حجل ... هل يمكن أن يكون عدوا للعلم والعقل سلطان بذل كل ما في وسعه قرابة الثلاثين عاما لكي يرى في كل قرية مسجدا وبجانب المسجد مدرسة"⁽²⁾.

لقد اتفقت آراء المؤرخين بشكل يقرب من الإجماع على أن التعليم قد تقدم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بشكل ملحوظ⁽³⁾.

لقد سعى السلطان عبد الحميد الثاني في توسع نشر التعليم على جميع مستوياته، فأنشأ المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في كافة الولايات، وكان في استانبول وحدها ستة مدارس ثانوية، أما فيما يخص القرى فقد كان يوجد فيها مدرسة ابتدائية واحدة على الأقل، كما أنشأ العديد من كليات المعلمين لتلبية حاجة هذه المدارس⁽⁴⁾.

وحظي التعليم العالي بعناية فائقة من السلطان عبد الحميد، فأنشأ العديد من الكليات، منها كلية الحقوق (مكتب حقوق شاهانة)، وكلية العلوم السياسية (مكتب ملكية شاهانة) وأكاديمية الفنون الجميلة (مكتب شاهانة صنایع نفیسه)⁽⁵⁾، وأقام كلية للطب في دمشق وكلية الحقوق في بيروت، كما انتشرت كليات المعلمين في الكثير من حواضر الولايات العثمانية⁽⁶⁾، وأرسل عددا كبيرا من البعثات إلى الدول الأوروبية لاستيفاء التحصيل العلمي في مجالات عديدة⁽⁷⁾.

ولم يقتصر اهتمام السلطان عبد الحميد على تعليم أبناء البلاد من الذكور فقط، بل حظيت الفتاة أيضا بالعناية، فأقام العديد من مدارس تعليم بنات، ودورا لإعداد المعلمات، ومدرسة للفنون النسوية⁽⁸⁾، ومما يدل على

1- أكمل الدين أوغلي وآخرون : المرجع السابق، ج 2، ص 514.

2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 162 - 164.

3- محمد كرد علي: المصدر السابق، ج 3، ص 124. - مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 36 - 37.

4- أكمل الدين أوغلي وآخرون : المرجع السابق، ج 2، ص 514-541. - محمد قريان نياز ملا : المرجع السابق، ص 126.

5- محمد حرب: العثمانيون في تاريخ الحضارة، المرجع السابق، ص 55.

6- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 23.

7- يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ج 2، ص 187.

8- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 37.

على شدة اهتمام السلطان بمحاربة الجهل وإتاحة فرصة التعليم لكافة أبناء شعبه، أنه قد أنشأ مدارس متخصصة في تعليم الصم والبكم والعمي⁽¹⁾.

وقد ألحق السلطان عبد الحميد الثاني ببعض الكليات دورا لإقامة الطلبة المغتربين، ليشجع الطلاب على استكمال دراساتهم العليا⁽²⁾.

وبذل السلطان عبد الحميد الثاني جهودا في مجال التعليم بإنشاء جامعة استانبول عام 1900م، والتي كانت فكرة تعثر تنفيذها في عهد بعض سابقاته من السلاطين، وقد ضمت أربع كليات هي: كلية الآداب، وكلية العلوم الدينية، وكلية العلوم الرياضية، وكلية العلوم الطبيعية⁽³⁾.

وفي موازاة التطورات التي حدثت في مجال التعليم في عهد السلطان عبد الحميد نشطت أيضا حركة الترجمة وطباعة الكتب والصحف والمجلات⁽⁴⁾، وإن كانت الأمانة تقتضي الاعتراف بأن السلطات العثمانية قد فرضت نوعا من الرقابة على هذه المطبوعات اقتضتها الظروف الصعبة المحيطة بالدولة⁽⁵⁾.

كما وجه السلطان عبد الحميد اهتمامه للعديد من المؤسسات الثقافية الأخرى فأنشأ متحف الآثار القديمة والمتحف العسكري، ومكتبة يلدرز ومكتبة بايزيد⁽⁶⁾.

بل ويشهد بدور اليهود في اختلاق وترويج هذه الافتراءات الكاتب اليهودي "أورام غالانتي" حين يقول: "إن الجمعية الإسرائيلية بمصر أكدت أن من أهم واجباتها إدخال المطبوعات التي تهاجم السلطان عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال، وهي المطبوعات التي كان يحررها أعضاء تركيا الفتاة"⁽⁷⁾.

1- محمد حر: العثمانيون في تاريخ الحضارة، المرجع السابق، ص 55.

2- محمد قريان ملا: المرجع السابق، ص 127.

3- عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج 2، ص 1159.

4- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 32.

5- إسماعيل ياغي: المرجع السابق، ص 204. أورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 160.

6- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 37-38.

7- فتحي شهاب الدين: المرجع السابق، ص 30، نقلا عن أورام غالانتي: توركلر ويهود يلر، ص 22.

- اتهامه بالاستبداد:

ان ظروف الدولة العثمانية عندما تبوأ السلطان عبد الحميد سدة حكمها، كانت تمر بمرحلة من أصعب مراحلها والخلل في كل ركن من أركانها⁽¹⁾، فبالإضافة إلى جهاز إداري في غاية الفساد يسيطر عليه الماسون والدوغمه، كان هناك نزاع بين القوميات، وأزمات اقتصادية خانقة جراء الديون المتراكمة، وثورات وشغب من الأقليات، وصهيونية عالمية تسعى لاقتطاع فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود على أرضها⁽²⁾.

رغم هذه الظروف الصعبة واجه السلطان عبد الحميد الثاني جميع هذه التحديات القاهرة ولم يستسلم⁽³⁾، ناهيك عن الوضع النفسي لسلطان يتولى في أعقاب إسقاط سلطانه خلال أشهر قليلة استشهد أحدهما وجن الآخر⁽⁴⁾، وقد ثبت أنه لبعض كبار ضباط الجيش ورجال الدولة ضلع في العمليتين⁽⁵⁾.

استطاع السلطان عبد الحميد الثاني بحكته السياسية وسماحته الإسلامية أن يحتوي الأقليات، واتبع سياسة متوازنة مع الدول الأوروبية لإبعاد بلاده عن الحروب التي لم تكن مهية للدخول فيها، وعمل جاهدا لتقوية الروابط الروحية بين المسلمين - الجامعة الإسلامية - للوقوف صفا أمام القوى المعادية لهم، ودعرا للانشقاقات الطائفية، والأهم من كل ذلك أنه تنبه إلى المخطط الصهيوني الاستعماري للاستيلاء على فلسطين فتصدى له بكل ما أوتي من قوة⁽⁶⁾.

لذا فليس غريبا أن يذهب أولئك المغرضين إلى وصفه بالمستبد والظالم والطاغي.

لا يمكن أن يلام السلطان عبد الحميد إن ساوره الشك في كل من حوله واستأثر بإدارة دولته، وقد اكتشف أن الصدر الأعظم لدولته رئيس الوزراء ماسوني وعميل لأكبر أعداء دولته الإنجليز⁽⁷⁾.

1- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 53.

2- مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي: المصدر السابق، ص 13.

3- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 742.

4- المقصود بالسلطان الذي استشهد هو السلطان عبد العزيز الذي وجد مقتولا في غرفة نومه بعد خلعه وثبت أن مدحت باشا وبعض أعوانه كانوا وراء هذا الحادث، والثاني هو السلطان مراد أخو السلطان عبد الحميد الذي أصيب باضطراب عقلي على اثر بعض الضغوط النفسية التي تعرض لها من جراء ما حدث لعنه السلطان عبد العزيز وكذلك بعض الأحداث التي جرت في عهده. - إبراهيم بك حليم:

التحفة الحلمية في تاريخ الدولة العلية، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص 220 - 222.

5- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 138.

6- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 185 - 192. - محمد قربان نياز ملا: المرجع السابق، ص 82.

7- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 107.

فإذا ظهر من السلطان عبد الحميد ما يمكن أن يوصف بأنه مستبد، فذلك لأن مقتضيات وقت حكمه قد دعت به إلى ذلك، فقد كان عليه أن يكون حذرا، ليظل ممسكا بزمام الأمور في دولته، وحتى لا يكون مصيره كمصير أسلافه⁽¹⁾.

إن شدة حذر السلطان عبد الحميد الثاني وحييطته، وتوجسه الخطر من حوله قد سيطر عليه بشكل مبالغ فيه بعض الشيء، وأوقعه في بعض الأخطاء غير المقصودة⁽²⁾، حيث دفعته شدة حذره إلى الاستعانة بجهاز واسع من المخبرين والجواسيس، الذين كانت تقاريرهم أحيانا غير دقيقة مما ترتب عليه وقوعه في بعض الأخطاء، رغم حرصه الشديد على التثبت من صحة التقارير التي تصله⁽³⁾.

إذا فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن اليهود كانوا وراء إطلاق هذه الأباطيل، والترويج لها سواء عن طريق ما كان يكتبه يهود الدوغة من أعضاء (تركيا الفتاة) و(الاتحاد والترقي) أو عن طريق ما تروجه أبواقهم الإعلامية من ترهات مضللة.

ب- إيقاع الدولة العثمانية تحت طائلة الديون:

كان الغش والسرقة والاستغلال هي القاعدة التي يقيم اليهود عليها معاملاتهم الاقتصادية مع كافة الأمم والشعوب غير اليهودية⁽⁴⁾، لذا فلا يستغرب كون اليهود قد عملوا على كل ما من شأنه أن يضعف الدولة العثمانية اقتصاديا ليتسنى لهم إغراقها بالديون، فالدولة العثمانية علاوة على كونها خارجة عن نطاق الشعوب اليهودية هي عدو اليهود التي حالت دون تحقيق أحلامهم وأطماعهم في فلسطين⁽⁵⁾.

لقد ضمن اليهود أنهم إذا نجحوا في إثقال كاهل الدولة العثمانية بالديون فإنه بإمكانهم إخضاع حكومتها لرغباتهم، وإجبارهم على السماح لهم بتنفيذ مشاريعهم⁽⁶⁾.

1- محمد قطب: واقعنا المعاصر، المرجع السابق، ص 153.

2- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 188 - 191.

3- س. ناجي: المفسدون في الأرض... جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ، ط 2، العربي للاعلان والنشر، دمشق، 1973، ص 314 - 315.

4- سعد الدين السيد صالح: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، ط 2، دار التابعين للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990م، ص 198 - 199.

5- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 287.

6- المرجع نفسه، ص 287.

لذا نجد اليهود وحلفائهم الأوروبيين قد عمدوا في إثارة الفتن داخل الدولة العثمانية، وإضرار نار الحروب خارجها.

كما هو معروف أن التصدي للحروب والفتن الداخلية يتطلب تجنيد فئة كبيرة من أبناء البلاد لفترات طويلة، مما يعني حرمان البلاد من مشاركة شريحة كبيرة ومهمة من الشباب في إنفاذ خططه التنموية. لا سيما الاقتصادية منها، سواء كانت في المجال الزراعي أم التجاري، إضافة إلى ما تتطلبه تلك الحروب من أموال طائلة كرواتب الجند، ووسائل النقل، وتوفير السلاح والذخيرة، وغير ذلك مما تقتضيه الحروب⁽¹⁾.

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني إلى هذا الموضوع في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة انعقاد البرلمان العثماني الأول في عام 1877م، والذي شرح فيه الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة العثمانية وتأخرها، ومن ذلك قوله: "...وهكذا والذي المرحوم عبد الحميد قد اقتفى هذا الأثر، فأعلن أساس التنظيمات الخيرية...ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا وزراعتها، وزادت واردات دولتنا أضعافاً في أمد قليل...وبينما شب في دولتنا أمل النجاح بناء على هذه المقدمات الحسنة ولا سيما بناء الأمانة الداخلية ظهرت حرب القرم، فكان ظهورها مانعاً لدوام المساعي بتنظيم أحوال الملك والتبعة، ومع أن خزانة دولتنا كانت حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد، اضطررنا للاستقراض من الخارجي دفعا للاحتياج والضرورة فتعذر، والحالة هذه تقابل وارداتنا مع مصاريف الحرب المبرمة، وبهذا السبب فتح باب الدين، نعم إنه في هذه المسألة بواسطة اتفاق الدول المفخمة...إن توالي الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحركات والتسويات لم تخولنا وقتاً للنظر في إصلاحات ملكنا وتنظيماته، بل أوقعت زراعتنا وتجارتنا في وقوف عظيم لاضطرارنا في كل عام لجمع معسكرات فوق العادة في أنحاء مختلفة ووضع الصنف الأكثر نفعا من أهاليها تحت السلاح...فدوام هذه العوائل وتعاقبها وإنشاء الأدوات والأسلحة الجديدة الحربية التي هي أعظم أسباب شوكة دولتنا واقتدارها وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية من الجهة الأخرى، أفضت إلى انتقاض إدارتنا درجة فدرجة فأنجحت ما نحن فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة"⁽²⁾.

لقد اتفق الكثير من المؤرخين والمحللين الاقتصاديين على أن أهم أسباب الارتباك المادي الذي عانت منه الدولة العثمانية في عهدها المتأخرة عائد إلى كثرة الحروب التي افتعلها أعداؤها وأقحمت فيها⁽³⁾، ومثال على

1- مصطفى صبري: المصدر السابق، ص 98.

2- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ص 595-596.

3- محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، ط 1، دار التراث، القاهرة، 1978م، ص 269 - 270.

ذلك، عانت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني (1808 - 1839م) من ضائقات مادية، كان من أهم أسبابها تكاليف الحروب التي سببتها الثورة اليونانية والتصدي لأطماع محمد علي باشا التوسعية، وقد كان للتحريضات الأجنبية أثر بالغ في كلا الحدثين⁽¹⁾.

في عهد للسلطان عبد العزيز (1861 - 1876م) فقد عانت الدولة العثمانية من مصاعب مالية كبيرة، حيث خلف أسلافه ورائهم ديناً باهظاً⁽²⁾، مما أتاح الفرصة للدول الأجنبية الدائنة للتدخل في شؤون الدولة الداخلية عن طريق مراقبيها الماليين الذين فرضتهم على الدولة العثمانية⁽³⁾، ولكن السلطان عبد العزيز أدرك ذلك الخلل، من خلال توكيل بعض رجاله أمر إصلاح الأوضاع المالية، وأنشأ في استانبول ديوان للمحاسبة، كما أنشأ البنك العثماني لنفس الغرض⁽⁴⁾، وفي هذا الصدد أيضاً أمر السلطان عبد العزيز بالاقتصاد في جميع فروع ميزانية الدولة حتى في المبالغ المخصصة لسريته الخاصة⁽⁵⁾.

وعندما كادت الدولة أن تنجح في تخفيف العجز المالي أقلق ذلك أعداءها فراحوا يثيرون الفتن السياسية ويسعون لإغراقها في مزيد من الديون، فمن ناحية عملت العديد من الدول الأوروبية على إثارة رعايا الدولة المسيحيين في عدة مناطق وشجعتهم على الثورة ضد الحكومة العثمانية بحجة المطالبة ببعض الامتيازات فقامت ثورة في جزيرة كريت وأخرى في بلغاريا، وثالثة في ولايتي بوسنة وهرسك، ثم امتدت إلى بلاد الصرب والجبل الأسود، وإلخاد هذه الثورات تكبدت الدولة خسائر مادية جسيمة⁽⁶⁾.

أما من ناحية أخرى نجح الصدر الأعظم اليهودي مدحت باشا في إقناع السلطان عبد العزيز بأهمية إصدار فرمان الذي يمنح خديوي مصر إسماعيل باشا حق الاقتراض من الخارج في عام 1872م، وبذلك أتاح مدحت باشا الفرصة لأربابه الإنجليز ليستغلوا إسراف ورعونة الخديوي إسماعيل⁽⁷⁾، الذي أغرق مصر بالديون الخارجية ثم طرح أسهمها في قناة السويس للبيع، عندما اشتدت به الضائقات المالية فكانت تلك هي الفرصة التي طالما حلم

1- محمد عبد اللطيف البحراوي: المرجع السابق، ص 270 . -إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 273، 302.

2- اورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 44.

3- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص 574.

4- إبراهيم بك حليم: المصدر السابق، ص 218.

5- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 541.

6- إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 346. - إبراهيم بك حليم: المصدر السابق، ص 219.

7- يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ج 2، ص 79.

بها الإنجليز، فسارع رئيس وزراءهم اليهودي "دزرائيلي" بشراء تلك الأسهم⁽¹⁾، وقد كان للبارون اليهودي البريطاني "روتشلد" فضل كبير في تمويل تلك الصفقة السياسية⁽²⁾، التي حققت لبريطانيا مزيدا من الضمانات لسلامة مستعمراتها القديمة، كما أتاحت لليهود الفرصة ليخطو خطوة واسعة في طريق تحقيق أحلامهم الصهيونية⁽³⁾.

استغل اليهود وحليفهم بريطانيا للضائقة المالية التي افتعلوها في مصر، واتخذوها ذريعة للتدخل في شئونها الداخلية، حيث توالى البعثات الأجنبية لبحث أحوال مصر المالية، ثم قاموا بتعيين المراقبين الماليين لتسوية الديون وبهذه الحجة أعطوا أنفسهم حق التدخل في كافة شؤون البلاد، لينتهي الأمر عام 1882م باحتلال بريطانيا لمصر ونجاح اليهود في إسقاط إحدى أهم دعائم صرح الدولة الإسلامية الذي يسعون لتقويضه⁽⁴⁾.

وبذلك تحقق لليهود ما وعدهم به حاخاماتهم ومنهم الحاخام "رايخون" الذي جاء في الخطاب الذي ألقاه عام 1869م - في اجتماع سري عقده اليهود في مقبرتهم الخاصة بمدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا تأيينا الكبير الحاخامين "سيمون بن يهودا" قوله: "...يعيش الملوك والأباطرة والأمراء اليوم مثقلين بالديون، وعلمنا أن نستغل هذه الناحية ونزيد من قروضنا لهم مقابل رهن أملاكهم، وسكك الحديد والمصانع والمناجم في بلادهم، وبذلك تتم لنا السيطرة على عروشهم وإماراتهم"⁽⁵⁾.

أما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فقد كانت الدولة العثمانية تمر بأوضاع اقتصادية متدهورة⁽⁶⁾، ففي الوقت الذي كان هذا السلطان قد عقد العزم على السعي من أجل تدارك الوضع وإصلاح ما يمكن إصلاحه لرفع المستوى الاقتصادي للدولة وتسديد الديون التي أثقلت كاهلها⁽⁷⁾، كان اليهود في الوقت ذاته قد اعتقدوا بأنه بأنه آن الأوان لحصاد ثمار جهودهم السابقة التي بذلوها في سبيل الوصول بالأوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية إلى الوضع المتردي الذي وصلت إليه، وهىء لهم أنه بإمكانهم استغلال هذا الوضع لتحقيق مخططاتهم، لذا فقد سعى زعيمهم هرتزل جاهدا حتى حظي بمقابلة السلطان عبد الحميد الثاني ظانا بأن ملايين اليهود التي جاء يلوح

1- هارولد تمبرلي و أ.ج. جرانت : المرجع السابق، ج 2، ص 16. عبد العزيز الشناوي : قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها، ج 1، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971، ص 16.

2- عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ص 63.

3- عبد الرؤوف أحمد عمرو: قناة السويس في العلاقات الدولية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977، ص 40.

4- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، المصدر السابق، ص 369، 410.

5- عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المرجع السابق، ص 136، 140.

6- محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق، ص 229 - 231.

7- يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ج 2، ص 127.

بما كفيلة بأن تجعل هذا السلطان يخضع لرغباتهم وينفذ لهم كل مطالبهم⁽¹⁾، ويقول هرتزل في هذا الموضوع في مذكراته: " أعطيته رأيي بصراحة قلت إن هناك حلا وحيدا لتركية بعقد اتفاق مع اليهود حول فلسطين، بهذه الطريقة سويت الشؤون المالية، وتنفيذ الإصلاحات، وبعد ذلك يمنع أي تدخل أجنبي معنا باتا، كل التدابير المالية الأخرى هي معالجات وقتية ولا تؤدي إلا إلى ملء جيوب القليلين من المضاربين"⁽²⁾، كما يؤكد الزعيم الصهيوني هذه العروض في قوله: " نصرف عشرين مليون ليرة تركية لنصلح الأوضاع المالية في تركيا، ندفع من هذا المبلغ مليونين بدل فلسطين...وبالثمانية عشر مليوناً نحرر تركيا من بعثة الحماية الأوربية"⁽³⁾.

ولكن خابت آمال اليهود وأحبطت مساعيهم وفشلت عروضهم إزاء ردة فعل السلطان عبد الحميد الذي أبت عليه عقيدته وكرامته أن يخضع لليهود، وأن ينفذ لهم مطالبهم مهما كانت النتيجة⁽⁴⁾، وقد جاء رد السلطان عبد الحميد الثاني لليهود، حيث قال: "...لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الدولة بإقامة دمائهم وقد غدوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا...ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا قسمت الدولة العثمانية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"⁽⁵⁾.

لقد قام السلطان عبد الحميد بإيجاد طريقة للتخلص من عبء تلك الديون الثقيلة⁽⁶⁾، بتشكيل في عام 1881م (إدارة الديون العمومية) وكانت هذه المؤسسة بمثابة وزارة مالية ثانية في الدولة، وقد وضع السلطان بعض إيرادات الدولة الرئيسة الثابتة الدخل تحت تصرف هذه الإدارة، لتقوم بتوزيعها على الدائنين، وقد أمكن بهذه الطريقة تسديد معظم الديون الخارجية⁽⁷⁾.

لقد استطاع السلطان عبد الحميد أن يخفض ديون دولته بنسبة كبيرة رغم أن عهده لم ينج من الثورات والحروب التي كبدت الدولة خسائر مادية كبيرة⁽⁸⁾، فبالإضافة إلى استمرار الثورات والحروب التي حركتها الدسائس

1- عبدالله التل: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، المرجع السابق، ص 84.

2- يوميات هرتزل: المصدر السابق، ص 45.

3- المصدر نفسه، ص 33.

4- ج. م. ن. جفريز: المصدر السابق، ص 83.

5- يوميات هرتزل: المصدر السابق، ص 35.

6- بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، ج 1، دار المعارف، القاهرة، 1978-1980 ص 702.

7- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 127.

8- أورهان محمد علي: المرجع السابق، ص 150.

الدسائس الأجنبية في بلاد البلقان منذ عهد السلطان عبد العزيز، وكذلك قيام الثورة الأرمنية، أيضا عانت الدولة من ويلات الحرب الروسية⁽¹⁾.

وقد أشار السلطان عبد الحميد إلى هذا في مذكراته في قوله: "عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب من ثلاثمائة مليون ليرة، وفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة، أي إلى العشر وذلك بعد دفع ما تطلبته الحروب والتمردات الداخلية"⁽²⁾.

لم يرغب السلطان عبد الحميد الثاني خوض الحرب مع روسيا للظروف الصعبة التي كانت الدولة تعاني منها⁽³⁾، ولكن مدحت باشا اليهودي استطاع إقناع أعضاء المجلس العمومي الطارئ⁽⁴⁾، الذي انعقد بهذا الخصوص في عام 1877م بضرورة تلك الحرب، كما أوعز إلى طلبة المدارس العليا بالقيام بمظاهرات تطالب بالحرب، ودفع الصحافة المحلية للمناداة بالحرب وإثارة الأمة لتقبلها، ولم يكتف مدحت باشا بهذا، بل أشاع أن السلطان عبد الحميد موال للروس ولذلك يعارض الحرب ضدهم، فاضطر السلطان عبد الحميد تحت هذه الضغوط أن يوافق على خوض تلك الحرب فكانت النتيجة هزيمة ساحقة للقوات العثمانية وخسائر مادية جسيمة تكبدتها الدولة⁽⁵⁾.

وأشار المؤرخ إبراهيم بك حليم في كتابه (التحفة الحليمية) إلى موقف اليهود والنصارى من رعايا الدولة العثمانية الذين شاركوا في مجلس الأعيان الذي عقد لمناقشة موضوع الحرب الروسية، حيث أصروا على ضرورة خوض الدولة العثمانية لتلك الحرب في قوله: "...وقالت النصارى واليهود: نؤثر إراقة آخر نقطة من دمائنا، وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الإهانة بالتجزئة. وكان ذلك نفاقا من أغلبهم"⁽⁶⁾.

-
- 1- إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 356، 360. - عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م، ص 206.
 - 2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 68.
 - 3- موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص 62.
 - 4- يوسف بك أصف: المصدر السابق، ص 129-131.
 - 5- أورخان محمد علي: المرجع السابق، ص 110 - 117.
 - 6- إبراهيم بك حليم: المصدر السابق، ص 257.

لقد سعى اليهود إلى تضيق الخناق على السلطان عبد الحميد حين كان يضطر إلى طلب ديون جديدة من المصارف الأوروبية لتسديد الديون القديمة أو تغطية تلك المصارف لديون دولته مؤقتاً، ولأن اليهود كانوا يسيطرون على معظم هذه المصارف والبيوتات المالية⁽¹⁾، لذا فقد كانت تمتنع عن إقراض الدولة العثمانية⁽²⁾.

ورغم كل تلك العوائق التي وضعوها اليهود في طريق السلطان عبد الحميد، وهو يعمل لإصلاح الوضع المالي المتردي للدولة العثمانية، على أمل أن يتراجع عن موقفه تجاه عروضهم إذا ما فشل في إصلاح الوضع واشتدت عليه الضائقات المالية، إلا أن السلطان عبد الحميد لم يضعف ولم ييأس واستمر في سياسته الإصلاحية⁽³⁾، مع أن الإصلاح الاقتصادي في الدولة العثمانية أمر صعب للغاية، لأن العالم بأسره يعيش خلال الفترة من 1878م إلى 1900م أزمة اقتصادية طاحنة، وكان من أهم الوسائل التي استخدمتها معظم الدول لحماية اقتصادها إقامة الحواجز الجمركية على وارداتها، إلا أن الدولة العثمانية عاجزة عن فعل ذلك بسبب معاهدات الامتيازات الأجنبية، التي كانت عائقاً لحرية الدولة العثمانية وأوقعها في كثير من المأزق⁽⁴⁾، فأضحت الدولة العثمانية بسبب تلك الامتيازات وكأنها مستعمرة أوروبية تمتد أوروبا بالمواد الأولية بأرخص الأثمان، وسوق واسعة لمنتجاتهم الصناعية، وحالت دون تطبيق سياسة حماية للصناعة العثمانية⁽⁵⁾، لا سيما وقد كان معظم التجار في الدولة من اليهود، واليونانيين، والأرمن، وغيرهم من الطوائف المسيحية⁽⁶⁾.

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني إلى أثر تلك المعاهدات الأجنبية في تردي الأوضاع الاقتصادية في مذكراته بقوله: "... والإنتاج المحلي يضمحل يوماً بعد يوم، والدخل يقل عاماً بعد عام، فقد كنا منذ فترة التنظيمات، نأتي بكل المنتوجات من أوروبا، أضحت عدة مصانع في طريق الزوال، وهبط دخل الجمارك إلى الحد الذي لا يجزئ بسبب تلك المعاهدات المعقودة مع الدول الكبرى"⁽⁷⁾.

-
- 1- يمتلك معظم أسهم بنوك أوروبا أسر يهودية مثل آل روتشلد، ساسون مورجانتو، باروخ، ماندلسون، فرانكفورت. أنظر: عبدالله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، المرجع السابق، ص 180 - 182.
 - 2- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 287.
 - 3- مذكرات الأميرة عائشة: المصدر السابق، ص 25 - 26.
 - 4- المصدر نفسه، ص 26.
 - 5- نادية محمود مصطفى وآخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي في العصر العثماني، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م، ص 225.
 - 6- محمد عبداللطيف البحراوي: المرجع السابق، ص 272.
 - 7- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 139.

بعد أن سيطر الاتحاديون على كثير من مؤسسات الدولة في أعقاب الانقلاب الدستوري عام 1908م، ومن ثم حلت الساحة لهم بعد خلعهم للسلطان عبد الحميد عام 1909م، تمكن اليهود من إغراق الدولة بالديون مستغلين قلة الخبرة السياسية لأعضاء جمعية الاتحاد والترقي، إضافة إلى كون كثير من أعضائها من اليهود⁽¹⁾.

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني إلى دور جمعية الاتحاد والترقي في تراكم الديون على الدولة العثمانية في مذكراته بقوله: "عندما توليت الحكم كانت ديوننا العمومية تقرب ثلاثمائة مليون ليرة ووفقت إلى تخفيضها إلى ثلاثين مليون ليرة أي إلى العشر... أما ناظم بك ورفاقه، فقد رفعوا هذا الرقم بعد تولي (الاتحاد والترقي) الحكم بعدي من ثلاثين مليون ليرة - حيث كان حينها تركت الحكم - إلى أربعمائة مليون ليرة يعني إلى ثلاثة عشر أمثاله !! يعني أن خلفائي ولا أقصد هنا أخي (السلطان رشاد) لأنه لا يملك من أمر السلطنة شيئاً، ولذلك أقول خلفائي أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) أظهروا فعالية ونجاحاً عظيمين في زيادة ديوننا"⁽²⁾.

كما أثبتت الوثائق البريطانية خضوع جمعية الاتحاد والترقي للنفوذ الاقتصادي اليهودي، فقد جاء في رسالة السفير البريطاني في استانبول "جيرارد لوثر" إلى وزير خارجية بلاده في عام 1910م قوله: "...الكيان الاقتصادي التركي ضعيف جداً، ولا يستطيع أن يقف وحده دون سند أسبوعاً واحداً، وكان المؤمل في البداية أن يؤلف الأرمن والبلغار واليونان واليهود العثمانيون الدعامة الاقتصادية للبلاد، ولكن يظهر أن جمعية الاتحاد والترقي قد تحالفت فقط مع اليهود العثمانيين والأجانب... ومما لا شك فيه أن حكومة تركيا الحالية وهي تتحمل نفقات عسكرية ثقيلة، بحاجة إلى قروض مالية مما سيمكن المقرضين اليهود من استخدام ضغوط جديدة عليها، وقد رفض السلطان عبد الحميد عندما كان يعاني أزمة مالية شديدة مثل هذه العروض"⁽³⁾.

فبعد أن نجح اليهود في إيقاع الدولة العثمانية بالديون، وتمكنوا من إيصال أحد رجالهم إلى منصب وزير المالية وهو "اليهودي جاويد باشا"⁽⁴⁾، استطاعوا أن يخطوا خطوات واسعة في طريق استعمارهم فلسطين. فقد أقنع أقنع جاويد باشا رفاقه الاتحاديين بأنه لا غضاضة في أخذ الأموال التي يلوح بها اليهود، للخروج من الضائقات المالية التي يعانون منها مقابل تسهيل الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين، وبالفعل قام جاويد بعقد عدة

1- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 335.

2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 68.

3- F.0.800/193.A.

4- جاويد باشا: يهودي من يهود الدونمة وماسوني لعب دوراً كبيراً في الانقلاب الدستوري والثورة على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1908م. وفي عام 1909م عين وزيراً للمالية وكتب عدة كتب في الاقتصاد أشهرها كتاب (علم الاقتصاد) في أربعة مجلدات. وفي عام 1926م أعدم بتهمة التآمر على مصطفى كمال. أنظر: أرمسترونج: المصدر السابق، ص 37. وأيضاً: أحمد نوري النعيمي: يهود الدونمة، المرجع السابق، ص 78.

صفقات مالية مع عدد من البيوتات المالية اليهودية في أوروبا: مثل كريدي موبيلين وجاريسلوسكي ودريفوس ورنارد، وقدرت عائدات هذه الصفقات بستة ملايين ليرة عثمانية⁽¹⁾.

وقد أكد السفير البريطاني لوثر في تسهيل جمعية الاتحاد والترقي عملية هجرة اليهود إلى فلسطين مقابل الدعم المالي الذي يقدمه اليهود للجمعية حيث يقول: "...ولما كانت الدولة التركية تضم الأماكن المقدسة عند إسرائيل فمن الطبيعي أن يسعى اليهودي جاهداً ليحتل مركز نفوذ ينفرد به وحده، ويستخدمه لتحقيق مثله العليا ألا وهي إقامة دولة مستقلة في فلسطين... وهو سيصيد عصافيرين بحجر واحد إذا استطاع أن يحصل من الأتراك على السماح بهجرة غير مقيدة... وفي مقابل الهجرة غير المحددة لليهود الأجانب، عرض على جمعية الاتحاد والترقي أن يستبدل لغته الوطنية باللغة التركية، بل أنه على استعداد لتحمل جميع ديون الدولة التركية، وقد قام الدكتور ناظم وهو من أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك من أصل يهودي... بزيارة فرع الوكالة اليهودية في باريس ومنذ تلك الزيارة تبني فكرة إدخال 200000 يهودي إلى فلسطين"⁽²⁾.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل اتفق يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي على بيع ثلاثة ملايين دونم من الأراضي في فلسطين وسوريا إلى جمعيات الاستعمار الصهيوني، وكادت أن تتم هذه الصفقة اليهودية فعلاً لولا قيام ضجة كبيرة في الصحف حول ذلك أدت إلى فشلها⁽³⁾.

وبهذا نرى أن اليهود داخل الدولة العثمانية وخارجها قد عملوا يداً واحدة وبكل ما أوتوا من قوة على تدمير اقتصاد الدولة العثمانية وتمزيق أراضيها.

1- حسان علي حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 330، حاشية رقم (3).

2- F0.800/193.A

3- محمد كرد علي : المصدر السابق، ج 3، ص ص 128 - 129.

الفصل الرابع: الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد.

وفي الفترة التي أظهرت الصهيونية عداوتها للموقف العثماني، ظهرت نقمة يهود الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد الثاني، فاستغلوا كل خلل في الدولة للاستفادة منه. ورأت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الأوروبية وبالاتفاق مع يهود الدونمة حتمية إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، لأن أطماع الصهيونية في فلسطين لا يمكن تحقيقها طالما بقي في الحكم، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية ترى أيضا حتمية تقسيم الدولة العثمانية للسيطرة على أملاكها، وإقامة دويلات لليهود والأرمن واليومان وبعض الأقليات الأخرى تكون بطبيعة تكوينها خاضعة للنفوذ الأوروبي. لذا حرصت هذه الدول على تغذية الروح القومية والانفصالية لعناصر الدولة العثمانية، وإن تكن هذه الروح القومية - لدى البعض - قد نشأت بدافع ذاتي ونتيجة لظروف سياسية معينة.

1- انقلاب 1908م وإعادة العمل بالدستور:

تؤكد " الموسوعة اليهودية " بأن السلطان عبد الحميد الثاني عامل يهود الدولة العثمانية معاملة طيبة، ويشهد بذلك بعض المقربين إليه من اليهود أمثال "أرمينيوس فاميري" الصديق الشخصي للسلطان الذي صرح " أنه من خلال الصداقة المستمرة التي تربطني بالسلطان منذ سنوات طويلة كان لي الفرصة للتعرف على معاملته الطيبة لليهود، وكان أول حاكم تركي يعطيهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين، وعندما أستلم الحكم أمر بإعطاء رواتب شهرية لحاخام تركيا الأكبر، ومعنى آخر عامل الحاخام كما يعامل كبار موظفي الدولة، وأتخذ تقليدا بأن يرسل سنويا في عيد الفصح إلى حاخام القسطنطينية ثمانية آلاف فرنك لتوزع على فقراء اليهود في العاصمة التركية⁽¹⁾.

كان السلطان العثماني يميز في المعاملة بين اليهودية، وبين الصهيونية نظرا لأهداف الحركة الصهيونية المتعاضمة. فقد ارتاب السلطان بهذه الحركة وسياستها وبالتالي عمل ضدها ولم يكن متعاطف معها أو مساعدا لها، وقد كانت نظرته إلى اليهود تخالف نظرته إلى الصهيونية⁽²⁾.

والواقع أنه بعد ثورة عام 1908م ازداد النفوذ اليهودي في أوساط السلطات العثمانية ليس في تركيا فحسب وإنما في فلسطين أيضا، وتذكر صحيفة "العالم الإسلامي" أنه بعد تدخل الصحافي "بن يهودا" لدى باشا القدس استطاع إلغاء المضايقات التي كانت مفروضة على قبول المهاجرين اليهود من أصل روسي أو روماني، ومن

1- جواد رفعت اتلخان : الخطر المحيط بالإسلام، المصدر السابق، ص، 76.

2- B. Lewis: Op.Cit , P 203.

ناحية ثانية فقد كتب في صحيفة "الأفكار الحديثة" عن تدفق المهاجرين اليهود من أصل يمني إلى فلسطين حيث سكن ألفان منهم القدس وشغلوا الأحياء المميزة⁽¹⁾.

وقد بلغ من نفوذ اليهود أيضا بين أوساط الاتحاديين ما جعلهم يؤثرون على إتجاهات الجمعية من الناحية الدولية، إذ كانت العلاقة جيدة مع كل من إنجلترا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، بينما كان موقف أعضاء تركيا الفتاة المعادي لروسيا معناه أن النفوذ الروسي سيتضاءل حتما إذا تولى أعضاء "تركيا الفتاة" الحكم بصورة عملية ومستمرة⁽²⁾، وذلك بسبب العداء المستحكم بين روسيا واليهود بسبب ظروف اضطهاد القياصرة الروس للجماعات اليهودية منذ فترة طويلة.

تضافرت الجهود الداخلية والخارجية بغية التخلص من حكم السلطان عبد الحميد الثاني وعليه قرر محفل "الشرق الأعظم" الماسوني خلع السلطان عبد الحميد وذلك في بداية عام 1900م، وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة الاتحاد والترقي منذ بدايتها، وقد رحبت بهذه الفكرة المحافل الماسونية القديمة في سالونيك، وكانت تعمل بدون انقطاع وضمت في عضويتها عددا ممن كانوا يرحبون بخلع عبد الحميد⁽³⁾.

ولكن السلطان عبد الحميد كان يتابع ويراقب تحركات هؤلاء عن كثب، وفي هذا الصدد يقول لوثر "إن جواسيس السلطان عبد الحميد قد تمكنوا من معرفة الحركة، وقد يكون مقتل "إسماعيل ماهر باشا" بشكل غامض بعد انقلاب عام 1908م لأنه علم بعض أسرارهم وكتب بها إلى يلدز⁽⁴⁾، واتخذت الدولة العثمانية سلسلة من الإجراءات من خلال جواسيسها الذين كانوا خارج مقر المحفل الماسوني، وتمثل دورهم بتسجيل أسماء كل من يرتاده من الضباط والمدنيين، وعلى أثر ذلك تمكن الماسونيون من إدخال عدد من البوليس السري إلى المحافل الماسونية⁽⁵⁾، ولم يكن السلطان عبد الحميد بعيدا عما يجري في أوساط الجيش الثالث المرابط في سالونيك، وتمكنت شخصيات هامة في الجيش من الدخول في عضوية جمعية الاتحاد والترقي، وكان من بينهم "البكباشي جمال بك"، وكان من أركان حرب الجيش الثالث وقائد الجناح "فتحي بك - فتحي أوقيار"، وقائد الجناح "مصطفى كمال أتاتورك" وكان قادما من دمشق الشام⁽⁶⁾.

1- *Revue du Monde Musulman*, 7e année, Vol 25, Paris, 1913, p149.

2- ارنست رامزور: المرجع السابق، ص 155.

3- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 211

4- المرجع نفسه، ص 211

5- المرجع نفسه، ص 212

6- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 50-52، أنظر: أحمد شلي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ط1، ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1982، ص 759.

ولا شك أن هناك عوامل ثانوية كانت تجعل الضباط الأتراك في حالة سخط منها ما يرتبط بحالة الجيش نفسه من الضباط والجنود، بحيث أن نظام الترقية لم يكن يمنح على أساس الكفاءة، إلى جانب تأخر صرف الرواتب⁽¹⁾، كما كان الضباط الأتراك يقارنون حالتهم المتعبة بالضباط الأوربيين من حيث المعيشة واللباس والمستوى والاحترام، فكانوا يزدادون غيظا وحقدًا على السلطان⁽²⁾، ووقعت حوادث خارجية عجلت بالقيام بالثورة، فقد تمت المقابلة بين " إدوارد السابع " ملك إنجلترا وقيصر روسيا في " ريفال"، ووقع بينهما اتفاقية 1907م عرفت بالوافق الودي لتصفية الخلاف بين الدولتين، في صفقة استعمارية على حساب الدولة العثمانية⁽³⁾، وكان السلطان عبد الحميد يدرك ما يحاك ضد الدولة من مؤامرات خاصة في مقدونيا، لذا فإن الدولة العثمانية أرسلت الجواسيس من إستانبول، فقررت الجمعية إعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن⁽⁴⁾.

ولم يكن السلطان عبد الحميد بعيدا عما يدور داخل صفوف الجيش العثماني وهو ما أكدته "عاكف بك " وهو ملازم أول في إحدى فرق الجيش داخل إستانبول، إذ أنه أخبر السلطان بنية الجمعية بثورتها، حيث كان عاكف بك قد طرد من صفوف الجيش، وانضم إلى صفوف الاتحاديين وحصل على مساعدة منهم، وفي يوم التقى "عاكف بك" في أحد شوارع باريس مع "ثرثيا بك" فأطلعه "عاكف بك" على دسيسة عظيمة، قال : "أن جمعية الاتحاد و الترقى تدبرها ضد السلطان، ليس فقط في باريس، بل في لندن وجنيف وبروكسل وصوفيا عاصمة بلغاريا، وقال عاكف بك أيضا أنه عرف هذه الأسرار من شخص ثقة، واقترح على "ثرثيا بك" إبلاغ السلطان عبد الحميد بما تدبره الجمعية في أوساط الجند، فجاء الجواب الفوري بضرورة إرسال عاكف بك مع ثرثيا بك لمقابلة السلطان عبد الحميد، وقصد الاثنان ميناء مرسيليا الفرنسي ليسافرا إلى إستانبول، ولكن ثرثيا بك غير رأيه قبل ركوبه الباخرة وعاد عن عزمه، أما عاكف بك فحمل أوراقه الثمينة حتى وصل إلى إستانبول⁽⁵⁾، وتفقد السلطان عبد الحميد الأوراق وفحصها وتأكد أن كثيرا من الضباط والقادة في جيشه منضمين إلى هذه المؤامرة⁽⁶⁾، وأخذ يجمع المعلومات عنها، بيد أن هذه الحركة كانت قوية، وجاءت مراقبة عبد الحميد لأعضائها في وقت متأخر، وعندما عقدت الدولة العثمانية هدنة مع بلغاريا، قام ضباط جماعة الاتحاد والترقي وعلى رأسهم "أنور بك"⁽⁷⁾

1- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، ص 256

2- على سلطان: المرجع السابق، ص 355

3- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، ص 256

4- حدوث الانقلاب و كيد الجواسيس، المنار، ج 11، م 11، مصر، 1908، ص 855

5- مجلة الهدى : نيويورك العدد 140، السنة 11، 6 أوت 1908، ص 1

6- المصدر نفسه، ص 1

7- أنور بك : ولد في استانبول عام 1881م وهو جنرال عثماني و أحد قادة الاتحاد و الترقى، لعب دورا أساسيا في دخول الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، درس أنور في الأكاديمية العسكرية في استانبول حيث تخرج برتبة رئيس، ثم عين في الجيش الثالث بسالونيك التي كانت مركز النشاط الرئيسي المعارض لحكم عبد الحميد، وتولى العمليات العسكرية المعارضة ضد العصابات المقدونية،

بطل الانقلاب عام 1908م وأحد القادة البارزين في انقلاب الدونمة والماسون، بتحريض طلاب الجامعة وسائر المدارس للقيام بمظاهرات صاحبة هاجمت الباب العالي مقر الصدر الأعظم ووزير الخارجية وهم ينادون "حرب إيسترز" أي نريد الحرب⁽¹⁾.

ومما يجدر ذكره أن الوثائق المعاصرة لأحداث 1908م أكدت بأن اليهود اشتركوا في الثورة وقاموا بالمظاهرات ضد السلطان في العاصمة العثمانية ووصلوا بها حتى قصر يلدز⁽²⁾، وقد أدرك ضباط الجيش في مقدونيا خطر المؤامرة الخارجية التي دبرت بين روسيا وإنجلترا ورأوا في ذلك خطرا على الدولة العثمانية وممتلكاتها، فأرسل فريق من الضباط إلى السلطان عبد الحميد تلغرافا يطالبونه بإعادة دستور 1876م⁽³⁾.

وحاول السلطان القبض على زعماء الثورة والتمرد في مقدونيا من ضباط الجيش الثالث وعلى رأسهم أنور بك وأحمد نيازي الرسنه لي، لكنه لم يتمكن، فقد هرب نيازي بجنوده إلى الجبال وفرض حكمه على الأهالي⁽⁴⁾، وبذل السلطان جهودا لتدارك الموقف بتعيين "سعيد باشا" المعروف بميوله المتحررة في رئاسة الوزارة، لكن هذه الخطوة جاءت متأخرة، لأن كثير من الضباط وعلى رأسهم أنور باشا كانوا قد أعلنوا الدستور في أماكن متفرقة من البلاد⁽⁵⁾.

وفي ظل هذه الأوضاع السيئة توالى وصول التلغرافات إلى الصدر الأعظم من سالونيك ومناستير وأسكوب وسيريس هددوا فيها بالزحف إلى استانبول إذا لم يعلن الدستور⁽⁶⁾، ولكي يتدارك السلطان الموقف الخطير حاول إحداث تغييرات في الجيش، وأرسل لجنة لتقصي الحقائق إلى سالونيك بقيادة "ناظم بك" الذي عين قائدا عسكريا عليها، ولكن الأمور كانت قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، وأصدرت جمعية الاتحاد والترقي في سالونيك أمرا بإعدام "ناظم بك"⁽⁷⁾، وأطلق عليه النار وجرح في جوان 1908م⁽⁸⁾، ولم تتمكن الأجهزة الأمنية

ثم عين بعدها في أركان الجيش الثالث بمناستيرا و انضم إلى جمعية الاتحاد و الترقى، ثم عين ملحقا عسكريا في السفارة العثمانية في برلين، وتعلم اللغة الألمانية، ورفي أخيرا إلى وزير الحربية، ومات مقتولا عام 1922م في بخارى. أنظر: علي حسون: المرجع السابق، ص 203.

1- حسان حلاق: دور اليهود و القوى الدولية، المرجع السابق، ص 122.

2- المرجع نفسه، ص 122.

3- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، ص 259.

4- علي سلطان: المرجع السابق، ص 356.

5- محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، المرجع السابق، ص 259.

6- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 707 أنظر: ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 94.

7- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 39، أنظر أيضا: السلطان عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص 123.

8- أرست رامزور: المرجع السابق، ص 147.

العثمانية من إلقاء القبض على مرتكب هذه الجريمة⁽¹⁾، غير أن السلطان عبد الحميد بادر بتعيين من هو أقوى عزيمة وأشد شكيمة من "ناظم بك"، وهو الفريق العسكري "إسماعيل ماهر باشا" لصد المتمردين، وتحت رئاسته هيئة مؤلفة من عديد الضباط الكبار، وهذا ما أقلق جمعية الاتحاد و الترقى⁽²⁾.

وكان السلطان عبد الحميد مضطر لاتخاذ هذه الإجراءات ليثبت مدى قوة الدولة وقدرتها في مواجهة المعارضة، لكنها إجراءات عجلت بقيام الثورة ضد الدولة العثمانية. فعلى أثر ذلك أعلن "أحمد نيازي الرسنه لي" التمرد واتفق مع زملائه في الجمعية على الاجتماع في بيت العاجز، وهو أحد الأشخاص المتعاطفين مع الجمعية، وأقنع "أحمد نيازي" بضرورة إعلان الثورة مؤكدا أنه قادر على جذب عساكر وقرويين عددهم ما بين 150-200 رجل، وقام بإعداد كل ما يحتاجه من أموال و دراهم وسلاح وأحذية وفروات⁽³⁾، أقدم الجنود على سرقتها من وحداته العسكرية قبيل هروبه⁽⁴⁾، وفي أثناء ذلك الاجتماع الذي عقد في بيت الحاج أغا أحد أنصار الجمعية خطب نيازي في أربعين أو خمسين رجلا بحماسة ودعاهم إلى الثورة والمطالبة بأن تبدأ الثورة من بلده "رسنه" لأن البلغار في وقت سابق انطلقوا منها، والتأكيد على أن العدة والعتاد جاهزا كلياً، وإعلان الحرية والأخوة والمساواة⁽⁵⁾.

ومن ناحية أخرى قام نيازي بإرسال رسالة فيما بعد إلى "رفيق بك قومندان" قائد "الفرقة الثالثة من الجيش، يعتذر فيها عن أخذ السلاح والأموال التي بلغت أربعة وخمسين ألفاً وستين قرشا من قاعدته⁽⁶⁾، وتقدم "أحمد نيازي" في طريقه ودخل قرية "لاحجة" واستقبل بحفاوة حيث استطاع السيطرة على المناطق الجبلية الوعرة وعلى عدد من القرى، وهناك قام بتحريض المسيحيين على الثورة⁽⁷⁾، وفي أثناء ذلك الوقت 24 جوان عاد أحد الضباط الاتحاديين ويدعى "بختيار أغا" من مناستير وسلم "أحمد نيازي" أمراً من الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي في مناستير والذي كان مؤرخاً في 23 جوان 1908م وقام "أحمد نيازي" بقرائه على أعضاء جمعيته، وكان يتضمن بعض النقاط الأساسية وهي: أنه سيتم إمدادهم بطبيب مع كل ما يحتاجونه من أدوية، وسينشر في

1- أحمد نيازي الرسله لي: المصدر السابق، ص 37.

2- المصدر نفسه، ص 38. و أيضاً أنظر:

Ahmed Feroz: **The Young Turks, The committee of Union and progress in Turkish politics 1908-1914**, Oxford , At the clorendon press 1969, p 4.

3- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 63-64.

4- أرنت رامزور: المرجع السابق، ص 148.

5- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 66.

6- المصدر نفسه: ص 88-89.

7- المصدر نفسه: ص 90-111.

الصحف الأوروبية ما يقع عليه اختيار الهيئة المركزية بمناسيتير من الأوراق، والتنبيه على أن العصابات في المدن والقرى وعلى الأطراف مستعدة للإيقاع بالحكومة، وكان يأمرهم باستخدام الشيفرة خصوصا في الرسائل المهمة مع إشارة إمكانية انضمام أنور باشا فيما بعد في وقت قريب⁽¹⁾.

وعلى أثر نشر تفاصيل ذلك الأمر عمت الفرحة أعضاء الجمعية الذين يقودهم نيازي خصوصا لإمكانية انضمام أنور بك معهم، وبالفعل فقد قام "أنور بك"، وهو ضابط صغير وعضو في الجمعية بالتمرد وقرر اللجوء إلى الجبال⁽²⁾، وبعد هذه التطورات والبدء في مرحلة جديدة من التنظيم والتنسيق بقيادة "أحمد نيازي" و"أنور بك"، انضم إليهما العديد من قادة البلغار وعلى رأسهم "جرجيس راغب" إلى الجمعية ووعدهم بالمساعدة حتى أن نيازي قضى ليلته فرحا وطربا بسبب التوفيق الذي ائمال عليه⁽³⁾.

والحاصل أن السلطان قام بإرسال الفريق أول "شمسي باشا" لإخماد التمرد الذي قام به "أحمد نيازي" و"أنور بك" في مقدونيا لا سيما في مناسيتير ورسنه⁽⁴⁾، واسترداد البنادق الألمانية وعددها مائة وكذلك استرجاع النقود التي سرقوها من مقر قيادة الجيش وتأديبهم⁽⁵⁾، إلا أن "شمسي باشا" قتل قبل أن تنفذ مهمته⁽⁶⁾، وعلى الفور قرر السلطان إرسال ثلاثين فرقة من فرق الرديف من داخل أزمير، إلا أنها انضمت إلى صفوف الدستوريين⁽⁷⁾.

وفي جويلية 1908م تحرك الاتحاديون بعد أن ضمنوا القوى التي يمكن الإرتكان عليها وتمثلت بالفيلقين الثاني والثالث المعسكرين في ولايات "سالونيك" و"موناستير" و"كوسوفو" بالفيلق الرابع المعسكر "أرضروم" وأعلنوا الثورة⁽⁸⁾.

وكان من المستحيل على الحكومة العثمانية إرسال الفيلق الأول للمعسكر في الآستانة، لأنه لا يمكن تجريد العاصمة من الجند فضلا عن أن معظم الضباط كانوا مؤيدين للاتحاديين. وبدأ الاتحاديون تحركهم الفعلي تجاه

1- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 117-119.

2- ارنست رامزور: المرجع السابق، ص 148.

3- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 121.

4- Ahmed feroz, op.cit, p8. Bernard Lewis :op. cit.p 204

5- أحمد نيازي الرسنه لي: المصدر السابق، ص 135-137.

6- كان شمسي باشا قتل على يد الملازم عاطف بك، أحد فدائي الجمعية واستطاع الجاني بمساعدة رفاقه أن يتوارى عن الأنظار. أنظر: مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 52.

7- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 706.

8- المصدر نفسه، ص 706

تباطؤ السلطان في الاستجابة لمطالبهم، فانشأوا جماعات إرهابية من عصابات البلغار والصرب والألبان بغية مقاومة أعمال الحكومة المركزية⁽¹⁾، وانضم إلى حركة التمرد أنور باشا ومصطفى كمال وغيرهما من القادة العسكريين مع فرقهم، وسرعان ما احتلوا مدينة موناستير والذي كان يوجد فيها مقر الجيش الأول⁽²⁾.

من ناحية أخرى زادت تهديدات الثوار المتمردين، وكان أخطرها إنذارا مرسل من سيرز مضمونه بتولية ولي العهد، وتحرك حوالي 100 ألف جندي إلى إستانبول⁽³⁾، وكان "أنور بك" عضو الجمعية، وقد أرسل إلى الصحيفة الألمانية الصهيونية والتي يشرف عليها محرر يهودي وتعرف (Neue Freie Presse) يخبرها بتبني اقتراحها بالزحف إلى العاصمة إستانبول، لأن هذا اليوم هو اليوم الأول لحرية الشعب بأكمله... احتفل بهذا العيد، وإذا كان السلطان لا يأبه لمطالبنا سنزحف إلى إستانبول⁽⁴⁾.

ولم يكن السلطان عبد الحميد مقتنعا بمحاربة هؤلاء المتمردين بعد انضمام معظم الفرق العسكرية إلى جانبهم، ومن ناحية أخرى ترددت الأقوال بشأن شرعية تجريد جيش المسلمين ضد مسلمين، ومن هنا جمع السلطان عبد الحميد علماء المسلمين لاستصدار فتوى تحل له ذلك، فأصدر العلماء فتوى تحرم على المسلم أن يشهر السلاح في وجه أخيه المسلم⁽⁵⁾.

وفي صباح يوم الخميس 9 جويلية 1908م اجتمع الباب العالي حتى الساعة الثامنة ليلا، وجرى مناقشة حامية اشترك فيها "رضا باشا" قائد الجيش الذي دافع عن الاتحاديين في موقفهم بخصوص إعلان الدستور، أما إسماعيل باشا فقد طالب التنكيل بالمتمردين والقضاء عليهم⁽⁶⁾.

ومن ناحية أخرى فإن السلطان عبر عن رأيه الأخير بعد أن استمع إلى آراء الأعضاء في مجلس الوزراء إذ قال: "أنا الذي منحت الدستور في الأصل وكنت أنشره كل سنة في التقرير الرسمي، لذا سوف أمر بإجراء الانتخابات حالا بموجب الدستور الأصلي كما هو قائم⁽⁷⁾، وفي يوم الجمعة 10 جويلية 1908م وبعد ساعات

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 53

2- Bernard Lewis: op. cit, p 203

3- أميرة محمد كمال الخربوطلي: الدور السياسي للعسكريين في تركيا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1972، ص 126.

4- حسان حلاق: دور اليهود والقوى الدولية، المرجع السابق، ص 129. أنظر إلى نص الرسالة في الملحق رقم (18).

5- فتحة النبوي، محمد نصر مهنا: قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1983، ص 145

6- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 53

7- صحيفة الهدى: نيويورك: العدد 141، السنة 11، الجمعة 7 أوت 1908، ص 1

متأخرة صدرت صحف استانبول معلنة أن الحكم سيكون مقيدا في كافة الأقطار والممالك العثمانية، وأن إرادة سنية ستصدر بهذا الشأن، وكان الناس يتساءلون عن أسباب تأخرها في الوقت الذي تواترت الأنباء عن إعلان الحرية في مناستير وسالونيك، وسمع الناس أصوات المدافع تدوي في كل مكان ابتهاجا⁽¹⁾.

وبعد فترة قليلة سمعت أصوات المدافع حول استانبول، وتعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين، وأعلنت الحرية بشعاراتها الثلاثة "العدالة - المساواة - الإخوة"⁽²⁾، واجتمع الناس في اليوم الثالث والعشرين من الشهر نفسه في المدينة بناء على دعوة من الاتحاديين لإعلان الدستور والحرية، وهتف الجميع قائلين "إما الحرية وإما الموت" واستغل الزعماء الاتحاديون المتعددي الانتماءات والأهواء، هذا الحشد فخطبوا في الناس، وتميزت هذه الخطب بأنها متباينة اللغات، إذ ألقى كل من "غالب أفندي" و "سلمان أفندي" خطبته باللغة التركية، و "إمانويل قرصوا" اليهودي بالإسبانية، و "رسو أفندي" باللغة الفرنسية، وفضلي بك نجيب" محرر "جريدة عصر" بالتركية، وفي ختامهم هتف الجميع "فليحيا الوطن، فلتحيا الأمة، فلتحيا الجمعية، فليحيا الجيش، الحرية أو الموت"⁽³⁾.

وكان الشعب المجتمع في كل الأنحاء يعرب عن فرحه بالأعلام التي يمسك بها في يده وقد تجمع أمام السراي زحام شديد من الشعب و طلاب المدرسة الطبية العسكرية الذين كانوا يرددون قائلين: "عشت كثيرا يا سلطاننا"، وكان الشعب يتصايح لرؤية السلطان، فقال السلطان للموجودين في القصر: "قررت عقد المجلس دون انتظار لقرار الوكلاء لأنني رأيت في الأمة رغبة في إعادة تطبيق الدستور، وأقسم لكم أنني لن أعطل العمل بالدستور أبدا، وسأحافظ عليه ما دمت في مقام السلطنة، أخبركم بذلك، وأريد أن تبلغوا ذلك كل الناس، وإن شاء الله سيعمل مجلس النواب من أجل الخير لدولتنا وأمتنا"⁽⁴⁾.

وعلى أثر هذه التطورات الخطيرة و التهديدات لم يكن بمقدور السلطان عبد الحميد إلا الرضوخ للدستوريين، والعمل بالدستور وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر جويلية 1908م، أطلق على هذا التمرد

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 53-54 وحول شعارات المتمردين المطالبين بالدستور العدالة - المساواة - الإخوة "هي مستمدة أساسا من البروتوكول التاسع من شعارات الماسونية بكلماتها الثلاثة و هذا الشعار لا يحمل المعنى الحقيقي سوى تحقيق غاية اليهود و الماسونية. أنظر أيضا: عجاج نويهض: المرجع السابق، 216.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 53-54.

3- حسان حلاق: دور اليهود و القوى الدولية، المرجع السابق، ص 98

4- السلطان عبد الحميد خان بالوثائق: المصدر السابق، ص 124-125

العسكري اسم الانقلاب الدستوري⁽¹⁾، وذكرت صحيفة "الهدى" أن الصدر الأعظم "فريد باشا" وناظر الحرية "رضا باشا" وشيخ الإسلام "جمال أفندي" هم الذين نصحوا السلطان بإعلان الدستور دون تأخير⁽²⁾.

لقد أبقى الاتحاديون السلطان عبد الحميد في الحكم بعد ما ألغى الرقابة وأعمال التجسس، ولم يتخلصوا منه نهائية، ربما لأنهم كانوا يفتقدون القوة الكافية لعزله، فضلا عن اتباع سياسة المرونة معهم، من أجل تنفيذ رغباتهم وهو العمل بالدستور، ومن ناحية أخرى كانت غالبية العثمانيين يقدرّون شخص السلطان عبد الحميد⁽³⁾، كما أن الاتحاديين كانوا يشكون في مساندة الجيش لهم، وأن الجيش لازال على ولاء كامل للسلطان، وفي أثناء ذلك قام أحد ضباط الجيش الثالث خطيبا في الجماهير والجيش قائلا: "إن الدستور لم يمنحه السلطان من تلقاء نفسه، بل انتزع بجهود الجمعية، ثم قام الضابط بنزع الشعارات المؤيدة للسلطان وأيده في ذلك الجنود، ومع هذا لم تكن الجمعية تثق فيما قد يفعله هؤلاء الجنود فيما بعد"⁽⁴⁾، خاصة وقد وفد إلى العاصمة وفد مكون من 305 جنديا لمقابلة السلطان عبد الحميد لتأكيد الولاء له، ومن أنه في أمان⁽⁵⁾، وبعدها أصبحت السلطة الفعلية في أيدي الاتحاديين، أجبر السلطان على إسناد مناصب الوزارة إلى الوزراء الذين وافقت عليهم الجمعية⁽⁶⁾، وتم تعيين حسين حلمي باشا صدر أعظم⁽⁷⁾.

وعلى أثر نجاح الانقلاب عاد بعض قادة جمعية الاتحاد والترقي من الخارج أمثال "رحمي بك" و "حسين جاهد" و "جاويد بك"، وهم في الأساس من يهود الدوغة⁽⁸⁾، وتم استقبال "أحمد رضا" زعيم الجمعية ومعه بهاء الدين اللذان قدما من فرنسا⁽⁹⁾، وبدأ هؤلاء الاتحاديون في ممارسة الضغط على الصدر الأعظم وأركان الدولة والتدخل في شئون الحكومة⁽¹⁰⁾، وصدرت قرارات إعدام عاجلة على بعض كبار ضباط الشرطة السرية من هؤلاء،

1- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 707.

2- الهدى: نيويورك، العدد 140، السنة 11، الخميس 6 أوت 1908، ص 1

3- أحمد النعيمي: اليهود و الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 168

4- أرنست رامزور: المرجع السابق، ص 150-151

5- المصدر نفسه، ص 150-151

6- المقتطف: الثورة العثمانية، مصر، ج 10، م 33، أكتوبر 1908، ص 813

7- محمد رشيد رضا: الانقلاب العثماني الميمون، المنار، ج 12، م 6، 17 جويلية 1909، ص 455

8- المؤيد، مصر، العدد، 5748 أبريل 1909، ص 1، أنظر: السلطان عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص 125

9- روبر مانتزان: المرجع السابق، ص 247

10- السلطان عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص 125.

"فهمني باشا" الذي فر إلى "بني شهر"، فقبض عليه الأهالي وقتلوه بالعصي والحجارة، وتم استقالة وزارة "فريد باشا" وخلفه "سعيد باشا" رئيسا للوزراء⁽¹⁾.

وفي تلك الأثناء تقرر العفو العام عن المسجونين دون تمييز، وكان من بين هؤلاء من يدعى "أحمد الجزار" الذي كان قد حكم عليه بالإعدام بسبب قتله عددا من الأشخاص، ثم خفض الحكم إلى المؤبد، فلما أطلق سراحه مع بقية المحكومين نزل إلى الشارع وأخرج سكينه من جيبه وبدأ يطعن كل من يصادفه في الطريق فقتل تسعة أشخاص، ثم توارى عن الأنظار، وتمكن من الفرار إلى اليونان⁽²⁾.

أما دور اليهود الماسون في حوادث 1908م فيذكر عنه جواد أتلخان أنه ثبت دخول ضباط الدوغة في صفوف الجيش بزي الجنود، وبدأوا بتحريضهم للقيام بالثورة⁽³⁾.

تؤكد الوثائق بأن اليهود اشتبكوا في الثورة 1908م وقاموا بالمظاهرات ضد السلطان في العاصمة العثمانية ووصلوا بها حتى قصر يلدز، وكان هدفهم إيجاد جو ملائم للإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، لسيطر الاتحاديين على مقاليد الحكم بمساعدة المحافل الماسونية والدوغة التي هيأت الأجواء الملائمة لمثل هذه التحركات، ويقول "لوثر" -السفير البريطاني في الأستانة- بأنه في ديسمبر عام 1908م مارست الجمعية ضغطا مكثفا على السلطان لإجباره على إقصاء الذين اشتهروا من النظام القديم من مجلس المبعوثان⁽⁴⁾، ويضيف قائلاً: له صلة بالماسونية الإيطالية، ويبدو أنه قد أقنع جماعة تركيا الفتاة من الضباط والمدنيين بتبني الماسونية على أمل ممارسة نفوذ يهودي غير محسوس على الحكم الجديد في تركيا، رغم أنه دعى ظاهريا أنه يهدف إلى خديعة جواسيس عبد الحميد فقط، فقدم لهم محفله ملجأ، وبالتقاءهم في بيت أجنبي تمتعوا بالحصانة الفائقة ضد أساليب التحقيق، وهكذا أتاحت سرية المحافل لجماعة تركيا الفتاة إمكانية تشكيل تنظيمهم للقضاء على نظام حكم السلطان عبد الحميد⁽⁵⁾.

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 55

2- المصدر نفسه، ص 58-59.

3- حسان حلاق: دور اليهود و القوى الدولية، المرجع السابق، ص 116. أنظر أيضا:

Govsa Ibrahim Alaettin : op. cit ,p 77-79.

4- Lowther to Grey , 19 Dec , 1908, No , 45087, in F.O.371/546.

5- Lowther to Grey , 29 May, 1910, No , 20761, in F.O.371/1010.

كما شعر الأتراك بدور اليهود الخطير، وأصبح ملاحظاً أن اليهود من كل الألوان مواطنين وأجانب كانوا مؤيدين ومتحمسين للحكم الجديد، وقد عبر أحد الأتراك بقوله: "إن كل يهودي يبدو جاسوساً ممكناً للجمعية السرية"، وبدأ الناس يعلقون بقولهم: "إن الحركة كانت ثورة يهودية أكثر منها ثورة تركية"⁽¹⁾.

وتحدث الفيلسوف الماسوني "شاريا" في حفل أقيم للماسون قائلًا "أنظروا إلى إخوانكم الماسونيين السالونيكين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في عهد السلطان عبد الحميد دون أن تسيل نقطة دم واحدة، أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية ويعظم من شأن وسائلها السلمية السليمة"⁽²⁾، ووضح رشيد رضا في مجلة المنار غاية اليهود من الانقلاب الدستوري إذ يقول: "إن تشجيع اليهود للماسونية في الدولة العثمانية من شأنه أن يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد"⁽³⁾.

وفي غمرة النشاط المعادي لعبد الحميد في سالونيك وباريس أولت الصحافة العالمية خاصة الصهيونية اهتماماً كبيراً بأخبار الثورة الاتحادية عام 1908م، وبالتحديد صحيفة (Neue Freie Presse) التي قامت بنشر أخبار الثورة وتأييد زعمائها، كما نشرت تصريحاتهم أمثال "فهيم باشا" السكرتير المفوض الممتاز الذي ذكر مساوئ حكم السلطان عبد الحميد الثاني وتحدث أيضاً عن مساوئ الرقابة الشديدة على التقارير المختلفة⁽⁴⁾. وكانت صحيفة "إقدام" قد ترجمت هذا الموضوع في حينه⁽⁵⁾، وتعتبر هذه الصحيفة التركية من الصحف الصحف المؤيدة للسلطان، وقد كان إقدام سبق في المطاعن وتشديد النكير لأنها صحيفة لسان حال الملايين في الدور الماضي⁽⁶⁾، لكنها غيرت سياستها بعد الثورة وبعد إعادة الدستور واشتداد المعارضة، مما حدا بالمتظاهرين الأتراك واليهود التوجه إلى مركز هذه الصحيفة في 20 جويلية عام 1908م وهتفوا أمامها: "تحيا الحرية، تحيا الصحافة"⁽⁷⁾.

وكانت الأوساط الصهيونية قد استمالت بعض الصحف التركية وفي مقدمتها صحيفة الاتحاديين "تركيا الفتاة"، ويؤكد "لوثر" هذه الحقيقة في تقريره المرسل من الأستانة إلى وزارة الخارجية البريطانية عام 1910م بقوله:

1- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 316

2- عبد الله التل: الأفعى اليهودية، المرجع السابق، ص 79 و أيضاً أنظر: علي حسون: المرجع السابق، ص 197

3- محمد رشيد رضا: أمير الأتراك صادق بك، مجلة المنار، م 14، ج 4، أبريل 1911، ص 167.

4- حسان حلاق: دور اليهود والقوى الدولية، المرجع السابق، ص 128

5- Revue du Monde Musulman, T.5, P.730.

6- المباحث، 10 جوان 1909م، السنة الأولى، العدد 13، ص 563.

7- Revue du Monde Musulman, T.5, P.722-723.

"...أني أرفق نسخة من ثلاث مقالات ظهرت مؤخرا في "تركيا الفتاة" وهي صحيفة تنطق بلسان اللحنة وهي مثل صحيفة "فراي برس" التي تصدر في فيينا وعمولها ويشرف عليها اليهود"⁽¹⁾، ويضيف "لوثر" في رسالتين بتاريخ 29 ماي، و22 أوت 1910م إلى أن صحيفة "تركيا الفتاة" كانت تمولها مؤسسة صهيونية تسمى (Anglo - Palestine Trading Corp)⁽²⁾، وتضم في هيئة تحريرها يهودا وأتراكا وأرمن وكروتيين وعربا، وكانت هناك صحف أخرى خاضعة للنفوذ الصهيوني: مثل صحيفة "عثمانييتشر لويدي" التي وقفت مع الثورة وأيدت خلع السلطان، وكان صاحبها ومحرر الأخبار فيها "سامو هبشورغ" وهو يهودي أشكنازي ماسوني.

وسرعان ما توالى المصائب على الدولة العثمانية في ظل حكم الاتحاديين. فقد أعلنت بلغاريا في الخامس من أكتوبر 1908م استقلالها، وأعلنت النمسا-المجر في اليوم التالي ضم البوسنة والهرسك، وأعلنت اليونان ضم جزيرة كريت، وأضطر الاتحاديون أن يتخلوا عن أراضي أكثر من التي تخلى عنها السلطان عبد الحميد⁽³⁾، وصفقت أوروبا طربا وإعجابا وأكدت إنجلترا بلسان وزير خارجيتها السير "إدوارد جراي" (Edward Gray) بأن المسألة المقدونية وما شاكلها من المسائل، قد اختفت نهائيا بظهور الدستور، ورحب حزب الأحرار من ناحيته بالنظام الجديد، وبلغت من ثقة أوروبا بالاتحاديين أن ألغت رقابتها على مقدونيا وتركت سائر أمور الدولة لحكم جمعية الاتحاد والترقي⁽⁴⁾.

وانتهزت العصابات المسلحة البلغارية واليونانية والصربية التي كانت محتبئة في جبال مقدونيا وغاباتها الفرصة لمهاجمة المخافر وإحراق القرى، بعدما تركت معاقلة، ونزلت إلى مراكز الإدارة تعلن تأييدها للعهد الجديد، عهد "الحرية والعدالة والمساواة" حسب الشعار الذي انتشر بين الناس⁽⁵⁾، وتشكك السفراء الأجانب في إستانبول من أشخاص الاتحاد والترقي لأنهم كانوا يعلمون أن المحفل الماسوني الأكبر هو الذي كان وراءهم، يحركهم كما يحركون الدمى، والذي زاد من شكوكهم أنهم رأوا الجماهير المكتظة تشق عنان السماء للسلطان الذي أقبل عليهم ورحب بهم⁽⁶⁾.

1- ملف وثائق فلسطين، ج1، ص 100، وكانت صحيفة "تركيا الفتاة" تصدر بالعربية أولا في أواخر القرن التاسع عشر، ثم صدرت أيضا بالفرنسية بعد أن تغير اسمها (Courrier d'Orien) إلى (Le Jeune turk) وعمد الصهيونيون إلى وضع رئاسة تحريرها بيد جلال نوري بك ابن وزير وأحد النافذين الأتراك، وفي منتصف عام 1909م تكاثرت الصحف التي تسيطر عليها الصهيونية وأصبحت إما مؤيدة للصهيونية وإما هي يهودية.

2- وهي مؤسسة صهيونية مركزها إنجلترا وفتحت فروعها في فلسطين، وعملت على تمويل المستوطنين اليهود والمشاريع الصهيونية.

3- محمد طقوش: المرجع السابق، ص 537، أنظر: محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 185

4- حسين ليبب: المصدر السابق، ص 97

5- ساطع الحصري: البلاد العربية و الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص ص 95-96

6- علي سلطان: المرجع السابق، ص 357.

غير أن أجنحة جمعية الاتحاد والترقي شهدت تنافسا شديدا حول صيغة الحكم، وظهر للملأ انتصار جماعة "أحمد رضا بك" القائلة بسياسة دمج وصهر عناصر الدولة وبالحكم المركزي على جماعة الأمير "صباح الدين" الذي فقد مكانته الشعبية رغم دعاية الاتحاديين التابعين لأحمد رضا ضده⁽¹⁾، واتخذت سلسلة من الاجراءات التنفيذ السياسة الخاصة بالجمعية والتي تمثلت في أن يؤدي اليهود والمسيحيون الخدمة العسكرية في الجيش، وكان ذلك ضمن تصريح للدكتور "ناظم بك" السالونيكى، وهو أحد أبرز قادة جمعية الاتحاد والترقي، وبكل تأكيد فإن الدستور كما صرح ناظم بك قد ساوى بين جميع مواطني الدولة في الحقوق والواجبات، وكان فيما مضى يتم إعفاء النصارى واليهود من أداء الخدمة العسكرية وهامهم اليوم يطالبون القيام بها على نحو ما يخدم المسلمين⁽²⁾.

وفي أعقاب ثورة 1908م وبداية العهد الدستوري بدأت تظهر نوايا الاتحاديين إزاء العرب ومدى عنصريتهم التي أصبحت أكثر وضوحا من ذي قبل، فقد أكدت صحيفة الكون الصادرة في نيويورك، والتي هاجمت سياسة الاتحاديين في التفريق بينهم وبين العرب إذ قالت: "ولكن حال السيادة لا يزال كما كان ولا يزال الأتراك هم القابضون على أعنة الحكم، وييدهم زمام الأمور، فإذا كانت هذه الحركة الجديدة باسم الأمة كلها، فمن الواجب أن تشترك بمنافعها كل الأمة، وإذا كان الأتراك لا يفرقون بين العثماني والعثماني من حيث الجنس والمذهب، فهذه أحسن الفرص يستطيعون فيها أن يأتونا بالبرهان، نحن لا نتمنى أحسن من أن نعد كلنا أبناء وطن واحد، ولا جامعة لنا إلا العثمانية وكل العناصر العثمانية"⁽³⁾.

وبذلت جمعية الاتحاد والترقي جهودا كبيرة لمخاطبة الناس والتأثير عليهم من أجل كسب أنصار لها في معركتها ضد السلطان عبد الحميد، رغم أنها تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام، ولهذا فإنها استغلت الدين في تحقيق غاياتها وقد نجحت في ذلك، وتقول الجمعية في بياناتها إلى العثمانيين: "أيها العثمانيون إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا بعون الباري وهمة الإخوان، أيها المسلمون كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار عديم الإيمان نسحق تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان، واستيقظوا يا أمة محمد والشجاعة يا مسلمون، الشجاعة منا والعون من الله، نصر من الله وفتح قريب، أيها المسلم الموحد اقرأ باسم ربك، وانفض أيها المسلم الموحد، وأنقذ دينك وإيمانك من يد الظالمين، وأنقذ بذلك نفسك، فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجا، وفي يده دينك وإيمانك، فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد. أيها المسلمون إن السلطان عبد الحميد شر وليس بسلطان ولا خليفة، ومن لا يصدق قولنا هذا فليُنظر في الكتاب والسنة، ولقد

1- توفيق برو: العرب الترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص 69

2- المقتبس: دمشق، العدد 13، السنة 1، الأربعاء 30 ديسمبر 1908، ص 1، أنظر: أيضا المقتطف: الثورة العثمانية، ج10، م33، القاهرة 11 أكتوبر 1908، ص 813.

3- الكون: نيويورك، السنة 3، الخميس 8 تشرين الأول 1908، ص 1

أبرزت جمعيتنا الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالي"، ويقولون أيضاً: "أن السلطان أثبت ظلمه ولم ينجح من الاعتراض على الله، لذا ينبغي على شعبنا أن يلجأ إلى السلاح ضده، وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليحتمل إذن وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من ظلم"⁽¹⁾.

ويعتبر هذا البيان تحريض ضد السلطان والتهجم على مقامه، وعلى ما يبدو أن الذين كتبوه كانوا من الدوغة الحاقدين على السلطان والإسلام معاً، وربما انخدع الكثير من الأتراك حول صدق نوايا الاتحاديين، والتي غدت واضحة بسياستها المتآمرة ضد الدولة العثمانية.

2- حادثة 31 مارس وخلع السلطان عبد الحميد من العرش 1909م:

بعد نجاح جمعية الاتحاد والترقي في تحقيق أهدافها وهو إعادة العمل بالدستور، وسيطرتها على زمام الأمور كان مركزها لا يزال في سالونيك، وهذا لا يبشر بالخير بالنسبة للدولة العثمانية. فالسلطان عبد الحميد آنذاك كان يعتبرها مقراً للتآمر والتخطيط اليهودي الماسوني، بل أنها قامت في وجه استانبول وتريد أن تكون عاصمة جديدة أكثر حرية، والظاهر الآن أن سالونيك أصبحت لها الغلبة على العاصمة استانبول⁽²⁾، وعلى أثر إعلان الدستور في 24 جويلية 1908م دخل كثير من الدوغة إلى استانبول وبدأوا يمارسون ضغطاً سياسياً واقتصادياً على الأتراك، وحشوا الناس على الاحتجاج والإضراب أثناء ضم البوسنة والهرسك بالنمسا، وهم الذين استغلوا الأتراك مالياً مستفيدين من تلك الظروف⁽³⁾.

ويؤكد "خالد العظم" - وهو معاصر لهذه الأحداث - أن أحداثاً مشابهاً جرت قامت بها جمعية "الاتحاد والترقي" أثناء هجوم الجيش البلغاري على الدولة العثمانية وذلك لإثارة الفوضى وتعميق النقمة على السلطان الذي حاول أن يعقد هدنة مع بلغاريا، ويضيف أنه: "لما علم الضباط المهووسون من جماعة الاتحاد والترقي وعلى رأسهم أنور بك بطل الانقلاب في عام 1908م دفعوا طلاب الجامعة وسائر المدارس للقيام بمظاهرات صاحبة هاجمت الباب العالي - مقر الصدر الأعظم ووزير الخارجية - وهم ينادون حرب إيستيز"، أي نريد الحرب⁽⁴⁾.

1- علي الصلابي: المرجع السابق، ص 459 - 460

2- المؤيد، مصر، العدد 5754، 2 ماي، 1909، ص 1

3- حسان حلاق: دور اليهود و القوى الدولية، المرجع السابق، ص 121. أنظر: جواد إتلخان: الخطر المحيط بالإسلام، المصدر السابق، ص 76.

4- خالد العظم: مذكرات خالد العظم، ج 1، بيروت، 1973م، ص 38، شهد خالد العظم هذه الأحداث عندما كان بصحبة والده ووالدته في رحلتهم إلى تركيا، وكان والده آنذاك وزيراً للأوقاف والمساجد.

وفي هذه الفترة من حكم الدستوريين تزايد نفوذ اليهود الدوغة والماسون وتولوا مناصب كبيرة منهم "جاويد بك" الذي عين وزيرا للمالية وهو يهودي الأصل وماسوني بارع الذكاء، وتم تعيين "طلعت بك" وزيرا للداخلية وهو يهودي، وقدم "حلمي باشا" الصدر الأعظم طلبا للالتحاق بالمحفل الماسوني، لكن طلبه لم يقبل⁽¹⁾، وكان مجلس النواب قد أصدر قانونا صارما للمطبوعات، وكان مدير المطبوعات يتمتع بسلطات واسعة يستطيع إيقاف أي صحيفة عن الصدور، إذا وجهت أي انتقاد للعهد الجديد، كما أنشأ "وكالة أخبار تلغراف" شبه رسمية تقدم رأي جمعية الاتحاد والترقي في الأحداث الداخلية ووضعت تحت إشراف يهودي من بغداد⁽²⁾.

ويبدو واضحا أن جمعية الاتحاد والترقي وشعاراتها التي نادى بها قد أحدثت انقسامًا داخل المجتمع العثماني، مما كان لها الأثر السيئ وخيبة الأمل في نفس "إبراهيم تيمو"، فقد نقل عن الوزير "جمال باشا" الذي عرف بالسفاح وقاتل الثوار العرب فيما بعد قوله: "إن هذه الجمعية ليست تلك التي أسستها والتي قمت بالدعاية لها في الخارج، فضلا عن أن الجمعية كانت في الأساس تتبع في سياستها المحافل الماسونية، وتحت تأثير وتخطيط اليهود في مناسير وسالونيك، وازدادت خيبة الأمل لدى إبراهيم تيمو عندما عرف أن جمعية الاتحاد والترقي وفرعها سحب ترشيحه في انتخابات البرلمان العثماني الجديد⁽³⁾.

وهكذا انتشرت حالة الفوضى والصراع على السلطة بين أعضاء الاتحاد والترقي من جانب، وآخرون لازالوا مواليين لحكم السلطان عبد الحميد، وأصبح المستقبل غامضا بسبب التضيق على حرية الكلام والصحافة والميل إلى الاستبداد، وكل ذلك كان في الأساس يتنافى مع ما يصبوا إليه "إبراهيم تيمو"⁽⁴⁾، وكافح من أجل تحقيق أهداف جناها غيره من الاتحاديين، ومن ثم قرر مع مجموعة من أصدقائه وعلى رأسهم "الدكتور عبد الله جودت" و "درويش هيمما" أن يؤسسا حزب خارج جمعية الاتحاد والترقي، وفي 6 فيفري عام 1909م تأسس "الحزب العثماني الحر الديمقراطي" وهو أول حزب ديمقراطي يقوم داخل الدولة برئاسة "إبراهيم تيمو" وكان عبد الله جودت نائبا له⁽⁵⁾.

ثم تأسس "حزب الأحرار العثماني بقيادة الأمير صباح الدين في 14 سبتمبر 1909م، وكانت خلافاته قد اشتدت مع أحمد رضا بعد أن سيطر على الجمعية سيطرة كاملة⁽⁶⁾، وتأسست أيضا أحزاب أخرى مثل "نادي

1- Elie Kedourie : op. cit., p251

2- Ibid, p251

3- حسن كلشي: المصدر السابق، ص 37-38

4- المصدر نفسه، ص 37-38

5- المصدر نفسه، ص 38-39

6- Ahmed Feroz: op. cit., p. 28.

السلامة العمومي"، و"الحزب الديمقراطي العثماني"، وفي هذه الظروف ساد صراع بين الأحزاب بدون مهادنة ضد الاتحاديين⁽¹⁾، وأسست مجموعة من المشايخ والعلماء جمعية الاتحاد الحمدي وكانت تدعو إلى التمسك بالشرعية الإسلامية، وأصدرت "جريدة البركان"⁽²⁾.

وفي ظل حكم الاتحاد والترقي، أطلق العنان للصحافة فاستغل الأعداء هذا الوضع، فصاروا يستخدمونها لتلبية أهدافهم ومدح الاتحاد والترقي، والنيل من مكانة الخلافة الإسلامية⁽³⁾، بيد أن الصحافة انتقدت وعارضت سلوك وإجراءات الاتحاديين، وبرز الاستياء من رئيس الجمعية الذي أكد أن جمعية الاتحاد والترقي ستقهر وتنكل بكل معارضيه⁽⁴⁾.

وفي الحقيقة أن أحمد رضا لم يكن مسلماً صحيحاً بمعنى الكلمة، بل كان متأثراً بالفكر الاشتراكي وبالفيلسوف الفرنسي "أوجست كونت"، وحاقداً على الإسلام والمسلمين ومتأثراً بالماسونية واليهودية، وتوالت ردود الفعل الصادرة عن الصحافة في الأول من أبريل 1909م أنها امتدحت القائمين بالثورة الإسلامية المضادة الفتنة الماسون، وانتقد مراد الميزانجي في صحيفة "الميزان" والذي اختلف مع الاتحاديين، وأطلق لقب "الغزاة" أي المجاهدين في سبيل الله على الجنود الغيورين الذين قتلوا ضباطهم عملاء اليهود والماسون⁽⁵⁾.

أما في العاصمة استانبول كانت الصحافة قد وقفت إلى جانب المعارضة، وصارت توجه الانتقادات إلى الضباط الحاكمين، الأمر الذي انتهى بتهديد المتطرفين أصحاب الصحف كما أسموهم إذا استمروا في انتقاداتهم، ولكن الصحفيين الذين اتخذوا من الحرية مبدئاً ولم يلتفتوا إلى هذه التهديدات، وقام على أثرها المتطرفون من عملاء الاتحاد والترقي باغتيال الصحفي "حسن بك" رئيس جريدة "سريستي"، فقتلوه ليلة السابع من أبريل 1909م على جسر غلطة وألقى القتلة أنفسهم في البحر، حيث كان زورق صغير بانتظارهم ولاذوا بالفرار⁽⁶⁾.

1- سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص 299

2- Ahmed Feroz: op. cit., p.40

3- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 60

4- محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 189، أنظر أيضاً: مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 96

5- المرجع نفسه، ص 189

6- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 63. أنظر أيضاً: أحمد عزت الأعظمي: المصدر السابق، ج 1، ص

ونشرت الجمعية الحملة المعهودة: "رغم التحريات لم يعثروا على القتلة"⁽¹⁾، ومع ذلك فإن التحقيقات لم تتمكن من الوصول إلى الجناة، إذ كانوا من كبار جمعية الاتحاد والترقي يعملون في الجهاز السري التابع للجمعية⁽²⁾.

وعلى ضوء هذه الحادثة كان لها الأثر الكبير في الأوساط الإعلامية، مما زاد من حملتهم ضد الاتحاديين، وزادت من قوة المعارضة، لذا فإن صحيفة "إقدام" والتي كان "حسين جاهد بك" يقوم بتحريرها مع صحيفة "الصباح"، وانتقدت صحيفة البشير الصادرة في بيروت جمعية الاتحاد والترقي إذ قالت: "إن الدستور لا يبيح عقد جمعيات سرية، لذا كان ينبغي على الجمعية أن تحل نفسها طبقاً للدستور، وأن الصحيفة قد حددت وظيفتها ألا وهي عدم التدخل في الأمور السياسية"⁽³⁾، وإزاء هذه التطورات والتي تبدو أنها تشكل خطراً على كيان الدولة العثمانية، إذ اتهمت المعارضة البرلمانية من غير الأتراك الاتحاديين بفرض الدكتاتورية، والتأثير على الجيش من أجل التخلي عن المثل العليا للنزعة العثمانية لحساب الأتراك وحدهم، ومن هذا المنطلق نددت صحيفة "الميزان" بالأفكار التي تطالب المساواة مع غير المسلمين، وبتحرير المرأة بوصفهما متعارضين مع التقاليد الإسلامية، وهذه الأفكار كانت من تخطيط اليهود والماسون، مما حدا بالأتراك والغرب أن يؤيدوا السلطان عبد الحميد الثاني في حكمه⁽⁴⁾.

وهيأت الحركة الصهيونية ومنظماتها السرية تلك الحوادث، كما كانت إنجلترا و مخبراتها العقل المدبر والمخطط للأحداث لأجل إلغاء الخلافة العثمانية⁽⁵⁾، ويمكن تفسير بروز قوة المعارضة الدينية السياسة الاتحاديين، أنهم عاملوا رجال الدين المسلمين بغلظة شديدة وأدخلوا العديد منهم في السجون، وكان ذلك بداية لإشعال الفتنة، في حين لم يتلق هؤلاء العلماء ورجال الدين أي نوع من التحقير والضربات أثناء تعاملهم مع المدافع عن العقيدة السلطان عبد الحميد الثاني⁽⁶⁾، بالإضافة إلى قرار حكومة الاتحاديين بتطبيق التجنيد الإجباري على طلبة المدارس الشرعية، بعد أن كانوا معفيين منه، مما أدى هؤلاء الطلبة النقمة على الاتحاديين والانضمام إلى صفوف المعارضة⁽⁷⁾، وما يجدر ذكره أن مأساة 31 مارس كانت قد بدأت في ثكنة "طاش قشلة"، إذ كانت كتائب الرماة

1- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 180

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 64

3- المصدر نفسه، ص 64

4- البشير: بيروت، العدد 1892، جانفي 1909، ص 3

5- محمد طقوش: المرجع السابق، ص 539

6- Serif Mardin: op. cit, p 408.

7- محمود الشاذلي: المرجع السابق، ص 189

هي التي استخدمت لإشعال الفتنة، فالكتيبة الثانية كان مقرها في "سراي بورني" والكتيبة الثالثة والرابعة عسكرنا في ثكنة "طاش قشلة" وسط العاصمة استانبول⁽¹⁾.

وبدأت المأساة يوم الجمعة الثاني عشر مارس من عام 1909م، وكما يذكر مصطفى طوران الذي كان شاهدا على الأحداث قائلا: "حضرنا الاستعراض في يلدز، وعدنا إلى ثكناتنا في "طاش قشلة"، فوجدنا في كل مهجع شيخا ذو لحية وعمامة، رأيناهم يلقون دروس الوعظ بين الجنود ولم يشتركوا في الاستعراض، وعلمنا أن قيادة القوات الخاصة التي طلبت منهم هذه الدروس الدينية"، وسألنا بعض هؤلاء المشايخ فقالوا: "بأن موظفين حكوميين قدموا إلى مدارسهم فأعطوا لكل واحد منهم سلفة مقدارها ليرة ونصف، وسيقومون بإلقاء هذه الدروس في ثكنتي "طاش قشلة" و"بك أوغلي"⁽²⁾، ومن هنا فإن مصطفى طوران يتساءل: ألم يعلم القادة المسؤولون في هذه الثكنة بهذا الأمر، المشايخ يدخلون ويخرجون دون علم من قادة هذه الثكنة... إن الموضوع إنما يدل على شيء من الدقة في تخطيط هذه المؤامرة وتنفيذها⁽³⁾.

وعندما اجتمعت الفرق يوم 31 من مارس إلى اجتماع عام في ساحة الثكنة دقت الموسيقى استعدادا لجنرال "باشا" لم نره من قبل و لم نعرفه، وقد جاء ومعه عدد من الضباط، وبعد أداء مراسيم التحية، خطب هذا الباشا قائلا: بأنه سيتلو علينا إرادة سلطانية، وبدأ يتلو أمرا مطبوعا بأحرف كبيرة مزينا بخاتم السلطان⁽⁴⁾، ثم أخرج أخرج الباشا من صندوق كان محمولا، قبعة تشبه الأنورية، وبعد أن نزع طربوشه لبس القبعة فدقت موسيقى التحية ومرت الكتائب أمامه، وبعد الانتهاء من الاستعراض، غادر الباشا ومعيته مكان العرض، كانت الورقة التي تلا محتواها ورقة رسمية مذيبة بتوقيع خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد⁽⁵⁾.

وما إن غادرت الهيئة العسكرية المزيفة الثكنة حتى دب النشاط فيهم، فقام "عمر ناجي" وهو أحد الضباط المزيفين وصعد عربة عسكرية وبدأ يخاطب الجنود: "أيها الجنود، اقتربوا مني، لي بعض كلمات أقولها لكم، ألسنا مسلمين؟ ألم يرسلنا آباؤنا وأمهاتنا لخدمة هذا الدين المبين؟ وما معنى لبس هذه القبعة في الإسلام، معناه أن نخلع

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب، المصدر السابق، ص 74. وطاش قشلة: حي وسط استانبول و هي الآن كلية الهندسة. أما سراي بورني نحي من أحياء استانبول مشرف على البحر ومعناه بالعربية ترأس القصر" أنظر: علي حسون: المرجع السابق، ص 198

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 75.

3- المصدر نفسه، ص 76.

4- المصدر نفسه، ص 76-77.

5- المصدر نفسه، ص 76-77.

عهد الإسلام، ثم خاطب كتيبة الرماة قائلاً: أيها الأبطال أجتثم بالحرية كي نصبح كفاراً؟ ألم تكن مهماتكم حماية الحرية و حماية الإسلام الذي هو ديننا"⁽¹⁾.

وكان بقية الجواسيس المنتشرين بين الجنود يطالبون بتنظيم مسيرة إلى مجلس المبعوثان، ودقت الموسيقى أن حي على السلاح، ولما أراد بعض الضباط الوقوف في وجوههم اعتقلوا جميعاً، ووضعوا في مهجع واحد تحت رجمة الحراب⁽²⁾، وكان "درويش وحتي" أحد الشخصيات الدينية واشترك معه الدراويش وأئمة المساجد وسائر رجال الدين الإسلامي، وجلهم يعتقدون أن المشروطية مخالفة الشريعة الإسلامية، وأن السلطان قبل الدستور تحت الضغط والإكراه، فالواجب الديني إلغاء الدستور وإعلان الشريعة المحمدية⁽³⁾.

وانضم إلى المتظاهرين يوم الثلاثاء 31 مارس كتيبتا الرماة الثالثة والرابعة، وكتيبتا القوات الخاصة السابعة والثامنة، وقام بعض المحرضين بإطلاق النار من مسدساتهم فأتبعهم الجنود بإطلاق نيران رشاشاتهم، ومر الموكب نحو جسر غلطة، وعند اقترابنا من الجسر كان الجيش القادم من مركز المدفعية في "بك أوغلي"، قد تجمع في ساحة مسجد "أيا صوفيا"، وهناك أصبحت الساحة مملوءة بالناس حتى تسلقوا الأشجار وكأنهم جراد منتشر، وهم يهتفون أمام مجلس المبعوثان وسط صيحات المطالبين بالشريعة⁽⁴⁾.

وعلى أثر هذه المظاهرة، شكل المتظاهرون وفداً منهم يحمل مطالب المتظاهرين قدموها للسلطان عند مقابلته في القصر وهي: إحياء الشريعة المحمدية، وعزل الصدر الأعظم و ناظري الحرية والبحرية، وطرد "أحمد رضا بك" من رئاسة مجلس المبعوثان، وإبعاد حسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك و طلعت وإسماعيل حقي بك، وغيرهم من أعضاء المجلس، وإصدار قرار العفو العام عن الأشخاص الذين اشتركوا في هذه الحركة المضادة، بالإضافة إلى عزل محمود مختار باشا قائد الجيش، لأنه لم يشترك معهم في تحقيق مطالبهم⁽⁵⁾.

1- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 76-77.

2- السلطان عبد الحميد بالوثائق: المصدر السابق، ص 136-137. أنظر: مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 77.

3- ساطع الحصري: البلاد العربية و الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 97.

4- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، المرجع السابق، ج 2، ص 1006، أنظر أيضاً: ألماتن: عبد الحميد ظل الله على الأرض، ترجمة راسم رشدي، د.د.ن، القاهرة، 1950، ص 194. وأيضاً أنظر: niyazi berkes: op. cit, p81.

5- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 707.

وامتدت هذه الأحداث، وشملت ديار بكر و أرضروم وغيرها من المناطق⁽¹⁾، وعندما توقف جموع المتظاهرين انطلقت أصوات بعض الطلقات النارية، وانتشر الخبر أن أحد الذين يريدون جعل المسلمين كفارا قد قتل، وتبين فيما بعد أنهم قتلوا "شكيب أرسلان" النائب العربي عن مدينة اللاذقية في مجلس المبعوثان، ومزقوا جثته ظنا منهم أنه "حسين جاهد بك" أحد محرري "جريدة الطنين" وهو من يهود الدونمة في سالونيك⁽²⁾.

وعندما رأى "ناظم باشا" وزير العدل فداحة ما حصل تملكته الشجاعة فظهر من إحدى النوافذ وخطب في جمهور المتظاهرين قائلا: "يا أبنائي الجنود إنكم المخدوعين مخطئون في ظنكم، الشريعة قائمة لم يمسه أحد بسوء، وما أن انتهى من كلامه حتى صرخ أحد المتظاهرين اقتلوه، إنه عدو الشريعة الأول، وقام "حمدي جاويش" وكان ضابط صف بإطلاق النار عليه ظنا منه أنه "أحمد رضا" رئيس مجلس المبعوثان فأرداه قتلا⁽³⁾.

وإزاء هذه الأحداث الخطيرة، اجتمع المبعوثان وقرروا تشكيل الحكومة، وتم تعيين "توفيق باشا" صدرا أعظم و"أدهم باشا" ناظرا للحربية. وعزل أحمد رضا من رئاسة مجلس المبعوثان بعد قرار استقالته، وإصدار قرار العفو عن الجنود الذين لم يشتركوا في المظاهرة⁽⁴⁾. كما قتل أيضا في تلك الأحداث الدامية وزير العدل، وجرح وزير البحرية "رضا باشا"⁽⁵⁾، وهناك من يفسر ما حدث من مأساة هي أصلا من تدبير اليهود وأعوانهم الماسون والإنجليز. فقد رسمت خططه في محافل الماسونية بسالونيك، ولهذا فإن التنظيم السري الإنجليزي قام بتنظيم قوة الماسونية، كما كان كلا من "رفعت باشا" ناظر الخارجية و"إسماعيل كمال محمد" ممن أعدوا عصيان 31 مارس ومن خلفهما السفارة الإنجليزية التي كانت العقل المدبر، وتكفلت بدفع الأموال⁽⁶⁾.

وبعض المؤرخين من يتهمون أن السلطان كان مؤيدا للمتظاهرين من أجل عودة حكمه، إلا أن احتجاجات المتظاهرين على ما يبدو كانت كراهية وحقدا لممارسات الاتحاديين واستبدادهم في الحكم، وفي خضم هذه الأحداث قام متعصبون مسلمون بقتل الأرمن خدمة لتعليمات عملاء اليهود، وكان قد أرسل منشور بتاريخ

1- رفيق العظم: الانقلاب الميمون، المنار، مصر، ج5، م12، 18 جوان 1909، ص342.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص81.

3- المصدر نفسه، ص81.

4- محمد فريك بك: المرجع السابق، ص707.

5- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، المرجع السابق، ص258، أنظر النبراس: بيروت، ج4، م1، 21 أبريل 1909، ص184.

6- السلطان عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص137.

15 أبريل 1909م إلى جميع الحكام العثمانيين يطلب منهم المحافظة على مبادئ الشريعة الإسلامية، وفسر الاتحاديون ما ورد في المنشور على أنه أمر بذبح الأرمن⁽¹⁾.

وفي ظل استمرار الأحداث، حدثت فتنة ثالثة في سلاح البحرية، إذ ادعى الاتحاديون بأن قائد البارجة "إعصار التوفيق" البكباشي "علي قبولي" حاول تدمير مقر يلدز لقتل الخليفة السلطان عبد الحميد⁽²⁾، وبعد ذلك الادعاء الذي لم يكن له أساس من الصحة ولا يستند لأدلة تدين المتهم، وكان هذا ظلماً وافتراءً، كما وضع "أحمد كوران" إذ يقول: "بأن علي قبولي كان مشتركاً في اجتماع مع أنور بك، تم خلاله التهديد بقصف قصر يلدز، وأن خلافاً لحدث داخل البارجة، فقام رجال البحرية باعتقاله والذهاب به إلى قصر يلدز"⁽³⁾، ولكن "مصطفى طوران" ينفي ما ذكره كوران وأن ما حدث لـعلي قبولي ما هو إلا مؤامرة وقتهمة، ولما أرسل السلطان بعض مرافقه ليتبينوا الأمر أجابوهم: "إننا ندين بالولاء لمولانا جلالة السلطان جئنا بخائن الوطن هو الآن مكبل في العربة، إنه قائد البارجة إعصار التوفيق، كان يهيم بتدمير قصر يلدز"⁽⁴⁾.

وعندما طلب السلطان عبد الحميد رؤية "علي قبولي" جيئ به فمشى إليه خائر القوي حتى وقف أمامه و بعد أداء التحية قال بصوت مرتعش: "عبدكم البكباشي علي قبولي قائد البارجة "إعصار التوفيق" أمد الله في عمر جلالة سلطانتنا، إن شكوى هؤلاء الجنود نابعة من جهلهم وعن تعريض مقصود"⁽⁵⁾، وأمر السلطان أن يأخذوه إلى وزارة البحرية للتحقيق معه، ولم يستطع رجال القصر عندما سمعوا أصوات المحتشدين أن يأخذوه منهم، وقالوا لهم: "إنه خائن الشريعة والدين والوطن، وتولى قتله رجل طويل ذو شاربين برتبة رقيب يدعى "سليمان الكرزي" وطعن بحربة بارودته بطن علي قبولي، ومات بعد ذلك مباشرة دون أن يجد النجاة من رجال القصر"⁽⁶⁾.

ولكن "عائشة أوغلي" بنت السلطان عبد الحميد تحدثت عن مقتل علي قبولي بقولها: "إن والدها السلطان صاح في المحتشدين وعلي قبولي بين أيديهم، وطلب منهم والدي السلطان أن يتركوه والعفو عنه، وقد سمعت هذا الرجاء من والدي، إلا أن هؤلاء لم يستجيبوا وطعنوه بحراب البنادق"⁽⁷⁾، عندئذ قررت الجمعية على الفور إرسال قوات عسكرية أطلق عليه بعض المؤرخين الأوروبيين "جيش الإنقاذ" وأطلق عليه في اللغة التركية "حركة أوردسو" أي

1- Bernard lewis : op.cit, p217.

وأيضاً أنظر: روبريان مانتران: المرجع السابق، ج2، ص252.

2- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص ص 82-83.

3- Ahmet kuram : op. cit, p462.

4- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص ص 82-83.

5- المصدر نفسه، ص84.

6- المصدر نفسه، ص85.

7- مذكرات عائشة أوغلي: المصدر السابق، ص 232.

" جيش الحركة ". وقد زحفت هذه القوات من سالونيك إلى إستانبول⁽¹⁾ بقيادة "محمود شوكت باشا"⁽²⁾، الذي أرسل تلغرافاً يتضمن حماية الدستور و سلامة المبعوثين، كما أن "حسني باشا" قائد الطليعة التي وصلت استانبول أرسل هو الآخر تلغرافاً عمومياً إلى السفارات الأجنبية يقول فيه: "إن غاية الجيوش هو الزحف إلى استانبول من أجل تثبيت القانون الأساسي، ثم معاقبة الارتجاعيين (المعارضون للدستور وحكم الاتحاديين) الذين دبوا الفتن وإثارة الفوضى، ثم معاقبتهم معاقبة قانونية صارمة، وأن حياة الأجانب وأمواهم ستكون محترمة وراحتهم مؤمنة"⁽³⁾.

وكان وصول جيش الحركة في 25 أبريل عام 1909م وانضم إليه كثير من اليهود والبلغار والصرب والأرمن والأروام⁽⁴⁾، وشعر السلطان عبد الحميد أن الأمور ازدادت خطورة، لذلك قام بإخبار الصدر الأعظم عن رغبته في الاستغناء عن منصب السلطان والتنازل لأخيه "محمد رشاد أفندي" حيث قال: "إنني واثق أنهم لا يريدوني، إنني مستعد للانسحاب، أنه يجب أن يظهروا أولاً أن لا دخل لي في هذا الأمر"⁽⁵⁾.

ولكن جمعية الاتحاد والترقي وأوربا مجتمعة، أن أحداث 31 مارس لم يصدر عني مطلقاً، لقد دبره بعض الأعداء، وتبين من التحقيق أنه تدبير سياسي مقصود، ولم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أمتي أبداً، ولقد حرص الأعداء بهذه الأعمال على تحقيق أهدافهم الخبيثة في "طاش قشلة"، فأطلب منهم ألا يصدقوا مثل هذا التحريض وليبقوا في ثكناتهم⁽⁶⁾.

1- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية، المرجع السابق، ج 2، ص 1007.

2- ولد محمود شوكت باشا (1809-1913) في بغداد عربي الأصل، أبوه سليمان فائق، كان من كبار موظفي ولاية بغداد، وولده الأصغر حكمت سليمان تولى رئاسة الوزارة في العهد الملكي للعراق 1939، و تلقى محمود شوكت دراسته الأولى في بغداد، و انتقل إلى إستانبول و تخرج من المدرسة الحربية، وحصل على رتبة فريق ثاني و فريق أول عام 1900، و بعد إعلان المشروطية عين قائداً للجيش الثالث و مقر قيادته في سالونيك، ثم تعاون مع كبار زعماء الاتحاد و الترقى و تمكن من الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد بعد دخوله استانبول، و عين وزيراً للحربية، و رئيساً للوزارة اغتيل في 1913/6/11 ودفن في استانبول. أنظر: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني: المصدر السابق، ص 141-142.

3- المؤيد: مصر، العدد 5748، 25 أبريل 1909، ص 1

4- ألماتلن: المصدر السابق، ص 197.

5- عائشة أوغلي: المصدر السابق، ص 232.

6- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 87.

وفي هذا الصدد أكد السلطان عبد الحميد نافيا ما وجه إليه من اتهامات، فلو كانت هذه الأحداث من تديره، لكان هناك ضباط من أتباعه على رأسها، يقودون حركتها بشكل أكثر تنظيما، ولازدياد الضرر الذي لحق بالاتحاديين⁽¹⁾.

وكان السلطان عبد الحميد قد أوضح أن مجموعة من رجاله وفي مقدمتهم "ناظم باشا" طلب من السلطان أن يوقف جيش الحركة قبل وصوله، ولكن كما يذكر السلطان رفض، وأخبروني بأن جزءا من الجيش المعسكر في أدرنه انضم إلى جيش الحركة، ثم طلبت ونهت بشدة ألا يخرج الجيش الموجود في استانبول من ثكناته، عندما كان جيش الحركة قادما من "أيا ستفانوس" إلى استانبول، والسبب أن السلطان لا يريد أن يريق دماء جنوده، لأن الأمة كما يقول السلطان: "لم تعد تثق بي، وكنت سأنسحب من تلقاء نفسي ولكنهم عارضوني"⁽²⁾، وهذا دليل يؤكد حسن نوايا السلطان وموقفه الذي سجله التاريخ، ومن ثم تحدث "مصطفى طوران" عن اجتماع بين السلطان ووزير الجيش، ثم خاطبه قائلا: "بلغوا سلامي إلى أبنائي الجنود الموجودين هنا والباقي في الثكنات و قولوا لهم إن عساكر من الجيش الثالث التي تسمى الحركة "بيشل كوي" إنهم مثلكم أترك مسلمون"⁽³⁾.

وما يجدر ذكره أن "محمود شوكت باشا" أثناء زحفه إلى استانبول حدد عدة مطالب وهي: إسقاط الوزارة الحالية لأنها تشكلت بصفة غير دستورية، وإعادة "أحمد رضا باشا" لرئاسة مجلس المبعوثان، والعفو عن العساكر الذين ثاروا في استانبول والسماح لهم وضباطهم بالعودة إلى ثكناتهم، وأن يكون الدستور في أمان والقصاص من المعارضين للاتحاديين⁽⁴⁾.

وفي ليلة العاشر من أبريل عام 1909م أسس كتائب الرماة بوجود شيء ما يحوم حولهم فعمدوا إلى حراسة مخزن الأسلحة، فجردوهم من أسلحتهم وكسروا أقفال المخزن و نقلوا العتاد كله إلى مضاجعهم، وعلم القائد بالخبر فاستنفر القوات لكن الرماة هددوهم بإطلاق النار إن هم اقتربوا منهم، وعلم ضباط الصف المناوبون أن عناصر أجنبية يلبسون قبعات بيضاء ويرتدون أزياء غريبة يحفرون مرايض لهم اتجاه الثكنة من جهة مستودع المحروقات، وعندما علم القائد بالخبر، أمر جنوده بالتريث حتى يصبح الصباح فيظهر الوضع جليا، ولم يمض ساعة على هذا الوضع حتى لعلعت أصوات المدافع الرشاشة قرب الباب الرئيسي⁽⁵⁾، وبعدها بوقت قليل أغار جيش

1- محمد علي أورهان: المرجع السابق، ص 327. أنظر أيضا:

Ahmet kruan : op. cit, p278.

2- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 97.

3- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 87

4- المؤيد: العدد 5798، المصدر السابق، ص 1، أنظر: الهدى نيويورك، عدد 48، السنة 12، الأحد 18 أبريل 1909، ص 2.

5- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 89-90.

الحركة على الثكنة ففتح الرماة نيران أسلحتهم لصدد هذا الجيش، فلما سمعوا أصوات الرصاص هرعوا إلى خارج الثكنة دون أن يعلموا بما جرى، فقابلهم جيش الحركة بالرشاشات المتمركزة في مقبرة الأرض فأبادهم عن بكرة أبيهم⁽¹⁾.

وخلال هذه الاشتباكات التي بدأت قبل الفجر من يوم السبت 11 أبريل واستمرت حتى الظهر دمرت قنابل المدفعية الباب الرئيسي وجزءا من الطابق الثاني، وبعد قليل تهدمت المهاجع على رؤوس جنود الاستحكام فماتوا جميعا تحت الأنقاض⁽²⁾، وفي ظل هذه التطورات الخطيرة والسيئة، يذكر السلطان عبد الحميد قائلا: "أني رفضت اقتراح "خليل بك" وهو من قواد سلاح البنادق لمواجهة الجيش، بعد أن جثا على قدمي وهو يبكي، وشبه السلطان جيش الحركة المهاجم بالأبطال الخائفين"⁽³⁾.

ومن جهة ثانية استمرت الاشتباكات حتى عصر ذلك اليوم، فكانت مدافع "بك أوغلي" تتراشق النيران مع مدافع الحربية، وحاول قائد الكتيبة السابعة "إسماعيل حقي" في تلك الأثناء ثني الرماة عن موقفهم فلم يفلح فأمرنا أن نلف غطاء أبيض بعضا نرفع راية الاستسلام على نافذة من نوافذ الطابق العلوي لعلمهم يوقفون القصف فنفذنا أمره وفعلا توقف إطلاق النار⁽⁴⁾.

ومن الباب النظامي المتهم ظهر البكباشي أنور بك "أنور باشا" أو بطل الحرية فيما بعد وبيده مسدس ومعه عشر من رفاقه ومن ورائهم جنود ذوي ألبسة غريبة تبين لاحقا أنهم من عصابات البلغار، ومعه رجل طويل القامة ذو لحية صفراء اسمه "ساندانيسكي" (قائد الثورة المقدونية)، فقاموا بتجريد من بقي حيا من كتائب الرماة من سلاحه، فتقدم وقتلهم جميعا بحراب أسلحتهم⁽⁵⁾، وتقدم القائد "إسماعيل حقي" نحو البكباشي أنور بك قائلا: "أي بني بارك الله بكم، لم أستطع أن أثني الرماة عما فعلوا، لقد أقسموا بالأمس لكنهم نقضوا أيمانهم فكسروا باب مخزن الأسلحة وسببوا هذه الحادثة، إلا أن أنور لم يجبه بل مشى إليه و أشبعه ركلا وضربا ثم نتف لحيته البيضاء، فانفجر القائد غاضبا و الدماء تكاد تتفجر من عينيه أيها الوقح، لقد أثبت بعملك هذا سوء أدبك وخلقتك، وإنك لم تقم للشرف العسكري وزنا، أسفي عليك وأنت تحمل رتبة ضابط تركي، لم أعرف أنك

1- مصطفى طوران: المصدر السابق، ص 89-90.

2- المصدر نفسه، ص 89-90.

3- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 99-100.

4- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 91.

5- المصدر نفسه، ص 91.

أحط من أي جندي عادي، أشك في عقيدتك، ثم وقع مغشيا عليه، ثم بعد ذلك أمر "أنور بك" بعد سماعه هذا الجواب عصابات البلغار أن يقيدوا هذا الضابط فأطلق هو وثلاثة من رفاقه النار عليه فقتلوه⁽¹⁾.

وكان على أثر هذه الأحداث أن كثرت جثث الضحايا، وأمر "أنور بك" بدفنهم في مقبرة الأرمن⁽²⁾، وانتشر جيش الحركة البالغ عدده حوالي 30 ألف جندي حيث أحاطوا بالقسم الغربي من العاصمة استانبول وهم ينتشرون من "سان ستيفانوس" إلى البحر الأسود وقامت هذه القوات بدخول استانبول في 25 أبريل ومحاصرة قصر يلدز⁽³⁾، واندفعت عصابات البلغار على أثرها بقيادة "ساندانيسكي" ورجاله برفقة "أنور بك" تجاه قصر يلدز والهجوم عليه بحثا عن الخزينة، وقتلوا المصاحب الأول للسلطان، بعد أن رفض أن يدهم على مكانها، والثاني "نادر أغا" بعد أن هددوه بالإعدام فدهم علي الخزينة وأنقذ روحه⁽⁴⁾.

وتتابعت الأحداث بعد حصار قصر يلدز حيث نُهبت محتوياته من العصابات البلغارية، وأعلن في استانبول الأحكام العرفية، وأنشأت محاكم استثنائية لمحاكمة الثائرين المناوئين للاتحاديين، وأعلن حضر التجوال بعد آذان المغرب، وتوقفت حركة المواصلات بين شطري المدينة⁽⁵⁾، دخل "أنور بك" إلى مدينة استانبول راكبا حصانا كأنه ملك، وقرر خلع السلطان⁽⁶⁾، أما "محمود شوكت باشا" فأعد المحاكم والمشائخ كي ينتقم من الموالين للسلطان، فأعدم حوالي 1200 منهم إلى جانب عدد من المشايخ، وتم نفي حوالي 1500 رجل من رجال القصر و حاشية السلطان إلى الحجاز واليمن⁽⁷⁾.

ومن ناحية أخرى فإن السلطان هم بإخراج الجنود وصرف الخدم من القصر وأصبح السلطان هو وأسرته وحيدين، في حين وصل قيادي الجمعية، وهم من يهود الدونمة إلى "خادم كوي" والذين لاذوا بالفرار فترة أحداث 31 مارس، عادوا إلى استانبول وهم "حسين جاهد"، و"رحمي بك"، و"جاويد بك" و"طلعت بك" و"إمانويل قرصوا أفندي"⁽⁸⁾.

1- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 92.

2- المصدر نفسه، ص 92.

3- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج 2، ص 184.

4- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 94.

5- المصدر نفسه، ص 95.

6- الهدى: نيويورك، العدد 48، المصدر السابق، ص 2.

7- محمد كرد علي: المصدر السابق، ج 3، ص 199، و أيضا أنظر: niyazi berkes: op.cit, p 81

8- المؤيد: مصر، عدد 5798، المصدر السابق، ص 1.

ودعي هؤلاء في الجلسة الطارئة لمجلس المبعوثان، وأرسلوا البرقية بتاريخ 5 أبريل 1909م وجاء فيها: "الرجاء إبلاغ البكوات حسين جاهد، وجاويد ورحمي وقرصوا أفندي الذين علمنا وجودهم لديكم و النواب الآخرين، بضرورة القدوم إلى "خادم كوي" في أول قطار"⁽¹⁾، ويبرز دور اليهود مرة ثانية في حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثاني عندما مارس الاتحاديون ضغوطا على الشيخ محمد ضياء كي يصدر فتوى خلع السلطان عنه⁽²⁾، إلا أن شيخ الإسلام الذي أصدر الفتوى كان ماسونيا⁽³⁾، وتم تشكيل يوم الثلاثاء 24 أبريل 1909م لجنة تتكون من الشخصيات التالية وهم: "إمانويل قرصوا" من زعماء الماسونيين الذي كان عدوا لدودا للسلطان عبد الحميد، وأمر بطرده من القصر، و"عارف حكمت" وهو ضابط برتبة فريق في سلاح البحرية وهو كرجي العرق، و"أرام أفندي" وهو أرمني وعضو الاتحاد والترقي وعضو مجلس الأعيان، و"إسعد طوباني" وهو ألباني وعضو الاتحاد والترقي، ونائب في مجلس المبعوثان⁽⁴⁾.

وثارت ثائرة السلطان عبد الحميد عندما رأى الوفد و كان من بينهم قرصوا، واعتبر حضوره إهانة لمقام الخلافة، فأشار إلى قارصوه وقال: ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة، وحدق بغضب إلى قارصوه وتابع كلامه بأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي...وبدلا عن الجواب ساد الارتباك الجماعة، وبالأخص اليهودي، علاوة على ذلك استولى عليه الخوف... فلم يجد في نفسه قدرة للجواب، ومما زاد في حسرة السلطان أنه سبق أن طرده من مجلسه في قصر يلدز حينما حاول التأثير عليه لإسكان اليهود بفلسطين، وخاصة أن قارصوه هذا اعتقل بتهمة التجسس في قصر يلدز على أبواب ثورة 1908م، وسيق إلى السجن إلى أن عفا عنه السلطان، وفي هذا يقول السلطان: "تأثرت جدا بالطريقة التي أبلغوني فيها و هي قرار خلعي أكثر من الخلع نفسه"، وجاء الوفد بالضجة حتى وصلوا غرفتي واجهني واحد منهم بتصرف قبيح غير مهذب، وهو أسعد طوباني وقال لي: "عزلتك الأمة"، لقد كانوا في غاية السفالة عندما واجهوني بكلمة العزل، في الوقت الذي كان لا بد منها كلمة الخلع مسكينة هذه الأمة آه! لو كانت تعلم النتيجة المرة التي تنتظرها⁽⁵⁾.

ويتحدث محمد رشيد رضا في مجلة المنار عن السلطان عبد الحميد وسياسته أمام اعتقاده أنها جمعية سرية، وهو يخاف من كل اجتماع، وكل سر وأن غرضها إزالة الاستبداد، وإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض كلها، وهو يفتخر بالخلافة الإسلامية ويحرص عليها، حيث يقول: "وقد تنفس زعماء الماسون الصعداء بعد

1- حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 312، أنظر نص البرقية الملحق رقم 11.

2- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 710. أنظر قرار الخلع للسلطان عبد الحميد الملحق رقم 2.

3- Cevat Rifat Atilhan: **İslam Saran Tahlike ve Siyonizm ve proto kolar**, istanbul, gum matbassi, 1955. P 191.

4- Cevat Rifat Atilhan : op. cit, P 20.

5- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 101-102.

الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة، فأسسوا محفلا شرقيا عثمانيا أستاذهم الأعظم "طلعت بك" ناظر الداخلية، وأركانهم زعماء جمعية الاتحاد والترقي و أنصارها من اليهود، وكان من حظ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون ما دام حيا، وإن لم تكن في يده الخاطئة، وإنا نتمنى أن يكون تصرف طلعت في الماسونية كتصرفه في نظارة الداخلية، فإني والله لم أسمع من أحد في الآستانة، ولا في غيرها شهادة له بحسن التصرف، ولا أحصي عدد الشهادات التي سمعتها عن سوء تصرفه الذي بدا أثره في اضطراب أكثر ولايات المملكة، فسوء تصرفه في مسألة الأرناؤوط قد عرف الآن، وإن لم تظهر عواقبه السيئة، وأما سوء تصرفه في مسألة اليمن. فقد ظهرت بوادره ونعوذ بالله من أواخره، أتمنى أن يكون تصرفه في الماسونية أحسن، حتى لا يجند عليها ولا على الدولة والملة، فإن الفرق بيننا وبين فرنسا والبرتغال بعيد جدا، وإن كان يراه هو والدكتور ناظم وبعض الزعماء قريبا فليتدبروا ولا يغتروا بقوة الجمعية ولا بغيرها"⁽¹⁾.

وبعد قرار خلع السلطان عبد الحميد، عين مكانه أخيه الأصغر "محمد رشاد" والذي تولى الخلافة باسم السلطان محمد الخامس، وقد صدر فتوى من شيخ الإسلام⁽²⁾، ومن المعلوم أن الاتحاديين بعد قرار عزل السلطان عبد الحميد أرسلوا إليه وفدا كما يذكر السلطان فيقول: "أرسلوا لي وفدا برئاسة "الفريق حسني باشا" كي يخرجني من القصر وهذا قرار مجلس المبعوثان ويمكنك اصطحاب من تريد من أفراد عائلتك وأن سلامة حياتك، كما قال الفريق "حسني باشا" يكفلها الجيش"⁽³⁾.

وأرسل في يوم 28 أبريل 1909م ثلاثة من نسائه وأولاده عبد الرحيم ومحمد وعابد وبناته شادية وعائشة ورافعة وبعض الخدم و المرافقين إلى سالونيك لأنه المركز اليهودي الدونمي الماسوني الاتحادي الدولي⁽⁴⁾، وأقام في فيلا "ألاتيني" (Alatini) ويمتلكها أحد أصحاب البنوك اليهود الأغنياء في جمعية الاتحاد و الترقي ووضع شقيق "رمزي بك" الماسوني حارسا عليه⁽⁵⁾.

1- صالح زهر الدين: المرجع السابق، ص 23

2- محمد فريد بك: المصدر السابق، ص 709

3- مذكرات السلطان عبد الحميد: المصدر السابق، ص 103

4- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، المصدر السابق، ص 101. أنظر أيضا:

- F.O. 371, 1010, from Lowther to Edward Grey, May 29, 1910.

5- رمزي بك: كولونيل من يهود الدونمة الماسونيين في سالونيك، و هو الذي عين رئيسا للمعاونين السلطان محمد رشاد الخامس و كان له

دورا في ثورة 1908 و قرار الخلع 1909. أنظر: حسان حلاق: دور اليهود و القوى الدولية، المرجع السابق، ص 142، و أيضا أنظر:

- Bernard Lewis: op. cit, p 42.

ولقد نقلت صحيفة المؤيد بتاريخ 16 ماي عن صحيفة "صباح" الصادرة 11 ماي 1909م، أنه تم تعيين معاش للسلطان عبد الحميد قدره ألف جنيه عثماني شهريا ولكل من أولاده المقيمين معه ستمائة جنيه⁽¹⁾، وهذا الأمر كان إجحافا بحق السلطان عبد الحميد حيث قال: "إن أسلافي لم يقبلوا بمثل ذلك قط"⁽²⁾.

ومن الأهمية بما كان القول أن السلطان عبد الحميد كانت تربطه علاقة قوية بالشيخ "محمود أبو الشامات" شيخ "الطريقة الشاذلية"، وكان الشيخ "أبا الشامات" قد تلقى رسالة خطية بعد خلع السلطان مباشرة، إذ يقول في هذا السلطان عبد الحميد في رسالته: "إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب مأساوي المضايقة من رؤساء الاتحاد المعروفين "تركيا الفتاة" على أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في "الأرض المقدسة" فلسطين، ورغم إصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا العرض و أخيرا وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً، فرفضت هذا العرض بصورة قطعية أيضاً"، ويضيف السلطان في مكان آخر من رسالته قائلاً: "هذا و حمدت المولى وأحمدته أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة، وقد حدث ما حدث"⁽³⁾.

ويذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته حول مفاوضات الصهيونية لامتلاك فلسطين فيقول: "بأن يهود العالم تعاونوا مع المحافل الماسونية، وطلبوا مساعدتهم وإسكانهم في فلسطين، وقد عرضوا علي أموالاً ولكنني لم أقبلها ورفضت ذلك المشروع، ويضيف قوله: "إن زعيم الصهيونية هرتزل لم يستطع إقناعي بأفكاره بإنشاء مزارع لليهود لأنني أعرف أنهم سيقومون حكم ذاتية، وبذلك تكون المسألة اليهودية قد انتهت، وربما كان هرتزل على حق بالنسبة لشعبه فإنه يريد أرضاً لهم، ولكن نسي أن الذكاء وحده ليس كافياً"⁽⁴⁾.

كما يؤكد السلطان عبد الحميد بأنه منذ نشأة الحركة الصهيونية بدأ يعارض مخططاتها لأنه عرف مقاصدها وقال: "إن الصهيونية لا تريد أراض زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ويصبح لها ممثلون في الخارج... وإنني أعرض هذه الشفالك (Saflik) لأنهم يظنونني أنني لا أعرف نواياهم، وأن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة، وإنني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين لأنني

1- المؤيد: مصر، العدد 5799، 19 ماي 1909، ص 4

2- المقتبس: دمشق، العدد 199، الأحد 12 ماي 1909، ص 3.

3- سعيد الأفغاني: سبب خلع السلطان عبد الحميد، وثيقة بتوقيعه، فريدة مجهولة، تصريح بالسبب، العربي "الكويت"، العدد 169، ديسمبر 1972، ص 150-157، أنظر صورة عن الرسالة في الملحق رقم 7. وأيضاً أنظر: النبراس، حول خلع السلطان، ج4، م1، ص 187-189.

4- Siyasi Hatiratim:op. Cit, p 60.

لازلت أكبر أعدائهم"⁽¹⁾، وتبرز في هذا الصدد وثيقة في غاية من الأهمية وهي الرسالة التي أرسلها السلطان عبد الحميد الثاني إلى الشيخ "محمود أبو الشامات"⁽²⁾ في دمشق وشرح له أسباب ثورة عام 1908م وأسباب خلعه في عام 1909م، وأكد له بأنه لم يتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما "سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم "جون تورك" وتهديدهم - اضطررت إلى ترك الخلافة"، ويستطرد في رسالته قائلاً: "إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة - فلسطين - ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكتيف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً فرفضت هذا التكتيف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي: "إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً - فضلاً عن 150 مليون ليرة إنكليزية ذهب - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي... وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدوني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكتيف".

ومن جهة أخرى، فإن مجموعة الصحف العربية المعاصرة تؤكد العلاقة بين الصهيونية واليهود من جهة وبين الماسونية والاتحاديين من جهة ثانية، فذكرت "المشرق" أنه من المقرر الثابت الذي لا يمكن اليوم أن ينكره لكثرة الدلائل على صحته أن العامل الكبير في إدارة الماسونية وجمع كلمتها إنما هو العنصر اليهودي، فإن الماسونيين بما في أيديهم من الأموال الطائلة ولانتشارهم في كل أنحاء المعمورة... أقدر من سواهم على ضبط دفعة الماسونية وتدبير أمورها، وتضيف الصحيفة قولها: "إنه بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني تخلقت جمعية الاتحاد والترقي بأخلاق الماسونية واليهودية ولبست ثوبهما، وإنه لما خمدت ثورة أبريل 1909م نالت العناصر اليهودية أهمية أكبر، فجاويد بك عين وزيراً للمالية وطلعت بك وزيراً للداخلية، وجاهد بك مستشارة لجاويد بك، وكل هؤلاء ماسونيون وأولهم من سلالة يهودية"⁽³⁾.

ويمكن القول أن النفوذ الصهيوني لدى الحكم الجديد في تركيا ساعد كثيراً على إزالة القيود التي تقف في وجه الاستيطان اليهودي في فلسطين وتيار الهجرة، وكان أكثر ما يزعج الصهيونية "الجواز الأحمر" وقوانين التملك التي تحظر على اليهود الأجانب نقل ملكية الأراضي إليهم رغم أنها لم تستطع في الماضي أن تعمل تماماً دون تسرب بطيء ومستمر لليهود داخل فلسطين أو إنشاء المستعمرات، وقد تدخل في موضوع إزالة هذه القيود الحاخام "حاييم ناحوم" رئيس الطائفة اليهودية في مصر وتعاون مع ستراوس ومرجانتو سفيري الولايات المتحدة، وبذلوا جهوداً كثيرة للقضاء على الجواز الأحمر الذي وضع خصيصاً لتحديد الهجرة إلى الدولة العثمانية"⁽⁴⁾.

1- Siyasi Hatiratim: op. Cit, p 61.

2- أنظر نص الرسالة، بالتركية والعربية الملحق رقم 7.

3- لويس شيخو: السر المصون في شيعة الفرمسون، المصدر السابق، ص 617، 618.

4- ايلي ليفي أبو عسل: المصدر السابق، ص 357.

كما أن سياسة زعماء الحركة الصهيونية توجهت بشكل واضح تجاه استانبول والحكومة العثمانية ليس قبل عام 1908م فحسب، وإنما أيضا في الأعوام التي تلتها، ومن أجل ذلك بذلت المنظمة الصهيونية جهودها للحصول على "ميثاق اتحادي" باستيطان فلسطين رغم ادعائها أن ذلك لم يعد ضروريا طالما أن السلطان عبد الحميد الثاني قد خلع عن العرش، وأوضحت أن الصهيونية لا تهدف إلى استقلال فلسطين عن الدولة العثمانية، لأن الوجود اليهودي لا يكون مضمونا إلا تحت حماية إمبراطورية عثمانية قوية، وأن الزعماء الصهيونيين من خلال طغيان السلطان السابق طلبوا وضعها خصا وضمانات أو ما يسمى "الميثاق" حتى لا يقدم السلطان على نقض كل ما وضعه، أما في العهد الاتحادي حيث يسود الدستور والحرية فلم يعد هناك حاجة لضمانات أو وضع خاص⁽¹⁾.

والواقع أن وصول الاتحاديين للحكم ومساهمة اليهود في أحداث الانقلاب والخلع 1908-1909م ثم حاجة الحكومة للأموال اليهودية، كل ذلك دفع النشاط الصهيوني في فلسطين خطوات إلى الأمام، فبعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ازداد النفوذ الإقتصادي والسياسي الصهيوني فأزداد عدد المؤسسات المالية العاملة في ميدان العمل الاستيطاني اليهودي في فلسطين، وفي مقدمة هذه المؤسسات شركة أنجلو ليفانتين (Anglo - Levantine) المصرفية في استانبول، وشركة تطوير الأراضي الفلسطينية (Palestine Land Development) وشركة المكابي للأراضي، وعددا آخر من الشركات المالية الاستثمارية والمصرفية التي لعبت دورا هاما في ترسيخ الغزوة الصهيونية⁽²⁾.

ونظرا لهذه السياسة التركية فقد أظهر قادة العرب شكوكهم في إخلاص جمعية الاتحاد والترقي التي انتظروا منها الحرية والإصلاح والمساواة وازدادت شكوكهم في زعماء الجمعية لأسباب عديدة منها:

- إن يهود سالانيك كانوا جزءا لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي .
- إن قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعا وبدون استثناء من البنائين الأحرار.
- إن الجمعية كانت تتعامل مع الأجنبي بشكل غريب ومثير، فقد كانت هناك نخبة من الأتراك الاتحاديين.
- في مقدمتهم رشيد باشا وغيره من الساسة.

1- Aharon Cohen : **Israel and the Arab World** , Beacon Press, Boston, 1976, P.74.

2- هاني الهندي: المرجع السابق، ص 62.

- يميلون ميلا أجنبيا غربيا وإلى أقصى الحدود، وهؤلاء الرجال كانوا الأعضاء الأوائل في المحافل الماسونية التي كانت منتشرة في تركيا بواسطة الأجانب.

- إن اليهود كانت لهم أطماع وأحلام توسعية ليس فقط في فلسطين وإنما أيضا في بقية أنحاء الدولة العثمانية، إذ أن السيادة على مصر جزء من إرث إسرائيل في المستقبل، على حد قول لوثر في رسالته إلى غراي⁽¹⁾، بل تذهب الصهيونية إلى أكثر من هذه الحدود حيث يطالب " كان " في كتابه " أرض إسرائيل (Eretz Israel) بحكومة يهودية مستقلة في فلسطين وحدودها الطبيعية هي لبنان شمالا، ثم دمشق والعقبة شرقا، وشبه جزيرة سيناء جنوبا والبحر المتوسط غربا.

والواقع أن هذه المخاوف والشكوك التي أبدتها العرب نحو " تركيا الفتاة " أصبحت من صلب السياسة العربية، وذلك بعد أن ظهرت القومية التركية الطورانية المتعصبة على حقيقتها، وراحت تتحدى الكرامة العربية في أعز ما لديها من دين ولغة⁽²⁾، وذكر الأب "لويس شيخو" من: "أن رشيد رضا الذي أمضى سنة كاملة في الأستانة، وقف على غوامض سياسة الجمعية ومخبة صناديق أسرارها"، وأوضح أن جمعية الاتحاد والترقي من شيعة الماسون، ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي، والتوصل بقوة الدولة إلى إضعاف اللغة العربية، وإماتها في المملكة وتترك العرب مع العرب مع إبقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان... ومن لوازم تشييعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة، وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود الكثير من خيرات البلاد⁽³⁾.

وكان أنصار الاتحاد والترقي قد أعلنوا مرارا عن المشاريع التي وضعوها لتحسين أحوال اليهود في الدولة العثمانية، وكان " الدكتور ناظم " في مقدمة هؤلاء، وهو من المشاركين في ثورة يوليه عام 1908م، ويعتبر صديقا للشعب اليهودي، وقد صرح أن الحكومة العثمانية عازمة على إنفاق مبلغ 5 ملايين ليرة تركية لتوطين مهاجرين أجانب في المناطق المقدونية بما فيهم عشرين ألفا من يهود رومانيا⁽⁴⁾، وقد أكد أحد زعماء الصهيونية بعد نجاح الاتحاديين في السيطرة على الحكم من أن أبواب فلسطين مؤهلة لأن تفتح لليهود بدون صعوبة، وأن الزعماء الجدد في تركيا يسرهم الاستيطان اليهودي، وهم على استعداد لاستقبال المهاجرين بجرارة⁽⁵⁾.

1- F.O. 371, 1010, from Lowther to Edward Grey, May 29, 1910.

2- زين نور الدين: نشوء القومية العربية، المرجع السابق، ص 87.

3- لويس شيخو: المصدر السابق، ص 910، 911.

4- خيرية قاسية: المرجع السابق، ص 53.

5- A.Cohen: Op.Cit, P 73.

وأخيراً يمكن إبراز دور الصهيونية واليهود والدونمة والماسونية في ثورة الاتحاد والترقي والأسباب التي أدت إلى نجاحه فيما أوردته صحيفة "نخضة العرب" في باريس عام 1909م، حيث أرسل إليها -أحد فضلاء العثمانيين المسلمين في باريس- مقالاً بعنوان "الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي"، يستنتج منه تأكيد الشكوك العربية بثورة الاتحاديين، كما يؤكد الوعي واليقظة السياسية والوطنية عند كاتب المقال الذي يقول: "تناقل العارفون من الناس ما كان من أمر الإسرائيليين والماسون مع جمعية الاتحاد والترقي واشتراكهم في نخضتها وقيامهم بمناصرتها، حتى ذهب البعض إلى أن فوزها كان ثمرة مساعيهم ثم توسعوا في البيان فقالوا: إن اليهود عندما قنطوا من تحقيق أمانهم في عهد الحكم السالف بامتلاك أراضي فلسطين وتشديد مملكة إسرائيلية فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام، عمدوا إلى الماسونية ولهم فيها اليد الطولي كما لا يخفى، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم في تلك الأرجاء وجروا في هذا السبيل على خططهم المعروفة في التسلط على الحكومات الأوروبية، فاستعانوا بالماسونية واستتروا وراءها، ودفعت الماسونية جمعية الاتحاد والترقي ومدتها بالرأي والمال، وجعلت أنديتها لها ملجأ فامتنع على أعوان السلطان المخلوع ولوجها وانضم إليها أمراء العسكرية وأخذوا مع الجمعية بنشر مبادئهم بالقوة التي مكنتهم من قلب الحكم المطلق وتبديله بالدستور⁽¹⁾.

كما نلاحظ بأنه بعد ثورة 1908م وخلع السلطان 1909م تبدلت السياسة العثمانية إزاء فلسطين والبلاد العربية، وازدادت موجة الهجرة اليهودية، بينما كانت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد تعمل ما بوسعها لمنع الاستيطان اليهودي في الأراضي المقدسة، وكان هذا الموقف قد أبداه السلطان منذ بداية عهده عندما جاءه " أوليفانت (Oliphant) " المبعوث اليهودي لمطالبته بإنشاء كيان لليهود في فلسطين، فكان رد السلطان بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية منطقة من المملكة أي فلسطين، لأن الدولة ترحب بالمضطهدين ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة دولة في فلسطين يكون أساسها الدين.

وعلى هذا يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة أن ثورة الاتحاد والترقي هي ثورة يهودية دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو عثمانية، لأن لجنة سالونيك الاتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية، وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة، كما أن معظم اليهود قد أظهروا حماساً متزايداً في ضرورة التقدم وبسرعة نحو العاصمة لاحتلالها، وكان الجيش الزاحف نحوها أيضاً بقيادة الكولونيل "رمزي بك" وهو أحد يهود الدونمة، وبالإضافة إلى ذلك فإن الصهيوينيين في فلسطين أظهروا اهتماماً بالغاً بالثورة على أمل تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه أثناء حكم السلطان عبد الحميد.

1- A.Cohen : Op Cit, p 74.

كانت الجماعات اليهودية دور فعال في هدم الدولة العثمانية من الناحية الداخلية والخارجية؛ إذ عملت من الناحية الداخلية على تحطيم القيم الأخلاقية في المجتمع العثماني، ونشر الأفكار الإلحادية والغربية فيه، وذلك عن طريق المحافل الماسونية التي نشط اليهود على تأسيسها في الدولة العثمانية، ولا سيما في مناطق ذات النفوذ الأجنبي، مثل سالونيك. أما من الناحية الخارجية فقد عملت الصهيونية على احتضان الحركات المناوئة للدولة العثمانية، وقدمت لها مساعداتها المادية والمعنوية لتفكيك الدولة العثمانية.

ولا شك أن المحافل الماسونية المتواجدة في سالونيك قد ساعدت المعارضين على تحركاتهم خصوصاً وأن هذه الجمعيات لها باع طويل في العمل السري، في الوقت نفسه الذي تقدم فيه معلومات عن الدولة العثمانية و الأوضاع فيها للدول الاستعمارية المرتبطة بها وكان لليهود المنتمين في المحافل الماسونية دوراً في المخططات الساعية إلى الإطاحة بالسلطان، فقد شاركوا فضلاً عن الجمعيات الماسونية في الحركة القومية التركية المعارضة للسلطان، إذ كانت الماسونية تقوم بدور المخطط لخلع السلطان.

لقد تمكن اليهود من التسرب إلى صفوف الحركات القومية التركية وخاصة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة وتوجيهها وفقاً لمصالحهم وما يخدم مخططاتهم وما يحقق مصالح الدول المرتبطة بها وتحطيم الدولة العثمانية ثم اقتسامها. فالإتحاد والترقي تبدو من تشكيلها تحالفاً يهودياً تركيا، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية أما اليهود فهم العقل المدبر فضلاً عن إمدادهم إياها بالأموال والاعلام (وسائل الاعلام في أوروبا حينئذ الصحافة فقط) المسيطرون عليهما في أوروبا، فضلاً عن سيطرتهم على الاقتصاد والصناعة العثمانية، وتمكنوا فعلاً من الوصول إلى النفوذ إلى تركيا الفتاة واخذوا يشجعون الاتجاهات القومية التركية.

بذلك تمكنت الماسونية وبمساعدة الدول الأوروبية من العمل على نخر الدولة العثمانية من خلال تأجيج الحركات القومية التي عملت وبجد لخدمة المصالح الصهيونية والأوروبية، وفي النهاية كان للجامعة الطورانية (القومية التركية) الدور الكبير في انهيار الدولة العثمانية.

خاتمة

خاتمة البحث:

بعد الإنتهاء من دراستي المتأنية لموضوع بحثي حول دور الاتجاهات القومية في تقويض الدولة العثمانية، ومن خلال مراحل البحث والتقصي تبين لي أهمية الموضوع وحساسية الاشكاليات التي يطرحها، خاصة وأن أغلب الدراسات لم تحسم الاجابة عن كثير من التساؤلات، وبدوري يمكنني أن ألخص أهم نتائج البحث في النقاط الآتية:

. لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني منذ توليه عرش الدولة عام 1876م يتميز بالدهاء السياسي وسعة الفكر وعمقه، وسط ظروف صعبة كادت تعصف بالدولة العثمانية من خلال المؤامرات الداخلية والخارجية، ممثلة في أطماع روسيا في البلقان وتحريض شعوبها ضد الأتراك، فضلا عن دور بريطانيا وفرنسا ومحاولتهما المشاركة في التآمر الدولي، وتوزيع تركات ما أطلق اليهود على الدولة العثمانية بإسم الرجل المريض، أو ما كان يعرف بالمسألة الشرقية، لم يعد بوسع الدولة العثمانية سوى الاتصال بألمانيا كقوة اقتصادية وعسكرية وإقامة علاقات معها لضمان توازن القوى في المنطقة، خاصة وأن السلطان عبد الحميد الثاني كان يفضل الحوار الدبلوماسي مع الدول المعادية له والطامعة في أراضي دولته، كما أنه اتجه للاستفادة من العداء بين الدول الأوروبية ومن التوازن الدولي.

. لقد فرضت الظروف الداخلية والخارجية على السلطان أن يكون يقظاً بأجهزته الأمنية والاستخباراتية خوفاً من مخططات أعدائه المعارضين، ولا ننكر أنه كان ينبغي إزاء ذلك تشديد قبضته وعدم التراخي أو التهاون معهم للحفاظ على حياته وسلامة الدولة العثمانية.

. لقد كانت التناقضات الداخلية للدولة العثمانية، هي المحرك الأول لاستغلال الغرب للفكرة القومية، فقد ساعدت تدخلاته على نموها، واستخدامها كذريعة لفصل العرب عن الترك، واقتسام الدولة العثمانية، لذلك قسم العرب الى دويلات، وعمل على تنمية النعرات القومية، وتلخص تلك الاتجاهات القومية التي سادت الدولة العثمانية، وأبرزت البيقطة الفكرية والسياسية في الجامعة العثمانية، الجامعة الاسلامية، والجامعة الطورانية أو الرابطة التركية، الجامعة العربية أو الرابطة القومية العربية.

. إنه ومن منطلق احساس المفكرين العرب في المهجر بمقومات الأمة العربية، وبالتمييز بين العرب وغيرهم من عناصر الدولة العثمانية، وبالفخر بالانتماء الى العروبة، اتضحت أهم مظاهر القومية العربية في البلاد العربية، وهي المطالبة بالاستقلال الذاتي واللامركزية الادارية ضمن إطار الجامعة العثمانية، والجامعة الاسلامية التي تجمع العرب والترك، وغيرهم من عناصر الدولة في دولة لامركزية دستورية، مع فصل السلطة الدينية عن السياسة، فتعود الأولى الى خليفة عربي مركزه مكة، وتبقى الأخيرة بيد السلطان العثماني.

. لقد ناد بهذا الاتجاه المثقفون العرب، وتأثروا بالأفكار الحديثة أثناء دراستهم بالخارج، فتوصلوا الى مقومات القومية في أوروبا، ووجدوا أن حركة الانتماء الاسلامي لا تحمي المثقف في الداخل أو الخارج، وان الوحدة في الدين لا تعني الوحدة في المصالح والانتماءات الأخرى، لذلك بدأت الفكرة الاسلامية تنهوى، وخاصة بعد فشل الدولة العثمانية في الدفاع عن الاسلام وتحقيق الحكم العادل. ولذلك بحث الطبقة المثقفة صيغة أخرى بديلة لهذا النظام، وهنا اتضحت مصادر الفكر القومي، وهي المصادر الفكرية للمفكرين العرب الذين حاولوا إيجاد ترسانة فكرية وسياسية لتحدي الدولة العثمانية، وكان لابد من اخراج هذه الأفكار، عند المفكرين المسلمين كان يقال أن الاسلام أحد دعائم الفكرة القومية، الاسلام كإطار حضاري عام أكثر شمولا، من خلاله تشكلت العادات والتقاليد، وليس كنظام، وفي تفسيره وتطبيقه على الوجه الصحيح يتحقق الولاء والانتماء للدولة العربية الحديثة، وبذلك لم يتنكروا لأهمية الاسلام كأساس لهذه الدولة.

. لقد وضع الكواكبي حلقة الانتماء القومي طبقا لمفهوم الأمة، الذي يبنى على وحدة التاريخ واللغة والثقافة في المقام الأول، وأن الدين لا يصلح أن يكون أساس الجامعة السياسية، وبذلك أعطى الكواكبي الفكرة الاسلامية مفهوما عربيا في مواجهة السيطرة العثمانية وسياسة المركزية والاستعلاء العنصر التركي، ولكن لم يتم الفصل بين الاسلام والفكرة القومية.

. لقد أثر التخلف الاقتصادي وتأخر نمو النظام الرأسمالي في المنطقة العربية، على تطور العمل السياسي القومي خلال تلك الفترة، وظهر ذلك في غلبة الفكرة الدينية على المفهوم القومي، وتصور العروبة من خلال اطار ديني إسلامي أو مسيحي، وفي نوعية الزعامات القومية، وانتماءاتها الاجتماعية والاقتصادية وطبيعة الظروف السياسية والتاريخية التي أحاطت بتكوينها وتحكمت بها، وقد تصدت الطليعة المثقفة من أبناء البورجوازية الناشئة على اختلاف نزعاتها، لقيادة العمل السياسي العربي الذي لم يتبلور في شكل مفهوم سياسي أو تصور قومي واضح لكيان عربي إلا في وقت متأخر قليلا. ولذلك جاء التمهيد الفكري الجديد الذي أنبت جذور الفكر السياسي العروبي، متعثرا في نموه، وبطيئا في تقدمه الى حد ما، في القرن التاسع عشر وبداية العشرين نتيجة عوامل منها، عدم محاولة تلك الطبقة المثقفة التوصل الى اتفاق حول صيغة محددة وموحدة للعمل القومي، مما أدى الى تشتت الفكر العربي السياسي الذي كان مقيدا بأفكار وتيارات مختلفة، ويرجع ذلك الى عدم نضوج الأهداف والمطالب ذاتها، لذلك لم تطالب الحركة العربية بالانفصال عن الدولة، ولم يطرح الفكر العروبي بشكل جاد واضح، حتى عازوري، بالرغم من اتجاهه العلماني لم يربط الوحدة بالاستقلال. وربما كان ذلك يرجع الى خروج القيادات المحلية من أصول اجتماعية متباينة، تحددتها مصالح متشابكة مع الدولة العثمانية والقوى الاستعمارية، بدون أن تحاول أن تعمق بجذور العمل السياسي العربي بين الجماهير الشعبية، ولكن مبدأ اسهام الجماهير الشعبية في الحركة السياسية لم يكن واردا في ذهن تلك القيادات.

. إن الفكرة القومية كانت موجهة لخدمة مصالح فئة معينة من أبناء العائلات الاقطاعية، ممن لهم تأثير سياسي واجتماعي واقتصادي عميق، فاقتصر الوعي القومي على الطبقة المثقفة التي انفصلت عن القاعدة الجماهيرية الشعبية، وهكذا ظلت حركتهم حركة سياسية، بدون أن يكون لها مضمون اقتصادي واجتماعي، مما يوضح سوء الفهم وعدم الدراية بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية للمسألة القومية، وحقيقة دورها السياسي والاجتماعي.

وقد تكون تلك الظروف الموضوعية التي نشأت فيها قيادات العمل السياسي العربي مسئولة أيضا عن عجزها عن التنبيه للتناقض التام بين المصالح القومية العربية، وأبعاد الأهداف الاستعمارية الاستراتيجية والعسكرية في المنطقة العربية، فتورطت في العلاقات غير متكافئة مع القوى الامبريالية العالمية، في محاولتها الحصول على المعونة للحركة العربية من السلطات الفرنسية، والبريطانية، متصورة أن الدولتين تؤيدان القومية العربية، وأن بإمكانها التلاعب بهذه الدول بفرض بعض امتيازات اقتصادية يقدمها لهم الكيان المنتظر في بلاده، ولم يدركوا أنها كانت وسيلة لتسلسل الاستعمار الى الأفطار العربية.

وقد أضر هذا بالعمل القومي العربي، ومكن القوى الاستعمارية من تبديد طاقاته تمهيدا لاقتسام البلاد العربية، كما شكل قطاعا هاما من الجماهير العربية التي كانت تقاوم الاحتلال الانجليزي والفرنسي في مصر وشمال افريقيا، والتي تعد تثق في تلك العلاقات القائمة بين القوميين العرب والقوى الاستعمارية، ولذلك افتقدت الحركة العربية رصيда جماهيريا هائلا بعد بعد اقتصارها على بلاد المشرق العربي.

. لقد اتخذت الفكرة العربية اتجاهها آخر في الحركة الاستقلالية فاستهدفت الاستقلال التام لبلاد الشام عن الدولة العثمانية، كدولة قومية تركز على العنصر العربي، وقد اتضحت هذه الحركة في جمعية بيروت السرية، والحركة الاستقلالية عامي 1877م و1878م، وقد تبين أن الدعوة التي نادى بها جمعية بيروت السرية ليست أول عمل سياسي منظم في تاريخ الفكرة العربية في بلاد الشام، كما جاء في كثير من المراجع، فقد ظهرت هذه الحركة عام 1858م، كرد فعل للإصلاح العثماني الذي استهدف مركز الدولة.

. إنه وبعد اعلان الدستور العثماني عام 1908م، اتخذ الفكر العروبي السياسي، يشكل أحزاب أو جمعيات سياسية لها برامج سياسية قومية، كنتيجة لليقظة الفكرية والسياسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه عام، والحركة القومية التركية التي تأثرت بها الفكرة العربية القومية، بوجه خاص. وقد تبين أن هذه الجمعيات والأحزاب العربية، قد مرت بمرحلتها السياسية بمرحلتين، على عكس ما جاء في المراجع التاريخية التي أرخت لهذه الهيئات الحزبية، فلم تفصل بين المرحلتين من مراحل تطورها. حيث تمتد المرحلة الأولى منذ نشوء هذه الهيئات الحزبية العربية وحتى انتهاء مؤتمر باريس العربي، ونشوب الحرب العالمية الأولى، وفي البداية نجد تمسكها بالرابطين العثمانيين

والاسلامية مع الترك، مما أدى الى تأثرها بتياري الجامعة العثمانية والاسلامية، فطالبت بالاستقلال الذاتي للولايات العربية أو اللامركزية الادارية، مع استمرار الوحدة مع الترك، واحتفاظ العرب بحقوقهم القومية كاملة، باعتبارهم أمة مستقلة. وقد عبر مؤتمر باريس العربي عام 1913م عن هذه المرحلة، من خلال دعوة أعيان العرب الى اللامركزية واصلاح الدولة العثمانية، وليس الانفصال، أي أن يعيدوا أنفسهم الى سابق عهدهم واستقلاليتهم الداخلية التي سلبتها الدولة منهم، والعودة الى ما قبل التنظيمات، ويدل على ذلك كلمة عضو الوفد البيروتي الشيخ أحمد طيارة.

. كان المؤتمر العربي مخاضا للفكرة العربية، فقد ركز الاعيان على دور العرب داخل اطار الدولة العثمانية، ايماناً منهم بأن تمدن العرب لا يتم الا ضمن حدودها. ولذلك لم تطالب الهيئات الحزبية بالاستقلال التام للعرب عن الرابطتين العثمانية والاسلامية، فقد أدرك العرب الأخطار التي قد تنشأ عن المطالبة بالاستقلال العربي التام، والتي تتمثل بالمطامع الاستعمارية في بلاد الشام، فكان خوفهم من وقوعها تحت النفوذ الاستعماري الغربي، يجعلهم يتمسكون بالرابطة العثمانية، وليس الاستقلال العربي التام.

. لقد اتجه القوميون العرب حتى مؤتمر باريس الى تقديم الدوافع السياسية للفكرة القومية العربية، ولم يكن الاطار الايديولوجي لها قد اتضح بعد، فلم يصل الفكر القومي الى الحديث عن أن العرب يشكلون أمة لها مطالبها وطموحاتها السياسية والاجتماعية، فقد ظل تصور الأمة من خلال الاطار الاسلامي، وكان لا يمكن تجاهل الشعور الديني لدى معظم أهل الشام تجاه الفكرة القومية العربية في الظهور، واتضحت في عباراتهم، نحن عرب ولا علاقة لنا بالإسلام، وبلوروا فكرة اقامة الدولة القومية في بلاد الشام والولايات العربية ، وأعطاهم فيصل حدود الدولة العربية.

. لقد اتضحت المرحلة الثانية، في مطالبة العرب بالاستقلال التام من نطاق الجامعة العثمانية والاسلامية، وبذلك كان عدم تحقيق المطالب العربية في الاستقلال الذاتي، وظروف نشوب الحرب العالمية الأولى، وما تضمنته من تهديد متوقع للولايات العربية من وقوع تحت الاحتلال الأجنبي من ناحية أخرى، سببا في مطالبة الأحزاب العربية بالاستقلال العربي التام من الترك وخطر التدخل الأجنبي. وفي هذه المرحلة السياسية التي شهدت تتابع الأحداث التاريخية في الدولة، ونشوب الحرب العالمية الأولى، ودخول الدولة فيها، يلاحظ وقوع الهيئات الحزبية العربية في تناقضات فكرية وسياسية، تمثلت في التمسك بالوحدة الاسلامية مع الترك، وتأييد الدولة ومساعدتها عسكريا وسياسيا بعد اعلان اشتراكها في الحرب، ثم ذلك التمسك بالفكرة القومية العربية، والاعداد لإعلان الاستقلال القومي الكامل في حالة تصفية ممتلكات الدولة في الولايات العربية العثمانية، وظهور خطر الاحتلال الأجنبي لبلاد الشام. وبذلك تغلب الفكر القومي في النهاية وطرح المفهوم الاسلامي جانبا كنظام للحكم في بلاد الشام، فكان عاملا حاسما في تكوين الوعي السياسي للطبقات الاجتماعية التي أسهمت في بلورة المفاهيم البورجوازية، وشاركت في النضال القومي عقب الحرب العالمية الأولى وتقسيم البلاد العربية.

. لقد سجل العثمانيون صورة ناصعة في التسامح مع اليهود سيما حين فتحوا أبوابهم لاستقبالهم جراء الاضطهاد الديني في أوروبا، وسمح لهم بالإقامة ، ومنح لهم الحرية الدينية، وفي المقابل كان التاريخ قد سجل لليهود في موقفهم من الدولة العثمانية يعملون لتقويض أركان الدولة، حيث استطاعوا عندما أصبحوا أن يتغلغلوا في جميع أطر الدولة السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، كما أكسبهم ثقة الأتراك فأصبح منهم الوزراء والصدور العظام والنواب، مما سهل عليهم تنفيذ أهدافهم العدوانية.

. وقد انخرط اليهود في المجتمع العثماني وزاد نفوذهم، خاصة عندما انضموا الى جمعية الاتحاد والترقي، وتعاونوا مع الاتحاديين من خلال المحافل الماسونية، وسعوا جاهدين في مساعدة المعارضين للسلطان بالمال والصحافة من أجل تشويه صورة السلطان عبد الحميد أمام الرأي العام، والمطالبة بالإصلاحات ومنح الحرية للمعارضة، ولكن يبدو أن هذا لم يكن كافياً، وأن الغاية الأساسية كانت إبعاده عن مركزه في الحكم، ومن هنا قام يهود الدونمة والاتحاديين بمحاولات عديدة انتهت أخيراً بالنجاح في خلعه سنة 1909م.

. ان الصهيونية التي ظهرت في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، كمنظمة سياسية استعمارية ترمي الى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، عندما تبين لها موقف الدولة العثمانية من أطماعها في فلسطين، كما أكد لها هذا الموقف السلطان عبد الحميد الثاني، حين باءت بالفشل كل الجهود التي بذلها الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل لإقناعه بالموافقة على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

. إنه وعلى الرغم من كتابات أعداء السلطان عبد الحميد الثاني ووصفه بأوصاف الغاية منها تشويه صورته بأنه مستبد وظالم وعدو للعلم، جعل الدولة العثمانية تعيش في جهل وتخلف، كان كل ذلك غير صحيح، وهذا ما أكدته الدراسات والمصادر التاريخية المنصفة بأنه تميز عصره بالإصلاحات الداخلية من تعليم وتطوير لمرافق الدولة ، وتحديث الجيش العثماني، ومد شبكات التلغراف والهاتف، كما حرص كل الحرص على أن يعم الأمن والهدوء والاستقرار في كل أنحاء الدولة العثمانية، وأنه كان رؤوفاً رحيماً مع أشد معارضيه دون تهديدهم بالقتل. وكان أسلوب تشويه سمعة السلطان عبد الحميد الثاني من أهم الأساليب التي لجأت إليها الصهيونية وحلفاؤها، وذلك بغرض التمهيد وتهيئة الرأي العام في الدولة العثمانية لتقبل فكرة التخلص منه، ويسهل عليهم الانتقال الى الخطوة التالية وهي القضاء على الدولة العثمانية.

. لقد إستخدم الصهاينة وحلفاؤهم المال للضغط على الدولة العثمانية، حيث إذا نجحوا في إيقاعها في الديون، فإنهم سيتمكنون من إخضاع حكامها لرغبتهم، إلا أن نجاحهم في تنفيذ هذا المخطط وهو إيقاع الدولة العثمانية في أزمة مالية، لم يترتب عليهم النجاح في إخضاع الحكام العثمانيين لرغبتهم، وليس أدل على فشلهم من موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الزعيم الصهيوني هرتزل، حين راح يعرض عليه الملايين من أموال اليهود

وتسديد ديون دولته، وإصلاح ماليتها ثمنا لفلسطين، فرد عليه السلطان عبد الحميد الثاني قائلا: "... ليحتفظ اليهود ببلانهم فإذا قسمت الدولة العثمانية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إنما لن تقسم إلا جثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"¹.

. إن اليهود حاولوا بشكل دؤوب البحث عن أصل الأتراك وتأسيس ما يسمى بالقومية التركية الطورانية، وذلك من أجل تفريق الأتراك العثمانيين والعرب المسلمين، وإثارة النعرات القومية وزرع بذور الشقاق والكراهية، وطمس ماضي الأتراك الإسلامي العريق.

. لقد قامت الماسونية باحتضان جمعية الاتحاد والترقي، حيث استغلت هذه المؤسسة اليهودية فرصة الخلاف الذي وقع بين أعضاء هذه الجمعية وبين السلطان عبد الحميد الثاني، حول مبادئ الحكم فقد كانوا يطالبون بالحكم الدستوري، فيما كان السلطان عبد الحميد الثاني يرى أن الحكم المركزي هو الأنسب للدولة العثمانية، وتمكنت من خلال نجاحها في استقطاب معظم أعضاء هذه الجمعية من توفير المناخ المناسب لنشأة هذه المنظمة الثورية، حتى برزت كقوة مؤثرة في المحيط العثماني، كما سهلت بذلك على اليهود التسلل الى صفوفها وفرض سيطرتهم عليها، وتوجيهها لخدمة أهداف الصهيونية.

. لقد أثبتت تطورات الأحداث في الدولة العثمانية أن سياسة التتريك التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي - التي يمثل اليهود العقل المدبر فيها - ومقاومة العرب لها بالقومية العربية، كانت من أهم عوامل انهيار الدولة العثمانية. وليس أدل على نجاح مساعي الماسونية في هذا المجال من مجيء أحد زعماء اليهود في مقدمة الوفد الاتحادي الذي أبلغ السلطان عبد الحميد الثاني بقرار خلعه ، وهو ايمانويل قراصو نائب يهود سلانيك ومؤسس أعرق محافلها الماسونية.

. لقد اعترف السلطان بعد خلعه بالدور الذي لعبته اليهودية الماسونية الماكرة نظرا لموقفه الصلب بعدم إعطاء فلسطين وطنا قوميا لليهود أو التنازل عنها، وهذا كان واضحا في رسالته الى شيخه أبي الشامات بأن الماسونية كانت وراء خلعه.

. لقد سيطرة جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم في الدولة العثمانية، وكان لها دور كبير في انتعاش أماني الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وأن سياستهم الغير متوازنة كانت من أهم عوامل تقويض الدولة العثمانية.

¹ - يوميات هرتزل: المصدر السابق، ص 35.

. لم يف الاتحاديون الأتراك بوعودهم الإصلاحية بعد وصولهم للحكم، بل اتبعوا سياسة القمع والشدة بحق الموالين للسلطان عبد الحميد والأتراك الذين اعترفوا بأن حكمه أفضل من حكم الاتحاديين، أما العرب وبعد أن أسسوا الجمعيات التي كانت تطالب بالمساواة وسياسة الحكم اللامركزي والاعتزاز بالقومية العربية، فقد عانوا معاناة شديدة رغم تأييدهم لزعماء الاتحاد والترقي في البداية، لكن الاتحاديون خذلوهم في النهاية وأوقعوهم في المصائب كالقتل وسياسة التتريك العنصرية.

. إن قادة الاتحاد والترقي الذين تولوا الحكم بعد السلطان عبد الحميد الثاني، قاموا بتعيين أخيه محمد رشاد سلطاناً، لكنه أصبح دمية في أيديهم، وهكذا فقد نفذوا مخططات اليهود للهجرة إلى فلسطين، وتزايد النفوذ اليهودي إبان الحرب العالمية الأولى، وذلك من خلال إبراز دور اليهود داخل الدولة العثمانية وخارجها في إقحامها في تلك الحرب الأوروبية التي ليس لها فيها مأرب، ودفعها إلى الهاوية، وتغذية تيار القومية التركية، وتعميق هوة الخلاف بين العرب والترك، وهو الأمر الذي أفضى إلى نجاح عملائهم الذين تم نشرهم في الأوساط العربية، في تهيئة الأجواء لاندلاع الثورة العربية، التي كان لها دور كبير في إضعاف موقف الدولة العثمانية في تلك الحرب، ليصلوا إلى غاياتهم وهي السيطرة على فلسطين، ثم تقسيم وتفتيت أراضي الدولة العثمانية وتوزيع الغنائم بين الدول الأوروبية الاستعمارية.

. لقد استغلت الدوائر الاستعمارية تداعيات الحرب العالمية الأولى، لإبراز شخصية اليهودي الدوغمة مصطفى كمال الذي رشحته بريطانيا لتنفيذ الجزء الأخير من المخطط الاستعماري الصهيوني. ففي مؤتمر الصلح في لوزان في 24 جويلية 1923م تمت صفقة بيع الدولة العثمانية، مقابل أن يعترف الحلفاء باستقلال تركيا، تلقى كروزن curzon ممثل الحلفاء وعدا من اليهودي حاييم ناحوم بأن يتعهد مصطفى كمال بإلغاء الدولة العثمانية، وقطع كل صلة لتركيا بالإسلام. حيث أعلن مصطفى كامل عن قيام الجمهورية التركية العلمانية، وألغى الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة العثماني عبد المجيد الثاني، وجميع آل عثمان خارج البلاد.

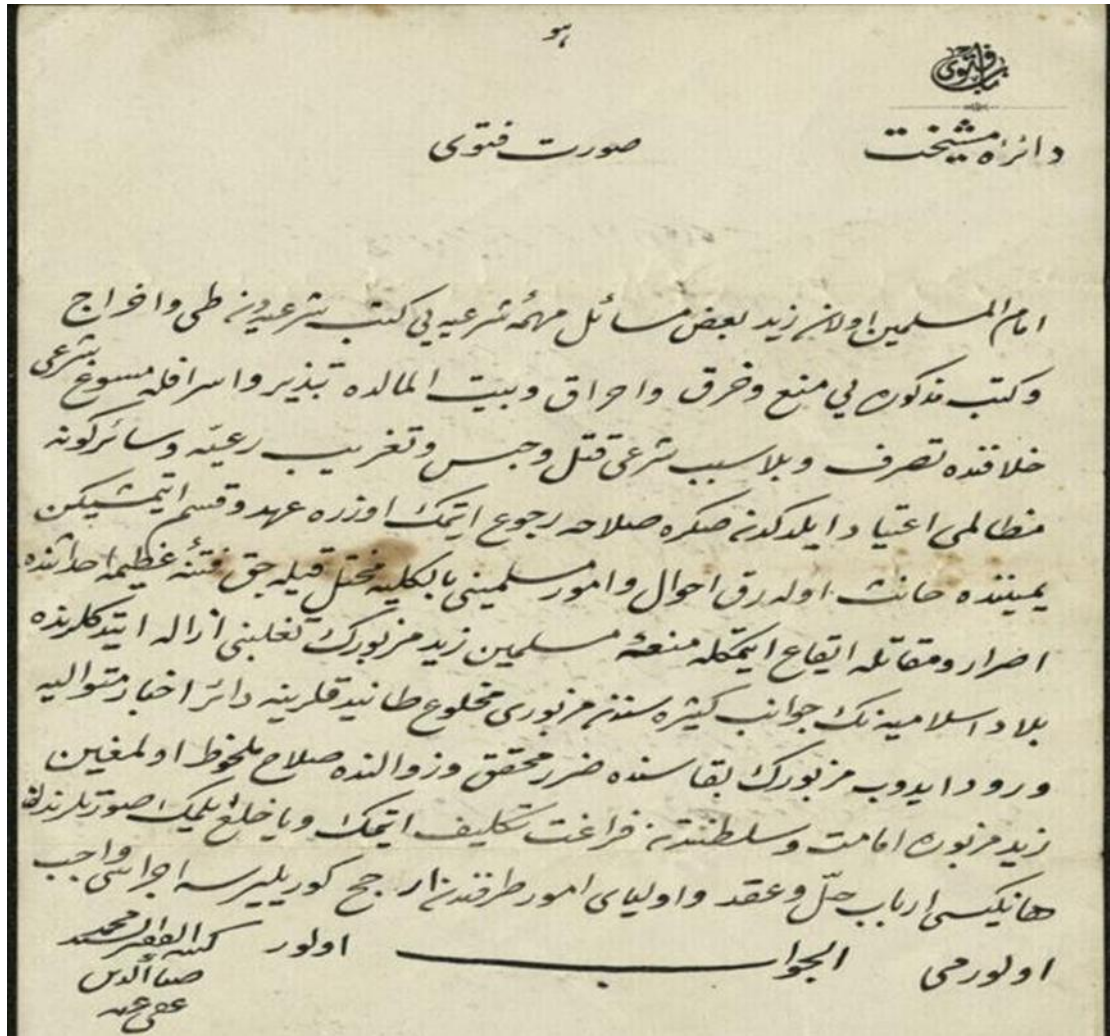
ملاحق

انقلاب جمعية الاتحاد والترقي



السراي الكبير وفيه مكاتب الإدارة المحلية، يافا، تموز/ يوليو 1908: حشد كبير من أبناء فلسطين يفد للاحتفال بالانقلاب 1908م، التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي لحمل السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة دستور 1876م، وإطلاق الحريات، وإجراء انتخابات لبرلمان جديد. أطلق العرب على هذا الانقلاب اسم "الحرية"، واشتركوا فيها مع الأتراك، لكن العلاقات بين الطرفين تأزمت قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

نقلا عن وليد الخالدي: قبل الشتات، التاريخ المصور للشعب الفلسطيني 1876 - 1948، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1987م.



الزمان/ السبت 21 صفر . 1327هـ / الثلاثاء 27 أبريل 1909م

المكان/ إستانبول.

المفتي / السيد محمد ضياء الدين أفندي.

إذا قام زيد (كناية عن السلطان عبد الحميد) الذي هو إمام المسلمين بإخفاء بعض المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية، ومنع وخرق الكتب المذكورة وإحراقها، والتبذير والإسراف من بيت الميل بدون مسوغ شرعي، وقتل وحبس الرعية وتغريبهم بدون سبب شرعي، واعتياد المظالم كل يوم، ثم أقسم على الرجوع إلى الصلاح ولكنه حنث، وأصر على إحداث فتنة عظيمة بين المسلمين جميعاً وإيقاعهم في القتل، وورود أخبار متوالية من عدة نواح من البلاد الإسلامية تعتبر زيدا هذا مخلوعاً، وإن كان في بقائه ضرر محقق وفي خلعه صلاح مبین، فهل يجوز على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أم يقومون بخلعه ؟ الجواب نعم يجب خلعه".

السيد محمد ضياء الدين

نقلا عن مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثماني، ص 98.

محمد فريد بك: المرجع السابق، ص 710.

- ملحق 03:

صورة للوفد الذي قام بإبلاغ خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني
بقرار خلعته عن عرش السلطنة والخلافة



الأعضاء: أسعد طوبطاني الألباني، عارف حكمت، عمانويل قرصو اليهودي، آرام الأرمني

- ملحق رقم 04:

صورة عن الرسائل التي كانت ترسل عن طريق البريد الأجنبي

Postkarte.
Carte postale. — Cartolina postal.
Nur für die Adresse.
M. L. D. 3 Mehmed Rehid
145 B. St Michel
Paris.

قارديم،
بوقايت الاله واهل وارانار [العلم حكيم] بن
به ملايكه كيرت [ار] ديقه جبه رطيد
باجير ديقه كتاب [ه] انا مانوسه
كوتيه سين ديقه زمانه بر اذيق بعدله
ماطري بيور ديقه حاجي كدن اوليكه ندي
بر اذيق كيرد ديقه كتاب بور نه سوليه كير
يكير سين بور كتاب بور نه سوليه كير
ايه يلدت يلدك سي ايكينه هم ار بره
بايا نسه يلد اوليكه اوليكه يلد انه جينا
اشترى غايتم مرم
بك جا ايه
در نه ديقه يلد يلد
مكنت ياكوشه ديقه سين آل ندي
اوليكه مانا كونه
مكنت

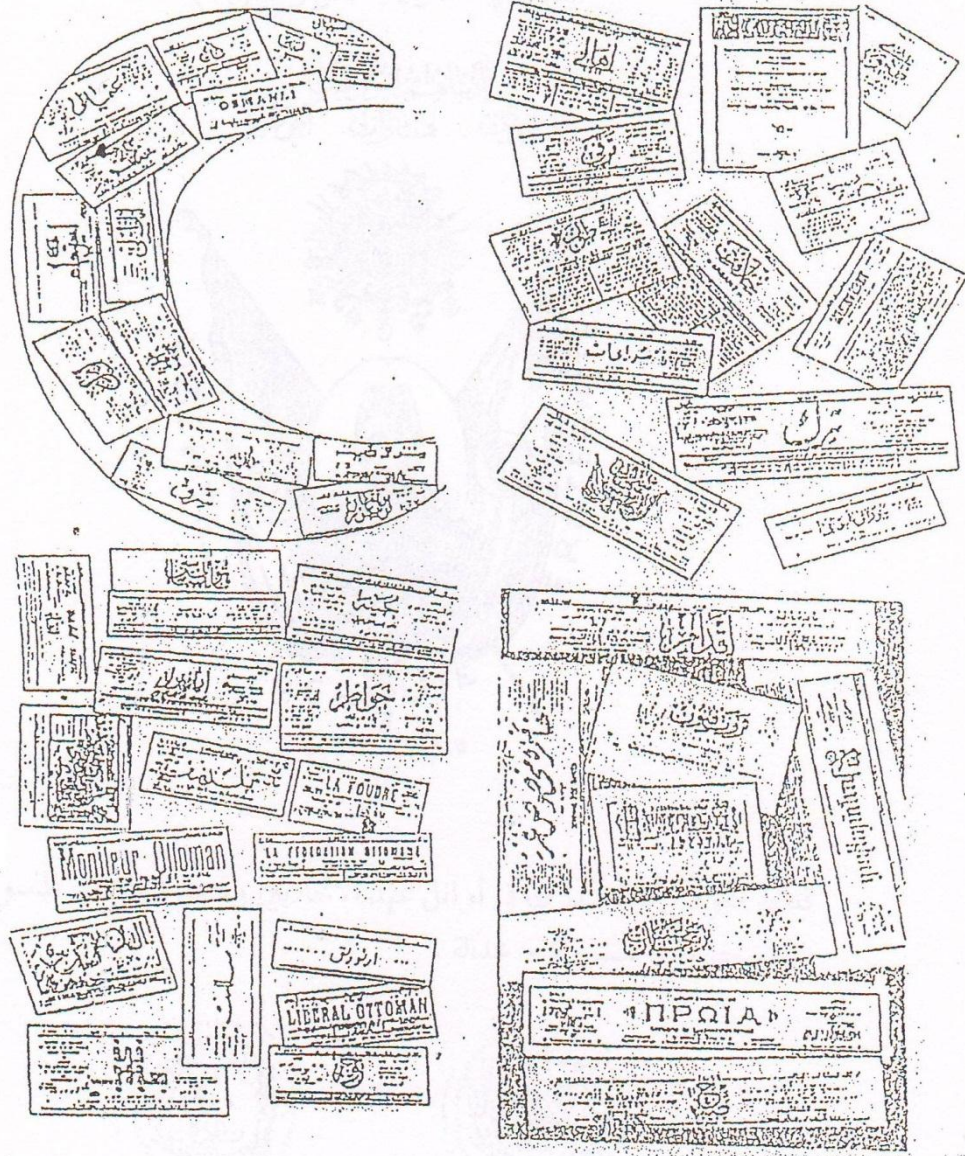
Je t'envoie de la carte postale de
l'église de mon cher Thérèseberg. 'Albin',
Touret. De la : Giverny (Normandie)
la date du 10. septembre 1914. L'exp. aut. sur
la somme de trois mille cinq cent francs, elle
pour la monnaie d'or monétaire : un franc
noté par le docteur Adolphe Tardieu, direc-
teur d'imprimerie : Giverny. Le pourcentage
de la fin : une somme de l'ordre (1914).
une présentation de l'œuvre en question.
Paris le 10 septembre 1914

023028
du 10.9.14
MASCHINGE
Albin

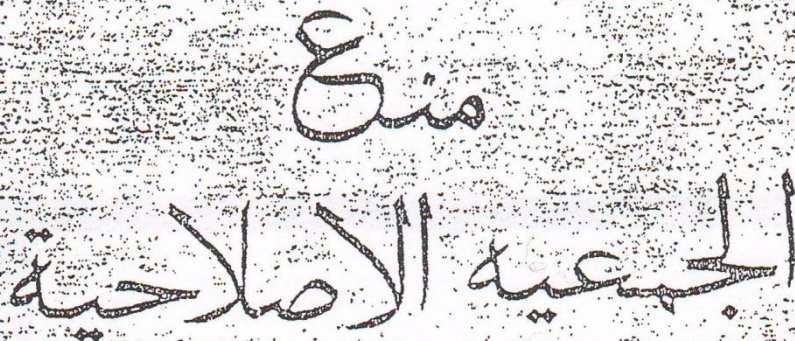
نقلا عن: -Ahmed Kuran : Inkilap Tarihimiz, op, cit, p 206-216.

- ملحق رقم 05:

صور بعض الصحف المعارضة التي كانت تصدرها جمعية الاتحاد والترقي.



نقلا عن: Fesch Paul : Constantiople.



بلاغ رسمي

[illegible]

رسالة السلطان عبد الحميد الثاني من سلاطيك إلى شيخه الشاذلي محمود أبو الشامات في دمشق يؤكد فيها سبب خلعها عن العرش إنما لرفضه الموافقة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

يا هو
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التليم على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين أوالقابعين إلى يوم الدين :
اشبه عريفه في طريقته عليه شاذلية شيعي وجوده روح وحياة
ويرن وجملة نك افنديسي بولنان الشيخ محمود افندي ابوالشامات حضرتلرني
رفع ايد يوزم مبارك الليرني اوهرنك ودعالتري رجا ايدرك سلام
وحرمتلرمي تقديمه نكركه عرض ايدرم كه . سنه حاله شهر مايك ، الكيحي
كوني تاريخي مكتوبي واصل اولدي . صحت وسلامته . وانتم اولديفكر دن دولاي
اسم حمد وشكر لرايدرم . افندم اوراوشاذليه قراءتته ووظيفه شاذليه
الملك توفيقيله كيخه وكوندوز دوام ايد يوزم . وبوظيفه لرمي ادايه موفقي
اولديفكر دن دولاي اسم تعالى حضرتلرنيه حمد ايدرم ودعوات قلبيه كزه وانما
محتاج اولديفني عرض ايلرم . بو مقدمه دن صكره شوهم مسئلي ذات
رشا ديتنا هيلرنيه وذات ساحتينا هيلرنيك اشالي عقول سليمه صاحبلرني
تاريخي برامانت اولارق عرض ايدرمكه . بن خلافت اسلاميه لي هيچ برسد ترك
ايتيم دم . انجني وانجني (جون ترك) اسيله معروف ومشهور اولان
اتحاد جمعيتنك روسانك تفصيلي وتمد يدي ايله خلافت اسلاميه لي تركيه
مجبور ايدلرم . بو اتحاد جيلير اراضى مقدسه ده فلسطينده يهو ديلر
ايچون بر وطن قومي تاسيسي قبول وقصد يقي ايتكملكم ايچون اصرار لرند
دوام بر اصرار لرنيه وتمد يدي لرني . قطعيا بو تكليف قبول ايدرم
وبالاخره يورالي مليون التون نكيز ليراني . ويره جكترني وهدايتلر

بونکلینی دخی قطعیاً روایتدم وکندیریه شوسوزلمه مقابله ده
 بولندم . وکل ۱۰۰ میلیون التون انگلیز لیراسی دنیا دولوسی
 التون ویرسه کر بونکلیزکی قطعیاً قبول ایتمه م . بن اوتوزسندن
 فضله برمدده ملت اسلامییه وامت محمدیه به خدمت ایتدم بونون
 سلطانک و سلاطین و خلفاء عثمانیه دن آباء و اجداد ملک صحیفه لیرینی
 قرار تمام . بنا علیه بونکلیزکی مطلقاً قبول ایتمام دینه قطعی جواب
 ویردکد نصکره خلعه اتفاق ایتدی و بنی سلاطینکه کوندره جکلیزینی بلور دیر
 بوصول تکلیف لیرینی قبول ایتدم . و الله تعالی به حمد ایتدیمکه وایدیمکه دولت
 عثمانیه لی و بونون عالم اسلامی ابدی برلکه اولاحقه اولان تکلیف لیرینی یعنی
 اراضی مقدسه ده فلسطینه یهودی ذولتی قورلمسینی قبول ایتمه دم . ایشته
 بوندن صکره اولان اولدی و بوندن دولابیده مولای متعال حضرت محمد صلی
 برهم مسئله ده شومعه وضائم کافیدیر و شوسوزلمه مکتوبه ختام ویر یورم .
 مبارک اللریکی او پیرل حرمتلری قبول بیورمکزی سز دن رجا واسته حام ایدرم
 اخوان و اصد قانک جمله سنده سلام ایدرم . ای بنم معظم استاذم . بوبابده سوزمی
 اوز ایتدم محاط طم عالی سماحتینا هیلری و بونون جماعتکون معلومی
 اولمق ایچون اوز اتمغه مجبور اولدم والسلام علیکم ورحمة الله وبرکاته
 خادیم المسلمین
 محمد
 ۱۲۸۵

-تعريب ملحق 07:

قام بتعريب هذه الرسالة الشيخ أحمد القاسمي مدير عام الأوقاف السورية سنة 1957م.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، وإلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة. بعد تقديم احترامي أعرض أي تلقيت كتابكم المؤرخ في 22 مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلا ونهارا، وأعرض أنني مازلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة. بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كإمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني — بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة الإسلامية. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة - فلسطين، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرا وعدوا بتقديم (150) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: (إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهباً - فضلاً عن (150) مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً- فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والمحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلن أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً). وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعدوني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمدته أنني لم أقبل بأن أُلطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين. وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختتم رسالتي هذه.

أثم يديكم المباركتين، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي. سلامي على جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نخطط سماحتكم علما، ونخطط جماعتكم بذلك علما أيضا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في 22 أيلول 1329

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد"

نقلا عن حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص 361-362. شيريب سبيريلوفيتش، ص 22-23.

وثيقة تاريخية للسلطان عبد الحميد الثاني



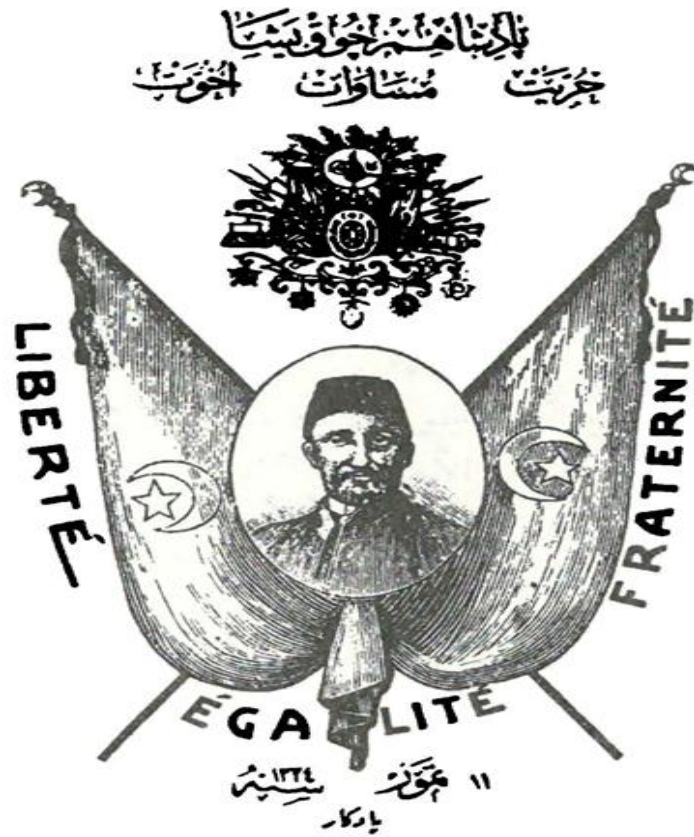
هذه الوثيقة نشرها الأستاذ سعيد الأفغاني في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شوال 1392هـ الموافق كانون أول/ ديسمبر 1972م، ضمن مقالة بعنوان (سبب خلع السلطان عبد الحميد)، أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها الشيخ أحمد القاسمي الدمشقي المدير العام للأوقاف في دمشق سنة 1957م.

-ملحق رقم 09:

يظهر هذا الرسم شعار جمعية الاتحاد والترقي - معنونا بعبارة

بادشاهم جوق يشا أي عاش مولانا السلطان -، وهو نفسه شعار

الماسونية.



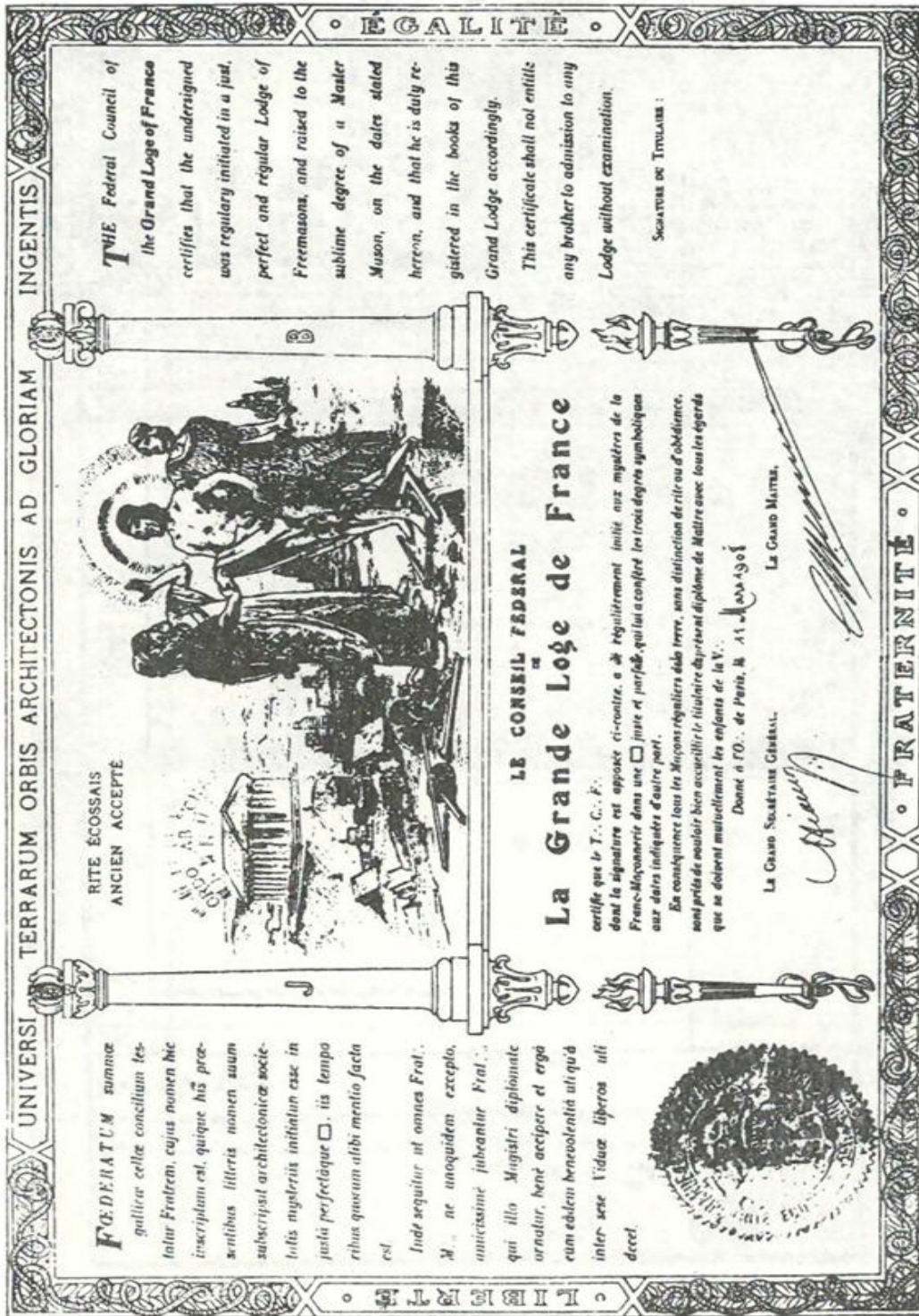
قطعة نقود تركية صدرت في أوائل عهد الإتحاديين وتحمل شعارات الماسونية:

حرية - مساواة - عدالة



-ملحق رقم 10:

صورة شهادة ماسونية اعطتها عمدة العشيرة من ذوي الطقس الاسكندري الى أحد السوريين في 11 مارس سنة 1908. ويلاحظ في هذه الشهادة شعارات الماسونية وهي نفسها شعارات جمعية الاتحاد والترقي.



-ملحق رقم 11:

نص البرقية الداعية إلى عقد مؤتمر في خادم كوي خلع السلطان عبد الحميد الثاني.

وهي موجهة الى الشخصيات اليهودية والدونمة.

شماره پرونده: ۱۰۰۰۰۰۰۰۰۰

تاریخ: ۱۳۹۰/۰۵/۰۱

محل وقوع: تهران

موضوع: سرقت

شماره پرونده: ۱۰۰۰۰۰۰۰۰۰

تاریخ: ۱۳۹۰/۰۵/۰۱

محل وقوع: تهران

موضوع: سرقت

تعريب الملحق

الرجاء إبلاغ البكوات حسين جاهد و جاويد ورحمي وقره صو أفندي الذي علمنا وجودهم

لديكم والنواب الآخرين، بضرورة القدوم الى خادم كوي في أول قطار.

القائم مقام	القائم مقام	أميرالاي أركان حرب
جمال	صلاح الدين	حسين عزت

نقلا عن حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص 364.

-ملحق رقم 12:

تقرير عن الابتهاجات الانفغالية في فلسطين بمناسبة اعلان محمد الخامس سلطانا على الدولة العثمانية.

Jerusalem.
April 29, 1909.
Sir,
I have the honour to report that although Mr. Talanga telegraphed to me on the evening of the 27th instant that Sultan Mohammed V had been proclaimed at Jaffa amid great popular rejoicing, it was not until nearly noon of the following day that I received from the Ambassador an official intimation of the accession of the new Sultan. I am sorry to find that the Ambassador held no official reception.

نقلا عن: Blesh to Lowther, 29 April 1909, in F.O. 195/2321.

-ملحق رقم 13:

تعريب بعض الفرمانات السلطانية التي أصدرها عبد الحميد الثاني

سنة 1308هـ الخاصة بالهجرة اليهودية الى فلسطين.

الفرمان الأول 21 من ذي القعدة سنة 1308هـ.

لا يسمح بإجراء ينتج عنه قبول اللاجئين اليهود المطرودين من كل بلد يترتب عليه إنشاء حكومة موسوية في القدس مستقبلا. وبما أن هؤلاء ليسوا من مواطني إمبراطورتينا فيتحتم إرسالهم الى أمريكا.

يرفض قبولهم وقبول غيرهم في البلاد بل يجب تهجيرهم الى بلاد أمريكا بوضعهم في السفن دون أي تأخير وعرض الموضوع علينا بعد اتخاذ قرار خطير بشأن تفاصيله. لماذا نقبل في بلادنا من طردهم الأوروبيون المتدنون وأخرجوهم من ديارهم؟ لا محل لقبولهم ما دامت عندنا فتنة أرمنية. فنطلب إلى مقام الصدارة إتخاذ قرار عام في هذا الموضوع دون حاجة لعرض الموضوعات فيما بعد على أحد.

الفرمان الثاني - 28 من ذي القعدة سنة 1308هـ.

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

بما أن قبول هؤلاء الموسويين ومنحهم الجنسية العثمانية وإسكانهم أمر ضار، وبما أن هذا التسامح تنتج منه مستقبلا إقامة دولة موسوية، فيتعين عليه عدم قبولهم في البلاد، وعلى اللجنة العسكرية أن تقدم على ضوء هذا بعرض القرار سريعا على مقام الصدارة.

الفرمان الثالث - 29 من ذي القعدة سنة 1308هـ

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

إن الدول التي تقدم إلينا احتياجات عتاب بحجة عدم قبول الموسويين الذين أخرجوا مطرودين من دول متمدنة ورفضت الدول الأخرى قبولهم، لو أنها ترى في نفسها حق الاحتجاج فلتتقدم به إلى الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم. هؤلاء الموسويون أينما سكنوا ومهما اتخذ ضدهم من التدابير فإن الذي يلاحظ عليهم هو النزوح التدريجي إلى فلسطين مقصودهم الأصلي ليقيموا فيها حكومة موسوية فيما بعد بتشجيع الأوروبيين وحميتهم لهم. وبما أنهم

قوم لا يشتغلون بالزراعة والفلاحة وثابت عليهم أنهم سوف يضرون الأهالي مثلما أضروهم في البلاد التي طردوا منها. وكانوا يهاجرون قبلا إلى أمريكا فإن الأنسب لهم أن يتوجهوا إليها أيضا. ونطلب مذاكرة هذه النقطة في اللجنة العسكرية مذاكرة مستوفاة.

نقلا عن: جواد رفعت اتلخان: الاسلام وبنو اسرائيل، ص 152-153.

-ملحق رقم 14:

تعريب الجواز الأحمر الذي كان يفرض على اليهود الأجانب ان يستلموه لدى زيارتهم

فلسطين بدل جواز سفرهم تبعاً للقوانين العثمانية التي صدرت عام 1900.

تذكرة إقامة تعطى للأجانب من قبل كومسيون يافا لمنع المهاجرين الموسويين (اليهود) وتحديد وتعيين مدة إقامتهم بثلاثة شهور.

ويعمل بها ويحتفظ بها وبعد انقضاء هذه المدة يعتبروا ساقطين من الحكم المعمول به

الاسم والشهرة	الأوصاف والأشكال والعلامات الفارقة	الصفة والتابعة	محل الورود	المقصد السياحي	رقم حامل جواز السفر واسم مكان اعطائه الإقامة	مكان الاعطاء تذكرة مرور الحامل للجواز وتاريخ ورقم	مدة السياحة والإقامة شهر	معاملات
شوان بن سالمون	متوسط رفيع حنطي شعره يتخلله شيب عمره 51 سنة	تاجر من ألمانيا	جنوه	تجارة	19 جوان 91 و 14 جنوه مدينة بن وما جاورها	=	ثلاثة شهور	ان حامل الجواز المبين أعلاه والمرقم والمؤرخ يسلم له بالذات حين عودته وقد أفهم ذلك علنا

عندما تطلب هذه التذكرة من قبل مأموري الانضباط سترز ويعمل بها لمدة ثلاثة شهور للإقامة والسياحة في داخل أرض فلسطين.
وفي نهاية هذه المدة سيحبر الذين لم يغادروا فلسطين على الخروج بالقوة.

في 23 جوان سنة 1910.

من قبل رئيس مالية المرفأ أحمد حبيب

نقلا عن: N. Mandel : Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine 1882-1914.

-ملحق رقم 15:

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الهجرة اليهودية إلى فلسطين

إن لليهود نفوذا في أوروبا أكثر من نفوذهم في الشرق، لهذا فإن دولا أوروبية كثيرة أرادت التخلص من اليهود - العرق السامي - وأيدت هجرتهم إلى فلسطين. ولكن في دولتنا عددا كبيرا من اليهود، فاذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربي الإسلامي (مسلمان عرب) متفوقا في فلسطين يجب أن لا نسمح بتهجير اليهود إليها. وإذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا لهم بالهجرة، فإنهم بفترة قصيرة يسيطرون على الحكم، وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم، ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد.

إن زعيم الصهيونية هرتزل لم يستطع اقناعي بأفكاره. وقد يرى: "أن حل المسألة اليهودية ستنتهي يوم يستطيع اليهودي قيادة محراثه بيده". وربما كان هرتزل على حق بالنسبة لشعبه، فانه يريد أرضا لهم، ولكن نسي أن الذكاء وحده ليس كافيا لحل جميع المشكلات.

إن الصهيونية لا تريد أراض زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب، ولكنها تريد أن تقيم حكومة، ويصبح لها ممثلون في الخارج. انني أعلم أطماعهم جيدا، وانني أعرض هذه السفالة لأنهم يظنونني أنني لا أعرف نواياهم أو سأقبل بمحاولاتهم. وليعلموا أن كل فرد في إمبراطوريتنا كم يكن لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم، وأن الباب العالي ينظر إليهم مثل هذه النظرة. وأنني أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة إنشاء دولة في فلسطين لأنني لا زلت أكبر أعدائهم.

نقلا عن: Sultan Abdul Hamit : Siyasi Hatiratim, p 60-60.

وثيقة تحذير من هجرة يهود روسيا إلى فلسطين

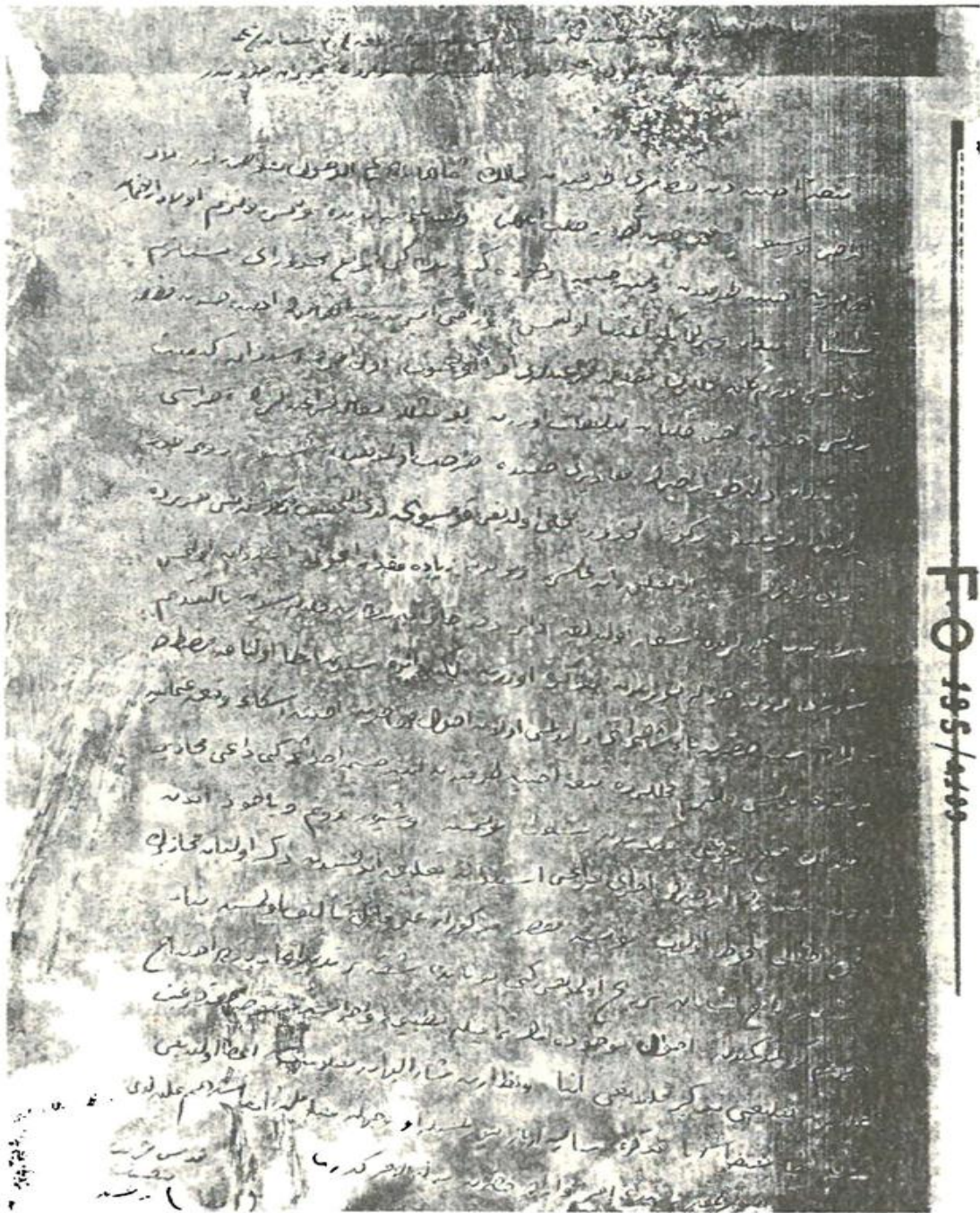


وثيقة عثمانية مؤرخة بتاريخ 29 ماي سنة 1891م تحتوي على تحذير من السفير العثماني عبد الحق حامد من هجرة اليهود من روسيا إلى فلسطين بسبب المعاملة السيئة التي يلاقونها هناك، والتنبيه إلى أنّ هذه الظاهرة ليست جديدة لأنّ التّعصّب المسيحي الكاثوليكي في إسبانيا تسبّب من قبل في معاناة شديدة لليهود واضطّهرهم للهرب واللّجوء إلى ساليونيك والكثير من الأراضي العثمانية الأخرى.

الأرشفيف العثماني: وثيقة رقم. Y. PRK. EŞA, 13/67.

-ملحق رقم 17:

رسالة وزارة الداخلية الى متصرف القدس وفيها تعليمات بمنع بناء الأبنية وبيع الأراضي للمهاجرين الأجانب -
اليهود - حرصا على عدم إثارة المشاكل وردود الفعل العربية في فلسطين.



- نقلا عن: Dickson to O'Connor, 2 Nov 1905, in F.O. 195/2199.

-ملحق رقم 18:

رسالة جمعية الاتحاد والترقي إلى الصحيفة الصهيونية (Neue Freie Presse) لإشعارها بالثورة على السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1908م.

Très Hononré Monsieur,

C'est aujourd'hui le premier jour de la liberté. Le peuple entier (Turcs, Bulgares, Serbes, etc.) a célébré cette fête. Si le sultan ne tient pas compte de nos revendications, nous marchons sur Constantinople.

Enver

« Membre du Comité Ottoman d'Union et Progrès »

« Général d'Etat Major »

تعريب الملحق

سيدي المحترم

هذا اليوم هو اليوم الأول للحرية. الشعب بأكمله (أتراك، بلغار، صرب، الخ.) احتفل بهذا العيد. إذا كان السلطان لا يأبه لمطالبنا سنزحف إلى القسطنطينية.

انفر

عضو اللجنة العثمانية للاتحاد والترقي.

- جنرال أركان حرب -

نقلا عن: Revue du Monde Musulman, T. 5, Paris 1908.

بیلو غرافیا

قائمة المصادر والمراجع

1/ الأرشيف والوثائق :

أ- الوثائق الأرشيفية

-أرشيف وزارة الخارجية البريطانية (مكتب السجلات العامة لندن).

التقارير والمراسلات بين وزارة الخارجية في لندن والقناصل البريطانية في القسطنطينية وفلسطين.

- Blesh to Lowther, April 1908, No 2 in F.O.195/2287.
- Lowther to Grey , 29 May, 1910, No , 20761, in F.O.371/1010.
- Reports to Lowther, 18 March 1908, No. 1252, in F.O.371/591.
- F.O 78/1389.
- F.O 78/2768.
- F.O. 371, 1010, from Lowther to Edward Grey, May 29, 1910.
- F.O. 371/9928 , Tel. No. 255, From Sir N. O'conor to Sir Edward Grey, 23 April 1906.
- F.O. 371/9928 , Tel. No. 255, From Sir N. O'conor to Sir Edward Grey, 23 April 1906.
- F.O.800/193A.
- Lowther to Grey , 19 Dec , 1908, No , 45087, in F.O.371/546.
- Reports and Correspondences between British Consuls in the Ottoman Empire and the British Embassy in Constantinople: No. F.O. 195.
- Reports and Correspondences between Foreign Office in London and British Embassy in Constantinople: No. F.O. 371.
- Reports and Correspondences between Foreign Office in London and British Consuls in Palestine and Constantinople: No. F.O. 78.
- Reports to Lowther, Dec 1907, No. 12052 in F.O.195/2276.

-الأرشيف الفدرالي السويسري. تقارير مستشار الدولة لوزارة العدل والشرطة.

-BAR. Film No. 86095, Direktion der Justiz & Polizei des Kantons Zurich, An die Schweizerische Bundesanwaltschaft in Bern, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.477, 22 December 1906.

- BAR. Film No. 86096, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/14250, No.156, 31 March 1900.

- BAR. Film No. 86096, Jungturm, Bundesarchiv- Bern, 18 May 1900.

ب- المخطوطات

1-مخطوط مجهول المؤلف: سلاطين آل عثمان، ج 23 الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، مصنفة تحت الرقم 10704، المكتبة الظاهرية، دمشق.

2- المصادر المطبوعة

أ-باللغة العربية

- 1- أبو عسل ايلي ليفي: يقظة العالم اليهودي ، ط1، مطابع النظام، القاهرة، 1943.
- 2-أتلخان جواد رفعت: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا الواعظ سليمان محمد أمين القابلي، الشركة الاسلامية للطباعة والنشر، كركوك، العراق، 1956.
- 3-أتلخان جواد رفعت: الخطر المحيط بالإسلام - الصهيونية وبروتوكولاتها، ترجمة وهبي عز الدين، دار وهبي عز الدين، بغداد، 1965.
- 4-أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية: ثورة العرب ضد الأتراك، ترجمة وتحقيق عصام شبارو، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- 5-أرمسترونج. ه. س: الذئب الأغبر مصطفى كمال، دار الهلال، القاهرة، 1952.
- 6-اسحق أديب: الدرر، نشر عوني اسحق، المطبعة الأدبية، بيروت، 1909.
- 7-أصاف بك يوسف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

- 8-الأعظمي أحمد عزت: القضية العربية:(أسبابها، مقدماتها، تطوراتها ونتائجها)، ج3، مطبعة الشعب، بغداد، 1934.
- 9-الأفغاني جمال الدين: العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1970.
- 10-أنطاكي عبد المسيح: نبل الأماني في الدستور العثماني، د.د.ن، القاهرة، 1908.
- 11-أنطونيوس جورج: يقظة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، مطبعة الترقى، دمشق، 1946.
- 12-أوغلي عائشة عثمان: والدي السلطان عبد الحميد، ترجمة صالح سعداوي، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1991.
- 13-باشا أحمد جمال: إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها ديوان الحرب العربي المتشكل بعالية، نشرها قائد الجيش الرابع، أستانبول، 1916.
- 14-باشا أحمد شفيق: مذكراتي في نصف قرن، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994.
- 15-البستاني سليمان: عبرة وذكرى الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، مطبعة الأخبار، القاهرة، 1908.
- 16-جلاد فليب: قاموس الادارة والقضاء، مجلد 2، مطبعة بني لاغوداكي، الاسكندرية، 1891.
- 17-حليم إبراهيم بك: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988.
- 18-الخازن فليب وفريد: المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من 1840-1910، ج1، مطبعة الصبر، لبنان، 1910.
- 19-الخطيب محب الدين: المؤتمر العربي الأول، اللجنة العليا لحزب اللامركزية، القاهرة، 1913.
- 20-.....: صلاح الدين القاسمي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1951.
- 21-الخوري بشارة: حقائق لبنانية، ج1، أوراق لبنان، بيروت، 1960.
- 21-داغر أسعد: ثورة العرب، مطبعة التقدم، القاهرة، 1916.
- 22-دروزة محمد عزة: تركيا الحديثة، مطبعة الكشف، بيروت، 1946.
- 23-.....: نشأة الحركة العربية الحديثة، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، 1971.
- 24-دي طرازي فليب: تاريخ الصحافة العربية، ج1، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913.
- 25-الرافعي عبد الرحمن: الجمعيات الوطنية، صحيفة من تاريخ النهضات القومية، ط1، مطبعة النهضة، القاهرة، 1922م.
- 26-الرسنه لي أحمد نيازي: خواطر نيازي أو صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني الكبير، تعريب ولي الدين يكن، مطبعة علي سكر أحمد، مصر، 1909.

- 27-زيادة نقولا: العروبة في ميزان القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1950.
- 28-زيدان جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، مطبعة الهلال، القاهرة، 1930.
- 29-.....: تاريخ الماسونية العام ونشأتها إلى اليوم، ط1، دار الجيل، بيروت، 1982.
- 30-ستودارد لوثر: حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض، ط4، ج4، دار الفكر، بيروت، 1973.
- 31-سركيس سليم: سر مملكة، ج1، مطبعة السلام، مصر، 1895.
- 32-سرهنك إسماعيل: تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988.
- 33-.....: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج1، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1895.
- 34-سعيد أمين: الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية في ربع قرن، ج1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1934.
- 35-السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية 1891-1908، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.
- 36-السويدي توفيق: مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969.
- 37-الشدياق سليم فارس: كنز الرغائب في منتخبات الجوانب، ج6، مطبعة الجوانب، استنبول، 1295هـ.
- 38-شكري علي أحمد: مذكرات جمال باشا، مكتبة الهلال، الفجالة، القاهرة، 1923.
- 39-شيخو لويس: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ط2، ج2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1969.
- 40-.....: السر المصون في شيعة الفرسمون، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1910.
- 41-صبري مصطفى: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، تقديم وتعريب مصطفى حلمي، ط1، دار الدعوة، الاسكندرية، 1985.
- 42-ضابط تركي سابق: الرجل الصنم كمال أتاتورك، تعريب عبد الله عبد الرحمن، جزآن، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.
- 43-طوران مصطفى: أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة، ط4، دار السلام للطباعة، بيروت، 1985.
- 44-.....: يهود الدوغة، ط2، ترجمة كمال خوجة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989.
- 45-عازوري نجيب: يقظة الأمة العربية، ترجمة وتحقيق أحمد بو ملح، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998.
- 46-العظم حقي: حقائق عن الانتخابات النيابية في سوريا وفلسطين والعراق، القاهرة، 1912.
- 47-العظم خالد: مذكرات خالد العظم، ج1، دار المتحدة للنشر، بيروت، 1973م.

- 48-العظم عثمان: مجموعة أثار رفيق العظم، عن مقدمة الكتاب بقلم رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، 1925م.
- 49-علي محمد كرد: خطط الشام، ج3، داد النوادر، دمشق، 1952.
- 50-العمرى محمد طاهر: تاريخ مقدرات العراق السياسية، المكتبة العصرية، بغداد، 1924-1925.
- 51-فريد بك محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقى، ط2، دار النفائس، بيروت، 1983.
- 52-فيضي سليمان: في غمرة النضال، دار القلم، بغداد، 1970.
- 53-قدري أحمد: مذكراتي عن الثورة العربية، مطابع ابن زيدون، دمشق، 1956.
- 54-كلشي حسن: الوجه الآخر للاتحاد والترقي، تقديم وترجمة محمد الأرناؤوط، قدسية للطباعة والنشر، إربد، 1990.
- 55-الكواكبي عبد الرحمن: أم القرى، المطبعة الخيرية في الأزهر، القاهرة، 1931.
- 56-.....: طبائع الاستبداد، دار النفائس، القاهرة، 1902.
- 57-كوثراني وجيه: الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860-1920، معهد الانماء العربي، بيروت، 1978.
- 58-ليب حسين: تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال، مصر، 1921م.
- 59-اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المؤتمر العربي الأول (18-23/6/1913)، مطبعة البوسفور، القاهرة، 1913.
- 60-مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة محمد حرب، دار الأنصار، القاهرة، 1978.
- 61-مراش فرنسيس: غاية الحق، د.د.ن، القاهرة، 1922.
- 62-مسعد بولس: لبنان والدستور العثماني، د.د.ن، القاهرة، 1909.
- 63-نسبية حازم زكي: القومية العربية، ترجمة عبد اللطيف شرارة، المكتبة الأهلية، بيروت، 1909.
- 64-نور رضا: حياتي وذكراي، ج 3، دار نشر التون داغ، استنبول، 1967.
- 65-هرتزل يوميات: تعريب هلدا صايغ، ط 1، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1968م.
- 66-يكن ولي الدين: المعلوم والمجهول مصر، ج1، مطبعة الشعب، 1909م.

ب-باللغة الأجنبية

1-Andrew W.P: Annuaire Diplomatique de l'Empire Ottoman, Constantinople, 1872.

- 2-AnTeJahn: Observations on the Manners and Custom of the Egyptians, London, 1800.
- 3-Ataturk Kamal: Um Soylev Ve Demecleri, Maarif Matbaasi, istanbul, 1945.
- 4-Assissinat de Midhat Pacha, Geneva, 1898.
- 5-Auleneau. J: La Turquie et la Guerre, Paris, 1915.
- 6-Bernard Marius: Turquie d'Europe et d'Asie De salonique a Jérusalem, Paris, 1899.
- 7-Berard Victor: La Mort de Stanbul. Considérations sur le gouvernement des Jeunes Turcs, Paris, 1913.
- 8- Cevat Rifat Atilhan: Islam Saran Tahlike ve Siyonizm ve proto kolar, istanbul, gum matbassi, 1955.
- 9- Contenson Ludovic: Les Reformes de Turquie d'Asie la Question - Arménienne et la Question Syrienne, Paris, 1913.
- 10-Edib Halide: Conflict of East & West in Turkey, India, 1935.
- 11-Edward.F.Knigh: the Awakeening of Turkey, London, 1909.
- 12-Emin Ahmed: Turkey in The World War, New Haven, Yale University Press, U.S.A, 1930.
- 13-Fesh Paul: Constantinople aus Derniers Jours D'Abdul Hamid, New York, Burt Frakin, 1971.
- 14-Ganem Khalil: Les Sultans Ottomans, Paris, 1902.
- 15-Garnegy A : My Log, Persian Gulf and TurikishArbian 1878.
- 16-Haje Khalefah: the History of the Maritime Wars of Turks, London, 1831.
- 17-Huart Geoffery Lewis: Histoire des Arabes, 2 tomes, Paris, 1912.
- 18-Kohn Hans: Nationalism and Imperialism in the Hither East, London, 1932.
- 19-Latour M Antoin: Voyage de S.A.R. Monseigneur le Duc de Montpensier à Tunis en Egypt, en Turquie et en Grèce, Paris, 1847.
- 20-Lord Eversley: The Turkish Empire, T. Fisher Unin, London, 1923.

- 21-Pinon Rene: L, Europe et les Jeunes Turcs, Paris, 1913.
- 22-Mandelstam André: LA Turquie, Paris, 1918.
- 23-Miller William: the ottoman empire, london, 1913.
- 24-Mohammed farid Bey: Etude Sur la Crise Ottamane Actuelle 1914-1915, Geneve, 1915.
- 25-Revue du Monde Musclem, 7^e année, Vol 25, Paris, 1913.
- 26-Seignobose Capit: Turcs Et Turquie, Paris, 1920.
- 27-Seton Watson: The Rise of Nationality in The Balkans, London, 1917.
- 28-Siyasi Hatiratim: Sultan Abdul Hamit, Dergah Yayınları, istanbul, 1987.
- 29-Volney: Voyage en Egypte et en Syrie, Paris, 1959.
- 30-Welles ted: Travels in Arabia 2 Vols, London, 1838.
- 31-Zohre Bilgegil: M kaya Bilgegi 'in Makaleleri, Ankara, 1931.

ج- المجلات والصحف:

- 1-أبو خاطر منير: الجنسية واللغة، المقتطف، ج4، م 43، أكتوبر 1913.
- 2-أرسلان نسيب: العرب عقولهم في عيونهم، المفيد، العدد 1429، 1913/11/20.
- 3-.....: النهضة الفكرية في سوريا، المؤيد، العدد 2952، السنة 24، 1913/4/5.
- 4-الأصيل ناجي: أي الحزبين أصلح للأمة والوطن الاتحادي أم الائتلافي، المفيد، العدد 1081، السنة 4، 1912/9/18.
- 5-الأهرام: طلاب الإصلاح في سوريا ولبنان وبلاد العرب يرفضون الوظائف، العدد 10652، 1913/3/15.
- 6-البشير: بيروت، العدد 1892، جانفي 1909.
- 7-الجندي عزت: المصلحون والمفسدون، الأهرام، العدد 10687، 1913/4/27.
- 8-.....: المصلحون والمفسدون، الأهرام، العدد 10687، 1913/4/29.
- 9-.....: إلى الامام إلى الامام، لا بد من تطبيق الاصلاح، الاهرام، العدد 10698، 1913/5/12.
- 10-الخطيب سيف الدين: كتاب مفتوح إلى محمد فوزي باشا العظم، المفيد، العدد 1299، 1913/6/9.
- 11-.....: خلاصة خطاب شكري العسلي، المؤيد، 1911/6/8.
- 12-الخوري فائز: مبحث خطير في اصلاح سوريا، الأهرام، العدد 10596، 1913/1/9.

- 13-دباس شارل: المؤتمر العربي السوري- الجلسة الثالثة، خطبة بعنوان "تاريخ النهضة الاصلاحية"، المؤيد، العدد 7027، 1913/7/5.
- 14-رضا محمد رشيد: الشيخ عبد الحميد الزهراوي: المنار، ج3، المجلد 19، 1916/8/29.
- 15-.....: آراء الخواص في المسألة العربية واستقلال الشريف في الحجاز، المنار، ج3، مجلد 19، 1916/8/29.
- 16-.....: إعادة مجد الاسلام، المنار: مجلد3، ج4، عام 1900.
- 17-.....: الاصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية، المنار، ج3، مجلد 17، 1914/2/25.
- 18-.....: الانقلاب العثماني الميمون، المنار، م12، ج6، 17 جويلية 1909.
- 19-.....: البرنامج السياسي لجمعية الاتحاد والترقي، المنار، م11، ج8، 25 أكتوبر 1908م.
- 20-.....: الترك والعرب، المنار: مجلد3، ج9، عام 1900.
- 21-.....: الجامعة الإسلامية، المنار، مجلد2، ج22، عام 1899.
- 22-.....: العرب والإسلام والترك الاتحاديين، المنار، مجلد 19، ج4، 1916/9/28.
- 23-.....: العرب والترك، المنار، م 12، ج12 جانفي 1910.
- 24-.....: العصبية الجنسية، وعاقبة قتل نابغى العرب، المنار، ج2، مجلد 19، 1916/7/15.
- 25-.....: المسألة العربية، المنار، ج1، مجلد20، 1917/7/30، ص 40-47.
- 26-.....: أمير الألاي صادق بك، مجلة المنار، م14، ج4، أبريل 1911.
- 27-.....: جماعة الدعوة والارشاد، المنار، لمجلد 14، ج4، 1911/3/30.
- 28-.....: دعوى الخلافة، المنار، مجلد6، ج24، عام 1903.
- 29-.....: صيحة حق، المنار: مجلد1، ج13، عام 1897.
- 30-.....: عبر الحرب البلقانية وخطر المسألة الشرقية- مقدمات الخذلان في الحرب، المؤيد، العدد 6857، السنة 1912/12/19.
- 31-.....: كتاب سري من السيد الزهراوي، المنار، ج3، مجلد 19، 1916/8/29.
- 32-.....: مستقبل الدولة والمصلحون من العرب، المنار، ج5، 1914/4/25.
- 33-زينية خليل: الإصلاح في البلاد العثمانية- المسألة السورية، الأهرام، العدد 10768، 1913/8/1.
- 34-.....: الصحيح وغير الصحيح، الأهرام، العدد 10775، 1913/8/9.
- 35-.....: حديث مع سفير الدولة العثمانية في باريس، الأهرام، العدد 10674، 1913/7/28.
- 36-.....: حول الاصلاح في سورية، الأهرام، العدد 10798، 1913/9/5.
- 37-.....: فرنسا وسورية وفرنسا والعثمانية، الأهرام، العدد 10774، 1913/8/8.
- 38-.....: مطالب الاصلاح بين الأستانة وباريس، الأهرام، العدد 10780، 1913/8/15.
- 39-شميل شبلي: أقلعوا الإشراف من بينهم، الأهرام، العدد 10668، 1913/4/5.

- 40-.....: الحاجة في الإصلاح إلى الرجال، الأهرام، العدد 10590، 1913/1/2.
- 41-.....: بيان لا بد منه، الأهرام، العدد 10650، 1913/3/13.
- 42-شميل شبلي: دعوة إلى التمزيق، الأهرام، العدد 10655، 1913/3/19.
- 43-.....: نحن وحكومتنا، الأهرام، العدد 10578، 1913/12/17.
- 44-الشهابي عارف: أين الوعود وأين العهود، فتى العرب، العدد 168-1902.
- 45-شيبوب فياض: بؤار الإصلاح في الدولة وخلوها من العثمانيين، الأهرام، العدد 1085، 1913/11/8.
- 46-الصفدي: الجامعتان العثمانية والعربية، فتى العرب، العدد 31-1465، 1914/1/19.
- 47-.....: الجامعتان العثمانية والعربية، فتى العرب، العدد 31-1465، 1914/1/19.
- 48-طبارة الشيخ أحمد: الإصلاحات في الولايات العربية، المؤيد، العدد 1012، السنة 24، 1913/6/17.
- 49-البيدي: لوتفاهما لاتفقا: مبدأ الجنسية، فتى العرب، العدد 60-1594، 1914/6/20.
- 50-عثماني حر: الأهرام، العدد 10686، 1913/4/26.
- 51-عثماني لامركزي: الولايات العربية بين المطالب والمناصب، الأهرام، العدد 10672، 1913/4/10.
- 52-عربي مسلم: إلى الأمام لا إلى الوراء، الأهرام، العدد 10683، 1913/4/22.
- 53-العريسي عبد الغني أفندي: المؤتمر العربي السوري- الجلسة الثانية: خطاب سكرتير المؤتمر عبد الغني أفندي العريسي، الأهرام، العدد 10744، 1913/7/4.
- 54-العريسي: افتتاح المؤتمر العربي الأول في باريس، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12.
- 55-.....: افتتاح المؤتمر العربي الأول في باريس، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12.
- 56-.....: الجامعة الوطنية، فتى العرب، العدد 35-1469، 1914/1/25.
- 57-.....: الشعب وبرقية الإصلاح، المفيد، العدد 1343، 1913/8/14.
- 58-.....: العهود والقيود، فتى العرب، العدد 188-1622، 1914/8/16.
- 59-.....: اللامركزية الادارية والمشكلة الأرمنية، المفيد، العدد 1299، 1913/6/9.
- 60-.....: اللامركزية الإدارية، المفيد، العدد 1302، 1913/6/12.
- 61-.....: حرب جنسية لا حرب انتقام، فتى العرب، العدد 186-1620، 1914/8/4.
- 62-.....: حقوق العرب في المملكة العثمانية، المؤيد، العدد 7026، 1913/7/3.
- 63-.....: لجنة المؤتمر العربي السوري: دعوة إلى أبناء الأمة العربية، المؤيد، العدد 6972، 1913/4/29.
- 64-.....: مميزات العرب والنضال من أجل حقوقهم، المفيد، العدد 876، 1912/1/8.
- 65-العسلي شكري: العرب وطنين، المقتبس، العدد 679، 1911/5/17.
- 66-.....: حياة العرب بالاتحاد مع الترك، المقتبس، العدد 113، 1909/5/1.
- 67-العظم حقي: السياسة الخرقاء ونتائجها، المقتبس، العدد 723، 1911/7/8.

- 68-.....: حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وفلسطين وسورية، المفيد، العدد 1050، 1912/8/10.
- 69-.....: عن المنتدى، المفيد، 1911/8/24.
- 70-العظم حقي: كيف يغيرون الحقائق، الأهرام، العدد 10700، 1913/5/14.
- 71-العظم رفيق: العرب والترك، الأهرام، العدد 9422، 1909/3/15.
- 72-.....: المجالس العمومية وماذا يطلب منها، المقتبس، العدد 44، 1909/2/9.
- 73-.....: تلغرافان من حزب اللامركزية إلى الصدر الأعظم وإلى بيروت احتجاجاً على عداء الوالي للإصلاح، المؤيد، العدد 6959، 1913/4/13.
- 74-.....: نحن والأمير شبيب، الأهرام، العدد 10760، 1913/7/23.
- 75-.....: نحن وأوروبا، المفيد، العدد 877، 1912/1/9.
- 76-عمون إسكندر: المؤتمر العربي السوري، الأهرام، العدد 10742، 1913/7/3.
- 77-الغلاييني: الإصلاح والجمعيات، النبراس، العدد 4، 1909/4/21.
- 78-مجلة الهدى: نيويورك، العدد 140، السنة 11، 6 أوت 1908.
- 79-.....: نيويورك، عدد 48، السنة 12، الأحد 18 أبريل 1909.
- 80-.....: نيويورك، العدد 141، السنة 11، الجمعة 7 أوت 1908.
- 81-المفيد: افتتاح المؤتمر العربي في باريس، العدد 1302، 1913/6/12.
- 82-المقتبس: دمشق، العدد 199، الأحد 12 ماي 1909.
- 83-.....: دمشق، العدد 13، السنة 1، الأربعاء 30 ديسمبر 1908.
- 84-المقتطف: الثورة العثمانية، مصر، ج 10، م 33، أكتوبر 1908.
- 85-.....: الثورة العثمانية، م 33، ج 10، القاهرة 11 أكتوبر 1908.
- 86-.....: الماسون في البلاد العثمانية، القاهرة، ج 2، م 36، فيفري 1910.
- 87-.....: المعارف في سورية، مجلد 7، ج 7، 1 فيفري عام 1883.
- 88-.....: المعارف في سورية، مجلد 7، ج 9، 1 أبريل عام 1883.
- 89-المقدس محمد روعي الخالدي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، المنار، م 11، ج 11، 24 ديسمبر 1908م.
- 90-النجار إبراهيم سليم: المسألة اللبنانية، الأهرام، العدد 10733، 1913/6/21.
- 91-.....: بعد الاتفاق وقبل الإصلاح، الأهرام، العدد 10756، 1913/7/18.
- 92-.....: نهضة البلاد السورية، والصحافة التركية، الأهرام، العدد 10595، 1913/1/8.
- 93-.....: الحركة الإصلاحية وأبناء العرب، الأهرام، العدد 10746، 1913/7/7.

94-نمر فارس: رسائل الأستانة، العناصر العثمانية - اتحادها وانشقاقها العرب والترك والأرمن، المقتطف: م35، ج4، نوفمبر عام 1909.

3 - المراجع

أ- باللغة العربية

- 1-أبو الشعر هند: بناء الدولة العربية الحديثة تجربة فيصل بن الحسين في سوريا والعراق 1918 - 1933م، منشورات جامعة آل البيت، عمان، 1999م.
- 2-أبو غنيمة زياد: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ط2، دار الفرقان، عمان، 1986.
- 3-أبو يصير صالح مسعود: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ط2، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1970.
- 4-أرسلان شكيب: سيرة ذاتية، دار الطليعة، بيروت، 1969.
- 5-أنيس محمد: الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914، دار الأنجو المصرية، القاهرة، 1963.
- 6-.....: الشرق العربي في التاريخ الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، 1967.
- 7-أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، ط1، دار الأنبار، العراق، 1987.
- 8-أوزتونا يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سلمان، ط1، ج 2، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1990.
- 9-أوغلي أكمل الدين إحسان وآخرون: العلاقات العربية التركية من منظور تركي، ج 2، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1993.
- 10-البحراوي محمد عبد اللطيف: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، ط 1، دار التراث، القاهرة، 1978م.
- 11-برو توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1960.
- 12-.....: القومية العربية في القرن التاسع عشر، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1965.
- 13-بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، ط 12، دار العلم للملايين، 1993.
- 14-البزاز عبد الرحمن: بحوث في القومية العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1962.
- 15-بني المرجة موفق: صحوة الرجل المريض، ط1، دار البيارق، بيروت، 1984.
- 16-بولاك: إسرائيل أمة وتاريخها، تعريب رسمي بيادسة، د.د.ن، تل أبيب، 1971 م.
- 17-بيهم محمد جميل: العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، د.د.ن، بيروت، 1957.
- 18-.....: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ج2، مطبعة الكشاف، بيروت، 1950.
- 19-التل عبد الله: الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1971.

- 20-.....: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ط2، مطابع دار القلم، القاهرة، 1965.
- 21- تمبرلي هارولد و أ.ج.جرانت: أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، تعريب محمد أبو درة و لويس اسكندر، ج2، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1978.
- 22-التونسي محمد خليفة: الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الخامس عشر، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- 23-توينبي: فلسطين جريمة و دفاع، ترجمة: عمر الداوي، دار العلم للملايين، بيروت، 1961م.
- 24-جريس صبري: تاريخ الصهيونية، ج 1، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، 1981م.
- 25-جفريز.ج.م.م: فلسطين إليكم الحقيقة، ترجمة أحمد خليل الحاج، مراجعة : محمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971م.
- 26-الجندي أنور: اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.
- 27-جيلان حسن: الصراع بين الإسلام والعلمانية، تعريب كمال خوجة، الطبعة الأولى، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، 1992م.
- 28-حاطوم نور الدين: المراحل التاريخية القومية العربية، دار الرائد، القاهرة، 1963.
- 29-حتي فليب: لبنان في التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة للطباعة، بيروت، 1959.
- 30-حرار السيد رجب: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970.
- 31-عمر محمد : يهود الدونمة، مؤسسة الدراسات التاريخية، الكويت، (ب- ت).
- 32-حرب محمد: السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار 1842-1918، ج2، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، 1995.
- 33-.....: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط2، دار القلم، دمشق، 1999.
- 34-حسون علي: تاريخ الدولة العثمانية، ط3، المكتب الاسلامي، بيروت، 1994.
- 35-حسين الرقب صالح: حاضر العالم الإسلامي والغزو الفكري، مكتبة الأمل التجارية، غزة، 2000م.
- 36-حسين محمد محمد: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ط4، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
- 37-الحصري ساطع: الأعمال القومية لساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985.
- 38-.....: البلاد العربية والدولة العثمانية، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1957.
- 39-الحكيم يوسف: سوريا والعهد العثماني، ج1، دار النهار، بيروت، 1964.
- 40-حلاق حسان: دور اليهود والقوي الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش 1908-1909، ط2، دار المحروسة، بيروت، 1993م.
- 41-.....: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، الدار الجامعة، بيروت، 1986.

- 42- حلمي مصطفى: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط1، دار الدعوة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1985.
- 43- حوراني ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، ط1، دار النهار، بيروت، 1968.
- 44- خالد مصطفى وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العلمية، بيروت، 1953.
- 45- خوري رؤوف: الفكر العربي الحديث، دار المكشوف، بيروت، 1943.
- 46- الخولي حسن صبري: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، ج 1، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، 1973.
- 47- الدسوقي محمد كمال: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1976.
- 48- دقاق باسيل: تركيا بين جبارين، ط1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1947.
- 49- الدهان سامي: عبد الرحمان الكواكبي، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- 50- الدوري عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984.
- 51- رافق عبد الكريم: العرب والعثمانيون 1516-1916، ط3، مكتبة أطلس، دمشق، 1993.
- 52- رامزور أنست: تركيا الفتاة والثورة 1908، ترجمة أحمد صالح العلي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1960.
- 53- رزق يونان لبيب: الحياة الحزبية في مصر (1907-1914)، دار الهلال، القاهرة، 1970.
- 54- رضوان فتحي: مصطفى كمال أتاتورك، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1983.
- 55- رفعت محمد: التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- 56- رنوفان بيير: تاريخ العلاقات الدولية، ج 1، دار المعارف، القاهرة، 1978-1980.
- 57- الروقي عايض بن خزام: حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني 1912-1913، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1996.
- 58- الزعبي محمد: الماسونية في العراق، دار الجليل، بيروت، 1983.
- 59-.....: الماسونية منشئة ملك إسرائيل، مؤسسة مطابع معتوق، بيروت، 1978.
- 60- زغروت محمد: دور يهود الدوغة في إسقاط الخلافة العثمانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1991.
- 61- زهر الدين صالح: اليهود في تركيا 500 عام، ط1، دار الصداقة للترجمة والنشر، حلب، 1999.
- 62- زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر، بيروت، 1971.
- 63-.....: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، ط3، دار النهار، بيروت، 1979.
- 64- السحمراني أسعد: الماسونية نشأتها وأهدافها، الطبعة الثالثة، دار النفائس، بيروت، 1992م.

- 65- السعيد سليمان أحمد: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، دار المعرفة، القاهرة، 1961.
- 66- سلطان علي: تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العالية، طرابلس، د-ت،
- 67- السلطان عبد العزيز محمد: الأسئلة والأجوبة الفقهية، ج3، ط11، الرياض، 1993م.
- 68- سنقرط داود عبد الغفور: القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية، ط1، دار الفرقان، عمان، 1983م.
- 69- سيد سيد محمد: دراسات في التاريخ العثماني، ط1، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1996.
- 70- السيد صالح سعد الدين: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، ط2، دار التابعين للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990م.
- 71- الشاذلي محمد ثابت: المسألة الشرقية، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989.
- 72- شاكر محمود: التاريخ الاسلامي، العهد العثماني، ط3، المكتب الاسلامي، بيروت، 1991.
- 73- شريف محمد بديع: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1959.
- 74- شعيب علي: كمال أتاتورك، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992.
- 75- شليبي أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي، ط1، ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1982.
- 76- الشناوي عبد العزيز: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ط2، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986.
- 77-.....: قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها، ج1، مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971.
- 78- شهاب الدين فتحي: كيف سقطت الخلافة الإسلامية، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، 1998.
- 79- الشهابي مصطفى: محاضرات عن القومية العربية: تاريخها وقوامها ومراميها، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959.
- 80- صابات خليل: تاريخ الطباعة في الشرق العربي، دار المعارف، القاهرة، 1965.
- 81- الصافوري مجدي عبد المجيد: سقوط الدولة العثمانية أثره على الدعوة الإسلامية، دار الصحوة، 1990.
- 82- الصايف أنيس: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، 1966.
- 83-.....: تطور المفهوم القومي عند العرب، دار الطليعة، بيروت، 1961.
- 84- الصلابي علي محمد: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2001.
- 85- الصلح عادل: سطور من الرسالة " تاريخ حركة استقلالية في المشرق العربي 1877"، دار الملايين، بيروت، 1966.
- 86- صليبا جميل: الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1958.
- 87- الطاهر أحمد حمدي: مؤامرات اليهود على العرب والمسلمين ط1، مطبعة شاهين، عمان، 1999.

- 88-الطباوي عبد اللطيف: نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سوريا، مجمع اللغة العربية، م42، ج4، دمشق، 1967.
- 89-طقوش محمد سهيل: العثمانيون من القيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة 1299-1924، ط1، دار المحروسة، بيروت، 1995.
- 90-عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، دار المعارف، القاهرة، 1969.
- 91-عبد القادر محمد الخير: نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة، 1985.
- 92-العزاوي قيس جواد: الدولة العثمانية (قراءة جديدة لعوامل الانحطاط)، مركز دراسات الاسلام والعالم، فلوريدا، د.ت.
- 93-علوش ناجي: الثوري العربي المعاصر: تطور الفكر القومي منذ بدء النهضة حتى نهاية الحرب الكبرى، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1960.
- 94-.....: مختارات قومية لمحمد عزة دروزة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.
- 95-عمارة محمد: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، 1979.
- 96-عمرو عبد الرؤوف أحمد: قناة السويس في العلاقات الدولية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.
- 97-عنان محمد عبد الله: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- 98-عودة عودة بطرس: القضية الفلسطينية في الواقع العربي، المؤسسة الفنية للطباعة والنشر، القاهرة، 1970م.
- 99-عويس عبد الحليم: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، الطبعة الثالثة، دار الشروق، جدة، 1983م.
- 100-غرابية عبد الكريم: سوريا في القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1962.
- 101-قاسمية خيرية: الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- 102-.....: النشاط الصهيوني في الشرق وصداه (1908-1918)، مركز الأبحاث، بيروت، 1973.
- 103-قطب محمد علي: يهود الدونمة، ط1، دار القلم، بيروت، 1987.
- 104-.....: واقعنا المعاصر، ط2، مؤسسة المدينة للطباعة والنشر، جدة، 1988.
- 105-قلعجي قدرى: الثورة العربية الكبرى 1916-1925، شركة المطبوعات للنشر، بيروت، 1993.
- 106-قمحاوي وليد: النكبة والبناء في الوطن العربي، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، 1960.
- 107-الكيالي سامي: الحركة الأدبية في حلب، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1957.
- 108-الكيالي سامي: صراع في سبيل القومية العربية، مطبعة الشرق، حلب، 1959.
- 109-كيرك جورج: موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الأسكندراني، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1957.
- 110-الكيلاي إسماعيل: فصل الدين عن الدولة، ط1، المكتب الاسلامي، بيروت، 1980.
- 111-لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني، ط7، دار الفارابي، 1980.

- 112-مانتران روبير: تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993.
- 113-المسيري عبد الوهاب: اليد الخفية دراسة في الحركات الهدامة والسرية، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1998.
- 114-المصري جميل عبد الله: حاضر العالم الاسلامي وقضايا المعاصرة، ج2، ط2، دار أم القرى، عمان، 1989.
- 115-مصطفى أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1998.
- 116-.....: مصر والمسألة المصرية من 1876 الى 1882: التدخل الأجنبي، الحركة الوطنية، الثورة العربية، دار المعارف، مصر، 1965.
- 117-مصطفى شاكرك: القصة في سوريا، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، 1958.
- 118-مصطفى نادية محمود وآخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي في العصر العثماني، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.
- 119- محمد صفى الدين أبو العز: العلاقات العربية التركية من منظور عربي، ج1، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 1991.
- 120-منسي محمود صالح: حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي، دار الفكر العربي، 1978.
- 121-موسى سليمان: الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1977.
- 122-موسى منير مشابك: الفكر العربي في العصر الحديث: سوريا في القرن الثامن عشر حتى العام 1918، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1973.
- 123-ناجي. س: المفسدون في الأرض... جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ، ط2، العربي للإعلان والنشر، دمشق، 1973.
- 124-النراوي فتحية: محمد نصر مهنا : قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1983.
- 125-النتشة رفيق شاكرك: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991.
- 126-نصور أديب: مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام 1850-1948، اشراف على تحريره فؤاد صروف ونبيه أمين فارس، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1967.
- 127-النعمي أحمد: اليهود والدولة العثمانية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998.
- 128-.....: يهود الدونمة دراسة في الأصول والعقائد المواقف، ط1، دار البشير، عمان، 1995.
- 129-نوار عبد العزيز: الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1991م.

- 130-نويهض عجاج: بروتوكولات حكماء صهيون، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1980.
- 131-نياز ملا محمد قريان: السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988.
- 132-هدى درويش: حقيقة يهود الدوغة في تركيا، وثائق جديدة، ط1، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 2003.
- 133-هلال رضا: السيف والهلل: تركيا من أتاتورك الى أريكان، الصراع بين المؤسسة العسكرية والاسلام السياسي، ج 10، دار الشروق، القاهرة 1999.
- 134-الهندي هاني: حول الصهيونية وإسرائيل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1971.
- 135-وتلن ألما: عبد الحميد ظل الله على الأرض، ترجمة راسم رشدي، دار النيل للنشر، القاهرة، 1950.
- 136-ياغي إسماعيل: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998.
- 137-يحي جلال: الثورة العربية، ج 1 من تاريخ القومية العربية، ط1، دار المعرفة، القاهرة، 1959.
- 138-.....: العالم العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1966.
- 139-يزبك يوسف إبراهيم: أوراق لبنانية، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1955.

ب. باللغة الأجنبية:

- 1-Aharon Cohen: Israel and the Arab World, Beacon Press, Boston, 1976.
- 2-Ahmed Feroz: The Young Turks, The committee of Union and progress in Turkish politics 1908-1914, Oxford, At the clarendon press 1969.
- 3-Ahmet Bedevi Kuran: Inkilap Hare Ketlerive Milli Mucadele Istanbul, Baha Matbaasi, 1956.
- 4-.....: Inkilap Tarihimisve Jon Turkler, Istanbul, Tan Matbaasi, 1945.
- 5-Ahmet Kabakli: Temellerin Durusmasi, 19. Baski, istanbul, 1993.
- 6-Altmur Kilic: Turkey and the World, Washington public Affairs press, D.C, 1989.
- 7-ArmajaniYahya: Middle East, past and present new jersey, 1970.
- 8-Blaisdell Donald.C: European Financial Control in the Ottoman Empire, Columbia University Press, New York, 1929.

- 9-Charles Swallow : The Sickman of Eurpe Ottoman Empire to Turkish Republic 1739-1923, London, Ernest Benn, 1973.
- 10-David Kushner: The Rise of Turkish Nationalism 1876-1908, London, Frank Cass, 1977.
- 11-Ed And Trans: Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, The Nizar name Misir of Ahmed Pasha, Cambridge, Massr, 1962.
- 12-Elie Kedourie: Arab Political Memories and other studies, London Frank Cass, 1974.
- 13-Enver ZiyaKaral: Osmanli Tarihi Islaht Fermani Devri 1861-1876, vol 7, Ankara, TarkTarih, Basimevi, 1988.
- 14-Erik.J.Zurcher: The Unionist Factor, The Role of the committee of union and progress in the Turkish National Movement 1905-1926, Leiden, E.J.brill, 1984.
- 15-Ezel Erverdi: Ve Baskalari Turk Milliyetciligive Batililasma, 2. Baski, Istanbul, 1979.
- 16-Français Georgeon:Turk Milliyetciliginin Koken Leri Ysuf Akcura 1876-1935 Geviren, Alev ER, Ankara, 1986.
- 17-Gabridi Francesco: The Arab Revival, London, 1961.
- 18-Garnier Jean- Paul: La Fin de L'Empire Ottoman, Plon, Paris, 1975.
- 19-Graves Philip: Memories of King Abdallah of Tranas Jordan, London, 1950.
- 20-Hawley Donald: the Turcial States, London, 1970.
- 21-Heller Jaseph: British Policy Towards the Ottoman empire 1908-1914, First Published Fankco's, London, 1983.
- 22-Heyd Urziel: Foundations of turkish nationalism, london, 1950.
- 23-Hourani Albert: Arabic Thought in the Liberal age, London, 1962.
- 24-Howard Hanny, N: The Partition of Turkey, Howard – Fertig, New York, 1966.
- 25-Hurewitz J.C: diplomacy in the middle east vol. 1.

- 26-Izzet Nurioglu, Yalcin Celikler: *Masonlukve Masonlar*, Istanbul, 1968.
- 27-Jacob Landau: *Pan Turkism M Turkey, A study of irredentism*, London, 1981.
- 28-Joan Haslip: *The Sultan - The Life of Abdul- Hamid II*, History Book Club, London, 1973.
- 29-Khalidi Rashid: *British Policy Towards syria & Palestine 1906-1914: A Study of the Antecedents of the Hussein-Mcmahon Correspondence, the Sykes-Picot Agreement & the Balfour Declaration*, London, 1980.
- 30-Khoury Philip: *Urban Notables & Arab Nationalism: the Politics of Damascus 1860-1920*, Cambridge, 1983.
- 31-Lewis Bernard: *Emergence of Modern Turkey*, University Press, Oxford, london, 1962.
- 32-.....: *the arabs in history*, University Press, Oxford, london, 1966.
- 33-longrigg Stephen Hemsley: *syria and lebanon under french mandate*, london, 1950.
- 34-Lord Kinross: *Ataturk ,The Rebirth of Nation*, Weidenfeld and Nicolson, London ,1971.
- 35-M. Sukru Hanioglu: *The Young Turks in Opposition*, Oxford University Press, London, 1995.
- 36-Mans Fields Peter: *the Ottoman Empire and itsSuccessors*, First Published, London, 1973.
- 37-Mantran Robert: *Histoire de la Turquie*, 2nd, ed. Press Universitaires de France, Paris, 1961.
- 38-Marlowe John: *Arab Nationalism and British Impérialism*, London, 1960.
- 39-Marriott Sir J.A.R: *The Eastern Qustion. An Historical Study In European Diplomacy*, Oxford, 1958.

- 40-Mete Tuncay Erik Zurcher: Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire 1879-1923, British Academic press, London, 1994.
- 41-Nyazi Berkes: Turquie de cagdaslasama, Istanbul Paylasilmasi icin analasmalar – paylas malar, 2 Baski, Ankara.
- 42-Prof.Dr.M.Kemal Oke. Hila Fethareketker: Guney Asya Miislumanlarinin istikial Davasi ve Turk Mili Mueadelesi, Ankara, 1991.
- 43-Ramsour Ernest: The Young Turks Prelude The Revolution of 1908, Khoyats, Beirut, 1956.
- 44-Robison Richard: The First Turkish Republic, U.S.A, 1963.
- 45-Saab Hassan: the Arab federalists of the ottoman Empire, Amesterdam, 1958.
- 46-Sanger Richard: the Arabian Peninsula, Puplished by Ayer Co Pub Ithaca, New York, 1954.
- 47-Serif Mardin: the Genesis of young Ottoman Thought astudy in the Modernization of Turkish Political Idea, Prin Ceton University Press, Princeton, New York, 1962.
- 48-Seydi Reis: Mir, at – ūlMemalik.Istanbul, 1313.
- 49-Sir Edwin Pears: Life of Abdul Hamid, Anew York Times Company, New York, 1974.
- 50-Somervell, D.C: Modern Europe (1871-1939), London, 1945
- 51-Stanford. J. Show: The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Repbulic, Mac Millan, London, 1991.
- 52-.....: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol 2, Cambridge University Press, 1977.
- 53-.....: Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, With Introduction and Notes, Cambridge, Mass, 1966.
- 54- Toynbee A: A Study of History, Vol 8, Oxford, 1955.
- 55-Vucinich Wayne: the ottoman empire its record and legacy, canada, 1965.
- 56-Yale William: The Near East: A Modern History, u.s.a, 1968.

- 57-Yilmaz Oztuna: Osmanli da Halifelik Kurumu Tarih ve Medeniyet, Say is Nayis, 1995.
- 58-Yussuf Hikmet Bayur: Turk inkilabi Tarih, c 3/4 1914-1918 Genel Savasi- Savasin Sonu, 2 Baski, Ankara, 1983.
- 59-Yusuf Akcura: uc Tarz-i Siyaset, Istanbul, 1995.
- 60-Zeine.N.Z: Arab Turkish Relations on the emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1968.

4 - الرسائل الجامعية

- 1-حسن محمد عوض: جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الاسلامي، الحديث (رسالة ماجستير) جامعة الاسكندرية، 1955.
- 2-الريماوي سهيلة: الحياة الحزبية في سوريا 1908-1920، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين الشمس، 1969.
- 3-الصاوي عزة عبد الرحمن: القومية في أدب ضياء كوك الب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1977.
- 4-عسكر إحسان: القومية العربية في الصحافة السورية (رسالة دكتوراه)، جامعة القاهرة. كلية الآداب، قسم الصحافة، 1970.
- 5-المنأوي سميرة وهبة: تركيا بين هدنة مدرّوس 1918 وإلغاء الخلافة 1924، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1992.

5 - الصحف والمجلات

أ. باللغة العربية:

- 1-الأفغاني سعيد: سبب خلع السلطان عبد الحميد- وثيقة بتوقيعه، العربي الكويت، العدد 169، ديسمبر 1972.
- 2-.....: كانت الصهيونية هي خالعة السلطان ومقوضه المملكة العثمانية، العدد 169، مجلة العربي ديسمبر 1972م.
- 3-الخزفي صالح: مذكرات محب الدين الخطيب، نشر مجلة الثقافة الجزائرية، العددان 8، 9، 1972.
- 4-الشريف حسين: مساهمة من الجزيرة العربية في الحركة القومية، الأهرام، العدد 36225، 1968/2/12.

- 5-العريس إبراهيم: تعيين عبد المجيد خليفة، فيما هرب وحيد الدين دون أن يتنازل، جريدة الحياة اللندنية، العدد 13403 بتاريخ 1999/11/8م.
- 6-الكاتب عبد الحميد: حكاية أتاتورك والاسلام، كتاب أخبار اليوم، العدد 344، مطابع دار أخبار اليوم، 1993.
- 7-حراز السيد رجب: الأزمة المالية في عهد الخدوي اسماعيل، أسبابها-تطوراتها-نتائجها، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد السابع والعشرون، عام 1965.
- 8-حرب محمد: مؤئيز كوهين يهودي عثماني من قادة الطورانية، مجلة العربي، العدد 281، ماي 1982.
- 9-عباس رؤوف: الفكر السياسي العروبي قبل الحرب الأولى، مجلة الفكر العربي، عدد سبتمبر 1982.
- 10-عبد الجواد جمال: شخصيات قومية - عزيز المصري، الأهرام، العدد 35987، 1985/6/20.
- 11-.....: عبد الحميد الزهراوي - الأمة العربية من الأقيانوس إلى بحر الهند، الأهرام، العدد 36064، 1985/9/4.
- 12-.....: فيصل بن الحسين: الدولة العربية الأولى في التاريخ الحديث، الأهرام، العدد 36246، 1986/3/5.
- 13- محمد حرب: يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد، مجلة العربي، الكويت، العدد 255، 1980.
- 14-مندل نيفل: مواقف العرب والأترك من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بين عامي 1882 - 1914، ترجمة مكّي حبيب المؤمن مجلة الدراسات الفلسطينية، بغداد، العدد 28، جانفي 1978.
- نور الدين محمد: شئون تركيا، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، العدد 11، بيروت، ربيع 1994م.

ب . باللغة الاجنبية

- 1-Aksin Sina Jon: Turk Tarihi Kongressi Kongreye Sunulan bildiriler, Ankara, cilt III, turk Tarihi Kurumu Basimevi, 1988.
- 2-Govsa Ibrahim Alaettin: Turk Meshur Lari Ansiklopedisi, Turk Ansiklopedisi 30 cilt , Istanbul 1989.
- 3-Guinet Vital: La Turquie d'asie, Geographic Administrative, Statistique, Descriptive et Raisonnee de chaque Provin cedel'asie Mineura 4 Tomes.
- 4-Hold, Rinehard and Winston, Inc, the Middle East to-day, u.s.a, 1963.

- 5-Islam Ansiklopedisi: Ioran maddeoi, Istanbul, 1988.
- 6-.....: Halife Maddesi, Istanbul, 1977.
- 7-Salahi Sonyel: Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire, Turkish Historical Society, parinting House, Ankara,1993.
- 8-The Asiatic Quarterly Review: Edited by Démétrius Boulger, Vol 1, January, Apr, London, 1886.
- 9-The Jewish Encyclopedia: vol 1, U.S.A, Ktay publishing House INC, 1990.

فهرس المحتوى

العنوان	الصفحة
- قائمة المختصرات	
- مقدمة	
الباب الأول: القومية العربية ودورها في تقويض الدولة العثمانية	
- الفصل الأول: عوامل نشأة القومية العربية	
1- الإصلاح العثماني وأثره.....	22-9
2- المؤسسات الثقافية العربية وأثرها.....	29-22
3- وسائل التوعية الثقافية والفكرية.....	39-30
- الفصل الثاني: مظاهر القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني	
1- دوافع ظهور القومية العربية.....	51-40
2- مظاهر القومية العربية في المهجر.....	61-52
3- الاتجاه القومي في التنظيم العربي السياسي.....	74-62
4- التنظيم القومي العربي في عهد الاتحاديين.....	83-74
- الفصل الثالث: تبلور التنظيم القومي العربي وأبعاده الانفصالية	
1- التنظيم العربي العلني.....	104-86
2- التنظيم العربي السري.....	119-104
3- مؤتمر باريس العربي.....	141-119
4- رغبة العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية.....	148-141
الباب الثاني: القومية التركية ودورها في تقويض الدولة العثمانية	
- الفصل الأول: ظهور ونشأة النزعة التركية	
1- نشوء فكرة القومية عند الاتراك العثمانيين.....	153-151
2- مراحل ظهور التيارات القومية التركية.....	154-153

3- الجمعيات والمؤسسات الداعية الى التتريك.....154-193

- الفصل الثاني: سياسة الاتحاد والترقي في الادارة والحكم

1- استيلاء الحزب على السلطة.....194-196

2- التناقضات الفكرية في سياسة الاتحاديين.....196-209

3- موقف الحكومة الاتحادية من المؤتمر باريس.....209-220

4- موقف العرب من اصلاحات الاتحاديين اتجاه مؤتمر باريس.....220-230

5- تأثير نظريات ضياء كوك ألب في رسم سياسة الاتحاد والترقي.....230-233

6- اثر اشتراك تركيا في الحرب العالمية الاولى.....233-235

- الفصل الثالث: تبلور الجمعيات الوطنية التركية وأثرها على انهيار الخلافة العثمانية

1- مصطفى كمال وحركة المقاومة الوطنية.....237-247

2- مسألة إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية العلمانية.....247-255

3- تداعيات سقوط الخلافة على تركيا والأقطار العربية.....256-259

4- ملامح الدولة التركية الحديثة.....259-266

الباب الثالث: الجماعات اليهودية ودورها في تقويض الدولة العثمانية.

- المفصل الأول: يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي

1- نشاط اليهود داخل الدولة العثمانية.....269-270

2- يهود الدونمة ونشاطهم داخل الدولة العثمانية.....270-274

3- اليهود والحركة الطورانية.....274-280

4- يهود الدونمة في جمعية الاتحاد والترقي.....280-281

5- مشاركة اليهود في مؤتمر باريس 4 فيفري 1902م.....281

6- العلاقة بين اليهود وجمعية الاتحاد والترقي.....282-284

- الفصل الثاني: الماسونيون في جمعية الاتحاد والترقي

1- الماسونيون في الدولة العثمانية.....285-287

2- المحافل الماسونية في الدولة العثمانية.....287-292

3-	مؤامرات الماسونية ضد السلطان عبد الحميد.....	292-294
4-	علاقة الماسونية بجمعية الاتحاد والترقي.....	294-299
- الفصل الثالث: الصهيونية وخلع السلطان عبد الحميد		
1-	سياسة السلطان عبد الحميد اتجاه الصهيونية.....	300-307
2-	دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني.....	307-332
- الفصل الرابع: الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد		
1-	انقلاب 1908م وإعادة العمل بالدستور.....	333-346
2-	حادثة 31 مارس وخلع السلطان عبد الحميد من العرش 1909م.....	346-365
- الخاتمة.....		
- الملاحق.....		
- فهرس المصادر والمراجع.....		
		399-421